تفسير سورة الفاتحة

مكية، وقيل: مدنية، ويقال: نزلت مرتين: بمكة، وبالمدينة، والأول أشبه. وهي سبع آيات بلا خلاف. وسميت أم الكتاب، والفاتحة، والسبع المثاني.

[فضل السورة]: عن أبي سعيد بن المعلى، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». ثم قال له: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [رواه البخاري].

الآية (١): ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وتستحب في أوّل كل عمل وقول، إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءةً أو وضوءًا أو صلاةً، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله، تبرُّكًا وتيَمُّنًا واستعانةً على الإتمام والتقبُّل.

﴿اللَّهِ﴾ عَلَمٌ على الرَّبّ تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ -٢٤]. وهو اسم لم يُسَمّ به غيره تبارك وتعالى. ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم. و﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ خاص به لم يُسَمّ به غيره؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وأما ﴿الرَّحِيمِ﴾ فإنه تعالى وصف به غيره، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

الآية (٢): قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصًا دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا. وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضِمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

و«الرب» هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم.

و﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض، في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالمًا أيضًا.

الآية (٣): قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠]، وقال: فالرب فيه ترهيب، و﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ترغيب. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنطَ من رحمته أحد» [رواه مسلم].

الآية (٤): تخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدّعي أحد هنالك شيئًا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه. وعن ابن عباس قال: (يوم الدين: يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ، إلا من عفا عنه). والمَلِك في الحقيقة هو الله عز وجل، أما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز. و﴿الدِّينِ﴾: الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

الآية (٥): العبادة في اللغة: من الذلة، يقال: طريق مُعَبّد، وبعير مُعَبّد، أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكُرّر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبه؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى.

وإنما قدّم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها.

الآية (٦): لما تقدم الثناء على المسؤول ناسب أن يعقّب بالسؤال، وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته؛ لأنه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل.

الهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، فتضمّن معنى: ألهِمنا، أو وفقنا، ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال ابن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أنه الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول.

الآية (٧): ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره،[و]هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، وهي طريقة اليهود، الذين فقدوا العمل. ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى الذين فقدوا العلم. ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. عن عدي بن حاتم، عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» [رواه الترمذي وصححه الألباني]. ويستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: (آمين)، ومعناه: اللهم استجب.

تفسير سورة البقرة

[جميعها مدنية بلا خلاف، وعدد آياتها ٢٨٦ آية].

[فضل السورة]: روى أبو هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» [رواه مسلم].

الآية (١): قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه. ومنهم من فسَّرها، واختلف هؤلاء في معناها: فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور. وقال مجاهد: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿صٓ﴾، فواتح افتتح الله بها القرآن. ولحظ بعضهم في هذا المقام كلامًا، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرًا، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. هذا مقام.

المقام الآخر: في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ماهي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها. قال جمعٌ من المحققين: إنما ذُكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. [قال ابن كثير]: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة.

الآية (٢): قال ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: هذا الكتاب. و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: القرآن. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والرّيب: الشك. ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب -وهو القرآن- لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومن القراء من يقف على قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى؛ للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن؛ وذلك أبلغ من كون ﴿فِيهِ هُدًى﴾.

وخُصّت الهداية للمتَّقين كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، وعن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. وقال قتادة: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. واختار ابن جرير: أن الآية تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال. ويطلق الهدى ويراد به ما يقرّ في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ويطلق ويراد به: بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

الآية (٣): ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عباس: يصدّقون. وقال الزهري: الإيمان: العمل. [قال ابن كثير]: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الانشقاق:٢٥]، فأما إذا استُعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عُبَيد وغير واحد إجماعًا: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. ومنهم من فسَّره بالخشية، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك:١٢].

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد. قال أبو العالية: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيبٌ كله.

وعن ابن عباس: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعني: مِنَ الله تعالى. وقال زيد بن أسلم: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بالقدَر.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم. قال الضحاك: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ مَنْ لَزِمَتْهُ نفقتُه، من أهلٍ أو عيالٍ وغيرهم، لأنّ الله عمّ وَصْفَهم ومَدْحَهُم بذلك، وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوحٌ به محمودٌ عليه. وكثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم.

الآية (٤): قال ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يصدّقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قَبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجْحدون ما جاؤوهم به من ربهم. ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: بالبعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان. وإنما سُميت الآخرة؛ لأنها بعد الدنيا.

الآية (٥): يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المتّصفون بما تقدّم، وما يستلزمه الإيقان بالدار الآخرة من الاستعداد لها بعمل الصالحات وترك المحرمات ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين.

فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجني.

الآية (٦): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: غَطّوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، أي: إن من كَتَب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِد له، ومن أضله فلا هادي له.

الآية (٧): قال السّدي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: طبع الله. وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر.

والغشاوة هي الغطاء.

الآية (٨- ٩): لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة، ثم عرَّف حال الكافرين؛ شَرَع تعالى في بيان حال المنافقين.

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي: وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي: وهو من أكبر الذنوب. ولهذا نبَّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترَّ بظاهر أمرِهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار؛ أن يُظن بأهل الفجور خَيْرٌ، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقولون ذلك قولًا ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا، ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم.

الآية (١٠): قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]. وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقرئ: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذَبَةً ويكذِّبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا.

الآية (١١-١٢): الفساد: هو الكفر، والعمل بالمعصية. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والرّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا. وهذا الذي قاله حسن.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا.

الآية (١٣): وإذا قيل للمنافقين: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون أصحابَ رسول الله ﷺ رضي الله عنهم. والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار.

وقد تولى الله جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

الآية (١٤- ١٥): يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا ومُصانَعة وتقية، وليَبشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ يعني: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ قال مجاهد: أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم. وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ الآية [الحديد:١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوّهم وتَمَرُّدهم. قوله: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رجْسَه، يترددون حيارى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا.

الآية (١٦): حاصل قول المفسرين: أن المنافقين عَدَلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون:٣]، أو أنهم استحبُّوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

الآية (١٧-١٨) تقرير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتِهم بعد التبصِرة إلى العمى؛ بمن استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأَنَّس بها، فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغَيّ على الرّشد. وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سُبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّۢ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْىٌ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، فلهذا ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

الآية (١٩-٢٠): وهذا مثلٌ آخر ضربه الله تعالى لضربٍ آخرَ من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارةً، ويشكّون تارةً أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾، والصيب: المطر، نزل ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في حال: ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ وهي الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإنّ مِن شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، و﴿وَبَرْقٌ﴾ هو ما يلمع في قلوب هؤلاء المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولا يُجْدِي عنهم حذرهم شيئًا؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته. ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ قال ابن عباس: أي لشدة ضوء الحق، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعْرِض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يُعطَى الناسُ النورَ بحسب إيمانهم، فمنهم من يُعطَى من النور ما يُضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك، وأقل من ذلك، ومنهم من يُطْفَأ نوره تارةً ويضيء له أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يُطفأ نوره بالكلّية، وهم الخُلَّص من المنافقين. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ لِما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذّر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر.

الآية (٢١-٢٢): شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عَبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعمَ الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم ﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، أي: مهدًا كالفراش مُقَرّرَة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، وهو السقف، و﴿وَأَنزَلَ﴾ لهم ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ -والمراد به السحاب ههنا- في وقته عند احتياجهم إليه ﴿فَأَخْرَجَ﴾ لهم ﴿بِهِۦ﴾ من أنواع الزروع والثمار ما هو مُشاهَد؛ ﴿رِزْقًا﴾ لهم ولأنعامهم. ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبَد وحده ولا يُشْرَك به غَيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، و﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وأن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا، وهو خلَقَك» [متفق عليه].

وعن ابن عباس قال: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل. وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وعلى وجود الصانع بطريق الأَولى؛ فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها، علم قدرة خالقها وحكمته وعِلْمَه وإتقانه وعظيم سلطانه.

الآية (٢٣-٢٤): ثم شرع تعالى في تقرير النبوة، فقال مخاطبًا الكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به، إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارِضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك. ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا. وهذه أيضا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مقدّمًا غير خائف ولا مُشفق أن هذا القرآن لا يُعارَض بمثله أبدًا، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارَض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنّى يَتأتّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟! وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومَن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصُّم الراسيات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوّق إلى دار السلام ومجاورة الرحمن، وإن جاءت الآيات في الأحكام اشتملت على الأمر بكل معروف والنهي عن كل قبيح.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا﴾ الوَقود: هو ما يُلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه، ﴿أُعِدَّتْ﴾ الأظهر أن الضمير عائدٌ إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عَودُه على الحجارة، ولا مُنافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان. و﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرصدت وحصلت ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله ورسوله. وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرصِدَت وهُيّئت.

الآية (٢٥): لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من العذاب والنكال، عَطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثاني» على أصح أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويُتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه، وحاصله: ذكر الشيء ومقابله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها وغُرفها. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ معناه: مثل الذي كان بالأمس، ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ يعني: في اللون والمرأى، وليس يشتبه في الطعم. وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة؛ فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمديٍّ أبديٍّ على الدوام.

الآية (٢٦-٢٧): معنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: أيّ مثل كان.

وقوله: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني: فيما وصفت. والثاني: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا اختيار ابن جرير.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قال قتادة: أي: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ كما قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر:٣١]، وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾. قال ابن مسعود وغيره: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: المنافقين ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني: المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم؛ لتكذيبهم بما علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾ يعني بالمثل ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانًا إلى إيمانهم؛ لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق ما ضربه الله له مثلًا وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة. فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكنَّ فِسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٥]. وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد، فقال بعضهم: هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه: هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بُعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك: هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلا. وهذا اختيار ابن جرير. وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمُثْله الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وهو حسن. وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ الآيتين [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] ونقضهم ذلك: تركهم الوفاء به.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وقيل: المراد أعمّ من ذلك؛ فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة. وهذا كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. وقال ابن جرير: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل المال في تجارته بأن يوضع من رأس المال في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كانوا إلى رحمته.

الآية (٢٨): يقول تعالى محتجًّا على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره؟! ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي: قد كنتم عدَمًا فأخرجكم إلى الوجود. وقال ابن عباس: أمواتًا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئًا حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم قال: وهي مثل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

الآية (٢٩): لما ذكر تعالى دلالةً مِنْ خَلْقهم وما يشاهدونه من أنفسهم، ذكر دليلًا آخر مما يشاهدونه مِنْ خَلْق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، والاستواء ههنا مُضَمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدّي بـ(إلى)، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي: فخلق السماء سبعًا. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعِلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤].

الآية (٣٠): يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]. وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، إذ لو كان كذلك لما حَسُن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صَلْصَال من حَمَإٍ مسنون، أو أنهم قاسوهم على من سبق. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا! ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أنّ منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نصلي لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلّا وقع الاقتصار علينا؟!

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال ابن جرير: التقديس: التعظيم والتطهير. فمعنى قول الملائكة إذًا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نُنَزِّهُكَ ونُبَرِّئُكَ مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف - على المفاسد التي ذكرتموها- ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء والصالحون والعُبّاد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم. قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة.

الآية (٣١-٣٣): هذا مقامٌ ذكَر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من عِلم أسماء كلّ شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، ليبين لهم شرف آدم بما فُضِّل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ عَلَّمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وصفاتها وأفعالها، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا! فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجَد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا» [رواه البخاري]. فدل هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يعني: المسميات ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئًا إلا ما علّمهم الله تعالى، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التام.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: فلما ظهر فضل آدم عليه السلام، على الملائكة عليهم السلام، في سَرْدِهِ ما علَّمه الله تعالى من أسماء الأشياء، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: أعلم الغيب الظاهر والخفي، فلا يخفى عَلَيَّ شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم.

الآية (٣٤): وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة منها: حديث موسى، عليه السلام: «رب، أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته»[متفق عليه]، ودخل إبليس في خطابهم؛ لأنه -وإن لم يكن من عُنْصرهم- إلا أنه كان قد تَشَبَّه بهم وتوسَّم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب، وذُمَّ في مخالفة الأمر. قال قتادة: فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية، ولكنه نُسخ في ملّتنا. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ قال قتادة: حسد عدوُّ الله إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ، وكان بدء الذنوب الكِبْر.

الآية (٣٥-٣٦): يقول الله تعالى -إخبارًا عما أكرم به آدم-: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء ﴿رَغَدًا﴾، أي: هنيئًا واسعًا طيبًا. وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. قال ابن جرير: إن الله جل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا عِلم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال عاصم بن بهدلة: فنحَّاهما عن الجنة. ويصح أن يكون عائداً إلى الشجرة، فيكون معنى ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: بسببها. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من اللباس والمنزل الرَّحب والرزق الهنيء والراحة. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾ أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

الآية (٣٧): قيل: إن هذه الكلمات مُفسَّرة بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، وهذا مِن لُطفه بخلقه ورحمته بعبيده.

الآية (٣٨-٣٩): يقول تعالى مُخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة -والمراد الذرية-: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

الآية (٤٠-٤١): يقول تعالى آمرًا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهَيّجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق. وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سِوَى ذلك؛ فَجَّر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجَّاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته: أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب. ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم.

وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: فاخْشَونِ. ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يعني به القرآن الذي أنزله على محمد النبي الأمي، مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم. وقال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ.

وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير. وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية. ومعنى قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: أنه تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافِهِ، ومخالفتهم الرسول ﷺ.

الآية (٤٢-٤٣): يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فنهاهم عن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به. وقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال مقاتل: أمرهم أن يُصلّوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي: يدفعونها إلى النبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخَصّ ذلك وأكمله الصلاة.

الآية (٤٤): يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير- أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قَصَّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فَتَنتَبِهُوا من رَقدتكم، وتَتَبَصَّرُوا من عمايتكم؟! وقال ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عَهْدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي. وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبر، بل على تركهم له.

الآية (٤٥-٤٦): يقول تعالى آمرًا عبيده، فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة. فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، وقيل: المراد بالصبر: الكف عن المعاصي. والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى الصلاة. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: مشقة ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: الخاضعين لطاعته، الخائفين سَطَوته، المصدقين بوعده ووعيده.

والآية وإن كانت خطابًا في سياق إنذار بني إسرائيل، إلا أنها عامة لهم ولغيرهم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾: أي: وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات.

الآية (٤٧): يذكّرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به على سائر الأمم من أهل زمانهم.

قال أبو العالية في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أُعطُوا من الملك والرُّسل والكتب على عالَـم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالمًا، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم.

الآية (٤٨): لما ذكّرهم تعالى بنِعَمِهِ أولًا؛ عطف على ذلك التحذير من حُلُول نِقَمِهِ بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يُغني أحدٌ عن أحد كما قال الله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يُقبل منها فداء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

الآية (٤٩-٥٠): يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ ﴿نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صُحبةَ موسى عليه السلام، وقد كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ وذلك أن فرعون أمر بقتل كل ذَكر يُولد من بني إسرائيل، وأن تُترَك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاقّ الأعمال وأراذلها.

و«فرعون» عَلَمٌ على كل مَنْ مَلَكَ مصر كافرًا، من العماليق وغيرهم، كما أن «قيصر» علَمٌ على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا، و«كسرى» لكل من مَلكَ الفُرس، و«تُبَّع» لمن ملك اليمن كافرًا. ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون ﴿بَلَآءٌ﴾ لكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف:١٦٨]. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى عليه السلام خَرَج فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، عن ابن عباس قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟». قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه [متفق عليه].

الآية (٥١-٥٣): يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لَـمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمَد المواعدة، وكانت أربعين يومًا، وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الآية (٥٤): هذه صفَةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف:١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أي إلى خالقكم. وفي قوله ههنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عِظَم جُرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

الآية (٥٥-٥٦): يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذْ سألتم رؤيتي جهرةً عيانًا، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: نار، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال السدي: ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون! فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. قال الربيع بن أنس: كان موتُهم عقوبة لهم، فبُعِثوا بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

الآية (٥٧): لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكّرهم -أيضًا- بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سُمّي بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظُلِّلوا به في التِّيه ليقيهم حرَّ الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ قال ابن عباس: كان المنّ ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا. وقال الربيع بن أنس: المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وعبارات المفسرين متقاربة في شرح المَنِّ، فمنهم من فسَّره بالطعام، ومنهم من فسَّره بالشراب. والظاهر -والله أعلم- أنه كل ما امتنَّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كدٌّ، فالمنُّ المشهور إنْ أُكِلَ وحده كان طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِجَ مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن رُكِّب مع غيره صار نوعًا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك ما رواه سعيد بن زيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «الكَمْأة من المَنّ، وماؤها شفاء للعين». [رواه البخاري]. ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ قال ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَانى، كانوا يأكلون منه. ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: أَمْر إباحةٍ وإرشاد وامتنان. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ:١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنُّتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، لم يسألوا خَرْقَ عادةٍ، ولا إيجادَ أمر، مع أن ذلك كان سهلًا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم. ولما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

الآية (٥٨-٥٩): يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة -التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل- وقتال من فيها من العمالِيق الكفَرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، والصحيح أن هذه البلدة هي بيت المقدس وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

قوله: ﴿سُجَّدًا﴾ أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: رُكَّعًا من باب صغير. وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾: قال ابن عباس: مغفرة، استغفِروا. وقال الحسن وقتادة: أي احطُطْ عنا خطايانا. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر: أنهم أُمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فبدَّلوا، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبة في شعرة» [رواه البخاري]. وعن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا مُقْنِعِي رؤوسهم، أي: رافِعِي رؤوسهم خلاف ما أُمروا. والحاصل أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدا، فدخلوا يزحفون على استاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولو: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرّجْز يعني به العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

الآية (٦٠): يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَر يُحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينًا، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبَعْتُه لكم بلا سعي منكم ولا كَدّ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسلَبُوها.

الآية (٦١): يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنَّ والسلوى، طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا سهلًا، واذكروا دَبَرَكُم وضجركم مما رزقتكم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتم. وقال الحسن البصري: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وفوم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ والبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف في معناه، فوقع في قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسَّره مجاهد والربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، وقال آخرون: الفوم: الحنطة، وهو البُر الذي يُعمل منه الخبز. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الفوم: الحنطة بلسان بني هاشم. وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع. وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ المراد مصر من الأمصار، كما روي عن ابن عباس وغيره، لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوي -مع دناءته وكثرته في الأمصار- أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه، لم يُجابوا إليه.

يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وُضعت عليهم وألزموا بها شَرْعًا وقدرًا، أي: لا يزالون مستذلين، مَنْ وجدَهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مُستكينون. قال الحسن: أذلهم الله فلا منَعَة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الآية وإنّ المجوس لتجبيهم الجزية. وقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله. وقال ابن جرير: يعني بقوله ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا. فمعنى الكلام إذًا: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به -من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم- بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع -وهم الأنبياء وأتباعهم- فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا. وفي الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس». ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَدّ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذُلّ الآخرة جزاء وفاقًا. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ هذه علة أخرى في مجازاتهم بما جُوزوا به: أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان: فعل المناهي، والاعتداء: المجاوزة في حد المأذون فيه أو المأمور به.

الآية (٦٢): لما بيّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكال -نبّه تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاءً الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كُلّ من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يتركونه ويُخلّفونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

واليهود: أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. واليهود: من الهَوادة وهي المودة، أو التهوُّد وهو التوبة؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: تُبْنَا، فكأنهم سُمُّوا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودّتهم في بعضهم لبعض. فلما بُعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسُمّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: «أنصار» أيضًا، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] وقيل: إنهم إنما سُمّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضًا يقال لها ناصرة، و«النصارى»: جمع نصران، كنَشاوَى: جمع نشوان. وسكارى: جمع سكران. ويقال للمرأة: نصرانة.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتمًا للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجَر. وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا، وسُمّيت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

وأما «الصابئون» فأظهر الأقوال أنهم: قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويَقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنْبِزون من أسلم بـ«الصَّابئ»، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

الآية (٦٣-٦٤): يقول تعالى مُذكّرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليُقِرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمَّةٍ وامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١].

و﴿ٱلطُّورَ﴾ هو الجبل. وقال الحسن في قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: يعني التوراة. وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بطاعة، بعملٍ ما فيه. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكَّد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

الآية (٦٥-٦٦): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حَلّ من البأس بأهل القرية التي عصَت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيَّلُوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشُّصُوص والحبائل والبِرَك قبل يوم السبت، فلما جاءت يومَ السبت على عادتها في الكثرة، نَشِبَتْ بتلك الحَبَائل والحِيَل، فلم تَخْلُص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة.

فكذلك أعمال هؤلاء وحيَلهم لما كانت مُشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ أذلة صاغرين ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ جعل الله هذه القرية - والمراد أهلها - بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَٰلًا﴾ أي: عاقبناهم عقوبةً، فجعلناها عبرةً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ من القرى ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال، في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيَّلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

الآية (٦٧): يقول تعالى: واذكروا -يا بني إسرائيل- نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو، بسببها وإحياء الله المقتولَ، وَنَصِّهِ على من قَتَله منهم.

الآية (٦٨-٦٩): أخبر تعالى عن تعنُّت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضَيَّقوا على أنفسهم ضَيَّق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت؛ لوقعت الموقعَ عنهم، كما جاء عن ابن عباس قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شدَّدوا فَشُدِّد عليهم. فـ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأي شيءٍ صفتها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا كبيرة هَرِمة ولا صغيرة لم يُلَقِّحْها الفحل، كما قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما. ﴿صَفْرَآءُ﴾ [أي: لونها أصفر][1]، ولهذا أكد صُفرتَها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: صافية اللون.

(١) هذه الجملة من كلام أحمد شاكر [عمدة التفسير: ١/ ١٢٥].

الآية (٧٠): ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾: لكثرتها، فميِّزْ لنا هذه البقرة وصِفْها وجَلِّها لنا. ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذا بيّنتَها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها.

الآية (٧١): ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: إنها ليست مُذلّلةً بالحراثة، ولا مُعَدّةً للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسناء صَبيحة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صحيحة لا عيب فيها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون غير لونها. ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بَيَّنْتَ لنا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: كادوا ألَّا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا ألا يذبحوها. يعني: أنَّهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنُّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إنْ أطْلَع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه. ثم اختار أن الصواب في ذلك: أنهم لم يكادوا [أن] يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب -والله أعلم- ما تقدّم عن ابن عباس على ما وجَّهناه.

الآية (٧٢-٧٣): ﴿فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا﴾ قال مجاهد: اختلفتم. وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختصمتم فيها. ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال مجاهد: ما تُغَيِّبُون. ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أيُّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، ولكن أبهَمَهُ، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نُبهمه كما أبهمه الله. ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: فضربوه فحيي.

ونَبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، فجعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلًا ما كان بينهم من الخصومة والعناد.

والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتى في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة:٥٦]، وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

الآية (٧٤): يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل، وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبدًا.

ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

عن ابن عباس: فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

تنبيه: اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: (أو) ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، وقال آخرون: (أو) ههنا بمعنى بل، فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة

الآية (٧٥-٧٦): يقول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يتأوّلونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجليّة ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟!

قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال ابن زيد: التوراة التي أنزلها الله عليهم يُحرّفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا، والباطل فيها حقًا؛ إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه مُحق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء؛ أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي: أنَّ صاحبكم رسول الله ﷺ، ولكنه إليكم خاصة.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟﴾: لا تحدّثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تُقِرُّون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أُخذ له الميثاق عليكم باتّباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا؛ اجحدوه ولا تُقرُّوا به.

الآية (٧٧): ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن كُفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنَّا.

الآية (٧٨-٧٩): ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن أهل الكتاب. قاله مجاهد. ﴿أُمِّيُّونَ﴾ الأميون: جمع أُمِّيٍّ، وهو: الرجل الذي لا يُحسن الكتابة، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ أنه أميٌّ؛ لأنه لم يكن يُحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ قال ابن عباس: قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وقال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذي أنزل الله على موسى- شيئًا، ولكنهم يَتَخَرَّصون الكذب ويتخَرَّصون الأباطيل كذبًا وزورًا. و«التَّمَنِّي» في هذا الموضع: هو تَخَلُّقُ الكذب وَتَخَرُّصه. وقال ابن عباس: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوّتك بالظن. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. و«الويل»: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وعن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: هم أحبار اليهود. وعن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدثُ أخبارِ الله، تقرؤونه محضًا لم يُشَبْ؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قَد بَدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أُنزل إليكم. [رواه البخاري]، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ويلٌ لهم مما أكلوا به من السحت.

الآية (٨٠): يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادَّعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودةً، ثم يَنْجُون منها، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهدٌ فهو لا يُخْلِف عهدَه. ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ﴿أَمْ﴾ التي بمعنى: بل، أي: بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الكذب والافتراء عليه.

الآية (٨١-٨٢): يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه مَن عمل سيئةً ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، وهو مَن وافَى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات - فهذا من أهل النار، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ -من العمل الموافق للشريعة- فهم من أهل الجنة.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٣، ١٢٤]. وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم ومُحَقَّرَاتِ الذنوب، فإنهن يَجْتَمِعن على الرجل حتى يُهْلِكْنَه» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي من آمن بما كفرتم، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدًا، لا انقطاع له.

الآية (٨٣): يذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولّوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدًا وعمدًا، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يُعبَد وحده لا شريك له، ثم بعده حقّ المخلوقين، وآكدُهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يَقرِن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [الإسراء:٢٣]. وعن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله! أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أيّ؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [متفق عليه].

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: كَلِّموهم طيِّبًا، ولِينُوا لهم جانبًا، قال الحسن البصري: فالحُسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حُسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حَسَن رضيَهُ الله. وناسَب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حُسنًا، بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، ثم أكّد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعيّن من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وأخبر أنهم تَوَلَّوا عن ذلك كلِّه، أي: تَركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عَمْدٍ بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، فقامت من ذلك بما لم تقُم به أُمَّةٌ من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة.

الآية (٨٤-٨٦): يقول الله مُنكِرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يُعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك: أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروبٌ كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نَشِبَتْ بينهم قاتَلَ كل فريق مع حلفائه، فيقتلُ اليهوديُّ أعداءَه، وقد يقتلُ اليهوديَّ الآخرَ من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابه. ويُخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها اسْتَفَكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملًا بحُكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضُكم بعضًا، ولا يُخرِجه من منزله، ولا يُظاهر عليه، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ والذي أرشدت إليه الآية الكريمة: ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم لها بالصحة، فلهذا لا يُؤْتَمَنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يُصدَّقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله ﷺ ونَعتِه، ومَبْعَثِه ومَخرَجِه، ومُهاجَره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أَخبَرت بها الأنبياء قبله، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاءً على ما كتموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: استحبُّوها على الآخرة واختاروها، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يُفَتَّر عنهم ساعةً واحدةً ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر يُنقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يُجيرهم منه.

الآية (٨٧): ينعَت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتوِّ والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتّبعون أهواءهم، فذَكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب -وهو التوراة- فحرّفوها وبدّلوها، وخالفوا أوامرها وأوَّلوها. وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة:٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السُّدي: أَتْبَعْنَا. وقال غيره: أَرْدَفْنا. والكل قريب؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤] حتى خَتَمَ أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات -وهي المعجزات- ما يدلُّهم على صِدْقه فيما جاءهم به. فاشتدَّ تكذيب بني إسرائيل له وحَسَدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض.

فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأَ المعاملة، ففريقًا يكذِّبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرَّفوا في مخالفتها، ولهذا كان يشقّ ذلك عليهم، فيكذِّبونهم، وربما قَتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ روح القدس هو جبريل، كما نصّ عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس مع قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

الآية (٨٨): عن ابن عباس: ﴿غُلْفٌ﴾ أي: في أَكِنَّةٍ. وقال السُّدي: يقولون: عليها غِلاف، وهو الغِطاء. وعن ابن أسلم، في قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ قال: يقول: قلبي في غِلاف فلا يَخْلُص إليه ما تقول، وقرأ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٥]. وهذا هو الذي رجَّحه ابن جرير، واستشهد [بحديث]: «القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أَغْلَفُ مَغْضُوبٌ عليه، وذاك قلب الكافر» [رواه ابن جرير مرفوعًا من حديث أبي سعيد الخدري، وقال ابن كثير: إسناده جيد حسن].

وعن ابن عباس قال: يقولون: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: مملوءة، لا نحتاج إلى علم محمد ولا غيره. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما ادّعوا، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٥٥].

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال بعضهم: فقليل من يُؤمن منهم. وقيل: فقليل إيمانُهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به مِن الذي جاءهم به محمد ﷺ.

الآية (٨٩): ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو: القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: من التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يَستنصِرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيُبعَثُ نبيٌّ في آخر الزمان نقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَم. عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلمَّا بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبِشر بن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلِموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال سلَّام بن مِشكَم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية [رواه ابن إسحاق بسند حسَّنه مؤلف كتاب المسبور من التفسير بالمأثور].

الآية (٩٠): قال السُّدي: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بئس ما اعْتاضُوا لأنفسهم ورَضوا به وعدَلوا إليه. وإنما حمَلَهم على ذلك البغيُ والحسد والكراهية لـ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبُه عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهي معهم، وغضبٌ بكفرِهم بهذا النبيّ الذي أَحْدَث الله إليهم.

ومعنى ﴿فَبَآءُو﴾ استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: لما كان كفرهم سببُهُ البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر - قُوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صُور الناس، يَعلُوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بُولَس فيَعلوهم نار الْأَنيار، يُسقَون من طِينة الخَبَال: عُصارةِ أهل النار» [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٩١-٩٢): يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: على محمد ﷺ، صدِّقوه واتبعوه ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أُنزل علينا من التوراة والإنجيل، ولا نُقِرّ إلا بذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أُنزل على محمد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمةٌ عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أُنزل إليكم، فلِمَ قَتَلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نَسْخِها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا على رُسُلِ الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتَشَهِّي، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]. وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد ليهود بني إسرائيل - [الذين] إذا قلتَ لهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾-: لم تَقتُلون - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أَنزل الله عليكم- أنبياءَه، وقد حرَّم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أَمَرَكم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وتعيير لهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبينات هي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمنّ والسلوى، والحجَر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: معبودًا من دون الله في زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ما ذَهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِمْ مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨]، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩].

الآية (٩٣): يُعدِّد، تبارك وتعالى، عليهم خطأَهم ومخالفتَهم للميثاق وعتوَّهم وإعراضَهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال قتادة: أُشربوا حُبَّه، حتى خَلَص ذلك إلى قلوبهم. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، مِن كُفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ، وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم، فكيف تدَّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، مِن نقضِكم المواثيق، وكُفرِكم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله؟!

الآية (٩٤-٩٦): عن ابن عباس: أي: ادْعُوا بالموت على أي الفريقين أكذَب. فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا، ولا مالًا» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وهذا الذي فسَّر به ابن عباس الآية هو المُتَعَيِّن، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب على وجه المباهلة. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾: أي: على طول عُمْر؛ لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودُّون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقعٌ بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم. وقال مجاهد: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حَبَّبَتْ إليهم الخطيئةُ طولَ العمر. وعن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: ما هو بمُنَحِّيْه من العذاب؛ وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: خبير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

الآية (٩٧-٩٨): قال ابن جرير: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذْ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم. ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله مَلَكِيّ. ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]، فحكم عليهم بالكفر المحقَّق؛ إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤]. ولهذا غضِبَ اللهُ لجبريل على مَن عاداه، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِنَ الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

ثم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ورُسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]. ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخَلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خُصّصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرَن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليُّهم، فأعلمَهم أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر؛ لأنه – أيضًا – ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل مُوكل بالنبات والقطْر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [رواه مسلم]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ فيه إعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة.

الآية (٩٩-١٠١): قال ابن جرير: أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نُبوّتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم وبدَّلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وَصَفَ، من غير تعلُّم تَعلَّمه مِن بَشَر ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي. كما قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوةً وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أُمّيٌّ لا تقرأ كتابًا، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وقال قتادة: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: نقضه فريق منهم. فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم اللهُ إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية. أي: طرَحَ طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلُّم السحر واتباعه.

الآية (١٠٢-١٠٣): عن ابن عباس قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال فأكفره جُهَّالُ الناس وسبوه، ووقف علماؤهم حتى أنزل الله على محمد ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسولَ محمدًا ﷺ- ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي: ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ وعدَّاه بـ(على)؛ لأنه ضَمَّن (تتلو) تكذّب. وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر. ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، وقصها خلقٌ من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الفتنة: هي المحنة والاختبار، وكذلك قولُه تعالى إخبارًا عن موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير مَن تعلَّم السحر، ويُستشهد له بالحديث: «من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». [رواه البزار وغيره، قال ابن كثير: بسند جيد].

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرِّقُون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخُلطة والائتلاف. وهذا من صنيع الشياطين. عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ، قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربُهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعتَ شيئًا. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقتُ بينه وبين أهله، قال: فيُقرِّبه ويُدنيه ويلتزمه، ويقول: نِعْمَ أنت» [رواه مسلم]. وسبب التفرق بين الزوجين بالسحر ما يُخَيَّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سُوء منظر، أو خَلْق أو نحو ذلك، أو عَقدٍ أو بَغْضةٍ أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفُرقة.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل لَـمَنْ فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق. قال ابن عباس: من نصيب. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾: ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسل، لو كان لهم علم بما وعِظُوا به. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص:٨٠]. وقد يَسْتَدِلّ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ مَنْ ذَهَب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكنّ حَدَّه ضَرْبُ عنقه، [فقد] كتب عمر بن الخطاب ﷺ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. [رواه البخاري]. وهكذا صحَّ أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقُتلت.

الآية (١٠٤-١٠٥): نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورِيَة لما يَقْصِدُونه من التَّنَقُّصِ -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يُورُّون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سَلَّموا إنما يقولون: السامُ عليكم. والسام: هو الموت. ولهذا أُمِرْنا أن نرد عليهم بـ«وعليكم». وأنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا. والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا. عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» [رواه أحمد وغيره، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفّار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تُشرع لنا ولا نُقرّ عليها. قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبِّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الآية (١٠٦-١٠٧): قال ابن عباس: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما نبدل من آية. وقال السدي: نسخُها: قبضُها. وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما ننقل من حُكْم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوَّل الحلالُ حرامًا، والحرام حلالًا، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: أما من قرأها: «نَنسأها» فمعناه: نؤخرها. قال ابن عباس: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: نثبت خطها ونبدل حكمها. وأما على قراءة: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقال قتادة: كان الله تعالى يُنسي نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء. وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين. وقال قتادة: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء؛ فله الخلق والأمر؛ فكما خلقهم كما يشاء، كذلك يَحْكُم في عباده بما يشاء، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً، كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا؛ قال ابن جرير: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانها دون غيري؟! أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

الآية (١٠٨): نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل تريدون... والمراد: أن الله ذمَّ من سأل الرسولَ ﷺ عن شَيء على وجه التعنُّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنُّتًا وتكذيبًا وعنادًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: من يَشْتَرِ الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها، على وجه التعنُّت والكفر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

الآية (١٠٩): يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ قال ابن عباس: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حَمَلهم على الجحود، فعيَّرهم ووبخهم ولامهم أشدَّ الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] قال ابن عباس: نسخَ ذلك قولُه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]، وقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، فَنَسَخَ هذا عفوَهُ عن المشركين. ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

الآية (١١٠): يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيرًا أو شرًا، فإنه سيجازي كل عامل بعمله، قال ابن جرير: وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً، وأمراً وزجراً، وذلك أنه أعْلَم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدُّوا في طاعته إذ كان ذلك مُدَّخراً لهم عنده، حتى يثيبهم عليه، وليحذروا معصيته.

الآية (١١١): يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على مِلّتها، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادَّعوها بلا دليل ولا حجة ولا بيّنة، فقال ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾. قال أبو العالية: أمانيُّ تمنوها على الله بغير حق. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد: حُجّتكم. وقال قتادة: بيّنتكم على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كما تدّعونه.

الآية (١١٢): ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُتّبعٌ فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة. فعمل الرهبان ومن شابههم -وإنْ فُرض أنهم مخلصون فيه لله- فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول محمد ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة.

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ضَمِنَ لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: فـ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ للموت.

الآية (١١٣): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. قال مجاهد: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل كلٌّ منهما قد كانت مشروعةً في وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد بالفاسد.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يُبيِّن بهذا جهلَ اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يَجُور فيه ولا يَظْلِم مثقال ذرة.

الآية (١١٤): اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين: أحدهما: عن ابن عباس ومجاهد: هم النصارى؛ كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه. والثاني: عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة، حتى نَحَر هديه بذي طُوَى وهادنهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هذا خبرٌ معناه الطلب، أي: لا تُمكِّنوا هؤلاء -إذا قَدَرْتم عليهم- من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فكما صَدُّوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدُّوا عنه، وكما أَجْلَوهُم من مكة أُجْلُوا عنها وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفًا، يخاف أن يُؤخَذ فيُعاقب أو يُقتل إن لم يُسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد. ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حُرمة البيت، وامتهنوه.

الآية (١١٥): وهذا فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أُخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلّاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكةَ إلى بيت المقدس، والكعبةُ بين يديه. فلما قدم المدينة وُجِّه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، ثم صَرَفه الله إلى الكعبة بعدُ، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وقيل: نزلت إذنًا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجَّه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة وشدة الخوف. فعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجَّهت به راحلته. ويَذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك [رواه مسلم]. وقيل: نزلت في قوم عُمِّيتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شَطرها، فصلَّوا على أنحاء مختلفة. قال ابن جرير: ويُحتمل: فأينما تُولُّوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم. قال ابن جرير: ويعني قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

الآية (١١٦-١١٧): اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي قبلها على الرد على النصارى، وكذا مَن أشبَهَهُم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذَب اللهُ جميعَهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولدًا، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تعالى وتقدّس وتنزَّه عن ذلك علوًا كبيرًا: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومُقَدِّرهم ومُسخّرهم، ومُسيّرهم ومُصرّفهم كما يشاء، والجميع عبيدٌ له ومُلكٌ له، فكيف يكون له ولدٌ منهم؟! والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مُشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟! ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعيٌّ وقَدريّ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد:١٥]. ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على غير مثال سبق، وقال ابن جرير: مُبْدِعُهُمَا. ومعنى البديع: الـمُنشِئ وَالْـمُحْدِثُ ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد. ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّر أمرًا وأراد كونه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ أي: مرة واحدة ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فيوجد على وفق ما أراد. ونَبَّه تعالى بذلك أيضًا على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

الآية (١١٨): [سبب النزول] عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾. وحكى القرطبي: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لو يخاطبنا بنبوتك يا محمد. قال ابن كثير: وظاهر السياق أعم، والله أعلم. قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قالوا: هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وغير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوِّهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به. وقال مجاهد: النصارى تقوله. وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفي ذلك نظر.

وقوله: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبهت قلوبُ مشركي العرب قلوبَ مَنْ تقدمهم في الكفر والعناد والعتوّ كما قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وَضَّحْنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدّق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى.

الآية (١١٩): ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقُرئ «ولا تَسْأَل» بفتح التاء، أي: لا تسأل عن حالهم.

الآية (١٢٠- ١٢١): قال ابن جرير: وليست اليهود - يا محمد- ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدَعْ طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبِل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما عَلِموا من القرآن والسنة، عياذًا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمّته. قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وروي عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرّم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئًا على غير تأويله. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خَبَر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزّلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته -آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة: ٦٦].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار» [رواه مسلم].

الآية (١٢٢-١٢٣): قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرَتْ ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفتَه في كتبهم ونعتَه واسمه وأمره وأمّته. يحذّرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه، والحَيدة عن موافقته ﷺ.

الآية (١٢٤): يقول تعالى مُنبّهاً على شرف إبراهيم، وأن الله جعله إماماً للناس يُقتدَى به في التوحيد: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: واذكر -يا محمد- لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلّفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن. وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواهٍ. ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: جزاءً على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإمامًا يُقتدَى به ويُحتذَى حَذوُه. قوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إمامًا، سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته، فأُجيب إلى ذلك، وأُخبِر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يُقتدى بهم. وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقال ابن عباس: يخبره أنه كائن في ذريته ظالمٌ لا ينال عهده، ولا ينبغي أن يوليه شيئًا من أمره وإن كان من ذرية خليله، ومُحسن ستنفُذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته.

الآية (١٢٥): مضمون ما فسَّر به الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا، من كونه مثابةً للناس، أي: جعله مَحَلًّا تشتاق إليه الأرواح وتحنُّ إليه، ولا تقضي منه وطرًا، ولو تردّدَت إليه كلَّ عام، استجابةً من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٧-٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله أمنًا، من دخله أمِن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا. وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وقال سعيد بن جبير: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. عن جابر قال: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمَل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نَفذَ إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين». [رواه مسلم]. وعن ابن عمر قال: «قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعًا، وصلى خلف المقام ركعتين» [رواه البخاري]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم، عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة. قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ قال الحسن البصري: أمرَهُما الله أن يُطهّراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: إن ذلك من الأوثان والرّيب وقول الزور والرجس. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ الطواف بالبيت معروف ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾: المقيمين فيه. وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾: فقال ابن عباس: إذا كان مصليًا فهو من الرُّكَّع السجود.

الآية (١٢٦): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حَرَّم بيت الله وآمَنَهُ». [رواه مسلم]. وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي: من الخوف، لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: قال أُبي بن كعب: هو قول الله تعالى. وهو الذي صوَّبه ابن جرير. وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ثم أُلجِئُه -بعد متاعه في الدنيا وبَسْطِنا عليه من ظلها- إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله يُنْظِرُهم ويُمْهلهُم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

الآية (١٢٧): القواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل البيت، ورفْعَهما القواعدَ منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله أن يتقبل منهما.

الآية (١٢٨): قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال السدي: يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يَعُمُّ العرب وغيرَهم؛ لأنَّ من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

[قال ابن كثير]: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي مَن عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ الآية، والمراد بذلك محمَّد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صُلبه من يعبد الله وحده لا شريك له.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: قال عطاء: أخرِجها لنا، وعَلِّمْنَاها.

الآية (١٢٩): يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم، أي: من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا.

والمراد أن أول من نوَّه بذكره وشَهَره في الناس إبراهيم عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني طاعة الله والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق: يعلّمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتّقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته، ويجتنبوا ما يُسخطه من معصيته. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يُعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

الآية (١٣٠-١٣٢): يقول تبارك وتعالى رَدًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جَرَّد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يَدْعُ معه غيرَه، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرّأ من أبيه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، ولهذا وأمثاله قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسَفَهِهِ وسوء تدبيره بتركِه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد، مِن حَداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء - فترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرقَ الضلالة والغَيّ، فأيُّ سفه أعظم من هذا؟! أم أيُّ ظلم أكبر من هذا؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]. وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٧-٦٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا. وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصى بهذه الملّة وهي الإسلام لله؛ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: أحسِنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه؛ فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويُبعث على ما مات عليه.

الآية (١٣٣): يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمّه.

وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئًا غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

الآية (١٣٤): قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضَت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعهُ عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها، ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

الآية (١٣٥): [سبب النزول]: روى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تَهْتَدِ. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾. وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: مستقيمًا. وقال مجاهد: مخلصًا.

الآية (١٣٦): أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلًا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونصَّ على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ الآية [النساء:١٥٠، ١٥١]. عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبْرَانيَّة ويُفَسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكَذّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية» [رواه البخاري].

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، والأخرى بـ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل.

الآية (١٣٧): يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرّقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأُرشدوا إليه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويُظْفِرُك بهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نُعيم قال: أرسل إليَّ بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليُصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فقال نافع: بَصُرَت عيني بالدم على هذه الآية.

الآية (١٣٨): وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: دين الله. وانتصاب ﴿صِبْغَةَ﴾: إما على الإغراء كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] أي: الزموا ذلك، عليكموه. وقال بعضهم: بدلًا من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٢٢].

الآية (١٣٩): يقول الله تعالى مرشدًا نبيَّه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَٰٓجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي: أتُناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له؟! ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون، وأنتم برآء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠]. وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة:٢٥٨]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون، أي: في العبادة والتوجُّه.

الآية (١٤٠): ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومَنْ ذُكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧] الآية والتي بعدها.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين الإسلامُ، وإن محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهِد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله؛ فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك. وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: تهديد ووعيد شديد، أي: علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.

الآية (١٤١): ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بُعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين، ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

الآية (١٤٢): قيل: المراد بالسفهاء ههنا: مشركو العرب، وقيل: أحبار يهود، وقيل: المنافقون، والآية عامة في هؤلاء كلهم.

[سبب النزول] عن البراء رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها، صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قِبَل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [متفق عليه].

وحاصِلُ الأمر: أنه قد كان رسول الله ﷺ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبلٌ صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجُّه إلى بيت المقدس، فاستمرَّ الأمرُ على ذلك بضعة عَشَرَ شهرًا، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أنْ يُوَجَّه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم، عليه السلام، فأُجيبَ إلى ذلك، وأُمر بالتوجُّه إلى البيت العتيق، فخطب رسولُ الله ﷺ الناس، وأعلمهم بذلك. ولما وقع هذا حصل لبعض الناس- من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود - ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثمَّ وجه الله، و﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهَنا توجَّهْنَا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجَّهَنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخُدَّامُه، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمّتِه عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية (١٤٣): يقول تعالى: إنما حَوّلناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خِيَار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههنا: الخيار والأجوَد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجُّه أولًا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة، ليظهر حالُ من يَتَّبعك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجهتَ ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعلة، وهو صرف التَّوجُّه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا في النفوس ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسُول ﷺ، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحقّ الذي لا مِرْيَة فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلَهُ أن يكلّف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمرٌ أحدَث لهم شكًّا، كما يحصلُ للذين آمنوا إيقان وتصديق.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، لا يضيع ثوابها عند الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. في الصحيح: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السَّبي قد فرّق بينها وبين ولدها، فلما وجدته ضمّته إليها وألقمته ثَديها. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدَها في النار وهي تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها» [رواه البخاري ومسلم].

الآية (١٤٤): قال ابن عباس: كان أوَّل ما نُسخَ من القرآن القبلة، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ لما هاجرَ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضْعَةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾: أمَرَ تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ولا يستثنى من هذا شَيء، سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قَالبهُ، وقَلْبُه نحو الكعبة. وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئًا في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: واليهودُ - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس- يعلمون أن الله تعالى سَيُوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصَّه الله تعالى به وشَرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حَسَدًا وكفرًا وعنادًا؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

الآية (١٤٥): يخبر تعالى عن كُفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم متمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وما كان متوجهًا إلى بيت المقدس؛ لأنها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى. ثم حذَّر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم [تكون] الحجة عليه أقوَم من غيره؛ ولهذا قال مخاطبًا للرسول ﷺ -والمراد الأمة-: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

الآية (١٤٦-١٤٧): يخبر تعالى أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون صِحّة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدُهم ولدَه، والعربُ كانت تضرب المثلَ في صحة الشيء بهذا. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبَّت تعالى نبيه والمؤمنين، وأخبرَهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مِرْية فيه ولا شكّ، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

الآية (١٤٨): قال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهَدَاكم -أنتم أيتها الأمة- إلى القبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد وعطاء نحو هذا.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٤٨]. وقال ههنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: هو قادر على جَمْعِكُم من الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

الآية (١٤٩-١٥٠): هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجُّه إلى الكعبة، فإذا فَقَدُوا ذلك مِن صفتها ربما احتجّوا بها على المسلمين، أو لئلا يحتجّوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجُّه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعني: مشركي قُريش. وَوَجَّهَ بعضُهم حُجَّة الظَّلَمَةِ -وهي داحضة- أنْ قالوا: إن هذا الرجل يزعمُ أنه على دين إبراهيم: فإن كان تَوَجُّهُه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلِمَ رَجَع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجُّهَ إلى بيت المقدس أوّلًا لِما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربَّه تعالى في ذلك، ثم صَرَفه إلى قبلة إبراهيم -وهي الكعبة- فامتثل أمْر الله في ذلك أيضًا، فهو -صلوات الله وسلامُه عليه- مطيع لله في جميع أحواله، لا يَخرج عن أمر الله طَرْفَةَ عينٍ، وأُمَّتُهُ تَبَع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ أي: لا تخشوا شُبَهَ الظَّلَمَةِ المتعنِّتين، وأفْرِدُوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه. وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ عَطْف على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: ولِأُتِمَّ نعمتي عليكم فيما شرعته لكم من استقبال الكعبة، لِتَكْمُلَ لكم الشريعة من جميع وجوهها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ضَلّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخَصصْناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرفَ الأمم وأفضلها.

الآية (١٥١-١٥٢): يُذَكِّرُ تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبيِّنات ويُزَكِّيهم، أي: يطهِّرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويُعلِّمهم الكتاب -وهو القرآن- والحكمة -وهي السنة- ويعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَّهُون بالقول الفِرَى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمْنِ سِفَارَتِه، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس عِلمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلهم تكلّفًا، وأصدَقهم لهجةً. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٦٤]؛ وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]. قال ابن عباس: يعني محمدًا ﷺ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يقول: كما فعلتُ فاذكروني. وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أَذْكُرْكم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي. ولهذا نَدَب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾. [عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال: ملأ خير منهم - وإن دنوتَ مني شبرًا دنوتُ منك ذراعًا، وإن دنوتَ مني ذراعًا دنوتُ منك باعًا، وإن أتيتني تمشي أتيتك أُهَرْوِل» [أخرجه البخاري]. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعده على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]. وعن أبي رجاء العطاردي قال: خرَج علينا عمران بن حصين وعليه مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ لم نرَه عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَن أنعَم الله عليه نعمة؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (١٥٣): لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إمّا أن يكون في نعمة فَيَشْكُر عليها، أو في نقمة فيَصبِر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجبًا للمؤمن! لا يَقْضِي الله له قَضاءً إلا كان خيرًا له: إن أصابته سراء فَشَكَرَ، كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصَبَرَ كان خيرًا له» [رواه مسلم]. وبيَّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تَحَمّل المصائب: الصَّبْر والصلاة، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. وفي الحديث: «أنّ رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَه أمرٌ صلى» [رواه أحمد، وحسنه الألباني]. والصبر صبران: فصبرٌ على ترك المحارم والمآثم، وصبرٌ على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنه المقصود.

الآية (١٥٤): يُخبر تعالى أنّ الشهداء في بَرْزَخِهم أحياء يُرزقون، كما جاء [في الحديث]: «إن أرواح الشهداء في حَواصِل طيور خُضْر تَسرَح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل مُعَلَّقة تحت العرش» [رواه مسلم]. وعن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ المؤمن طائر تَعْلَقُ في شجر الجنة، حتى يُرجعه الله إلى جسده يوم يَبعَثه» [رواه أحمد، وصححه الألباني]. ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا، وإن كان الشهداء قد خصِّصُوا بالذكر في القرآن، تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيمًا.

الآية (١٥٥-١٥٧): أَخْبَرَ تعالى أنه يَبتَلي عباده، أي: يختبرهم ويَمتَحِنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] فتارةً بالسرّاء، وتارةً بالضرّاء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢] فإن الجائع والخائف كلٌّ منهما يَظهَرُ ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال ههنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أي: ذهاب بعضها، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صَبَرَ أثابه، ومن قَنِطَ أحلَّ به عِقابه. ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ثم بيَّنَ تعالى مَنِ الصابرون الذين شَكَرهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: تسلَّوا بقولهم هذا عمَّا أصابهم، وعلموا أنَّهم مُلْك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يَضيع لديه مِثْقال ذرَّة يوم القيامة، فأحَدَث لهم ذلك اعترافَهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أَخبَرَ تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء من الله عليهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾. قال سعيد بن جبير: أي أَمَنَةٌ من العذاب. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، وكذلك هؤلاء، أُعطوا ثوابهم وزِيْدُوا أيضًا. وقد وَرَد في ثواب الاسترجاع، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ عند المصائب - أحاديث كثيرة. فمن ذلك: عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولًا سُرِرْتُ به. قال: «لا يُصِيب أحدًا من المسلمين مصيبةٌ فيَسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أْجُرْنِي في مصيبتي، وأَخْلِف لي خيرًا منها، إلا فُعِل ذلك به» قالت أم سلمة: فحفظتُ ذلك منه، فلمَّا توفي أبو سلمة استرجعت وقلتُ: اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منه، فلمَّا انقضت عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ، فخطبني إلى نفسي [رواه مسلم].

الآية (١٥٨): [سبب النزول] عن عاصم بن سُليمان قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة؟ قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [رواه البخاري]. و[عن] جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما فَرَغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: «أَبدأُ بما بدأ الله به» [رواه مسلم]. وعن حبيبة بنت أبي تَجْرَاة، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: «اسعَوا، فإن الله كَتَب عليكم السعي» [رواه أحمد، وصححه الألباني]. وقد استُدِلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركنٌ في الحج، وقيل واجب، وليس بركن، وقيل بل مستحب والقول الأول أرجح، لأنه ﷺ طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عني مناسككم» [رواه مسلم]. فكل ما فَعَله في حَجَّته تلك واجب لابد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل. ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مما شَرَع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وأصل ذلك مأخوذ من طواف هاجَر وتَرْدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لَـمَّا نَفِدَ ماؤُها وزادُها، حين تركها إبراهيم عليه السلام هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونَفِدَ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تَرَدَّدُ في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متَذَلِّلة خائفة وجِلَة مضطرّةً فقيرةً إلى الله عز وجل، حتى كَشَف الله كُرْبَتها، وآنَسَ غُرْبَتها، وفرَّج شِدَّتها، وأَنْبَع لها زمزم.

الآية (١٥٩-١٦٢): هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرُّسُلُ من الدلالات البيِّنة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بيَّنه الله لعباده في كتبه، التي أنزلها على رُسُله. ثم أَخبَرَ أنهم يلعنهم كلّ شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العَالِم يَستَغفِر له كلّ شيء، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. عن أبي هريرة وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سُئِل عن عِلْم فكَتَمه، أُلْجِمَ يوم القيامة بِلِجَام من نار» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. [وعنه رضي الله عنه]: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحدًا شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [رواه مسلم]. وقد جاء في الحديث: «إن العالم يَستَغفِرُ له كل شيء حتى الحيتان في البحر» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]. و﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ هم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال أو الحال، أو لو كان له عقل، أو يوم القيامة. ثم استثنى الله تعالى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رَجَعوا عما كانوا فيه وأَصلَحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا كَتَموه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة، إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. ثم أَخبَرَ تعالى عمن كَفَر به واستمرّ به الحالُ إلى مماته بأنْ: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة البالغة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحِبة لهم في نار جهنم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فيها، أي: لا يَنْقُص عمَّا هم فيه، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُغَيَّر عنهم ساعة واحدة، ولا يُفتَّر، بل هو متواصِل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

الآية (١٦٣): يُخبِرُ تعالى عن تَفَرُّدِه بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عَديل له، بل هو الأحد الفرد الصمد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الآية (١٦٤): ثم ذكر [تعالى] الدليل على تفرُّده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذَرَأ وبَرَأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في انخفاضها وجبالها وبحارها وقِفَارها وَوِهَادها وعُمْرانها وما فيها من المنافع، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يَذهب، ويَخلفه الآخر ويَعقُبه، لا يَتأخَّر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] وتارةً يَطُوْل هذا ويَقْصُر هذا، وتارةً يأخذ هذا من هذا ثم يَتَقَارَضَانِ، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ الآيات [يس:٣٣-٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: تارةً تأتي بالرحمة وتارةً تأتي بالعذاب، تارةً تأتي مبشرةً بين يدي السحاب، وتارةً تَسُوقُه، وتارةً تُجَمِّعُه، وتارةً تُفَرِّقُه، وتارةً تُصَرِّفُه، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُسَخَّر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يُصَرِّفُه تعالى. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دَلالات بيِّنة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآيتان] [آل عمران:١٩٠، ١٩١].

الآية (١٦٥-١٦٧): يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالًا ونُظَراء يعبدونهم معه ويحبونهم كَحُبِّهِ، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضِدَّ له ولا نِدَّ له، ولا شريك معه. عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلَقَك» [متفق عليه]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه.

ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلَبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفَظِيعِ الْـمُنْكَرِ الهائل على شِرْكِهم وكفرهم، لَانْتَهَوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ تبرّأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١]. والجن أيضًا تتبرَّأ منهم، ويتنصَّلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢]. وقوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله، وتقطَّعت بهم الحِيَلُ وأسباب الخلاص ولم يَجِدُوا عن النار مَعْدِلًا ولا مَصْرِفًا. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عَوْدة إلى الدار الدنيا حتى نَتَبَرَّأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحِّدُ الله وحده بالعبادة! وهم كاذبون في هذا، بل لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الآية [إبراهيم:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية [النور:٣٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

الآية (١٦٨-١٦٩): لـمَّا بيَّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه الْـمُسْتَقِلُّ بالخلق، شَرَع يُبيِّن أنه الرازق لجميع خلقه، فذَكَر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضارّ للأبدان ولا للعقول. ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البَحَائِر والسَّوَائب والوَصَائِل ونحوها مما زَيَّنَه لهم في جاهليتهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قال قتادة والسدي: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: تنفير عنه وتحذير منه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يأمركم عدوّكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها: الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك: وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا.

الآية (١٧٠-١٧١): ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، ﴿قَالُوا﴾ في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أي: وَجَدْنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي: الذين يَقتَدون بهم ويَقتفون أَثَرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فَهْمٌ ولا هدايةٌ. ثم ضَرَب لهم تعالى مثلًا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل:٦٠]، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فيما هم فيه من الغيّ والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تَفْقَهُ ما يُقال لها، بل إذا نَعَقَ بها رَاعِيها - أي: دعاها إلى ما يُرشِدُها- لا تَفْقَهُ ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. وقيل: إنما هذا مثل ضُرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تُبصر ولا تَعقل شيئًا، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تُبصره، ولا بَطْش لها ولا حياة فيها.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي: صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يتَفَوَّهون بـه، عُمْيٌ عن رؤيـة طريقـه ومسـلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلـون شيئًا ولا يفهمونه.

الآية (١٧٢-١٧٣): يقول تعالى آمرًا عبادَه المؤمنين بالأكل من طَيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عَبِيدَهُ، والأكل من الحلال سَبَبٌ لتقبّل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبولَ الدعاء والعبادة، كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أَمَر المؤمنين بما أَمَر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثم ذَكَر الرجل يُطِيلُ السفر أَشْعَث أَغْبَر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حرام، ومَشرَبُه حرام، ومَلبَسُه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يُسْتَجاب لذلك؟!» [رواه مسلم]. ولما امتنَّ تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل مِن طَيِّبِه، ذَكَر أنه لم يُحَرّم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حَتْف أنفها من غير تَذْكِيَةٍ، وسواءً كانت مُنخنقةً أو موقوذةً أو مُتَرَدِّيةً أو نَطِيحةً، أو قد عدا عليها السَّبُعُ. وكذلك حَرَّم عليهم لحم الخنزير، سواءً ذُكِّي أو مات حَتْف أنفه، ويدخُلُ شَحْمُه في حكم لحمه، وحَرَّم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذُبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية يَنحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فَقْدِ غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بَغْي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال قتادة: غير بَاغٍ في الميتة، أي: في أَكْلِه: أن يَتَعَدَّى حلالًا إلى حرام، وهو يَجِدُ عنه مَنْدُوحَةً.

الآية (١٧٤-١٧٦): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما يَشْهَد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تَذهَب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتُّحَف على تعظيمهم إياهم، فخَشُوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يَتَّبعه الناس ويتركوهم، فكَتَموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعْتَاضُوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النَّزْر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا: فإن الله أَظهَر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نَصَبَه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصَدَّقه الذين كانوا يَخَافون أن يَتَّبِعُوه، وصاروا عونًا له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمَّهم الله في كتابه في غير موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عَرَض الحياة الدنيا، ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كِتمان الحق نارًا تَأَجَّجُ في بطونهم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنَّهم كَتَموا وقد عَلِموا، فاستحقُّوا الغضب، فلا يَنْظُر إليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُثْنِي عليهم ويَمْدَحُهم، بل يُعذِّبُهم عذابًا أليمًا. ثم قال تعالى مُخبرًا عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: اعْتَاضُوا عن الهدى، وهو نَشْر ما في كتبهم من صفة الرسول وذِكْر مَبعَثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتِّبَاعه وتصديقه - استبدلوا عن ذلك واعْتَاضُوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم، ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: اعْتَاضُوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: يُخبر تعالى أنَّهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجَّبُ مَن رآهم فيها مِن صَبرهم على ذلك، من شدة ما هم فيه من العذاب والنَّكال والأغلال، عياذًا بالله من ذلك. وقيل: أي فما أَدْوَمهم لعمل المعاصي التي تُفضِي بهم إلى النار. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: إنما استحقُّوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كُتُبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوًا، فكتابهم بأمرهم بإظهار العلم ونَشْرِه، فخالفوه وكذَّبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يُكَذِّبُونه ويُخالفونه ويَجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقُّوا العذاب والنكال.

الآية (١٧٧): اشتملت هذه الآية الكريمة، على جُمَل عظيمة، وقواعدَ عميقَة، وعقيدة مستقيمة. فإن الله تعالى لـمَّا أَمَر المؤمنين أوَّلًا بالتَّوَجُّه إلى بيت المقدس، ثم حَوَّلهم إلى الكعبة، شَقَّ ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأَنزَل الله تعالى بيانَ حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره، والتَّوَجُّه حيثما وَجَّهَ، واتباع ما شَرَع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التَّوَجُّه إلى جهة من المشرق إلى المغرب برٌّ ولا طاعةٌ، إن لم يكن عن أَمْرِ الله وشَرْعه. فمن اتَّصف بهذه الآية، فقد دَخَل في عُرَى الإسلام كلها، وأَخَذَ بمجامع الخير كلِّه، وهو الإيمان بالله، وصدَّق بوجود الملائكة الذين هُم سَفَرَةٌ بين الله ورسله، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ يشمل الكُتُب المنزَّلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمَت بأشرفها، وهو القرآن، وآمن بأنبياء الله كلِّهم. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: أَخْرَجَه، وهو مُحِبٌّ له، راغبٌ فيه. كما في حديث أبي هُرَيرة مرفوعًا: «أفضل الصَّدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى، وتَخْشَى الفقر» [متفق عليه]. وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان:٨]. وقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] نَمَطٌ آخرُ أَرْفَع من هذا، وهو: أنهم آثَرُوا بما هم مضطرُّون إليه، وهؤلاء أعطَوا وأَطعَموا ما هم مُحِبُّون له. وقوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أَولى الناس بكَ وَبِرِّكَ وإعطائكَ. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هم: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضُعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسُّب. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم: الذين لا يَجدون ما يكفيهم في قوتهم وكِسْوَتهم وسُكناهم، فيُعطَون ما تُسَدُّ به حاجتهم وَخَلَّتُهُمْ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه» ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو: المسافر الـمُجتاز الذي قد فَرَغَت نَفَقَتُه فيُعْطَى ما يُوصِلُه إلى بلده، وكذا الذي يُريد سفرًا في طاعة، فيُعْطَى ما يَكفِيه في ذَهَابه وإيابه. ويَدخل في ذلك الضَّيف، كما قال ابن عباس: ابن السبيل هو الضيف الذي يَنْزِلُ بالمسلمين. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ وهم: الذين يَتَعَرَّضُون للطَّلَب فيُعْطَون من الزكوات والصدقات. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وهم: الْـمُكَاتَبُون الذين لا يَجِدُون ما يؤدُّونه في كِتابتهم. وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: وَأَتَـمَّ أفعالَ الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخُشوعها، على الوجه الشَّرعي الْـمَرْضِيِّ. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُحْتَمَلُ أن يكون المراد به: زكاة النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]. ويُحتمل أن يكون المرادُ زكاة المال، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التَّطوع والبرُّ والصلة. وقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾؛ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] وعَكْس هذه الصفة: النفاق. كما صح الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في ساحة القتال والْتِقَاء الأعداء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ الذين اتَّصفُوا بهذه الصفات هم الذين صَدَقوا في إيمانهم؛ لأنهم حقَّقوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

الآية (١٧٨-١٧٩): يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ العدلُ في القِصاص -أيُّها المؤمنون- حُرُّكم بِحُرِّكم، وعَبْدُكم بعَبْدِكم، وأُنْثَاكم بأُنْثَاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيَّروا حكم الله فيهم، فأَمَر الله بالعدل في القصاص، و[أن] لا يُتَّبَع سبيل المفسدين المحرِّفين، المخالِفين لأحكام الله فيهم، كفرًا وبغيًا. ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾: قال ابن عباس: أن يَقبل الدية في العمد. ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال ابن عباس: يُؤَدِّي المطلوب بإحسان. ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ إنما شَرَع لكم أخذَ الدِّيَة في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمةً بكم، مما كان محتومًا على الأمم قبلكم، من القتل أو العفو، عن ابن عباس قال: كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن قَتَل بعد أَخْذ الدية أو قبولها، فَلَه عذاب من الله أليم مُوجع شديد. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وفي شَرْع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمة عظيمة، وهي بقاء الـمُهَج وصَوْنُها؛ لأنه إذا عَلِم القاتلُ أنه يُقْتَل انكفَّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياةُ النفوس. وفي الكتب المتقدمة: القتلُ أَنْفَى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أَفْصَح وأبلغ وأَوْجَز: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

﴿يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يا أولي العقول والأفهام والنُّهَى، لعلكم تَنْزَجِرُون فتتركون محارم الله وَمَآثِمَه، و«التقوى»: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

الآية (١٨٠-١٨١): اشتملت هذه الآية على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجبًا -على أصح القولين- قبل نزول آية المواريث، فلما نَزَلت آية الفرائض نُسخت هذه، وصارت المواريث المقدَّرة فريضة من الله، يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منّة الموصي، عن عَمْرو بن خارجة مرفوعًا: «إن الله قد أَعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيةَ لوارث» [رواه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالًا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قَلَّ المال أو كَثُر كالوراثة، ومنهم من قال: إنما يُوصِي إذا تَرَك مالًا جزيلًا. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالرِّفق والإحسان، يُوصي لأقربِيه وَصيَّةً لا تُجْحِفُ بورثته، من غير إسرافٍ ولا تَقتير كما ثبت في الصحيحين أن سعدا قال: يا رسول الله، إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ فمن بدَّل الوصية وحَرَّفها، فغيَّرَ حُكمها وزاد فيها أو نَقَص -ويَدخُل في ذلك الكِتمان لها بطريق الأَوْلى- ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، وقد وَقَع أَجْر الميت على الله، وتعلَّق الإثم بالذين بَدَّلُوا ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: قد اطَّلَع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدَّله الْـمُوصَى إليهم.

الآية (١٨٢): ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قال ابن عباس وغيره: الجَنَف: الخطأ. وهذا يَشمَل أنواع الخطأ كلَّها، بأن زاد وارثًا بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيءَ الفُلانيّ محاباةً، أو أوصى لابن ابنته ليزيدَها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئًا غير عامد، بل بطبعه وقُوّة شفقته من غير تَبَصُّرٍ، أو متعمدًا آثمًا في ذلك، فللوَصِيِّ -والحالةُ هذه- أن يُصْلِحَ القضيةَ، ويُعَدِّلَ في الوصية على الوجه الشرعي. ويَعدِلَ عن الذي أَوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبَه الأمور به، جمعًا بين مقصود الموصِي والطريق الشَّرعي. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء.

الآية (١٨٣-١٨٤): يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وآمِرًا لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع، بنيَّةٍ خالصة لله عز وجل، لِما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرَّذيلة. وذَكَر أنه كما أَوجَبه عليهم فقد أَوجَبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». ثم بَيّن مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لِئلا يشقَّ على النفوس فتضعُف عن حَمْله وأدائه، بل في أيام معدودات.

ثم بيَّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لِما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بِعِدَّة ذلك من أيام أُخَر. وأما الصحيح المقيم الذي يُطِيق الصيام، فقد كان مُخيَّرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أَفْطَر، وأَطعَم عن كل يوم مسكينًا، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، عن سَلَمة بن الأكوع قال: كان من أراد أن يُفْطِر يَفتَدِي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها [رواه البخاري]. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال عبد الله [بن مسعود]: يَتَجَشَّمُونه. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ يقول: أَطْعَمَ مسكينًا آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيُطعمان مكان كل يوم مسكينًا [رواه البخاري]. فحاصل الأمر: أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وأما الشيخ الفاني الهَرِم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يُفْطر ولا قضاءَ عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكَّن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه [خفف] عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني -وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء-: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم. ومما يلتحِق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما.

الآية (١٨٥): يمدح تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه... [فـ]القرآن نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ثم نَزَل بعدُ مفرَّقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدًى لقلوب العباد ممن آمن به وصدَّقه واتَّبعه ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ودلائل وحُجَجًا بيِّنةً واضحةً جليةً لمن فَهِمَها وتدبَّرها دالةً على صحة ما جاء به من الهدى النافي للضلال، والرَّشَد المخالف للغَي، ومفرِّقًا بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا إيجاب حَتْم على من شَهِد استهلال الشهر -أي كان مقيمًا في البلد حين دَخَل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه- أن يصوم لا محالة. ونَسَخت هذه الآيةُ الإباحة المتقدِّمة لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يُفطِر ويفدِي بإطعام مسكين عن كل يوم. ولما حتَّم الصيام أعاد ذِكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ من كان به مرض في بدنه يَشُقّ عليه الصيام معه، أو يؤذيه، أو كان في حال سفر -فله أن يُفطِر، فإذا أَفطَر فعليه عدة ما أَفْطَرَه في السفر من الأيام. وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية: [الأولى]: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والصحيح قول الجمهور، أن الأمر في ذلك على التخيير، وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان. قال: «فمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم» [رواه مسلم]. فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان في مثل هذه الحالة صائمًا، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة.

[الثانية]: القضاء، لا يجب [فيه] التتابع، بل إن شاء فرق، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر.؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: إنما أرْخَص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليُسر، وإنما أَمَركم بالقضاء لتُكمِلوا عدَّة شهركم. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:٢٠٠].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده.

الآية (١٨٦): عن أبي موسى [قال: قال رسول الله ﷺ]: «يا أيها الناس، ارْبعُوا على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا؛ إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته» [متفق عليه]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يَضِيْع لديه تعالى. وفي ذِكْره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، مُتَخَلِّلَةً بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العِدّة، بل وعندَ كلّ فطر.

الآية (١٨٧): هذه رُخْصة من الله تعالى للمسلمين، ورَفْعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة. «والرفث» هنا هو: الجماع. قاله ابن عباس. وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: قال ابن عباس: يعني هن سَكَنٌ لكم، وأنتم سكن لهن. وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله: أنّ الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُباسه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّص لهم في المجامعة في ليل رمضانَ، لئلا يشقّ ذلك عليهم، ويحرجوا. [سبب النزول] عن البراء ﷺ قال: «لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَبُون النساء رَمَضَان كُلّه، وكان رجَالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، وغيرهم: يعني الولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: الجماع. وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع، في أيّ الليل شاء الصائمُ، إلى أن يتبين ضياءُ الصباح من سواد الليل، وعبَّر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾. وفي إباحته تعالى جوازَ الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غُرُوب الشمس حكمًا شرعيًا، كما جاء عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا، فقد أفطر الصائم» [متفق عليه].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلًا أو نهارًا حتى يقضي اعتكافه. ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه، من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما مُعاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذا الذي بيَّناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبَحْنا فيه وما حرَّمنا، وذِكْرنا غاياته ورُخَصه وعزائمه، ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: أي: شرعها الله وبيَّنها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها، وتعتدوها. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَعْرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون.

الآية (١٨٨): قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثمٌ آكِلُ حرام.

وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بَشَر، وإنما يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحَن بحجّته من بعض، فأقضيَ له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فَلْيَحْمِلْهَا، أو ليذَرْها». فدلَّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أنّ حُكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُحِلّ في نفس الأمر حرامًا هو حرام، ولا يحرم حلالًا هو حلال، وإنما هو مُلْزِم في الظاهر، فإن طابق ما في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجرُه وعلى المحتال وِزْره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بُطلان ما تدّعونه وتروّجون في كلامكم.

قال قتادة: اعلم -يا ابن آدم- أنّ قضاء القاضي لا يُحِل لك حرامًا، ولا يُحِقُّ لك باطلًا، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَرٌ يخطئ ويصيب، واعلموا أنّ من قُضِيَ له بباطل أنّ خصومته لم تَنْقَضِ حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمُحق بأجودَ مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا.

الآية (١٨٩): ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ قال أبو العالية: جَعَلَهَا الله مواقيت لصَوْم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومَحَلّ دَيْنهم. وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [سبب النزول] عن البراء قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتَوْا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾» [رواه البخاري]. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه، فيجزيكم بأعمالكم على التمام والكمال.

الآية (١٩٠): قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عَمَّن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة. وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تَهْييج وإغراء بالأعداء الذين هِمّتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك. ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي من المُثْلة، والغُلُول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرُّهبان، وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة. ولهذا جاء عن بُرَيدة أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفَر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا، ولا تَغْدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليدًا» [رواه مسلم].

الآية (١٩١): ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: لتكن همتكم مُنبعثةً على قتالهم، كما أن همّتهم منبعثةٌ على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها؛ قصاصًا. ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتلُ الرجال، نبَّه تعالى على أنّ ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطَمّ من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: الشرك أشد من القتل. وقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يَبْدَؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعًا للصائل.

الآية (١٩٢): ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن تَركُوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظَمُه ذَنْبٌ أنْ يغفره لمن تاب منْه إليه.

الآية (١٩٣): ثم أمر تعالى بقتال الكفَّار: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك. قاله ابن عباس. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: يكونَ دينُ الله هو الظاهر على سائر الأديان كما ثبت في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري، قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين، فكُفُّوا عنهم، فإنّ مَنْ قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين. والمراد بالعُدْوان ههنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

الآية (١٩٤): قال ابن عباس: لما سار رسولُ الله ﷺ مُعْتَمِرًا في سنة ست من الهجرة، وحَبَسَه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصَدُّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعْدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول مِن قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين، وأقَصَّهُ الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾. وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أمْرٌ بالعدل حتى في المشركين كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]. وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمْرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارٌ بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

الآية (١٩٥): عن حذيفة أن هذه الآية نزلت في النفقة [رواه البخاري]. ومضمون الآية: الأمرُ بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القُرُبات ووجوه الطاعات، وخاصّة صرف الأموال في قتال الأعداء وبَذْلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان -وهو أعلى مقامات الطاعة- فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية (١٩٦): ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ظاهر السياق: إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة مُلْزِم. وعن الثوري أنه قال في هذه الآية: تمامها أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهِلّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: صُدِدتم عن الوصول إلى البيت ومُنِعْتم من إتمامها ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ ذكروا أنّ هذه الآية نزلت في سنة ست، أيْ عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورةَ الفتح بكمالها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يتحَلَّلوا من إحرامهم. وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ قال علي بن أبي طالب: شاة. وهو مذهب الأئمة الأربعة. وعن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل والبقر.

قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفًا على قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ كما زعمه ابن جرير؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم.

قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ عن كعب بن عُجْرَةَ قال: حُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي. فقال: «ما كنتُ أرَى أن الجَهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟» قلت: لا. قال: «صُمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» [روه البخاري]. وقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي: إذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم مُتَمتِّعًا بالعُمرة إلى الحج، وهو يشمل مَن أحرَم بهما، أو أحرم بالعمرة أولًا، فلما فرغ منها أحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقلُّه شاة. وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هَدْيًا فَلْيَصُمْ ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾.

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إذا رجعتم إلى رحالكم. والقول الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم. وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، وقيل: أي: مُجْزئة عن الهَدْي. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهلُ التأويل فيمن عُني بقوله: ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم مَعْنِيُّون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم. قال ابن عباس: هم أهل الحَرَم. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومَن بَيْنه وبين المواقيت، واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تقصر منها الصلاة؛ لأن من كان كذلك يعد حاضرا لا مسافرا. وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمرَكم وما نهاكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زَجَره.

الآية (١٩٧): مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد صحة الإحرام بالحج في جميع السنة، وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهُره، وهو مروي عن ابن عباس وجابر. ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ قال ابن عمر: هي شوال، وذو القَعْدة، وعشر من ذي الحجة. وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفَرْض ههنا: الإيجاب والإلزام. وقال ابن عباس: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾: من أحرم بحَجّ أو عمرة. وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: مَن أحرم بالحَجِّ أو العمرة، فليَجتَنِب الرَّفَث، وهو الجماع كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه، من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء. وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال ابن عباس: هي المعاصي. وقال ابن عمر: الفسوق: ما أُصيبَ من معاصي الله به: صَيْدا أو غيره. [و] الفسوق ههنا هو جميع المعاصي؛ كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهُر الحرُم، وإن كان في جميع السنة منهيًّا عنه، إلا أنه في الأشهُر الحرُم آكَدُ؛ ولهذا قال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال في الحَرَم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حَجَّ هذا البيت فلم يَرفُث ولم يَفسُق، خَرَج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بيَّنه الله أتَمَّ بيان ووضحه أكمل إيضاح. والقول الثاني: أن المراد بالجدال ههنا: المخاصمة. عن ابن مسعود قال: أنْ تماري صاحبك حتى تُغْضِبَه. وكذلك قال ابن عباس. وقال ابن عمر: الجدال في الحج: السباب والمنازعة. وعن عكرمة: الجدال: الغضب، أن تُغْضِبَ عليك مسلمًا. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: لما نهاهم عن إتيان القبيح قولًا وفعْلًا، حَثَّهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفرَ الجزاء يوم القيامة. وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾: عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون! فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. [رواه البخاري]. وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: لَـمَّا أَمَرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

لما ذكر اللباس الحِسّي نَبَّه مُرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خيرٌ من هذا وأنفع. ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي، وعذابي لمن خالفني، ولم يَأْتَمِرْ بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

الآية (١٩٨): [سبب النزول] عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، أسواق الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجِروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج [رواه البخاري]. ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ عرفة: موضع الموقف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج. عن عبد الرحمن بن يَعْمر الدِّيلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات -ثلاثًا- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك» [رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الألباني]. ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثاني من يوم النحر؛ لأنّ النبيّ ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لتأخُذوا عني مناسككم» [رواه مسلم]. وتُسمى عَرَفات: الْـمَشْعَر الحلال، والمشعر الأقصى، وإِلَال -على وزن هلال- ويقال للجبل في وسطها: جَبَلُ الرحمة. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، قال ابن عمر: الْـمَشْعَر الحرام المزدلفة كلها.

والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سُمِّيت المزدلفة: الْـمَشْعَر الحرام؛ لأنها داخل الحرم. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾: تنبيهٌ لهم على ما أنْعَم به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول ﷺ، والكلّ متقارب ومتلازم وصحيح.

الآية (١٩٩): ﴿ثُمَّ﴾ كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَع إلى المزدلفة؛ ليذكر الله عند الْـمَشْعَر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، عن عائشة قالت: كانت قريش ومَن دَان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمّون الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يَأْتِي عرفات، ثم يقف بها ثم يُفيض منها، فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [رواه البخاري]. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت أنّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثًا [رواه مسلم].

الآية (٢٠٠-٢٠٢): يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قَضَاء المناسك وفراغها. وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾: كما يَلْهَج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهَجُوا بذكر الله بعد قضاء النُّسك. والمقصود منه: الحث على كثرة الذكر لله عز وجل.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنّة الإجابة، وذَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو مُعرض عن أُخراه، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: مِنْ نَصِيب ولا حظٍّ. وتضمَّن هذا الذمّ التَّنْفِيرَ عن التشبُّه بمن هو كذلك، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فجَمَعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرَفت كلّ شر؛ فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوب دنيوي. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك: دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات وتيسير الحساب...، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وعن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهم ربَّنا، آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» [رواه البخاري].

الآية (٢٠٣): قال ابن عباس: «الأيام المعدودات» أيام التشريق، و«الأيام المعلومات» أيام العَشْر. وقال عكرمة: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ يعني: التكبير أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر. وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني]. وعن نُبَيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيامُ أكل وشرب وذكر الله» [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حُذافة يطوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل» [رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني]. وقال ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده. ولما ذكر الله تعالى النَّفْر الأول والثاني، وهو تفرُّق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٩].

الآية (٢٠٤-٢٠٧): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عامٌّ في المنافقين كلِّهم وفي المؤمنين كلِّهم. ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ معناها: يُظْهِرُ للناس الإسلام ويبارزُ الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء:١٠٨]. وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه. وهذا المعنى صحيح. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾: الْأَلَدُّ في اللغة: الأعوج، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] أي: عُوجًا. وهكذا المنافق في حال خصومته، يَكذِب ويَزْوَرُّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجُر، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [رواه مسلم بمعناه]، وعن عائشة تَرْفَعُه قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: هو أعوج المقال، سيّئ الفعَال، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كَذِب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعي ههنا هو: القَصْد. كما قال إخبارًا عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٢-٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] أي: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسّي إلى الصلاة مَنهيٌّ عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تَسْعَوْن، وأتوها وعليكم السكينة والوقار» [متفق عليه بمعناه]. فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: مَحلُّ نماء الزروع والثمار. والنسل، وهو: نتاج الحيوانات. اللذين لا قوَام للناس إلا بهما. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب مَن هذه صفَته، ولا مَن يصدر منه ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: إذا وُعِظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحميَّة والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: هي كافيته عقوبة في ذلك. ولما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذَكَر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وجماعة: نزلت في صُهيب بن سنَان الرومي، وذلك أنَّه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحبَّ أن يتجرّد منه ويهاجر فَعَل. فتخلَّص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية. وأما الأكثرون فحمَلوا ذلك على أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

الآية (٢٠٨-٢٠٩): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به، المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

عن مجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد، في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ يعني: الإسلام.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، وأبو العالية، والربيع بن أنس: الطاعة. وقال قتادة أيضا: الموادعة.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: اعملوا الطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: عدَلتُم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحُجَجُ، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يَغلبه غالب. ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه، وَنَقْضِه وَإِبْرَامِه.

الآية (٢١٠): يقول تعالى مُهَدّدًا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كُلّ عامل بعمله، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢١-٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام:١٥٨].

الآية (٢١١): يقول تعالى - مُخْبِرًا عن بني إسرائيل-: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيَدِهِ وعصاه وفَلْقِه البحر وضَرْبِه الحجَر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومِن إنزال المَنّ والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدالَّات على وجود الفاعل المختار [سبحانه وتعالى]، وصِدق من جرَت هذه الخوارق على يَدَيه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبَدَّلوا نعمة الله كفرًا، أي: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، كما قال إخبارًا عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

الآية (٢١٢): ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضُوا بها واطمأنّوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عَنْ مصارفها التي أُمروا بها مما يرضي الله عنهم، وسَخِروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومَنْشَرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى علّيين، وخُلِّد أولئك في الدركات في أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزق من يشاء من خَلْقه، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلًا بلا حَصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة.

الآية (٢١٣): روى ابن جرير: عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» [أخرجه الحاكم، وقال الألباني : موقوف قوي]. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفارًا. والقول الأول عن ابن عباس أصح سندًا ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ أي: من بعد ما قامت عليهم الحُجَج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ الآية، قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أوّلُ الناس دخولًا الجنة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه مِن بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبَع، فغدًا لليهود، وبعد غدٍ للنصارى» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ بعلمه، بما هداهم له ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: منْ خلقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة.

عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم، ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [رواه البخاري ومسلم].

الآية (٢١٤): يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبتَلوا وتُختبَروا وتُمتحَنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهي: الأمراض والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ خَوْفًا من الأعداء زلْزالًا شديدًا، وامتُحنوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء عن خَبَّاب بن الأرَتّ قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يُوضع المنشار على مفْرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» [رواه البخاري ومسلم].

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ أي: سُنَّتهم. كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٨].

وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: يستفتحون على أعدائهم، ويَدْعُون بقُرْب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]. وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلُها؛ ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

الآية (٢١٥): قال مُقَاتل: هذه الآية في نفقة التطوّع. ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ أي: اصرفُوها في هذه الوجوه. كما جاء في الحديث: «أمّك وأباك، وأختَك وأخاك، ثم أدناك أدناك» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر] وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كُسوة الحيطان ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: مهما صدر منكم مِن فعلٍ معروف، فإن الله يعلَمُه، وسيجزيكم على ذلك أوفرَ الجزاء؛ فإنه لا يظلم أحدًا مثقالَ ذَرّة.

الآية (٢١٦): هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين: أن يكُفُّوا شرّ الأعداء عن حَوْزة الإسلام. وقال الزهري: الجهادُ واجب على كلّ أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذَا استُعين أن يُعينَ، وإذا استُغيثَ أن يُغيثَ، وإذا استُنْفِرَ أن يَنفِر، وإن لم يُحتَجْ إليه قعد.

ولهذا ثَبَت في الصحيح: «من مات ولم يغزُ، ولم يحدّث نفسه بغزو، مات ميتةً جاهلية» [رواه مسلم]. وقال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استُنفرتم فانفِروا» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقْتَلَ أو يُجرحَ مع مشقة السفر ومجالدَة الأعداء. ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: لأنّ القتالَ يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾: وهذا عام في الأمور كلّها، قد يُحِبّ المرءُ شيئًا، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القُعُود عن القتال، قد يَعْقُبُه استيلاء العدو على البلاد والحكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: هو أعلمُ بعواقب الأمور منكم، وأخبَرُ بما فيه صلاحكم في دنياكم وأُخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

الآية (٢١٧-٢١٨): عن جُنْدَب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بَعَثَ رَهْطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجَرّاح، فلما ذهب ينطلق، بَكَى صَبَابة إلى رسول الله ﷺ، فَجَلَس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتابًا، وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تُكْرِهَنّ أحدًا على المسير معك من أصحابك. فلما قرأ الكتابَ استرجع، وقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، وبقي بقيَّتُهم، فلَقُوا ابن الحَضْرَمي فقتلوه، ولم يَدْرُوا أن ذلك اليوم من رجب أو من جُمَادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية [رواه ابن أبي حاتم، بإسناد صححه أحمد شاكر].

الآية (٢١٩): روى الإمام أحمد: عن عمر أنَّه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدُعِي عمر فقُرئَتْ عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، فكان مُنادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادَى: ألا يقربَنَّ الصلاة سكران. فدُعِي عمر فقُرئَت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في المائدة. فَدُعِي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ [المائدة:٩١] قال عمر: انتهينا، انتهينا.

وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه. قال علي بن المديني: هذا الإسناد صالح وصححه الترمذي. فقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامَر العقل. والميسر: هو القمار. وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيمَ الطعام، وإخراجَ الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذَّة الشدّة المطربة التي فيها. وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يُقَمِّشه بعضهم من الميسر فيُنفقه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازي مضرَّته ومفسدته الراجحة، لتَعلُّقها بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية مُمَهِّدةً لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مُصرّحة بل مُعرّضة؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قُرئت عليه: اللهم بَيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. حتى نزل التصريح بتحريمها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قُرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسَنٌ مُتّجِهٌ قريب. قال ابن عباس: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ ما يَفضُل عن أهلك. وكذا رُوي عن ابن عمر ومجاهد وقتادة وغير واحد.

عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار؟ قال: «أنفِقْهُ على نفسك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندي آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندي آخر؟ قال: «فأنت أبصَرُ». [رواه مسلم]. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدَّقْ عليها، فإنْ فَضَل شيءٌ فَلِأَهْلِك، فإنْ فضَل شيء عن أهلك فَلذِي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا» [رواه مسلم]. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظَهْر غِنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» [رواه مسلم]. وفي الحديث أيضًا: «ابنَ آدم، إنك أنْ تبذل الفضل خيرٌ لك، وأن تُمسِكَهُ شرٌ لك، ولا تُلام على كفاف» [رواه مسلم].

وقد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراساني والسدّي. وقيل: مُبيّنة بآية الزكاة. قاله مجاهد وغيره، وهو أوْجَه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: كما فصَّل لكم هذه الأحكام وبيَّنَها وأوضَحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

الآية (٢٢٠): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية: [سبب النزول] روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لَـمَّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٣٤] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] انطلق مَن كان عنده يتيمٌ فعزَل طعامه مِن طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يَفضُل له الشيء من طعامه فيُحبَس له حتى يأكله أو يَفسُد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي.

فقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: على حِدَة ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي: يعلم مَنْ قَصْدُه ونيّته الإفسادَ أو الإصلاح. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ولو شاء لضيَّق عليكم وأحرجَكم، ولكنه وَسَّع عليكم، وخفَّف عنكم، وأباح لكم مخالطتَهُم بالتي هي أحسن، بل قد جوَّز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجانًا.

الآية (٢٢١): هذا تحريم من الله عزّ وجل على المؤمنين أن يتزوّجوا المشركات مِن عبَدَةِ الأوثان. ثم إن كان عمومُها مرادًا، وأنَّه يدخل فيها كل مُشركة من كتابيَّةٍ ووثنية - فقد خَصّ من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥]. قال ابن عباس: استثنى الله من ذلك نساءَ أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون مِن عبَدة الأوثان، ولم يُرِدْ أهلَ الكتاب بالكُلّية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. قال ابن جرير بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كَرِهَ عُمَر ذلك؛ لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني.

قوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسَبِها، ولجمالها، ولدِينها؛ فاظفَرْ بذات الدين تَرِبَت يداك» [رواه البخاري ومسلم].

وقولـــه: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: لا تُزَوّجـــوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي: ولَرَجلٌ مؤمن - ولـو كـان عبـدًا حبشيًا - خـيرٌ مـن مشرك، وإن كان رئيسًا سَرِيًا ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مُعاشَرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وَخِيمةٌ، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الآية (٢٢٢): [سبب النزول] عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يُؤَاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يَدَع من أمرنا شيئًا إلا خالفَنا فيه! فجاء أُسَيد بن حُضَير وعَبَّاد بن بِشْر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نُجامعهن؟! فتغيَّر وَجْهُ رسول الله ﷺ حتى ظننَّا أنْ قد وَجَدَ عليهما، فخرجَا، فاستقبلَتْهُما هديةٌ مِن لبَن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرَفا أنْ لم يَجِدْ عليهما. [رواه مسلم]. فقوله: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ يعني: في الفَرْج، لقوله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» [رواه مسلم]. ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفَرْج. فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، ونهي عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه نَدْبٌ وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني الفَرْج. وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدُّبر. وقال أبو رَزين وعكرمة والضحاك وغير واحد: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: طاهرات غير حُيَّض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي: من الذنب، وإن تكرر غشْيانه، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المتنزّهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نُهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأتى.

الآية (٢٢٣): وقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث: موضع الولد ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئْتم مُقبلةً ومُدبرةً في صِمام واحد. [سبب النزول] عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [رواه البخاري]. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: مِن فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ﴾ أي: فيُحاسبكم على أعمالكم جميعها. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرَهُم.

الآية (٢٢٤): يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعةً لكم من البرِّ وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثَمُ لصاحبها مِن الخروج منها بالتكفير. وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قال: لا تجعلَنَّ عُرضةً ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفِّر عن يمينك واصنع الخير.

الآية (٢٢٥): ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي: لا يُعاقبكم ولا يُلزمكم بما صَدَر منكم من الأَيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادةً من غير تعقيد ولا تأكيد، قالت عائشة: «هم القوم يتدارَؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله .. .لا تُعقَد عليه قلوبُهم».

﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: قال ابن عباس: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفور لعباده، حليم عليهم.

الآية (٢٢٦-٢٢٧): الإيلاء: الحلف ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم. ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر مِن حين الحلف، ثم يُوقَف ويُطَالَب بالفَيئة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ﴾: فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مُضِيّ الأربعة أشهر، والذي عليه الجمهور: أنه يُوقَفُ فَيُطَالَب إما بهذا أو هذا، ولا يقع عليها بمجرد مُضِيِّهَا طلاقٌ.

الآية (٢٢٨): هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمُطلَّقات - المدخُول بهن من ذوات الأَقْراء- بأن يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت. وقد اختلف السلفُ والخلَفُ في المراد بالأَقْراء على قولين: أحدهما: أن المراد بها: الأطهار. والقول الثاني: أن المراد بالأقراء: الحِيَضُ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. وقال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القُرْء يُراد به الحيض ويُراد به الطُّهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين. وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: مِن حَبَلٍ أو حيض قاله ابن عباس وابن عمر وغير واحد. ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تهديد لهن على قول خلاف الحق. ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يُعلَم إلا من جِهَتِهِنَّ، وتتعذر إقامة البيّنة غالبًا على ذلك، فَرُدَّ الأمر إليهن، وتُوُعِّدْنَ فيه، لئلا تُخبِر بغير الحق، من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلَّقها أحقّ بِرِدَّتِهَا ما دامت في عِدَّتها، إذا كان مراده بِرِدَّتِهَا الإصلاح والخير. وهذا في الرجعيات. وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهُنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فلْيؤَدِّ كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف. وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: في الفضيلة في الخَلق والخُلُق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

الآية (٢٢٩-٢٣٠): هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، مِن أنَّ الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدّة. فقال: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ أي: إذا طَلَّقْتَهَا واحدةً أو اثنتين، فأنت مُخَيَّر فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تَرُدَّها إليك ناويًا الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فَتَبِيْنَ منك، وتُطْلِقَ سَرَاحَهَا مُحْسِنًا إليها، لا تظلمها من حقها شيئًا، ولا تُضارّ بها.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يحل لكم أن تُضَاجِروهن وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدِقَة أو ببعضه، فأما إنْ وهبَتْهُ المرأة شيئًا عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقُم المرأة بحقوق الرجل وأبغضَتْهُ ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حَرَج عليها في بَذْلِها، ولا عليه في قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد روى الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وقولـــه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده، فلا تتجاوزوهـــا. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقةً ثالثةً بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتى يطأها زوجٌ آخر في نكاح صحيح، وعن عائشة قالت: دخلت امرأةُ رِفاعة القرَظي -وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ- فقالت: إنَّ رفاعة طلَّقني الْبَتَّة، وإن عبد الرحمن بن الزَّبِير تزوجني، وإنما عنده مثل الْهُدْبَةِ، وأخذت هُدْبَة من جلبابها، فقال رسول الله ﷺ: «كأنكِ تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» [رواه البخاري]. والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبًا في المرأة، قاصدًا لدوام عِشْرتها كما هو المشروع من التزويج، أما إذا كان قصده أن يُحِلَّهَا للأول، فهذا هو الْمُحَلِّلُ الذي وردَت الأحاديث بِذَمِّه ولعنِه، فروى الإمام أحمد عن عبد الله [ابن مسعود] قال: «لعن رسول الله ﷺ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ له». [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: المرأة والزوج الأول ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتعاشرا بالمعروف، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه وأحكامه، ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أي: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٣١): هذا أمرٌ من الله عز وجل للرجال إذا طلَّق أحدهم المرأة طلاقًا له عليها فيه رجعة أن يُحسن في أمرها -إذا انقضت عدتها، ولم يبقَ منها إلا مقدار ما يُمكنه فيه رجعتها- فإما أن يُمسكها، أي: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يُشهِدَ على رجعتها، وينوي عِشرتها بالمعروف، أو يُسرِّحها، أي: يتركها حتى تنقضي عدّتها، ويُخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابُح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارًا، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يُطلقها فتعتدَّ، فإذا شارفت على انقضاء العدة [راجعها ثم] طلَّق لتطول عليها العدَّة، فنهاهم الله عن ذلك، وتَوَعَّدَهُم عليه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بمخالفته أمر الله تعالى. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ قال مسروق: هو الذي يطلِّق في غير كُنْهِه، ويضارّ امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعبًا! أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزم الله بذلك. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم، ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنّة، ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويَتَوَعَّدُكم على ارتكاب المحارم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذرون، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فلا يَخفَى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

الآية (٢٣٢): قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يُطلّق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدّتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وهذا ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بدَّ في النكاح مِن ولي، كما جاء في الحديث: «لا تُزوِّج المرأةُ المرأةَ، ولا تزوِّج المرأة نفسها» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]. [سبب النزول] عن معقل بن يسار: أنه زوَّجَ أخته رجلًا من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقةً لم يُراجعها حتى انقضت العدة، ثم خطبها مع الخُطَّاب، فقال له: والله لا ترجع إليك أبدًا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [رواه البخاري]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: هذا الذي نهيناكم عنه مِن منع الوَلَايَا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضَوا بينهم بالمعروف، يَأْتَمِرُ به ويَتَّعِظ به ويَنْفَعِل له ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: اتباعكم شرع الله في رد المُوليات إلى أزواجهن، وترك الحميَّة في ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون.

الآية (٢٣٣): هذا إرشادٌ من الله تعالى للوالدات: أن يُرضِعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنَتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يُحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُحرّم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء، في الثدي، وكان قبل الفطام» [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. ومعنى قوله: في الثدي، أي: في محل الرضاعة قبل الحولين، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جَرَت به عادة أمثالهن في بلدهنّ من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره. قال الضحاك: إذا طلَّقَ زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وَجَبَ على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف. وقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا تَدْفَعه عنها لتَضُرَّ أباه بتربيته، كما لا يَحِلُّ له انتزاعه منها لمجرد الضّرار لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارًا بها. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها. وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن اتَّفَقا: والدا الطفل على فِطامه قبل الحولين، ورأَيا في ذلك مصلحةً له، وتشاورا في ذلك، وأجمَعا عليه، فلا جُناح عليهما في ذلك، فيؤْخَذُ منه: أنَّ انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبِدَّ بذلك من غير مشاورة الآخر. قاله الثوري وغيره. وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يُصلِحه ويصلحهما، كما قال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦]. وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلّم منها الولد إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلَّمها أُجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولدِه غيرها بالأُجرة بالمعروف.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أحوالكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

الآية (٢٣٤): هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتَوَفى عنهن أزواجهن: أن يعتَدِدْن أربعةَ أشهر وعشر ليالٍ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عُمُوم الآية الكريمة، وحديث ابن مسعود [أنه] سُئِل عن رجل تزوَّج امرأةً فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارًا في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكُن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملًا. وفي لفظ: لها صداق مِثلها، لَا وَكْسَ ولا شَطَط، وعليها العدّة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قَضى به في بَرْوَع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدّتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤]. وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبْعَدِ الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذٌ جيد ومَسلكٌ قوي، لولا حديث سُبَيْعَةَ الأسلمية المُخرّج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح! والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت، وأمرني بالتزويج إن بدا لي.

قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عِدَّتها، والإحداد هو ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحُلِيٍّ وغير ذلك. وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهري: أي: على أوليائها ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ قال ابن عباس: إذا طُلّقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تَتَزَيَّنَ وتتصنَّع وَتَتَعَرَّضَ للتزويج، فذلك «المعروف».

الآية (٢٣٥): يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تُعَرّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال ابن عباس: التعريض أن تَقُول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة مِن أَمْرِها ومِن أَمْرِها -يعرّض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرَك إن شاء الله، ولوددت أني وجدت امرأةً صالحةً، ولا يَنْتَصِب للخطبة ما دامت في عدتها. فالتعريض يجوز لِلْمُتَوَفَّى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا المطلقة المبتوتة. فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها. وقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أَضْمَرْتُم في أنفسكم خطْبَتَهُنّ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، فَرَفَعَ الحرَج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال الحسن البصري والنخعي وغيرهم: يعني الزنا. واختاره ابن جرير. وروي عن سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وقال ابن زيد: هو أن يتزوَّجها في العدة سرًّا، فإذا حلَّت أظهر ذلك. وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد: يعني به ما تقدَّم من إباحة التعريض. كقوله: إني فيك لراغب. ونحو ذلك. وقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة. وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ تَوَعَّدَهُم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأَرشَدَهم إلى إضمَار الخير دون الشر، ثم لم يُؤْيِسْهُم من رحمته، ولم يُقْنطهم من عائدته، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الآية (٢٣٦): أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس: المسَّ: النكاح. بل ويجوز أن يطلِّقها قبل الدخول بها، وَالْفَرْضِ لها إن كانت مُفَوَّضَةً، وإن كان في هذا انْكِسَارٌ لِقَلْبِهَا؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تُعْطَاه مِن زوجها بحسب حاله، على الْمُوسِعِ قَدَرُه وعلى الْمُقْتِرِ قَدَرُه. وقال ابن عباس: مُتعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الوَرِق، ودون ذلك الكسوة. ومتَّع الحسنُ بن علي بعشرة آلاف.

الآية (٢٣٧): وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طَلَّق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثَمَّ واجب آخر مِن مُتعة لبيَّنها، لا سيما وقد قَرَنَها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية. وتشطير الصداق -والحالة هذه - أمرٌ مُجمَع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سَمَّى لها صَداقًا، ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يَجب لها نصف ما سمَّى من الصداق. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ أي: النساء عما وَجَبَ لها على زوجها من النِّصْف، فلا يجب لها عليه شيء. قال ابن عباس: إلا أن تعفو الثَّيِّبُ فَتَدَعُ حقَّها. وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ الذي بيده عقدة النكاح حقيقة: الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهَب شيئًا من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق. وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خُوطب به الرجال، والنساء. وعن ابن عباس: أقربها للتقوى الذي يعفو. وقال مجاهد، والضحاك وغيرهم: الفضل ههنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك وقتادة والسدّي: المعروف: يعني: لا تهملوه بينكم.

الآية (٢٣٨-٢٣٩): يأمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها، عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» [متفق عليه]. وخَصَّ مِن بينها بمزيد التأكيد: الصلاة الوسطى. وقد اختُلف فيها: أيُّ صلاة هي؟ [والأصح] أنها صلاة العصر. وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال ابن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. والدليل على ذلك: عن علي قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا» [متفق عليه]. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعيَّن المصير إليها. وقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مُسْتَكِينِين بين يديه، وهذا الأمر مُسْتَلْزِمٌ ترك الكلام في الصلاة، لمنافاته إياها؛ عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يُكَلِّم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فَأُمِرنا بالسكوت. [متفق عليه]. ولما أَمَر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدَّد الأمر بتأكيدها -ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي ساحة القتال والتِحَام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلُّوا على أي حال كان، رجالًا أو ركبانًا: يعني: مُستقبِلي القبلة وغير مُستقبِليها. وهذا مِن رُخصة الله التي رخَّص لعباده، ووَضْعِه الآصار والأغلال عنهم. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أُمِرْتُمْ، فأتمُّوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان، وعلّمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر.

الآية (٢٤٠-٢٤٢): قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسُكناها في الدار سنة، فنسختها آية المواريث، فجعل لها الثمن أو الربع. وعنه أيضًا قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدَّت سنةً في بيته، يُنفق عليها من ماله، ثم أنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملًا، فعدَّتها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ﴾ [النساء:١٢]، فبيَّن ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة. وقوله: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي: يوصيكم الله بهن وصيةً، كقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية [النساء:١١].

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فأما إذا انقضت عدّتهن بالأربعة أشهُر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترنَ الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يُمنَعن من ذلك؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم ابن تيمية. وقول عطاء ومَن تابعه أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهُر والعَشر فمُسلَّم، وإن أرادوا أن سُكنى الأربعة أشهر والعشر لا تجب في تركَة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة. وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواءً كانت مفوّضةً، أو مفروضًا لها، أو مطلقةً قبل المسيس، أو مدخولًا بها. ومن لم يُوجبها مُطلقًا يُخصِّص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[البقرة:٢٣٦] وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أَمَرَكم به ونهاكم عنه، بيَّنَهُ ووضَّحه وفسَّره، ولم يتركه مجملًا في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمون، وتتدبَّرون.

الآية (٢٤٣-٢٤٥): عن ابن عباس: قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ فماتوا، فمَرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يُحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية. وكان في إحيائهم عبرةٌ ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: فيما يُريهم من الآيات الباهرة والحُجج والدلالات الدامغة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرةٌ ودليل على أنه لن يُغني حذرٌ من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه. وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: كما أن الحذر لا يُغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه لا يقرّب أجلًا، ولا يُبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدّر مُقَنَّن، لا يُزاد فيه ولا يُنقَص منه.

وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾: يحثُّ تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ عن عمر وغيره من السلف: النفقة في سبيل الله. وقيل: النفقة على العيال ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كما قال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيِّق على من يشاء في الرزق، وَيُوَسِّعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة.

الآية (٢٤٦): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ كان ذلك في زمان داود عليه السلام، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة.

[وقد أوحى الله إلى ذلك النبي من بني إسرائيل] وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم مَلِكًا يقاتلون معه أعداءهم، وكان المُلْك أيضًا قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم مَلكًا ألا تَفُوا بما التزمتم من القتال معه؟! ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي: وقد أُخِذَتْ منا البلاد، وسُبِيَت الأولاد؟

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نَكَلَ عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

الآية (٢٤٧): أي: لما طلبوا مِن نبيّهم أن يُعَيِّن لهم ملكًا منهم، فعيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من أجنادهم، ولم يكن من بيت المُلْك؛ لأن المُلْك كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط.

فلهذا ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف يكون ملكًا علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾؟ أي: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالمُلْك.

وهذا اعتراض منهم على نبيّهم وتعنُّت، وكان الأَولى بهم طاعةٌ وقولٌ معروف. ثم قد أجابهم النبي قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره لكم مِن بينكم، والله أعلم به منكم؛ يقول: لستُ أنا الذي عيَّنته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك.

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبَلُ وَأَشْكَلُ منكم، وأشدُّ قوةً وصبرًا في الحرب ومعرفةً بها، أي: أتمَّ علمًا وقامةً منكم. ومن ههنا ينبغي أن يكون الْمَلِك ذا علم وشَكْل حَسَن وقوة شديدة في بدنه ونفسه.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

الآية (٢٤٨): يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة مُلك طالوت عليكم أن يردَّ الله عليكم التابوت الذي كان أُخذ منكم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، قيل: معناه: فيه وقار وجلالة.

وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال: ما تعرفون من آيات الله، فتسكنون إليه. وكذا قال الحسن البصري.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ روى ابن جرير: عن ابن عباس في هذه الآية قال: عَصَاهُ وَرُضَاضُ الألواح. وكذا قال قتادة وغيره.

وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالله واليوم الآخر.

الآية (٢٤٩): يقول تعالى مُخبرًا عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل؛ أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ أي: فلا بأس عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: من اغترف منه بيده رَوِي، ومن شرب منه لم يَرْوَ.

وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدّة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن.

ورواه البخاري عن البراء، بنحوه.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: استقلُّوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن كثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ.

ولهذا قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الآية (٢٥٠): أي: لما واجه حزب الإيمان -وهم قليل- من أصحاب طالوت، لعدوّهم أصحاب جالوت -وهم عدد كثير- ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنِّبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الآية (٢٥١): قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لولاه يدفع عن قوم بآخرين - كما دفع عن بني إسرائيل بمُقاتلة طالوت وشجاعة داود – لهلكوا، كما قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مَنٌّ عليهم ورحمةٌ بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه في جميع أفعاله، وأقواله.

الآية (٢٥٢): ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل. ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقَسَم.

الآية (٢٥٣): يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥]، وقال ههنا: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني: موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم؛ كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء، حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: الحُجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم. ﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: أن الله أيّده بجبريل عليه السلام. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

الآية (٢٥٤): يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدَّخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي: لا يُباع أحدٌ مِن نفسِه، ولا يُفادَى بمال لو بذَله، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفعه خُلّة أحد، يعني: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] ﴿وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين. ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرًا.

عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

الآية (٢٥٥): هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم. [فضل الآية] عن أُبيِّ بن كعب: أن النبي ﷺ سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فردّدها مرارًا، ثم قال أُبيّ: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر» [رواه مسلم].

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا، المقيم لغيره. فجميع الموجودات مُفتقرة إليه، وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]. وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيُّومية أنه لا يعتريه سِنَةٌ ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أي: لا تغلبه سنة: وهي الوَسَن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السِّنَة. وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه. وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلَمَهُ الله عز وجل وأطلعه عليه. ويُحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلَعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: عن ابن عباس: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره، والعرش أكبر منه، كما دلَّت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُثقله ولا يُكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزُب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]. وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح: إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه(١).

الآية (٢٥٦): [سبب النزول] عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ أي: لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّنٌ واضح جليٌّ دلائلُه وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بيِّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يُفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحَّد الله فعبَدهُ وحده، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبَّه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها مُحكَمة مُبرَمة قوية، وربطها قوي شديد. قال مجاهد: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يعني: الإيمان. وقال السُّدّي: هو الإسلام. وقال سعيد بن جبير: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: القرآن. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تَنافي بينها. وقال معاذ بن جبل في قوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

---

(١) يراجع أيضًا تفصيل ابن كثير لذلك في صفحة ١٥٧ فهو نفيس ومهم.

الآية (٢٥٧): يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام، فيُخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليُّهم الشياطين تُزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ولهذا وحَّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرُّد الحق، وانتشار الباطل وتفرُّقه وتشعُّبه.

الآية (٢٥٨): هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه هو مَلِكُ بابل: نمروذ بن كنعان. ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثَمَّ إله غيره، كما قال بعده فرعون لـمَلَئِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، وما حَمَله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة، إلا تجبُّره وطول مدّته في الملك؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورةً؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بُدّ لها مِن مُوجد أوجدَها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال الـمُحَاجُّ، وهو النمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدّي وغير واحد: وذلك أني أوتَى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيُقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يُقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة. والظاهر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يَدّعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادَّعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادَّعيت -تُحيي وتميت- فَأْتِ بها من المغرب!! فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بُهِتَ، أي: أُخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يُلهمهم حُجة ولا برهانًا، بل حُجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد. وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أنّ عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه! ومنهم من قد يُطلق عبارة رديّة ترديه. وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبيّن بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

الآية (٢٥٩): تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ اختلفوا في هذا المارّ من هو؟ فروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عُزير. وحكاه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم، وهذا القول هو المشهور. وقال مجاهد: هو رجل من بني إسرائيل. وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مرَّ عليها بعد تخريب بُختنصَّر لها وقتل أهلها.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، مِن قولهم: خوَت الدار تخوي خواءً وخُويًا. وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ وعُمرت البلدة بعد مُضِيّ سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صُنع الله فيه كيف يحيي بدنه! فلما استقل سويًا قال الله له -أي بواسطة الملك-: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير منه شيء ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يُحييه الله عز وجل، وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلًا على المعاد ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالزاي. أي: نرفعها فتركّب بعضها على بعض. وقُرئ: (نُنْشِرها) أي: نُحييها، قاله مجاهد ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عيانًا، فأنا أعلم أهل زماني بذلك. وقرأ آخرون: «قال اعْلَمْ» على أنه أمرٌ له بالعلم.

الآية (٢٦٠): ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابًا؛ منها: أنه لما قال لنمروذ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أحَبَّ أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مُشاهدةً فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾. وقوله: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُهمّ لنَصَّ عليه القرآن. وقوله: ﴿فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أي: قطِّعهن. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الأسود الدؤلي وغيرهم، ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا مُمانع؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن المُنْكَدِر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو ابن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال ابن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ﴾ [الزمر:٥٣]، الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان.

الآية (٢٦١): هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تُضاعَف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس مِن ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة يُنمّيها الله عز وجل لأصحابها، كما يُنمّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة. روى أبو مسعود: أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» [رواه مسلم]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به». [رواه مسلم]. وقوله ههنا: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فضله واسع كثير، أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده.

الآية (٢٦٢): يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيله، ثم لا يُتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مَنًّا على من أعطوه، فلا يَمُنُّون به على أحد، ولا يَمُنُّون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلَآ أَذٗى﴾ أي: لا يفعلون مع مَن أحسَنُوا إليه مكروهًا يُحبِطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدَهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: على ما خلَّفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

الآية (٢٦٣-٢٦٤): ثم قال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ أي: من كلمةٍ طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ أي: غَفْرٌ عن ظلم قولي أو فعلي ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: عن خلقه. ﴿حَلِيمٞ﴾ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم. وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمُسبل إزاره، والمُنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاقٌّ، ولا منَّان، ولا مُدمن خمر، ولا مُكذِّبٌ بقدَر» [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومُدمن الخمر، والمنان بما أعطى» [رواه أحمد والنسائي، وصحح إسناده أحمد شاكر]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ فأخبر أن الصدقة تَبطُل بما يتبعها من المنّ والأذى، فما يَفي ثوابُ الصدقة بخطيئة المنِّ والأذى.

ثم قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة مَن راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجهَ الله، وإنما قصده مدحُ الناس له أو شُهرته بالصفات الجميلة، ليُشكَر بين الناس، أو يقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾.

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ وهو جمع صَفْوانة. ومنهم من يقول: الصفوان يُستعمل مفردًا أيضًا، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس، ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أي: فترك الوابل ذلك الصفوان صلدًا، أي: أملس يابسًا، أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله. أي: وكذلك أعمال المُرائين تذهب وتضمَحِلُّ عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

الآية (٢٦٥): هذا مثَل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ عنهم في ذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وهم متحققون مُثَبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفَر الجزاء.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: كمَثل بستان برَبوة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار. وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرَّذَاذ، وهو الليّن من المطر. أي: هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدًا؛ لأنها إن لم يُصبها وابل فطَلٌّ، وأيًا مَّا كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

الآية (٢٦٦): عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم! فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تَحْقِرْ نفسك. فقال ابن عباس: ضُربَتْ مثلًا لعمل. قال عمر: أيُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غنيٍّ يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعَمِل بالمعاصي حتى أغرق أعماله [رواه البخاري].

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثَل: بعمل مَن أحسن العمل أولًا، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدَّل الحسنات بالسيئات، عياذًا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلَفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوجَ ما كان إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرق ثمارَها، وأباد أشجارها، فأيّ حال يكون حاله؟ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتُنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

الآية (٢٦٧): يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق -والمراد به الصدقة ههنا. قاله ابن عباس- من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، ومن الثمار والزروع التي أنبتَها لهم من الأرض. قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجودِه وأنفَسِه، ونهاهم عن التصدُّق برُذَالَةِ المال ودَنيئه -وهو خبيثه- فإن الله طَيّب لا يقبل إلا طيبًا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أي: تقصدوا ﴿ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: لو أُعطِيتُموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضَوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون. وقيل: معناه: لا تعدِلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه، والصحيح القول الأول. وعن البراء ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه. وعن ابن عباس: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟!

قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: وإنْ أمرَكم بالصدقات وبالطيِّب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا ليُساوي الغنيُّ الفقير، كقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]، وهو غنيٌّ عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفَدُ ما لديه، فمن تصدَّق بصدقة من كسب طيبٍ، فليَعلمْ أن الله غنيٌّ واسع العطاء، كريمٌ جواد، سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافًا كثيرة، مَن يُقرض غَيْرَ عديم ولا ظلوم.

وهو الحميد، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدَره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الآية (٢٦٨): قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يخوّفكم الفقر، لتُمسكوا ما بأيديكم فلا تُنفقوه في مرضاة الله، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخَلَّاق.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمرَكم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضْلًا﴾ أي: في مقابلة ما خوَّفكم الشيطان من الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

الآية (٢٦٩): ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومُحكمه ومتشابهه، ومُقدّمه ومؤخّره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال مجاهد: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمْرٌ يُدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك: أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا، ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله.

والصحيح أن الحكمة -كما قاله الجمهور- لا تختص بالنبوة، بل هي أعَمُّ منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخَصُّ، ولكن لأَتْبَاعِ الأنبياء حظٌّ من الخير على سبيل التبَع.

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لُبٌّ وعقل يَعِي به الخطاب ومعنى الكلام.

الآية (٢٧٠): يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات. وتَضَمّن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده.

وتوعَّد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذَّب خبره وعبَد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

الآية (٢٧١): ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: إن أظهرتموها فنِعم شيء هي. وقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعَد عن الرياء؛ إلا أن يترتب على الإظهار مصلحةٌ راجحة – من اقتداء الناس به – فيكون أفضل من هذه الحيثية.

قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصدقة» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وصحح إسناده أحمد شاكر].

والأصل: أن الإسرار أفضل؛ لهذه الآية، ولما [جاء] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [متفق عليه].

ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة. لكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضُل علانيتها، فقال: بسبعين ضعفًا. وجعل صدقة الفريضة عَلانيتَها أفضلَ من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفًا.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: بدل الصدقات، ولا سيما إذا كانت سرًّا يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفِّر عنكم السيئات. وقوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزيكم عليه.

الآية (٢٧٢): [سبب النزول] عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرُخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [رواه النسائي، وصححه الوادعي في أسباب النزول]. وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بألَّا يتصَدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين [رواه ابن جرير، وصححه الألباني].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت:٤٦، الجاثية:١٥].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن –إذا أنفق– إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عملُه. وهذا معنى حسن، وحاصله: أن المتصدق إذا تصدَّق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجرُه على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: ألْبَرِّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مُثابٌ على قصده. ومستَنَدُ هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٧٣): ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سببٌ يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سفرًا للتسبُّب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء:١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [المزمل:٢٠]. وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهلُ بأمْرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، مِن تعفُّفهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «...ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصدقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئًا».

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]. وقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يُلِحُّون في المسألة ويكلِّفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإنَّ مَن سأل وله ما يُغنيه عن السؤال، فقد ألحَف في المسألة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «... إنما المسكين الذي يتعفَّفُ؛ اقرؤوا إن شئتم –يعني قوله–: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» [متفقٌ عليه]. قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمَّه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه.

الآية (٢٧٤): ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمُنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سِرٍّ وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «وإنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك» [متفق عليه].

وعن أبي مسعود عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة» [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الآية (٢٧٥): لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المُخرجين الزكوات، شرع في ذكر أَكَلَةِ الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشُّبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبُّط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياما منكرًا. وقال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يُخْنَق. وقد روى البخاري، عن سمرة بن جندب، في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر-حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم- وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح [ما يسبح] ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا» وذكر في تفسيره: أنه آكل الربا.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: هو نظيره، فلِمَ حَرُمَ هذا وأُبيحَ هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع. أي: هذا مثل هذا، وقد أحلَّ هذا وحرم هذا. ويحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم، أي: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حُكمًا، وهو العليم الحكيم الذي لا مُعقّب لحُكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيُبيحه لهم، وما يضرُّهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من بلغه نَهيُ الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف، قال سعيد بن جبير والسدي: ما كان أكل من الربا قبل التحريم. قال النبي ﷺ [في حجة الوداع] : «وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس» [رواه مسلم]. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الآية (٢٧٦): يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي: يُذهبه، إما بأنْ يُذهبه بالكلّية من يد صاحبه، أو يَحْرمَه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذّبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إن الربا وإن كَثُرَ فإن عاقبته تصير إلى قِلّ» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود.

وقوله: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قُرئ بضم الياء والتخفيف، مِن «رَبَا الشيءُ يربو وأرباه يربيه» أي: كثَّره ونمّاه ينميه. وقُرئ: «ويُرَبِّي» بالضم والتشديد، من التربية. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة مِن كسبٍ طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يُربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى يكون مثل الجبل» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي: لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل.

ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة؛ وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل.

الآية (٢٧٧): ثم قال تعالى مادحًا للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شُكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبرًا عما أعدَّ لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التَّبِعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الآية (٢٧٨-٢٧٩): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، ناهيًا لهم عما يُقرّبهم إلى سخطه ويُبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقِبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أي: اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار؛ قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ﴾ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله، وقال: فمن كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه كان حقًّا على الإمام أن يستتيبه، فإن نَزَع وإلا ضَرب عنقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: بأخْذِ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضًا، بل لكم ما بذلتُم من غير زيادة عليه ولا نقص منه.

الآية (٢٨٠): يأمر تعالى بالصبر على المُعسِر الذي لا يجد وفاءً، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية، يقول أحدهم لمدينِهِ إذا حلَّ عليه الدَّين: إما أن تقضي وإما أن تُربي. ثم يندب [الله] إلى الوضع عنه، ويَعِدُ على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلّية وتضعوه عن المدِيْن.

روى أبو اليَسَر، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظَر مُعسرًا أو وضع عنه؛ أظلَّهُ الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله» [أخرجه مسلم].

الآية (٢٨١): ثم قال تعالى يَعِظُ عباده ويُذكّرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخِرُ آية نزلت من القرآن العظيم.

الآية (٢٨٢): هذه الآية الكريمةُ أطول آية في القرآن العظيم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ هذا إرشادٌ منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها؛ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبَّه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾.

وعن ابن عباس قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أنَّ الله أحلَّهُ وأذِنَ فيه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [رواه البخاري]. وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسلَف فليُسلِف في كيلٍ معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم». وقوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ أمرٌ منه تعالى بالكتابة للتَّوثِقة والحفظ. وقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يَجُرْ في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ أي: ولا يمتنع مَن يعرف الكتابة إذا سُئِل أن يكتبَ للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علَّمه الله ما لم يكن يعلم، فَلْيتصدَّق على غيره ممن لا يُحسن الكتابة وليكتب. وقال مجاهد وعطاء: واجبٌ على الكاتب أن يكتب. وقوله: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: وليُملل المدينُ على الكاتب ما في ذمته من الدَّين، وليتق الله في ذلك ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: لا يكتم منه شيئًا ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجورًا عليه بتبذير ونحوه ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ أي: صغيرًا أو مجنونًا ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لعِيٍّ أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ أمرٌ بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يُقصد به المال، وإنما أُقيمت المرأتان مقام الرجل لنُقصان عقل المرأة، كما روى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تَعْدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل». وقوله: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود. وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ يعني: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد. وقوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾: قيل: معناه: إذا دُعوا للتحمُّل فعليهم الإجابة. وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ وقيل -وهو مذهب الجمهور-: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ للأداء، لحقيقة قوله: ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمَّل، فإذا دُعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعيَّنت وإلا فهو فرض كفاية.

وقال مجاهد وأبو مِجْلَز وغير واحد: إذا دُعيتَ لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدُعيت فأجِبْ.

وقوله: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، فقال: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾ أي: لا تملُّوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدَل ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبَت للشاهد إذا وضع خطَّهُ ثم رآه تذكَّر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها. فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قول الله: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ يعني: أشهِدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهِدوا على حقكم على كل حال. وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]. وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والنَّدْب، لا على الوجوب. ولكن الاحتياط هو الإشهاد.

وقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يُملَى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلّية. وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه: لا يضرّ بهما. وعن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنَّا على حاجة، فيقول: إنكما قد أُمرتما أن تُجيبا. فليس له أن يضارهما. وقوله: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ أي: إن خالفتم ما أُمرتم به، وفعلتم ما نُهيتم عنه، فإنه فِسقٌ كائن بكم، أي: لازمٌ لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكُّون عنه.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره، واتركوا زَجره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمُه محيط بجميع الكائنات.

الآية (٢٨٣): ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاسًا أو دواة أو قلمًا ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فَلْيكن بدل الكتابة رِهَانٌ مقبوضة في يد صاحب الحق.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسَخت ما قبلها. وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس ألَّا تكتبوا أو لا تُشهِدوا. وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ يعني: المؤتَمن.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أي: لا تخفوها، وتغلُّوها ولا تظهروها[1]. قال ابن عباس: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ قال السُّدي: يعني: فاجرٌ قلبه. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ [المائدة:١٠٦]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

الآية (٢٨٤): يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطّلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقَّت وخفيت، وأخبر أنه سَيُحاسِب عباده على ما فعلوه وما أخفَوه في صدورهم، كما قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٩]، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة ﷺ وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [رواه مسلم]. وعن مَرْوان الأصفر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ -أحسَبُه ابن عمر- ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها [رواه البخاري]. وهكذا رُوي عن علي، وابن مسعود، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها.

الآية (٢٨٥): [فضل الآية وما بعدها] عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَاه» [رواه البخاري]. قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحدٌ أحد، فردٌ صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارُّون راشدون مَهْديون هادُون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسَخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نُسِخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمّته على الحق ظاهرين. وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقُمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغَفْر والرحمة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

الآية (٢٨٦): ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا مِن لُطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفَق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذّب إلا بما يملك الشخصُ دَفْعَهُ، فأما ما لا يمكن دفعُه -من وسوسة النفس وحديثها- فهذا لا يكلّف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان. وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف.

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ أي: إنْ تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ أي: الصوابَ في العمل، جهلًا منا بوجهه الشرعي.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة -وإن أطَقْنَاها- كما شرعتَهُ للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثتَ نبيَك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعِهِ في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: نعم». وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلِنا بما لا قِبَل لنا به. وقوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزَلَلِنا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَٱرْحَمْنَآ ۚ﴾ أي: فيما يُسْتَقبل، فلا تُوقعنا في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: أنت وليُّنا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التّكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: «نعم». وروى ابن جرير أن معاذًا كان إذا فرغ من هذه السورة: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: آمين.

وتم تفسير سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لا يفهم منه النهي عن إظهار الشهادة بل الجملة توضيح لجملة: وتَغُلُّوها.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، في سنة تسع من الهجرة. [وعدد آياتها مائتا آية].

[فضلها]: عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرْقَان من طير صوافّ تحاجَّان عن أصحابهما» [رواه مسلم].

الآية (١-٤): تقدم الكلام على قوله: ﴿الٓمٓ﴾ في أول البقرة، وقوله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله عز وجل أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدًا. وقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدّقه بما أخبرت به وبشّرت في قديم الزمان، وهو يصدّقها؛ لأنه طابَق ما أخبرت به وبشَّرَت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن العظيم عليه. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي: على موسى بن عمران ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ أي: على عيسى بن مريم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ أي: في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغَيّ والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبيّنه ويوضحه ويفسره ويقرره، ويرشد إليه وينبّه عليه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾ أي: منيع الجَناب عظيم السلطان ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن كذّب بآياته وخالف رُسله الكرام، وأنبياءه العظام.

الآية (٥-٦): يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ أي: يخلقكم في الأرحام كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسَن وقبيح، وشقي وسعيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا تُرام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض -بل تصريح- بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوَّره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال؟!

الآية (٧): يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكّم مُحكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد. قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغٌ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١]، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرّحة بأنه خلقٌ من مخلوقات الله، وعبدٌ ورسول من رسل الله. وقوله: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ أي: تحريفه على ما يريدون. عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ» [رواه البخاري ومسلم]. وقوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾: اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة. ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، وعن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم.

وقوله إخبارًا عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمتشابه ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلِف، ولا متضادّ. قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة، والفهوم المستقيمة.

الآية (٨-٩): ثم قال تعالى عنهم مُخبرًا أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ أي: لا تُمِلْها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبّتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحۡمَةً﴾ تثبّت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾. قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي: يقولون في دعائهم: إنك -يا ربنا- ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزى كلًا بعمله، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

الآية (١٠-١١): يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمُنجيهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥]، كما قال ههنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حطبها الذي تُسجَر به وتُوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

قوله: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون. ومنهم من يقول: كسُنّة آل فرعون، وكفِعل آل فرعون وكشَبَهِ آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدَّأْب -بالتسكين والتحريك أيضًا؛ كنَهْر ونَهَر- هو الصّنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك. والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومَن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحُجَجِه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي: شديد الأخذ، أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد، الذي قد غلب كل شيء، لا إله غيره، ولا رب سواه.

الآية (١٢): يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سَتُغْلَبُونَ ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾. [سبب النزول] عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما أصاب قريشا». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

الآية (١٣): قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي: قد كان لكم -أيها اليهود القائلون ما قلتم- ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله مُعزٌّ دينَه، وناصرٌ رسولَه، ومُظهرٌ كلمته، ومُعْلٍ أمرَه ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿ٱلْتَقَتَا ۖ﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المسلمون ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأيَ أعيُنِهم، أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سببًا لنصرة الإسلام عليهم. [وقيل]: ترى الفئةُ المسلمة الفئةَ الكافرة مثليهم، أي: ضِعفَيْهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم [فإن قيل:] ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾؟ [الأنفال: ٤٤] والجواب: أن هذا كان في حال، والآخر كان في حال أخرى؛ عن ابن مسعود في قوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر، [و]قال: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحدًا؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾[الأنفال: ٤٤].

[وقوله]: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: إن في ذلك لـمُعتبَرًا لمن له بصيرة وفهم، ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدَرِه الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

الآية (١٤): يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت أنه ﷺ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء» [متفق عليه]. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوبٌ فيه مندوبٌ إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه «وإنَّ خَيْرَ هَذه الأُمَّةِ كَانَ أَكْثرها نساءً» [رواه البخاري]، وقوله ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاع، وخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالحةُ» [رواه مسلم]، وقوله في الحديث الآخر: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ، وجُعلَتْ قُرة عَيْني فِي الصلاة» [رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني]. وحب المال كذلك تارةً يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبُّر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القُربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات؛ فهذا ممدوح محسود عليه شرعًا. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره. وحُب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطَها أصحابُها مُعدَّة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزَوا عليها، فهؤلاء يُثابون. وتارة تُربط فخرًا ونِوَاءً لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وِزْر. وتارة للتعفُّف واقتناء نسلها، ولم يَنْسَ حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها سِتْر. وأما ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ فعن ابن عباس: المسومة الراعية، والمُطَهَّمة الحِسَان. وقال مكحول: المسومة: الغُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ يعني: الأرض المتَّخذة للغِرَاس والزراعة. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب.

الآية (١٥): ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: قل يا محمد للناس: أأُخبركم بخير مما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبَر عن ذلك فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبَن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشَر. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبد الآباد، لا يبغون عنها حِوَلًا ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الدَّنَس، والخَبَث، والأذى، والحيض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَط عليهم بعده أبدًا؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي: يُعطي كلًا بحسب ما يستحقه من العطاء.

الآية (١٦): يصفُ تعالى عباده المتقين الذين وعدَهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: بك وبكتابك وبرسولك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: بإيماننا بك وبما شرعتَهُ لنا، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا مِن أمرِنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

الآية (١٧): ثم قال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: في قيامهم بالطاعات وتركِهم المحرمات ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أُمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسدّ الخَلَّات، ومواساة ذوي الحاجات ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ دلَّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِر فيقولُ: هَلْ مِنْ سَائل فأعْطِيَه؟ هَلْ مِنْ دَاع فَأَسْتجيبَ له؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِر فأغْفِرَ لَهُ؟» الحديث.

الآية (١٨): شهد تعالى -وكفى به شهيدًا، وهو أصدق الشاهدين وأعدَلهم، وأصدق القائلين- ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: المتفَرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية [النساء:١٦٦]. ثم قرن شهادة ملائكته وأُوْلي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُرام جنابه عظمةً وكبرياءً، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعِه وقدَره.

الآية (١٩): إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سدّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمُتقبَّل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال في هذه الآية مُخبرًا بانحصار الدين المتقبّل عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضَهم بُغْضُ البَعْض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقًا، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: من جحد بما أنزل الله في كتابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

الآية (٢٠): قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ندّ له، ولا ولد، ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ على ديني، يقول كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعِه وما بعثه الله به: الكتابيِّين من الملتين والأميين من المشركين فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويُضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وما ذاك إلا لحكمته ورحمته. وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق، كما هو معلومٌ من دينه ضرورةً، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمِن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِي، ومَاتَ وَلم يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسلتُ بِهِ، إلا كان مِنْ أَهْلِ النَّارِ» [رواه مسلم].

الآية (٢١-٢٢): هذا ذمٌّ من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديمًا وحديثًا، التي بلَّغَتْهُم إياها الرسل، استكبارًا عليهم وعنادًا لهم، وتعاظُمًا على الحق واستنكافا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلّغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعَوهم إلى الحقّ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْط النَّاسِ» [رواه مسلم].

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مُوجع مهين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

الآية (٢٣): يقول تعالى مُنكِرًا على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابَيْهِم اللَّذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ، تولَّوا وهم معرضون عنهما. وهذا في غاية ما يكون مِن ذمِّهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد.

الآية (٢٤): ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي: إنما حملهم وجَرَّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوما. ثم قال: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ثَبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم مِن زعمِهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أيامًا معدودات، وهم الذين افترَوا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانًا.

الآية (٢٥): قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه وكونه، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٦): يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، معظمًا لربك وشاكرًا له ومفوضًا إليه ومتوكلا عليه: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: لك الملك كله ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حوَّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصَّه بخصائص لم يُعْطِهَا نبيًا من الأنبياء ولا رسولًا من الرسل، في العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. قال الله تعالى ردًا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ الآية [الزخرف:٣٢]، أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مُدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

الآية (٢٧): أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء. وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: تخرج الزرع من الحبة والحبَّة من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: تعطي من شئت من المال ما لا يَعدُّه ولا يقدر على إحصائه، وتقتِّر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة.

الآية (٢٨): نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسِرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعّد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات مِن شرّهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إنَّا لنكْشِر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». وقال ابن عباس: ليس التقية بالعمل، إنما التقية باللسان.

وكذا قال أبو العالية وغيره. ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يحذركم نقمتَه في مخالفتِه، وسطوتَه في عذابِه، لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المرجع والمنقلَب، فيجازي كل عامل بعمله.

الآية (٢٩): يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل عِلمُه محيطٌ بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإنْ أنْظَر مَن أنْظَر منهم، فإنه يُمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال بعدها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

الآية (٣٠): يعني: يوم القيامة يُحضَر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣]، فما رأى من أعماله حسنًا سرَّهُ ذلك وأفرحَهُ، وما رأى من قبيح ساءه وغاظَهُ، ووَدَّ لو أنه تبرَّأ منه، وأن يكون بينهما أمَدٌ بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترِنًا به في الدنيا، وهو الذي جرَّأه على فعل السوء: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨]. ثم قال تعالى مؤكدًا ومُهددًا ومتوعدًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال -مُرجّيًا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لُطفه-: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ قال الحسن البصري: مِن رأفته بهم حذّرهم نفسَهُ. وقال غيره: أي: رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

الآية (٣١): هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ. ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته.

الآية (٣٢): ثم قال آمرًا لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: خالَفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فدلّ على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتَّصف بذلك، وإن ادَّعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء -بل المرسلون، بل أولو العزم منهم- في زمانه لما وسِعَهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته.

الآية (٣٣-٣٤): يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجَد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة. واصطفى نوحًا عليه السلام وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانًا، وانتقم له لـمَّا طالت مدّته بين ظَهْرَاني قومه، يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم؛ فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم. كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله.

الآية (٣٥-٣٦): امرأة عمران هذه هي أم مريم، قال ابن إسحاق: كانت امرأة لا تحمل، فاشتهت الولد، فدعت الله تعالى أن يَهَبَهَا ولدًا، فاستجاب الله دعاءها، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصًا مفرغًا للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لدعائي، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرًا أم أنثى ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قُرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقُرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة؛ لأنه شرع من قبلنا وقد حُكي مقررًا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَد سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» [متفق عليه].

وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: عَوَّذتها بالله عز وجل من شر الشيطان، وعوَّذت ذريتها، وهو ولدها عيسى عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا مَسَّه الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلّ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إيَّاهُ، إلا مَرْيَم وَابْنَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [متفق عليه].

الآية (٣٧): يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا، ويَسّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله كافلًا لها. قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة.

وإنما قدّر الله كون زكريا كافلها لسعادتها؛ لتقتبس منه علمًا جمًّا نافعًا، وعملًا صالحًا؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير. وقيل: زوج أختها كما ورد في الصحيح: «فإذا بِيحيى وعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ»، وقد يُطْلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا تَوسُّعًا، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها. ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: يعني: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وفيه دلالة على كرامات الأولياء. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ﴾ أي: يقول من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية (٣٨): لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذٍ في الولد، وكان شيخًا كبيرًا قد ضعُف ووَهَن منه العظم، واشتعل رأسه شيبًا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداءً خفيًا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولدًا صالحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

الآية (٣٩): قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي: خاطبته الملائكة شفاهًا خطابًا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خَلْوَته، ومجلس مناجاته وصلاته. ثم أخبر عما بشّرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه «يحيى». وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عن ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وغيرهم: أي: بعيسى ابن مريم. وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال أبو العالية، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم. وقال قتادة: سيدًا في العلم والعبادة. وقال ابن عباس والثوري والضحاك: السيد الحكيم المتّقي. وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله. وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ رُوي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم؛ أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء. وقد قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء»: اعلم أن ثناء الله على يحيى أنه كان حَصُورًا ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هَيوبًا، أو لا ذكَر له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونُقَّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها، كأنه حصور عنها، وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقد بان لك من هذا أنَّ عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها: إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله كيَحيى. ثم هي في حق من قَدَر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا محمد ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. والمقصود أنه مدح يحيى بأنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يُفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعَقِب. قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

الآية (٤٠): فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أي الملك: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

الآية (٤١): أي: علامة أستدِل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]. ثم أمر بكثرة الذكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

الآية (٤٢): هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها، أي: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطُهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين. وعن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» [متفق عليه].

الآية (٤٣): ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدُّؤوب في العمل، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدّره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة؛ حيث خلق منها ولدًا من غير أب، فقال: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع؛ كما قال تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦].

الآية (٤٤): ثم قال تعالى لرسوله -بعدما أطلعه على جليّة الأمر-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نقصُّه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبر عنهم معاينةً عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرًا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيُّهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

الآية (٤٥): هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيمٌ له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩]. وقوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: يكون مشهورًا بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخْمص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى. وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نِسبةً له إلى أمه، حيث لا أب له، ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منَحَهُ به. وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوةً بإخوانه مِن أُولي العزم، صلوات الله عليهم.

الآية (٤٦-٤٧): أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، في حال صغره، معجزةً وآية، وحال كُهولته حين يوحي الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل، قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بَغيًّا؟! حاشا لله. فقال لها الملك -عن الله عز وجل في جواب هذا السؤال-: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شيء. وصرّح ههنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى لمُبطلٍ شُبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فلا يتأخر شيئًا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مُهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] أي: إنما نأمر مرةً واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح بالبصر.

الآية (٤٨): يقول تعالى مخبرًا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام أن الله يعلّمه الكتاب والحكمة. الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا: الكتابة. والحكمة تقدَّم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فالتوراة: هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا.

الآية (٤٩): ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يجعله رسولًا إلى بني إسرائيل، قائلًا لهم: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخُ فيه، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قيل: هو الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا. وقيل بالعكس. وقيل: هو الذي يولد أعمى. وهو أشبَه؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ معروف. ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السَّحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيّرت كل سَحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد؟ أو على مداواة الأكْمَه، والأبرص؟ وبعث من هو في قبره رهينٌ إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه في زمن الفُصَحاء والبُلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا.

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مُدّخرٌ له في بيته لغَدِه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في ذلك كله ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ أي: على صدْقي فيما جئتكم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الآية (٥٠): ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مُقرّرًا لها ومُثبّتًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسَخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحَلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطأوا، فكشف لهم عن المغطَّى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣]. ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

الآية (٥١): أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

الآية (٥٢): يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟ والظاهر أنه أراد: مَن أنصاري في الدعوة إلى الله. كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُل يُؤْوِيني حتى أبلغ كلامَ رَبِّي، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُوني أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني] حتى وجد الأنصار فآوَوْهُ ونصروه، وهاجر إليهم فواسَوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انْتدَبَ له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ الحواريون قيل: كانوا قَصّارين. وقيل: سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم. وقيل: صيادين. والصحيح أن الحواري: الناصر. كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير، فقال: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا، وَحَوَارِيّي الزُّبَيْرُ» [متفق عليه].

الآية (٥٣-٥٤): عن ابن عباس في قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ.

ثم قال تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل فيما هَمُّوا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصَّلب، حين تمالؤوا عليه، ورموه [بـ]الكذب، وأنه ولدزانية! فلما ظنوا أنهم قد ظَفِروا به، نجَّاه الله من بينهم، ورَفعَه إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل [آخر]، فأخذوه وصلبوه، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجَّى نبيّه ورفعه من بين أظهُرِهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطَلبتِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

الآية (٥٥-٥٨): اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فقال قتادة وغيره: هذا من المقدَّم والمؤخَّر، تقديره: إني رافعك إليَّ ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال ابن عباس: أي: مُميتُك. وقال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت. وكذا قال ابن جريج: تَوَفِّيه هو رَفْعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا: النوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم -: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ» [رواه البخاري]. وقال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٦-١٥٩]، والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عائد على عيسى عليه السلام؛ أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ بعيسى [قبل موت عيسى]، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، فحينئذٍ يُؤمِن به أهل الكتاب كلّهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهكذا وَقَع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رَفَعَه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شِيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بَعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورَدّ على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبًا من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلةً ليُفسده، فإنه كان فيلسوفًا، وقيل: جهلًا منه، إلا أنه بَدَّل لهم دين المسيح وحَرَّفه، وزاد فيه ونقص منه، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيَّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارًا، عليهم لعائن الله. فلما بَعَثَ الله محمدًا ﷺ، فكان من آمن به يُؤمِن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق: كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض؛ إذْ قد صدَّقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيّد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي مِن أمّته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ما قد حَرّفوا وبدَّلوا. ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شَرِيعَةَ جميع الرسل بما بَعَث به محمدًا ﷺ من الدين الحق، الذي لا يُغَيَّر ولا يُبَدَّل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا على كل دين. ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا سَلَبوا النصارى بلاد الشام وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ كذلك فَعَل تعالى بمن كَفَر بالمسيح من اليهود، أو غَلا فيه وأَطْراه من النصارى؛ عَذَّبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخْذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عَذابُهم أشدُّ وأشقُّ، وما لهم من الله من واقٍ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذا الذي قَصَصْنَاه عليك يا محمد في أَمْر عيسى ومَبْدأ ميلاده وكيفية أمْره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحَاهُ إليك وأنزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مِريَةَ فيه ولا شكَّ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤].

الآية (٥٩-٦١): يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قُدرة الله تعالى حيث خَلَقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ فإن الله تعالى خَلَقَه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأَولى والأَحرَى، وإنْ جاز ادعاء البُنوَّة في عيسى بكونه مخلوقًا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأَولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشدّ بُطلانًا وأظهر فسادًا. ولكن الرب عز وجل أراد أن يُظهر قدرته لخلقه حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواءَ من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذَكَر، كما خَلَقَ بقية البريَّة من ذَكَر وأنثى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١]، وقال ههنا: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا مَحيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى -آمرًا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: نُحضِرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نلتعن، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: منا أو منكم. وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد نجران.

الآية (٦٢-٦٣): قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا مَعْدِل عنه ولا مَحيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن هذا إلى غيره. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من عَدَل عن الحق إلى الباطل فهو المُفسِد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شرَّ الجزاء، وهو القادر الذي لا يَفُوته شيء، سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نِقَمِه.

الآية (٦٤): هذا الخطاب يعُمُّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تُطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: عَدْل ونَصَف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وَثَن، ولا صنم، ولا صليب ولا طاغوت، ولا نار، ولا شيء. بل نُفْرِدُ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. ثم قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وقال ابن جُرَيْج: يعني: يُطيع بعضنا بعضًا في معصية الله. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولَّوا عن هذا النَّصَف، وهذه الدعوة فأشهِدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شَرَعه الله لكم. وعن أبي سفيان في قصته حين دَخَل على قيصر، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، أنه قال: ثم جِيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم، سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأريسيِّين، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [رواه البخاري].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد: أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلَتْ في وَفْد نجْران. وقال الزهري: هم أول من بَذَلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هِرقْل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب من وجُوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين: مَرّةً قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ؛ لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مُصَالحةً عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكَتْب هذا الكلام في كتابه إلى هرقل وإن لم يكن أُنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له ﷺ.

الآية (٦٥-٦٨): ينكر تعالى على اليهود والنصارى في مُحَاجَّتِهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، [سبب النزول] عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: كيف تَدّعُون أيها اليهود أنه كان يهوديًّا، وقد كان زمنه قبل أن يُنَزِّل الله التوراة على موسى؟ وكيف تَدّعُون أيها النصارى أنه كان نصرانيًّا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ثم قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا إنكار على من يُحاجّ فيما لا عِلم له به، فإنَّ اليهود والنصارى تَحاجُّوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجُّوا فيما بأيديهم منه علْم مما يتعلق بأديانهم التي شُرِعَت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أَولى بهم، وإنما تكلَّموا فيما لم يعلموا به، فأنكَر الله عليهم ذلك، وأمَرَهم بِرَدِّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليّاتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي: مُتَحَنِّفًا عن الشرك قاصدًا إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذه الآية كالتي تقدَّمت في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحقّ الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي - يعني محمدًا ﷺ- والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومَنْ بعدهم. عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أبي وخَلِيلُ رَبِّي عز وجل». ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ الآية [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولي جميع المؤمنين برسله.

الآية (٦٩-٧٠): يخبر تعالى عن حَسَدِ اليهود للمؤمنين وبَغْيهم إياهم الإضلال، وأخبر أنَّ وَبَالَ ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكورٌ بهم. ثم قال تعالى مُنكِرًا عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: تعلمون صدقها وتتحققون حقها.

الآية (٧١-٧٤): ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تكتمون ما في كُتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتَتَحَقَّقُونَه. ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ هذه مكيدة أرادوها ليلْبِسوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوَروا بينهم أن يُظهِروا الإيمان أول النهار، ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ أي: لا تطمئنوا وتظهروا سِرَّكم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم، ولا تُظهِروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيُؤمنوا به ويَحتجُّوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتمّ الإيمان، بما يُنَزِّلُهُ على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وَإِنْ كتمتُم -أيها اليهود- ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كُتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ يقولون: لا تُظهِروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلَّموه منكم، ويساووكم فيه، ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجُّوكم به عند الله، أي: يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به وتَتَرَكَّب الحجةُ في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ أي: الأمورُ كلها تحت تصريفه، وهو المعطي المانع، يَمُنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصوّر التام، ويُضِلُّ من يشاء ويُعمي بَصَره وبصيرته، ويَختم على قلبه وسمعه، ويَجعل على بَصَره غشاوة، وله الحجة والحكمة. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: اختصَّكم -أيها المؤمنون- من الفضل بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف، بما شرَّف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمدِ الشرائع.

الآية (٧٥-٧٦): يُخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخوَنة، ويُحذِّر المؤمنين من الاغترار بهم؛ فإن منهم ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ أي: من المال ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: وما دونه بطريق الأَولى أن يُؤديَه إليك، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقِّك، وإذا كان هذا صنيعُه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه إليك.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهِدْهم. فقال: كفى بالله شهيدًا. قال: ائتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلًا. قال: صدقتَ. فدَفَعَها إليه إلى أجل مسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يَقْدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبةً فنَقَرَها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا [فرضي بك] وسألني شهيدًا، فقلتُ: كفى بالله شهيدًا. فرضي بك، وإني جَهَدْتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني استودعتكها. فرمى بها في البحر حتى وَلَجَتْ فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فَخَرَجَ الرجل الذي كان أَسْلَفه ينظر لعل مركبًا يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان تَسَلَّف منه، فأتاه بألف دينار، وقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بَعَثْتَ إليَّ بشيء؟ قال: ألم أُخْبِرْكَ أني لم أجد مركبًا قبل هذا؟ قال: فإن الله قد أَدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدًا» [رواه البخاري].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ أي: إنَّما حَمَلهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميّين، وهم العَرَب؛ فإن الله قد أحلَّها لنا! قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فَإن الله حَرَّم عليهم أكل الأموال إلا بحقِّها، وإنما هم قوم بُهْت. عن صَعْصَعَة بن يزيد: أن رجلًا سأل ابن عباس، قال: [إنَّا] نُصِيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاةَ؟ قال ابن عباس: فَتَقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ إنهم إذا أدَّوا الجزية لم تَحِلَّ لكم أموالُهم إلا بطِيب أنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ أي: لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب، الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أَخَذ العهد والميثاق على الأنبياء وأُممهم بذلك، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ محارم الله تعالى، واتَّبَع طاعته وشِرْعَته التي بَعَثَ بها خاتم الرسل وسيد البشر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

الآية (٧٧): يقول تعالى: إن الذين يَعتَاضون عما عاهدوا الله عليه من اتِّبَاع محمد ﷺ، وذِكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة، فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظَّ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: برحمة منه لهم، يعني: لا يكلمهم كلامَ لُطفٍ بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

الآية (٧٨): يخبر تعالى عن اليهود عَليهم لعائن الله، أن منهم فريقا يُحَرِّفون الكَلِم عن مواضعه ويُبَدِّلون كلام الله، ويُزيلُونَه عنِ المراد به، ليُوهِموا الجهَلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذِب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذَّبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقال مجاهد والشعبي وغيرهما: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: يحرفونه.

الآية (٧٩-٨٠): ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لبشرٍ آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله. وإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسَل، فلأَنْ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأَولى والأَحرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا -يعني أهل الكتاب- كانوا يَتعبَّدون لأحبارِهم ورُهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة:٣١]. فالجهَلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذَّم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أَمَرَ الله به وبلّغتهم إياه رسله الكرام. إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وَبَلَّغَتْهُم إياه رسُلُه الكرام. فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ- هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حَمَلوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتمَّ قيام، ونصحوا الخلق، وبلّغوهم الحق. وقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يقول الرسول للناسِ: كونوا رَبَّانيين. قال ابن عباس وغير واحد: أي حُكماء عُلماء حُلَماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء. وقال الضحاك في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ حَقٌّ على مَن تعلَّم القرآن أن يكون فَقيهًا، ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتخفيف أي: تفهمون معناه. وقُرئ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد: من التعليم، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون ألفاظه. ثم قال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبيٌّ مُرسَل ولا ملَكٌ مُقَرَّب، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يَفْعَل ذلك؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية [النحل:٣٦]، وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

الآية (٨١-٨٢): يُخبر تعالى أنه أَخَذ ميثاق كل نبي بَعَثه من لَدُنْ آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لَمَهْمَا آتى اللهُ أحدَهم من كتابٍ وحكمة، وبلَغ أيّ مَبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمِنَنَّ به ولينصُرَنَّه، ولا يمنعُه ما هو فيه من العلم والنبوة مِن اتباع من بُعِثَ بعده ونُصرتِه؛ ولهذا قال تعالى وتقدّس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: لَمَهْمَا أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قَالَ ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني عهدي. ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ قَالَ ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أَخَذَ عليه الميثاق: لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حَيّ ليؤمننّ به ولينصُرَنَّه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعِث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه. وقال طاووس، والحسن البصري، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدّق بعضهم بعضا. وهذا لا يضادّ ما قاله عليّ وابن عباس، ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه. فالرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم، الذي لو وُجِد في أي عصر لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامَهُم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لِفَصْل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يَلِيقُ إلا له، والذي يَحِيْدُ عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تَنتهي النَّوبة إليه، فيكونَ هو المخصوص به.

الآية (٨٣): يقول تعالى مُنكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله، الذي أَنْزَل به كُتبَه وأرسل به رسلَه، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذي ﴿لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له مَن فيهما طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [الرعد:١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٤٨-٥٠]. فالمؤمن مُسْتَسْلِمٌ بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقَهر والسلطان العظيم، الذي لا يُخَالَف ولا يُمَانَع. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم المَعَاد، فيُجَازِي كلًّا بعمله.

الآية (٨٤-٨٥): ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ أي: من الصُّحف والوحي، ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثني عشر. ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني بذلك: التوراة والإنجيل، ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وهذا يَعُمُّ جميعَ الأنبياء جملةً، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أُرسل، وبكل كتاب أُنْزِل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مُصَدِّقون بما أُنزل من عند الله، وبكلِّ نبيٍّ بَعَثه الله. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ أي: من سَلَك طريقًا سوى ما شَرَعَه الله فلن يُقْبل منه ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [رواه مسلم]. وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الأعمال يوم القيامة، فتَجِيءُ الصلاة فتقول: يا ربِّ، أنا الصلاة. فيقول: إنك على خير. فتَجِيءُ الصدقة فتقول: يا ربِّ، أنا الصدقة. فيقول: إنكِ على خير. ثم يَجِيءُ الصيام فيقول: أي يا ربِّ، أنا الصيام. فيقول: إنكَ على خير. ثم تَجِيءُ الأعمال، كل ذلك يقول الله تعالى: إنك على خير، ثم يَجِيءُ الإسلام فيقول: يا رب، أنتَ السلام وأنا الإسلام. فيقول الله: إنكَ على خير، بكَ اليوم آخُذُ وبك أُعْطِي، قال الله في كتابه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾» [رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر].

الآية (٨٦-٨٩): [سبب النزول] عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلَم ثمَّ ارتدَّ ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سَلُوا لي رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فأرسل إليه قومُه فأسلم. [رواه أحمد والنسائي، وصححه أحمد شاكر]. فقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي: قامتْ عليهم الحُجَجُ والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسولُ، وَوَضَح لهم الأمرُ، ثم ارتدوا إلى ظُلْمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تَلَبَّسُوا به من العماية؟! ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُفتَّر عنهم العذاب، ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وهذا من لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ ورحمته وعائدَتِه على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

الآية (٩٠): يقول تعالى متوعِّدًا ومتهدِّدًا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرًا، أي: استمر عليه إلى الممات، ومُخبرًا بأنه لن تُقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]. ولهذا قال ههنا: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغَيِّ.

[سبب النزول] روى البزار عن ابن عباس؛ أن قومًا أسلموا ثم ارتدّوا، ثم أسلموا ثم ارتدّوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ وإسناده جيد.

الآية (٩١): ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: من مات على الكفر فلن يُقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أَنفَق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قُرْبةً، كما سُئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان -وكان يُقْرِي الضيفَ، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِن الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يوم الدِّينِ» [رواه مسلم].

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قُبِل منه، كما قال: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٞ﴾ [إبراهيم:٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة:٣٦]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فعَطَف ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ على الأول، فدَلَّ على أنه غيره.

ويَقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا، بوَزْن جِبالها وتِلالها وتُرابها ورِمَالها وسَهْلها ووعْرِها وبَرِّها وبَحْرِها. وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ. قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أبيك آدَمَ ألا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ بِي». [متفق عليه]. ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: وما لهم من أحد يُنْقِذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

الآية (٩٢): عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكانَ أحبَّ أمواله إليه بيْرَحاءُ -وكانت مُسْتقْبِلةً المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيّب- قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيْرَحاءُ، وإنها صدقةٌ لله أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله تعالى، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: «بَخٍ بخ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِح، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». فَقَسَمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه [متفق عليه].

الآية (٩٣-٩٥): عن ابن عباس قال: حضرَت عصابةٌ من اليهود نبيَّ الله ﷺ فقالوا: حدِّثنا عن خِلَالٍ نسألك عنهن لا يَعلمهنّ إلا نبي؟ [فذكر الحديث، وفيه أنهم قالوا]: أَخْبِرْنَا أَيّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه؟ [وأن رسول الله ﷺ قال لهم]: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سُقْمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا، لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ مِنْ سُقْمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحمان الإبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي: حرَّم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، [فـ]كان حِلًّا لهم جميعُ الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرَّمه إسرائيل، ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان: إحداهما: أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله -وكان هذا سائغًا في شريعتهم- فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فهذا هو المشروع عندنا؛ وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه؛، كما قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه شرع في الرد على اليهود، قبحهم الله، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع؛ فإن الله عز وجل قد نص في كتابهم التوراة أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وهذا منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه. ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقةٌ بما قلناه. ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: فمن كَذَب على الله وادَّعى أنه شَرَع لهم السبت والتمسُّك بالتوراة دائمًا، وأنه لم يَبْعَث نبيًّا آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحُجَج بعد هذا الذي بَيَّنَّاه من وقوع النَّسخ وظهور ما ذكرنا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل يا محمد: صَدَق فيما أَخبَر به، وفيما شَرَعه في القرآن ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: اتبعوا ملَّة إبراهيم التي شَرَعَها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ؛ فإنَّه الحقّ الذي لا شكّ فيه ولا مِرْية، وهي الطريقة التي لم يأتِ نبيٌّ بأكملَ منها، ولا أَبْيَنَ، ولا أوضَح ولا أتمَّ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

الآية (٩٦-٩٧): يُخْبِر تعالى أن أول بيت وُضع لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكِهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل، ونادى الناس إلى حَجِّه؛ ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وُضع مباركًا، ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مَسجِد وُضِع أوَّلُ؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قلت: ثم أَيٌّ؟ قال: «الْمسجِدُ الأَقْصَى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» [متفق عليه]. وبَكَّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل سُمِّيت بذلك لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: يُبَكُّون بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يَتَبَاكّون فيها، أي: يزدحمون. وقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمه وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني: الذي لَـمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران؛ حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشاعر. وقال مجاهد: أثرُ قدميه في المقام آيةٌ بينة. وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني: حَرَمُ مكة إذا دَخَله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش:٣-٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ هذه آيةُ وُجُوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]. والأول أظهر. وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًّا، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرَّةً واحدة بالنص والإجماع. وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جَحَد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه. عن عمر بن الخطاب قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا [رواه الإسماعيلي، وصحح إسناده ابن كثير].

الآية (٩٨-٩٩): هذا تعنيف من الله تعالى لكَفَرة أهل الكتاب، على عنادهم للحقِّ، وكُفرهم بآيات الله، وصَدِّهم عن سبيله مَنْ أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ حقّ من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، وما بَشَّروا به ونوَّهُوا، من ذِكْر النبي الأميّ الهاشمي العربي المكّيّ، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد تَوَعَّدَهُم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صَنِيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المُبَشّر: بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

الآية (١٠٠): يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

الآية (١٠١): ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعني: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلًا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨]. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية، والعُدَّة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

الآية (١٠٢-١٠٣): عن ابن مسعود: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعْصَى، وأن يُذكَر فلا يُنسَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر.

وقد ذهب سعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: لم تنسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لَوْمَة لائم، ويقوموا بالقِسْط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه؛ فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلا الزَّقُّومُ؟!» [رواه أحمد وغيره، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله عز وجل». [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعهد الله، كما قال في الآية بعدها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢]، أي: بعَهْدٍ وذمة، وقيل: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾[1] يعني: القرآن. وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أمَرَهُم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف، [منها] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْـمَالِ» [رواه مسلم]. وقد ضُمِنَتْ لهم العِصْمةُ -عند اتفاقهم- من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخِيفَ عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة، فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسَلَّمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج؛ فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحَنٌ وذُحُولٌ[2] طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدَخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]، وكانوا على شَفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها. وقد امتنَّ عليهم بذلك رسولُ الله ﷺ يوم قَسَم غنائم حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ مَن عتب منهم لـمَّا فَضَّل عليهم في القِسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أجدْكُمْ ضُلالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. [متفق عليه].

الآية (١٠٤-١٠٨): يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: مُنتصبةٌ للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعني: المجاهدين والعلماء. والمقصود من هذه الآية أن تكون فِرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ». وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» [رواه مسلم]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين في تفرُّقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني: يوم القيامة، حين تبيَضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسوَدُّ وجوه أهل البِدْعَة والفرقة، قاله ابن عباس.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: قال الحسن البصري: وهم المنافقون. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يَعُمّ كل كافر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني: الجنة، ماكثون فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه آيات الله وحُجَجُه وبيّناته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ليس بظالمٍ لهم، بل هو الحَكَم العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلِم أحدًا من خلقه.

---

(١) في نسخ ابن كثير كتبت: ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والصواب ما أثبتناه؛ ليصدق عليه تفسيره بالقرآن المعتصم به كما في الآية: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) إحنٌ وذُحُولٌ: أحقادٌ وعداواتٌ.

الآية (١٠٩): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملْكٌ له وعَبيدٌ له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

الآية (١١٠-١١٢): يُخبِر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرَ الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام. [رواه البخاري]. والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: هذه الآية عامةٌ في جميع الأمة، كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم: الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بنبيّها محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أشرفُ خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع عظيم لم يُعْطِهِ نبيًّا قبله ولا رسولًا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقُوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه... فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]. ولهذا لما مَدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان. ثم قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومُبشِّرًا لهم أن النصر والظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهكذا وقَع؛ فإنهم يوم خَيْبَر أذلّهم الله وأرْغَم آنافَهُم، وكذلك مَن قبلهم من يهود المدينة: بني قَيْنُقَاع وبني النَّضِير وبني قُرَيْظَة، كلهم أذلّهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة في غير ما موطن، وسَلَبوهم مُلْك الشام أبدَ الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم عليه السلام بشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيَكْسر الصَّلِيب، ويقتل الخنزير، ويَضَع الجزْية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ألزَمَهُم اللهُ الذلّةَ والصَّغار أينما كانوا، فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد من المسلمين. وقال ابن عباس: أي: بعهد من الله وعهد من الناس، وهكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وغيرهم. وقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أُلزِمُوا فالتزَمُوا بغضب من الله، وهم يستحقونه، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: أُلزِمُوها قَدرًا وشَرْعًا. ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: وإنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْي وَالْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذِّلة والصَّغار والمسكنة أبدًا، متصلًا بذلَّةِ الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقَتْلِ رُسُل الله وقُيِّضُوا لذلك: أنّهم كانوا يُكثِرون العصيان لأوامر الله عز وجل والغشَيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فَعِياذًا بالله من ذلك، والله المستعان.

الآية (١١٣-١١٥): [سبب النزول] عن ابن مسعود قال: أخَّر رسولُ الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: «أَمَا إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ». قال: وأُنزِلَت هذه الآيات: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ حتى بلغ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. والمشهور عند كثير من المفسرين - ورواه العوفي عن ابن عباس- أن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلام، وأسَد بن عُبَيْد، وثعلبة بن سَعْية وأُسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدَّم ذكرهم بالذَّم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي: ليسوا كلُّهم على حَدٍّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المُجْرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعِه مُتَّبِعة نبيَّ الله ﴿قَآئِمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل، ويُكثرون التهجُّد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملًا.

الآية (١١٦-١١٧): ثم قال تعالى مُخبرًا عن الكفَرة المشركين بأنه ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. ثم ضرب مثلًا لِما ينفقه الكفار في هذه الدار، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بَرْد شديد، قاله ابن عباس، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، وغيرهم. وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد: أي: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد سيّما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يُحرَق الشيء بالنار، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ﴾ أي: أحرقته، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جدَادُه أو حَصَاده فدمَّرَتْه وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبَت به وأفسدته، فعَدِمَه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار: يَمحق الله ثوابَ أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه.

وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

الآية (١١٨-١٢٠): يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانةً، أي: يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خَبَالًا، أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرُّهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودُّون ما يُعْنِتُ المؤمنين ويُحرجهم ويَشُقّ عليهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصّة أهله الذين يطّلعون على داخل أمره. وعن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِي وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَة إلا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخيرِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْـمَعْصُومُ مَنْ عَصَم اللهُ» [رواه البخاري]. قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه: إن ههنا غلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبًا؟ فقال: «قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين» ففي هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالةٌ على المسلمين واطِّلاع على دَوَاخل أُمورهم التي يُخْشَى أن يُفْشُوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ﴾ أي: قد لاح على صَفَحات وجوههم وفلَتات ألسنتهم من العداوة -مع ما هم مُشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله- ما لا يخفى مثلُه على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يُظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا رَيْب، وهُم عندهم الشك والرِّيَب والحيرة.

وعن ابن عباس: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحقُّ بالبغضاء لهم، منهم لكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾ والأنامل: أطراف الصابع، وقيل: الأصابع. وهذا شأن المنافقين يُظْهِرون للمؤمنين الإيمانَ والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك مِن كل وجه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾ وذلك أشدّ الغيظ والحنَق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويُغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتِمُّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَمِّلٌ دينه، ومُعْلٍ كلمتَه ومُظهِرٌ دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتُكِنُّه سَرَائرُكم من البغضاء والحسد والغلّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يُريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها. ثم قال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ﴾. وهذه الحال دالّةٌ على شدة العداوة منهم للمؤمنين؛ وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصبٌ ونصرٌ وتأييد، وكثروا وعزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة -أي: جَدْب- أو أُديل عليهم الأعداء، لِما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد؛ فَرِح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الفُجّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توّكل عليه كفاه.

الآية (١٢١): شَرَعَ تعالى في ذكر قصة أحد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صَبْر الصابرين؛ فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية. والمرادُ بهذه الوقعة: يوم أُحُد عند الجمهور، وكانت وقعةُ أُحُد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وكان سببها أن المشركين حين قُتل مَن قُتل مِن أشرافهم يوْمَ بَدْر، وسَلِمَتْ العِيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سُفْيان، فلما رجع فَلُّهُم قال أبناء مَن قُتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش، وأقبلوا في قريبٍ من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا مِن أُحد تِلْقاء المدينة، فصلى رسولُ الله ﷺ يومَ الجمعة، واستشار الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ [فأشاروا بالخروج]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تُنزِلُهم منازلهم وتجعلهم مَيْمَنةً ومَيْسَرةً وحيث أمرتهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

الآية (١٢٢-١٢٣): [سبب النزول] عن جابر قال: فينا نزلَت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثَة وبنو سَلِمَة، وما نُحِب أنَّها لم تَنزِلْ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. [متفق عليه]. ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يوم بدر، وكان في يوم جُمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشِّرك وخرَّب محِله، مع قلّة عدد المسلمين يومئذٍ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فيهم فرَسان وسبعُون بعِيرًا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذٍ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض، والعُدة الكاملة والخيول المسوّمة والحُلي الزائد، فأعزَّ الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّضَ وَجْه النبي وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله. ولهذا قال تعالى مُمْتَنًّا على عباده المؤمنين وحِزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليلٌ عدَدُكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧]. وبَدْر: محَلَّة بين مكة والمدينة، تُعرَف ببئرها.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بطاعته.

الآية (١٢٤-١٢٩): اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد؟ على قولين: أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وروي هذا عن الحسن البصري، والربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]؟ فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾[1] [الأنفال:٩] بمعنى يَرْدَفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أُخَر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر. القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]؛ وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعني: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقوني وتطيعوا أمري. ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسُّدِّي: أي من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة: أي من غضبهم هذا. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعَلَّمِينَ بالسِّيما؛ عن علي بن أبي طالب: كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض. ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:٤-٦]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة في قَدره والإحكام.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيهم ويردَّهم بغيظهم لَـمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا﴾ أي: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أي: لم يحصلوا على ما أمَّلُوا. ثم اعترض بجملةٍ دَلَّت على أنّ الحُكْم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: بل الأمر كلّه إلي، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]. وقال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]. ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: يستحقون ذلك. وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد- قَنَتَ بعد الركوع، وكان يقول -في بعض صلاته في صلاة الفجر-: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [رواه البخاري]. وعن أنس، أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعيتُهُ يومَ أُحُد، وشُجَّ في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [رواه مسلم]. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هو المتصرف فلا مُعَقِّب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية (١٣٠-١٣٢): يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافًا مضاعفة، كما كانوا يقولون في الجاهلية -إذا حَلّ أجل الدَّين-: إما أن تَقْضِي وإمّا أن تُرْبِي، فإنْ قضاهُ وإلا زاده في المدة وزاده الآخَر في القَدْر، وهكذا كلّ عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا.

وأمَر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى ثم تَوَعَّدَهُم بالنار وحذَّرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(١) اختار ابن كثير قراءة نافع وغيره بفتح الدال: اسم مفعول، وبنى تفسيره على ذلك. وقراءة عاصم بكسر الدال: اسم فاعل.

الآية (١٣٣-١٣٦): ثم نَدَبهم إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نَيْل القُرُبات، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: كما أُعدّت النار للكافرين. وقد قيل: إن [في] معنى قوله: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها، كما قال في صفة فَرْشِ الجنة: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن:٥٤]، أي: فما ظنُّك بالظهائر. وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبّة تحت العرش، والشيء المُقبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله. وقد دلَّ على ذلك ما ثبت في الصحيح: «إِذَا سَأَلْتُمُ الجنة فَاسْأَلُوهُ الفردوس، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» [رواه البخاري]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الحديد:٢١]. ثم ذكر تعالى صِفَة أهل الجنة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في الشدة والرخاء، والمَنْشَط والمَكْرَه، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة:٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمْرٌ عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَاضِيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ كَظَمُوه، بمعنى: كتموه فلم يُعمِلوه، وعفَوا مع ذلك عمّن أساء إليهم. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَة، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [متفق عليه]. وعن جَارية بن قُدامة السعدي؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولًا ينفعني وأقْلِل عليّ، لَعَلِّي أَعِيْهِ. فقال رسول الله ﷺ: «لا تَغْضَبْ». فأعاد عليه، حتى أعاد عليه مرارًا، كل ذلك يقول: «لا تَغْضَبْ» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

فقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: لا يُعمِلُون غَضَبَهم في الناس، بل يكفّون عنهم شرّهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل. ثم قال: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: مع كف الشرّ يعفُون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم مَوْجِدَةٌ على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان. وفي الحديث: «ثلاثٌ أُقْسِمُ عليهن: ما نقص مالٌ مِن صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عِزًّا، ومن تواضع لله رفعه الله» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن رجلًا أذنب ذَنْبًا، فقال: ربِّ إني أذنبت ذنبًا فاغفِرْهُ. فقال الله: عبدي عمل ذنبًا فعَلِمَ أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به. قد غفرتُ لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر، فقال: ربِّ إني عملتُ ذنبًا فاغفِره. فقال تبارك وتعالى: عَلِم عبدي أن له رَبًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غَفَرتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لي. فَقَالَ عز وجل: عَلِمَ عَبْدَي أَنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلتُ ذَنبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ عز وجل: عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». [متفق عليه]. ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لِما [رُوي] عن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أو: فَيُسْبِغَ- الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إلا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» [رواه مسلم]. ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يغفرها أحد سواه. وقوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية وَيُصِرُّوا عليها غير مُقْلِعِين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه. وقوله: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمَير: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أن مَن تاب تاب الله عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وكقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١١٠]، ونظائر هذا كثيرة جدًّا. ثم قال تعالى بعد وَصْفِهِمْ بما وَصَفَهُم به: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي: جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من أنواع المشروبات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: ماكثين فيها، ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

الآية (١٣٧-١٤٠): يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين الذين أُصِيبوا يومَ أُحُد، وقُتِل منهم سبعون: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي: قد جَرَى نحو هذا على الأُمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾. ثم قال: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جَلِيّتها، وكيف كان الأُمَمُ الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهُدٗى﴾ يعني: القرآن فيه خَبَرُ ما قبلكم وهُدًى لقلوبكم ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾ أي: زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال مُسلِّيًا للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تَضعُفوا بسبب ما جرى، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: العاقبة والنُّصرة لكم أيها المؤمنون. ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، أي: إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك مِن قتلٍ وجراح، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم، لِما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لِنَرَى من يَصبر على مُناجزة الأعداء. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ يعني: يُقْتَلُون في سبيله، ويَبْذُلون مُهَجَهُم في مرضاته. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية (١٤١-١٤٣): ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُكفّر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أُصِيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظَفِرُوا بَغَوا وبَطِروا فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقِهم وفنائهم. ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: أحَسِبتُم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

ولهذا قال ههنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلَوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء. وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: قد كنتم -أيها المؤمنون- قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرَّقون عليهم، وتودُّون مناجزتهم ومُصابرتهم، فها قد حَصَل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدُونكم فقاتِلوا وصابِروا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَـمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتموهم فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْـجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» [متفق عليه]. ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني: الموت شاهدتموه في لَمَعَان السيوف، وحَدّ الأسِنّة، واشتباك الرِّماح، وصفوف الرجال للقتال.

الآية (١٤٤-١٤٨): [سبب النزول] لـمّا انهزم مَن انهزم من المسلمين يوم أُحُد، وقُتِل مَن قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قُتِل. ورجع ابن قَمِيئَةَ إلى المشركين فقال لهم: قَتَلْتُ محمدًا! وإنما كان قد ضَرَب رسول الله ﷺ، فَشَجَّه في رأسه، فَوَقَع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتِل، وجَوَّزوا عليه ذلك، كما قد قَصَّ الله عن كثير من الأنبياء -عليهم السلام- فحصل وَهَنٌ وضعفٌ وتَأخُّر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: له أسْوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. ثم قال تعالى مُنكرًا على من حَصَل له ضَعف: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: رجعتم القَهْقَرَى ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا. كذلك ثبت في الصحاح والمسانيد، وغيرها من كتب الإسلام من طُرق متعددة تُفيد القطْع: أن الصدّيق رضي الله عنه تَلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. وقال: مَنْ كانَ يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكَأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلاها الناس منه كلهم، [قال عُمر:] فما أسمعُ بشرًا من الناس إلا يتلوها [رواه البخاري]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: لا يموت أحد إلا بقدَر الله، وحتى يستوفي المدةَ التي ضَرَبها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ كقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١]. وكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢]. وهذه الآية فيها تشجيع للجُبَناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا يَنْقُص من العمر ولا يزيد فيه. وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من كان عمله للدنيا فقد نال منها ما قدّرَه الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شُكْرهم وعملهم. ثم قال تعالى مُسلِّيًا للمسلمين عما كان وَقَع في نفوسهم يوم أُحُد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قيل: معناه: كم من نبي قُتِل وَقُتِل معه ربّيون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير[1]، وإنما نفي الوَهَن والضعف عمن بقي من الرِّبِّيين ممن لم يُقتَل. وقيل: وكم من نبي قُتل بين يديه من أصحابه ربِّيون كثير. وعن ابن مسعود ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: أُلوف. وقال ابن عباس: الرِّبِّيون: الجُموع الكثيرة. وقال الحسن: أي: عُلماء كثير، وعنه أيضًا: عُلماء صُبُرٌ أبرارٌ أتقياء. ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾. قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ بقتل نبيّهم. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ يقول: فما ارتدُّوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم، أنْ قاتَلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لم يكن لهم هِجّيرَى إلا ذلك. ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصر والظفَر والعاقبة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ أي: جمَع لهم ذلك مع هذا ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١) وهو مبني على قراءة ورش عن نافع حيث قرأها: ﴿قُتِل﴾ بضم القاف وبدون ألف، وقرأها عاصم: ﴿قَاتل﴾ والقراءتان متواترتان، فكلا المعنيين صحيح.

الآية (١٤٩- ١٥١): يحذِّر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ فإن طاعتهم تُورِث الرَّدى في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. ثم أمرهم بطاعته وموالاته، والاستعانة به والتوكل عليه، فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾. ثم بشَّرهم بأنه سَيُلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كُفرهم وشركهم، مع ما ادَّخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنَّكال، فقال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وعن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأنبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» [متفق عليه].

الآية (١٥٢): ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ قال ابن عباس: وَعَدَهم الله النصر. وذلك كان يوم أحُد، فلما واجهوا عدوهم كان الظفَر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حَصَل ما حَصَل - مِن عصيان الرُّماة وفشَل بعض المقاتلة- تأخّر الوعد الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: أول النهار، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس: الفشل: الجُبن. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ كما وقع للرماة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر بهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ثم أدالهُم عليكم ليختبركم ويمتحنكم، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: غفر لكم ذلك الصَّنيع، وذلك -والله أعلم- لكثرة عَدد العدو وعُدَدهم، وقلة عَدد المسلمين وعُدَدِهم، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: ما نَصَرَ الله في مَوْطِنٍ كما نصر يوم أحُد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكرَ ذلك كتابُ الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول ابن عباس: والحَسُّ: القتل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. عن ابن مسعود قال: لو حلفتُ يومئذ رجوت أن أبَر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، وعن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَس النبيُّ ﷺ جَيْشا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير قال: «لا تَبْرَحُوا، إنْ رأيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبْرَحُوا، وإنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلا تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربُوا، حتى رأينا النساء يَشْتَدِدْنَ في الجبل، رَفَعْنَ عن سُوقهن، وقد بدَت خَلاخِلُهنّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغَنيمة. فقال عبد الله: عَهِدَ إليّ النبيّ ﷺ ألا تَبْرَحُوا. فأبَوْا، فلما أبَوْا صَرَفَ وجوههم، فأُصِيب سبعون قتيلًا، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تُجِيبُوهُ». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتِلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عُمَرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يُخزِنُكَ. فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل! فقال النبي ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: الله أعْلَى وأجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! فقال النبي ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلانَا، وَلا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحربُ سِجَال، وتجدون مَثْلَةً لم آمُر بها ولم تَسُؤْنِي [رواه البخاري].

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ عن أنس بن مالك: أن عمَّهُ -أنس بن النضر- غاب عن بدر، فقال: غِبْتُ عن أول قتال رسول الله ﷺ، لَئِنْ أشْهدني الله مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنّ الله مَا أُجِدّ، فلَقِي يومَ أحُد، فهُزم الناسُ، فقال: اللهُمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرَأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدّم بسيفه فَلقي سعدَ بن مُعَاذ فقال: أينَ يا سعد؟ إني أجدُ ريح الجنة دون أُحُد. فمضى فَقُتِل، فما عُرف، حتى عَرَفته أختُه بِبَنانِه بشامة، وبه بضع وثمانون من طَعْنة وضَرْبة ورَمْية بسَهْم [متفق عليه].

الآية (١٥٣): ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: صَرَفكُم عنهم إذ تُصعدون أي: في الجبل هاربين من أعدائكم ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدَّهَش والخوف والرعب، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: وهو قد خلَّفتموه وراء ظُهوركم يدعوكم إلى تَرْك الفرار من الأعداء، وإلى الرَّجعة والعودة والكرَّة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ الله -وهو حينئذٍ يشير إلى رَباعيّته- اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ الله ﷺ في سَبِيلِ الله» [متفق عليه]. وعن سهل بنَ سعد أنه سُئِل عن جُرحِ رسول الله ﷺ فَقال: جُرح وجه رسول الله ﷺ؟ وكسِرَت رَبَاعِيتُه، وهُشِمَت البَيْضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان عَلِي يسكب عليه بالمِجَنّ فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيدُ الدم إلا كثرة، أخذَت قطعةَ حَصِير فأحرقتها، حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجُرْح، فاستمسك الدم [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: فجازاكم غمًّا على غمٍّ. قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة، وحين قيل: قُتل محمد ﷺ، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل. قال ابن جرير: أَولى الأقوال بالصواب قولُ من قال: فأثابكم بغَمّكُم - أيها المؤمنون - بحرمان الله إياكم غنيمةَ المشركين والظَّفر بهم والنصرَ عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذٍ - بعد الذي أراكم في كل ذلك ما تحبون- بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر النبي ﷺ، غَمَّ ظنكم أن نبيّكم قد قُتِل، وميل العدو عليكم بعد فُلولكم منهم. وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس وغيره، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الآية (١٥٤): يقول تعالى مُمْتَنًّا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأَمَنَة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مسْتَلْئِمُو السلاح في حال هَمِّهم وغَمِّهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في قصة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الأنفال:١١]. وعن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان [رواه ابن أبي حاتم، وصححه أحمد شاكر].

وعن أبي طلحة قال: غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مصافّنا يوم أحُد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. [رواه البخاري]، [وزاد البيهقي]: «وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ؛ أَجْبَنُ قَوْمٍ، وَأَرْعَنُهُ، وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: إنما هم كَذَبَةٌ أَهْلُ شَكٍّ وَرَيْبٍ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». هَكَذَا رَوَاهُ [البيهقي] بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ، وَكَأَنَّهَا مِنْ كَلَامِ [الراوي] قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله ويُنْجِز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنَّها الفيصَلة وأن الإسلام قد باد وأهلُه! هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فَسَّر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: يُسِرُّون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنُه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشَير، ما أسمعه إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، فحفظتُها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول مُعَتِّب [رواه ابن أبي حاتم بإسناد صححه أحمد شاكر].

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحُكم حَتْم لا يُحاد عنه، ولا مَناص منه.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يختبركم بما جرى عليكم؛ ليميز الخبيثَ من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر.

الآية (١٥٥): ثم قال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جَزَاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: عمّا كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنب ويحلُم عن خلقه، ويتجاوز عنهم. عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟! فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عَيْنَين[1]، قال عاصم: يقول يوم أحد ... فانطلق فأخبر بذلك عثمان، قال: فقال عثمان: أما قوله: إني لم أفر يوم عَيْنَين، فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾... الأثر. [أخرجه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (١٥٦): ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مُشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار وفي الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي: في الغزو ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ أي: ما ماتوا في السفر ولا قتلوا في الغزو. وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتْلهم.

ثم قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدَره، ولا يُزَاد في عُمر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

الآية (١٥٧): ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله، والموت أيضًا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعَفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حُطامها الفاني.

---

(١) في نسخ ابن كثير المطبوعة: (حنين). وهو تصحيف ظاهر كما قال أحمد شاكر، والتصحيح من المسند، و«عينين»: قال ياقوت: «هضبة جبل أحد بالمدينة، ويقال جبلان عند أحد، ويقال ليوم أحد: يوم عينين». [ينظر: معجم البلدان: ٤/ ١٧٣].

الآية (١٥٨): ثم أخبر بأن كل من مات أو قُتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل، فيجزيه بعمله، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الآية (١٥٩): يقول تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ، ممتنًّا عليه وعلى المؤمنين، فيما ألان به قلبه على أمّته، المتبعين لأمره، التاركين لزَجْرِه، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: أي شيء جعلك لهم ليّنًا لولا رحمة الله بك وبهم. قال قتادة: يقول: فبرحمةٍ من الله لِنْتَ لهم. وقال الحسن البصري: هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، والمراد به ههنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألّان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم. ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييبًا لقلوبهم؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

الآية (١٦٠): وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦] ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (١٦١): ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ما ينبغي لنبيٍّ أن يخون. [سبب النزول]: روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفةً يوم بدر فقالوا: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخون. وهذا تبرئة له -صلوات الله وسلامه علي- عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقَسم الغنيمة وغير ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنّة بالنهي عن ذلك في أحاديث متعددة منها: حديث عديّ بن عُميرَة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عملًا، فكَتَمَنَا مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه مسلم وأبو داود واللفظ له].

الآية (١٦٢): ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأُجِير من وَبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وأُلزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير وهذه الآية لها نظائر كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

الآية (١٦٣): ثم قال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾. قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدةَ والكسائي: منازل، يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ الآية [الأنعام:١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وسَيُوفيهم إياها؛ لا يظلمهم خيرًا ولا يزيدهم شرًا، بل يجازي كلًا بعمله.

الآية (١٦٤): وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، أي: من جنسكم، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، فهذا أبلغ في الامتنان: أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فَهْم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتَزْكُوَ نفوسهم وتطهر من الدَّنَسِ والخَبَث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفِي غَيٍّ وجهل ظاهر جليّ بيِّن لكُل أحد.

الآية (١٦٥): يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي ما أُصيب منهم يوم أُحد مِن قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يعني: يوم بَدْر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسَروا سبعين أسيرًا ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. روى ابن أبي حاتم عن عُمَر بن الخطاب قال: لما كان يومُ أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفِدَاء، فقُتل منهم سبعون وفَرَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسرت رَبَاعِيتُه وهُشِمَت البَيْضَة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بأخذِكم الفداء. وكذا قال الحسن البصري. وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسديُّ: أي: بسبب عصيانكم رَسُول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرُّماة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مُعَقِّبَ لحُكمه.

الآية (١٦٦): ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين- كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

الآية (١٦٧): ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أُبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جُبَير: يعني كَثِّروا سواد المسلمين. فتعلَّلوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالًا. قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان. ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾؛ فإنهم يتحققون أن جُندًا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أُصيب مِن سَرَاتِهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائنٌ بينَهم قتالٌ لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

الآية (١٦٨): ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قُتلوا مع من قُتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إن كان القُعود يَسْلَم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مُشَيّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي ابن سلول.

الآية (١٦٩): يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قُتلوا في هذه الدار فإن أرواحَهم حيَّة مرزوقة في دار القرار. وعن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أمَا إنَّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ» [رواه مسلم].

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويُغدَى عليهم برزقهم هناك ويُراح.

عن كعب بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يَعْلَقُ في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» [رواه أحمد وصححه الألباني].

الآية (١٧٠): ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله أحياءٌ عند الله، وهم فَرحون مما هم فيه من النعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يُقتلون بعدهم في سبيل الله: أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة.

الآية (١٧١): ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشَروا وسُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقَلَّما ذكر اللهُ فضلًا ذكر به الأنبياء وثوابًا أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

الآية (١٧٢): ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»؛ وذلك أن المشركين لـمّا أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تَنَدّمُوا لمَ لا تَمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصَلة! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرْعِبَهم ويُريهم أنَّ بهم قُوّةً وجلَدًا، ولم يأذنْ لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان، طاعةً لله ولرسوله ﷺ.

وعن عائشة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية، قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر؛ لّما أصاب نبيّ الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «مَنْ يَرْجِعُ فِي إِثْرِهِمْ؟» فانتدبَ منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير [رواه البخاري].

الآية (١٧٣): ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: الذين توعَّدهم الناس بالجموع وخوَّفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. وعن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [رواه البخاري].

الآية (١٧٤): ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهُمْ وَردَّ عنهم بأس من أراد كيدَهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ مما أضمَر لهم عدوهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

الآية (١٧٥): ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فإذا سوَّل لكم وأوهمَكم فتوكّلوا عليَّ والجأوا إليَّ، فأنا كافيكُم وناصرُكم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٦-٣٨]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]. وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

الآية (١٧٦): يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يُحزنه مُبَادَرَةُ الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: ولا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حكمتُه فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية (١٧٧): ثم قال تعالى مُخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: ولكن يضرُّون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية (١٧٨): ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وكقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

الآية (١٧٩): ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا بُد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليُّه، ويفتضح فيه عدوُّه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعني بذلك يوم أحُد الذي امتحن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجَلَدُهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتكَ به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونُكُولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ. قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحُد. وقال قتادة: مَيَّزَ بينهم بالجهاد والهجرة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: أنتم لا تعلمون غيبَ الله في خلقه حتى يتميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، كقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧]. ثم قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرعه لكم ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية (١٨٠): ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مَضّرة عليه في دينه - وربما كان - في دنياه. ثم أخبر بمآلِ أمْرِ مالِهِ يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان، يُطَوَّقُه يوم القيامة، يأخذ بلِهْزِمَتَيْه - يعني: بشدقَيْه - يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنزكَ» ثم تَلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية [رواه البخاري].

وعن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنزا مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يَتْبَعُه ويَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَيْلَكَ! فيقُولُ: أَنَا كَنزُكَ الَّذِي خَلَّفتَ بَعْدَكَ. فَلا يَزَالُ يَتْبَعُه حَتَّى يُلْقِمَه يَدَه فَيَقْضِمَها، ثم يَتْبَعه سَائِر جَسَدِه» [رواه أبو يعلى، وجود إسناده وقواه ابن كثير، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فأنفِقوا مما جعلكم مُستخلَفين فيه؛ فإن الأمور كُلَّها مرجعها إلى الله عز وجل. فقدّموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: بنيَّاتِكم وضمائركم.

الآية (١٨١-١٨٢): [سبب النزول] عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق، بيت المدراس، فوجد مِن يهودَ أُناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فِنْحَاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: ويحك يا فِنْحَاص! اتق الله وأسلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة مِن فقر، وإنه إلينا لفقير! ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبُكم، ينهاكم عن الربا! فغضب أبو بكر فضرب وجهَ فِنْحَاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربتُ عنقك يا عدو الله، فَأَكْذِبُونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أبصر ما صنع بي صاحبك! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْت؟» فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولاً عظيمًا؛ زعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال، فضربتُ وجهه، فجَحَد ذلك فنحاص وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص ردًّا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية [رواه ابن أبي حاتم، قال أحمد شاكر: بإسناد جيد]. وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرَنَهُ بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرُسُلِ الله، وسيجزيهم الله على ذلك شَرَّ الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

الآية (١٨٣): ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ يقول تعالى تكذيبًا أيضًا لهؤلاء الذين زعموا أن الله عَهِدَ إليهم في كُتبهم ألّا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أنّ مَن تصدَّق بصدَقةٍ مِن أُمّته فقُبِلَتْ منه أن تنزل نارٌ من السماء تأكلها. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجَج والبراهين ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: وبنارٍ تأكل القرابين المُتقبَّلة. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فَلِمَ قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم تتّبعُونَ الحق وتنقادون للرسل.

الآية (١٨٤): ثم قال تعالى مُسلّيًا لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاؤوا به من البينات -وهي الحجج والبراهين القاطعة- ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المُتلَقّاة من السماء؛ كالصُّحف المنزلة على المرسلين ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: البيّن الواضح الجلي.

الآية (١٨٥): يخبر تعالى إخبارًا عامًا، يعُمُّ جميع الخليقة- بأن كل نفس ذائقة الموت؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] فهو تعالى وحده الحيُّ الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحَمَلة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولًا. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس؛ فإنه لا يبقى أحدٌ على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفَرَغَت النطفة التي قدر الله وجودها مِن صُلب آدم وانتهت البريّة أقام الله القيامة وجازَى الخلائق بأعمالها؛ جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: مَن جُنّب النار ونجَا منها وأُدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتدركه منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، قليلة زائلة؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص:٦٠]. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾» هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة.

وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدُكُم إصبعه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع إليه» [رواه مسلم].

الآية (١٨٦): ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] أي: لا بد أن يُبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويُبتلى المؤمن على قدر دينه؛ إن كان في دينه صلابة زِيدَ في البلاء. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مَقْدَمِهم المدينَة قبل وقعة بدر، مُسلِّيًا لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمرًا لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرّج الله، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. فكان مَن قام بحق، أو أمَر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذَى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله عز وجل.

الآية (١٨٧): هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخَذ عليهم العهد على أَلْسِنَةِ الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوِّهوا بذكره في الناس ليكونوا على أُهْبَةٍ مِن أمرِه، فإذا أرسله الله تابَعُوه، فكتموا ذلك وتعوَّضوا عما وُعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتُهم، وبئست البيعة بيعتُهم. وفي هذا تَحْذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسْلَك بهم مَسْلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المرويّ مِن طرُق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سُئِل عن عِلْم فكَتَمه أُلْجِمَ يوم القيامة بِلجَامٍ من نار» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (١٨٨): قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية، يعني بذلك: المُرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا، كما جاء عن رسول الله ﷺ: «من ادَّعَى دَعْوى كاذبة لِيتَكَثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة» [رواه مسلم]. [سبب النزول]: عن أبي سعيد الخدري أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرَج رسول الله ﷺ إلى الغزو تَخَلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قَدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [رواه البخاري].

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يُقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي: لا يحسِبُن[1] أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية (١٨٩): ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو مالك كُل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدَر منه.

الآية (١٩٠): معنى الآية أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهَدة العظيمة مِن كواكبَ سيّارات، وثوابتَ، وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونبات، وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبُهما وتَقَارضُهما الطول والقصر، فتارة يطُول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا، ويقصر الذي كان طويلًا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جليَّاتها، وليسوا كالصُّم البُكْم الذين لا يعقلون.

الآية (١٩١): ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: لا يقطعون ذِكْره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيهما من الحكَم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته. وقد ذمّ الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدَره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥-١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: ما خلقت هذا الخلق عَبَثًا، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم نزّهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: عَنْ أن تخلق شيئًا باطلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: يا من خَلَق الخلق بالحق والعدل، يا من هو مُنزَّه عن النقائص والعيب والعبث، قِنَا من عذاب النار بحولك وقوَّتك وَقيّضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووفّقنا لعملٍ صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتُجيرنا به من عذابك الأليم.

الآية (١٩٢-١٩٣): ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أهَنْتَهُ وأظهرت خِزيَه لأهل الجَمع ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة لا مُجِير لهم منك، ولا مَحِيد لهم عما أردت بهم، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: داعيًا يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: بإيماننا واتباعنا نبيك، أي: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: ألحقنا بالصالحين.

الآية (١٩٤): ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على أَلْسِنَةِ رُسلك. وهذا أظهَر.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرتَ عنه رسُلَك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجُّده، فعن ابن عباس قال: بِتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثُلث الليل الآخر قَعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم قام فتوضأ واستَنَّ. فصلى إحدى عَشْرَة ركعة. ثم أذّن بلالٌ فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح [متفق عليه].

---

(١) اختلف القراء في قراءة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾؛ فقرأ المكي والبصري بالياء على الإخبار عن الغائب فيهما، مع كسر السين وضم الباء، والكوفيون بالتاء على الخطاب فيهما، ونافع والشامي بالإخبار عن الغائب في الأول والخطاب في الثاني. [ينظر: غيث النفع في القراءات السبع: ١/ ١٦١].

الآية (١٩٥): يقول تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم. [سبب النزول]: روى سعيد بن منصور عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، لا نَسْمَع اللهَ ذَكَر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قَدمت علينا [رواه ابن جرير، وأشار إلى صحته أحمد شاكر]. ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا - مما تقدم ذكره - فاستجاب لهم ربهم؛ عقَّب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]. وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: جميعكم في ثوابي سَواء ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي: تركوا دار الشِّرك وأتَوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجَأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ أي: إنما كان ذنْبُهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة:١]. وقوله: ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ هذا أعلى المقامات: أن يقاتل في سبيل الله، فيُعْقَر جَواده، ويُعفَّر وجهه بدمه وترابه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْن رَأتْ، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بَشَر. وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبَهُ إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جَزيلًا كثيرًا. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: عنده حُسْن الجزاء لمن عمل صالحًا.

الآية (١٩٦-١٩٨): يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرَفون فيه من النِّعْمَة والغِبْطَة والسرور، فعَمّا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرتَهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدّ لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]. وهكذا؛ لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار، قال بعده: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ أي: ضيافةً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

الآية (١٩٩): يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى، وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآية [القصص:٥٢-٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]. وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلًا، وأما النصارى فكثيرٌ منهم مهتدون وينقادون للحق؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآيات [المائدة:٨٢-٨٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. [سبب النزول]: روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسولُ الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لِعِلْج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المرذولة منهم بل يبذلون ذلك مجانًا؛ ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني: سريع الإحصاء.

الآية (٢٠٠): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ قال الحسن البصري: أُمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدَعُوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشِدَّة ولا لرخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يُصابروا الأعداء. وأما المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّبَاط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» [رواه مسلم]. وقيل: المراد بالمرابطة ههنا: مرابطة الغزو في نُحور العدو، وحفظ ثُغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَة بلاد المسلمين. عن سَهْل بن سَعْد الساعدي: أن رسول الله ﷺ قال: «رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» [رواه البخاري]. وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة آل عمران ولله الحمد والمنة.

تفسير سورة النساء

قال ابن عباس: نزلت سورةُ النساء بالمدينة. [وعدد آياتها مائة وستٌّ وسبعون آيةً].

الآية (١): يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومُنَبِّهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء؛ خُلِقَتْ من ضِلعه الأيسر، وفي الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي: وذَرَأ من آدم وحواء رجالًا كثيرًا ونساء، ونَشَرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم، وألوانهم ولُغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: كما يقال: أسألك بالله وبالرَّحِم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بِرُّوها وصِلُوها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطفَ بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم.

الآية (٢-٤): يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحُلُم كاملة موفرة، وينهَى عن أكلها وضَمِّها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ قال سعيد بن جبير: لا تبَدِّلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: أي: لا تخلطوها فتأكلوها جميعًا.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أي إثمًا كبيرًا عظيمًا. والمعنى: إنّ أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه. قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء؛ فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن؛ إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثًا، وإن شاء أربعًا. وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: فإن خشيتم من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن، فيقتصر على واحدة، أو على الجواري السّراري؛ فإنه لا يجب قَسْمٌ بينهن. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ قال بعضهم: أدنى ألا تكثر عائلتكم. والصحيح قول الجمهور: أي: لا تجوروا. يقال: عالَ في الحكم إذا قسط وجار. قوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس: المهر. وقالت عائشة: فريضة. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حَتْمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النِّحلة طيبًا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه، فليأكله حلالًا طيبًا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

الآية (٥-٦): ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرّف في الأموال التي جعلها الله للناس قيامًا، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بَنُوك، والنساء. وكذا قال ابن مسعود. وقال سعيد بن جُبَير: هم اليتامى. وقال مجاهد: هم النساء. وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ قال ابن عباس يقول: لا تَعْمَد إلى مالك وما خَوَّلك الله، وجعله معيشة، فتعطيَه امرأتك أو بَنِيكَ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمْسِكْ مالك وأصلِحْه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسْوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: يعني في البر والصلة. وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومَنْ تحت الحجْر بالفعل، من الإنفاق في الكساوي والأرزاق والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق. قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أي اختبروهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾، قال مجاهد: يعني: الحُلُم. قال الجمهور: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحُلُم، أو يستكمل خمس عشرة سنة، واختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، هل يدل على بلوغ أم لا؟ والصحيح أنه بلوغ.

وقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: متى بلغَ الغلام مُصْلِحًا لدينه وماله، انفكَّ الحَجر عنه، فيُسلّم إليه ماله الذي تحت يد وليّه. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافًا ومبادرَةً قبل بلوغهم. قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: من كان في غُنْيَةٍ عن مال اليتيم فَلْيستعفِفْ عنه، ولا يأكل منه شيئًا ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ عن عائشة: أنها نزلت في والي اليتيم إذا كان فقيرًا، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف [رواه البخاري].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد، فحينئذ سلِّموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وهذا أمر الله تعالى للأولياء: أن يُشهِدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلّموا إليهم أموالهم؛ لئلا يقع من بعضهم جُحُود وإنكار لما قبضه وتَسلَّمه. ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مَبْخوسة مدخلة، مروج حسابها، مُدلّس أمورها؟ الله عالم بذلك كله.

الآية (٧-٩): [سبب النزول]: قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يُورّثون النساء ولا الأطفال شيئًا، فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...﴾ أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يُدلِي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لُحمَة كَلُحمة النسب. وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية. المعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يَرِثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإنَّ أنفسهم تتشوَّف إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يُعطَون، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يُرضَخ لهم شيء من الوسَط يكون برًّا بهم وصدقة عليهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لكسرهم واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين. وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: هذا في الرجل يَحْضُره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تَضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضَّيْعَةَ. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في مباشرة أموال اليتامى ولا يأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا. أي: كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم.

الآية (١٠): ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلما فإنما يأكل في بطنه نارًا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون نارًا تَأجَّج في بطونهم يوم القيامة.

الآية (١١): هذه الآية الكريمة والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك.

[سبب النزول]: عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسولُ الله ﷺ وأبو بكر في بني سَلِمَةَ ماشيَين، فوجَدَني النبي ﷺ لا أعقل شيئًا، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رَش عَلَيَّ، فأفَقْتُ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [رواه البخاري ومسلم]. وعن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الرَّبيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أُحُدٍ شهيدا، وإن عمّهما أخذ مالهما، فلم يَدَعْ لهما مالا، ولا يُنْكَحَان إلا ولهما مال. قال: فقال: «يَقْضِي اللهُ في ذلك». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عَمّهما فقال: «أعْطِ ابْنَتي سعد الثلثين، وأُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وما بقي فهو لك» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وحسنه الألباني]. والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يُورث كَلالة. والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية. قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوَت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأُنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسُّب وتجشُّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضِعْفَيْ ما تأخذه الأنثى، وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أنه أرحم بهم منهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فإن كنّ نساء اثنتين! وهذا غير مُسَلَّم؛ فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك. وإنما استُفيد كون الثلثين للبنتين مِن حكم الأختين في الآية الأخيرة. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأَنْ يرث البنتان الثلثين بطريق الأَولى والأحرى. وقد تقدم في حديث جابر أن رسول الله ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضًا فإنه قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فلو كان للبنتين النصف أيضًا لنصَّ عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث. وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ إلى آخره، الأبوان لهما في الإرث أحوال: أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيُفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فُرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب. الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيُفرض للأم الثلث ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضِعفَي ما فُرض للأم، وهو الثلثان. الحال الثالث: وهو اجتماعهما مع الإخوة، سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئًا، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيُفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أضرُّوا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أجمع العلماء سلفًا وخلفًا: أن الدَّيْن مقدم على الوصية.

وقوله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إن النفع متوقَّع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه - من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله، اللهُ حكم به وقضاه، وهو العليم الحكيم، الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كلًا ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الآية (١٢): يقول تعالى: ولكم -أيها الرجال-نصف ما ترك أزواجكم إذا مُتْنَ عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدَّم أن الدَّين مقدّم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه بين العلماء. وحُكم أولاد البنين -وإن سفلوا- حُكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ إلى آخره، وسواء في الربع أو الثمن الزوجةُ والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ الكلالة: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا: من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق: أنه سئل عن الكلالة؟ فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة: مَن لا ولَد له ولا والد. فلما ولي عمر قال: إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه. رواه ابن جرير وغيره.

وعن ابن عباس، قال: كنت آخر الناس عهدًا بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلتُ. قلتُ: وما قلتَ؟ قال الكلالة: من لا ولد له ولا والد وهكذا قال ابن مسعود، وصح من غير وجه عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي وغيرهم، وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع عليه غير واحد. وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: مِن أُم. كذا فسَّرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه، ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ إخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه، أحدِها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم. الثاني: أنَّ ذكَرهم وأُنثاهم سواء. الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميّتهم يُورَث كلالة، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن. الرابع: أنهم لا يُزادون على الثلث، وإنْ كثر ذكورهم وإناثهم.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي: زوج، وأم أو جدة، واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين؟ فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو أُخُوّةُ الأم. وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حمارًا! ألسنا من أم واحدة؟ فشرَّك بينهم. صح التشريك عنه وعن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس. وبه يقول سعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، والثوري، وغيرهم. وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه.

وكان علي بن أبي طالب لا يُشرّك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين والحالة هذه، لأنهم عصبة. وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبي، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، والإمام أحمد، ويحيى بن آدم، وداود بن علي الظاهري، وغيرهم، واختاره ابن اللبَّان الفرَضي في كتابه «الإيجاز».

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي: لتكن وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحَيف، بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما قدَّرَ الله له من الفريضة، فمتى سعى في ذلك كان كمن ضادَّ الله في حكمته وقسمته.

وروى الطبري والنسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفًا: «الضرار في الوصية من الكبائر».

ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنّة التهمة. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعْطَى كُلَّ ذِي حَق حَقَّه، فلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني]؛ وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعي.

وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار. وهو مذهب طاوس، وعطاء، وعمر بن عبد العزيز. وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه. واحتج بأنّ رَافع بن خَدِيج أوصى ألا تُكْشَف الفَزَارية عما أغْلقَ عليه بابها. قال: وقال بعض الناس: لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، [قال: ثم استحسن فقال يجوز إقراره بالوديعة والبضاعة والمضاربة][1]، وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظنَّ، فإن الظَنَّ أكذبُ الحديث» [متفق عليه] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] فلم يخص وارثًا ولا غيره. انتهى ما ذكره. فمتى كان الإقرارُ صحيحًا مطابقًا لما في نفس الأمر جَرَى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلةً ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

الآية (١٣-١٤): أي: هذه الفرائض والمقادير -التي جعلها الله للورثة بحسب قُربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه- هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضًا بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لكونه غيَّر ما حكم الله به وضادَّ الله في حُكمه. وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.

---

(١) ما بين معقوفين ساقط من نسخ ابن كثير، وقد استدركناه من صحيح البخاري، كتاب الوصايا، وبه يتضح مراد البخاري؛ أي: حتى من خالف رأيه وقال بعدم جواز الإقرار جوَّزَه استحسانًا في الحالات المذكورة، ثم عاد البخاري لتأييد ما ذهب إليه من جواز الإقرار بالأدلة.

الآية (١٥-١٦): كان الحكم في ابتداء الإسلام: أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبيّنة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ فالسبيل الذي جعله الله: هو الناسخ لذلك. قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجلد، أو الرجم. وهو أمر متفق عليه. عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، قد جَعَل الله لَهُنَّ سبيلًا: الثَّيِّبُ بالثيب، والبِكْرُ بالبكرِ، الثيب جَلْدُ مائة، ورَجْمٌ بالحجارة، والبكر جلد مائة ثم نَفْي سَنَةٍ» [رواه مسلم]. وقد ذهب الإمام أحمد إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يُرجَم فقط من غير جَلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رَجَمَ ماعزًا والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الجلد ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم. وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما: أي بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم. وقال عكرمة، وعطاء، والحسن: نزلت في الرجل والمرأة إذا زنَيا. وقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا﴾ أي: أقلعا ونزَعَا عما كانا عليه، وصَلُحت أعمالهما وحسنت ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ أي: لا تُعَنِّفُوهما بكلام قَبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾.

الآية (١٧-١٨): يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة المَلَك لقبض روحه قَبْلَ الغَرْغَرَة. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وعن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وقال ابن عباس ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾: ما بينه وبين أن ينظر إلى مَلَك الموت، وقال الحسن البصري: ما لم يُغَرْغِر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب. وعن ابن عُمَرَ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يَقْبلُ تَوْبَةَ العبدِ ما لم يُغَرغِر» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقد دلت الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾. وأمّا متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحَشْرَجَتِ الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وَغَرْغَرَتِ النفس صاعدة في الغَلاصِم - فلا توبة مُتقبّلة حينئذ، ولاتَ حين مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ يعني: أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يُقبل منه فدية ولو بملء الأرض. وعن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل تَوْبَةَ عَبْدِهِ - أو يغفر لعبده - ما لم يَقَع الحِجَاب». قيل: وما وُقُوع الحجاب؟ قال: «أن تَخرُجَ النَّفْسُ وهي مُشْرِكة» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: مُوجعًا شديدًا مقيمًا.

الآية (١٩): عن ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاءوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك [رواه البخاري]. وقال مجاهد في الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته، فيتزوجها أو يزوجها ابنه.

فالآية تعُمّ ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومَن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تُضارُّوهن في العِشرة؛ لتترُك لك ما أصدَقْتَها أو بعضه، أو حقًا من حقوقها عليك، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب: يعني بذلك الزنا، يعني: إذا زنَت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتُضَاجرهَا حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: النُّشوز والعِصْيان. واختار ابن جرير أنَّه يَعُمُّ ذلك كلَّه: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبَذاء اللّسان، وغير ذلك. يعني: أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تُبْرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: طيِّبُوا أقوالكم لهن، وحَسّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جَميل العِشْرَة دائم البِشْر، يُداعِبُ أهلَه، ويَتَلَطَّفُ بهم، ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحِك نساءَه. وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أي: فعَسَى أن يكون صبرُكم مع إمساككم لهن مع كراهتهن - فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يَعْطف عليها، فيُرزقَ منها ولدًا. ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً، رضي منها آخر» [رواه مسلم].

الآية (٢٠-٢٢): أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأةً ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذَنَّ مما كان أصدق الأولى شيئًا، ولو كان قنطارًا من مال. وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك. ولهذا قال [تعالى] مُنكرًا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيتَ إليها وأفضَتْ إليك؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدّي، وغير واحد: يعني بذلك: الجماع. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال للمُتلاعِنَين بعد فراغهما مِن تلاعنهما: «لا مال لك؛ إن كنت صدَقْت فهو بما استحللتَ من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعَد لك منها» [رواه البخاري ومسلم]. وقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: أن المراد بذلك العَقْد. وعن ابن عباس قال: إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان. عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتُم فُروجهن بِكَلِمَة الله» [رواه مسلم]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يُحرِّم تعالى زوجات الآباء تكرِمَةً لهم، وإعظامًا واحترامًا أن تُوطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه. وقد زعم السُّهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية. وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشِّعٌ غاية التبشُّع، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ مقتًا أي: بُغْضًا، أي: هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حُبُّه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه. وقال عَطاء بن أبي رَباح في قوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: يمقت الله عليه ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقًا لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيُقتل، ويصير ماله فيئًا لبيت المال. عن البراء بن عازب، قال: مرَّ بي عمِّي الحارث بن عمرو، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أي عم، أين بعثك النبي ﷺ؟ قال: بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (٢٣): هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصِّهر. وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾؛ فإنها بنت فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد ابن حنبل. وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء:١١]. فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية. والله أعلم، وقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ أي: كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك؛ ولهذا جاء عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرّم ما تحرّم الولادة» [متفق عليه]، وقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها. وأما الربيبة -وهي بنت المرأة- فلا تحرم بمجرد العقد على أمها، حتى يدخل بها، فإنْ طلَّق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها؛ ولهذا قال: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدَهُن. وقد فهم بعضُهم عَود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على الأم، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد. وقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أي: وحُرّمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يَتبَنَّونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ الآية [الأحزاب:٣٧].

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مُبهمات: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾، ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾.

معنى مُبهمات: أي عامة في المدخول بها وغير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، وهذا متفق عليه. وقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معًا في التزويج، وكذا في ملك اليمين، إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديمًا وحديثًا: على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح. ومن أسلم وتحته أختان خُيِّر، فيُمسِك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة. عن فيروز قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمَرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما [رواه أحمد وأصحاب السنن، وحسنه الألباني].

وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضًا لعموم الآية، وهذا هو المشهور عن الجمهور: الأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. وقال ابن عبد البر: وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية: أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظرًا وقياسًا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذَّ عنها.

الآية (٢٤): ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: وحرّم عليكم الأجنبيات المحصنات، وهنَّ المزوَّجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعني: إلا ما ملكتموهن بالسبي؛ فإنه يحل لكم وَطؤهن إذا استبرَأتموهن؛ فإن الآية نزلت في ذلك. [سبب النزول]: عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سَبْيًا من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فاستحللنا بها فروجهن [رواه مسلم]. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما عدا من ذُكِرْنَ من المحارم هُنّ لكم حلال، قاله عطاء. ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾. وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك؛ كقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]. وقد استُدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعًا في ابتداء الإسلام، ثم نُسخ بعد ذلك. والعمدة ما ثبت عن علي بن أبي طالب قال: نهى النبي ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحُمُر الأهلية يوم خيبر [رواه البخاري ومسلم]. وعن سَبْرَة بن معبد الجهني أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حَرم ذلك إلى يوم القيامة» [رواه مسلم]. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي: إذا فرضت لها صداقًا فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك. وقال ابن عباس: التراضي أن يُوَفّيها صداقها ثم يخيرها، يعني: في المقام أو الفراق. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد هذه المحرمات.

الآية (٢٥): يقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ ومن لم يجد ﴿مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: سعةً وقُدرة ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: الحرائر العفائف ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون. ثم اعترض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور. ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدلَّ على أن السيد هو ولي أَمَتِه لا تُزَوَّج إلا بإذنه، وكذلك هو وليُّ عبده، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه، كما جاء في الحديث: «أيما عبد تَزَوّج بغير إذن مَوَاليه فهو عَاهِر» [رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني] أي: زانٍ.

فإن كان مالك الأَمة امرأة، زَوّجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لما جاء في الحديث: «لا تُزَوِّجُ المرأةُ المرأةَ، ولا المرأةُ نفسها، فإن الزانية هي التي تُزوج نفسها» [رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني].

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: وادفعوا مهورهن بالمعروف، أي: عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئًا استهانةً بهن؛ لكونهن إماء مملوكات. ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي: عفائف عن الزنا لا يتعاطَيْنه؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ وهُنّ الزواني اللاتي لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: أخلّاء. وكذا رُوي عن أبي هريرة ومجاهد. وقال الضحاك: ذات الخليل الواحد، الـمُقرّة به، نهى الله عن ذلك. يعني تزويجها ما دامت كذلك.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ اختلف القراءُ في ﴿أُحْصِنَّ﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد، مبنيّ لما لم يُسمّ فاعله، وقُرئ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم، ثم قيل: معنى القراءتين واحد. واختلفوا فيه على قولين: أحدهما: أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام. وقيل: المراد به ههنا التزويج. وقيل: معنى القراءتين متباين؛ فمن قرأ بضم الهمزة فمراده التزويج، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام. والأظهر -والله أعلم- أن المراد بالإحصان ههنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾. والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعيَّن أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فله حينئذ أن يتزوج بالأَمة، وإنْ ترَك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقّاء لسيدها، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهورُ العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطَّوْل لنكاح الحرائر، ومن خوف العنت. وخالف أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجًا بحُرّة جاز له نكاح الأمة، سواء كان واجدًا لطَول حرة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا!

الآية (٢٦): يخبر تعالى أنه يُريدُ أن يبين لكم -أيها المؤمنون- ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

الآية (٢٧-٢٨): ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: يُريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزُّناة ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ عن الحق إلى الباطل ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي: في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف؛ لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته. قال طاووس: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: في أمر النساء، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.

الآية (٢٩): نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل، أي: بأنواع المكاسب غير الشرعية؛ كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، روى ابن جرير عن ابن عباس -في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيتُه أخذتُه وإلا رددت معه درهمًا- قال: هو الذي قال الله عز وجل: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾. قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ هو استثناء منقطع؛ كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]. ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نَصًّا، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهورُ في ذلك، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي، فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعًا، فصححوا بيع المعاطاة في المحقّرات، وفيما يعدُّه الناس بيعًا. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل. في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

الآية (٣٠-٣١): ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًّا فيه ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه متجاسرًا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فَلْيحذَرْ منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد. قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نُهيتم عنها؛ كفّرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة؛ ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر -أو سئل عن الكبائر- فقال: «الشِّرْكُ بالله، وقَتْلُ النفسِ، وعُقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى. قال: «قول الزور، أو شهادة الزور» [متفق عليه].

الآية (٣٢): [سبب النزول]: عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن ابن عباس قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: «ليت؛ لو أن لي مال فلان وأهله!» فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله. فهما في الأجر سواء» [رواه البخاري] فإن هذا شيء غير ما نهت الآية عنه؛ وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا. ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: كلٌّ له جزاء على عمله بحسبه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشَرّ. وهو قول ابن جرير. وقيل: المراد بذلك في الميراث، أي: كل يرث بحسبه. ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ولا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض؛ فإن هذا أمر محتوم، أي: إن التمنّي لا يُجدي شيئًا، ولكن سلوني من فضلي أُعطِكم؛ فإني كريم وهاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيُفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه.

الآية (٣٣): قال ابن عباس: ﴿مَوَالِىَ﴾ أي: ورَثة. وفي رواية: أي عَصَبة. قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم: مولى، ويعني بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ مِن تركة والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكُلّكم -أيها الناس- جعلنا عَصبَة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة -أنتم وهم- فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نُسخ بعد ذلك، وأُمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يُنْشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ﴾ قال: ورثة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحِمه؛ للأخوّة التي آخَى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويُوصي له [رواه البخاري]. فالصحيح أنهم كانوا في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحِلْف، ثم نُسخ، وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أُمِروا أن يوفوا بالعقود والعهود.

و[قد] نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦].

الآية (٣٤): ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجَّت ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذَا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك المُلْك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لن يُفلِح قومٌ وَلَّوا أمْرَهُم امرأة» [رواه البخاري] وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: من المهور والنفقات والكُلَف التي أوجبها الله عليهم لهنّ في كتابه وسنة نبيه ﷺ؛ فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قَيِّمًا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]. قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: من النساء ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ قال ابن عباس: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قال السُّدي: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: المحفوظ مَن حفظه. ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ المرأة الناشز: هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعْرِضَة عنه، المُبْغِضَة له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فلْيَعِظْها وليخوّفها عقابَ الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، روى البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه، لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾.

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال ابن عباس: الهجر: ألا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويولّيها ظهره. زاد السُّدي والضحاك: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها. ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: إذا لم يَرْتَدِعْنَ بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضربًا غير مبرح. قال الفقهاء: هو ألا يكسر فيها عضوًا ولا يؤثر شينًا. ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب؛ فإن الله العلي الكبير وَلِيُّهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

الآية (٣٥): ذكر الحال الأول، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني وهو: إذا كان النفور من الزوجين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق. وَتَشَوّف الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾. قال ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلًا صالحًا من أهل الرجل، ورجلًا مثله من أهل المرأة، فينظران: أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة. فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرُهما جائز. فإن رأيا أن يجمعا، فرَضِي أحد الزوجين وكَرِه ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي كَرِه، ولا يرث الكارهُ الراضي. وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكمين إليهما الجمع والتفرقة. وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع ولا يحكمان في التفريق. وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور، وداود، ومأخذهم قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ ولم يذكر التفريق.

الآية (٣٦): يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته. ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين؛ فإن الله سبحانه جعلهما سببًا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرًا ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء. ثم قال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحُنُوّ عليهم. ثم قال: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم. ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال ابنِ عَبَّاسٍ: يعني: الذي بينك وبينه قرابة ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة. ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ عن علي وابنِ مسعودٍ: هي المرأة. وقال ابن عباس: هو الرفيق في السفر. وقال سعيد بن جُبَيْرٍ: هو الرفيق الصالح. وأما ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فعن ابن عباس هو: الضيف. وقال مجاهد: هو الذي يمُرّ عليك مجتازًا في السفر. وهذا أظهر، وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». [رواه مسلم]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: مختالًا في نفسه، معجبًا متكبرًا، فخورًا على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض.

الآية (٣٧): يقول تعالى ذامًّا الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به [مما سبق ذكره] ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضًا. ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالبخيل جَحُودٌ لنعمة الله، لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله؛ ولهذا توعَّدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه.

وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وكتمانهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى.

الآية (٣٨): ذكر الباذلين المرائين الذي يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يُمدَحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله. وفي الحديث ذكر ثلاثة هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار، وهم: العالم والغازي والمنفق، المراؤون بأعمالهم، يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن يُنفَق فيه إلا أنفقتُ في سبيلك. فيقول الله: كذبتَ؛ إنما أردت أن يقال: جواد، فقد قيل. [رواه مسلم]. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية، أي: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعُدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطانُ؛ فإنه سَوَّلَ لهم وأملَى لهم، وقارنهم فحسَّن لهم القبائح ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

الآية (٣٩): ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وأيّ شيء يكرثهم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعَدَلُوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملًا، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، فيوفقه ويُلهمه رشده ويُقيّضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي، الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه، فقد خاب وخَسِرَ في الدنيا والآخرة، عياذًا بالله من ذلك.

الآية (٤٠): يخبر تعالى أنه لا يظلم عبدًا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يُوَفِّيهَا وَيُضَاعِفُهَا له إن كانت حسنة، كما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:٤٧].

وفي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: فيقول الله عز وجل: «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار». وفي لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا» ثم يقول أبو سعيد: اقرأوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية (٤١-٤٢): يقول تعالى -مخبرًا عن هَول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه-: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد؛ يعني الأنبياء عليهم السلام.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لو انشقت وبلعَتْهُم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتمون منه شيئًا.

الآية (٤٣): ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكْرِ، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محلها -وهي المساجد- للجُنُب، إلا أن يكون مجتازًا من باب إلى باب من غير مُكْثٍ، وكان هذا قبل تحريم الخمر. [سبب النزول]: عن سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعامًا، فدعا أناسًا من المهاجرين وأناسًا من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا فرفع رجل لحي بعير ففزر بها أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية. [رواه مسلم].

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران: أنه الذي لا يدري ما يقول؛ فإنَّ المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها. ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ عن ابن عباس قال: تَمُرّ به مَرًّا ولا تجلس. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجُنب اللّبث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنُّفَسَاء أيضًا في معناه؛ إلا أن بعضهم قال: يُمنع مرورهما لاحتمال التلويث. وعن علي: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرًا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء. قال ابن جرير: والأوْلَى قول من قال: إلا مجتازي طريق فيه. وهذا الذي نصره هو قولُ الجمهور، وهو الظاهر من الآية.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أنه يحرم على الجنب المكث في المسجدِ حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه. وذهب أحمد إلى أنه متى توضأ الجُنب جاز له المكث في المسجد. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فواتُ عضو أو شَيْنه أو تطويل البُرء. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير. ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الغائط: هو المكان المطمئن من الأرض، كنّى بذلك عن التغوّط، وهو الحدث الأصغر. ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قُرئ: «لَمَسْتم» و«لامستم»، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين. قال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس. قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب، كالرمل والزرنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد. والطيّب ههنا قيل: الحلال. وقيل: الذي ليس بنجس.

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين. والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة. قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: ومِن عفوه عنكم وغَفْرِه لكم أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعةً عليكم ورخصة لكم؛ وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تُفعل على هيئة ناقصة مِن: سُكْر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدَث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء؛ فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم والحالة هذه، رحمةً بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم.

الآية (٤٤): يخبر تبارك تعالى عن اليهود أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعْرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين في صِفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: يودّون لو تكفرون بما أُنزل عليكم -أيها المؤمنون- وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع.

الآية (٤٥-٤٦): ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ أي: هو يعلم بهم ويحذّركم منهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ أي: كفى به وليًّا لمن لجأ إليه، ونصيرًا لمن استنصره. قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس؛ كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصدًا منهم وافتراءً. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم: أنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة. ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. وهذا استهزاء منهم واستهتار. ﴿وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك، بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرُّعونة. ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يُظهرونه: ﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ يعني: بسبّهم النبي ﷺ. ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مُبعَدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيمانًا نافعًا.

الآية (٤٧): يقول تعالى آمرًا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدِّدًا لهم إن لم يفعلوا بقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾. قال بعضهم: طمسها: هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهًا فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. وقال ابن عباس: طمسها: أن تعمى، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرَى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه. وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يُهْرَعون ويمشون القهقرى على أدبارهم. وقال مجاهد: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ يقول: عن صراط الحق ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ أي: في الضلالة. ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِ﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مُسخوا قردة وخنازير.

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ إذا أمر بأمر، فإنه لا يُخالَف ولا يُمانَع.

الآية (٤٨): أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لا يغفر لعبدٍ لقيهُ وهو مشرك به. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: من عباده. عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يومٍ تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا؛ القصاص لا محالة» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ ذنبٍ عسى اللهُ أن يغفرَهُ، إلا الرجلَ يموت كافرًا، أو الرجلَ يقتلُ مؤمنًا متعمدًا» [رواه أحمد والنسائي وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك».

الآية (٤٩-٥٠): [سبب النزول]: قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية -وهي قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾- في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]. قال ابن عباس: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا؛ قال الله تعالى: «إني لا أُطَهِّر ذا ذنب بآخر لا ذنب له»، وأنزل الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [رواه ابن أبي حاتم وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقيل: نزلت في ذم التمادح والتزكية: عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدَّاحين التراب. [رواه مسلم]. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ أي: المرجع في ذلك إلى الله عز وجل؛ لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس: هو ما يكون في شق النواة. ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئًا في قوله: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١]. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ أي: وكفى بصنيعهم هذا كذبًا وافتراءً ظاهرًا.

الآية (٥١): ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ عن عمر بن الخطاب قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان. وقيل: الجبت: الشيطان. وقال الجوهري في «الصحاح»: «الجبت» كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.

الآية (٥٢-٥٣): هذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم. قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾؟! هذا استفهام إنكار؛ أي: ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس - ولا سيما محمدًا ﷺ - شيئًا، ولا ما يملأ «النقير»، وهو النقطة التي في النواة، في قول ابن عباس والأكثرين. وهذه الآية كقوله تعالى ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء:١٠٠].

الآية (٥٤-٥٥): ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ يعني بذلك: حَسَدَهم النبيَّ ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنَعَهم من تصديقهم إياه حسدُهم له؛ لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جَعَلْنا في أسباط بني إسرائيل -الذين هم من ذرية إبراهيم- النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن -وهي الحكمة- وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟! ولهذا قال متوعدًا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

الآية (٥٦): يخبر تعالى عما يعاقِب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ الآية، أي: نُدخلهم فيها دخولًا يحيط بجميع أجرامهم، وأجزائهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

الآية (٥٧): هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن، التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبدًا، لا يحولون ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولًا. ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلًا عميقًا كثيرًا غزيرًا طيبًا أنيقًا.

الآية (٥٨): يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وهذا يعُمّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض: كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بيّنَةٍ على ذلك. [سبب النزول]: ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة لَـمَّا أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم ردَّه عليه. وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أمرٌ منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعني: الحُكَّام بين الناس. ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي: يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم.

الآية (٥٩): [سبب النزول]: عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطبًا. ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله؛ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. فرجعوا إلى رسول الله فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدًا؛ إنما الطاعة في المعروف» [متفق عليه]. وقال ابن عباس: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وقال مجاهد: يعني: العلماء. والظاهر -والله أعلم- أن الآية عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء؛ قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة:٦٣]. عن أبي هريرة عن رسول الله أنه قال: «ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني» [متفق عليه]. ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: خذوا بسنته ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما في الحديث: «إنما الطاعة في المعروف» [متفق عليه]. ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال مجاهد: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدلّ على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومآلًا، كما قاله السُّدي. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

الآية (٦٠-٦١): هذا إنكار من الله عز وجل على من يدّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله.

[سبب النزول]: ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام؛ أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعَمّ من ذلك كله؛ فإنها ذامّةٌ لمن عدَل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى آخرها.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي: يُعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان:٢١]، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

الآية (٦٢): ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تَطرُقُهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكُمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادًا منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢]. عن ابن عباس قال: كان أبو بَرْزَة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.الآية (٦٣): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك؛ فإنه لا تخفى عليه خافية. فاكتَفِ به -يا محمد - فيهم، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعنّفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: وانْهَهُم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

الآية (٦٤): يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فُرضت طاعته على من أرسله إليهم. وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني. يعني: لا يطيعهم إلا من وفّقتُه لذلك؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢]. أي: عن أمره وقدَره ومشيئته، وتسليطه إياكم عليهم. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

الآية (٦٥): يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حَكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلّمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. عن عُرْوَة قال: خاصم الزبير رجلًا في شَرِيج من الحَرَّة، فقال النبي ﷺ: «اسق يا زُبير، ثم أرْسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله، أنْ كان ابن عمتك؟! فتَلَوَّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدْر، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعى النبي ﷺ للزبير حَقَّه في صريح الحكم، حين أحفَظَهُ الأنصاري، وكان أشار عليها بأمر لها فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [رواه البخاري].

الآية (٦٦-٦٨): يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تعالى بما لم يكن لو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما يُنهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قال السُّدي: أي: وأشد تصديقًا ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

الآية (٦٩): ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقًا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم.

ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يَمْرَضُ إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة» وكان في شكواه الذي قُبض فيه، فأخذته بُحَّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فعلمتُ أنه خُيِّر. [متفق عليه]. [سبب النزول]: روى ابن جرير عن سعيد بن جُبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، ما لي أراك محزونًا؟» قال: يا رسول الله، شيء فكرت فيه، قال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يردّ النبي ﷺ عليه شيئًا، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية. فبعث النبي ﷺ فبشّره. وقد روي هذا الأثر مرسلًا عن مسروق وعن عكرمة وعامر الشَّعْبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها سندًا. وثبت عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيتُ عند النبي ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: «أوَغَيْرَ ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود» [رواه مسلم]. وعن عمرو بن مُرَّةَ الجُهَنِيّ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأدّيت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان؟ فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا -ونصب إصبعيه- ما لم يعقَّ والديه» [رواه أحمد وصححه الألباني].

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب». قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم [رواه البخاري ومسلم].

الآية (٧٠): قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عند الله برحمته؛ هو الذي أهَّلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

الآية (٧١): يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدَد، وتكثير العَدَد بالنفير في سبيله. ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثُّبات: جمع ثُبَة، وقد تجمع الثبة على ثُبين ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعني: كلكم. وكذا رُوي عن مجاهد وعكرمة.

الآية (٧٢): ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين. وقال مقاتل بن حيان: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتخلفن عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أُبي بن سلول يفعل؛ يتأخر عن الجهاد، ويُثَبِّط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جُرَيْج وابن جَرِير؛ ولهذا قال تعالى إخبارًا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: قتل وشهادة وغلَبُ العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعدّ ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قُتل.

الآية (٧٣): ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُم بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: بأنْ يُضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

الآية (٧٤): ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أي: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون دينهم بعَرَض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم.

﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: كل من قاتل في سبيل الله -سواء قُتل أو غَلَب- فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين: «تكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة».

الآية (٧٥): يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ يعني: مكة، كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد:١٣]. ثم وصفها بقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾ أي: سخّر لنا من عندك وليًّا وناصرًا. عن عبيد الله، قال: سمعت ابن عباس قال: «كنت أنا وأمي من المستضعفين» [رواه البخاري].

الآية (٧٦): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هَيَّجَ تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

الآية (٧٧): كان المؤمنون في ابتداء الإسلام -وهم بمكة- مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصُب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة؛ منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقًا، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دارٌ ومنَعَة وأنصار، ومع هذا لما أُمروا بما كانوا يودونه جَزِع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتْم الأبناء، وتأيّم النساء. وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد:٢٠-٢١].

[سبب النزول]: عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! قال: «إني أُمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ الآية [رواه ابن أبي حاتم والنسائي، وصححه الألباني]. ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: آخرة المتقي خير من دنياه ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

الآيــة (٧٨): ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الـــرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمـران:١٨٥]. والمقصـود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلـك شيء، وسـواء جاهد أو لم يجاهد؛ فإن له أجلًا محتومًا، وأمدًا مقسومًا، كما قال خالـد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وهـا أنـا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبنـاء. ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ أي: حصينة منيعة عالية رفيعة. أي: لا يغني حذر وتحصُّن من المـوت؛ كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلم.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ أي: خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك؛ هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي.

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك.

﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: من قِبَلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك؛ كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١]. وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرًا وهم كارهون له في نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ. ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر. ثم قال تعالى مُنكِرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾.

الآية (٧٩): ثم قال تعالى مخاطبًا للرسول -والمراد جنس الإنسان- ليحصل الجواب: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من فضل الله ومنّه ولطفه ورحمته ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ أي: فمن قِبَلك، ومن عملك أنت؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]. قال قتادة: ﴿فَمِن نَّفۡسِكَ﴾: عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك. عن مُطَرِّف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدَر؟ أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: من نفسك؟! والله ما وُكِلُوا إلى القدَر، وقد أُمِروا، وإليه يصيرون. وهذا كلام مُبين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ أي: تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ أي: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضًا بينك وبينهم، وعالم بما تبلّغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفرًا أو عنادًا.

الآية (٨٠): يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني» [متفق عليه]. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ أي: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، فمن تَبِعك سَعِد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء؛ كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه» [رواه أبو داود وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٨١): ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يُظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ أي: استسرُّوا ليلًا فيما بينهم بغير ما أظهروه. قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ أي: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفَظَته الكاتبين، الذين هم موكلون بالعباد. والمعنى في هذا التهديد: أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يُضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك. ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: اصفح عنهم واحلم عليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تَخَفْ منهم أيضًا ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: كفى به وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

الآية (٨٢): يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهُّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو كان مُفتعَلًا مُختلَقا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا﴾ أي: اضطرابًا وتضادًّا ﴿كَثِيرٗا﴾ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله؛ كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧].

الآية (٨٣): إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبا أن يُحدِّث بكل ما سمع» [رواه مسلم]. وعن عمر بن الخطاب حين بلغه أن رسول الله ﷺ طَلَّق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: أطلقتهن؟ فقال: «لا». قال: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر [متفق عليه]. ومعنى قوله: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ أي: يستخرجونه من معادنه. وقوله: ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين.

الآية (٨٤): يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ أن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾. عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ إنما ذلك في النفقة. [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي: على القتال ورغِّبهم فيه وشجعهم عليه؛ كما قال لهم رسول الله ﷺ يوم بدر وهو يسوّي الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» [رواه مسلم]. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد:٤].

الآية (٨٥): ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك.

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته. وقال مجاهد بن جَبْر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾ قال ابن عباس: أي: حفيظًا. وقال مجاهد: شهيدًا. وفي رواية عنه: حسيبًا. وقال السدي: قديرًا. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: الواصب[1]. وقال الضحاك: المقيت: الرزاق.

الآية (٨٦): قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ أي: إذا سلَّم عليكم المُسلِّم فردّوا عليه أفضل مما سلّم، أو ردوا عليه بمثل ما سلّم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة.

فأما أهل الذمة فلا يُبْدَؤون بالسلام ولا يُزادون، بل يرد عليهم بما ثبت عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك! فقل: وعليك» [متفق عليه]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام» [رواه مسلم]. وقال الحسن البصري: السلام تطوع، والرد فريضة. وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾.

---

(١) الواصب: الباقي الدائم؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل:٥٢]، [ينظر: الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي].

الآية (٨٧): قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرُّده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمَّن قسمًا لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه اللام مُوطِّئة للقسم، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقَسَم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الآية (٨٨): يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين. واختلف في سبب ذلك، فروى زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إنها طَيْبة، وإنها تنفي الخَبَث كما ينفي الكيرُ خبث الحديد» [متفق عليه].

وقد ذكر ابن إسحاق في وقعة أحد: أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش؛ رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي: ردهم وأوقعهم في الخطأ ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه.

الآية (٨٩): ثم قال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أي: هم يودّون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تركوا الهجرة، قاله ابن عباس. وقال السُّدي: أظهروا كفرهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

الآية (٩٠): ثم استثنى الله سبحانه من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم.

[سبب النزول]: روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جُدْعان، عن الحسن: أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر -يعني النبي ﷺ- على أهل بدر وأُحُد، وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي -بني مُدْلِج - فأتيته فقلت: أَنْشُدُك النعمة. فقالوا: صه. فقال النبي ﷺ: «دعُوه، ما تريد؟». قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تَخْشُن قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد ابن الوليد، فقال: «اذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل الله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. ورواه ابن مردويه. وقال: فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم. وهذا أنسب لسياق الكلام. وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المُسْتَثْنَين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصافّ، وهم حَصِرَةٌ صدورهم، أي: ضيّقةٌ صدورهم مُبْغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ﴾ أي: من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فليس لكم أن تقاتلوهم، ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذٍ عن قتل العباس وأَمَرَ بأَسْرِه.

الآية (٩١): وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك؛ فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]. وقال ههنا: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: انهمكوا فيها. وقال السُّدي: والفتنة ههنا: الشرك.

وعن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن القتال ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: أين لقيتموهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: بيِّنًا واضحًا.

الآية (٩٢): يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه. عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [رواه البخاري ومسلم]. ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع.

[سبب النزول]: قال مجاهد وغير واحد: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه -وهي أسماء بنت مُخَرِّبَة- وذلك أنه قتل رجلًا كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامري، فأضمر له عَيّاش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية.

قوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة؛ لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة. وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبي والنخعي والحسن أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصدًا للإيمان. واختار ابن جرير أنه إن كان مولودًا بين أبوين مسلمين أجزأ، وإلا فلا. والذي عليه الجمهور: أنه متى كان مسلمًا صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله قال: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة». ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هو الواجب الثاني؛ فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضًا لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أخماسًا: عن ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ: عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكورًا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذاعًا، وعشرين حِقّة. وقيل: تجب أرباعًا. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله. قال الشافعي: لم أعلم مخالفًا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلَّمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا كان القتيل مؤمنًا، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة لا غير. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ الآية، أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنًا فَدِيَةٌ كاملة، وكذا إن كان كافرًا أيضًا، عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر - من مرض أو حيض أو نفاس- استأنف. ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هذه توبة القاتل خطأ؛ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.

الآية (٩٣): ثم لما بيّن تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]. والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا. عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنِقًا صالحًا ما لم يُصب دمًا حرامًا، فإذا أصاب دمًا حرامًا بَلَّح» [رواه أبو داود وصححه الألباني]. وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة للقاتل عمدًا المؤمنَ. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة بن عبد الرحمن. والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلَفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملًا صالحًا، بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠]، وهذا خبر لا يجوز نسخه، وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك. وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان. فأما الآية الكريمة - وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾- فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب.

الآية (٩٤): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنمًا له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام وأظهر لكم الإيمان، فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عَرَض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسرّ إيمانه ويخفيه من قومه. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ تأكيد لما تقدم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

الآية (٩٥): [سبب النزول]: عن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادعُ فلانًا» فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف، فقال: «اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» وخَلْف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضرير؟ فنزلت مكانها: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [رواه البخاري].

فقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقًا، فلما نزل بوحي سريع: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد -من الْعَمَى والعَرَج والمرض- عن [عدم][1] مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضرر. وكذا ينبغي أن يكون، كما ثبت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرْتُم من مَسِير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه». قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم؛ حبسهم العذر» [رواه البخاري]. وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية.

الآية (٩٦): ثم أخبر تعالى بما فضّلهم به من الدرجات، إحسانًا منه وتكريمًا؛ ولهذا قال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» [متفق عليه].

الآية (٩٧): [سبب النزول]: عن ابن عباس: أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم يُرمى به، فيصيب أحدَهم فيقتله، أو يُضرب عنقه فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [رواه البخاري]. وعن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخْفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا. فاستَغْفَروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم التَّقِيَّة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٨]. [رواه ابن أبي حاتم وصحح إسناده أحمد شاكر]. فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: لِمَ مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

عن سمرة بن جندب قال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» [رواه أبو داود، وحسنه الألباني].

الآية (٩٨-٩٩): ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقًا. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم بتركهم الهجرة، و﴿عَسَى﴾ من الله موجبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

الآية (١٠٠): ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، قال ابن عباس: «المُراغَم»: التحول من أرض إلى أرض. وقال مجاهد: يعني: مُتزحزَحًا عما يكره. والظاهر -والله أعلم- أن المراغم: هو التمنُّع الذي يُتَحصَّن به، ويراغم به الأعداء. ﴿وَسَعَةً﴾ يعني: الرزق. ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، عن عمر بن الخطاب قال: قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله...» [متفق عليه]. وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال.

الآية (١٠١): ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم في البلاد. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: تخفّفوا فيها، إمَّا[2] من كَمِّيَّتِها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلّوا بها على قصر الصلاة في السفر، على اختلافهم في ذلك: فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة؛ لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾. ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحًا؛ لقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]، فما أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألا يكون عاصيًا بسفره. ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحًا أو محظورًا، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل تَرَخَّص. قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ قد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول الآية؛ ففي مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله. عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت له: قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» [رواه مسلم].

---

(١) سقطت من نسخ ابن كثير، وأضفناها ضرورة ليستقيم المعنى ولا ينعكس.

(٢) (إمَّا) التفريعية هذه لم يذكر ابن كثير جزأها الثاني؛ ولعله أراد: (إما من كميتها، وإما من كيفيتها) كما فصله الشنقيطي في أضواء البيان.

الآية (١٠٢): صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدوّ تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صَوْبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة تكون ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالًا وركبانًا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة، وبه قال أحمد بن حنبل. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة فيُجزيك ركعة واحدة، تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله. ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب صلاة الظهر والعصر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نُسخ تأخير الصلاة لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف. [سبب النزول]: عن أبي عياش الزُّرَقِي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسْفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غِرَّتَهم. ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم النبي ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعًا، ثم رفع فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف. قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم [رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصحح إسناده أحمد شاكر] وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا، وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضًا [رواه البخاري]. وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب؛ لظاهر الآية، ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أُهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

الآية (١٠٣-١٠٤): يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعًا مُرَغَّبًا فيه أيضًا بعد غيرها، ولكن ههنا آكد؛ لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهُر الحرُم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر أحوالكم. ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي: فإذا أمنتم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا۟ الصَّلَوٰةَ﴾ أي: فأتموها وأقيموها كما أُمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها. ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضًا. وقال ابن مسعود: إن للصلاة وقتًا كوقت الحج. وقال زيد بن أسلم: منجمًا، كلما مضى نجم جاءتهم، يعني: كلما مضى وقت جاء وقت. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدّوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:١٤٠]. قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئًا من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلائها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

الآية (١٠٥): يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ﴾ احتج بهذه الآية من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد، وبما ثبت عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد دَرَسَتْ، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَن بحُجَّتِه من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسطامًا [1] في عنقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم توخّيا الحق بينكما، ثم استَهِما، ثم ليُحْلِلْ كل واحد منكما صاحبه» [رواه أحمد وحسنه الألباني]. ذكر مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربة.

(١) السطام والإسطام: الحديدة التي تحرك بها النار وتسعر: أي أقطع له ما يسعر به النار على نفسه ويشعلها، أو أقطع له نارًا مسعرة. [النهاية في غريب الحديث والأثر].

الآية (١٠٦-١٠٧) [1]

الآية (١٠٨): **قوله:** ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية، **هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم؛ ولهذا قال:** ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ **تهديد لهم ووعيد.**

الآية (١٠٩): **ثم قال:** ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ **أي: هَبْ أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أُبْدِيَ لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر - وهم مُتَعَبَّدون بذلك- فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم؟ أي: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلا، ولهذا قال:** ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

الآية (١١٠): **يخبر تعالى عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أيّ ذنب كان؛ فقال تعالى:** ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قال ابن عباس: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وَسَعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ **ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والجبال والأرض.**

وعن ابن مسعود قال: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم ذنبًا أصبح قد كُتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول منه شيئًا قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم؛ جعل الماء لكم طهورًا، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥]، **وقال:** ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [رواه ابن جرير وصحح إسناده أحمد شاكر].

وعن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مُغَفَّل، فسألته عن امرأة فَجَرت فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله ابن مغفل: ما لها؟! لها النار، فانصرفت وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. **قال: فمسحت عينها، ثم مضت** [رواه ابن جرير وصحح إسناده أحمد شاكر].

وروى الإمام أحمد عن علي قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني عنه. وحدثني أبو بكر -وصدق أبو بكر- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنبًا ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ الآية، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥] [رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر].

الآية (١١١): **وقوله:** ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ **كقوله تعالى:** ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر:١٨]، **يعني: أنه لا يجني أحد على أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ **أي: مِن علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك.**

الآية (١١٢): **ثم قال:** ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ **هذا التقريع وهذا التوبيخ عام في كل مَن هذه صفته.**

الآية (١١٣): **ثم قال:** ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ **ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب: وهو القرآن، والحكمة: وهي السنة،** ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ **أي: قبل نزول ذلك عليك؛ كقوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢-]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٨٦]؛ **ولهذا قال تعالى:** ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

---

(١) لم يتعرض ابن كثير لتفسير هاتين الآيتين، واكتفى بورودهما ضمن سياق حديث سارق بني أُبيرق المشار إليه في آخر آية (١٠٥)؛ وهو حديث طويل رواه ابن مردويه، والترمذي، وابن جرير، وغيرهم بسياقات متقاربة، والروايات كلها لا تخلو من مقال، لذا اكتفينا بالإشارة إليه دون إيراده.

الآية (١١٤): ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ يعني: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: إلا نجوى من قال ذلك. عن أم كلثوم بنت عقبة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيَنْمِي خيرًا، أو يقول خيرًا» وقالت: لم أسمعه يُرَخِّصُ في شيء ممَّا يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديثِ المرأةِ زَوْجَهَا. [رواه مسلم]. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: مخلصًا في ذلك، محتسبًا ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلا كثيرًا واسعًا.

الآية (١١٥): ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عَمْدٍ منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالَفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلم اتفاقهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضُمِنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم. والذي عوَّل عليه الشافعي في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تَحْرُم مخالفته هذه الآية الكريمة، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها. ولهذا توعَّد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نُحسّنها في صدره ونزيّنها له -استدراجًا له- كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف:٥]، وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]. وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

الآية (١١٦): عن علي أنه قال: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبَعُدَ عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة.

الآية (١١٧): وقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال: مع كل صنم جِنيَّة. وروى أيضًا عن عائشة: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قالت: أوثانًا. وقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسَّنه وزيَّنه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠].

الآية (١١٨-١١٩): وقوله: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره، ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: مُعَيَّنا مقدَّرًا معلومًا. ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأماني، وآمرهم بالتسويف والتأخير، وأغرُّهم من أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خصي الدواب. وقال الحسن البصري: يعني بذلك الوَشْم. عن ابن مسعود أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشِمات، والنامصات والمُتَنَمِّصَات، والمُتَفَلِّجات للحُسْن، المغيّرات خَلْقَ الله عز وجل» ثم قال: أَلا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل؛ يعني قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧] [متفق عليه]. وقال ابن عباس -في رواية عنه- ومجاهد، وعكرمة والنخَعي، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يعني: دين الله عز وجل. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] على قول من جعل ذلك أمرًا، أي: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفِطْرَة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرَانه، ويُمَجِّسَانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تجدون بها من جدعاء؟» [متفق عليه]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها.

الآية (١٢٠-١٢١): قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ هذا إخبار عن الواقع؛ فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومَنَّاهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم يوم حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص ولا مناص.

الآية (١٢٢): ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء، وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: صَدّقَت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أُمروا به من الخيرات، وتركوا ما نُهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يصرّفونها حيث شاءوا وأين شاءوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أي: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ أي: هذا وعد من الله، ووعد الله معلومٌ حقيقةً أنه واقع لا محالة، ولهذا أكّده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله: ﴿حَقّٗا﴾. قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قولا وخبرًا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الآية (١٢٣): [سبب النزول]: قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم؛ نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ الآية. فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان. والمعنى في هذه الآية: أنّ الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كُلّ من ادَّعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو المُحِقّ سُمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على ألْسِنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ شَقّ ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا؛ فإن في كل ما يُصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يُشَاكها، والنَّكْبَة يَنْكُبُهَا» [رواه مسلم]. وروى ابن جرير عن الحسن: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧]. قوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. والصحيح أن ذلك عامٌّ في جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

الآية (١٢٤): لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا -وهو الأجود له- وإما في الآخرة -والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة- شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذُكْرَانهم وإناثهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو النّقرة التي في ظهر نواة التمرة.

الآية (١٢٥): أي: أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما؛ أي: يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب: أن يكون متابعًا للشريعة. فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يُراؤون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًّا جاهلًا. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين. ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، والحنيف: هو المائل عن الشرك قصدًا، أي: تاركًا له عن بصيرة، ومُقبل على الحق بكُلّيته، لا يصدّه عنه صادٌّ، ولا يردّه عنه رادّ. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يُقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه.

الآية (١٢٦): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقّب لما حكم، ولا يُسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ أي: علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للنواظر وما توارى.

الآية (١٢٧): عن عائشة -رضي الله عنها-: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، قد شَرِكَتْهُ في ماله، حتى في العَذْق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية [رواه البخاري ومسلم]. والمقصود: أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة لا يكون للرجل فيها رغبة، لِدَمَامَتِها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يَعْضُلَها عن الأزواج، خشية أن يَشْرَكوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيُلقِي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا، فإن كانت جميلة وهَوِيَها تَزَوَّجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فَحَرّم الله ذلك ونهى عنه. وقال في قوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾: كانوا في الجاهلية لا يورِّثون الصغار ولا البنات؛ وذلك قوله: ﴿لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبيَّن لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١] صغيرًا أو كبيرًا. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتَها واستأثرتَ بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكِحْها واستأثِر بها. ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ تهييجًا على فعل الخيرات وامتثالًا للأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمّه.

الآية (١٢٨): يقول تعالى مخبرًا ومشرعًا عن حال الزوجين: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يُعرض عنها، فلها أن تُسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ثم قال: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: من الفراق -وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[1] أي الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق- ولهذا لما كبرت سَوْدَة بنت زَمْعَة عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وتترك يومها لعائشة، فَقَبِل ذلك منها وأبقاها على ذلك. وعن عائشة: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حِلّ. فنزلت هذه الآية [رواه البخاري]. عن خالد بن عَرْعَرَة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قال علي: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عيناه عنها من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها، فتكره فراقه، فإن وضعَت له من مهرها شيئًا حَلّ له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج [رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وكذا فسَّرها غير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم في ذلك خلافًا في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم. ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني التخيير، أنّ تخيير الزوج لها بين الإقامة والفراق خير من تمادي الزوج على أثَرة غيرها عليها. والظاهر من الآية أن صُلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلّية، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زَمْعة على أن تركَت يومها لعائشة، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعلُه ذلك لتتأسَّى به أمّته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولـمّا كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. قوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وإن تتجشَّموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

الآية (١٢٩-١٣٠): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه؛ فإنه وإن وقع القسْم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس. كما في الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب. وإسناده صحيح. ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: فتبقى الأخرى مُعَلَّقة. قال ابن عباس: معناه: لا ذات زوج ولا مطلقة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْهِ ساقط» [رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني]. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من مَيْل إلى بعض النساء دون بعض.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق، وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرَّقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه؛ بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: واسع الفضل عظيم المنّ، حكيمًا في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

الآية (١٣١): يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، كما قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]، وقال ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦]؛ أي: ﴿غَنِىٌّ﴾ عن عباده، ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود في جميع ما يقدره ويشرعه.

الآية (١٣٢-١٣٣): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠] أي: ما هو عليه بممتنع.

الآية (١٣٤): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك.

(١) قال السعدي: أي: جبلت النفوس على الشح.

الآية (١٣٥): يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل؛ فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه. وقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ كما قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢]، أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية عن التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك. ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك أو قرائبك، فلا تُراعِهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم؛ فإن الحق حاكم على كل أحد. ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، والله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي: فلا يحملنّكم الهوى والعصبية وبغْضَة الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ قال مجاهد: ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ أي: تحرّفوا الشهادة وتغيروها، و«اللَّيُّ» هو: التحريف وتعمُّد الكذب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧٨] الآية. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها» [رواه مسلم]. ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: وسيجازيكم بذلك.

الآية (١٣٦): يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشُعَبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه؛ كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] أي: بَصِّرنا فيه، وزِدْنا هدى، وثبّتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]. قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه نزل مفرقًا مُنَجّمًا على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد إليه في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: فقد خرج عن طريق الهدى، وبَعُدَ عن القصد كلّ البُعد.

الآية (١٣٧): يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ قال: تمادوا على كفرهم حتى ماتوا. وروى ابن أبي حاتم عن علي أنه قال: يُستتاب المرتد، ثلاثًا، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾.

الآية (١٣٨): ثم قال: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني: أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطُبع على قلوبهم.

الآية (١٣٩): ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ بمعنى: أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرّون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلَوا بهم: إنما نحن معكم، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى مُنكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾. ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]. والمقصود من هذا: التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

الآية (١٤٠): قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يُكفَر فيه بآيات الله ويُستهزأ ويُتَنَقَّص بها، وأقررتموهم على ذلك؛ فقد شاركتموهم في الذي هُم فيه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في المأثم؛ كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدَار عليها الخَمْر» [رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني]. والذي أُحيل عليه في هذه الآية[1] من النهي في ذلك هو قوله تعالى في الأنعام، وهي مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]. قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي: كما اشتركوا في الكفر، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا، وجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال، وشُرْب الحميم والغِسْلين لا الزّلال.

---

(١) يقصد بذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الآية (١٤١): يخبر تعالى عن المنافقين: أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء؛ بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفَرة عليهم، وذهاب ملّتهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نصر وتأييد وظَفَر وغنيمة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان -كما وقع يوم أحد؛ فإنّ الرُّسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة- ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألْوَناهم خبالًا وتخذيلًا، حتى انتصرتم عليهم. وقال السُّدي: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: نغلب عليكم، كقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، وهذا أيضًا توددٌ منهم إليهم؛ فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظَوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: بما يعلمه منكم -أيها المنافقون- من البواطن الرديئة، فلا تغترُّوا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيومَ القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تُبلى فيه السرائر ويُحَصَّل ما في الصدور. وقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ روى عبد الرزاق عن يُسَيْع الكِندي قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال علي: ادْنُه ادنه، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. قال: ذاك يوم القيامة. وقال السُّدي: ﴿سَبِيلًا﴾ أي: حجة. ويحتمل أن يكون المراد: في الدنيا، بأن يُسَلَّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الآية (١٤٢-١٤٣): لا شك أن الله تعالى لا يُخادَع؛ فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين - لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم - يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجَرَت عليهم أحكامُ الشريعة ظاهرًا، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده. ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذّلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك في القيامة. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نيّة لهم فيها، ولا إيمانَ لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها. هذه صفة ظواهرهم. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومُصانَعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يُرَون غالبًا فيها كصلاة العشاء وقت العَتَمَة، وصلاة الصبح في وقت الغَلَس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر». ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في صلاتهم لا يخشعُون ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يُراد بهم من الخير معرضون. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا». [رواه مسلم]. قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: المنافقين محيَّرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك؛ فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك؛ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع» تفرد به مسلم. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨] أي: ومن صرفه عن طريق الهدى، فلن تجد له وليًا مرشدًا؛ فإنه من يضلل الله فلا هادي له، والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الآية (١٤٤): ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨] أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه. ولهذا قال ههنا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة عليكم في عقوبته إياكم. عن ابن عباس قوله: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: كل سلطان في القرآن حجة. وإسناده صحيح.

الآية (١٤٥): ثم أخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: أي: في أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. عن أبي هريرة: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تُطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب.

الآية (١٤٦): ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه، وقَبِلَ ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: بَدَّلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ. قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في زُمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية (١٤٧): ثم قال مُخبرًا عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أي: أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: مَن شكَر شكَر له، ومن آمن قلبه به عَلِمَه، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

الآية (١٤٨): قال عن ابن عباس: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلومًا، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وإنْ صبَر فهو خير له. وقال الحسن البصري: لا يدعُ عليه، وليقل: اللهم أعنّي عليه، واستخرِجْ حقي منه. وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، عن أبي هريرة أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارًا يؤذيني، فقال له: «أَخرِج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مَرّ به قال: ما لَك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أوذيك أبدًا» [رواه أبو داود، قال الألباني: حسن صحيح].

الآية (١٤٩): ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: إن تُظهروا -أيها الناس- خيرًا، أو أخفيتموه، أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه؛ فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. وفي الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، ومن تواضع لله رفعه الله» [رواه مسلم].

الآية (١٥٠-١٥٢): يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى؛ حيث فَرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهّي والعادة وما ألْفَوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادهم إلى ذلك؛ فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية. والمقصود: أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء؛ فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهّي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًا، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: في الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومسلكًا. ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ أي: كُفرهم محقق لا محالة بمن ادّعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعيًا؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسولَ الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهانًا منه، لو نظروا حق النظر في نبوّته. وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا، مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته؛ كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ؛ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأُخروي: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١] في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني بذلك: أمة محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعدّ لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل، والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لذنوبهم، أي: إن كان لبعضهم ذنوب.

الآية (١٥٣-١٥٤): قال قتادة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صُحفًا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به! وهذا إنما قالوه على سبيل التعنُّت والعناد والكفر والإلحاد، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بطغيانهم وبغيهم، وعُتوّهم وعنادهم. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليَمّ، فما جاوزوه إلا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الآيتين [الأعراف:١٣٨-١٣٩]. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة «الأعراف» وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتُلَ من لم يعبد العجل منهم مَن عَبَدَه، فجعل بعضهم يقتل بعضًا، فقال الله عز وجل: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾. قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، رفع الله على رؤوسهم جبلًا، ثم أُلزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم! كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٧١].

قوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل؛ فإنهم أُمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سُجَّدًا، وهم يقولون: حِطّة. أي: حُطّ اللهم عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونُكولنا عنه، حتى تُهْنَا في التِّيْه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة!

قوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرّم الله عليهم ما دام مشروعًا لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: شديدًا، فخالفوا وعَصَوْا وتحيّلوا على ارتكاب مناهي الله عز وجل.

الآية (١٥٥-١٥٦): هذه من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى؛ وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: حُجَجه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله؛ فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا من الأنبياء عليهم السلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قال ابن عباس: أي في غطاء، وهذا كقول المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]. قوله: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مَرَدت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان. قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، قد حملت بولدها من ذلك.

الآية (١٥٧-١٥٩): ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يدّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء؛ كقول المشركين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦]. وقد أوضح الله الأمر وجلّاه وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيَّد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: رأوا شبهه فظنّوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني بذلك: من ادّعى قتله من اليهود، ومن سَلَّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين. قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: منيع الجناب لا يُرام جنابه، ولا يُضام من لاذَ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم. قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: يعني بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعني: قبل موت عيسى؛ يُوَجَّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام. ثم روى عن ابن عباس قال: قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام. هذا القول هو الحق. وقال آخرون: يعني بذلك: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ بعيسى قبل موت الكتابي. وأَولى هذه الأقوال بالصحة أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موته، أي: قبل موت عيسى عليه السلام. ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى وصَلْبه، وتسليم من سلَّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلّف عن التصديق به واحد منهم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [متفق عليه]. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رَفْعِه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله عز وجل. وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

الآية (١٦٠-١٦١): يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة، حَرّم عليهم طيبات كان أحلها لهم. وهذا التحريم قد يكون قدريًا، بمعنى: أنه تعالى قيضهم لأنْ تأوَّلوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدَّلوا أشياء كانت حلالًا لهم، فحرَّموها على أنفسهم، تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتَنطُّعًا. ويحتمل أن يكون شرعيًا، بمعنى: أنه تعالى حَرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران:٩٣]. ولهذا قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: صدّوا الناس وصدّوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سَجِيَّة لهم مُتّصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خَلْقًا من الأنبياء، وكذّبوا عيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما. قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشُّبَه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الآية (١٦٢): ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطفٌ على الراسخين. وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. قال ابن عباس: أُنزلت في عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة، وزيد بن سَعْيَة، وأسد بن عُبيد، الذين دخلوا في الإسلام، وصدّقوا بما أرسل الله به محمدًا ﷺ. قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال بعضهم: هو منصوب على المدح؛ كما جاء في قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]، قالوا: وهذا سائغ في كلام العرب.

وقال آخرون: هو مخفوض عطفًا على قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ يعني: وبالمقيمين الصلاة؛ وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة، أي: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم. ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُحتمل أن يكون المراد: زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها. وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة.

الآية (١٦٣): [سبب النزول]: روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال سُكَين وعَدِيّ بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى! فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ إلى آخر الآيات. ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين. ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ والزبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

الآية (١٦٤-١٦٥): قوله ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ أي: من قبل هذه الآية، يعني: في السور المكية وغيرها. وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن، وهم: آدم وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليَسَع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ.

قوله: ﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ أي: خلقًا آخرين لم يُذكروا في القرآن. قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم.

قوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

قوله: ﴿لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه:١٣٤] وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين».

الآية (١٦٦): لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء:١٦٣] إلى آخر السياق إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: وإنْ كفَر به من كفَر به ممن كذّبك وخالفك؛ فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو: القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؛ ولهذا قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مُرسل ولا ملَك مقرّب، إلا أن يُعْلِمَه الله به. عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السُّلَمي القرآنَ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذتَ علم الله، فليس أحدٌ اليوم أفضلَ منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أي: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم – والله – إنكم لتعلمون أني رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

الآية (١٦٧-١٦٩): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي: كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسَعوْا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبَعُدُوا منه بُعدًا عظيمًا شاسعًا. ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصدّ عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ولا يهديهم ﴿طَرِيقًا﴾ أي: سبيلًا إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الآية (١٧٠): قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ أي: قد جاءكم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم. ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]، وقال ههنا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغَوَاية فيُغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

الآية (١٧١): ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى؛ فإنهم تجاوزوا الحدّ في عيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيّز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلَوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعوْا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقًا أو باطلًا، أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]. عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» [رواه البخاري].

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ أي: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدًا؛ فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله، وخَلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول مِن رُسله، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي: خَلقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب درْعها، فنزلت حتى وَلَجَت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأمَّ، والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولَّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل؛ قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]. وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي: ورسول منه. وقال غيره: ومحبة منه. والأظهر الأول، وهو: أنَّه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود:٦٤]. وفي قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدِّقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد ولا صاحبة له، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمّه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وهذه الآية والتي تأتي في سورة المائدة: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة:٧٣]، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة:١١٦]، وقال في أولها: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢]، فالنصارى من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر؛ فمنهم من يعتقده إلهًا، ومنهم من يعتقده شريكًا، ومنهم من يعتقده ولدًا. وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة. وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتَّحدا؟ أو ما اتحدا بل امتزجا، أو حلّ فيه؟ على ثلاث مقالات! وكل منهم يكفّر الفرقة الأخرى، ونحن نكفّر الثلاثة. ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ أي: يكن خيرًا لكم ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ أي: تعالى وتقدّس عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد؟!

الآية (١٧٢-١٧٣): عن ابن عباس قوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ﴾: لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية؛ حيث قال: ﴿وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، وليس له في ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذُكروا لأنهم اتُّخِذُوا آلهة مع الله، كما اتُّخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده وخَلْق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء:٢٦-٢٩]. ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحُكمِه العَدْل، الذي لا يجور فيه ولا يَحِيف. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ يعني: فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسَعَة رحمته وامتنانه. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

الآية (١٧٤-١٧٥): يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس، ومُخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعُذْر، والحجة المزيلة للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ أي: ضياء واضحًا على الحق، قال ابن جُرَيج: هو القرآن. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ أي: يرحمهم فيُدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي: طريقا واضحًا قَصْدًا قَوَامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف. وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة؛ فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المُفضي إلى روضات الجنات.

الآية (١٧٦): عن البراء قال: آخر سورة نزلت: «براءة»، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [رواه البخاري]. [سبب النزول]: عن جابر قال: دخل عَلَيّ رسول الله ﷺ وأنا مريض فَقُلْت: إنه لا يرثني إلا كَلَالَة، فكيف الميراث؟ قال: فنَزَلَت آية الفرائض [متفق عليه]. والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ ولهذا فسَّرها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولد ولا والد. قال عمر: ما سألتُ رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بأُصْبُعِه في صدري، وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» [رواه مسلم مطولًا]. وكأن المراد بآية الصيف: أنها نزلت في فصل الصيف، والله أعلم. ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ أي: مات. ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ تمسَّك به من ذَهَبَ إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب [رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح]. ولكن الذي رَجَع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه مَنْ لا ولد له ولا والد، ويدلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، ولو كان معها أب لم ترث شيئًا؛ لأنه يحجبها بالإجماع؛ لأن الأخت لا يُفرَض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكُلّية. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالةً، وليس لها ولد، ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا. ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: فإن كان لمن يموت كلالةً أختان، فُرِض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا حكم العَصَبَات من البنين وبني البنين والإخوة، إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أُعطيَ الذكرُ مثل حظِّ الأنثيين. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يَفْرِض لكم فرائضه، ويَحُدُّ لكم حدوده، ويُوضِّح لكم شرائعه. ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي: لئلا تضلّوا عن الحق بعد البيان ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقّه كل واحد من القرابات بحسب قُربه من المتوفى.

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٢٠) آية]

عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذةٌ بِزمام العَضْباء -ناقةِ رسول الله ﷺ- إذ نزلت عليه المائدة كلّها، وكادت مِن ثقلها تَدُقّ عَضُد الناقة [رواه أحمد، وحسن إسناده أحمد شاكر].

الآية (١-٢): عن ابن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرْعِها سَمْعَك، فإنه خَيْرٌ يؤمر به، أو شَرٌّ يُنهى عنه. ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك؛ قال: والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحِلف وغيره. وعن ابن عباس: يعني: ما أحلَّ الله وما حَرَّم، وما فَرَض وما حَدَّ في القرآن كلِّه، ولا تَغْدِروا ولا تَنْكُثُوا. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هي: الإبل، والبقر، والغنم. قاله الحسن وقتادة وغير واحد. قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك: الميتة والدم، ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه، والظاهر أن المراد بذلك قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣]؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تَحْرُمُ بهذه العوارض؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] يعني: منها؛ فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلافيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما سيُتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال. ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال، والمراد من الأنعام: ما يعُمّ الإنسيّ من الإبل والبقر والغنم، وما يعمّ الوحشي كالظِّباء والبقر والحُمُر، فاستثنى من الإنسي ما تقدَّم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام. وقيل المراد: أحللنا لكم الأنعام في جميع الأحوال فَحَرَّموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حَكَم بهذا، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: مناسك الحج. وقال مجاهد: الصفا والمروة والهَدْي والبُدن من شعائر الله. وقيل: شعائر الله: محارمه، أي: لا تُحِلُّوا مَحارم الله التي حرَّمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نَهَى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. وقال ابن عباس يعني: لا تستحلوا قتالًا فيه. واختاره ابن جرير أيضًا، وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخٌ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قالوا والمراد أشهر التسيير الأربعة[1]، قالوا: فلم يستثن شهرًا حرامًا من غيره. ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام؛ فإن فيه تعظيم شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عمَّا عداها من الأنعام، وليُعْلَم أنها هَدْي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتَبْعَث من يراها على الإتيان بمثلها، وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ فلا تستحلوا. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، فلا تصدُّوه ولا تمنعوه ولا تُهيِّجوه. قال مجاهد، وعطاء، وقتادة، وغير واحد في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾: التجارة. ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ قال ابن عباس: يترضَّون اللهَ بحَجِّهم. ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ أي: إذا فَرَغْتم من إحرامكم وأَحلَلْتم منه، فقد أَبَحْنَا لكم ما كان مُحَرَّمًا عليكم في حال الإحرام من الصيد. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صَدُّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتَقْتَصُّوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أَمَرَكم الله به من العدل؛ فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال. والعدل به قامت السموات والأرض. والشنآن هو: البُغض. قاله ابن عباس وغيره.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات، وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم.

---

(١) هي المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢].

الآية (٣): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الميتة هي: ما مات من الحيوان حَتْف أنفه، من غير ذَكَاةٍ ولا اصطياد، وما ذاك إلا لِما فيها من المضرة للدِّين وللبدن، فلهذا حرَّمها الله عز وجل، ويُستثنى من الميتة: السمك، فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها. ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني: المسفوح، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحِلَّ لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال» [رواه أحمد وابن ماجه مرفوعًا، والصحيح وقفه على ابن عمر كما نقل ابن كثير عن أبي زرعة]. ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ يعني: الْإِنْسِيَّةُ وَوَحْشِيَّةُ، واللحم يَعمُّ جميع أجزائه حتى الشَّحْم. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ما ذُبِح فذُكِر عليه اسم غير الله، فهو حرام بالإجماع. ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تموت بالخنق إما قصدًا، أو اتفاقًا بأن تَتَحبّل في وثاقها فتموت به، فهي حرام. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تُضرَب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت. في الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب. قال: «إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله» [متفق عليه]. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تقع من شاهق أو موضع عالٍ فتموت بذلك، فلا تحل. ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإنْ جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام، وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يُمكِن عَوْدُهُ عليه، مما انعقد سبب موته فأَمْكَن تداركه بذَكَاة، وفيه حياة مُستقِرَّة؛ وذلك إنما يعود على قوله: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال ابن جُريج: هي ثلاثمائة وستون نُصبًا، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب. وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحَرَّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فُعِلَت عند النُّصُب [لأنها] من الشرك الذي حرَّمه الله ورسوله. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي: حُرِّمَ عليكم الاستقسام بالأزلام؛ وهي عبارة عن قِدَاح ثلاثة، على أحدها مكتوب: (افعل)، وعلى الآخر: (لا تفعل)، والثالث غُفْل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الآمر فَعَلَه، أو الناهي تَرَكَه، وإن طلع الفارغ أعاد. والاستقسام: مأخوذ من طلب القَسم من هذه الأزلام. هكذا قرَّر ابن جرير. ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطيه فسق وغيٌّ وضلال وجهالة وشِرْك، وقد أَمَر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه، ثم يَسْأَلُوهُ الخِيَرَة في الأمر الذي يريدونه.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: يئسوا أن يراجعوا دينهم. وعلى هذا المعنى يَرِدُ حديث: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المُصَلُّون في جزيرة العرب، ولكن بالتَّحْرِيش بينهم» [رواه مسلم]. ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين، بما تميّز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدًا إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أنصركم عليهم وَأُبِيدَهُم وأُظْفِرْكم بهم، وأشْفِ صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذه أكبر نِعَم الله عز وجل على هذه الأمة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. قال ابن عباس: فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمَّه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يَسْخَطُه أبدًا. عن السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات؛ لضرورة ألجأَتْهُ إلى ذلك، فله تناول ذلك، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له؛ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يَكره أن تؤتى معصيته» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي: مُتَعَاطٍ لمعصية الله؛ فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر. وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي لا يترخص بشيء من رُخَص السفر؛ لأن الرُّخَص لا تُنال بالمعاصي.

الآية (٤): لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ قال سعيد: يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل: الطيبات: ما أحلَّ لهم من كل شيء أن يصيبوه؛ وهو الحلال من الرزق. ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: أَحَلَّ لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهها كما هو مذهب الجمهرة من الصحابة والتابعين والأئمة. ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من الضمير؛ أي: في حال كونهن مكلّبات للصيد؛ وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أَشْلَاهُ[1] اسْتَشْلَى، وإذا أَخَذَ الصيد أَمسَكَه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يُمسِكُه لنفسه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: عند إرساله. عن عَدِيّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلتَ كلبك المُعَلَّم وذَكَرتَ اسم الله، فَكُلْ ما أَمْسَكَ عليك» [متفق عليه].

الآية (٥): لما ذكر الله تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. قال ابن عباس وغيره: يعني ذبائحهم. وهذا أمر مُجمع عليه بين العلماء. ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: ويَحِلُّ لكم أن تُطعِمُوهم من ذبائحكم، كما أكلتم من ذبائحهم. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الظاهر أن المراد: العفيفات عن الزنا. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن. ﴿مُحْصِنِينَ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء - وهي العفة عن الزنا- كذلك شَرَطَها في الرجال؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: ذوي العشيقات.

---

(١) أي: دعاه ليرجع إليه [ينظر كتاب العين، وتهذيب اللغة مادة (شلى)].

الآية (٦): قال كثيرون من السلف: قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناه: وأنتم مُحْدِثون. وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أَعمُّ من ذلك؛ فالآية آمرةٌ بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حقِّ المُحْدِث واجب، وفي حق الْمُتَطَهِّرِ نَدْب. عن بُرَيْدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خُفَّيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله! قال: «إني عَمْدًا فَعَلْتُه يا عمر» [رواه مسلم]. وقد استدل طائفة من العلماء بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء؛ لأن تقدير الكلام إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها. وفي الحديث: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» [متفق عليه]. ويُستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة، عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» [رواه أحمد وغيره، وصححه الألباني]. ويُستَحَب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم؛ لِما ثَبَت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نَوْمِه، فلا يُدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثًا؛ فإن أحدَكم لا يَدْرِي أين باتت يده» [متفق عليه]. وحَدُّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس -ولا اعتبار بالصَّلع ولا بالغَمَم- إلى منتهى اللَّحيين والذقن طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا. وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق. وقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق. ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه (الباء) هل هي للإلصاق -وهو الأظهر- أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مُجْمَل، فليُرْجَع في بيانه إلى السنّة، وقد ثبت [عن] عبد الله بن زيد [رَفَعَه أنه]: مسح بيديه فأقبل بهما وأدبر، بَدَأَ بِمُقَدَّم رأسه، ثم ذَهَبَ بهما إلى قَفَاهُ، ثم رَدَّهما حتى رَجَع إلى المكان الذي بدأ منه [متفق عليه]. ففي [هذا] دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس. وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ بالنَّصب عطفًا على ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ ومن ههنا ذَهَب من ذَهَب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور، ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة وأدخل الممسوح بين المغسولين، دلَّ ذلك على إرادة الترتيب. وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ: (وأرْجُلِكم) بالخفض، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. [ودلَّت] السُّنة الثابتة [على] وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض: إما على المجاورة وتناسُب الكلام، [وإما أنها] محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخُفّان، ومَن أوجب من الشيعة مسحهما كما يُمسح الخفُّ، فقد ضلَّ وأضلَّ.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ الآية، [سبب النزول]: عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ وحَضَرَت الصبحُ، فالتُمِس الماء فلم يُوجَد، فنَزَلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، فقال أَسَيْد بن الحُضَير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر؛ ما أنتم إلا بركة لهم. [رواه البخاري]. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: فلهذا سهَّل عليكم ويَسَّر ولم يُعَسِّر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فَقْد الماء، توسعةً عليكم ورحمةً بكم. ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نِعَمه عليكم فيما شَرَعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وَرَدت السنة بالحثِّ على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة؛ عن عمر قال: [قال رسول الله ﷺ]: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ -أو: فيُسبغ- الوضوء، [ثم] يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا فُتِحَت له أبواب الجنة الثمانية، يَدْخُل من أيِّها شاء» [رواه مسلم].

الآية (٧-٩): يقول تعالى مُذكرًا عباده المؤمنين نعمتَه عليهم في شَرْعِه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أَخَذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأَثَرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله» [متفق عليه]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أَعْلَمَهُم أنه يَعْلَم ما يَتَخَالَج في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. وقوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي: كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ أي: لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا؛ ولهذا قال: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: عَدْلُكم أقرب إلى التقوى من تركه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وسيجزيكم على ما عَلِم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمةٍ منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسبابًا إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

الآية (١٠-١١): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحَكَمُ العدل الحكيم القدير.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلًا، وتَفَرَّق الناس في العِضَاه يستظلون تحتها، وعلَّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فَسَلَّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»! قال الأعرابي مرتين أو ثلاثًا: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله»! قال: فَشَام[1] الأعرابي السيفَ، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خَبَرَ الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه [رواه البخاري]. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من توكَّل على الله كفاه الله ما أهمَّه، وحفظه من شر الناس وعَصمه.

الآية (١٢-١٣): لـمَّا أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكَّرهم نعَمَه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يُبيِّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابه وجَنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعني: عُرَفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه. وهكذا لـمَّا بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبًا؛ ثلاثة من الأوس، وهم: أُسيد بن الحُضَيْر، وسعد بن خَيْثَمَة، ورفاعة بن عبد المنذر -ويقال بدله: أبو الهيثم بن التَّيِّهان- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو أُمامة أسعد بن زُرَارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العَجْلان، والبراء بن مَعْرور، وعُبادة بن الصامت، وسعد بن عُبَادة، وعبد الله بن عَمْرو بن حرام، والمنذر بن عَمْرو بن خُنَيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. والمقصود: أن هؤلاء كانوا عُرَفَاء على قومهم لَيْلَتَئِذٍ عن أَمْر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين وَلُوا المبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة. عن ابن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ: [كم يملك هذه الأمة من خليفة؟] فقال: «اثنا عشر كَعِدَّة نُقباء بني إسرائيل» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن جابر بن سَمُرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال أمر الناس ماضيًا ما وليهم اثنا عشر رجلًا». ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عَلَيّ، فسألت، أي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش» [متفق عليه]، ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحًا، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وُجد منهم أربعة على نَسَق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشَّر به في الأحاديث الواردة، وليس هذا بالمنتظَر الذي تتوهّم الرافضة وُجوده ثم ظهوره من سرداب (سَامرّاء)! فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو مِن هَوَسِ العقول السخيفة، وَتَوَهُّم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بحفظي وكَلاءتي ونصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ أي: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته؛ ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم أَمْحُوها وأَسْتُرُها، ولا أؤاخذكم بها، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود. ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْده وتوكيده وشدِّه، وجحَده وعامَله معاملة من لا يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما أحلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ﴾ أي: فبسبب نقضهم الميثاقَ الذي أخذ عليهم لعنَّاهم، أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ أي: فلا يتَّعظُون بموعظة، [لِغِلَظِ قلوبهم] وقساوتها، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: فَسَدَت فُهومهم، وساء تصرُّفهم في آيات الله، وتأوَّلوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل عياذًا بالله من ذلك، ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: وتركوا العمل به رغبةً عنه. وقال الحسن: تركوا عُرَى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فِطَر مستقيمة، ولا أعمال قويمة، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغَدْرهم لك ولأصحابك. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ وهذا هو عَيْن النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، كما قال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك.

---

(١) أي: أغمده، وَهُوَ من الأضداد: يُقَال شامه يشميه إِذا أغمده، وشامه أَيْضا إِذا سَلَّه. [ينظر: تهذيب اللغة، ومعجم مقاييس اللغة، مادة (شيم)].

الآية (١٤): قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي: ومن الذين ادّعوا لأنفسهم أنهم نصارى مُتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يُرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود: خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضًا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين مُتعادين، يُكفِّر بعضهم بعضًا، ويَلعن بعضهم بعضًا؛ فكل فرقة تُحَرِّم الأخرى ولا تَدَعها تَلِجُ معبدها، فالملكية تُكَفِّر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية؛ كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله، وما نسبوه إلى الرب -عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علوًا كبيرًا- من جعلهم له صاحبةً وولدًا، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفوًا أحد.

الآية (١٥-١٦): يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض؛ عَرَبِهم وَعَجَمِهم، أُمِّيِّهم وَكتَابِيِّهم، وأنه بَعَثَه بالبينات والفرق بين الحقِّ والباطل، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: يُبيِّن ما بَدَّلُوه وحَرَّفُوه وأَوَّلُوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيَّروه ولا فائدة في بيانه. وعن ابن عباس قال: من كَفَر بالرَّجْم فقد كَفَر بالقرآن من حيث لا يحتسب.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه [رواه الحاكم والطبري، وصحح إسناده أحمد شاكر].

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: ينجيهم من المهالك، ويُوَضِّح لهم أَبْيَن المسالك، فيَصرِف عنهم المحذور، ويحصل لهم أَنْجَب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

الآية (١٧): يقول تعالى مُخبِرًا وحاكمًا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم -وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه- أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

ثم قال مُخبرًا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه؟! أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟!

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: جميعُ الموجودات ملكهُ وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل؛ لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا ردٌّ على النصارى.

الآية (١٨): قال تعالى رادًّا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بَنُوْهُ وله بهم عناية، وهو يُحِبُّنا. ومعلوم أنهم لم يدَّعوا لأنفسهم من البُنوَّة ما ادَّعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك مَعَزَّتَهُم لديه وحظْوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: لو كنتم -كما تدَّعون- أبناءه وأحباءه، فلِمَ أُعدَّتْ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟! عن أنس قال: مرَّ النبي ﷺ في نفرٍ من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوْطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعَتْ فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتُلقي ولدها في النار. فقال: «لا! والله ما يُلقِي حبيبه في النار» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو فعَّال لِما يُريد، لا مُعقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده ما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

الآية (١٩): يقول تعالى مخاطبًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدًا ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبيَّ بعده ولا رسول، بل هو الْـمُعَقِّب لجميعهم. ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، والمشهور أنها ستمائة سنة؛ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بابن مريم لَأَنَا؛ ليس بيني وبينه نبيٌّ» [رواه البخاري]، والمقصود: أن الله بعث محمدًا ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السُّبُل، وتَغَيُّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتمَّ النعم، والحاجة إليه أمرٌ عَمَمْ؛ فإن الفساد كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين؛ عن عياض بن حِمَار أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل نَظَرَ إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُم، عجَمَهم وعَرَبَهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب» [رواه مسلم]. وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلِّهم، حتى بَعَث الله محمدًا ﷺ، فهَدَى الخلائق، وأَخرَجَهم الله به من الظلمات إلى النور، وتَرَكَهم على المحَجَّة البيضاء، والشريعة الغرَّاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي: لئلا تَحْتَجُّوا وتقولوا-يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه-: ما جاءنا من رسول يُبَشِّر بالخير ويُنذِر من الشر، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعني محمدًا ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

الآية (٢٠-٢١): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكَلِيمِه موسى ابن عمران عليه السلام، فيما ذَكَّر به قومه نعَمَ الله عليهم وآلاءه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ أي: كلَّما هلك نبي قام فيكم نبي، من لَدُن أبيكم إبراهيم وإلى من بعده. وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذِّرون نقمته، حتى خُتموا بعيسى عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو أشرف من كل مَن تقدَّمه منهم ﷺ. ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ عن عبد الله بن عمرو، وسأله رجل فقال: أَلَسْنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك [رواه مسلم]. وقال السُّدي: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله. وفي الحديث: «من أصبح منكم مُعَافى في جسده، آمنًا في سِربه، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها» [رواه الترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني]. ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عَالَـمِي زمانكم؛ فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:١٦]. والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًا، وأعظم مُلكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع مملكة، وأدْوَم عِزًّا؛ قال الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. ثم قال تعالى مُخبرًا عن تحريض موسى عليه السلام بني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام، بالدخول إليها وبقتال أعدائهم، وبَشَّرهم بالنصرة والظفر عليهم، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التِّيه والتهادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصدٍ، مُدَّةَ أربعين سنة، عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة. وقال ابن عباس: هي الطور وما حوله. ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي وعدَكُموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وِرَاثَةٌ من آمن منكم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي: ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

الآية (٢٢-٢٣): ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة -التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها- قومًا جبارين، أي: ذوي خلقٍ هائلة، وقوًى شديدةً، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصَاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى عليه السلام، حَرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه. وقرأ بعضهم: «مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ» أي: ممن لهم مهابة وموضع من الناس. ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: متى توكَّلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نَصَرَكم الله على أعدائكم وأَيَّدَكم وظَفَّرَكُمْ بهم، ودخلتم البلدة التي كَتَبَها لكم. فلم ينفع ذاك فيهم شيئًا.

الآية (٢٤-٢٦): ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ هذا نُكُول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء. وما أحسن ما أجاب به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان؛ فعن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، والذي بعثك بالحق لو ضَرَبْت أكبادها إلى بَرْك الغِماد لاتّبعناك [رواه الإمام أحمد والنسائي، وصححه الألباني]. ولما نكل بنو إسرائيل عن القتال غَضِبَ عليهم موسى عليه السلام، وقال داعيًا عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ أي: ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله، ويُجيب إلى ما دعوتُ إليه إلا أنا وأخي هارون، ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم. وعنه أيضًا: افصل بيننا وبينهم.

قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد، حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة، فوقعوا في التِّيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه. ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تسليةً لموسى عليه السلام عنهم، أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به؛ فإنهم يستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أنّ بين أظهرهم رسول الله وكليمه وصفيُّهُ من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غَيِّهم يترددون، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨]!! فقبح الله وجوههم التي مَسَخَ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنةً تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود.

الآية (٢٧-٣١): يقول تعالى مُبَيِّنًا وَخِيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خَبَر ابْنَي آدمَ لِصُلْبِه كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيًا عليه وحسدًا له فيما وَهَبَه الله من النعمة، وتَقَبَّل القربان الذي أَخلَص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة، من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: على الجليّة والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وَهْم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران:٦٢]. ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. السياق يقتضي أنه إنما غَضِب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تَقَبَّل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتَّعظ، وزجرًا له لو انزجر. ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: خوَّفه النار فلم يَنتَهِ ولم ينزجر. ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ حَسَّنَتْ وسَوَّلَتْ له نفسه وشَجَّعَتْه على قتل أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأيُّ خسارة أعظم من هذه؟! وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتَل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه كان أول من سنَّ القتل» [متفق عليه]. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ قال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فَبَحَث عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾. وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.

الآية (٣٢-٣٤): ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدوانًا: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ومن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحلَّ قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعًا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرَّم قتلها واعتقد ذلك، فقد سَلِمَ الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها. ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية. المُحَارَبَة: هي المُضَادَّة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يُطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف: إن قرض الدراهم والدنانير[1] من الإفساد في الأرض.

قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات؛ فعن أنس بن مالك: أن نفرًا من عُكْل، ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم، فشَكَوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟»، فقالوا: بلى. فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها، فَصَحُّوا، فقتلوا الراعي وطردوا الإبل. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأُدْرِكُوا، فجيء بهم، فأمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت أعينهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا [متفق عليه، وهذا لفظ مسلم]. وعند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. وروى مسلم عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سملوا أعين الرِّعاء.

قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: من شَهَرَ السلاح في قُبَّةِ الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظُفِر به وقُدِر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله.

وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما قال ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قُتِلوا وصُلِبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قُتِلوا ولم يُصْلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يُطلب حتى يُقدَر عليه، فيُقَام عليه الحد، أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وغيرهم. وقال آخرون: هو أن يُنفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيُسجن فيه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ خزْي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادَّخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا يُؤَيِّد قول من قال: إنها نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام فعن عبادة بن الصامت [مرفوعًا]: «مَن أصابَ من ذلك شيئًا فعُوقِبَ فهو كفارة له» [رواه مسلم]. وقال ابن جرير في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: شَرٌّ وعَارٌ ونَكَالٌ وذِلَّة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: عذاب جهنم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة.

الآية (٣٥-٣٦): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قُرِنَت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال ابن عباس: أي القُربة. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد. وقال قتادة: أي تقرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه. والوسيلة: هي التي يُتَوَصَّل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا: عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثَبَتَ عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عَلَيّ، فإنه من صلى عَلَيّ صلاةً صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لَـمَّا أَمَرَهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغَّبَهم في ذلك بالذي أعدَّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرَّة التي لا تَبِيد ولا تَحُول ولا تزول في الغُرَف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سَكَنَها يَنْعَم لا يَبْأَس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله، ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتَيَقَّن وصوله إليه، ما تُقُبِّل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُوجِع.

---

(١) القَرْض: القَطْع، والقُراضة: ما سقَط بالقَرْضِ والقطع، وَمِنْهُ قُراضةُ الذَّهب، وفُضالةُ مَا يَقْرِضُ الفأْرُ مِنْ خُبْزٍ أَو ثَوْبٍ [ينظر: مقاييس اللغة ولسان العرب]، والمراد هنا: بَرْدُ الدراهم والدنانير أو قطعها فينقص وزنها.

الآية (٣٧): ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسّه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلّما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردونهم إلى أسفلها.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مَضْجَعك؟ فيقول: شَرَّ مضجع، فيقول: هل تفتدي بقُراب الأرض ذهبًا؟» قال: «فيقول: نعم يا رب! فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل: فيُؤْمَر به إلى النار» [رواه مسلم].

الآية (٣٨-٤٠): يقول تعالى حاكمًا وآمرًا بقطع يد السارق والسارقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، وروي أن ابن مسعود كان يقرؤها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما». وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقًا لها لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قُطعت يده به، سواء كان قليلًا أو كثيرًا لعموم هذه الآية. وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قَدْره. ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاةً على صنيعهما السيِّئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يُقطع ما استعانا به في ذلك، ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلًا من الله بهما على ارتكاب ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدَره. ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردِّها إليهم أو بدلها عند الجمهور. وعن عبد الله بن عمرو: أن امرأةً سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: «اقطعوا يدها»، فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار. قال: «اقطعوا يدها» فقُطعت يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك». فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن عائشة أن قريشًا أهمَّهم شأنُ المرأة التي سَرَقَت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يُكَلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يَجْتَرِئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فأتي بها رسولُ الله ﷺ، فكلَّمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجهُ رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حَدٍّ من حدود الله عز وجل؟!»، فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العَشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريف تركوه، وإذا سَرَق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد، وإني -والذي نفسي بيده- لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها» [متفق عليه]. ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذي لا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية (٤١): نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأوَّلونه على غير تأويله، ويبدِّلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون. ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. [سبب النزول]: نَزَلت في اليهوديَّيْن اللَّذَيْن زَنَيَا، وكانوا قد بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أُحْصن منهم، فحرَّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين! فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

فرسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقرِّرَهم على ما بأيديهم، ممَّا تواطئوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلمَّا اعترفوا به -مع عَملهم على خلافه- بَان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لِمَا يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه. ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية (٤٢-٤٤): ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: الباطل ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد؛ أي: ومن كانت هذه صفته كيف يُطَهِّر الله قلبه؟! وأنى يستجيب له؟! ثم قال لنبيّه: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إليك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ أي: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم. قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمَة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

قوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظَلَمةً خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم؛ فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾. ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك الربانيون منهم وهم العُبَّاد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أُمِرُوا أن يُظهِرُوه ويعملوا به ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمات[1]: عن ابن عباس قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، كانت إحداهما قد قَهَرَت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وَسْقًا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وَسْق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ، فقَتَلَتْ الذليلة من العزيزة قتيلًا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وَسْق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيَّين قطّ دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟! إنما أعطيناكم هذا ضَيمًا منكم لنا، وفَرَقًا منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، فدَسُّوا إلى رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين ليَخْبُروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبَر الله رسوله ﷺ بأمرهم كلّه وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ففيهم -والله- أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل. [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وهكذا قال قتادة، ومُقاتل بن حَيَّان، وابن زيد وغير واحد. وقد رُوِيَ عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوِّي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. قال السُّدي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ بما أنزلتُ فتركه عمدًا، أو جارَ وهو يعلم، فهو من الكافرين. وقال ابن عباس: من جَحَدَ ما أنزل الله فقد كَفَر، ومن أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير. ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب. وقال الشعبي: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قال: هذا في المسلمين، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال: هذا في النصارى. وعن ابن طاووس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ الآية، قال: هي به كفر. قال ابن طاووس: وليس كمن كَفَرَ بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عطاء: كُفْرٌ دون كُفْرٍ، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وعن ابن عباس: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه.

الآية (٤٥): وهذا أيضًا مما وُبِّخَتْ به اليهود وقُرِّعوا عليه؛ فإن عندهم في نصِّ التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا، ويُقِيْدُون النَّضْرِيَّ من الْقُرَظِيِّ، ولا يُقيدون الْقُرَظِيَّ من النَّضْرِيِّ، بل يعدلون إلى الدية! كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رَجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار! ولهذا قال هناك: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا، وقال ههنا: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدَّوْا بعضهم على بعض. وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال ابن عباس: تُقتَل النفس بالنفس، وتُفقَأ العين بالعين، ويُقطَع الأنف بالأنف، وتُنزَع السن بالسن، وتُقتَص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمدًا، في النفس وما دون النفس. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: فمن تَصَدَّقَ به فهو كفارة للجارح، وأجر المجروح على الله عز وجل. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قد تقدَّم عن طاووس وعطاء أنهما قالا: كُفْرٌ دون كُفْر، وظُلمٌ دون ظلم، وفِسْقٌ دون فِسْق.

(١) المقصود بدءًا من الآية (٤١) التي ذكر فيها قصة اليهوديين اللذين زنيا.

الآية (٤٦-٤٧): ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أَتْبَعْنَا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: هدًى إلى الحق، ونورٌ يُستَضَاء به في إزالة الشبهات وحلِّ المُشْكِلات. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مُتَّبِعًا لها، غير مخالف لِمَا فيها، إلا في القليل ممَّا بيَّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء: أن الإنجيل نسخ بَعْضَ أحكام التوراة كما قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. وقوله: ﴿وَهُدًى﴾ أي: وجعلنا الإنجيل هدًى يُهتَدَى به، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه. ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قُرئ: «وَلِيَحْكُمَ» بالنصب، أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملّته به في زمانهم. وقُرئ: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بالجزم، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدَّم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

الآية (٤٨-٥٠): لَمَّا ذَكَر تعالى التوراة التي أَنزَلها الله على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها، وأَمَرَ باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومَدَحَه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه؛ شَرَع تعالى في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكْرَه ومَدْحَه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرَت به، مما زادها صِدقًا عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدَّقوا رسل الله. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس قال: مؤتمنًا. وبنحو ذلك قال مجاهد والسدي وقتادة وابن جريج والحسن البصري وغير واحد من أئمة السلف. و عن ابن عباس [أيضا]: حاكما على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم (المهيمن) يتضمن هذا كله؛ فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها. وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس: عَرَبِهم وعَجَمِهم، أُمِّيِّهم وكتابِيِّهم بما أنزل الله إليك هذا الكتاب العظيم، وبما قرَّرَه لك مَنْ حَكم مَن كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجّهه ابن جرير بمعناه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله. ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ قال ابن عباس: سبيلًا ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: وسنة. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رُسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد الذي بَعَثَ الله به كل رسول أرسله، وضَمَّنَهُ كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هذا خطاب لجميع الأُمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا يُنسخ شيء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شِرْعة على حِدَة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدًا ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أنه تعالى شَرَعَ الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. ثم إنه تعالى نَدَبَهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخًا لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويُعَذِّب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحُجج البالغة، والأدلة الدامغة.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدَّم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. ثم قال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: احذر أعداءك اليهود أن يُدَلِّسُوا عليك الحق فيما يُنْهُونه إليك من الأمور، فلا تغترَّ بهم، فإنهم كَذَبَةٌ كَفَرةٌ خوَنة، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: عمَّا تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه. وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ينكر تعالى على من خَرَج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرٍّ، وعدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، ﴿يَبْغُونَ﴾ يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حُكمه لمن عَقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟! فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

الآية (٥١-٥٣): ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدَّد وتوعَّد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وريب ونفاق ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: يتأوَّلون في مَوَدَّتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أَمْرٌ مِن ظَفَر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أيادٍ عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك، عند ذلك قال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ قال السُّدي: يعني فتح مكة، وقال غيره: يعني القَضَاء والفَصْل، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قال السُّدي: يعني ضَرْب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ يعني: الذين وَالَوا اليهود والنصارى من المنافقين، ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الموالاة ﴿نَـٰدِمِينَ﴾ أي: على ما كان منهم، ممَّا لم يُجْدِ عنهم شيئًا، ولا دَفَع عنهم محذورًا، بل كان عين المفسدة؛ فإنهم فُضِحُوا وأَظْهَر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يُدْرَى كيف حالهم. فلمَّا انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبيَّن أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتَعَجَّبُوا منهم كيف كانوا يُظهِرون أنهم من المؤمنين، ويَحلِفون على ذلك ويتألَّوْن؟! فبَان كَذِبُهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾.

[سبب النزول]: اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين: قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي، فآوي إليه وأتهود معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فأذهب إلى فلان النصراني بالشام، فآوي إليه وأتنصر معه، فأنزل الله عز وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح.

الآية (٥٤-٥٦): يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشدُّ منعةً وأقوم سبيلًا، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]. وقال ههنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه. ورُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُون. وعن الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَـمَّا نزلت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» [رواه ابن جرير، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل: أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووَلِيِّه، متعززًا على خصمه وعدوه؛ كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدُّهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدْبَرَت، وأمرني ألا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرًّا، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن من كنز تحت العرش [رواه أحمد وصحح إسناده شاكر]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من اتَّصَف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليمٌ بمن يستحق ذلك ممن يَحْرمه إياه. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعةٌ إلى الله ورسوله والمؤمنين. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المؤمنون المتَّصِفُون بهذه الصفات من: إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي لله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين. وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهَّم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: في حال ركوعهم! ولو كان هذا كذلك، لكان دَفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح! وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى. وهنا آثار في ذلك، وليس يصح شيء منها بالكلّية؛ لضعف أسانيدها وجهالة رجالها. [سبب النزول]: وهذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت حين تبرَّأ من حِلْف يَهُود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؛ كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢١-٢٢]، فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة.

الآية (٥٧): وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأُخروي، يتخذونها ﴿هُزُوًا﴾ يستهزئون بها، ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد. قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء. والمراد بالكفار ههنا: المشركون. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزوًا ولعبًا؛ كما قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

الآية (٥٨): وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ أي: وكذلك إذا أذَّنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أيضًا ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ معانِي عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي «إذا سمع الأذان أدبَر وله حُصَاص -أي: ضُراط- حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل» [متفق عليه].

الآية (٥٩-٦٣): يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذَمَّة، فيكون الاستثناء منقطعًا. وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم. ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي: هل أخبركم بشرٍّ جزاء عند الله يوم القيامة ممَّا تظنونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متَّصفون بهذه الصفات المفسرة؛ فقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضبًا لا يرضى بعده أبدًا، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾. وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي ممَّا مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قومًا -أو قال: لم يمسخ قومًا- فيجعَل لهم نَسْلًا ولا عَقِبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت. وقرئ: «وعَبْدَ الطَّاغُوتِ» بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خَدَم الطاغوت، أي: خُدَّامه وعبيده. وقرئ: «وعُبُدَ الطَّاغُوتِ» -على أنه جمع الجمع، مثل ثِمار وثُمُر. [وقرئ:] «وعَابِدَ الطاغوت»، «وعَبَدوا»، «وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ» على أنه مفعول ما لم يسم فاعله؛ لأن هذا من باب التعريض بهم، أي: وقد عُبِدَ الطاغوت فيكم، وأنتم الذين فعلتموه. وهذه القراءات يرجع معناها إلى: أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا -والذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه- كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وُجِدَ منكم جميع ما ذُكِر؟! ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: ممَّا تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم: أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَد دَّخَلُوا﴾ أي: عندك يا محمد ﴿بِالْكُفْرِ﴾ أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نَجَعَت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ﴾ فخصَّهم به دون غيرهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ والله عالم بسرائركم وما تنطوي عليه ضمائركم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزيَّنوا بما ليس فيهم؛ فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء. وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي: يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم. وقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: هلَّا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك؟! والربانيون: هم العلماء العُمَّال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: في تركهم ذلك. قاله ابن عباس، وعن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشدُّ توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

الآية (٦٤): يخبر تعالى عن اليهود بأنهم وصَفوا الله -عز وجل، وتعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا- بأنه بخيل. كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء! وعبَّروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. قال ابن عباس: لا يعنون بذلك أن يدَ الله مُوثَقَة، ولكن يقولون: بخيل، يعني: أمسكَ ما عنده بُخلًا، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا. وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود -يقال له: شاس بن قيس- إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾. وقد ردَّ الله عز وجل عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقعَ لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمرًا عظيمًا، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [آل عمران:١١٢].

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحضَرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا؛ كما قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله مَلأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض! فإنه لم يَغِض ما في يمينه» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمةً في حقِّ أعدائك من اليهود وأشباههم؛ فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملًا صالحًا وعلمًا نافعًا، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طُغْيَٰنًا﴾ وهو: المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء، ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: تكذيبًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فِرقهم بعضهم في بعض دائمًا؛ لأنهم لا يجتمعون على حقٍّ، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم النَّخَعي: الخصومات والجدال في الدين.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: كلَّما عقدوا أسبابًا يكيدونك بها، وكلما أبرموا أمورًا يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيئ بهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: مِن سجيّتهم أنهم دائمًا يسعوْن في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته.

الآية (٦٥-٦٦): ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: لأزلْنا عنهم المحذور ولحصَّلنا لهم المقصود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعني القرآن. ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بَعَثَ الله به محمدًا ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٢-٣٣]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة.

الآية (٦٧): يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ باسم الرسالة، وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتمّ القيام. عن عائشة قالت: من حَدّثك أن محمدًا كتم شيئًا مما أُنزل عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [متفق عليه]. وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفًا، كما ثبت عن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: «أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم، ويقول: «اللهم هل بَلَّغْت». [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني: وإن لم تُؤَدِّ إلى الناس ما أرسلتك به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: وقد عَلِم ما يترتَّب على ذلك لو وقع. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بَلِّغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومُظْفِرك بهم، فلا تَخَف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. وعن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: «يا أيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله عز وجل» [رواه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ومن عصمة الله عز وجل لرسوله: حفْظُه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانديها ومُتْرَفيها، مع شدة العداوة والبَغْضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بَلِّغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، كما قال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

الآية (٦٨-٦٩): ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: من الدين، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، وممَّا فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته؛ ولهذا قال مجاهد، في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن العظيم. وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فلا تحزن عليهم ولا يَهيدنَّك[1] ذلك منهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم المسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم حملة التوراة. ولَـمَّا طال الفصل حَسُنَ العطف بالرفع فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [وهم]: طائفة من النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويُصلُّون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقيل غير ذلك. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معروفون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملًا صالحًا، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على نظيراتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا[2].

الآية (٧٠): يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدّموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم رَدُّوه؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

---

(١) لَا يهيدنّك هَذَا عَن رأيكَ، أَي: لَا يُزيلنّك [تهذيب اللغة].

(٢) ينظر ص ١٠ من هذا المختصر، الكلام على الآية (٦٢) من سورة البقرة.

الآية (٧١): ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: وحسبوا ألاّ يترتَّب لهم شرٌّ على ما صنعوا، فترَتَّبَ؛ وهو أنهم عموا عن الحق وصَمُّوا، فلا يسمعون حقًّا ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: مما كانوا فيه، ﴿ثُمَّ عَمُواْ﴾ أي: بعد ذلك، ﴿وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: مطَّلِع عليهم، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم.

الآية (٧٢-٧٥): يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله! تعالى الله عن قولهم وتنزَّه وتقدَّس علوًّا كبيرًا: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ هذا وقد تَقَدَّم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إني أنا الله، ولا: ابن الله. بل ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم:٣٠-٣٦]. وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: فقد أوجَب له النار، وحَرَّم عليه الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ بَعَثَ مناديًا يُنادي في الناس: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»، وفي لفظ: «مؤمنة» [متفق عليه]. ولهذا قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي: وما له عند الله ناصر ولا معين ولا مُنْقِذ مما هو فيه. وقوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ الصحيح أنها نزلت في النصارى خاصَّة، قاله مجاهد وغير واحد. ثم اختلفوا في ذلك، فقيل: المراد بذلك كُفّارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن!! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، قاله ابن جرير وغيره. والطوائف الثلاث -من الملكية واليعقوبية والنَّسطورية- تقول بهذه الأقانيم! وهم مختلفون فيها اختلافًا متباينًا، وكل فرقة منهم تُكَفِّر الأخرى، والحقُّ أن الثلاث كافرة. وقال السُّدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهَين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السُّدي: وهي كقول الله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ الآية [المائدة:١١٦]. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ أي: ليس متعددًا، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات. ثم قال تعالى متوعِّدًا لهم ومتهدِّدًا: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة من الأغلال والنكال. ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا من كَرَمه تعالى وَجُوده ولُطْفِه ورحمته بخلقه؛ مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه. ثم قال: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: له سَوِيَّة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبدٌ من عباد الله ورسول من رسله الكرام؛ كما قال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]. وقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ أي: مؤمنة به مصدِّقة له. وهذا أعلى مقاماتها، فدَلَّ على أنها ليست بنبيَّة، كما زَعَمه ابن حزم وغيره -ممن ذَهَب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى- استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور: أن الله لم يبعث نبيًا إلا من الرجال؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري الإجماع على ذلك. وقوله: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلهين كما زعمه فِرَق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نُوضِّحُها ونُظْهِرُها ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟! وبأيّ قول يتمسَّكون؟! وإلى أيّ مذهب من الضلال يذهبون؟!

الآية (٧٦): يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومُبيِّنًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية: ﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم -ودخل في ذلك النصارى وغيرهم-: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي: لا يقدر على إيصال ضرّ إليكم، ولا إيجاد نفع، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: فَلِمَ عدلتم عن إفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادةِ جَمَادٍ لا يسمع ولا يُبصِرُ ولا يَعلَمُ شيئًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه؟

الآية (٧٧): ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا تُجاوِزوا الحدَّ في اتباع الحق، ولا تُطْروا من أُمِرْتُم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تُخرِجوه عن حَيِّز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهًا من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سَلَفُكم ممن ضلَّ قديمًا ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضَّلال.

الآية (٧٨-٨١): يُخبِر تعالى أنه لَعَنَ الكافرين من بني إسرائيل من دَهْرٍ طويل، فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لُعِنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان.

ثم بيَّن حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمَّهم على ذلك لِيُحَذَرَ أن يُرْكَبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وعن حذيفة ابن اليمان؛ أن النبي ﷺ قال: «والذي نَفْسِي بيده، لتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أو ليُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عِقابًا من عنده، ثم لَتَدْعُنَّهُ فلا يستجيب لكم» [رواه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم مُنْكَرًا فليُغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [رواه مسلم].

وعن العُرْس بن عَميرة عن النبي ﷺ قال: «إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شَهِدَها فكَرِهَها -وقال مرة: فأنكرها- كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فَرَضِيَها كان كمن شهدها» [رواه أبو داود، و صحح إسناده أحمد شاكر]. وعن أبي البَخْتَري قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى يَعْذِروا - أو: يُعْذِروا - من أنفسهم» [رواه أبو داود، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وعن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «ألا لا يمنعَنّ رجلًا هَيْبَةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد -والله- رأينا أشياء، فَهِبْنَا [رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني]. وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقًا في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًا إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فسَّر بذلك ما ذمَّهم به.

ثم أخبر أنهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني يوم القيامة. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لو آمنوا حقَّ الإيمان بالله والرسل والفرقان لَمَا ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

الآية (٨٢): قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهتة للحق، وغَمْط للناس وتَنَقص بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى هَمُّوا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسموه وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لِمَا في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقّة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فَأَدِرْ له خدك الأيسر! وليس القتال مشروعًا في مِلَّتِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون؛ وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيس وقسّ أيضًا، وقد يُجمع على قسوس. والرهبان: جمع راهب؛ وهو: العابد؛ مشتقٌّ من الرهبة، وهي الخوف؛ كراكب ورُكبان، وفارس وفرسان. قال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحدًا وجَمْعُه رهابين؛ مثل قُربان وقرابين، وجُرذان وجَرَاذين، وقد يجمع على رهابنة.

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع.

الآية (٨٣): ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

الآية (٨٤-٨٦): هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ الآيات [القصص:٥٢-٥٥]. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يحولون ولا يزولون. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: هم أهلها والداخلون إليها.

الآية (٨٧-٨٨): عن أنس أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يُحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف.

ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تُحرِّموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خُذُوا منه بقَدْر كفايتكم وحاجتكم، ولا تُجاوِزوا الحدَّ فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [آل عمران:٣١].

فشَرْعُ الله عدلٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: في حال كونه حلالًا طيبًا، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٨٩): تقدَّم في سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، بلى والله. وقيل: هو في الهَزْل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن. وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]. والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما صمَّمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ يعني: محاويج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه. وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة: أي مِن أعدَل ما تطعمون أهليكم. وعن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوتَ دونٍ، وبعضهم قوتًا فيه سعَة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من الخبز والزيت. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: في القلة والكثرة.

وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي: لو دَفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدُق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقْنَعَة أجزأه ذلك، وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلًا أو امرأة، كلٌّ بحسبه. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تُجزئ الكافرة كما تُجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجِب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السُّلَمي: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» [رواه مسلم]. فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيُّها فَعَلَ الحانثُ أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل؛ فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث، كفّر بصيام ثلاثة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع؟ أو يُستحَب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما: لا يجب، وهذا منصوص الشافعي في كتاب «الأيمان»، وهو قول مالك؛ لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرّقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الآية (٩٠): يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر؛ وهو القمار. عن ابن عباس قال: الميسر هو القمار؛ كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال ابن المسيب: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين. وقال الأعرج: الْمَيْسِر الضرب بالقداح على الأموال والثمار. وقال القاسم: كل ما ألْهَى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الْمَيْسِر. وأما الأنصاب فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها. وأما الأزلام فقالوا أيضًا: هي قداح كانوا يستقسمون بها. قوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: أي سَخَط من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أي شرٌّ من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد على الرجس، أي اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

الآية (٩١-٩٣): قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب. وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل». وعن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف -أو من دوس- فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت في البطحاء. [رواه بمعناه مسلم وأحمد]. وعن أنس قال: كنت ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، قال: اخرج فانظر. فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فجرت في سكك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها. فهرقتها، فقالوا -أو قال بعضهم-: قتل فلان وفلان وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الآية. [متفق عليه].

الآية (٩٤-٩٥): قال ابن عباس: قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاؤوا يتناولونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقربوه. وقال مجاهد: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني: صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: كباره. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًّا وجهرًا، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سِرِّه وجهره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]. وقوله ههنا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال السُّدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمخالفته أمر الله وشرعه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه. ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الذي عليه الجمهور: أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دلَّ الكتاب على العامد، وجَرَت السنة على الناسي، ومعنى هذا: أن القرآن دلَّ على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾، وجاءت السنّة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دلَّ الكتاب عليه في العَمْد، وأيضًا فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمّد مأثوم، والمخطئ غير مَلُوم. وفي قوله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ دليل لِمَا ذَهَب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور من: وجوب الجزاء في مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثلٌ من الحيوان الإنسي، خلافًا لأبي حنيفة؛ حيث أوجب القيمة، سواء كان الصيد المقتول مثليًّا أو غير مثلي. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتّباع؛ فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعَنْز.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني: أنه يحكم بالجزاء -في المثليّ، أو بالقيمة في غير المثليّ- عدلان من المسلمين. ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلًا إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يُذبَح هناك ويُفَرَّق لحمه على مساكين الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعَم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير بين الجزاء والإطعام والصيام؛ فيُعدَل إلى القيمة، فيُقوَّم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يُقوَّم مثله من النَّعَم لو كان موجودًا، ثم يُشترَى به طعامٌ فيُتصدَّق به. فإن لم يجد -أو قلنا بالتخيير- صام عن إطعام كل مسكين يومًا. ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية. ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: ومن فَعَل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ الجمهور -من السلف والخلف- على أنه متى قَتَل الـمُحْرِم الصيد وَجَبَ الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرَّر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد. وعن ابن عباس فيمن أصاب صيدًا فحُكم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه. وهكذا قال شُرَيْح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قال ابن جرير: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خَلْقُه، والأمر أَمْرُه، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

الآية (٩٦): قال ابن عباس: صيده ما أخذه منه حيًا ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما لفظه ميتًا. وكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي: منفعة وقُوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وهو جمع سَيَّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر. وقد استدل جمهور العلماء على حِلّ ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه جابر بن عبد الله قال: ...فإذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها: العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا قال: فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا...وتزودنا من لحمه وشائق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. [رواه مسلم]. وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئًا. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد.

[﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واخشوا الله -أيها الناس- واحذروه، بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم؛ فإن لله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.

الآية (٩٧): ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ صيَّر الله الكعبة البيت الحرام قِوَامًا للناس الذين لا قِوَام لهم من رئيس يحجز قويَّهم عن ضعيفهم، ومسيئهم عن محسنهم، وظالمهم عن مظلومهم. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ يقول: وجعل هذه أيضًا قيامًا للناس، كما جعل الكعبة قيامًا لهم، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قيامٌ غيره، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أمورهم. وجعل تعالى الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قوامًا لمن كان يحرِّم ذلك من العرب ويعظمه، بمنزلة الرئيس الذي يقوم أمر تُبَّاعه. وأما الكعبة: فالحرم كله. ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: صيَّرتُ لكم -أيها الناس- ذلك قيامًا، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث مما به قوامكم -علمًا منه بمنافعكم ومضاركم- أنه كذلك يعلم جميع ما في السموات والأرض مما فيه صلاحُ عاجلكم وآجلكم، ولتعلموا أنه بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم، وهو محصيها عليكم، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته.

الآية (٩٨): اعلموا أن ربكم الذي يعلم ما في السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانيتها شديدٌ عقابُه على من عصاه وتمرّد عليه، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه، رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها.

الآية (٩٩): هذا من الله تهديد لعباده ووعيد. يقول: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثواب على الطاعة، وعلينا العقاب على المعصية. وغيرُ خفيٍّ علينا المطيعُ منكم القابلُ رسالتنا، من العاصي الآبي رسالتنا؛ لأنا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به لسانه، وما تخفونه في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق. فمن كان كذلك لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس مما في السموات والأرض، وبيده الثواب والعقاب، فحقيق أن يُتَّقى، وأن يطاع فلا يُعصى] (١).

الآية (١٠٠): يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ يعني: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

الآية (١٠١): هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها. وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن هذه الأشياء -التي نهيتم عن السؤال عنها- حين ينزل الوحي على الرسول تُبيّن لكم، وذلك يسير. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك، [وعما] لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الآية (١٠٢): أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ من قبلكم، فأُجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها؛ أنْ بُيِّنَتْ لهم فلم ينتفعوا بها؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنُّت والعناد.

الآية (١٠٣): عن سعيد بن المسيَّب قال: «البَحيرة»: التي يُمْنَعُ دَرُّها للطواغيت، فلا يَحْلبها أحد من الناس. و«السائبة»: كانوا يسيّبونَها لآلهتهم، لا يُحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمْرَو بن عامر الخزاعي يجُرّ قُصْبَه في النار، كان أول من سَيَّب السوائب». و«الوصيلة»: الناقة البكر، تُبكّر في أول نتاج الإبل، ثم تثنّي بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلَت إحْدَاهما بالأخرى ليس بينهما ذكَر. و«الحام»: فحل الإبل يَضربُ الضرابَ المعدود، فإذا قضى ضِرَابه وَدَعُوه للطواغيت، وأعفَوه عن الحَمْل، فلم يُحْمَل عليه شيء، وسَمّوه الحامي [متفق عليه]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قُربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعًا لهم وقُربةً يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبالٌ عليهم.

---

(١) هذا القدر -من آخر آية٩٦ إلى آخر آية٩٩- غير موجود بجميع نسخ ابن كثير، ونقلناه من «عمدة التفسير» لأحمد شاكر تحقيق أنور الباز، وقد ذُكِر هناك أنه مأخوذ من تفسير الطبري.

الآية (١٠٤): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: إذا دُعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وتَرْك ما حرّمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباءَ والأجداد من الطرائق والمسالك. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يفهمون حقًّا ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟! لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلًا.

الآية (١٠٥): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبرًا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريبًا منه أو بعيدًا. قال ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به. وهكذا قال مُقَاتِل. فقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ نصبٌ على الإغراء ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيجازي كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ. وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا، وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرتَ بالمعروف ونهيتَ عن المنكر، فلا يضرُّك من ضل إذا اهتديت. وكذا قال غير واحد من السلف. وقام أبو بكر ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عز وجل، أن يعمهم بعقابه» [رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر].

الآية (١٠٦): اشتملت هذه الآية الكريمة على حكمٍ عزيز، قيل: إنه منسوخ، رواه العَوْفي عن ابن عباس، وحماد بن أبي سليمان عن إبراهيم. وقال آخرون - وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير-: بل هو محكم، ومن ادَّعى النسخ فعليه البيان. قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين. ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين. قاله الجمهور. عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب. ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذمّيين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. وروي نحوه عن أحمد بن حنبل، وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضًا. وروى ابن جرير عن الزهري قال: مضت السنّة ألا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن جرير: اختُلف في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين: أحدهما: أن يوصي إليهما، والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصيٌّ ثالثٌ معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة.

وقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال ابن عباس: يعني صلاة العصر. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين. والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خانا أو غلّا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ﴾ أي: بأيماننا؛ قاله مُقاتِل بن حَيَّان. ﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريبًا إلينا لا نُحابيه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى الله تشريفًا لها، وتعظيمًا لأمرها. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ أي: إن فعلنا شيئًا من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كَتْمِها بالكلّية.

الآية (١٠٧): أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيّين، أنهما خانا أو غلّا شيئًا من المال الموصَى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أوْلى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا: إنهما خانا أحقُّ وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما. وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارْتِيب في شهادتهما استُحلفا بعد الصلاة بالله: ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتدِ، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ يقول: إن اطُّلِع على أن الكافرين كذبا ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتدِ، فَتُرَدُّ شهادة الكافرَيْن، وتجوز شهادة الأولياء. وهكذا قَرَّر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غيرُ واحد من أئمة التابعين والسلف، وهو مذهب الإمام أحمد.

الآية (١٠٨): ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي. ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدَّعون، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: وأطيعوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

الآية (١٠٩): هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أُجيبوا به مِن أُممهم الذين أرسلهم إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ قال مجاهد والحسن البصري والسُّدِّي: إنما قالوا ذلك مِن هول ذلك اليوم. ولا شك أنه قولٌ حسَن، وهو من باب التأدب مع الرب جَلَّجَلَالُهُ؛ أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن -وإن كنا قد أُجبنا وعرفنا من أجابنا- ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كَلاَ عِلْم؛ فإنك ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

الآية (١١٠): يذكر تعالى ما امتنَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ أي: في خلقي إياك من أُمٍّ بلا ذكَر، وجَعْلي إياك آيةً ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جَعلتُكَ لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعلتك نبيًا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيرًا، فشهدتَ ببراءة أمّك من كل عيب، واعترفتَ لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك. وضَمَّن ﴿تُكَلِّمُ﴾ تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الخط والفهم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وهي المنزّلة على موسى بن عمران الكليم. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: تصوّره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكّلتَها بإذني لك في ذلك، فتكون طيرًا ذا روح بإذن الله وخلقه. وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيئته.

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفِّي إياهم عنك، حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوّتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعَوا في قتلك وصلبك، فنجّيتُك منهم، ورفعتك إليَّ، وطهّرتك من دنسهم، وكفيتُك شرَّهم.

وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رَفْعِهِ إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعًا يوم القيامة، وعبَّر عنه بصيغة الماضي دلالةً على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التي أطْلَع الله عليها رسوله محمدًا ﷺ.

الآية (١١١): قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وهذا أيضًا من الامتنان عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا. ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحيُ إلهام؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص:٧]، وهذا وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآية [النحل:٦٨، ٦٩]. وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: أُلهِموا ذلك، فامتثلوا ما أُلهموا. قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك، وقال السُّدي: قذف في قلوبهم ذلك.

الآية (١١٢): هذه قصة المائدة، وإليها تُنسب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة وحجة قاطعة. وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: «هل تَسْتَطِيعُ رَبَّك» أي: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. والمائدة هي: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوَّون بها على العبادة.

﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: فأجابهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.

الآية (١١٣): ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوّتك وصدق ما جئت به.

الآية (١١٤): ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ قال السُّدِّي: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظّمه نحن وَمَنْ بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يومًا نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقِبهم من بعدهم. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: دليلًا تنصبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أُبلّغه عنك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: من عندك رزقًا هنيئًا بلا كُلْفَةٍ ولا تعب ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

الآية (١١٥): ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ﴾ أي: فمن كذَّب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من عالمي زمانكم. عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون [رواه ابن جرير، وصحح إسناده أحمد شاكر]. [وقد دلت الآثار] على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر السياق من القرآن العظيم: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية. وقال قائلون: إنها لم تنزل. فروي عن مجاهد قال: هو مثلٌ ضربه الله ولم يَنزل شيء. وروي عن الحسن أنه قال في المائدة: لم تنزل. وأسانيدها صحيحة إلى مجاهد والحسن. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق. وهذا القول هو -والله أعلم- الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك! قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة! قال: «بل باب التوبة والرحمة» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (١١٦-١١٧): هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:١١٩]. وقال السُّدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه الله إلى السماء الدنيا. ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]: التبرّي منهم ورَدّ المشيئة فيهم إلى الله. وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر -والله أعلم- أن ذلك كائنٌ يوم القيامة؛ ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ أي: إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمتَهُ يا رب؛ فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلتُه ولا أَدَرْتُه في نفسي ولا أضمرتُه؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: هذا هو الذي قلت لهم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهُرِهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حُفاةً عراة غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وإن أول الخلائق يُكْسَى إبراهيم، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» [رواه البخاري].

الآية (١١٨): ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رَدّ المشيئة إلى الله عز وجل؛ فإنه الفعَّال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ويتضمن التبرّي من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نِدًّا وصاحبة وولدًا. وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب؛ عن أبي ذر قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحتَ، تركع بها وتسجد بها؟! قال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئًا» [رواه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده جيد].

الآية (١١٩-١٢٠): يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم، فيما أنهاه إليه من التبرّي من النصارى، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رَدّ المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قال ابن عباس: يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين فيها لا يَحُولون ولا يزولون، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها؛ فالجميع ملْكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه.

وهذا آخر تفسير سورة المائدة.

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية [عدا ثلاث آيات نزلت في المدينة، وقيل: بين مكة والمدينة، وعدد آياتها (١٦٥)].

[فضل السورة]: عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جُملةً، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح [رواه الطبراني، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (١-٣): يقول الله تعالى مادحًا نفسه الكريمة، وحامدًا لها على خَلْقِه السموات والأرض قرارًا لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعةً لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمَع لفظ «الظلمات» ووحَّد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف؛ كما قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هذا كلِّه كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكًا وعِدْلًا، واتَّخذوا له صاحبةً وولدًا، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني: الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني: الآخرة. وقال الحسن: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يُخلق إلى أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ ما بين أن يموت إلى أن يُبعث. ويرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص: وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام: وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة.

ومعنى قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قال السُّدي وغيره: يعني تَشُكُّون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسِّرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئة القائلين بأنه -تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا- في كل مكان! فالأصح من الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض؛ أي: يعبده ويُوحِّده ويُقرّ له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويُسمّونه الله، ويدعونه رَغْبًا ورَهَبًا، إلا من كَفَر من الجنِّ والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، أي: هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبرًا أو حالًا.

الآية (٤-٦): يقول تعالى مُخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم مهما أتتهم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل وصدق رسله الكرام، فإنهم يُعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها.

قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليَجِدُنَّ غِبّه، وليذوقُنَّ وَباله. ثم قال تعالى واعظًا ومحذِّرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حلَّ بأشباههم ونُظَرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ منهم قوةً، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئًا بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: جيلا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا -أيها المخاطبون- أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فما أنتم بأعزّ على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

الآية (٧-٨): يقول تعالى مخبرًا عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤-١٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: فيكون معه نذيرًا، قال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢].

الآية (٩-١١): ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيّ ملكًا، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًّا، لكان على هيئة رجل لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البَشَرِيّ، كما قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يُرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم(١)، ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٦٤]. قال ابن عباس: يقول: لو أتاهم ملَكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون.

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فكِّروا في أنفسكم، وانظروا ما أحلَّ الله بالقرون الماضية الذين كذَّبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادَّخَر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين.

الآية (١٢-١٦): يُخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كَتَب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خَلَقَ الخَلْق كتب كتابًا عنده فوق العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي» [متفق عليه].

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطِّئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة لَيَجْمَعَنَّ عباده لِـميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة، الذي لا ريب فيه ولا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذِّبون فهم في رَيبهم يتردَّدون. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدِّقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات والأرض؛ الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم والشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراطه المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤]، والمعنى: لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له؛ فإنه فاطر السموات والأرض؛ أي: خالقهما ومُبدعهما على غير مثال سَبَق. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وعن أبي هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ النبيُّ ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعِم ولا يطْعَم، ومَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسَقانا، وكُلّ بَلاء حَسَن أبلانا، الحمد لله غير مُودَّع ولا مُكافَأ، ولا مكفور ولا مُسْتَغْنًى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العُري، وهدانا من الضلال، وبَصَّرنا من العَمَى، وفَضَّلنا على كثير ممن خَلَقَ تفضيلًا، الحمد لله ربِّ العالمين» [رواه النسائي في الكبرى والحاكم، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة. ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ يعني: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ يعني: فقد رحمه الله، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، والفوز: هو حصول الربح ونفي الخسارة.

الآية (١٧-١٨): يقول تعالى مُخبرًا أنه مالك الضرِّ والنفع، وأنه المتصرِّف في خلقه بما يشاء، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رَادَّ لقضائه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ الآية [فاطر:٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لا مانع لِما أَعْطَيْت، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ» [متفق عليه]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلَّت له الجبابرة، وعنَت له الوجوه، وقَهَر كلَّ شيء، ودانت له الخلائق، وتَوَاضَعت لعظمةِ جلاله وكبريائه وعظمته وعلوِّه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حُكمه وقهره. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالِّها، فلا يُعطِي إلا لمن يستحق، ولا يَمنع إلا من يستحق.

(١) لا يفهم من هذا الكلام أن الجن مثلا -وهم صنف من الخلائق- يُرسَلُ لهم رسول منهم؛ فقد نص ابن كثير نفسه على أن الرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل (ينظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب تفسير الآية ١٣٠ من سورة الأنعام). وإنما المقصود رد طلبهم أن يكون الرسول مَلَكًا، بل كان الرسول يرسل في قومه وبلسانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

الآية (١٩): ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: مَن أعظم الأشياء شهادة؟! ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: وهو نذير لكل مَن بلغه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧]. قال الربيع بن أنس: حَقٌّ على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن يُنذِر كالذي أنذر. وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أي: أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٢٠): ثم قال مُخبِرًا عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدِّمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بَشَّروا بوجود محمد ﷺ وبنَعْتِه وصفته، وبلده ومُهَاجَرِه، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشَّرَت به الأنبياء، ونوَّهَت به في قديم الزمان وحديثه.

الآية (٢١): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم ممن تَقَوَّل على الله، فادَّعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذَّب بآيات الله وحُجَجِه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذِّب.

الآية (٢٢-٢٦): يقول تعالى مُخبرًا عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلًا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حُجَّتُهم. وقال ابن عباس: أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قِيلُهم عند فِتنَتِنا إياهم اعتذارًا ممَّا سَلَف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس! سمعت الله عز وجل يقول -يعني إخبارًا عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا-: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] فقال ابن العباس: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنَجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه. [رواه البخاري معلقًا]. وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفي هذا نظر؛ فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨]. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر:٧٣-٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: يجيئون ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئًا؛ لأن الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمًا عن السماع النافع؛ فَهُم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحُجج البينات، لا يؤمنوا بها؛ فلا فَهْم عندهم ولا إنصاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي يحاجُّونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ في معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ويبتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا ينتفعون ولا يتركون أحدًا ينتفع. وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. والقول الثاني: روي عن ابن عباس قال: نزلت في أبي طالب؛ كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يُؤْذَى، وكذا قال عطاء بن دينار وغيره: إنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشدَّ الناس معه في العلانية وأشدَّ الناس عليه في السرِّ. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وبالُه إلا عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

الآية (٢٧): قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يذكر تعالى حال الكفار إذا وُقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملًا صالحًا، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

الآية (٢٨-٣٠): قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظَهَر لهم حينئذٍ ما كانوا يُخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة؛ كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤]. ويُحتمَل أنهم ظَهَر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يُظهرون لأتباعهم خلافه؛ كقوله مخبرًا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. وقوله تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. ويُحتمل أن يكون المراد بهؤلاء: المنافقين الذين كانوا يُظهرون للناس الإيمان ويُبطنون الكفر، ويكون هذا إخبارًا عمَّا يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا يُنافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب؛ فقد ذَكَر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١]؛ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن حال المنافقين في الدار الآخرة حين يُعاينون العذاب يَظهر لهم حينئذٍ غِبُّ ما كانوا يُبطِنون من الكفر والشِّقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فَإنهم ما طلبوا العَود إلى الدنيا رغبةً ومحبةً في الإيمان، بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان. ثم قال مخبرًا عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا مَعاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أُوقفوا بين يديه، ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تُكَذِّبُون به، فذُوقوا اليوم مَسّه ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

الآية (٣١-٣٢): يقول تعالى مُخبرًا عن خَسارة من كذَّب بلقاء الله وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتةً، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أَسْلَف من قبيح الفعل؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يُحتمل عَوْدُه على الحياة الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون.

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الآية (٣٣-٣٤): يقول تعالى مُسليًا لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحَطْنا علمًا بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨] كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]. وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يُعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم؛ كما قال عليٌّ: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نُكذِّبُك، ولكن نُكذِّب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [رواه الحاكم، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأَمْرٌ له بالصبر كما صَبَر أولو العزم من الرسل، ووَعْدٌ له بالنصر كما نُصِرُوا، وبالظَّفَر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من خَبَرِهم كيف نُصِروا وأُيِّدُوا على من كذَّبهم من قومهم، فلَكَ فيهم أسوة، وبهم قدوة.

الآية (٣٥): ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: إن كان شَقَّ عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: النَّفَقُ: السَّرْب، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أو تَجعَل لك سُلَّمًا في السماء فتصعد فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أفضل مما أتيتهم به، فَافْعَلْ.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، قال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يَحرص أن يُؤمِن جميع الناس ويُتابعوه على الهدى، فأَخبَر اللهُ أنه لا يُؤمن إلا من قد سَبَق له من الله السعادة في الذِّكر الأول.

الآية (٣٦): وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويَعِيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]. وقوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبَّههم الله بأموات الأجساد فقال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التَّهَكُّم بهم، والإزراء عليهم.

الآية (٣٧-٣٩): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: خارقٌ على مُقتَضى ما كانوا يُريدون، وممَّا يَتعنَّتون، كما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء:٩٠-٩٣]. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وَفْقَ ما طلبوا ثم لم يُؤمنوا، لعاجَلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤].

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد: أي أصناف مُصَنَّفة تُعرَف بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: الجميع عِلْمُهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رِزْقه وتدبيره، سواء كان بريًّا أو بحريًّا؛ كما قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] أي: مُفصح بأسمائها وأعدادها ومظانّها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ عن ابن عباس قال: حَشْرُها الموتُ. وكذا رواه ابن جرير، والقول الثاني: إن حَشْرها هو بعثها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]. وعن أبي هريرة قال: يُحشَر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ مِن عَدْل الله يومئذٍ أن يأخذ للجمَّاء مِن القَرْناء. قال: ثم يقول: كوني ترابًا. فلذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠] [رواه عبد الرزاق، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصَمّ -وهو الذي لا يسمع- أبكَم -وهو الذي لا يتكلم- وهو مع هذا في ظلام لا يُبصِر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧-١٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

الآية (٤٠-٤١): يُخبر تعالى أنه الفعال لِما يريد، المتصرِّف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعقِّب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سُئل يُجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعِلمِكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدًا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم؛ كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الآية [الإسراء:٦٧].

الآية (٤٢-٤٣): وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعني: الفقر والضيق في العيش، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون الله ويتضرَّعون إليه ويخشعون، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أي: فهلَّا إذ ابتليناهم بذلك تضرَّعوا إلينا وتمسكنوا لدينا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رَقَّتْ ولا خَشَعَتْ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي.

الآية (٤٤): ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذًا بالله من مَكْرِه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير. قال ابن عباس: الْـمُبْلِسُ: الآيِس. قال الحسن البصري: من وَسَّعَ الله عليه فلم يَرَ أنه يُمْكَر به، فلا رأي له. ومن قَتَر عليه فلم يَرَ أنه يُنظَر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قال الحسن: مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبة؛ أُعطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا. وقال قتادة: بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أَخَذَ الله قومًا قطُّ إلا عند سَكرَتهم وغِرَّتهم ونعيمهم، فلا تَغْتَرُّوا بالله؛ إنه لا يَغْتَرُّ بالله إلا القوم الفاسقون. وعن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يُعْطِي العبدَ من الدنيا على مَعاصيه ما يُحِبُّ، فإنما هو اسْتِدْرَاج» ثم تلَا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (٤٥): ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)

الآية (٤٦-٤٩): يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أي: سَلَبَكم إياها كما أعطاكموها؛ فإنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]. ويُحتمَل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي؛ ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]. ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على ردِّ ذلك إليكم إذا سَلَبَه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نُبيِّنُها ونُوضِّحُها ونُفسِّرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان يُعرِضون عن الحق، ويَصُدُّون الناس عن اتباعه. قال ابن عباس: ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يُعرضون. وقال السُّدي: يَصُدُّون. ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي: وأنتم لا تشعرون به حتى بَغْتَكم وَفَجأكم. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ظاهرًا عيانًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إنما كان يُحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشِّرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النِّقَمات والعقوبات. ولهذا قال: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأَصلَح عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وضيعتها؛ الله وليُّهم فيما خلفوه، وحافظُهم فيما تركوه. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخَرَجُوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.

الآية (٥٠-٥٢): يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لست أملكها ولا المتصرِّف فيها، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم: إني أعلم الغيب، إنَّما ذاك من عِلم الله عز وجل، لا أطلع منه إلا على ما أَطْلَعني عليه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدَّعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يُوحَى إليَّ من الله عز وجل، شرَّفني بذلك وأنعم عليّ به؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتَّبع الحق وهُديَ إليه، ومن ضلَّ عنه ولم يَنْقَدْ له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]. ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧] و﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١]. ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أي: يومئذٍ ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم؛ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملًا يُنجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويُضَاعِف لهم به الجزيل من ثوابه. ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: لا تُبْعِدْ هؤلاء المتَّصِفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخِصَّاءك؛ كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يعبدونه ويسألونه، ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلوات المكتوبات. وهذا كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] أي: أتقبَّل منكم. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم؛ فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كما قال نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:١١١-١١٣]، أي: إنما حسابهم على الله عز وجل وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

[سبب النزول]: عن ابن مسعود قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخبَّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتَّبعك! فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية [رواه أحمد، وابن جرير، وصحَّح إسنادهما أحمد شاكر].

وعن سعد قال: نَزَلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نَسْبِقُ إلى النبي ﷺ، ونَدنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يُدْنِي هؤلاء دوننا! فنَزَلَت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [رواه مسلم].

---

(١) لم يفسر ابن كثير هذه الآية، وقال ابن جُزَي في معناها: ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾: آخرهم؛ وذلك عبارة عن استئصالهم بالكلية، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: شكر على هلاك الكفار؛ فإنه نعمة على المؤمنين. [التسهيل لعلوم التنزيل ص ١٣٣].

الآية (٥٣-٥٤): وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنّا بعضهم ببعض؛ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل؛ كما قال قومُ نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ الآية [هود:٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرُّسل. [رواه البخاري] والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذِّبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيرًا- ويدَعُنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣]. قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم:٧٤]، وقال في جوابهم -حين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم؟! فيوفِّقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]. وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فَأَكْرِمْهم بِرَدِّ السلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. وقال عِكْرِمة: الدنيا كلها جهالة. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألَّا يعود وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى الله الخَلْقَ، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» [متفق عليه]. ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً: قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألّا يعذبهم» [متفق عليه].

الآية (٥٥-٥٩): يقول تعالى: وكما بَيَّنَا ما تقدَّم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقرئ: «ولتستبين سبيلَ المجرمين» أي: ولتستبين يا محمد -أو يا مخاطب- سبيلَ المجرمين. وقوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله، ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: من العذاب، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنَّما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عَجَّل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظَركم وأجَّلكم؛ لِما له في ذلك من الحكمة العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فَصَل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده. وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لو كان مرجع ذلك إليَّ، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وعن عائشة؛ أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عَرَضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بَعَث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فناداني مَلَك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين؟» فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئًا»، [متفق عليه]. فقد عُرِض عليه عذابهم واستئصالهم، فَاسْتَأْنَى بهم، وسأل لهم التأخير، لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم من لا يُشرك به شيئًا. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟ فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دَلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذي يطلبونه حالَ طَلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عَرَض عليه مَلَكُ الجبال أنه إن شاء أَطْبَقَ عليهم الأخشبين -وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشَمالًا- فلهذا اسْتَأْنَى بهم، وسأل الرفق لهم. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]» [رواه البخاري]. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات، بَرِّيِّها وبحريِّها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنُّك بالحيوانات؟! ولا سيما المكلفون منهم من جِنِّهم وإِنْسِهم؟! كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

الآية (٦٠-٦٢): يُخبر تعالى أنه يتوفَّى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التَّوَفِّي الأصغر كما قال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]، يذكر في هذه الآية الوفاتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ﴾ ويعلم ما كسبتم من الأعمال ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ وهذه جملة معترضة دلَّت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي. وقال عبد الله بن كثير: أي في المنام. والأول أظهر. ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني به: أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هو الذي قَهَر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان؛ كما قال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، وحَفَظَة يحفظون عمله ويُحصُونه عليه؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: احتضر وحان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي: ملائكة موكّلون بذلك ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أي: في حفظ روح الْـمُتَوَفَّى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل؛ إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذًا بالله من ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا﴾ قال ابن جرير: يعني: الملائكة ﴿إِلَىٰ ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾. ويُحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا﴾ يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، ولهذا قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾.

الآية (٦٣-٦٥): يقول تعالى ممتنًّا على عباده في إنجائه المضطرين منهم ﴿مِن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: الحائرين الواقعين في الـمَهَامِهِ البرِّيَّة، وفي اللُّجَج الْبَحْرِيَّة إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذٍ يُفرِدُون الدعاء له وحده لا شريك له، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي: جهرًا وسرًّا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الضائقة، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: بعدها، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أي: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ ﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى. ولـمَّا قال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عقَّبه بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أي: بعد إنجائه إياكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الآيات [الإسراء:٦٧-٦٩]. قال البخاري: ﴿يَلْبِسَكُمْ ﴾ يَخْلِطَكُم، من الالتباس، يَلْبِسوا: يَخْلطُوا. ﴿شِيَعًا ﴾: فِرَقًا. ثم روى عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لـمَّا نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذه أهْوَن -أو قال: هذا أيسر» [رواه البخاري]. وقال مجاهد وسعيد بن جُبَيْر وغير واحد في قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يعني: الرَّجم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني: الخَسْف. وهذا هو اختيار ابن جرير. وهو كما قال ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ-، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك:١٦-١٧]. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ أي: يجعلكم ملتبسين ﴿شِيَعًا ﴾ فِرَقًا متخالفين. قال ابن عباس: يعني: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني يُسَلِّط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي: نبيِّنُها ونوضِّحها ونفسِّرها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي: يفهمون ويتدبَّرون عن الله آياته وحُجَجه وبراهينه.

الآية (٦٦-٦٨): ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن الذي جئتهم به، والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ ﴾ يعني: قريشًا، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: الذي ليس وراءه حقّ، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولستُ بموكَّل بكم، أي: إنما عليَّ البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شَقِي في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي لكل نبأ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين؛ كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨]. وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ والمراد بهذا كلّ فرد من آحاد الأمة؛ ألَّا يجلس مع المكذِّبين الذين يُحرِّفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جَلَس أحد معهم ناسيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. وعن أبي مالك وسعيد بن جُبَيْر: إن نسيتَ فذكَرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل بن حيان. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ الآية [النساء:١٤٠]، أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

الآية (٦٩): ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عُهدتهم، وتخلَّصوا من إثمهم. ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيرًا لهم عما هم فيه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ذلك ولا يعودون إليه.

الآية (٧٠): يقول تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلًا؛ فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: وذكِّر الناس بهذا القرآن، وحذِّرهم نقمةَ الله وعذابه الأليم يوم القيامة. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لئلا تُبْسَلَ. قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: تُبْسَلَ: تُسْلَم. عن ابن عباس: تفتضح. وقال الكلبي: تُجْزَى. وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها: الإسلامُ للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب؛ كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨-٣٩]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها؛ كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: ولو بَذَلت كلَّ مبذول ما قُبِل منها؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:٩١]، وهكذا قال ههنا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

الآية (٧١-٧٣): [سبب النزول]: قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضلَّ الطريق، فحيَّرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنَّا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. قال قتادة: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أضلَّته في الأرض، يعني: استهوته: [سيَّرته]، مثل قوله: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧]. وقال ابن عباس: هذا مَثَل ضَرَبه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل؛ كمثل رجل ضلَّ عن طريق تائهًا ضالًّا إذ ناداه منادٍ: يا فلان بن فلان، هلمَّ إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلمَّ إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغِيلان؛ يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله؛ فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة. ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربَّما أكلته، أو تلقيه في مَضَلَّةٍ من الأرض يهلك فيها عطشًا؛ فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبَد من دون الله عز وجل. رواه ابن جرير.

وسياق الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران -وهو منصوب على الحال- أي: في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لَهداه، ولرَدَّ به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ كما قال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧].

وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: نُخلص له العبادة وحده لا شريك له. قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: وأُمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ فهو خالقهما ومالكهما، والمدبِّر لهما ولمن فيهما. قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: كن فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب. ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ وتقديره: واتقوا يوم يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: وخلق يوم يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملتان محلّهما الجر، على أنهما صفتان لرب العالمين[1]. قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]، وما أشبه ذلك.

المراد بالصُّوْر: «القَرْن» الذي ينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد الْتَقم الصور وحنَى جبهته، ينتظر متى يُؤمَر فينفخ» [رواه مسلم].

---

(١) يقصد بقوله: (صفتان لرب العالمين) أي صفتان لقولَه تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الوارد في الآية ٧١. وللمفسرين في إعراب هاتين الجملتين أقوال كثيرة غير ما ذُكِر هنا.

الآية (٧٤-٧٩): عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، إنما كان اسمه تارح. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: آزر: اسم صنم؛ كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، [و] قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. [و] قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقبًا. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

والمقصود أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَظَ أباه في عبادة الأصنام، وزَجَرَه عنها، ونهاه فلم ينتهِ. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: أَتَتَأَلَّهُ لصنم تعبده من دون الله، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمرُكم في الجهالة والضلال بيّن واضح لكل ذي عقل صحيح. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: نبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه؛ كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]. وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة؛ تقديره: وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، وقيل: بل هي على بابها، أي: نُريه ذلك ليكون عالمًا وموقنًا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: تغشَّاه وستره ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أي: نجمًا، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: «الأُفول» الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أَفَلَ النجم يأفُل ويأفِل أُفُولًا وأفْلًا: إذا غاب. ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعًا. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي، ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي: جُرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ أي: غابت، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كوني حَنِيفًا، أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ والحق: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مُناظِرًا لقومه، مبيِّنًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة، وأشدُّهنَّ إضاءة وأشرَقُهُن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزُّهرة. فبيَّن أن هذه لا تصلح للإلهية؛ لأنها مُسَخَّرَةٌ مقدَّرة بسير معين. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنوَر ما تقع عليه الأبصار، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعًا ثم لا تُنظرون، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخِّرها ومقدِّرها ومُدَبِّرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرًا في هذا المقام؟! وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الآيات [الأنبياء:٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وقد ثبت عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة» [متفق عليه]، وعن عِياض بن حمار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حُنَفاء» [رواه مسلم]، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل -الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]- ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجيّة المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب. ومما يؤيِّد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه -فيما كانوا فيه من الشرك- لا ناظرًا، قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الآيات.

الآية (٨٠-٨١): وجادله قومه فيما ذَهَبَ إليه من التوحيد، وناظروه بشُبَه من القول، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي: أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو؟! وقد بَصَّرَني وهداني إلى الحقِّ وأنا على بيِّنة منه، فكيف أَلْتَفِتُ إلى أقوالكم الفاسدة وشُبَهكم الباطلة؟! وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تُؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها ولا تُنظروني، بل عاجلوني بذلك.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ استثناء منقطع. أي لا يضرُّ ولا ينفع إلا الله عز وجل. ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بيَّنتُه لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فتُزجروا عن عبادتها؟!

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي: حجة. وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، وقوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوَب؟! الذي عَبَدَ مَن بيده الضرُّ والنفع، أو الذي عبد من لا يضرُّ ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحقُّ بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

الآية (٨٢-٨٣): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. عن ابن مسعود قال: لَـمَّا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟ [لقمان:١٣] إنما هو الشرك» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: وجَّهنا حجته على قومه. قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١] وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾. قُرئ بالإضافة[1] وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحُجَج والبراهين.

الآية (٨٤-٩٠): يخبر تعالى أنه وهَب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طَعَن في السن، وأَيِسَ هو وامرأته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشَّروهما بإسحاق، فتعجَّبت المرأة من ذلك، وبشَّروه مع وجوده بنبوّته، وبأن له نسلًا وعَقِبًا، كما قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقرّ أعينكما به كما قرَّت بوالده؛ فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، وكان هذا مُجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونَزَح عنهم وهاجرَ من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوَّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقرَّ بهم عينه؛ كما قال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم:٤٩]، وقال ههنا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ كُلّٗا هَدَيۡنَا﴾. وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة: أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام لم يبعث الله عز وجل بعده نبيًّا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، وعَود الضمير إلى «نوح» لأنه أقرب المذكورين ظاهر. وهو اختيار ابن جرير. ولا إشكال عليه. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»؛ فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه. اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليبًا. وفي ذكر «عيسى» عليه السلام في ذرية «إبراهيم» -أو «نوح» على القول الآخر- دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن «عيسى» عليه السلام إنما يُنسب إلى «إبراهيم» عليه السلام بأمه «مريم» عليها السلام؛ فإنه لا أب له لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فسماه ابنًا، فدل على دخوله في الأبناء.

وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لـمُلَابسته، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع؛ كقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم، ولُطفًا منا بالخليقة، ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾ أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي. ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وَمِلِّيِينَ وكتابيين، ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ آخرين؛ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون منها شيئًا، ولا يردون منها حرفًا واحدًا، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلَنا الله منهم بمنّه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدا ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أُضيفَ إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ أي: اقتدِ واتَّبِع. وإذا كان هذا أمرًا للرسول ﷺ، فأُمّته تبعٌ له فيما يشرعه ويأمرهم به. ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿أَجۡرًا﴾ أي: أُجرة، ولا أريد منكم شيئًا، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتذكرون به فَيُرْشَدُوا من العمى إلى الهدى، ومن الغَيّ إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

---

(١) يقصد بالإضافة إزالة التنوين من كلمة (درجات) وإضافتها للاسم الموصول (مَنْ) فتُقرأ: (نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ).

الآية (٩١-٩٢): يقول تعالى: وما عظَّموا الله حق تعظيمه، إذ كذّبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنكِرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سَلْبِهم العام بإثبات قضية جزئية مُوجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم -وكل أحد- أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: ليُستضاء بها في كشف المشكلات، ويُهتدَى بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: يجعلها جَمَلَتُهَا قراطيس، أي: قِطَعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرِّفون فيها ما يحرِّفون ويبدِّلون ويتأوَّلون، ويقولون: هذا من عند الله، أي: في كتابه المنزّل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم. قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين. وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: أي: قل: الله أنزله. وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطاب لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: «الله».

وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون: أَلَهُم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟! وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عَرَبٍ وعَجَم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠].

وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منهن: «وكان النبي يُبعث إلى قومه، وبُعثت إلى الناس عامة» [متفق عليه]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

الآية (٩٣-٩٤): أي: لا أحد أظلم ممن كَذَب على الله، فجعل له شريكًا أو ولدًا، أو ادَّعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ قال عِكْرِمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ومن ادَّعى أنه يُعارض ما جاء من عند الله من الوحي ممَّا يفتريه من القول، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكُرُباته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب. قال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؛ وذلك أن الكافر إذا احتُضر بشَّرَتْه الملائكة بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، فتتفرَّق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذِبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا؛ كما قال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨]، أي: كما بدأناكم أعَدْناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: من النّعَم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» [رواه مسلم].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانِّين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، وينادِيهم الرب جَلَّجَلَالُهُ على رءوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٧٤]، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٢-٩٣]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم. ثم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرئ بالرفع، أي: شَمْلُكُم، وقُرئ بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: ذَهَب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام؛ كما قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ الآية [القصص:٦٤]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢]، والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

الآية (٩٥-٩٧): يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقُّه في الثَّرى، فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النَّوى؛ ولهذا فَسَّره بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت. وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ معطوف على فالق الحب والنوى، وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدِّية للمعنى، فمِن قائل: يُخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، ومن قائل: يُخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تَنْتَظِمُهَا الآية وتشملها. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرَفون عن الحقِّ وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره؟! ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: خالق الضياء والظلام؛ كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غُرَّةِ الصباح، فيُضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحلُّ الظلام، ويذهب الليل بِدَآدِئِه وظلام رِوَاقِه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، فبيَّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدَّالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، ﴿وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي: ساجيًا مظلمًا تسكن فيه الأشياء. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: يجريان بحساب مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتَّب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقِصَرًا؛ كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء، فلا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكَذَبَ على الله: أن الله جعلها زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، ويُهتدى بها في ظلمات البر والبحر. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ بيَّنَّاها ووضَّحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل.

الآية (٩٨-٩٩): ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: أي في الأرحام. قالوا -أو أكثرهم-: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ويَعُون كلام الله ومعناه. ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي بقَدَرٍ مباركًا، رِزْقًا للعباد وغِيَاثًا للخلائق، رحمةً من الله لخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والثمر؛ ولهذا قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: يركب بعضه بعضًا، كالسنابل ونحوها.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع قِنوٍ وهي عُذُوق الرُّطَب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونُخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: يتشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخالف في الثمار شكلًا وطعمًا وطبعًا. ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: نُضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، وقتادة، وغيرهم. أي: فكِّرُوا في قُدْرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حَطَبًا صار عِنبًا ورُطَبًا وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون به، ويتَّبعون رسله.

الآية (١٠٠): هذا ردٌّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: كيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم؛ فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبَد معه غيره؟! كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة وحده لا شريك له. ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُنَبِّه به تعالى على ضلال من ضلَّ في وصفه تعالى بأن له ولدًا، كما يزعم من قاله من اليهود في العُزير، ومن قاله من النصارى في المسيح، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. ومعنى قوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ أي: واختلقوا وائتفكوا، وتخرّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلًا بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهًا أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تقدَّس وتَنَزَّه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضَّالون من الأولاد والأنداد، والنُّظَراء والشركاء.

الآية (١٠١): مبدع السموات والأرض وخالقهما ومُنشئهما ومُحدِثهما على غير مثال سبَق، كما قال مجاهد والسُّدِّي. ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟! أي: والولد إنما يكون متولِّدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يُشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبيَّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له؟! وأنَّى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الآية (١٠٢-١٠٣): ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، وأَقِرُّوا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب، يُدَبِّر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلَؤُهم بالليل والنهار. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن. وقال آخرون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثَبَت من رؤية المؤمنين له في الآخرة. وقال آخرون، من المعتزلة -بمقتضى ما فهموه من الآية-: إنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [المتواترة]. وقال آخرون: لا مُنافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك؛ فإن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخصّ انتفاء الأعَمّ، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، وقال آخرون: الإحاطة.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها. وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾: اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها. والله أعلم.

الآية (١٠٤-١٠٥): البصائر: هي البينات والحُجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ ولما ذكر البصائر قال: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك عليه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مُبلِّغ والله يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من: بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضِّح الآيات ونفسِّرها ونبيِّنها في كل موطن لجهالة الجاهلين، ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ وليقول المشركون والكافرون المكذبون: ﴿دَرَسْتَ﴾ [قُرئت]: «دَارَسْتَ» أي: يا محمد مَن قبلك من أهل الكتاب وقَارَأْتَهم وَتَعَلَّمْتَ منهم. وعن ابن عباس: «دَرَسْتَ» أي: قَرَأْتَ وَتَعَلَّمْتَ. وكذا قال مجاهد، والسُّدِّي والضحاك، وغير واحد. وقال الحسن: «دَرَسْتْ»: تقادمَت وَانْمَحَتْ. وعن قتادة أنه قرأها: «دُرِسَتْ» أي: قُرئت وتُعُلِّمت. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولنوضِّحه لقوم يعلمون الحق فيتَّبِعونه، والباطل فيجتنبونه. فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء.

الآية (١٠٦-١٠٧): يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتَّبع طريقته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: اقتدِ به، واقتفِ أثره، واعمل به؛ فإن ما أُوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعفُ عنهم واصفح، واحتمِل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم. واعلم أن لله حكمة في إضلالهم؛ فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعًا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظًا تحفظ أعمالهم وأقوالهم، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: موكَّل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ.

الآية (١٠٨): يقول تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتَّب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: وكما زَيَّنَّا لهؤلاء القوم حُبَّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زَيَّنَّا لكل أمة من الأمم -الخالية على الضلال- عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامّة فيما يشاؤه ويختاره، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم ومصيرهم، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُجازيهم بأعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشَرّ.

الآية (١٠٩-١١٠): يقول تعالى إخبارًا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزة وخارق ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: لَيُصَدِّقُنَّها، ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تَعَنُّتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله: إن شاء أجابكم، وإن شاء تركَكم. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: المخاطب بـ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المشركون، وإليه ذهب مجاهد؛ كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تُقسِمُون بها. وقيل: المخاطب المؤمنون؛ أي: وما يدريكم -أيها المؤمنون الذين تودُّون لهم ذلك حرصًا على إيمانهم- أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون فتكون لا صلة. ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس: لَـمَّا جَحَدَ المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدَّت عن كل أمر. وقال مجاهد: ونَحُوْلُ بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حُلْنَا بينهم وبين الإيمان أوَّل مرة. وعن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، فأخبر سبحانه أنهم لو رُدُّوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ قال ابن عباس والسُّدِّي: في كفرهم. وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: في ضلالهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: في كفرهم يَتَرَدَّدُونَ.

الآية (١١١): يقول تعالى: ولو أننا أجَبنا سؤال هؤلاء الذين ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام:١٠٩]، فنزّلنا عليهم الملائكة، أي: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢]، و﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]. ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ -قرأ بعضهم: «قِبَلا» بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعاينة. وقرأ آخرون: ﴿قُبُلًا﴾ بضمّهما، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضًا، قاله ابن عباس. وبه قال قتادة، وابن أسلم. وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾ أفواجًا، قبيلًا قبيلًا، أي: تُعرض عليهم كل أمة بعد أمة فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، وهو الفعَّال لِـمَا يُريد، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

الآية (١١٢-١١٣): يقول تعالى: وكما جعلنا لك -يا محمد- أعداءً يخالفونك ويعادونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]. وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ [متفق عليه]. ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوًّا﴾ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء، قبَّحهم الله ولعنهم. قال قتادة في قوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾. وقال مجاهد: كفَّار الجن شياطين، يوحون إلى شياطين الإنس -كفار الإنس- زخرف القول غرورًا. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يُلقِي بعضهم إلى بعض القول الْـمُزَيَّنَ المزخرف، وهو الْـمُزَوَّق الذي يَغْتَرُّ سامعه من الجهَلة بأمره. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نَبيّ عدوّ من هؤلاء. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدَعْهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون، أي: دع أذاهم، وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم. ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ ولتميل إليه، قاله ابن عباس. ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قلوبهم وعقولهم وأسماعهم. وقال السُّدي: قلوب الكافرين. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: يُحِبُّوه ويُرِيدُوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٨-٩]، وقوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ قال ابن عباس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون. وقال السُّدي، وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

الآية (١١٤-١١٥): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي: بيني وبينكم، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبينًا، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حَكَم. يقول: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلب؛ فكل ما أَخبر به فَحَقٌّ لا مِريَةَ فيه ولا شكَّ، وكل ما أَمَرَ به فهو العدل الذي لا عَدْلَ سواه، وكل ما نهى عنه فباطل؛ فإنه لا يَنْهَى إلا عن مَفْسَدة؛ كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧]. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: ليس أحد يُعقِّبُ حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يُجازِي كلَّ عامل بعمله.

الآية (١١٦-١١٧): يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظُنون كاذبة وحُسبان باطل، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ فإن الْـخَرْصَ هو الْـحَزْرُ، ومنه خرص النخل، وهو حَزْرُ ما عليها من التمر. وذلك كله عن قدر الله ومشيئته و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ فَيُيَسِّرُهُ لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فَيُيَسِّرُهم لذلك، و«كلٌّ مُيَسّر لما خُلق له» [متفق عليه].

الآية (١١٨): هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذُكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يُذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذُبِحَ على النُّصُب وغيرها.

الآية (١١٩): نَدَبَ إلى الأكل مما ذُكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بيَّن لكم ما حَرَّم عليكم ووضَّحه. وقرأ بعضُهم: ﴿فَصَّلَ﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار؛ فإنه يُباح لكم ما وجدتم. ثم بيَّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الْمَيْتَاتِ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم وكَذِبهم وافترائهم.

الآية (١٢٠): قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ معصيته في السر والعلانية. وقال: قتادة: قليله وكثيره، سِرّه وعلانيته. والآية عامَّة، وهي كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف:٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهرًا أو خفيًّا؛ فإن الله سيجزيهم عليه. عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع الناس عليه» [رواه مسلم].

الآية (١٢١): استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يُذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلمًا. قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نُسِخَ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. ورُوِيَ عن عكرمة والحسن البصري أنهما قالا: نسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥]. ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حلِّ طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يُذكر اسم الله عليه. وهذا الذي قاله صحيح، ومن أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ قال ابن عباس: هما وحيان: وحي الله ووحي الشيطان؛ فوحي الله إلى محمد ﷺ، ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله عز وجل بشمشير[1] من ذهب -يعني الميتة- فهو حرام؟! فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [رواه الطبراني والطبري، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فَقَدَّمْتُم عليه غيره فهذا هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]. عن عديّ بن حاتم أنه قال: يا رسول الله! ما عبدوهم. فقال: «بل إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتَّبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني].

(١) الشمشير: السكين بالفارسية.

الآية (١٢٢): هذا مثلٌ ضَرَبه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي: في الضلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به. والنور هو: القرآن، كما روي عن ابن عباس. وقال السُّدي: الإسلام. والكل صحيح. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى مَنْفَذ، ولا مَخْلَص مما هو فيه، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رشَّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» [رواه أحمد، وصححه الألباني]؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤]. والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: حُسِّن لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قدرًا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو.

الآية (١٢٣-١٢٤): يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك -يا محمد- أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصدِّ عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]. قال ابن عباس: سَلَّطْنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ قال عظماؤها. قلت: والمراد بالمكر ههنا: دعاؤهم إلى الضلالة بزُخرف من الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ؛ كما قال تعالى إخبارًا عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢]. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلُّوه إلا على أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢].

وقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد، لمن تكبّر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلًّا. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًّا؛ وهو التلطُّف في التَّحَيُّل والخديعة، قُوبلوا بالعذاب الشديد جزاءً وفاقًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

الآية (١٢٥): يقول تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي: يُيسّره له وينشّطه ويسهّله لذلك، فهذه علامة على الخير؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات:٧]. قال ابن عباس: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به. وكذا قال أبو مالك وغير واحد. وهو ظاهر. وقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وقرأ بعضهم حَرِجا بفتح الحاء وكسر الراء؛ قيل: بمعنى آثم. وقال السُّدي: هو الذي لا يتّسع لشيء من الهدى، ولا يَخلُص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفُذ فيه. وقال ابن جُرَيْج: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه. قال ابن جرير: وهذا مثلٌ ضرَبه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه. يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته. وقال في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا كذلك يُسَلِّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيُغويه ويصدُّه عن سبيل الله. وقال ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه. وقال ابن أسلم: الرجس: العذاب.

الآية (١٢٦-١٢٧): لما ذكر تعالى طريقة الضَّالِّين عن سبيله، الصادِّين عنها، نبَّه على أشرف ما أرْسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك -يا محمد- بما أوحينا إليك هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم. ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: وضَّحناها وبيَّنَّاها وفسَّرناها. ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لمن له فهم ووعي يَعقِل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهي: الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، الْـمُقْتَفِي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سَلِمُوا من آفات الاعوجاج أفْضَوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاءً على أعمالهم الصالحة؛ تولَّاهم وأثابهم الجنة بِمَنِّه وكَرَمِه.

الآية (١٢٨): واذكر -يا محمد- فيما تقصُّه عليهم وتذكِّرهم به يوم ﴿يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ يعني: الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويُوحِي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا. أي: ثم يقول: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ وسياق الكلام يدلّ على المحذوف. ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢]. وقال ابن عباس: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ يعني: أضللتم منهم كثيرًا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة. ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. وقال ابن جُرَيْج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان -فيما ذُكِر- ما ينال الجنّ من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سُدْنَا الإنس والجن. ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ قال السُّدي: أي الموت. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ماكثين مكثًا مخلَّدًا. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عن ابن عباس قال: إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، لا يُنْزِلـهُم جنَّةً ولا نارًا.

الآية (١٢٩): عن قتادة في تفسيرها: إنما يولي الله بين الناس بأعمالهم؛ فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، واختار هذا القول ابن جرير. ومعنى الآية الكريمة: كما ولّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغْوَتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نُسَلِّطُ بعضهم على بعض، وَنُهْلِك بعضهم ببعض، وَنَنْتَقِم من بعضهم ببعض، جزاءً على ظلمهم وبغيهم.

الآية (١٣٠): وهذا أيضًا ممَّا يُقرِّع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم -وهو أعلم-: هل بلّغتهم الرسلُ رسالاتِه؟ وهذا استفهامُ تقرير: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي: أقرَرْنا أن الرسل قد بلَّغُونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: وقد فرّطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم المعجزات، لِـمَا اغْتَرُّوا به من زُخْرُف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم.

الآية (١٣١): أي: إنما أعذَرْنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يُعَاقَبَ أحد بِظُلْمِهِ، وهو لم تَبْلُغْهُ دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذَّبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، والآيات في هذا كثيرة.

قال ابن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين: أحدهما: ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولًا ينبههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

والوجه الثاني: لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده.

ثم شرع يرجح الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم.

الآية (١٣٢): أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب مِن عمله يبلّغه الله إياها، ويُثيبه بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. ويحتمل أن [يكون المقصود] من كافري الجن والإنس؛ أي: ولكلٍّ درجة في النار بحسبه؛ كقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:٣٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم -يا محمد- بعِلْمٍ من ربك، يُحصِيها ويُثبِتُها لهم عنده، ليُجَازِيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

الآية (١٣٣-١٣٥): يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمْرَه ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: قومًا آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سَهْلٌ عليه، يسيرٌ لديه، كما أذهب القرون الأُوَل وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين. وعن أبان بن عثمان قال: الذرية: الأصل، والذرية: النسل. وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أخبرهم -يا محمد- أن الذي يُوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا تُعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم ترابًا رفاتًا، وعظامًا هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنُّون أنكم على هدًى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي. قال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: أتكون لي أو لكم. وقد أَنْجَزَ موعوده له صلوات الله عليه؛ فإنه تعالى مَكَّنَ له في البلاد، وحَكَّمَه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كَذَّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فُتِحت الأمصار والأقاليم وَالرَّسَاتِيقُ بعد وفاته في أيام خلفائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنّة أولًا وآخرًا، باطنًا وظاهرًا.

الآية (١٣٦): هذا ذمٌّ وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بِدَعًا وكفرًا وشركًا، وجعلوا لله جزءًا من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق وبَرَأ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: من الزروع والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءًا وقسمًا، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾. ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. وإن سقط منه شيء فيما سُمّي للصمد ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئًا جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم يردّوه إلى ما جعلوه لله. وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمّي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرّمون من أموالهم: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقسمون؛ فإنهم أخطأوا أولًا في القسمة؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرّفه وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ثم لَمَّا قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة، بل جاروا فيها؛ كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧].

الآية (١٣٧): وكما زيَّنت الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، كذلك زيَّنوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار. قال ابن عباس: زيَّنوا لهم قتل أولادهم. وقال مجاهد: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ شياطينهم، يأمرونهم أن يئدوُا أولادهم خشية العَيْلة. وقال السُّدي: أَمَرَتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وأما ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وأما ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: فيخلطوا عليهم دينهم. ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة. وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان، وتزيينه لهم ذلك.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة في ذلك، فـ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فدَعْهم واجتنبهم وما هم فيه، فسَيَحْكُم الله بينك وبينهم.

الآية (١٣٨): قال ابن عباس: «الحِجْرُ»: الحرام؛ ممَّا حرَّموا، من الوصيلة، وتحريم ما حرَّموا. وكذلك قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وقال السُّدي: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نُطعم إلا من شئنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئًا. ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي: على الله، وكذبًا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته؛ فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رَضيه منهم، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: عليه، ويُسْندون إليه.

الآية (١٣٩): قال ابن عباس: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قال: اللبن؛ كانوا يحرّمونه على إناثهم، ويشربه ذُكرانهم. وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تُرِكَت فلم تُذبح، وإن كانت ميتةً فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: قولهم الكذب في ذلك؛ يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦]. ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

الآية (١٤٠): يقول تعالى: قد خَسِرَ الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:٦٩].

الآية (١٤١-١٤٢): يقول تعالى بيانًا لأنه الخالق لكل شيء من: الزروع والثمار والأنعام التي تصرَّف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسَّموها وجَزَّءوها، فجعلوا منها حرامًا وحلالًا، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ عن ابن عباس: ما عَرَّشَ من الكَرْم، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ما لم يُعَرّش من الكرم. وكذا قال السُّدي. وقال ابن جُرَيْج: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قال: متشابه في المنظر، وغير متشابه في الطعم. وقال محمد بن كَعْب: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ قال: من رُطَبِهِ وعنَبه. وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. وعن أنس بن مالك قال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال: الزكاة المفروضة. وقال ابن عباس: يعني: الزكاة المفروضة، يوم يُكَال ويُعْلَم كَيْلُه. وكذا قال سعيد بن المسيب، وطاووس، وأبو الشعثاء، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن جُرَيْج. وروى الإمام أحمد عن جابر أن النبي ﷺ أمَرَ مِن كلِّ جَادٍّ عَشْرَةَ أوسُق من التمر، بقِنْو يُعَلَّق في المسجد للمساكين [وإسناده جيد قوي]. وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب والثمار. وقال آخرون: هو حقٌّ آخر سوى الزكاة. وقال مجاهد: عند الزرع يُعْطِي القَبْضَة، وعند الصِّرَام يُعْطِي القَبْضَة، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام. وقال سعيد بن جبير: كان هذا قبل الزكاة: للمساكين، الْقَبْضَةُ الضِّغْثُ لِعَلْفِ دَابَّتِه. وقال آخرون: هذا كان واجبًا، ثم نَسَخَهُ الله بالعُشر ونصف العُشر. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم النخعي، وغيرهم. واختاره ابن جرير. قلت: وفي تسمية هذا نسخًا نَظَر؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنه فُصِّلَ بيانُه وبُيِّن مِقْدَارُ الْمُخْرَجِ وكمِّيَّتُه. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: معناه: ولا تُسْرِفُوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. وقال عطاء: نُهوا عن السَّرَف في كل شيء. وقال السُّدي: لا تعطوا أموالكم، فتقعدوا فقراء. وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب، في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم. ثم اختار ابن جرير قول عطاء: إنه نَهْيٌ عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر -والله أعلم- من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أن يكون عائدًا على الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل؛ لما فيه من مضرة العقل والبدن، وفي صحيح البخاري تعليقًا: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدّقوا، في غير إسراف ولا مخيلة» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وهذا من هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يُحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال عبد الله: ﴿حَمُولَةً﴾ ما حُمل عليه من الإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ الصغار من الإبل. و[كذا] قال ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ فأما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكل شيء يُحمل عليه، وأما الفرش فالغنم. واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سُمّي فرشًا لدنوّه من الأرض. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافًا وفرشًا. وهذا الذي قاله عبد الرحمن -في تفسير هذه الآية الكريمة- حسَن، يشهد له قوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧٢]. وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلُّها خلقها الله وجعلها رزقًا لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: طرائقه وأوامره، كما اتَّبعها المشركون الذين حرَّموا ما رزقهم الله، أي: من الثمار والزروع افتراءً على الله، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إن الشيطان -أيها الناس- ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنٌ ظاهرُ العداوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]. والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

الآية (١٤٣-١٤٤): وهذا بيانٌ لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حَرّموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعًا: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحامًا، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبَيَّن أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولةً وفرشًا. ثم بَيَّن أصناف الأنعام إلى: غنم وهو بياض، وهو الضَّأن، وسواد وهو المعز، ذَكَرُه وأُنْثَاه، وإلى إبل، ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يُحرّم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها. بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلًا وركوبًا وحمولةً وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع؛ كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآية [الزمر:٦]. وقوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ رَدٌّ عليهم في قولهم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]. وقوله: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حرَّم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟! وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ تَهَكُّمٌ بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لا أحد أظلم منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وأوَّل من دخل في هذه الآية: عمرو بن لُحَيّ؛ فإنه أوَّل من غيَّر دين الأنبياء، وأول من سيَّب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي كما ثبت في الصحيح.

الآية (١٤٥): يقول تعالى آمرًا عبده ورسوله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُل﴾ لهؤلاء الذين حرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: آكلٍ يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئًا ممَّا حرَّمتم حرامًا سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه. فعلى هذا يكون ما وَرَدَ من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعًا لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يُسمِّي ذلك نسخًا، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخًا؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ يعني: المهراق. وقال عِكْرِمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لولا هذه الآية لتتبّع الناس ما في العُرُوق، كما تتبَّعه اليهود. وقال قتادة: حرّم من الدماء ما كان مسفوحًا، فأما لحمٌ خالطه دم فلا بأس به. وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء ممَّا حُرّم في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبّس ببغي ولا عدوان ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به. والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام، ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرّم، وإنما حُرِّم ما ذُكر في هذه الآية من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أُهِلّ لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفوٌ مسكوتٌ عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرّمتموه ولم يحرمه الله؟! وعلى هذا فلا يُنفَى تحريم أشياء أُخَر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحُمر ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

الآية (١٤٦): قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبطّ. قال ابن عباس: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو البعير والنعامة. وكذا قال مجاهد. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ قال السُّدي: يعني: الثَّرْب وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول: إنه حَرَّمه إسرائيل فنحن نُحرِّمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثَّرْب وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ قال الإمام ابن جرير: ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ جمع، واحدها حاوياء وحاوية وحَوِيَّة، وهو ما تحَوَّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرابض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا. وقوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي: وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم. وقال ابن جُرَيْج: شحم الألية اختلط بالعُصْعُص، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السُّدي. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء:١٦٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: وإنا لعادلون فيما جزيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به -يا محمد- من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرَّمه على نفسه، والله أعلم. وقال ابن عباس: بلغ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن سَمُرَة باع خمرًا، فقال: قاتل الله سمرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حُرّمَت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» [متفق عليه]. وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حَرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؛ فإنه يُدهن بها الجلود ويُطلى بها السفن، ويَسْتَصبِح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لَـمَّا حرَّم عليهم شحومها جَمَلوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه» [متفق عليه].

الآية (١٤٧): يقول تعالى: فإن كذّبك -يا محمد- مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله ﷺ، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن؛ كما قال في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

الآية (١٤٨-١٥٠): هذه مناظرةٌ ذَكَرَها الله تعالى وشُبهةٌ تَشَبَّث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرّموا، [وهي]: أن الله مُطَّلِع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لِـمَا حَرَّموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويَحُول بيننا وبين الكفر، فلم يغيِّره، فدلَّ على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منَّا بذلك! ولهذا قال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضَلَّ من ضَلَّ قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لَـمَا أذاقهم الله بأسه، ودمَّر عليهم، وأذال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأنّ الله تعالى راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتُظهِروه لنا وتُبيِّنوه وتُبرِزوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوَهْم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامَّة، والحجة البالغة في هداية من هَدى، وإضلال من أضلَّ، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبْغض الكافرين، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٩٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. وقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أحضِروا شهداءكم ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الذي حرَّمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون - والحالة هذه - كذبًا وزورًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به، ويجعلون له عديلًا.

الآية (١٥١): عن ابن عباس يقول: إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات. يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرَّموا ما رَزَقَهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا۟﴾ أي: هلمُّوا وأقبِلوا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم وأخبركم بما حَرَّم ربكم عليكم حقًّا لا تخرُّصًا، ولا ظنًّا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وكأنَّ في الكلام محذوفًا دلَّ عليه السياق، وتقديره: ووصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أُبالي، ولو أتيتني بِقُرَابِ الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة، ما لم تشرك بي شيئًا» [رواه أحمد، وصححه الألباني]. ولهذا شاهدٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. وعن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة» [متفق عليه]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا. وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: ووصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا، أي: أن تُحسنوا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]. والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبرِّ الوالدين. فأَمَر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما. والآيات في هذا كثيرة، وعن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أيّ؟ قال: «بر الوالدين» الحديث [متفق عليه]. ولـَمَّا أوصى تعالى ببرِّ الآباء والأجداد، عَطَف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خَشْيَة العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار؛ وعن ابن مسعود، أنه سأل رسول الله ﷺ، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقَكَ». قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشيةَ أن يَطْعَم معك» الحديث [متفق عليه]. وقوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]، أي: خيفة حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلـَمَّا كان الفقر حاصلًا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا ممَّا نصَّ تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدًا، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. في الصحيحين، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

الآية (١٥٢): عن ابن عباس قال: لَـمَّا أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية [النساء:١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يَفْضُلُ الشيء فَيُحْبَس له حتى يأكله ويَفْسُد. فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم [رواه أبو داود، وحسنه الألباني]. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء. وقد أهلَكَ الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق وأَخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وُسْعِه وبَذْلِ جُهْده فلا حَرَج عليه. وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، يأمر تعالى بالعدل في الْفِعَالِ وَالْـمَقَالِ، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ قال ابن جرير: يقول: وَبِوَصِيَّة الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ هذا وصاكم به، وأَمَرَكم به، وأكَّد عليكم فيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتّعظون وتنتهون عمَّا كنتم فيه قبل هذا.

الآية (١٥٣): قال ابن عباس في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وفي قوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله. ونحو هذا قاله مجاهد، وغير واحد. وعن ابن مسعود، قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «هذا سَبِيل الله مستقيمًا». وخطَّ على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ إنما وحَّدَ سَبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع السُّبل لِتَفَرُّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

الآية (١٥٤-١٥٥): لَـمَّا أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام:١٥٣] عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢]. وقوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملًا، جامعًا لجميع ما يحتاج إليه في شريعته؛ كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأعراف:١٤٥]. وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاءً على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا؛ كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقال الربيع بن أنس: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تَمَّمَ له ذلك في الآخرة. واختار ابن جرير أن تقديرَ الكلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. وقيل: معناه: تمامًا على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاه ابن جرير، والبَغوي. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتَّبَعَه وعَمِل به في الدنيا والآخرة.

الآية (١٥٦-١٥٧): قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عُذرهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:٤٧].

وقوله: ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى. وكذا قال مجاهد، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شُغْلٍ وغفلة عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تَعَلُّلَكم أن تقولوا: لو أنا أُنْزِلَ علينا ما أُنْزِلَ عليهم لكُنَّا أهدى منهم فيما أوتوه؛ كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لِـمَا في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتَّبعونه ويقتفون ما فيه. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أُرسِل به، ولا ترك غيره، بل صَدَف عن اتباع آيات الله، أي: صرف الناس وصَدَّهم عن ذلك، قاله السُّدي. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السُّدي ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ كما تقدم في أول السورة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]. وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: لا آمَنَ بها ولا عَمِل بها، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر، والله أعلم.

الآية (١٥٨): يقول تعالى متوعدًا للكافرين به، والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته، والصادِّين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾؛ وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أمارات الساعة وأشراطها. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرَجْن ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طلوع الشمس من مغربها، والدَّجال، ودابّة الأرض» [رواه مسلم]. أي: إذا أَنْشَأَ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يُقبَل منه، فأما من كان مُؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مُصْلِحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلِّطًا فأحدث توبةً حينئذٍ لم تُقبل منه توبته، كما دلَّت عليه الأحاديث المتقدِّمة، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: ولا يُقبَل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك. وقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقتٍ لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها؛ كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٨].

الآية (١٥٩): قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدّي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له؛ فإن الله بَعَث رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله، وشرْعُه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا كأهل الملل والنِّحَل -وهي الأهواء والضلالات- فالله قد بَرَّأ رسوله ممَّا هُم فيه. فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من: عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخِّر، وما خالف ذلك فضَلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل بُرآء منها، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧].

الآية (١٦٠): ثم بَيَّنَ كيفية فصله يوم القيامة في حكمه وعدله فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهذه الآية الكريمة مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩]، وقد وَرَدَت الأحاديث مطابقة لهذه الآية؛ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال -فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى-: «إن ربكم عز وجل رحيم؛ مَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَت له حسنة، فإن عملها كُتِبَت له عشرًا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتِبَت له حسنةً، فإن عملها كُتِبَت له واحدة أو يمحوها الله ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك» [متفق عليه].

الآية (١٦١-١٦٣): يقول تعالى آمرًا نبيّه ﷺ سيد المرسلين أن يُخبِر بما أَنعَم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائمًا ثابتًا، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وَأُكْمِلَتْ له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتمَ الأنبياء، وسيدَ ولد آدم على الإطلاق، وصاحبَ المقام المحمود الذي يَرْغَبُ إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يأمره تعالى أن يُخبر المشركين -الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه- أنه مخالف لهم في ذلك؛ فإن صلاته، لله وَنُسُكَهُ على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أي: أخلِصْ له صلاتك وذبيحتك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة. وهو كما قال؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له.

الآية (١٦٤): ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكّل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلب ربًّا سواه، وهو رب كل شيء؛ يُرَبِّني ويحفظني ويَكْلَؤُني ويُدَبِّر أمري، أي: لا أتوكَّل إلا عليه، ولا أُنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. فهذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمَّنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم، إنا عاملون على ما نحن عليه، فستُعرضون ونُعرض عليه، ويُنبِّئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا.

الآية (١٦٥): يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلكم تُعَمِّرُون الأرض جِيلًا بعد جيل، وقَرْنًا بعد قرن، وخَلَفًا بعد سَلَف. قاله ابن زيد وغيره. وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاوَت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك. وقوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ترهيب وترغيب؛ أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب. وكثيرًا ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لينجع في كل بحسبه.

آخر تفسير سورة الأنعام والحمد لله والمنة.

تفسير سورة الأعراف

سورة الأعراف مكية، [إلا ثمان آيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾. وعدد آياتها (٢٠٦) آيات].

[فضل السورة]: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرَّقها في ركعتين [رواه النسائي، وصححه الألباني].

الآية (١-٢): قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلَّق بالحروف، واختلاف الناس فيه. ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك من ربك، ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: شَكٌّ منه. وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: أُنزل إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية (٣-٤): ثم قال تعالى مخاطبًا للعالَم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من ربِّ كلّ شيء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزْيَ الدنيا موصولًا بذُلِّ الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨]. وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين وقت غَفْلة ولَهْو؛ كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

الآية (٥-٦): ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالةُ الواضحةُ على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ. ثم روى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما هَلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم» [رواه أحمد وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط]. قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]؛ فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسَل به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته. ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: عما بلّغوا.

الآية (٧): قال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحَقِير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

الآية (٨-٩): يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]. والذي يوضع في الميزان يوم القيامة، قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله يقلبها أجسامًا. وقيل: يوزن كتاب الأعمال، وقيل: يوزن صاحب العمل، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا؛ فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها.

الآية (١٠): يقول تعالى ممتنًا على عبيده من أنه جَعَل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش، أي: مكاسب وأسبابًا يتَّجِرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

الآية (١١): ينبّه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه. وهذا كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٨-٢٩]. وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده من طين لازب، وصوّره بشرًا سويًا، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما قيل ذلك بالجمع؛ لأنه أبو البشر.

الآية (١٢): قال بعض النُّحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: «لا» ههنا زائدة. وقال بعضهم: زِيدَت لتأكيد الجحد. حكاهما ابن جرير وردّهما، واختار أن «منعك» مُضمَّن معنى فعل آخر تقديره: ما أحوجك وألزمك واضطرّك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو هذا. وهذا القول قوي حسن. وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب! كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول! يعني لعنه الله: وأنا خيرٌ منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين! فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢]، فشذّ من بين الملائكة بتَرْك السجود؛ فلهذا أُبْلِسَ من الرحمة، أي: أُويس من الرحمة، فأخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا؛ فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُه في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس [رواه ابن جرير، وصحح إسناده ابن كثير].

الآية (١٣-١٥): يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدَري كوني: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائدًا على المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده. فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النَّظِرَة إلى يوم الدين، فقال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل؛ لِما له في ذلك من الحكمة والمشيئة التي لا تُخالَف ولا تمانَع، ولا مُعَقِّبَ لحكمه وهو سريع الحساب.

الآية (١٦): يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس إلى يوم يبعثون، واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني. لأقعدن لعبادك -الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه- على صراطك المستقيم؛ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، فلأُضِلّنّهُم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية؛ كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم. قال مجاهد: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: الحق.

عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعصاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَلِ؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، [فَقَالَ: هُوَ جَهْدُ] النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعصاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقًا على الله، عز وجل، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (١٧): قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أُشكّكُهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أُرغّبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أُشبّه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أُشهِّي لهم المعاصي. وقال قتادة: أتاهم ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من أمر الدنيا فزيَّنها لهم ودعاهم إليها، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مِن قِبل حسناتهم بَطَّأهم عنها، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: من حيث يبصرون. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طُرق الخير والشر؛ فالخير يصدُّهم عنه، والشر يحسّنه لهم. وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ قال: موحدين. عن ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدَع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمِن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدَيّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي» [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني] قال وكيع: «من تحتي» يعني الخسف.

الآية (١٨): أكد -تعالى- عليه اللعنة والطردَ والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾. قال ابن جرير: أما «المذؤوم» فهو المعيب. «والمدحور»: المُقْصَى. وهو المُبعَد المطرود. وقال ابن عباس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قال: صغيرًا مقيتًا. وقوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:٦٣].

الآية (١٩-٢١): يذكر تعالى أنه أباح لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُسلَبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبًا وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملَكين خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠] وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: لئلا تكونا ملكين كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ فإني من قَبْلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، أي: حلف لهما على ذلك حتى خدعهما.

الآية (٢٢): قال مجاهد: جعلا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، قال: كهيئة الثوب.

الآية (٢٣): قال الضحاك بن مُزَاحِم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

الآية (٢٤): قيل: المراد بالخطاب بـ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ آدم وحواء، وإبليس والحيّة. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ الآية [طه:١٢٣]، وحواء تبع لآدم. والحية - إن كان ذكرها صحيحًا - فهي تبع لإبليس.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار، وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدّر، وسُطّرت في الكتاب الأول.

الآية (٢٥): قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم المَعَادِ، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلًا بعمله.

الآية (٢٦): يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرِّياش؛ فاللباس المذكور ههنا: لستر العورات -وهي السوآت- والرياش والريش: هو ما يُتجَمّل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات. وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. وقال قتادة، وابن جُرَيْج: الإيمان. وقال ابن عباس: العمل الصالح. وعن ابن عباس: هو السمت الحسن في الوجه. وعن عُرْوَة بن الزبير: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتقي الله، فيواري عورته، فذاك لباس التقوى. وكلها متقاربة.

الآية (٢٧): يقول تعالى محذرًا بني آدم من إبليس وقبيله، مبينًا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

الآية (٢٨): كانت العرب -ما عدا قريشًا- لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش -وهم الحُمْس- يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسِي ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يُلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا، طاف عريانًا. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئًا يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كُلُّه *** وما بَدا منه فلا أُحلّهُ

وأكثر ما كان النساء يَطُفْنَ عراة بالليل، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه مِن تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنّ فِعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتُسْنِدون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

الآية (٢٩-٣٠): قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها؛ وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وجاءوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته؛ فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ اختُلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولًا، كذلك يعيدكم آخرًا.

عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وعن مجاهد قال: يبعث المسلم مسلمًا، والكافر كافرًا. وقال ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم: مؤمنًا وكافرًا.

ثم علّل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال ابن جرير: وهذا من أبيَن الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد، وفريق الهدى فرق. وقد فَرَّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

الآية (٣١): هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة؛ عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كُلّه *** وما بَدَا منه فلا أحِلّهُ

[رواه مسلم وابن جرير واللفظ له]

فقال الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾. وقال ابن عباس: الزينة: اللباس، وهو ما يوارى السَّوأة، وما سوى ذلك من جَيّد البزِّ والمتاع، فأُمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وقتادة، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نَزَلَت في طَوَافِ المشركين بالبيت عُراةً. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾.

قال ابن عباس: كل ما شئت، والْبَس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلة [رواه البخاري]. وعن عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، في غير مَخِيلة ولا سرَف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده» [رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقال السُّدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرّمون عليهم الودَكَ ما أقاموا في الموسم؛ فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا في التحريم. وقال ابن أسلم: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ يقول: لا تأكلوا حرامًا؛ ذلك الإسراف. وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدّين حَدَّهُ في حلال أو حرام، الغالين فيما أَحَلَّ، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحلِّل ما أحَلَّ، ويُحرِّم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

الآية (٣٢): يقول تعالى ردًا على من حَرَّم شيئًا من المآكل والمشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإنْ شرَكهم فيها الكفار حبًّا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار؛ فإن الجنة محرّمة على الكافرين.

الآية (٣٣): عن عبد الله[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغْيَرُ من الله؛ فلذلك حَرَّم الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطن، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله» [متفق عليه]. قوله: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قال السُّدِّي: أما الإثم: فالمعصية، والبغي: أن تبغي على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإثم: المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بَغْيُه كائن على نفسه. وحاصل ما فُسِّر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي: هو التعدي إلى الناس، فحرّم الله هذا وهذا. وقوله: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكًا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك، مما لا علم لكم به؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج:٣٠-٣١].

الآية (٣٤): يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: قَرْن وجيل ﴿أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي: ميقاتهم المقدّر لهم ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ أي: عن ذلك ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

الآية (٣٥): ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلًا، يقصون عليهم آياته، ويَبَشِّر وحذِّر، فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

الآية (٣٦): ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أي: كذَّبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

الآية (٣٧): يقول تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اختلف المفسرون في معناه؛ فابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال؛ من عَمِل خيرًا جُزِي به، ومن عمل شرًا جُزِي به. وقال مجاهد: ما وُعدوا به من خير وشر. واختاره ابن جرير. وقال محمد بن كعب القُرَظِي: عمله ورزقه وعمره. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس:٦٩-٧٠]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين بنزعهم عند الموت وقَبْض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟! ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجو نفعهم، ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: أقرُّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

(١) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الآية (٣٨): يقول تعالى مُخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي: من أشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي: مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ كما قال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: أُخراهم دخولًا -وهم الأتباع- لأُولاهم -وهم المُتَبَعُون- لأنهم أشد جُرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فتشكُوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أضعِف عليهم العقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]. وقوله: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلًا بحسبه؛ كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

الآية (٣٩): ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ قال السدّي: فقد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

الآية (٤٠): قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: المراد: لا يُرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. وقيل: المراد: لا تُفتح لأرواحهم أبواب السماء. رُوي عن ابن عباس، ويؤيده ما روى الإمام أحمد: عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تَمُرّ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له، فلا يُفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾.

وقد قال ابن جُرَيج في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: لا تُفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا جمع بين القولين. وقوله: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «يلج الجُمَّل في سمّ الخياط» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرم الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: «حتى يلج الجُمَلُ» يعني: قُلُوس السفن، وهي الحبال الغلاظ.

الآية (٤١): قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ قال محمد بن كعب القُرَظِي: الفُرُش ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ قال: اللُّحُف. وكذا قال الضحاك بن مُزاحِم، والسُّدِّي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية (٤٢): لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. وينبّه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الآية (٤٣): قوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أذن لهم في دخول الجنة؛ فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدَلّ منه بمسكنه كان في الدنيا» [رواه البخاري]. وقال قتادة: قال علي: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ رواه ابن جرير. وروى عبد الرزاق عن علي: فينا والله أهلَ بدر نزلت: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكرًا. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة» [رواه النسائي وحسنه الألباني]. ولهذا لما أُورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوَّأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت عن رسول الله ﷺ: «واعلموا أن أحدَكم لن يُدْخِلَه عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِي الله برحمة منه وفضل» [متفق عليه].

الآية (٤٤): يخبر تعالى بما يخاطب أهلُ الجنة أهلَ النار إذا استقروا في منازلهم؛ وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ «أنْ» ههنا مفسِّرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كما أخبر تعالى في سورة «الصافات» عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات:٥٥-٥٩] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرِّعه بما صار إليه من العذاب والنكال. وكذلك قرَّع رسولُ الله ﷺ قتلى القَلِيب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة -وسمّى رؤوسهم-: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟! فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا» [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعْلَمَ مُعْلِمٌ ونادى مُنَادٍ: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم.

الآية (٤٥): ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل مُعوَجّة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا، فهم شر الناس أعمالًا وأقوالًا.

الآية (٤٦): لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نَبَّه أن بين الجنة والنار حجابًا، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣] وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثم روى بإسناده عن السدّي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف». وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرف، وكل مُرتفع من الأرض عند العرب يُسمى عُرفًا. وعن ابن عباس: الأعراف: تل بين الجنة والنار، حُبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وقال: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيّون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: أنبأكم الله بمكانهم من الطمع.

الآية (٤٧): قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مُزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

الآية (٤٨-٤٩): يقول الله تعالى مخبرًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا -يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار- قال الله لأهل التَّكبُّر والأموال: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

الآية (٥٠): يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يُجابون إلى ذلك. قال السُّدِّي: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: الطعام. وقال ابن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم. وقال ابن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنة وشرابها.

الآية (٥١): ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهواً ولعبًا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أُمروا به من العمل للدار الآخرة. قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: نعاملهم معاملة مَن نَسِيَهُم؛ لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه؛ كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]. وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة؛ كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال ابن عباس: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر. وقال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السُّدِّي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

الآية (٥٢): يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصّل مبين؛ كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]. وقوله: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: على علم منا بما فصلناه به؛ كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦].

الآية (٥٣): قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ أي: ما وُعِدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ. ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس. قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ أي: في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، كما قال ههنا: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها. ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا ينصرونهم، ولا يشفعون فيهم، ولا ينقذونهم مما هم فيه.

الآية (٥٤): يخبر تعالى أنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبّهين مَنفِيٌّ عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. بل الأمر كما قال الأئمة: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر»، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ أي: يُذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا؛ أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا. قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال مُنبِّهًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ أي: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الآية (٥٥): أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأُخراهم، فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ قيل: معناه: تذللًا واستكانة؛ كما قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! ارْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا؛ إن الذي تدعونه سميعٌ قريب» [متفق عليه].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ قال: السر. وقال ابن جُرَيْج: يُكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة. وروي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مِجْلز: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: لا يُسْأَل منازل الأنبياء.

عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وَعُذْ بِهِ من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور» [رواه أحمد وابن ماجه، وأبو داود؛ وحسنه ابن كثير].

الآية (٥٦): قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضرَّه بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرَّ ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا مما عنده من وبيل العقاب، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مُرْصَدةٌ للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وقال: ﴿قَرِيبٞ﴾ ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمَّن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مُضافة إلى الله، وقال مطر الوراق: تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته؛ فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

الآية (٥٧): لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر، نبَّه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرَۢا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشۡرَۢا﴾ كقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ [الروم:٤٦]. وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي: بين يدي المطر؛ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ أي: حملت الرياح سحابًا ثقالًا، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مُدلهمّة. وقوله: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ أي: إلى أرض ميتة، مُجدِبة لا نبات فيها؛ كما قال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة؛ يُنزل الله سبحانه وتعالى ماءً من السماء، فتُمطر الأرض أربعين يومًا، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلًا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

الآية (٥٨): ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا؛ كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال ابن عباس في هذه الآية: هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية قَبِلَت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى؛ إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً. فذلك مَثل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به» [متفق عليه].

الآية (٥٩): لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء -عليهم السلام- الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. قال ابن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح، إلا نبي قُتل. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عُبدت الأصنام أنّ قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوّروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين: «وَدًّا وسُوَاعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسرًا». فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنّة- رسوله نوحًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به.

الآية (٦٠): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حالُ الفجارِ؛ إنما يرون الأبرار في ضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

الآية (٦١-٦٢): ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما أنا ضَالٌّ، ولكن أنا رسولٌ مِن ربِّ كلِّ شيءٍ ومليكِه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول؛ أن يكون بليغًا فصيحًا ناصحًا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عنِّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

الآية (٦٣-٦٤): يقول تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لا تعجبوا من هذا؛ فإن هذا ليس بعجَب أن يُوحِي الله إلى رجل منكم، رحمةً بكم ولُطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: تمادَوْا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه تعالى في موضع آخر.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفينة؛ كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥]. ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبيَّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة؛ أن العاقبة للمتقين والظَّفَر والغَلَب لهم؛ كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجّى نوحًا وأصحابه المؤمنين.

الآية (٦٥): يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا. قال ابن إسحاق: هم ولد عاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

الآية (٦٦-٦٧): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده، كما تعجّب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

الآية (٦٨-٦٩): ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغة والنصح والأمانة. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: لا تعجبوا أنْ بَعَث الله إليكم رسولًا من أنفسكم ليُنذِرَكم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لـمَّا خالفوه وكذبوه، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم؛ كما قال تعالى في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَهُ ومِنَنَهُ عليكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الآية (٧٠-٧٢): يقول تعالى مُخبرًا عن تمرُّدهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]. ولهذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رِجْس. وعن ابن عباس: معناه السخَط والغضب. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: أتحاجُّوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجةً ولا دليلًا؟! ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عَقَّب بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أُخَر من القرآن بأنه أرسل ﴿عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨]. لما تمرَّدوا وعتَوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه إلى الهواء، ثم تنكسه على أمّ رأسه فتثلغُ رأسه حتى تُبِيْنَه من جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]. وقال محمد بن إسحاق: فلما عَتَتْ عادٌ على الله وكَذَّبوا نبيّه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبَّروا، وبَنَوا بكل رِيع آيةً عبثًا بغير نَفع، كَلَّمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١]. ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: بجنون ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٣-٥٦].

عن الحارث البكري قال [في حديث طويل]: أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوَافِدِ عاد، فقال لي [رسول الله ﷺ]: «وما وافدُ عاد؟» -وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه- قلت: إن عادًا قُحطوا فبَعَثُوا وَافِدًا لهم يقال له: قَيْل، فمَرَّ بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان، فلما مضى الشهر خَرَج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأُفَاديه، اللهم اسْقِ عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سُودُ، فَنُودِيَ: منها اخْتَرْ. فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فَنُودِيَ منها: خُذْهَا رمادًا رِمْددًا، لا تُبقي من عاد أحدًا. قال: فما بَلَغَني أنه بُعِث عليهم من الريح إلا قَدْر ما يَجري في خاتمي هذا. حتى هلكوا [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

الآية (٧٣): قال علماء التفسير والنَّسب: ثمود، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مرَّ رسول الله ﷺ على قُراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع. عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» [متفق عليه].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية.

الآية (٧٤-٧٨)[1]: أقامت الناقة وفصيلها -بعد ما وضعته بين أظهرهم- مدةً تشرب من بئرها يومًا، وتدَعُه لهم يومًا، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. فلمَّا طال عليهم ذلك واشتدَّ تكذيبهم لصالح النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَزَمُوا على قتلها؛ ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس:١٤]، وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدلَّ على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح فكانت -يعني الناقة- ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحدًا كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» [رواه أحمد، وفي تحقيق شعيب الأرناؤوط: هو على شرط مسلم].

الآية (٧٩): وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ هذا تقريع من صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمرُّدهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العَمى؛ قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك؛ كما ثبت: أن رسول الله ﷺ لـمَّا ظَهَر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثًا، ثمَّ أَمَر براحلته فشُدَّت بعد ثلاث من آخر الليل، فرَكِبها، ثم سار حتى وَقَف على القَلِيب -قليب بدر- فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وَعَدَني ربي حقًّا». فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكَلِّم من أقوام قد جَيّفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» [متفق عليه]. وهكذا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، والله أعلم.

الآية (٨٠-٨١): ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ تقديره: واذكر لوطًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. ولوط هو ابن أخي إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وكان قد آمن مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل «سَدُوم» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم -وهو إتيان الذكور- وهذا شيء لم يكن بنو آدم تَعْهَدُهُ ولا تَأْلَفُهُ، ولا يَخطُر ببالِهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُوم» عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما نزَا ذَكَرٌ على ذَكَر، حتى كان قوم لوط. وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أنّ الله عز وجل قَصَّ علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا. ولهذا قال لهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: عدلتم عن النساء، وما خَلَق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محلِّه؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]، أي: لقد علمت أنه لا أَرَبَ لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وذكر المفسرون: أن الرجال كانوا قد اغتنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا.

---

(١) لم يفسر ابن كثير رحمه الله الآيات: (٧٤-٧٦) وها هو تفسيرها من السعدي رحمه الله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: من الأراضي السهلة التي ليست بجبال؛ تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي؛ فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟! فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء. ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على الله، معجزين له، غير مبالين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم.

الآية (٨٢): أي: ما أجابوا لوطًا إلا أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهُرِهم، فأخرَجَه الله تعالى سالمًا، وأهلَكَهم في أرضهم صاغرين مُهانين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة: عابُوهم بغير عيب. وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهَّرون من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضًا.

الآية (٨٣-٨٤): يقول تعالى: فأنجينا لوطًا وأهله، ولم يُؤمِن به أحدٌ منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تُؤمِن به، بل كانت على دين قومها، تُمالِئُهم عليه وتُعْلِمُهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لـمَّا أُمِر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسري بأهله أُمِرَ ألَّا يُعلِمَها ولا يُخرِجَها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتّبعتهم، فلما جاء العذابُ التفتَتْ هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أَعلَمَها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مُفسَّر بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر -يا محمد- كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله ويكذّب رسله.

وقد ذَهَب الإمام أبو حنيفة -رَحِمَهُ اللَّهُ- إلى أن اللائِط يُلقَى من شاهق، وَيُتْبَعُ بالحجارة كما فُعِل بقوم لُوط. وذَهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرجَم، سواءً كان مُحصَنًا أو غير مُحصَن، وهو أحد قولي الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ-، والحجة ما رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» [رواه الإمام أحمد، وأصحاب السنن، وحسن إسناده أحمد شاكر]. وقال آخرون: هو كالزاني، فإذا كان مُحصَنًا رُجِم، وإن لم يكن مُحصَنًا جُلِد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي. وأما إتيان النساء في الأدبار، فهو اللُّوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء.

الآية (٨٥): مَدْيَن تُطلَق على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقُرب «مَعَان» من طريق الحجاز؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، وهم أصحاب الْأَيْكَةِ. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وَعَظَهم في معاملتهم الناس بأن يُوفُوا الْمِكيَال والميزان، ولا يَبخَسوا الناس أشياءهم، أي: لا يَخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خُفْية وتدليسًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

الآية (٨٦-٨٧): قال تعالى إخبارًا عن شعيب، الذي يُقَال له: «خطيب الأنبياء»، لفَصَاحة عبارته، وجَزَالة مَوعِظَته: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ الآية.

ينهاهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قطع الطريق الحِسِّي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تَتَوَعَّدُون الناس بالقتل إن لم يُعطوكم أموالهم. قال السُّدي وغيره: كانوا عَشَّارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي: تَتَوَعَّدُون المؤمنين الْآتِينَ إلى شعيب لِيَتَّبِعُوه. والأول أَظهَر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وَتَوَدُّون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلةً، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم مُسْتَضْعَفين لِقِلَّتِكم فَصِرْتُم أعزَّةً لكثرة عَدَدِكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال بِاجْتِرَائِهِم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليّ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

الآية (٨٨-٨٩): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ هذا إخبار من الله تعالى عمَّا واجهَت به الكفار نَبيَّه شعيبًا ومن معه من المؤمنين في توعُّدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلَّتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ يقول: أَوَأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟! فإنَّا إنْ رجَعنا إلى ملَّتِكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أَعْظَمْنا الفِرْية على الله في جَعْل الشركاء معه أندادًا. وهذا تنفير منه عن اتباعهم.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وهذا ردٌّ إلى الـمُسَبِّب؛ فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علمًا. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا؛ ما نأتي منها وما نَذَر.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصِل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين؛ فإنك العادل الذي لا تجور أبدًا.

الآية (٩٠-٩٢): يُخبِر تعالى عن شِدَّة كُفر قوم شعيب وتمرُّدهم وعُتُوِّهم، وما هم فيه من الضلال، وما جُبِلَت عليه قلوبهم من المخالفة للحقِّ، ولهذا أقْسَموا فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فلهذا عَقَّب ذلك بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أخبر تعالى ههنا أنهم أخذتهم الرجفة؛ وذلك لَـمَّا أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعَّدُوهم بالجلاء. كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤]. والمناسبة في ذلك -والله أعلم- أنهم لَـمَّا تهكَّمُوا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] جاءت الصيحة فأسكتتهم. وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة -وهي سحابة أَظَلَّتْهُم فيها شرر من نار ولَـهَب ووَهَج عظيم- ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجَّة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فَزَهَقَت الأرواح، وفاضت النفوس، وخَمَدَت الأجساد ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي: كأنهم لَـمَّا أصابتهم النِّقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال مقابلًا لقِيلِهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الآية (٩٣): أي: فتولَّى عنهم «شعيب» عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مُقرِّعًا لهم ومُوَبِّخًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أدّيتُ إليكم ما أُرْسِلْت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

الآية (٩٤-٩٥): يقول تعالى مُخبِرًا عمَّا اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرَّعوا، فما فعلوا شيئًا من الذي أراد الله منهم، فقَلَب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: حوَّلنا الحال من شدَّة إلى رخاء، ومن مرض وسَقَمٍ إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى؛ ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: كَثُروا وكَثُرَتْ أموالهم وأولادهم؛ يقال: عفا الشيء: إذا كَثُر، ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرَّعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مَسَّنا من البأساء والضَّراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطَّنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السرَّاء، ويصبرون على الضرَّاء؛ كما ثبت في الصحيح: «عجبًا للمؤمن! لا يَقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شَكَر فكان خيرًا له» [رواه مسلم].

فالمؤمن مَن يَتفَطَّنُ لِـمَا ابتلاه الله به من الضرَّاء والسرَّاء.

ولهذا عَقَّب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: على بغتةٍ منهم، وعدم شعور منهم؛ أي: أخذناهم فجأة.

الآية (٩٦-٩٩): يقول تعالى مُخبرًا عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس؛ فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب. وكذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدَّقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات؛ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قَطْر السماء ونبات الأرض. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ولكن كذَّبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم. ثم قال تعالى مخوِّفًا ومحذِّرًا من مخالفة أوامره، والتجرِّي على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: الكافرة، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالُنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شُغْلِهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخْذَهُ إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

الآية (١٠٠): قال ابن عباس في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أَوَلَمْ نُبيّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال ابن جرير: يقول تعالى: أَوَلَمْ نبيِّن للذين يُستَخْلَفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعَتَوا على ربهم، ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعَلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظةً ولا تذكيرًا.

وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]، أي: هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟! وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نِقَمِه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه.

الآية (١٠١-١٠٢): لَـمَّا قَصَّ تعالى على نبيّه ﷺ خبر قوم نوح، وهود وصالح ولوط وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذَر إليهم بأن بيَّن لهم الحق بالحُجَج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي: من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَد عليهم. حكاه ابن عطية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وهو مُتَّجه حَسَنٌ؛ كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جَبَلهم عليه وفَطَرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب: أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقرُّوا بذلك، وشَهِدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعَبَدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفِطَر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أوَّلهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك؛ كما جاء في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُم عن دينهم، وحَرّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم». وفي الصحيحين: «كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه» الحديث. وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

الآية (١٠٣): يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: الرسل المتقدِّم ذكرهم؛ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بحُجَجنا ودلائلنا البيِّنة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو مَلِك مصر في زمن موسى، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: قومه، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: جَحَدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الذين صَدُّوا عن سبيل الله وكذَّبوا رسله؛ أي: انظر -يا محمد- كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأًى من موسى وقومه. وهذا أبلَغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفَى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

الآية (١٠٤): يُخبر تعالى عن مُناظرة موسى لفرعون، وإلجامه إيَّاه بالحُجَّة، وإظهاره الآيات البيِّنات بحضرة فرعون وقومه من قِبْط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أرسلَني الذي هو خالقُ كل شيء وربُّه ومليكه.

الآية (١٠٥-١٠٦): ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيقٌ بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحَرِيٌّ به؛ قالوا: و(الباء) و(على) يتعاقبان. وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألَّا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: «حَقِيقٌ عَلَيَّ» بمعنى: واجب وحقٌّ عَلَيَّ ذلك، ألَّا أُخبر عنه إلا بما هو حقٌّ وصِدق، لِـمَا أعلم من عِزِّ جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحُجَّة قاطعة من الله، أعطانيها دليلًا على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم: إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: قال فرعون: لستُ بمصدِّقك فيما قلتَ، ولا بمطيعك فيما طلبتَ، فإن كانت معك حجة فأَظهِرها لنراها، إن كنت صادقًا فيما ادّعيت.

الآية (١٠٧-١٠٨): قال ابن عباس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحيّة الذَّكَر. وكذا قال السُّدي والضحاك. وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: أخرج يده من دِرعه بعد ما أدخلها فيه، فخَرَجَت بيضاءَ تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٢٢].

الآية (١٠٩-١١٠): أي: قال الملأ -وهم الجمهور والسادة- من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقرَّ على سرير مملكته بعد ذلك، قال الملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وكيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حِيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كَذِبه وافترائه، وتخوَّفوا من مَعَرَّته أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦]، فلمَّا تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتَّفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

الآية (١١١-١١٢): قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾ أَخِّرْه. وقال قتادة: احبِسهُ ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي: ابعث ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: في الأقاليم ومدائن مُلكك ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السِّحْر في زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا، واعتقد من اعتقد منهم، وأُوهِمَ من أُوهِمَ منهم أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبيل ما تُشَعْبِذ به سحرتهم؛ فلهذا جَمَعوا له السحرة ليُعارِضوه بنظير ما أراهم من البيِّنات؛ كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه:٥٧-٦٠].

الآية (١١٣-١١٤): يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسَّحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن غلبوا موسى ليثيبنهم ولَيُعْطِيَنَّهُم عطاءً جزيلًا. فوَعَدَهم ومَنَّاهم أن يُعطِيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقرَّبين عنده، فلمَّا توثَّقوا من فرعون لعنه الله ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾.

الآية (١١٥-١١٦): هذه مبارزة من السحرة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي: قَبْلك؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه:٦٥]. فقال لهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أي: أنتم أوَّلًا. قيل: الحكمة في هذا -والله أعلم- لَيُرِيَ الناس صنيعهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغ من بَهْرَجِهم ومُحَالِهم، جاءهم الحقُّ الواضح الجليُّ بعد التَّطلُّب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقَع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خَيَّلوا إلى الأبصار أنَّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مُجرَّد صَنعة وخَيال؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٦-٦٩].

الآية (١١٧-١٢٠): يُخبِر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الموقف العظيم، الذي فرَّق الله تعالى فيه بين الحقِّ والباطل، يأمره بأن يُلقِي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويُوهِمون أنه حقٌّ، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلَت لا تَـمُرُّ بشيء من حِبَالهم ولا من خُشُبهم إلا التَقَمَتْهُ، فعَرَفَت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخَرُّوا سُجَّدًا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

الآية (١٢١-١٢٢)[1]

الآية (١٢٣-١٢٦): يُخبر تعالى عمَّا تَوعَّد به فرعونُ لعنه الله السحرةَ لَـمَّا آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: إنّ غَلَبَهُ لكم في يومكم هذا إنَّما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك؛ كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١] وهو يعلم وكلُّ من له لُبٌّ أن هذا الذي قاله من أَبطَل الباطل؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمجرَّد ما جاء من «مَدْين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحُجَج القاطعة على صِدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن مُلكه ومعاملة سلطنته، فجَمَع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممَّن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدَهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدُّم عند فرعون، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستُّرًا وتدليسًا على رَعَاع دولته وجَهَلتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]؛ فإن قومًا صَدَّقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] من أجْهَل خلق الله وأضلِّهم!!

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتُخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرّف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسَّر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني: يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] أي: على الجذوع.

وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحقَّقنا أنَّا إليه راجعون، وعذابه أشدّ من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرَنّ اليوم على عذابك لِنَخْلُصَ من عذاب الله؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عُمَّنَا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه:٧٢-٧٥] فكانوا في أول النهار سَحَرة، فصاروا في آخره شُهداء بررَة!

الآية (١٢٧-١٢٩): يُخبِر تعالى عمَّا تمالأ عليه فرعون ومَلَؤُه، وما أضمروه لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أي: أتدَعُهُم ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يفسدوا رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك! يا لله العجب! صار هؤلاء يُشفِقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون؛ ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هنا حالية، أي: أتذَرُهُ وقومَهُ يفسدون وقد تَرَكَ عبادتك؟! وقال آخرون: هي عاطفة، أي: أتَـدَع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه، وعلى تَرْكِه آلـهَتَك. وقرأ بعضهم: «إِلَاهَتَكَ» أي: عبادتك، ورُوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السرِّ.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَرًا من وجوده، فكان خلاف ما رَامَهُ وضدَّ ما قَصَدَه فرعون. وهكذا عُومِل في صنيعه أيضًا لَـمَّا أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: أعزَّهم الله وأذَلَّهُ، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولَـمَّا صَمَّم فرعون على ما ذكره من الْـمسَاءَةِ لبني إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، ووَعَدَهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي: قد جرى علينا مثل ما رأيتَ من الهوان والإذلال من قبل ما جئتَ يا موسى، ومن بعد ذلك. فقال مُنَبِّهًا لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

الآية (١٣٠): يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحَنَّاهُم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهي سِنِي الجوع بسبب قلة الزروع، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

---

(١) ذُكِرَتا في الصفحة السابقة.

الآية (١٣١): ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: مِنَ الخِصْبِ والرزق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جَدْبٌ وقَحْطٌ ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن جريج: عن ابن عباس قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلا من قِبَل الله.

الآية (١٣٢-١٣٥): هذا إخبار من الله عز وجل عن تَمَرُّد قوم فرعون وعتوِّهم، وعنادهم للحقِّ، وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ اختلفوا في معناه؛ فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المُغْرِقَة المُتْلِفَة للزروع والثمار. وبه قال الضحاك بن مُزَاحِم. وعن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم:١٩].

وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لِمَا ثَبَت عن أبي يعفُور قال: سألت عبد الله بن أبي أَوْفَى عن الجراد! فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد [متفق عليه].

وعن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتَان ودَمَان: الحوت والجراد، والكبد والطحال» [رواه أحمد وابن ماجه، وصححه أحمد شاكر وجود إسناده الألباني].

وأما ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدَّبَا -وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له- وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: دواب سود صغار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: البراغيث.

وقال ابن جرير ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: جمع، واحدتها «قُمَّلة»، وهي دابة تشبه القَمْل، تَأْكُلُهَا الإِبِلُ، فيما بلغني.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: «... فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا». وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف.

الآية (١٣٦-١٣٧): يخبر تعالى أنهم لَـمَّا عَتَوَا وَتَمَرَّدُوا -مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة- انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليمِّ، وهو البحر الذي فَرَقَه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم وَرَدَه فرعون وجنوده على أثرهم، فلمَّا استكملوا فيه ارتَطَم عليهم، فغرقوا عن آخرهم؛ وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون -وهم بنو إسرائيل- ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨].

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾: يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قال مجاهد وابن جرير: هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي: وَخَرَّبْنَا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يبنون.

الآية (١٣٨-١٣٩): يخبر تعالى عمَّا قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا: ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لَخْم. قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شُبهةً لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنَزَّه عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَل حُنين، فمرَرْنا بسِدْرَة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنْوَاط، كما للكفار ذات أنواط! وكان الكفار يَنُوطُون سلاحهم بسِدرَة، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سَنَنَ من قبلكم» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١٤٠-١٤١): يُذَكِّرُهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أَسْر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلَّة، وما صاروا إليه من العزَّة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدَّم تفسيرها في البقرة(١).

الآية (١٤٢): يقول تعالى مُمْتَنًّا على بني إسرائيل بما حَصَل لهم من الهداية، بتكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذَكَر تعالى أنه واعدَ موسى ثلاثين ليلةً.

قال المفسرون: فصامها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فلمَّا تمَّ الميقات استَاك بلِحَاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يُكْمِلَ بِعَشْرٍ أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر: عشر ذي الحجة؛ قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج، وروي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كَمَّلَ الميقاتَ يومَ النَّحْر، وحَصَل فيه التكليم لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه أَكمَل الله الدين لمحمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

فلمَّا تمَّ الميقات عَزَم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ الآية [طه:٨٠]، فحينئذٍ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيهٌ وتذكيرٌ، وإلا فهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيٌّ شريف كريم على الله، له وجاهةٌ وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

الآية (١٤٣): يخبر تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لَـمَّا جاء لميقات الله تعالى، وحَصَل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾.

وقد أشكَل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدلَّ به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما [في قوله] تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. وقوله تعالى إخبارًا عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعًا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وقد تقدَّمَ ذلك في الأنعام.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ عن أنس ابن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ قال: قال هكذا؛ يعني أنه أخرج طَرَفَ الخِنْصَرِ [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

وقال ابن عباس: ما تجلَّى منه إلا قدر الخنصر. ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: ترابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مغشيًّا عليه. والمعروف أن «الصَّعْق» هو الغشي ههنا، كما فسَّره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت؛ فهنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، والإفاقة لا تكون إلا عن غشي. ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحد من الدنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قولٌ حسَنٌ له اتِّجاه.

عن أبي سعيد الخدري، [مرفوعًا]: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة، فأكون أوَّل من يُفيق، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقةِ الطور» [متفق عليه]. وقوله ﷺ: «لا تخيِّروني على موسى» قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يُفَضَّل بينهم على وجه الغضبيّة والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهّي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يُصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمرٌ يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلَّى للخلائق الملك الديان؛ كما صعق موسى مِن تجلِّي الرب تبارك وتعالى؛ ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطور».

(١) عند الآيتين: ٤٩، ٥٠.

الآية (١٤٤-١٤٥): يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عَالمي زمانه برسالاته وكلامه، ولا شكَّ أن محمدًا ﷺ سيِّد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصَّه تعالى بأن جَعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام والمناجاة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء، وكانت هذه الألواح مُشتملةً على التوراة التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص:٤٣]. وقيل: الألواح أُعطِيَها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كلِّ تقدير كانت كالتعويض له عمَّا سأل من الرؤية ومُنِعَ مِنْها، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ قال ابن عباس: أُمِرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَأخذَ بأشدِّ ما أَمَر قومه.

وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتَّباب. قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأُريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. نُقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري. وقيل: معناه: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام، وأعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أَولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التِّيه، والله أعلم.

الآية (١٤٦-١٤٧): يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحُجَج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حقٍّ أذلَّهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حَيِيٌّ ولا مُسْتَكْبِر. وقال آخر: من لم يصبر على ذلِّ التَّعلُّم ساعة، بقي في ذلِّ الجهل أبدًا. وقال سفيان بن عُيَينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال: أَنْزِعُ عنهم فَهْمَ القرآن، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدلُّ على أن هذا خطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عُيينة إنما أراد أن هذا مُطَّرد في حقِّ كل أمة، ولا فَرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإنْ ظهَر لهم سبيل الرشد -أي: طريق النجاة- لا يسلكوها، وإنْ ظهَر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلًا.

ثم علَّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كذَّبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: لا يعملون شيئًا ممَّا فيها. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: مَن فعل منهم ذلك، واستمرَّ عليه إلى الممات حَبِط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نُجازيهم بحسب أعمالهم التي أَسلَفُوها، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشرّ، وكما تَدِينُ تُدَان.

الآية (١٤٨-١٤٩): يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري مِن حُلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فَشَكَّلَ لهم منه عِجلًا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فَرَس جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصار عجلًا جسدًا له خُوار، و«الخوار»: صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمَهُ الله تعالى بذلك وهو على الطور؛ حيث يقول تعالى إخبارًا عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٥]. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحمًا ودمًا له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيُصَوِّت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يُنكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السموات والأرض وربِّ كل شيء ومليكه، أَنْ عَبَدوا معه عجلًا جسدًا له خُوَار لا يُكلِّمهم، ولا يُرشِدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: «لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا» بالتاء المُثَنَّاة من فوق، «ربَّنَا» مُنادَى، «وتَغْفِر لنا»، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

الآية (١٥٠-١٥١): يخبر تعالى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أَسِف. قال أبو الدرداء «الْأَسَفُ»: أشدُّ الغضب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبتُ وتركتُكم.

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدّر من الله تعالى؟ وقوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ في هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالـمُعَايَنَة» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. ثم ظاهر السياق أنه إنَّما ألقى الألواح غَضَبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سَلَفًا وخَلفًا.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ خوفًا أن يكون قد قَصَّر في نهيهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٢-٩٤]، وقال ههنا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تَسُقْني مَساقَهم، ولا تجعلني معهم. وإنما قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ لتكون أرقَّ وَأَنْجَعَ عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلمَّا تحقَّق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ براءة ساحة هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه:٩٠]، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وروى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَيْسَ الْـمُعَايِنُ كَالْـمُخْبَرِ؛ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عز وجل أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ» [أخرجه أحمد، والحاكم وصححه الألباني].

الآية (١٥٢-١٥٣): أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو: أن الله تعالى لم يَقبل لهم توبة حتى قَتَل بعضهم بعضًا؛ كما تَقدَّم في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤].

﴿وَذِلَّةٌ﴾ فأعقبهم ذلك ذُلًّا وصغارًا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة؛ فإنّ ذُلَّ البدعة ومخالفة الرشاد مُتَّصِلَةٌ من قَلْبِهِ على كتفيه؛ كما قال الحسن البصري: إنّ ذلَّ البدعة على أكتافهم، وإن هَمْلَجَت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السَّخْتِيَاني، عن أبي قِلابة الجَرْمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مُفتَرٍ إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

ثم نبَّه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان مِن كُفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عَقَّبَ هذه القصة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الْفِعْلَة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يَتَزَوَّجُها! فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم يَنْهَهُمْ عنها [قال محقق عمدة التفسير: إسناده صحيح].

الآية (١٥٤): يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: التي كان ألقاها من شِدَّة الغضب على عبادتهم العجل غيرةً لله وغضبًا له، ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فقد أخبر تعالى أنه لـمَّا أَخَذَها بعد ما ألقاها وَجَدَ فيها هدى ورحمةً ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضَمَّنَ الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدَّاها باللام.

الآية (١٥٥): قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمرَه أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فاختار سبعين رجلًا فبَرَز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دَعَوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تُعْطِهِ أحدًا قبلنا ولا تُعْطِهِ أحدًا بعدنا! فَكَرِهَ الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرَّجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ الآية. وقال السُّدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلمَّا أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرةً؛ فإنك قد كلمْتَه، فَأَرِنَاهُ. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي، ويدعو الله ويقول: ربّ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارَهم، ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيْج: إنما أخذَتْهم الرجفة لأنهم لم يُزايِلُوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نَهَوْهُم، ويَتَوَجَّهُ هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك وامتحانك واختبارك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إِنْ الأمرُ إلَّا أمرُك، وإنْ الحكمُ إلَّا لك، فما شئت كان، تُضِلُّ من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيت، ولا مُعطِي لِـمَا مَنَعت، ولا مانع لِـمَا أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ الغَفْر هو: السِّتر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قُرِنَت مع الغَفْر، يُراد بها ألَّا يُوقِعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت.

الآية (١٥٦): ها ذاك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أَوجِبْ لنا، وأَثبِت لنا فيهما حسنة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنَا ورجَعنا وأَنَبْنَا إليك. قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير ومجاهد وغير واحد. وهو كذلك لُغَةً.

يقول تعالى -مُجيبًا لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية [الأعراف:١٥٥]-: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلا هو. وقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم؛ كقوله تعالى إخبارًا عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وعن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن لله عز وجل مائةَ رحمةٍ، فمنها رحمة يتراحمُ بها الخلق، وبها تَعْطِفُ الوحوش على أولادها، وأَخَّرَ تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة» [متفق عليه].

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى آخرها، يعني: فسأُوجِبُ حُصُول رحمتي مِنَّةً مني وإحسانًا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأجعلها للمُتَّصِفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ؛ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك والعظائم من الذنوب، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويُحتَمَل أن تكون عامةً لهما؛ فإن الآية مكيَّة، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصَدِّقُون.

الآية (١٥٧): ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وهذه صفةُ محمد ﷺ في كتب الأنبياء؛ بشَّرُوا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم؛ عن عبد الله بن عمرو قال: إنه ﷺ لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا يَجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا» [رواه البخاري].

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هذه صفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شرٍّ. ومن أهم ذلك وأعظمه: ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: يُحِلُّ لهم ما كانوا حَرَّموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحامى ونحو ذلك، ممَّا كانوا ضَيَّقوا به على أنفسهم، ويُحرِّم عليهم الخبائث. قال ابن عباس: كلَحْم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرَّمها الله تعالى.

قال بعض العلماء: كل ما أحلَّ الله تعالى فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرَّمه فهو خبيث ضارٌّ في البدن والدين.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة؛ كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُعِثتُ بالحنيفية السمحة» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيقٌ عليهم، فوسَّع الله على هذه الأمة أمورها، وسهَّلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل» [متفق عليه]. وقال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عَظَّمُوه ووَقَّرُوه، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مُبَلِّغًا إلى الناس، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

الآية (١٥٨): يقول تعالى لنبيِّه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تُحصَر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورةً: أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلِّهم؛ عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى في قوله ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربُّه ومليكُه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَخْبَرَهُمْ أنه رسول الله إليهم، ثم أَمَرَهم باتِّباعه والإيمان به، ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أي: الذي وُعِدْتُم به وبُشِّرْتُم به في الكتب المتقدِّمة؛ فإنه منعوت بذلك في كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يُصَدِّقُ قولُه عملَه، وهو يؤمن بما أُنزل إليه مِن ربِّه، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أَثَرَه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصراط المستقيم.

الآية (١٥٩): يقول تعالى مُخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتَّبعون الحق ويعدلون به؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٩].

الآية (١٦٠-١٦٢): تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة [(١)].

(١) آيات سورة البقرة التي أحال عليها ابن كثير هي الآيات من (٥٧) إلى (٦٠) وتقريبًا للفائدة نذكر مختصر تفسيره لها:

الآية (٥٧): لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكّرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سُمّي بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظُلِّلوا به في التِّيه ليقيهم حرَّ الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ قال ابن عباس: كان المنّ ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا. وقال الربيع بن أنس: المنّ شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وعبارات المفسرين متقاربة في شرح المَنِّ، فمنهم من فسَّره بالطعام، ومنهم من فسَّره بالشراب. والظاهر -والله أعلم- أنه كل ما امتنَّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كدٌّ، فالمنُّ المشهور إنْ أُكِلَ وحده كان طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِجَ مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن رُكِّب مع غيره صار نوعًا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك ما رواه سعيد بن زيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «الكَمْأة من المَنّ، وماؤها شفاء للعين». [رواه البخاري]. ﴿وَالسَّلْوَى﴾ قال ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَانى، كانوا يأكلون منه. ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمْر إباحةٍ وإرشاد وامتنان. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ:١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنُّتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، لم يسألوا خَرْقَ عادةٍ، ولا إيجادَ أمر، مع أن ذلك كان سهلًا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم. ولما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

الآية (٥٨-٥٩): يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة -التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل- وقتال من فيها من العمالق الكفَرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، والصحيح أن هذه البلدة هي بيت المقدس وقد قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

قوله: ﴿سُجَّدًا﴾ أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. وروى ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: رُكَّعًا من باب صغير. وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال ابن عباس: مغفرة، استغفروا. وقال الحسن وقتادة: أي احطُطْ عنا خطايانا. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر: أنهم أُمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها. والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدَّلوا، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبة في شعرة» [رواه البخاري]. وعن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا مُقْنِعِي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أُمروا. والحاصل أنهم بدَّلوا =

الآية (١٦٣): هذا السياق هو بَسْطٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]. يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذِّرْ هؤلاء من كِتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم؛ لئلا يَحلَّ بهم ما حَلَّ بإخوانهم وسلفهم.

وهذه القرية هي «أَيْلَة»[(٢)]، وهي على شاطئ بحر القُلْزُم[(٣)]. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يُقال لها: «أَيْلَة» بين مَدْيَن والطور. وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة. وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها «أَيْلَة». وقيل: هي مَدْيَن، وهو رواية عن ابن عباس.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوَصَاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال ابن عباس: أي ظاهرة على الماء. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المُحَرَّم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام. وقد روى الإمام أبو عبد الله ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتَسْتَحِلُّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَل» وهذا إسناد جيد، ويُصحِّح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا [رواه ابن بطة في إبطال الحيل، وحسَّنه الألباني].

= أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على استاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولو: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرّجْز يعني به العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

الآية (٦٠): يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَر يُحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينًا، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبَعْتُه لكم بلا سعي منكم ولا كَدّ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسلَبُوها.

وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية؛ فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة -وهي البقرة- فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهًا إليهم.

(٢) مدينة على ساحل بحر القلزم، وهي آخر الحجاز وأول الشام [معجم البلدان: ١/ ٢٩٢].

(٣) يسمى حاليًا البحر الأحمر، وقُلْزُم: بلدة على ساحل البحر قرب أيلة والطور ومدين، وإليها ينسب هذا البحر [معجم البلدان: ٤/ ٣٨٧].

الآية (١٦٤-١٦٦): يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فِرَق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نَهَت عن ذلك، وأَنكَرَت واعتَزَلَتهم. وفرقة سَكَتَت فلم تفعل ولم تنهَ، ولكنها قالت للمُنْكِرَة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكِرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نفعل ذلك معذرةً إلى ربكم؛ أي: فيما أَخَذَ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتَّقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: فلمَّا أبى الفاعلون المُنْكَرَ قبولَ النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ فنصَّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسَكَت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ فهم لا يستحقون مدحًا فيُمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيُذَمُّوا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و﴿بَـِٔيسٍۭ﴾ معناه في قول مجاهد: «الشديد»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادة: مُوجِع. والكل مُتقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي: ذليلين مُهانين.

الآية (١٦٧): ﴿تَأَذَّنَ﴾ تَفَعَّل من الإذْن، أي: أعْلَمَ، قاله مجاهد. وقال غيره: أَمَرَ. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسَم من هذه اللفظة، ولهذا أُتبِعَت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامرَ الله وشرعَه واحتيالهم على المحارم. ويُقال إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ عليهم الخَرَاجَ، سبع سنين. وقيل ثلاث عشرة سنةً. وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين[1]، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدُّون الخراج والجزية. وقال ابن عباس: هي الجزية، والذين يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير وابن جُرَيْج وقتادة. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

الآية (١٦٨-١٧٠): يذكر تعالى أنه فرَّقهم في الأرض أُممًا؛ أي: طوائف وفِرَقًا؛ كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠]. ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٤]. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجنُّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١].

﴿وَبَلَوْنَـٰهُم﴾ أي: اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ يقول تعالى: فخَلَفَ من بعد ذلك الجيل -الذين فيهم الصالح والطالح- خَلْفٌ آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعَمَّ من ذلك.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: يَعْتاضُون عن بَذْل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسوِّغون أنفسهم ويَعِدُونها بالتوبة، وكلَّما لاح لهم مِثْلُ الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإنْ عَرَضَ ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد: لا يُشْرِفُ لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالًا كان أو حرامًا، ويتمَنَّون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن يجدوا عَرَضًا مثله يأخذوه. وقال قتادة في: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي والله، لَخَلْفُ سوءٍ، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم؛ وَرَّثهم الله وعَهِد إليهم. وقال الله في آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]. قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تمنَّوا على الله أماني، وغِرَّةٌ يغترُّون بها، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ لهم شيء من الدنيا أكلوه، ولا يُبالون حلالًا كان أو حرامًا.

قال الله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى مُنكرًا عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق لَيُبَيِّنُنَّ الحق للناس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغِّبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويُحَذِّرهم مِن وَبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خيرٌ لمن اتقى المحارم، وتَرَك هوى نفسه، وأَقبَل على طاعة ربه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفَليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عمَّا عندي عَقْلٌ يردعهم عمَّا هم فيه من السَّفَه والتبذير؟! ثم أثنى تعالى على مَن تمسَّك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ؛ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

---

(١) الكشدانيون: طائفة من عبدة الكواكب. [تاج العروس: ٩/ ١١٠]، والكلدانيون: الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول؛ وهم السريانيون الذين تسميهم العرب: النبط. [ينظر معجم البلدان، وخطط الشام].

الآية (١٧١): قال ابن عباس: قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء:١٥٤].

الآية (١٧٢-١٧٤): يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فَطَرَهم على ذلك وجَبَلَهم عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يُولَد على الفطرة -وفي رواية: على هذه المِلَّة- فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرَانه، ويُمَجِّسَانه، كما تُولَد البهيمة بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاء» [متفق عليه] وعن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُم عن دينهم وحَرَّمَت عليهم ما أحلَلْتُ لهم» [رواه مسلم]. وقد وَرَدت أحاديث في أَخذ الذرية من صلب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكُنتَ مُفتديًا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهوَن من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألَّا تشرك بي شيئًا، فأبيتَ إلا أن تشرك بي» [متفق عليه].

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث ابن عباس وعبد الله بن عمرو، [وهما] موقوفان لا مرفوعان.

وقال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد، وقد فَسَّرَ الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «من ظهره». ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[1] أي: جعل نسلهم جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥].

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالًا وقالًا. والشهادة تارةً تكون بالقول كما قال: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الآية [الأنعام:١٣٠]، وتارةً تكون حالًا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]؛ أي: حالهم شاهدٌ عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.

﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

الآية (١٧٥-١٧٧): [سبب النزول]: المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة: أنها في رجل من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمرَه امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ممَّا أتخوف عليكم [رجُلاً] قرأ القرآن، حتى إذا رُؤِيَتْ بهجته عليه وكان رِدْء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونَبَذَه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبي الله، أيُّهما أولى بالشرك: الـمَرْمِيُّ أو الرَّامِي؟ قال: «بل الرَّامِي» [رواه البخاري في التاريخ الكبير وأبو يعلى، وحسّنه الألباني].

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنُّس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرّته كما غرَّت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ قيل: معناه: فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لَـهيثه في حالتيه: إن حَمَلْت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه. وقيل: معناه: إن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوَجِيب، فعبَّر عن هذا بهذا، نُقِل نحوه عن الحسن البصري وغيره.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن الله قد أعطاهم عِلمًا، وميَّزهم على مَن عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحقُّ الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأَمَرَتهم به؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتَمه فلم يُعلِم به العباد، أحلَّ الله به ذلًّا في الدنيا موصولًا بذلِّ الآخرة. وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: يقول تعالى: ساء مثلًا مثلُ القوم الذين كذَّبوا بآياتنا، أي: ساء مثلهم أن شُبِّهُوا بالكلاب التي لا هِمَّةَ لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خَرَج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهًا بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثَبَت أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثَلُ السَّوء، العائد في هِبَته كالكلب، يعود في قيئه» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

الآية (١٧٨): يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مُضِلَّ له، ومن أضَلَّه فقد خاب وخسر وضَلَّ لا محالة؛ فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) اختار ابن كثير القراءة بصيغة الجمع؛ وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر. وقراءة حفص: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على الإفراد. [ينظر جامع البيان في القراءات السبع... ص ٥٢٥].

الآية (١٧٩): يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا وجعلنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: هَيَّأْنَاهُم لها، وبعمل أهلها يعملون؛ فإنه تعالى لَـمَّا أراد أن يخلق الخلق، عَلِمَ ما هم عاملون قبل كونهم؛ عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» [رواه مسلم]. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحقَّ ولا يَعُوْنَه ولا يُبصِرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُقيتُها من ظاهر الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأنها تَفْقَهُ ما خُلِقت له إمَّا بطبعها وإمَّا بتسخيرها، بخلاف الكافر؛ فإنه إنما خُلِق ليعبد الله ويُوَحِّده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر ـ كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كَفَر به من البشر، كانت الدواب أتـمَّ منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

الآية (١٨٠): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دَخَل الجنة» [متفق عليه]، «وهو وِتْرٌ يحب الوِتْرَ» [رواه مسلم]. ثم لِيُعْلَم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين، بدليل ما روي عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدًا قَطُّ همٌّ ولا حَزَن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميَّت به نفسك، أو علَّمْتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حَزَني، وذهاب هَمِّي، إلا أذهب الله هَمَّه وحَزَنه، وأبدله مكانه فرحًا» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دَعَوُا اللَّات في أسماء الله. وقال مجاهد: اشتقُّوا اللَّات من الله، واشتقوا العُزَّى من العزيز. وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون في أسمائه. وعن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العُدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللَّحْد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سَمْت الحفر.

الآية (١٨١): يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: وبعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق قولًا وعملًا، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون. وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية.

الآية (١٨٢-١٨٣): يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغترُّوا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أُطَوِّلُ لهم ما هم فيه، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

الآية (١٨٤): ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمدًا صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًّا دعا إلى حقٍّ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له لُبٌّ وقلبٌ يعقل به ويَعِي به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

الآية (١٨٥): أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في مُلك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبَّروا ذلك ويعتبروا به، فيؤمنوا به، ويصدِّقوا رسوله، ويُنيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟! يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب -بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه- يُصَدِّقُون، إن لم يُصدِّقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟!

الآية (١٨٦): يقول تعالى: مَن كُتِب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الآية (١٨٧): يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، قيل: نَزَلَت في قريش. وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبَه؛ لأن الآية مكية، فكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها. وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال ابن عباس: «منتهاها» أي: متى مَحَطُّهَا؟ وأيَّان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾: أَمَرَ تعالى نبيه ﷺ إذا سُئِل عن وقت الساعة أن يَرُدَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يُجَلِّيها لوقتها، أي: يعلم جَلِيَّةَ أَمْرِهَا، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال قتادة: ثَقُلَ علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون، يقول: كَبُرَت عليهم. وعن ابن عباس قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. واختار ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أن المراد: ثَقُلَ عِلْم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قالاه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، ولا ينفي ذلك ثِقَل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السُّدي: يقول: خفيَت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملَكٌ مُقَرَّب، ولا نبي مرسل. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قال: يبغتهم قيامها؛ تأتيهم على غفلة. وقوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال ابن عباس: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. وقال: كأنهم يرون أن محمدًا حَفِيٌّ بهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: كأنك عالم بها. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (١٨٨): أَمَره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه؛ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملًا صالحًا. وقال مثله ابن جُرَيْج. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دِيمَةً [متفق عليه]. وفي رواية: كان إذا عَمِل عملًا أَثْبَتَه [رواه مسلم]. فجميع عمله كان على منوال واحد؛ كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يُرشِدَ غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من المال. وفي رواية: لعلمتُ إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئًا إلا ربحت فيه وما مسني السوء، ولا يصيبني الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة الْمُجْدِبَة من المُخْصِبَة، ولوقت الغَلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتَّقَيته. ثم أخبر أنه إنما هو ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات.

الآية (١٨٩-١٩٠): يُنَبِّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا﴾ [الحجرات:١٣].

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فلا أُلْفَة بين روحين أعظم مما بين الزوجين. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وَطِئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾؛ وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألمًا، إنما هي النُّطفة، ثم العَلَقة، ثم المُضغة. وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وقال أيوب: سألتُ الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال: لو كنتَ رجلًا عربيًا لعرفتَ ما هي. إنما هي: فاستمرَّت به. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقَعَدَت.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السُّدي: كَبُر الولد في بطنها. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا.

روى ابن جرير عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. وقال الحسن: عَنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده؛ يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.

وكان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى؛ رَزَقهم الله أولادًا، فهوَّدوا ونَصَّروا. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن -رَحِمَهُ اللَّهُ- أنه فسَّر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حُمِلَت عليه الآية، فليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لِمَا بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، ومعلوم أن المصابيح -وهي النجوم التي زُيِّنَتْ بها السماء- ليست هي التي يُرْمَى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

الآية (١٩١-١٩٥): هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضرُّ ولا تنفع، ولا تُبصِر، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تُبصر، وعابِدُوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣-٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئًا من حَقير المطاعم وطارت، لَمَا استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يُعبَد ليَرزُق ويُسْتَنْصَر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء؛ كما كان الخليل يكسِّر أصنام قومه ويُهينُها غاية الإهانة؛ كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ يعني: هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواءٌ لديها من دَعَاهَا ومن دَحَاهَا؛ كما قال إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها؛ أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسيّ أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: استنصروا بها عليَّ، فلا تُؤَخِّروني طرفة عين، وَاجْهَدُوا جُهدَكم!

الآية (١٩٦-١٩٨): أي: الله حسبي وكافيني، وهو نصيري، وعليه مُتَّكِلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كقول الخليل: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٨].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لِمَا تقدَّم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغَيْبَة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فعبَّر عنها بضمير من يعقل. وقال السُّدي: المراد بهذا المشركون، والأول أولى، وهو اختيار الطبري.

الآية (١٩٩-٢٠٠): ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال ابن عباس: يعني: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فَخُذْه. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات. قاله السُّدي. وعن ابن عباس: أَنْفِق الفضل. وقال ابن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وعن مجاهد: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسس. وقال عُرْوة: أَمَر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وعن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس [رواه البخاري] وهذا أشهر الأقوال. وقال البخاري: «العُرف»: المعروف. وقال ابن جرير: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمرًا لنبيه ﷺ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال مَن ظلمَهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ يُرشِد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجانِّ؛ فإنه لا يكفيه منك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية؛ فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير: وإما يُغْضِبَنَّك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل، ويحملك على مجازاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: فاستجِرْ بالله مِن نزْغِه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ﴿سَمِيعٌ﴾ لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به مِن نزْغِه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه. وأصل «النزغ»: الفساد، إما بالغضب أو غيره؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣]. و«العياذ»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر.

الآية (٢٠١-٢٠٢): يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمَر، وتركوا ما عنه زجَر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي: أصابهم ﴿طَٰٓئِفٌ﴾: منهم من فَسَّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسَّره بمسّ الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسَّره بالهمِّ بالذنب، ومنهم من فسَّره بإصابة الذنب. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي: عقابَ الله وجزيلَ ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا ممّا كانوا فيه.

وقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم. ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: تساعدهم الشياطين على المعاصي، وتُسهِّلها عليهم، وتُحَسِّنُها لهم. قال ابن كثير: المدّ: الزيادة؛ يعني: يزيدونهم في الغَيّ، يعني: الجهل والسَّفَه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه إن الشياطين تمدُّ الإنس لا تُقْصِرُ في أعمالهم بذلك. كما قال ابن عباس: لا الإنس يُقْصِرُون عمَّا يعملون، ولا الشياطين تُمْسِكُ عنهم.

الآية (٢٠٣): قال ابن عباس في قوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أَحدَثْتَها فأنشأْتَها. وقال مجاهد: لولا اقتضيْتَها، قالوا: تُخرجها من نفسك واختاره ابن جرير. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، يقولون للرسول ﷺ: ألا تُجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟! قال تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أي: أنا لا أَتقدَّم إليه تعالى في شيء، وإنما أَتَّبِع ما أمرني به، فأمتثل ما يوحيه إليَّ، فإن بَعَث آية قَبِلْتُها، وإن مَنَعَها لم أَسْأَلْه ابتداءً إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبيَن الدلالات، وأصدق الحجج والبينات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٢٠٤): لَـمَّا ذَكَر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدًى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦]، ولكن يتأكَّد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جَهَر الإمام بالقراءة كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي موسى: «وإذا قرأ فأنصتوا». وعن مجاهد قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة.

الآية (٢٠٥-٢٠٦): يأمر تعالى بذِكره أول النهار وآخره كثيرًا، كما أَمَر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال ههنا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ وهو أوائل النهار، ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ جمع أصيل. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبةً ورهبةً، وبالقول لا جهرًا؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. وهكذا يُستَحَبُّ ألَّا يكون الذكر نداءً وجهرًا بليغًا. وقد يكون المراد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠] يتَّخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ والمراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال؛ لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية، وإنما ذَكَرهم بهذا ليُقتدَى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم.

تفسير سورة الأنفال

مدنية، [وعدد آياتها (٧٥) آيةً].

الآية (١): قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم. وكذا قال مجاهد وعكرمة وغير واحد. وعن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. وإسناده صحيح إلى ابن عباس أنه فسَّر النَّفَل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وعن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذَّ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال؛ من: دابة أو عبد أو أمَة أو متاع، فهو نَفَلٌ للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أُخذ من الكفار من غير قتال. قال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القَسْم. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تَظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في قَسْمِه بينكم على ما أراده الله؛ فإنه يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم.

الآية (٢): قال ابن عباس: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول: زادتهم تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فَرَقَتْ، أي: فزعت وخافت. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:٢٤]. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة؛ كالشافعي وأحمد وأبي عبيد. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

الآية (٣-٤): قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينبه بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو: إقامة الصلاة -وهو حق الله تعالى- وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حَيَّان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ؛ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب؛ قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفِقوا مما أعطاكم الله؛ فإنما هذه الأموال عَوَارِي وودائع عندك يا ابن آدم، أوْشَكْتَ أن تفارقها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتّصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضّل عليه أحد.

الآية (٥-٦): قال الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله، وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [سبب النزول]: عن ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال -وذلك يوم بدر- أمر الناس أن يتهيَّأوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ الآيتان. قال مجاهد: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾: في القتال. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين، ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مُبتدَأة لأهل الكفر. قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين. وهذا الذي نصَره ابن جرير هو الحق.

الآية (٧-٨): ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منَعة ولا قتال، تكون لهم؛ وهي العِير. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليُظَفِّركم بهم، ويُظهركم عليهم، ويُظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبًا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحُسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

الآية (٩-١٠): [سبب النزول]: عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فَرَدَّاه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [رواه مسلم]. ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: يُرْدِفُ بعضَهم بعضًا؛ كما قال ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين. وعن ابن عباس قال: وراء كل مَلَك ملك. وفي رواية قال: بعضهم على إثر بعض. والمشهور عن ابن عباس قال: وأمَدَّ الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة. قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه.

الآية (١١): يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم؛ أمانًا أَمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أُحُد؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلّون مُجْنِبين مُحْدِثين، حتى تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الرِّكاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثبَّت به الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رَمْلَةٌ، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبتت عليها الأقدام. ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: مِن حدَثٍ أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيء، وهو تطهير الباطن. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر.

الآية (١٢): ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذه نعمة خفيَّة أظهرها الله تعالى لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبّتوا الذين آمنوا. قال ابن إسحاق: وآزروهم. وقال غيره: قاتِلوا معهم. وقيل: كثّروا سوادهم. ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: ثبّتوا أنتم المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سأُلقي الرعب والذلة والصَّغار على من خالف أمري وكذَّب رسولي.

قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلِّقوها، واحتزُّوا الرِّقاب فقطِّعوها، وقطِّعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

الآية (١٣-١٤): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شقٍّ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شقٍّ، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه؛ لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا خطاب للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

الآية (١٥-١٦): يقول تعالى متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تَفِرُّوا وتتركوا أصحابكم. ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: يفرُّ بين يدي قِرْنِهِ مكيدةً؛ ليُريه أنه خاف منه فيتبعه، ثم يَكرُّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير والسدّي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غِرَّةً من العدو فيصيبها. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: فرّ من ههنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سريّة ففرّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مصيره ومُنقلبه يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرامًا على الصحابة. وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة. قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدرٍ النارَ قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فلما كان يوم أُحُد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥]، ثم كان يوم حُنَيْن بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة:٢٧].

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حرامًا على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم.

الآية (١٧-١٨): يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صَدَرَ عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بحولكم وقوّتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم؛ أي: بل هو الذي أظفَركم عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣]، يُعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللَّأْمَة والعُدَد، وإنما النصر من عند الله تعالى؛ كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]. ثم قال لنبيه ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التراب التي حصَب بها وجوه المشركين يوم بدر، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شَغله عن حاله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: هو الذي بلَّغ ذلك إليهم، وكبَتَهُم بها لا أنت.

[سبب النزول]: عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي، قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ليُعَرّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغَلَب. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغِّرًا أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار.

الآية (١٩): يقول تعالى للكفار ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم. [سبب النزول]: عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نَعرِف، فأحِنْهُ الغَداة، فكان المستفتِحَ. [رواه أحمد، وصححه شعيب الأرناؤوط]. وقال السُّدّي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بَدْر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجُندَين، وأكرمَ الفئتين، وخيرَ القبيلتين، فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ معناه: وإن عُدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نَعُدْ لكم بمثل هذه الواقعة.

قوله: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا؛ فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجَنَاب المصطفوي.

الآية (٢٠-٢١): يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتَّشبُّهِ بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يُظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

الآية (٢٢): ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلْق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شرُّ البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مُطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبَّههم بالأنعام في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَر من بني عبد الدار من قريش؛ رُوي عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كُلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

الآية (٢٣): ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهمَ لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فُرض أن لهم فَهْمًا، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفْهَمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يُفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمَهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

الآية (٢٤): عن أبي سعيد بن المُعلَّى قال: كنت أصلي، فمرّ بي رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آتِهِ حتى صليت، ثم أتيتُه فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [رواه البخاري]. قال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: الحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن: فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السُّدّي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر. وعن عُرْوَةَ بن الزبير: للحرب التي أعزَّكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوَّاكم بها بعد الضعف، ومَنَعَكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. وقال السُّدّي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (٢٥): يُحذّر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختبارًا ومحنة، يعمُّ بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يَعُمُّها؛ حيث لم تُدفع وتُرفع. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يُقرّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمُّهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جدًا. والقول بأن هذا التحذير يعمُّ الصحابة وغيرهم -وإن كان الخِطاب معهم- هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن.

عن حذيفة بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم» [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

الآية (٢٦): ينبّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم؛ حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مُقامهم بمكة قليلين مُستَخْفِين مُضطهَدين، يخافون أن يتخطَّفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم؛ لِقلَّتِهم وعدم قوّتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها؛ آوَوا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. قال قتادة: كان هذا الحيّ من العرب أذل الناس ذُلًّا، وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بُطُونًا، وأعراه جلودًا، وأبْيَنَهُ ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منزلًا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكَّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه؛ فإن ربكم مُنْعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

الآية (٢٧-٢٨): [سبب النزول]: قال الزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك -وأشار بيده إلى حلقه- أي: إنه الذبح. والصحيح أن الآية عامة، وإنْ صحّ أنها وردت على سبب خاص؛ فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعمّ الذنوب الصِّغار والكبار، اللازمة والمتعدية. قال ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: الأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد -يعني الفريضة- يقول: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾: لا تنقضُوها. وقال في رواية: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: بترك سُنّته وارتكاب معصيته. قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن:١٥]. قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد؛ فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

الآية (٢٩): قال ابن عباس: ﴿فُرۡقَانٗا﴾: مخرجًا. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة. وفي رواية عن ابن عباس: نجاة. وفي رواية عنه: نصرًا. وقال ابن إسحاق: ﴿فُرۡقَانٗا﴾ أي: فصلًا بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعمّ مما تقدم، وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وُفِّقَ لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه -وهو محوها- وغَفْرها: سترها عن الناس وسببًا لنيل ثواب الله الجزيل؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨].

الآية (٣٠): قال ابن عباس ومجاهد: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ ليقيدوك. وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك. وقال السُّدّي: «الإثبات» هو الحبس والوَثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. ثم إن اجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يَبِتْ رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾. وعن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي: فمكرتُ بهم بكيدي المتين، حتى خلَّصتك منهم.

الآية (٣١-٣٣): يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوّهم وتمرّدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تُحُدُّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا. قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمع أسطورة، أي: كُتبهم اقتبسَها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت. قوله: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم، وعنادهم وعُتوّهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأَولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له ووفّقنا لاتباعه». ولكن استفتَحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، وكذلك قال الجهَلة من الأمم السالفة؛ كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]. عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [متفق عليه].

قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانَيْن لا يزالون معصومين مُجارِين من قوارع العذاب ما دامَا بين أَظهُرِهم: فأمانٌ قَبَضه الله إليه، وأمانٌ بقي فيكم: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾.

الآية (٣٤): يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأنْ يعذبهم، ولكن لم يُوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتِلَ صناديدُهم وأُسِرَتْ سَراتهم. وأرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عُذِّبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يُرَدّ، ولكن دُفع عنهم بسبب أولئك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقولتوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر.

وعن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. ثم استثنى أهل الشرك فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام؛ أي: الذي بمكة؛ يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله: النبي ﷺ وأصحابه. وقال مجاهد: هم المجاهدون مَن كانوا، وحيث كانوا.

الآية (٣٥): ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو الصفير. وزاد مجاهد: وكانوا يُدخلون أصابعهم في أفواههم. وعن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت عُرَاة تُصَفِّرُ وتصفق. والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخْلِطُوا بذلك على النبي ﷺ صلاته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك: هو ما أصابهم يوم بَدْر من القتل والسَّبْي. واختاره ابن جرير، ولم يَحْكِ غيره.

الآية (٣٦-٣٧): [سبب النزول]: رُوي عن مجاهد وقتادة والسُّدِّي وغيرهم: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُد لقتال رسول الله ﷺ. وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. وعلى كل تقدير، فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًا؛ فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجْدِ شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله مُتمٌّ نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، [ومُعْلِي][1] كلمتِه، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتل منهم أو مات فإلى الخِزْي الأبدي والعذاب السَّرْمَدِي؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾. قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال ابن عباس: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء. وقال السُّدي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]. ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» مُعلِّلة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدَرْناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنُّكول عن ذلك؛ كقوله: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران:١٧٩]. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبَذْلها في ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله، و[الرَّكْم] هو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السَّحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور:٤٣] أي: متراكمًا متراكبًا.

﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

الآية (٣٨): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أي: عمّا هم فيه من الكفر والمُشاقّة والعِناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم؛ كما جاء عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أَحْسَن في الإسلام لم يُؤاخَذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر» [متفق عليه]. قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذَّبوا واستمروا على عنادهم أنَّا نُعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

الآية (٣٩-٤٠): قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: حتى لا يكون شرك. وقال عُرْوَة بن الزبير: حتى لا يُفتن مسلم عن دينه. وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: يُخلَص التوحيد لله. وقال الحسن وقتادة: أن يقال: لا إله إلا الله. وقال ابن إسحاق: ويكون التوحيد خالصًا لله، ليس فيه شرك، ويُخلع ما دونه من الأنداد. وقال عبد الرحمن بن زيد: لا يكون مع دينكم كفر. ويشهد له ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل» [متفق عليه]. قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكَفُّوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ كقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٥]. قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ﴾ سيّدكم وناصركم على أعدائكم، فـ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

---

(١) في نسخ ابن كثير: (معلن) والتصويب من تفسير الطبري.

الآية (٤١): يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة من إحلال المغانم.

والغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. والفيء: ما أخذ منهم بغير ذلك؛ كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج، ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضًا، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: [قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]] نزلت في أموال الفيء، وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعًا إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ توكيدٌ لتخميس كل قليل وكثير حتى الخَيط والمخيط. وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون ههنا: فقال بعضهم: لله نصيب من الخُمس يُجعل في الكعبة. وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرُّك، وسهمه لرسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويؤيد هذا ما رواه الإمام البيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القُرَى، وهو يَعْرِضُ فرسًا، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خُمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحَدٌ أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جيبك، ليس أنت أحقَّ به من أخيك المسلم». وقال عطاء: خُمس الله والرسول واحد، يَحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني: النبي ﷺ. وهذا أعمّ وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخُمس الذي جعله الله له بما شاء، ويردّه في أمته كيف شاء. وقد كان للنبي ﷺ من المغانم شيء يصطفيه لنفسه عبدًا أو أمَة أو فرسًا أو سيفًا أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتَبِعَهُما على ذلك أكثر العلماء. ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه. وقال آخرون: إن الخُمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: يتامى المسلمين، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسدُّ خَلَّتَهم ومَسْكَنَتَهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تُقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك. ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم...» فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان. قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبّه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فَرَّق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

الآية (٤٢): يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إذْ أنتم نُزُول بعَدْوَة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي: العِير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مما يلي سِيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ قال عبد الله بن الزبير: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلُطفه. وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد [متفق عليه]. قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرًا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حُجة ولا شُبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مُبطل؛ لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة. قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرُّعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

الآية (٤٣-٤٤): قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلًا، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتًا لهم. ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لَجَبُنْتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك؛ بأن أراكَهُم قليلًا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تُجِنُّهُ الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء. قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هذا أيضًا من لُطفه تعالى بهم؛ إذْ أراهم إياهم قليلًا في رأي العين، فيجرِّئهم عليهم، ويُطمعهم فيهم، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ عن عكرمة قال: حضَّض بعضهم على بعض. ومعنى هذا: أنه تعالى أغرى كُلًّا من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحَم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مُردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضِعْفَيه؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ الآية [آل عمران:١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلًّا منهما حق وصدق.

الآية (٤٥): هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آدابَ اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا أيُّها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا» [متفق عليه].

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يَجْبُنُوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتَّكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم.

الآية (٤٦): أمرهم أن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوَّتُكم وَجِدَّتُكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وقد كان للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأُمَم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم -ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم- فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من: الروم، والفرس، والترك، والصقالبة، والبربر، والحبُوش، وأصناف السودان والقِبْط، وطوائف بني آدم؛ قهروا الجميع حتى عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم.

الآية (٤٧-٤٨): يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيًا لهم عن التشبُّه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعًا للحق ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو: المفاخرة والتكبر عليهم؛ كما قال أبو جهل -لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا- فقال: لا، والله لا نرجع حتى نَرِدَ ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا. فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، ورُمُوا في أطواء بدر مُهانين أذلَّاء، صَغِرَة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حسَّن لهم ما جاءوا له وما همُّوا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤتَوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: أنا جار لكم؛ وذلك أنه تبَدَّى لهم في صورة سُرَاقة بن مالك، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]. قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جُند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدْلِج، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى إبليس، فلما رآه -وكانت يده في يد رجل من المشركين- انتزع يده ثم ولى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟! فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة. وقال قتادة: وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منَعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمَهم شر مَسْلَم، وتبرَّأ منهم عند ذلك. قلت: يعني بعادته لمن أطاعه: قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر:١٦].

الآية (٤٩): قال ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكُّون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يُضام مَن التجأ إليه؛ فإن الله عزيز مَنيع الجَناب، عظيم السلطان، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله؛ لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

الآية (٥٠-٥١): يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حالَ تَوَفِّي الملائكة أرواحَ الكفار، لرأيت أمرًا عظيمًا هائلًا فظيعًا منكرًا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أستاههم، قال: يوم بدر. وقال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. وهذا السياق -وإن كان سببه وقعة بدر- ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾. قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء. قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحدًا من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح من رواية أبي ذر عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» [رواه مسلم].

الآية (٥٢): يقول تعالى: فَعَلَ هؤلاء المشركون المكذبون بما أُرسِلتَ به يا محمد، كما فَعَلَ الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسُنّتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

الآية (٥٣-٥٤): يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغيّر نعمةً أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذّبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسَلَبَهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومَقَام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

الآية (٥٥-٥٧): أخبر تعالى أن شرّ ما دبَّ على وجه الأرض هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام. قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكِّل بهم؛ قاله ابن عباس، ومعناه: غَلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلًا ليخاف مَن سِواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ قال السُّدّي: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنع بهم مثل ذلك.

الآية (٥٨): يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلِمْهُم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى عِلمك وعِلمهم بأنك حربٌ لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء؛ أي: تستوي أنت وهم في ذلك؛ عن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على مَهل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضًا. عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمَد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءً لا غدرًا؛ إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يَحُلَّنَّ عُقدة ولا يشدّها حتى ينقضي أمَدُها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبَسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (٥٩): يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قُدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يُعجزوننا؛ كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤]، أي: يظنون، وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور:٥٧].

الآية (٦٠): ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» [رواه مسلم]. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجْر، ولرجل ستر، وعلى رجل وِزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مَرْج -أو: روضة- فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج -أو: الروضة- كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شرفًا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه، ولم يُرِدْ أن يسقي به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تَغنِّياً وتعفُّفًا، ولم يَنْسَ حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياء ونِواء فهي على ذلك وزر» [رواه البخاري]، وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئًا إلا هذه الآية الجامعة الفاذّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] [متفق عليه].

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة: عن عُرْوَة بن أبي الجعد البارقي: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم» [متفق عليه]. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي: تُخوِّفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، وقال السُّدي: فارس، وقال مقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون. وهذا أشْبَه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال.

الآية (٦١): يقول تعالى: إذا خِفْتَ من قوم خيانة فانبذْ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فَمِلْ إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأُخَر.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك.

الآية (٦٢-٦٣): ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوَّوا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لـمَّا خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بي؟! وعالة فأغناكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟!» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمَنّ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله. وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله. وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحاتّ ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

الآية (٦٤): يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبُهم؛ أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قلّ عدد المؤمنين. قال الشعبي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. وعن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد مثله.

الآية (٦٥-٦٦): ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: حُثَّهم وذمّرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرّض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكَسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيّتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [رواه مسلم].

ثم قال تعالى مُبَشِّرا للمؤمنين وآمِرًا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، كل واحد بعشرة. ثم نُسخ هذا الأمر وبقيت البشارة؛ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾، شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة. ثم جاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾، قال: خفف الله عنهم من العِدَّة، ونقص من الصبر بقدر ما خَفف عنهم.

الآية (٦٧-٦٩): قرأ ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يُحلّها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا قال مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدًا شهد بدرًا. وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمسًا، لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة». ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل -كما فعل ببني قريظة- وإن شاء فادى بمال -كما فعل بأسرى بدر- أو بمن أُسر من المسلمين؛ كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرَقَّ مَن أسَر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء.

الآية (٧٠-٧١): [سبب النزول]: قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: عباس وأصحابه؛ قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحنَّ لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ إيمانًا وتصديقًا، يخلف لكم خيرًا مما أُخذ منكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحبُّ أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا؛ لقد قال: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ وأرجو أن يكون غُفر لي. قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: بالإسار يوم بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح الكاتب حين ارتدَّ ولحق بالمشركين. وقال ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا. وفسَّرها السُّدّي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

الآية (٧٢): ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسَّمهم إلى مهاجرين: خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك: آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسَوْهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم؛ فهؤلاء ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ كل اثنين أخَوَان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث. وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ الآية [الحشر: ٨- ٩].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين: وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم؛ فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصِيبٌ، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال؛ عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «... فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلِمْهم إنْ فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبَوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين؛ يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين» [رواه مسلم].

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس.

الآية (٧٣): لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار؛ عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» [متفق عليه].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

الآية (٧٤-٧٥): لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسَن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدًا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسْأم ولا يُمَلُّ لُحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة؛ كما قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» [متفق عليه]. وأما قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ خصوصية ما يُطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلُون بوارث؛ كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحًا في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس ومجاهد، وعكرمة والحسن، وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولًا، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصِيَّة لوارث» [رواه أهل السنن، وصححه الألباني]، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثًا.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية، [عدا آيتين من آخرها نزلتا بمكة، وهذا قول الجمهور. وعدد آياتها (١٢٩) آيةً].

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، قال البراء: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء:١٧٦]، وآخر سورة نزلت: براءة [متفق عليه]. وإنما لا يُبَسْمَل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أوَّلها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأوَّل هذه السورة الكريمة نَزَلَ على رسول الله ﷺ لَـمَّا رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ذُكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عُراةً، فكَرِه مخالطتهم، وبَعَث أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على الحج تلك السنة، ليُقِيم للناس مناسكهم، ويُعْلِمَ المشركين ألَّا يحجُّوا بعد عامهم هذا، وأن يُنادَي في الناس: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فلما قَفَل أَتْبَعَهُ بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ؛ لكونه عَصَبَةً له.

الآية (١-٢): ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تَبَرُّؤٌ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافًا كثيرًا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المُطْلَقة غير المؤقتة، أو مَن له عهد دون أربعة أشهر، فيُكَمَّل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهدٌ مؤقَّت فأجَلُه إلى مدته مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ الآية [التوبة:٤]. وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، ورُوي عن غير واحد. وقال مجاهد: أهل العهد: خُزاعة، ومُدْلج، ومن كان له عهد أو غيرهم.

الآية (٣): ﴿وَأَذَانٌ﴾ وإعلام ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتَقَدُّمٌ وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعًا ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بريء منهم أيضًا. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي: ممَّا أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحَجَّة في المُؤذِّنين، بَعَثَهم يوم النحر يُؤذِّنون بمنى: ألَّا يحُجَّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أَرْدَف النبيُّ ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤَذِّن ببراءة، وألَّا يحُجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان [متفق عليه].

الآية (٤): هذا استثناء من ضَرْبِ مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عَهْد مطلقٌ ليس بمؤقَّت، فأجله أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقَّت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عُوهِدَ عليها، وذلك بشرط ألَّا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحدًا، أي: يُسَالِئ عليهم مَن سواهم، فهذا الذي يُوَفَّى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرَّض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المُوفِين بعهدهم.

الآية (٥): ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ الآية. اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحُرُم ههنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الآية [التوبة:٣٦]، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس -في رواية عنه- وغيره: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢]، ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرَّمنا عليكم فيها قتالهم، وأجَّلناهم فيها؛ لأن عَوْدَ العهد على مذكور أولى من مُقدَّر. وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض. وهذا عامٌّ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحَرَم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وَأْسِرُوهُم، إن شئتم قتلًا، وإن شئتم أسرًا، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تَكْتَفُوا بمجرَّد وِجْدَانِكُم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرَّصْد في طُرُقهم ومسالكهم حتى تُضَيِّقُوا عليهم الواسع، وتضطرُّوهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ولهذا اعتمد الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية وأمثالها؛ حيث حرَّمت قتالهم بشرط هذه الأفعال؛ وهي: الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها؛ فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف. قال ابن عباس: لم يبقَ لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نَزَلت (براءة) وانسلاخ أربعة أشهر، من يوم أُذِّنَ بـ(براءة) إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

الآية (٦): ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي: اسْتَأْمَنَك، فَأَجِبْه إلى طِلْبَتِه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: القرآن تقرؤه عليه وتَذْكُر له شيئًا من أمر الدين تُقِيمُ عليه به حجة الله، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا أو في رسالة.

الآية (٧): يبيِّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظِرَتِهِ إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثُقِفُوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويُتْرَكُون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله؟! ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية [الفتح:٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسَّكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فَعَل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمرَّ العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نَقَضَت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم -وهم بنو بكر- على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضًا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمانٍ، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكَّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأَطْلَق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسُمُّوا الطُّلَقَاء، وكانوا قريبًا من ألفين، ومن استمر على كفره وفرَّ من رسول الله ﷺ بَعَث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التامّ، والله المحمود على جميع ما يقدّره ويفعله.

الآية (٨): يقول تعالى مُحرِّضًا للمؤمنين على معاداتهم والتبرِّي منهم، ومبيِّنًا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشِركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأُدِيْلُوا عليهم لم يُبْقُوا ولم يَذَرُوا، ولا رَاقَبوا فيهم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال ابن عباس: «الإِلُّ»: القرابة، «والذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسُّدّي. وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾: الله. وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره. والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

الآية (٩-١١): يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التَهَوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحقِّ، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدَّم تفسيره[1]، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]

الآية (١٢): يقول تعالى: وإن نَكَثَ هؤلاء المشركون -الذين عاهدتموهم على مدة معينة- أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومن ههنا أُخِذَ قَتْلُ مَن سبَّ الرسول ﷺ، أو مَن طَعن في دين الإسلام أو ذَكَرَه بنقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عمَّا هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعَدَّدَ رجالًا. والصحيح أن الآية عامَّة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

الآية (١٣): هذا أيضًا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، الذين هَمُّوا بإخراج الرسول من مكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [الممتحنة:١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء:٧٦].

وقوله ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عِيرهم. وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنّة.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشونِ، فأنا أَهْلٌ أن يَخْشَى العباد من سطوتي وعقوبتي؛ فبيدي الأمر، وما شئتُ كان، وما لم أشأ لم يكن.

---

(١) قبل ثمانية أسطر.

(٢) وذلك عند تفسير الآية (٥) في الصفحة السابقة، ونزيد هنا من كلام ابن كثير في الأصل مما لم يذكر هناك الآتي: «كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى = يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث [متفق عليه]. وعن عبد الله بن مسعود قال: أُمِرْتُمْ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له. وقال ابن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه! وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحَقِّها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم» [رواه البخاري].

الآية (١٤-١٥): ثم قال تعالى عزيمةً على المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شَرَع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم. وقال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني: خزاعة. وأعادوا الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضًا. ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدًا، ولا يُضِيعُ مثقال ذرة من خير وشرّ، بل يُجازِي عليه في الدنيا والآخرة.

الآية (١٦): يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مُهْمَلِين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟! ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانةً ودخيلةً، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين؛ كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضًا *** أريد الخير أيُّهما يَلِيني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

والحاصل: أنه تعالى لَـمَّا شَرَع لعباده الجهاد، بيَّن أن له فيه حكمةً، وهو اختبار عبيده: مَن يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. فيَعلَم الشيء قبل كونه، ومع كونه، على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا رادَّ لِـمَا قدَّره وأمضاه.

الآية (١٧-١٨): يقول تعالى: ما ينبغي ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ التي بُنِيَت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾، أي: بِحَالِهِم وقَالِهِم؛ كما قال السُّدي: لو سألتَ النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئي، لقال: صابئ، والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بشركهم، ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعُمَّار المساجد.

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى برِّ الخلائق، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ولم يَخَفْ إلا من الله تعالى، ولم يَخْشَ سواه، ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن عباس: أولئك هم المفلحون؛ كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، وهي الشفاعة، قال ابن إسحاق: و«عسى» من الله حقٌّ.

الآية (١٩-٢٠): عن ابن عباس قال: إن المشركين قالوا: عِمَارة بيت الله وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد. وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به مِن أجْل أنهم أهله وعُمَّارُه، فذَكَر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٧] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، قال: ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآنَ والنبيَّ ﷺ، فَخَيَّرَ اللهُ الإيمانَ والجهادَ مع النبي ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته [ويخدمونه](١).

قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تُغْنِ عنهم العمارة شيئًا.

عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألَّا أعمل لله عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير ممَّا قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة- ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [رواه مسلم].

(١) في نسخ ابن كثير التي تحت أيدينا: (ويحرمون به)، وهو تصحيف، والتصويب من تفسير الطبري.

الآية (٢١-٢٢)[١]:

الآية (٢٣-٢٤): أمر الله تعالى بمُبَايَنة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوَعَّد على ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [المجادلة:٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوَعَّد من آثَرَ أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهادٍ في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحُسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾. وعن زَهْرَة بن مَعْبَد، عن جده [عبد الله ابن هشام] قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال رسول الله: «الآن يا عمر». [رواه البخاري]. وقد ثَبَت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» [متفق عليه].

الآية (٢٥-٢٦): يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَدَدِهم، ولا بعُدَدِهم، ونبَّههم على أن النصر من عنده، سواءً قل الجمع أو كَثُر؛ فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدَى ذلك عنهم شيئًا فوَلَّوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل نَصْرَه وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليُعلِمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده وإن قلَّ الجمع، فـ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمانٍ من الهجرة، وذلك لَـمَّا فَرَغَ ﷺ من فتح مكة، وتمهَّدت أمورها، وأسلمَ عامةُ أهلها، وأطلَقَهم رسول الله ﷺ، فبَلَغَه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطُّلَقاء في ألفَين أيضًا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف، يقال له: «حنين»، فكانت فيه الوقعة.

عن البراء بن عازب، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يَفِرَّ، إن هوازن كانوا قومًا رُمَاةً، فلمَّا لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ -وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء- وهو يقول: «أنا النبيُّ لا كذِبْ، أنا ابن عبدِ المطلبْ» [متفق عليه].

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهَرَب، وهو مع هذا أيضًا يُركِضها إلى وجوههم، ويُنوِّه باسمه ليَعرِفه من لم يَعرِفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كلُّه إلا ثقةً بالله، وتوكُّلًا عليه، وعِلْمًا منه بأنه سينصره، ويُتِمّ ما أرسله به، ويُظهِر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

وعن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فولَّى عنه الناس، وبقيتُ معه في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار، قَدِمْنَا ولم نُوَلِّهِمُ الدُّبُرَ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدُمًا، فحادَت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناوِلْني كفًّا من التراب». فناولتُه، قال: فضرب به وجوههم، فامتلأت أعينهم ترابًا، قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك. قال: «اهتِفْ بهم». فهتفتُ، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشُّهُب، وولَّى المشركون أدبارهم [رواه البيهقي بلفظه، وأحمد بنحوه، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقال يزيد بن عامر السُّوَائي -وكان شهِد حُنينًا مع المشركين، ثم أسلم بعد- فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت فيطنّ، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا [رواه الطبراني، ووثق رجاله الهيثمي].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُوتِيتُ جوامع الكَلِم» [رواه مسلم]. ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) لم يذكر ابن كثير رحمه الله تفسيرًا لهاتين الآيتين، وهاكم مختصر تفسيرهما من تفسير السعدي: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ جودًا منه، وكرمًا وبرًا بهم، واعتناءً ومحبة لهم، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجَلُّه، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدًا. ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كل ما اشتهته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

الآية (٢٧): ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقَدِموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين الأموال، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردَّه عليهم، وقَسَمَ أموالهم بين الغانمين، ونَفَّلَ أناسًا من الطلقاء ليتألَّف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائةً: مالك بن عوف النَّضْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

مَا إنْ رَأيتُ ولا سَمِعْتُ بمثْلِه ❊❊❊ في النَّاس كُلّهمُ بمثل مُحَمَّدِ

الآية (٢٨-٢٩): أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين -الذين هم نَجَس دينًا- عن المسجد الحرام، وألَّا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بَعَثَ رسول الله ﷺ عليًا صُحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامَئِذٍ، وأمره أن ينادي في المشركين: «ألَّا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». فأتمَّ الله ذلك، وحَكَم به شرعًا وقدرًا. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾. ودلَّت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما وَرَد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس» [متفق عليه].

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحلَّ طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [سبب النزول]: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لَتَنْقَطِعَنَّ عنَّا الأسواق، ولَتَهْلِكَنَّ التجارة، ولَيَذْهَبَنَّ ما كنا نُصِيب فيها من المَرَافِق، فأنزل الله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ من وجهٍ غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: هذا عِوَض ما تخوَّفتم من قَطْع تلك الأسواق، فعوَّضهم الله مما قَطَعَ عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية. وهكذا رُوي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٞ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى؛ ولهذا عوَّضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، فهم في نفس الأمر لَـمَّا كفروا بمحمد ﷺ لم يبقَ لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتَّبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء بشَّروا به، وأَمَروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيِّدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ أي: إن لم يُسْلِمُوا، ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن قهرٍ لهم وغَلبة، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مُهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رَفعهم على المسلمين، بل هم أذلّاء صَغَرة أشقياء، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» [رواه مسلم]. ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم.

الآية (٣٠-٣١): وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفِرْية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العُزَير: «إنه ابن الله»، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وأما ضَلال النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: لا مُستند لهم فيما ادَّعوه سوى افترائهم واختلاقهم، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضلَّ هؤلاء، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؟ أي: كيف يَضِلُّون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟!

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ عن عدي بن حاتم قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى! إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» [رواه الترمذي وحسَّنه الألباني]. وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إنهم اتَّبَعُوهُم فيما حلَّلُوا وحَرَّموا. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ أي: الذي إذا حَرَّمَ الشيء فهو الحرام، وما حلَّله حلَّ، وما شَرَعَه اتُّبِع، وما حَكَمَ به نَفَذَ. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن الشركاء والنُّظَراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

الآية (٣٢-٣٣): يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما بُعِثَ به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرَّد جِدالهم وافترائهم؛ فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه! وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله ﷺ لا بدَّ أن يَتِمَّ وَيَظْهَر؛ ولهذا قال تعالى مقابلًا لهم فيما رَامُوه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافرًا»؛ لأنه يستر الأشياء. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثَبَت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها» [رواه مسلم]. وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَد اللاتُ والعُزّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تامٌّ، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يَبْعَث الله ريحًا طيبةً، فيَتَوَفَّى كُلَّ من كان في قلبه مثقال حَبَّة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم» [رواه مسلم].

الآية (٣٤-٣٥): قال السُّدّي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال؛ فإن الأحبار هم علماء اليهود، والرهبان: عُبَّاد النصارى، والقسيسون: علماؤهم. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال؛ كما قال سفيان بن عيينة: مَن فَسَدَ من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومَن فَسَدَ من عُبَّادنا كان فيه شَبَهٌ من النصارى. والحاصل: التحذير من التَّشبُّه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾؛ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس؛ يأكلون أموالهم بذلك. وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدُّون الناس عن اتباع الحق، ويَلبِسون الحق بالباطل، ويُظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا يُنصرون. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس؛ فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فَسَدَت أحوال هؤلاء فَسَدَت أحوال الناس، وأما الكنز فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة. وقال أيضًا: ما أُدِّي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرًا لا تؤدى زكاته فهو كنز.

وقولـه: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتًا وتقريعًا وتهكُّمًا، أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم، ولهذا يقال: من أحب شيئًا وقدَّمه على طاعة الله عُذِّب به. وهؤلاء لَمَّا كان جَمْع هذه الأموال آثَرَ عندهم من رضا الله عنهم، عُذِّبوا بها، كما أن هذه الأموال لَمَّا كانت أعزَّ الأشياء على أربابها، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيُحمَى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرِّها! فتُكوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يُؤَدِّي زكاة ماله إلا جُعِلَ يوم القيامة صفائح من نار يُكوَى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضَى بين الناس، ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» [رواه مسلم].

الآية (٣٦): عن أبي بَكْرَة، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والـمُحَرَّم، ورجب مُضَر الذي بين جُمَادى وشعبان». الحديث [متفق عليه].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرَّم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة. وقوله ﷺ تقرير منه وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نَسِيء ولا تبديل. وإنما كانت الأشهر المحرمة لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحُرِّم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يُوقِعُون فيه الحجَّ ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحُرِّم بعده شهر آخر، وهو المحرَّم؛ ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحُرِّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنًا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحُرُم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأوَّل. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تُضَاعَف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تَغْلُظُ فيه الآثام.

قال ابن عباس: قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: في كلِّهن، ثم اختصَّ مِن ذلك أربعة أشهر فجعلهنَّ حرامًا، وعَظَّم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهنَّ أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال ابن إسحاق: أي: لا تجعلوا حرامها حلالًا ولا حلالها حرامًا، كما فَعَلَ أهل الشرك؛ فإنما النَّسِيء -الذي كانوا يصنعون- من ذلك زيادة في الكفر. وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: جميعهم، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: أحدهما -وهو الأشهر- أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًا، فلو كان محرَّمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام -وهو ذو القعدة- كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم فلجأوا إلى الطائف عمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يومًا، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

الآية (٣٧): هذا ممَّا ذمَّ الله تعالى به المشركين من تصرُّفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرَّم الله وتحريمهم ما أحلَّ الله؛ فإنهم كان فيهم من القوة الغضَبِية والشهامة والحميَّة ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدَثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخَّرُوه إلى صفر، فَيُحِلُّون الشهر الحرام، ويحرِّمون الشهر الحلال ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ الأشهر الأربعة. قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓـُٔ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: النسيء أنَّ جُنادَة بن عوف بن أُميّة الكناني كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يُكنّى «أبا ثُمامة»، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحابِ[1] ولا يُعاب، ألا وإن صفر العام الأول حلال. فيُحِلُّه للناس، فيُحَرِّم صفرًا عامًا، ويُحرِّم المحرَّم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓـُٔ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، يقول: يتركون المحرم عامًا، وعامًا يحرِّمونه؛ فإنهم لَـمَّا كانوا يُحلِّون شهر المحرم عامًا يُحرِّمون عِوَضه صَفَر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعِدَّتها وأسماء شهورها، ثم في العام القابل يحرِّمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها، فيحلونه عامًا ويحرِّمونه عامًا؛ ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارةً يقدِّمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية -وهو المحرَّم- وتارة يُنسئونه إلى صفر؛ أي: يُؤخِّرُونه. وقد [قال] ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم؛ ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر» [متفق عليه].

أي: إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرَّم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما يعتمده جهلة العرب، مِنْ فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

الآية (٣٨-٣٩): هذا شروع في عِتاب من تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمارَّة القَيْظِ، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم ومِلتم إلى المُقام في الدَّعة والخفض وطيب الثمار ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؟ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟ أَرضًى منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة؟!

ثم زهَّدَ تبارك وتعالى في الدنيا، ورغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، عن المستَوْرِد أخي بني فِهْر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدُكم إصبعه هذه في اليَمّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع». وأشار بالسبابة. [رواه مسلم]. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل.

ولَـمَّا حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتوني بكفني الذي أُكفَّن فيه، أنظر إليه. فلمَّا وُضِع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لي من كَبِير ما أخلّف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولَّى ظهره فبكى، وهو يقول: أفٍّ لكِ من دار، إن كان كثيرُكِ [لقليلاً]، وإن كان قليلك [لقصيرًا]، وإن كُنّا منكِ لفي غرور.

ثم توعَّد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفَر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: لنُصْرَة نبيِّه وإقامة دينه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا تضرُّوا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

الآية (٤٠): يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيِّده وكافيه وحافظه، كما تولَّى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة لَـمَّا هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صِدِّيقه وصاحبِهِ أبي بكر ابن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر يجزع أن يطَّلع عليهم، فيَخْلُص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذًى، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنه ويَثبِّته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [متفق عليه].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين: وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول لم تزَل معه سكينة، وهذا لا يُنافي تَجَدُّد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعني بـ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: الشرك، و﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله. عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتِل شجاعةً، ويقاتِل حَمِيَّةً، ويقاتِل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضامُ مَن لَاذَ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

---

(١) من «الحوب»، أي: الإثم، أي: لا ينسب إلى الإثم. [ينظر تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر: ١٤/ ٢٤٥، بالهامش].

الآية (٤١): أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحَتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال: في المَنْشَط والمَكْرَه، والعُسْرِ واليُسْرِ، فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أرى ربَّنا يستنفرنا شيوخًا وشَبَابًا، جهِّزوني يا بَنِيَّ. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوتَ مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغيَّر، فدفنوه بها [رواه ابن حبان، وصححه الألباني]. وهكذا روي عن ابن عباس وعِكْرِمة والحسن وغير واحد أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: كهولًا وشبابًا. وقال مجاهد: شبابًا وشيوخًا، وأغنياء ومساكين. وقال الحكم بن عُتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن البصري أيضًا: في العُسْر واليُسْر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

ثم رغَّب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المُهَج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تَغرمون في النفقة قليلًا، فيُغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدّخر لكم من الكرامة في الآخرة؛ كما قال النبي ﷺ: «وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفَّاه أن يدخله الجنة، أو يردَّه إلى منزله نائلًا ما نالَ من أجر أو غنيمة» [متفق عليه]. ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

الآية (٤٢): يقول تعالى موبِّخًا للذين تخلَّفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مُظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا أيضًا؛ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

الآية (٤٣-٤٥): عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بَدَأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور:٦٢] وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذِنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في إبداء الأعذار، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلَّا تركتهم لَـمَّا استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب؛ فإنهم قد كانوا مُصرِّين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أَخبَرَ تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنهم يرون الجهاد قُرْبَة، ولَـمَّا نَدَبَهم إليه بادروا وامتثلوا، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود ممن لا عُذر لـه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: لا يرجـون ثـواب الله في الـدار الآخرة عـلى أعمالهـم، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكَّت في صحة ما جئتهم به، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يَتَحَيَّرُون، يُقَدِّمُون رِجْلًا ويُؤَخِّرون أخرى، وليست لهم قَدَم ثابتة في شيء؛ فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا.

الآية (٤٦-٤٧): يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهَّبوا له، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معكم قَدرًا، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أَخَّرَهم، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: قَدَرًا. ثم بيَّن الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جُبَناء تَخْذُلون، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيُؤدِّي هذا إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذَهب قتادة وغيره من المفسِّرين.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خَرَجوا؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

الآية (٤٨): يقول تعالى مُحَرِّضًا لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ على المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فِكْرَهُم وأَجَالُوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة؛ وذلك أول مَقدَم النبي ﷺ المدينة رَمَتْهُ العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومُنافقوها، فلمَّا نَصَره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلَّما أعزَّ الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

الآية (٤٩): يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّى﴾ بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، [سبب النزول]: روى ابن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم -وهو في جهازه- للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَة: «هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أَو تأذن لي ولا تفتنّي؟ فوالله لقد عَرَف قومي ما رجلٌ أشد عَجَبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألَّا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة -بتَخَلُّفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه- أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس. وقد كان الجَدُّ ابن قيس هذا من أشراف بني سَلِمَة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سَلِمَة؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنَّا نُبَخِّله. فقال رسول الله ﷺ: «وأيُّ داءٍ أدْوَأُ من البخل؟ ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد: بِشرُ بن البراء بن مَعْرُور» [رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

الآية (٥٠-٥١): يُعْلِمُ تبارك وتعالى نبيَّه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: فَتحٌ ونَصرٌ وظَفَرٌ على الأعداء، مِمَّا يَسُرُّه ويَسُرُّ أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأَرشَد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامَّة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: سيدُنا ومَلجَأُنا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الآية (٥٢-٥٤): يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: شهادةً أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا؛ إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقةٍ طائعين أو مُكرَهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك؛ وهو أنهم لا يُتَقَبَّل منهم لأنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: والأعمال إنما تَصِحُّ بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: ليس لهم قصدٌ صحيح، ولا همَّة في العمل، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقةً ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن «الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا» [متفق عليه]، وأنه «طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا» [رواه مسلم]؛ فلهذا لا يَتَقَبَّلُ الله من هؤلاء نفقةً ولا عملًا؛ لأنه إنما يَتَقَبَّل من المتقين.

الآية (٥٥): يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله. واختاره ابن جرير، وهو القول القوي الحسن. وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ويريد أن يُمِيتَهُم حين يُمِيتُهُم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشدَّ لعذابهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

الآية (٥٦-٥٧): يُخبر تعالى نبيه ﷺ عن جَزَعِهم وفَزَعِهم وفَرَقِهم وهَلَعِهم أنهم يحلفون ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يمينًا مؤكدة، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حَمَلَهم على الحَلِفِ. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: حصنًا يتحصنون به، وحِرزًا يتحرَّزون به، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنَّفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس ومجاهد وقتادة.

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يُسرعون في ذهابهم عنكم؛ لأنهم إنما يُخالطونكم كُرْهًا لا محبةً، وودُّوا أنهم لا يُخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هَمٍّ وحَزَن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزٍّ ونَصْر ورفعة.

الآية (٥٨-٥٩): يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِى﴾ قَسْم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا فرَّقتها، ويتَّهِمُك في ذلك، وهم المتَّهمُون المأبونون، وهم مع هذا لا يُنْكِرُون للدين، وإنما يُنْكِرُون لحظِّ أنفسهم؛ ولهذا فإن ﴿أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم. وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وهذا شبيه بما رُوي عن أبي سعيد في قصة ذي الخُوَيصرة لَـمَّا اعترض على النبي ﷺ حين قَسَمَ غنائم حنين، فقال له: اعدِلْ، فإنك لم تَعدل. فقال: «لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل» وذكر بقية الحديث [متفق عليه]. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ تضمَّنت هذه الآية الكريمة أدبًا عظيمًا وسرًّا شريفًا؛ حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكُّل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

الآية (٦٠): لَـمَّا ذَكر تعالى اعتراض المنافقين الجهَلة على النبي ﷺ ولَـمْزهم إيَّاه في قَسْم الصدقات، بيَّن تعالى أنه هو الذي قَسَمَها وبيَّن حكمها، وتولَّى أمرها بنفسه، ولم يَكِلْ قَسْمَها إلى أحد غيره، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ إنما قدَّم الفقراء ههنا على البقية؛ لأنهم أحوَج من غيرهم على المشهور، لشدّة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالًا من الفقير.

ورُوي عن ابن عباس وغير واحد: أن الفقير هو: المُتَعَفِّف الذي لا يسأل الناس شيئًا، والمسكين: هو الذي يسأل ويطوف ويَتَّبِعُ الناس. وقال قتادة: الفقير: من به زَمَانَةٌ، والمسكين: الصحيح الجسم. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان». قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجدُ غنًى يُغنِيه، ولا يُفْطَن له فيُتَصَدّق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا» [متفق عليه].

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم الجُباة والسُّعَاة؛ يستحقون منها قسطًا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تَحْرُمُ عليهم الصدقة؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد؛ إنما هي أوساخ الناس». ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [وهم] أقسام: منهم من يُعطَى ليُسْلِم؛ كما أَعْطَى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين [رواه مسلم]، ومنهم من يُعْطَى ليَحْسُن إسلامه، ويَثْبُتَ قلبه؛ كما أَعْطَى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطُّلَقاء وأشرافهم: مائةً مائةً من الإبل، ومنهم من يُعطَى لِـمَا يُرجَى من إسلام نُظَرائه، ومنهم من يُعطَى لِيَجْبِيَ الصدقات ممَّن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف؛ فروي عن عمر، وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يعطون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يعطون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ رُوي عن الحسن ومقاتل وعمر بن عبد العزيز وغيرهم أنهم المكاتَبون، وهو قول الشافعي. وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تُعْتَقَ الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد ومالك وإسحاق، أي: إن الرقاب أعَمّ من أن يُعطَى الـمُكَاتَب، أو يَشتري رقبةً فيُعتِقَها استقلالًا.

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضَمِن دينًا فلَزِمَه فأَجْحَفَ بماله، أو غَرِمَ في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يُدْفَع إليهم. والأصل في هذا حديث قَبِيصة بن مخارق [مرفوعًا]: «يا قَبِيصة، إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تَحَمَّل حَمَالَةً فحَلَّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يُمسك...» الحديث [رواه مسلم].

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منهم الغُزاة الذين لا حقَّ لهم في الديوان.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الـمُجتَاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فَيُعْطَى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفرًا من بلده وليس معه شيء، فَيُعْطَى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي حكما مقدرًا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

الآية (٦١): يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذُون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئًا صَدَّقَه فينا، ومن حَدَّثَه صَدَّقَه، فإذا جئناه وحلفنا له صَدَّقَنا؛ روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أُذُنُ خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويُصدِّق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية (٦٢-٦٣): [سبب النزول]: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلًا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقًّا لَهم شرٌّ من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشرُّ من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يَلْتَعِنُ، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادق وَكَذِّبِ الكاذب. فأنزل الله هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ألم يتحقَّقوا ويعلموا أنه من حادَّ الله، أي: شاقَّه وحاربه وخالفه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ، ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: مُهانًا معذَّبًا، ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذُّل العظيم، والشقاء الكبير.

الآية (٦٤): قال مجاهد: يقولون القولَ بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألَّا يُفشِيَ علينا سِرَّنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨] وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله سيُنزِل على رسوله ما يفضحكم به، ويبيِّن له أمركم؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٢٩-٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تُسمى هذه السورة «الفاضحة»؛ فاضحة المنافقين.

الآية (٦٥-٦٦): [سبب النزول]: قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سَلِمَة يقال له: مُخَشِّن[1] بن حُمَيّر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنَّا بكم غدًا مُقَرّنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فقال مُخَشِّن بن حُمَيّر: والله لوددتُ أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نَنْفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ -فيما بلغني- لعمار بن ياسر: «أدرك القوم؛ فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت -ورسول الله ﷺ واقف على راحلته- فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مُخَشّن بن حُمَيّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مُخَشّن بن حُمَيّر، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتَل شهيدًا لا يُعلم بمكانه، فقُتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر!

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أي: لا يُعْفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم؛ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

الآية (٦٧-٦٨): يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولَمَّا كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نَسيهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلَّدين، هم والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) وفي نسخ: «مَخْشِيّ». على خلاف في اسمه كما أشار إلى ذلك ابن هشام في سيرته. [السيرة النبوية لابن هشام:٢/ ٥٢٤].

الآية (٦٩): يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم.

وقوله: ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ قال الحسن البصري: بدينهم.

وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: في الكذب والباطل.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بَطَلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

الآية (٧٠): يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذِّبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تُخْبَرُوا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذِّبة للرسل: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لَـمَّا كذَّبوا هودًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لَـمَّا كذَّبوا صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نَصَرَه الله عليهم، وأيَّدَه بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلَك ملكهم نمروذ بن كنعان لعنه الله، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظُّلَّة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]، أي: الأمّة المؤتفكة، وقيل: أُمُّ قُرَاهم وهي «سَدُوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجَج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

الآية (٧١): لَـمَّا ذَكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عَطَف بذِكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضًا» وشَبَّك بين أصابعه [متفق عليه].

وفي الصحيح أيضًا: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائر الجسد بالحُمَّى والسهر» [متفق عليه].

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُطِيعُون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أَمَر، وترك ما عنه زَجَر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: من اتَّصَف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: يُعِزُّ من أطاعه؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدِّمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

الآية (٧٢): يُخبر تعالى بما أعدَّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء عن عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهبٍ، آنيتها وما فيهما، وجنتان من فضةٍ، آنيتها وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقًّا على الله أن يُدخِلَه الجنة، هاجرَ في سبيل الله، أو جُلِس في أرضه التي وُلِدَ فيها». قالوا: يا رسول الله، أفلا نُخبِر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» [رواه البخاري].

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرفة في الجنة، كما تَرَاءَوْنَ الكوكب في السماء» [متفق عليه].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صَلُّوا عليّ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سَلُوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أني أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة يوم القيامة» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجلّ وأعظم ممَّا هم فيه من النعيم.

عن أبي سعيد الخُدْري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» [متفق عليه].

الآية (٧٣-٧٤): أَمَرَ تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين وَالْغِلْظَةِ عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة؛ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٥]، وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩]، وسيف للبغاة: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩]. وهذا يقتضي أنهم يُجاهَدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق. وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن عباس: أَمَره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأَذْهَبَ الرِّفْق عنهم. وقال الضحاك: جَاهِد الكفار بالسيف، واغْلُظْ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يُقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارةً يُؤَاخِذُهُم بهذا، وتارةً بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [سبب النزول]: قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبيّ؛ وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَني وأنصاري، فعَلَا الجُهَنيُّ على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل: «سَمِّنْ كلبك يأكُلْك»، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية [القصة في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم وجابر بن عبد الله]. ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ عن أبي الطفيل قال: لَمَّا أقبَل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أَمَر مناديًا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط مُتلثِّمون على الرواحل فغشوا عمارًا، وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، [فلما هبط] نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مُتلثمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن يُنْفِرُوا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسارَّ عمارُ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتُك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلًا. فقال: إن كُنْتَ منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعَذَرَ رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نُخْبِرُ أنهم أربعة عشر، فإن كنتَ منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وَعَذَرَ ثلاثةً قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرَّة يمشي، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوَجَد قومًا قد سبقوه، فلعنهم يومئذٍ.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويُمْن سِفَارَتِهِ، ولو تمَّت عليهم السعادة لهداهم الله لِمَا جاء به، كما قال للأنصار: «ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ [متفق عليه]. وهذه الصيغة تُقال حيث لا ذنب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البروج:٨]. ثم دعاهم الله تعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهَمِّ والغَمِّ، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالعذاب والنكال والهوان والصَّغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يُسْعِدُهُم ولا يُنْجِدُهُم، ولا يُحَصِّلُ لهم خيرًا، ولا يدفع عنهم شرًّا.

الآية (٧٥-٧٨): من المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله لَيَصَّدَّقَنَّ من ماله، وَلَيَكُونَنَّ من الصالحين. فما وَفَّى بِمَا قَالَ، ولا صَدَق فيما ادَّعى، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ هذا الصنيع ﴿نِفَاقًا﴾ سَكَنَ ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ إلى يوم يلْقَون الله عز وجل يوم القيامة، عياذًا بالله من ذلك. ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية، أي: بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم؛ كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [متفق عليه].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وأنه أعلم بضمائرهم، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدَّقوا منها وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظَهَر وما بَطَن.

الآية (٧٩): وهذه أيضًا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولَمْزِهم في جميع الأحوال، حتى ولا الـمُتَصَدِّقُون يسلمون منهم؛ إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُرَاءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا!

[سبب النزول]: عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية [متفق عليه]. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾: وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سَخِرَ بهم؛ انتصارًا للمؤمنين في الدنيا، وأعدَّ للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

الآية (٨٠): يُخبِر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. وقد قيل: إن السبعين إنما ذُكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦].

الآية (٨١-٨٢): يقول تعالى ذامًّا للمنافقين المتخلِّفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحرِّ، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ ممَّا فررتم منه من الحرِّ، بل أشد حرًّا من النار. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يُوقِدُون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافيةً. قال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءًا» [متفق عليه]. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لَمَن له نعلان وشِرَاكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، لا يرى أن أحدًا من أهل النار أشدُّ عذابًا منه، وإنه أهونهم عذابًا» [متفق عليه].

﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحرِّ؛ ليتَّقوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا.

ثم قال الله تعالى جَلَّجَلَالُهُ متوعِّدًا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا. وكذا قال الحسن، وغيرهما.

الآية (٨٣): يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: رَدَّك الله من غَزْوَتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذُكِر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبةً. ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]؛ فإن من جزاء السيئةِ السيئةَ بعدها، كما أن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها. وقوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تَخَلَّفوا عن الغَزَاة.

الآية (٨٤): أَمَر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرَأَ من المنافقين، وألَّا يُصلِّي على أحد منهم إذا مات، وألَّا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكمٌ عام في كل من عُرف نِفاقُه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رأس المنافقين.

[سبب النزول]: عن ابن عمر قال: لَـمَّا توفي عبد الله [بن أُبيّ] جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يُصلِّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنما خَيَّرَني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق! قال: فصَلَّى عليه رسولُ الله ﷺ. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [متفق عليه]. وقد روي من حديث عمر ابن الخطاب نفسه بنحوٍ من هذا [وفيه]: «إني خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أني إنْ زدتُ على السبعين يُغْفَر له؛ لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [رواه البخاري].

ولَـمَّا نَهَى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشُرِع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل؛ لِـمَا ثبت من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يُصَلَّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدفَن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أُحُد» [متفق عليه]. وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فعن عثمان قال: كان رسول ﷺ إذا فَرَغ من دفن الرجل وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسْأَل» [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

الآية (٨٥-٨٦)[1]: يقول تعالى مُنكِرًا وذامًّا للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء -وهُنَّ الخوالف- بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أَجْبَنَ الناس، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا؛ كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]، أي: عَلَتْ ألسنتُهم بالكلام الحادِّ القوي في الأمن، وفي الحرب أَجْبَن شيء.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢٠-٢١].

---

(١) تقدم تفسير نظير الآية (٨٥)، وهي الآية (٥٥) ص ١٩٦.

الآية (٨٧): ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نُكُولِهم عن الجهاد والخروج مع الرسول ﷺ في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرَّة لهم فيجتنبوه.

الآية (٨٨-٨٩): لَـمَّا ذَكر تعالى ذمَّ المنافقين، بيَّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

الآية (٩٠): ثم بَيَّن تعالى حال ذَوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسولَ الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبيِّنون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وَجَاءَ المُعْذِرُون» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العُذر. وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا. قال مجاهد وغيره: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غِفَار، جاءوا فاعتذروا فلم يُعذِرْهم الله. والقول الأول أظهر والله أعلم، لِـمَا قدَّمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أَوْعَدَهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية (٩١-٩٣): ثم بيَّن تعالى الأعذار التي لا حَرَج على من قَعَد معها عن القتال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فذَكَر منها ما هو لازم للشخص لا ينفكُّ عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجِلَاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بَدَأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شَغَلَه عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التَّجَهُّزِ للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يُرْجِفُوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم، وهم مُحسِنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [سبب النزول]: قال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه». فتولَّوا ولهم بكاء، وعَزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا مَحْمَلًا، فلمَّا رأى الله حِرْصَهم على محبَّته ومحبة رسوله أنزل عُذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: إن رجالًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكَّاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو ابن عوف: سالم بن عُمَير، وعُلْبَةُ بنُ زَيْدٍ أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النَّجار، وعمرو بن الْـحُمَامِ ابن الجموح أخو بني سَلِمة، وعبد الله بن المُغَفَّل المزني؛ وهَرَمِيُّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرْباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألَّا يجدوا ما ينفقون.

وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلَّفتُم بالمدينة أقوامًا، ما أنفقتُم من نفقة ولا قطعتم واديًا، ولا نِلتُم من عدو نَيلًا إلا وقد شَركوكم في الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. وأصل الحديث في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سِرتم مسيرًا إلا وَهُمْ معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبَسَهم العذر». وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلَّفتم بالمدينة رجالًا، ما قطعتم واديًا، ولا سلكتم طريقًا إلا شَركوكم في الأجر، حبَسَهم المرض» [رواه مسلم].

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ ردَّ تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأَنَّبَهُم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٩٤-٩٦): ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيُظهِر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرِّها، ويجزيكم عليها.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أخبَر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تُؤَنِّبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارًا لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أخبَر أنهم وإن رضوا عنهم بحَلْفِهم لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله.

الآية (٩٧-٩٩): ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أخبر تعالى أن في الأعراب كفَّارًا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشدّ، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أحرى ألَّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدِّث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني! فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟! إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يَبعث الله منهم رسولًا، وإنما كانت البَعْثَة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف:١٠٩]، وعن عائشة قالت: قَدِم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ أن كان الله نَزَعَ منكم الرحمة؟» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يُعَلِّمَه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قَسَم بين عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائرٌ عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القِسم الممدوح من الأعراب؛ وهم الذين يتَّخِذون ما ينفقون في سبيل الله قُربَةً يتقرَّبون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية (١٠٠): يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبي: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من أدرَك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري والحسن وقتادة: هم الذين صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضَهم أو سَبَّهم أو أبغضَ أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم؛ أعني الصدِّيق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم، عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدلُّ على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأما أهل السنة فإنهم يترضّون عمَّن رضي الله عنهم، ويسبُّون من سبَّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم مُتَّبِعُون لا مُبتَدِعون، ويَقتَدُون ولا يَبْتَدون، ولهذا هُم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

الآية (١٠١): يُخبِر تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممَّن حول المدينة منافقين وفي أهل المدينة أيضًا منافقون، ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنُوا واستَمَرُّوا عليه، ومنه يقال: شيطان مَريد ومارد، ويقال: تمرَّد فلان على الله؛ أي: عَتَا وَتَجَبَّرَ. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]؛ لأن هذا من باب التَّوَسُّم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والرَّيب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يُخالطه من أهل المدينة نفاقًا، وإن كان يراه صباحًا ومساءً. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسِّبَاء، وقال -في رواية-: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جُرَيج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يُرَدُّون إلى عذاب النار.

الآية (١٠٢): لَـمَّا بَيَّن تعالى حالَ المنافقين الـمُتَخَلِّفِين عن الغَزَاة رغبةً عنها وتكذيبًا وشكًّا، شَرَع في بيان حال المذنبين الذين تأخَّروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحقِّ، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقرُّوا بها واعترفوا فيما بينهم وبين رَبِّهم، ولهم أعمال أُخَر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية -وإن كانت نزلت في أناس معينين- إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوِّثين.

[سبب النزول]: قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه؛ تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبي ﷺ وعفا عنهم؛ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان، فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فتجاوز الله عنهم» [رواه البخاري].

الآية (١٠٣-١٠٤): أَمَرَ الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ يطهِّرهم ويزكيهم بها، وهذا عامٌّ، وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًّا بالرسول ﷺ؛ ولهذا احتجُّوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصِدِّيق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتَلوهم حتى أدَّوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصِدِّيق: والله لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عَناقًا- كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنّهم على مَنْعِه [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادعُ لهم واستغفر لهم، عن عبد الله ابن أبي أَوْفَى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صَلِّ على آل أبي أَوْفَى» [متفق عليه].

وقوله: ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمةٌ لهم. وقال قتادة: وقار. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهلٌ له. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللَّتين كلٌّ منها يَحُطُّ الذنوب ويُمَحِّصُهَا ويمحقها؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يَقبَل الصدقة ويأخذها بيمينه فيُرَبِّيهَا لأحدكم كما يُرَبِّي أحدكم مُهْرَهُ، حتى إن اللقمة لتَصير مثل أُحُد» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١٠٥): قال مجاهد: هذا وَعيد من الله تعالى للمخالفين أوامِرَه بأن أعمالهم ستُعرَضُ عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول ﷺ، وعلى المؤمنين. وهذا كائنٌ لا محالة يوم القيامة؛ كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]. وقال البخاري: قالت عائشة: إذا أعجبك حُسن عمل امرئ، فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (١٠٦): قال ابن عباس وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلِّفُوا؛ أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية؛ قعدوا عن غزوة تبوك في جُملة من قَعَد كسلًا وميلًا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظِّلال، لا شكًّا ونفاقًا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري -كما فعل أبو لُبابة وأصحابه- وطائفة لم يفعلوا ذلك؛ وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنَزَلَت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأُرجئ هؤلاء عن التوبة حتى نَزَلت الآية الآتية؛ وهي قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة:١١٧]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآية [التوبة:١١٨]. وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فَعَل بهم هذا، وإن شاء فَعَل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الآية (١٠٧-١٠٨): [سبب النزول]: قال ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، وأُخرِج محمدًا وأصحابه. فلمَّا فَرَغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنُحِبُّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ﴿ضِرَارًا﴾ لمسجد قُباء، ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله، ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: «الراهب» لعنه الله. وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهيٌ من الله لرسوله ﷺ، والأمة تَبَعٌ له في ذلك، عن أن يقوم فيه؛ أي: يصلي فيه أبدًا.

ثم حثَّه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أُسِّسَ من أوَّل يوم بنائه على التقوى؛ وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعًا لكلمة المؤمنين ومَعقلًا ومَوْئلًا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في مَعْرِضِ مسجد قباء؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزورُ مسجد قباء راكبًا وماشيًا [متفق عليه]. وقد صرَّح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف: ابن عباس، وعُرْوَة بن الزبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح، ولا مُنافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأَوْلى والأحرى. وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعُبَّاد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتَّنَزُّه عن مُلابَسة القاذورات.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لَحَسَن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

الآية (١٠٩-١١٠): يقول تعالى: لا يستوي من أَسَّسَ بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدًا ضرارًا وكُفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل؛ فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف حفيرة ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكًّا ونفاقًا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشَّنيع، أورثهم نفاقًا في قلوبهم؛ كما أُشرِب عابدو العجل حُبَّه. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها؛ من خير وشرّ.

الآية (١١١): يُخبر تعالى أنه عاوَض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قَبِلَ العوض عما يملكه بما تفضَّل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواءً قَتَلوا أو قُتِلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وَجَبَت لهم الجنة؛ ولهذا جاء: «وتَكَفَّل الله لِمَن خرج في سبيله، لا يُخرِجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برُسلي، بِأَنْ تَوَفَّاه أَنْ يُدْخِلَه الجنة، أو يُرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كَتَبَه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كُتُبه الكبار؛ وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفَّى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

الآية (١١٢): هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخِلال الجليلة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال، فمِن أخَصّ الأقوال: الحمد؛ فلهذا قال: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال: الصيامُ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا؛ ولهذا قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [التحريم:٥] أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علمًا وعملًا، فقاموا بعبادة الحقِّ ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتَّصف به. قال ابن مسعود: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصائمون. وكذا رُوي عن ابن عباس. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون. وهذه أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدلُّ على أن السياحة: الجهاد؛ وهو ما روي من حديث أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» [رواه أبو داود، وحسنه الألباني].

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبَّد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرُّد في شواهق الجبال والكهوف والبراري؛ فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين كما ثبت عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القَطْر، يَفِرُّ بدينه من الفتن» [رواه البخاري]. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

الآية (١١٣-١١٤): [سبب النزول]: عن ابن المسيب عن أبيه قال: لَـمَّا حَضَرت أبا طالب الوفاة، دَخَل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أيْ عَم، قل: لا إله إلا الله. كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لك بها عند الله ﷻ». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! فقال: أنا على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] [متفق عليه]. وقال ابن عباس: كانوا يستغفرُون لهم، حتى نَزَلَت هذه الآية، فلمَّا نَزَلَت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلمَّا تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لَـمَّا مات تَبَيَّن له أنه عدو لله. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال ابن مسعود: الأوَّاه: الدَّعَّاء. وقال قتادة: إنه الرحيم، أي: بعباد الله. وقال ابن عباس: المؤمن التوَّاب. وعن مجاهد: الأوَّاه: الحفيظ الوَجِل، يُذنِب الذَّنب سرًّا، ثم يتوب منه سرًّا. قال ابن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنَّه الدَّعَّاء، وهو المناسب للسياق؛ وذلك أن الله تعالى لَـمَّا ذَكَر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليمًا عمن ظَلَمه وأَنَاله مكروهًا؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، فَحَلُمَ عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

الآية (١١٥-١١٦): يقول تعالى مُخبِرًا عن نفسه الكريمة وحُكمه العادل: أنه لا يُضِلُّ قومًا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ الآية [فصلت:١٧]. قال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبيِّن لكم كراهيته ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدّوا نهيه إلى ما نهاكم عنه: فإنه لا يحكم عليكم بالضلال؛ فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يُؤمر به ولم يُنْهَ عنه. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه؛ فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

الآية (١١٧): [سبب النزول]: قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك؛ وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدِبة وحَرٍّ شديد، وعُسْر من الزاد والماء. وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: من النفقة والظَّهْر والزاد والماء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ، ويرتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية (١١٨-١١٩): [سبب النزول]: عن كعب بن مالك قال: كان مِن خبري حين تَخَلَّفْتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطُّ أقوَى ولا أيسَر منّي حين تَخَلَّفْتُ عنه في تلك الغزاة... وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أَصْعَرُ. فتجهَّز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفِقت أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئًا... فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد تَوجَّه قافلًا من تبوك حضرني بَثِّي، فطفقت أتذكر الكَذِب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟... وعرفت أني لم أنجُ منه بشيء أبدًا. فأجمعتُ صِدْقَه، وصَبَّح رسول الله ﷺ... [و]جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له... فقَبِل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب... فقال لي: «ما خلَّفك؟! ألم تَكُ قد اشتريت ظهرك»؟ فقلت: يا رسول الله! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أُعطيتُ جَدَلًا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتُك اليوم حديث كَذب ترضى به عني، ليوشكنَّ الله يُسْخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تَجِدُ عَليّ فيه، إني لأرجو أقرب عقبى ذلك من الله ﷻ، والله ما كان لي عُذر، والله ما كنت قطُّ أَفْرَغ ولا أَيسَر مني حين تَخَلَّفْتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صَدَقَ، فقم حتى يقضي الله فيك». فقمت وبادرني رجال من بني سَلِمَة واتبعوني... فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسي: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قُلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدَا بدرًا لي فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلَّف عنه، فاجتنَبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكَّرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة... فبينا أنا جالس... سمعت صارخًا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. فخررتُ ساجدًا، وعرفت أنْ قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا. فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر... وانطلقت أَؤُمُّ رسول الله ﷺ... فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: «أبشِر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك»! قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله»...وقلت: يا رسول الله! إنما نجّاني الله بالصدق، وإنّ من توبتي ألَّا أُحدّث إلا صدقًا ما بقيت... الحديث [متفق عليه].

[وقوله تعالى]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم، ومخرجًا.

الآية (١٢٠): يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورَغْبَتِهم بأنفسهم عن مواساته فيما حَصَل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلًا يُرهِبُ عدوَّهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظَفَرًا وغلبةً عليه، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ بهذه الأعمال -التي ليست داخلة تحت قُدْرَتِهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم- [أعمالٌ صالحةٌ وثوابٌ جزيلٌ] (١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية (١٢١): ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلًا ولا كثيرًا، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بُعدًا إلا ازدادوا من الله قُرْبًا.

الآية (١٢٢): هذا بيانٌ من الله تعالى لِما أراد مِن نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك؛ فإنه قد ذَهَبَ طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٢٠]، قالوا: فنُسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقَّه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعيَّن. وبعده -صلوات الله وسلامه عليه- تكون الطائفة النافرة من الحيّ إما لِلتَّفَقُّه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: عُصبة، يعني: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعَت السرايا، وقد نَزَل بعدهم قرآن تعلَّمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليُعلِّموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقَّه الذين خرجوا بما يردُّهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

---

(١) ما بين معقوفين ورد في الأصل منصوبًا، وصوابه الرفع: نائب فاعل.

الآية (١٢٣): أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلمَّا فَرَغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوطَّد القواعد، وثبت الدعائم، ورد أهل الردة إلى الإسلام. وكان تمام الأمر على يدي ولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب، ثم لَـمَّا مات شهيدًا أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وَأُمِدَّتْ في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فكُلَّما عَلَوا أمّة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العُتاة الفجَّار، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

وقوله: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم؛ فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر؛ كقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكَّلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه. وهكذا الأمر لَـمَّا كانت القرون الثلاثة -الذين هم خير هذه الأمة- في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى؛ لم يزالوا ظاهرين على عدوِّهم، ولم تزَل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخَسار، ثم لَـمَّا وقَعَت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طَمِع الأعداء في أطراف البلاد، فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرةً، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد. فكلَّما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله فَتَح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله.

الآية (١٢٤-١٢٥): يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾؟ أي: يقول بعضهم لبعض: أيُّكم زادته هذه السورة إيمانًا؟ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ أي: زادتهم شكًّا إلى شكّهم، ورَيبًا إلى رَيبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢]، وهذا من جملة شقائهم: أن ما يهدي القلوب يكون سببًا لضلالهم ودمارهم؛ كما أن سيئ المزاج لو غُذّي بما غُذّي به لا يزيده إلا خبالًا ونقصًا.

الآية (١٢٦-١٢٧): يقول تعالى: أَوَلا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾ أي: يُختبَرُون ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذَّكَّرون فيما يُستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يُختبَرون بالسَّنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، هذا أيضًا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أُنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ أي: تَلَفَّتُوا، ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي: تولَّوا عن الحق وانصرَفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يُقيمونه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شَدَهٍ عنه ونُفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

الآية (١٢٨-١٢٩): يقول تعالى[1] مُمتنًّا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: منكم وبِلُغَتِكُم؛ كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته. وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: يعزُّ عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمّته ويشقُّ عليها، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يُسْرٌ» [رواه البخاري]، وشريعته كلها سهلة سَمْحة كاملة، يسيرة على من يسَّرها الله تعالى عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وقوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥]. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهَّرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت؛ كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٩]. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سَقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَرُه نافذٌ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده.

---

(١) هذا الاستعمال عند ابن كثير يوهم وجود قولٍ، ومقولُه محذوف، أو أن هناك سقطًا. وكأن مراده هنا: «يمتن تعالى على المؤمنين بإرساله إليهم رسولاً من أنفسهم».

تفسير سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

وهي مكية، [وآياتها (١٠٩) آيات، وهي من السبع الطُّوَل، نصَّ عليه ابن عباس وسعيد بن جبير].

الآية (١-٢): أما الحروف المقطَّعة في أوائل السور فقد تقدَّم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال مجاهد: التوراة والإنجيل. وقال الحسن: التوراة والزبور. وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يقول تعالى مُنكِرًا على من تعجّب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر؛ كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣].

[سبب النزول]: قال ابن عباس: لَمَّا بَعَث الله تعالى محمدًا ﷺ رسولًا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس: سَبَقَت لهم السعادة في الذِّكر الأول. وقال: أجرًا حسنًا بما قَدَّموا. وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: الأعمال الصالحة: صلاتهم، وصومهم، وصدقتهم، وتسبيحهم. واختار ابن جرير قول مجاهد -أنها الأعمال الصالحة التي قدَّموها- قال: كما يُقال: «له قَدَمٌ في الإسلام». ومنه قول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لنا القَدَمُ العُليا إليك وخَلْفُنا * لِأوَّلِنا في طاعَة الله تَابِعُ

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا من جنسهم، بشيرًا ونذيرًا، قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

الآية (٣): يخبر تعالى أنه ربُّ العالم جميعه، وأنه خَلَق السموات والأرض في ستة أيام -قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة ممَّا تَعدُّون- ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يُدَبِّر أمر الخلائق؛ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تُغلّطه المسائل، ولا يَتبَرَّمُ بإلحاح المُلِحِّين، ولا يُلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: أَفْرِدُوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم؛ تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرِّد بالخلق؟! كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وقوله: ﴿قُل لِّمَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

الآية (٤): يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة؛ لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذَكَر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يُعذَّبون يوم القيامة بأنواع العقاب من: ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٢-٤٣]. ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٧-٥٨]، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤].

الآية (٥-٦): يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جِرْم الشمس ضياءً، وشعاع القمر نورًا، هذا فنٌّ وهذا فنٌّ آخر، ففاوَت بينهما لئلا يَشْتَبِها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازل؛ فأوَّل ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُوره وجِرْمُه، حتى يَسْتَوْسِق ويكمل إبداره، ثم يَشرَع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسَير القمر تُعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثًا، بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[1] أي: نبيِّن الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقُبهما إذا جاء هذا ذَهَب هذا، وإذا ذَهَب هذا جاء هذا؛ لا يتأخر عنه شيئًا.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى؛ كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [يوسف:١٠٥]، وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [سبأ:٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] أي العقول، وقال ههنا: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقابَ الله، وسخطَه، وعذابَه.

---

(١) قرأ حفص -ومعه ابن كثير القارئ وأبو عمرو ويعقوب-: ﴿يُفَصِّلُ﴾، وقرأ الباقون عدا ابن السميفع: ﴿نُفَصِّلُ﴾ بالنون؛ وهي التي اعتمدها ابن كثير المفسر.

الآية (٧-٨): يقول الله تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئًا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنَّت إليها أنفسُهم. قال الحسن: والله ما زيَّنوها ولا رفعوها حتى رضوا بها؛ وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاءً على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

الآية (٩-١٠): وهذا إخبار عن حال السُّعداء الذين آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين، وامتثلوا ما أُمروا به، فعملوا الصالحات؛ بأنه سيهديهم ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يُحتمل أن تكون «الباء» ههنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يَجوزُوه ويَخلُصُوا إلى الجنة. ويُحتمل أن تكون للاستعانة؛ كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نورًا يمشون به.

وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أُخبِرْتُ أن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم -وذلك دعواهم- فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيُسلِّم عليهم، فيردُّون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهذه الآية فيها شَبَهٌ من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ الآية [الأحزاب:٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدًا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حَمِدَ نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله؛ حيث يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بَسْطُها، وأنه المحمود في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُونَ النَّفَس» [رواه مسلم]، وإنما يكون ذلك كذلك لِمَا يرون مِن تَضاعُف نِعَم الله عليهم، فتُكَرَّر وتُعَاد وتُزَاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

الآية (١١): يخبر تعالى عن حِلمه ولُطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضَجَرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه- لُطفًا ورحمةً، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو أولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية أي: لو استجاب لهم كلَّما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» [رواه مسلم]. وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والْعَنْهُ». فلو يُعجِّل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

الآية (١٢): يخبر تعالى عن الإنسان وضَجَره وقلقه إذا مسَّه الضرّ؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرَّج الله شدته وكشف كُربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء؛ ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

ثم ذمَّ تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مُستثنى من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود:١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيرًا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شَكَر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [رواه مسلم].

الآية (١٣-١٤): أخبر تعالى عمَّا أحلَّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

الآية (١٥-١٦): يخبر تعالى عن تعنُّت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحقَّ المعرضين عنه، أنهم إذا قَرَأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَّته الواضحة قالوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي: ردَّ هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدِّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ﴾ أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مُبلِّغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ثم قال محتجًّا عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوَّله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون علي شيئًا تَغمصُوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟!

الآية (١٧): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقول تعالى: لا أحدَ أظلمُ ولا أعتى ولا أشدُّ إجرامًا ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وتَقَوَّل على الله، وزَعَم أن الله أرسله ولم يكن كذلك؛ فليس أحد أكبر جُرمًا ولا أعظم ظُلمًا من هذا، ومِثل هذا لا يخفى أمرُه على الأغبياء، فكيف يَشْتَبِهُ حالُ هذا بالأنبياء؟! فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا، فلا بد أن الله يَنصِبُ عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس؛ فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لِـمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حِنْدِس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفِعَاله يَستدِلُّ من له بصيرة على صِدْق محمد ﷺ وكَذِب مسيلمة الكذاب وسَجَاح والأسود العَنْسي. قال عبد الله بن سلام: لَـمَّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس، فكنت فيمن انْجَفَل، فلمَّا رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذَّاب [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وكذلك من كَذَّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحُجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله رجلٌ قَتَلَ نبيًّا، أو قَتَلَهُ نبيٌّ» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (١٨-١٩): ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئًا، ولا يقع شيء ممَّا يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟! ثم نَزَّهَ نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وَقَعَ الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان [أخرجه الحاكم وابن سعد، وصححه الألباني]، فبَعَثَ الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدَّم من الله تعالى أنه لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجَّل الخلق إلى أجَل معدود، لَقَضَى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأَسْعَدَ المؤمنين، وأعنَتَ الكافرين.

الآية (٢٠): أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمودَ الناقةَ، أو أن يحوِّلَ لهم الصفا ذَهَبًا، أو يُزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا، أو نحو ذلك ممَّا الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩]، يقول تعالى: إن سُنّتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لَـمَّا خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجِلُوا، وبين أن يتركهم ويُنْظِرهم؛ اختار إنظارهم، كما حلُم عنهم غير مرَّة ﷺ؛ ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه إلى الجواب عمَّا سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم ممَّا سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشقَّ باثنتين: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه [متفق عليه]. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية ممَّا سألوا وما لم يسألوا، ولو عَلِم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبُّتًا لأجابهم، ولكن عَلِم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنُّتًا، فتركهم فيما رَابَهُم، وعَلِم أنهم لا يؤمن منهم أحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأنعام:١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤،١٥]. فمثل هؤلاء أقل من أن يُجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنُّتهم وعنادهم، لكثرة فُجُورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

الآية (٢١-٢٣): يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمةً من بعد ضرَّاء مسَّتهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصْب بعد الجَدْب، والمطر بعد القَحْط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾. قال مجاهد: استهزاءٌ وتكذيب؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصبح على إثْرِ سَمَاءٍ -مَطَرٍ- أصابهم من الليل، ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب» [متفق عليه].

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشدُّ استدراجًا وإمهالًا، حتى يظنَّ الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذَّب، وإنما هو في مُهلة، ثم يُؤخَذ على غِرَّة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويُحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فَيُجَازِيه على الحقير والجليل، والنقير والقِطْمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغْتَلَمَ البحر عليهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هَلَكوا، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا، بل يُفْرِدُونَهُ بالدعاء والابتهال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه الحال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: لا نُشرك بك أحدًا، ولَنُفْرِدَنَّك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة، ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: كأنْ لم يكن من ذاك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحدًا غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يَدّخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم» [رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: فنُخبِرُكم بجميع أعمالكم، ونوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيرًا فليحمد الله، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

الآية (٢٤-٢٥): ضَرَبَ تعالى مثلًا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء، ممَّا يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أَبٍّ وقَضْب[1] وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حَسُنَت بما خَرَج من رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على جَذَاذها وحصادها، فبَيْنَا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأَيْبَسَتْ أوراقها، وأَتْلَفَتْ ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يَبَسًا بعد الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تَنْعَم. وقال تعالى إخبارًا عن المُهْلَكِين: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود:٩٤-٩٥].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبيِّن الحُجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها وتمكُّنِهم بمواعيدها وتَفَلُّتها منهم؛ فإنَّ مِن طَبْعِها الهَرَب ممَّن طلبها، والطلب لمن هَرَبَ منها، وقد ضَرَب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥]، وكذا في سورة الزمر، والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

---

(١) الأَبّ: الكلأ والمرعى للبهائم، والقضب: علف الدواب، أو ما طال من الشجر وبسط أغصانه [ينظر: السراج المنير، والقاموس المحيط].

[رواه الترمذي وابن جرير بلفظه، والبخاري بنحوه].

الآية (٢٦): يخبر تعالى أنّ لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحُسنى في الدار الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف، وزيادة على ذلك، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قُرَّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظرُ إلى وجهه الكريم؛ فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعْطُوهُ، لا يستحقُّونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وقتادة والسدي وغيرهم من السَلف والـخَلف. وقد وَرَدَت في ذلك أحاديثُ كثيرة عن رسول الله ﷺ. عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟!». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم» [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قَتَامٌ وَسَوَادٌ في عَرَصَات المحشر، كما يَعتَرِي وجوه الكفرة الفَجَرة من القترة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقِّهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١] أي: نَضْرَة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

الآية (٢٧): لَـمَّا أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطَف بذكر حال الأشقياء، فذَكَر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تَعْتَرِيهم وتَعْلُوهم ذِلةٌ من معاصيهم وخوفهم منها. وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: من مانع ولا واقٍ يَقِيهم العذاب. وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية، إخبارٌ عن سواد وجوههم في الدار الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

الآية (٢٨-٣٠): يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من جنٍّ وإنس، وبَرٍّ وفاجر؛ كقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ الآية، أي: الزَموا أنتم وهُم مكانًا معيَّنًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرأوا منهم؛ كقوله: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم:٨٢]. وقال في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تَبْكِيتٌ عظيم للمشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، ممَّن لا يسمع ولا يُبصِر، ولا يُغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رَضِيَ به ولا أراده، بل تبرَّأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه.

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، ورَدَّ عليهم فيما هم فيه أتمَّ ردٍّ.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تُخْتَبَرُ كل نفس وتَعْلَمُ ما أَسْلَفَتْ من خير وشرٍّ؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣]. وقوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، فَفَصَّلَهَا، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذَهَبَ عن المشركين، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراءً عليه.

الآية (٣١-٣٣): يحتجّ تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانيته الإلهية، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًّا بقدرته ومشيئته، فيُخرِج منها ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٢٧-٣١]، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٠] ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١]، وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وَهَبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذَهَب بها وسلَبكم إياها.

وقولـــه: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومِنَّته العميمة، وقد تقدَّم ذِكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامَّة في ذلك كله[1]. وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ﴿مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وهو المُتَصَرِّف الحاكم الذي لا مُعَقِّب لحكمه، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، فالمُلك كله العُلْوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجانّ فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟ وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يُفرَد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خلق كل شيء، والمُتَصَرِّف في كل شيء؟ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كما كَفَر هؤلاء المشركون واستمرُّوا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يَعترِفون بأنه الخالق الرازق المُتَصَرِّف في الملك وحده، الذي بَعَث رسله بتوحيده؛ فلهذا حَقَّت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار؛ كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

---

(١) عند تفسير الآية (٢٧) من سورة آل عمران، ص ٥٣.

الآية (٣٤-٣٦): وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويُفَرِّقُ أَجْرَام السموات والأرض، ويُبْدِلُـهُمَا بفناء ما فيهما، ثم يُعِيد الخلق خلقًا جديدًا؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقلُّ به وحده لا شريك له، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تُصْرَفُون عن طريق الرُّشْدِ إلى الباطل؟! ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضالٍّ، وإنما يهدي الحيارى والضلَّال، ويقلب القلوب من الغَيّ إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أَفَيُتَّبع العبد الذي يهدي إلى الحقِّ ويُبَصِّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهْدَى؛ لِعَمَاه وبَكَمه؟! وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سَوَّيْتُم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟! وهلَّا أفردتم الربَّ جَلَّجَلَالُهُ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بيَّن تعالى أنهم لا يتَّبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، وإنما هو ظنٌّ منهم؛ أي: تَوَهُّمٌ وَتَخَيُّلٌ، وذلك لا يُغني عنهم شيئًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أَخبَر أنه سيُجَازِيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

الآية (٣٧-٤٠): هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سُوَر، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشْبِهُهُ شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يُشْبِه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلَّا من عند الله، ولا يُشْبِه هذا كلام البشر، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكُتُب المتقدِّمة، ومهيمنًا عليها، ومبيِّنًا لِـمَا وَقَع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًّا لا مِريَة فيه من الله رب العالمين. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن ادَّعيتم وافتريتم وشكَكتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كَذِبًا ومَيْنًا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بَشَرٌ مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فَأْتُوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قَدَرتم عليه من إنس وجانٍّ. وهذا هو المقام الثالث في التحدّي؛ فإنه تعالى تحدّاهم ودعاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، ثم تَقَاصَرَ معهم إلى عَشْرِ سُوَرٍ منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود:١٣]، ثم تَنَازَلَ إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وكذا في سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآية [البقرة:٢٤]. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلّقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عَرَف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجَزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدَّهم له انقيادًا، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُوتِي من الآيات ما آمَن على مثلِه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» [متفق عليه].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يقول: بل كذَّب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رُسُلَنا ظلمًا وعلوًّا، وكفرًا وعنادًا وجهلًا، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم. ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتَّبعك وينتفع بما أُرسِلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك، ويُبْعَث عليه. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحقُّ الهداية فيَهْدِيه، ومن يستحقُّ الضلالة فيُضِلّه، وهو العادل الذي لا يَجُور، بل يُعطِي كلًّا ما يَستَحِقُّه، تبارك وتعالى وتقدَّس وتَنَزَّهَ، لا إله إلا هو.

الآية (٤١-٤٢): يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كَذَّبك هؤلاء المشركون فتبَرَّأ منهم ومن عَمَلهم ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها [الكافرون:١-٦].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحَسَن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم؛ فإنك لا تقدر على إسماع الأصمّ -وهو الأطرش- فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

الآية (٤٣-٤٤): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسَّمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوّتك لأولي البصائر والنُّهَى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء ممَّا يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية [الفرقان:٤١].

ثم أخبر تعالى أنه لا يَظْلِمُ أحدًا شيئًا، فهو الحاكم المُتَصَرِّف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأَل عما يفعل وهم يُسألون؛ لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفي الحديث عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحَرَّمًا؛ فلا تَظَالَموا» إلى أن قال في آخره: «يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أُحْصِيها لكم، ثم أُوَفِّيكُم إياها، فمن وَجَدَ خيرًا فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه» [رواه مسلم].

الآية (٤٥): يقول تعالى مُذكِّرًا للناس قيام الساعة وحَشرِهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية؛ كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٢-١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيتين [الروم:٥٥-٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة؛ كقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كلٌّ مشغول بنفسه، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ الآية [المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الآيات [المعارج:١٠].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥]؛ لأنهم ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

الآية (٤٦-٤٧): يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتَقِم منهم في حياتك لتقرَّ عينُك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومُنْقَلَبُهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة. ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية [الزمر:٦٩].

فكل أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكِتَابُ أعمالها من خيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهد عليهم، وحفَظَتُهُم من الملائكة شهودٌ أيضًا؛ أُمَّةً بعد أُمَّةٍ. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أوَّل الأمم يوم القيامة يُفْصَلُ بينهم ويُقْضَى لهم، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق» [متفق عليه]، فأُمَّته إنما حازت قَصَب السَّبْق لشَرَف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

الآية (٤٨-٥٢): يقول تعالى مخبرًا عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذَاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه؛ كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨] أي: كائنةٌ لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينًا، ولهذا أرشَدَ رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: لا أقول إلا ما علَّمني، ولا أقدر على شيء ممَّا استأثر به إلا أن يُطلعني عليه؛ فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل قَرْن مدَّة من العمر مُقدَّرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، كقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتةً، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلًا أو نهارًا، ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية [السجدة:١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة يُقال لهم هذا تبكيتًا وتقريعًا؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٣-١٦].

الآية (٥٣): يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا، ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابًا بمُعجِز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أُخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقُسِم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

الآية (٥٤): ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يوَدُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية (٥٥-٥٦): يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنَّ وعده حقٌّ كائن لا محالة، وأنه يُحيي ويُميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تَفرَّق من الأجسام وتَمزَّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

الآية (٥٧-٥٨): يقول تعالى مُمتنًّا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: من الشُّبَه والشكوك؛ وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمُصَدِّقين الموقنين بما فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق، فليفرحوا؛ فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

الآية (٥٩): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن أسلم: نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يُحَرِّمُون ويُحِلُّون من البَحَائِر والسَّوَائِب والوصايا؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآيات [الأنعام:١٣٦].

عن مالك بن نضلة قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشِفٌ(١) الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قلت: من كل المال؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا آتاك مالًا فَلْيُرَ عليك». وقال: «هل تُنْتَجُ إبلُ قومك صحاحًا آذانُها، فتَعَمَد إلى موسًى فتَقْطَع آذانها، فتقول: هذه بُحُرٌ(٢)، وتَشُقُّهَا أو تَشُقُّ جلودها، وتقول: هذه صُرُمٌ(٣)، وتُحَرِّمُهَا عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حِلٌّ، وساعِدُ الله أشدُّ من ساعِدِك، وموسى الله أحدُّ من موساك» وذكر تمام الحديث، وهذا حديث جيد قوي الإسناد. [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (٦٠): قد أنكر تعالى على من حَرَّم ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حَرَّم بمجرَّد الآراء والأهواء، التي لا مُستند لها ولا دليل عليها. ثم توعَّدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنّهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: في تَركِه مُعاجلتَهم بالعقوبة في الدنيا. قلتُ: ويحتمل أن يكون المراد لذو فَضْل على الناس فيما أباح لهم ممَّا خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحَرِّم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرِّمون ما أنعم الله به عليهم، ويُضَيِّقُون على أنفسهم، فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا. وهذا قد وَقَع فيه المشركون فيما شَرَعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

الآية (٦١): يُخبِر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يَعزُب عن عِلمه وبَصَره مثقالُ ذرَّة في حقارتها وصِغَرِها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين؛ كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدَّواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الآية [الأنعام:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الآية [هود:٦]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المُكَلَّفِين المأمورين بالعبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لَـمَّا سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم].

---

(١) القشِف: من لا يتعاهد الغسل والنظافة [ينظر: تهذيب اللغة].

(٢) يقال لكل شقٍّ: بَحْر؛ فالإبل البُحُر هي مشقوقة الأذن؛ وهي (البحيرة) التي كان العرب في الجاهلية يشقون آذانها ويتركونها لا تُركب ولا تُحلب. [ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة].

(٣) صُرُمٌ: جمع صَرِيم، وهو الذي صُرِمَتْ أُذُنُه؛ أَيْ: قُطِعَتْ. وَالصَّرْمُ: الْقَطْعُ. [ينظر غريب الحديث لابن الجوزي، (باب الصاد مع الراء)].

الآية (٦٢-٦٣): يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتَّقون، كما فسَّرهم ربهم؛ فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا: فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله: الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عبادًا يَغْبِطُهُمُ الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نُحبُّهم. قال: «هم قوم تَحَابُّوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [رواه ابن جرير وابن حبان، وصححه الألباني].

الآية (٦٤): ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيَحمَده الناس عليه، ويُثْنُون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [رواه مسلم]. وعن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعُرْوَة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النَّخَعي وعطاء ابن أبي رباح: أنهم فَسَّرُوا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]. وفي حديث البراء: «أن المؤمن إذا حَضَرَه الموت، جاءه ملائكة بِيض الوجوه، بِيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى رَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان. فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فَمِ السِّقاء» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني].

وأما بُشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد:١٢].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يُبَدَّلُ ولا يُخْلَفُ ولا يُغَيَّرُ، بل هو مقرَّر مُثْبَت كائن لا محالة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

الآية (٦٥-٦٧): يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكَّل عليه؛ فإن ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئًا؛ لا ضرًّا ولا نفعًا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتَّبعون في ذلك ظنونهم وتخرُّصهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه؛ أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكَلَالِهِم وحَرَكاتهم، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئًا لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلُّون على عظمة خالقها، ومقدِّرها ومسيِّرها.

الآية (٦٨-٧٠): يقول تعالى منكرًا على من ادَّعى أن له ولدًا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: تقدَّس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد ممَّا خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟!

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان!

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٥].

ثم توَعَّد تعالى الكاذبين عليه المُفْتَرِين، ممن زَعَم أن له ولدًا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة؛ فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متَّعهم قليلًا، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال ههنا: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مدة قريبة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: المُوجِع المُؤْلِم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكَذِبهم على الله، فيما ادَّعوه من الإفك والزور.

الآية (٧١-٧٣): يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصُص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذِّبونك ويخالفونك، ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خَبَره مع قومه الذين كذَّبوه؛ كيف أهلكهم الله ودَمَّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي: عَظُم عليكم ﴿مَّقَامِى﴾ فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحُجَجِه وبراهينه، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكفُّ عنكم، سواءً عَظُمَ عليكم أو لا! ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووَثَن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم مُلْتَبِسًا، بل افصلوا حالكم معي؛ فإن كنتم تزعمون أنكم مُحِقُّون فـ﴿ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تُؤَخِّروني ساعةً واحدةً؛ أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء؛ كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود:٥٤-٥٦].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذَّبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نُصحي إياكم شيئًا، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا مُمْتَثِلٌ ما أُمِرْتُ به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء من أوَّلهم إلى آخرهم، وإن تنوَّعت شرائعهم وتعدَّدت مناهجهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] قال ابن عباس: سبيلًا وسُنَّةً. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣١-١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقالت السَّحَرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وقالت بلْقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد» [متفق عليه]. أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوَّعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد عَلَّات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: على دينه، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا الـمُكَذِّبين.

الآية (٧٤): يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح، ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أوَّل ما أُرْسِلُوا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طَبَع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدِّم، هكذا يَطبَع الله على قلوب مَن أشبَهَهُم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يَروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الإسلام، إلى أن أَحدَث الناس عبادة الأصنام، فبَعَث الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض [متفق عليه]. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون؛ كلهم على الإسلام [رواه ابن جرير والحاكم، وصححه الألباني]. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذَّبوا بسيِّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين؛ فإنه إذا كان قد أصاب من كذَّب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنَّكال، فماذا ظنُّ هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟!

الآية (٧٥-٧٨): يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: قومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: حُجَجنا وبراهيننا، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم -قبَّحهم الله- أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كَذِبٌ وبهتان؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤]. ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مُنكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تَثْنِينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: الدِّين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لكَ ولهارون ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية (٧٩-٨٢): ذكر سبحانه قصة السحرة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف، وقد تقدَّم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله- أراد أن يُعارض ما جاء به موسى من الحقِّ المبين، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطَفُّوا -وقد وُعِدُوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:٦٥-٦٦]، فأراد موسى أن تكون البَدَاءةُ منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيَدْمَغ باطلهم؛ ولهذا لَـمَّا ﴿أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٧-٦٩]. فعند ذلك قال موسى لَـمَّا ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

الآية (٨٣): يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات- إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية -وهم الشباب- على وَجَلٍ وخوف منه ومن مَلَئِهِ، أن يردُّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبَّارًا عنيدًا مُسرفًا في التمرُّد والعُتُوِّ، وكانت له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا. قال ابن عباس: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى مِن أناس غير بني إسرائيل؛ من قوم فرعون يسير؛ منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ﴾ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يُخَاف منه أن يَفتِنَ عن الإيمان سوى قارون؛ فإنه كان من قوم موسى، فبَغَى عليهم. ومِمَّا يدلُّ على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن: قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

الآية (٨٤-٨٦): يقول تعالى مُخبرًا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ مَن توكَّل عليه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]. وكثيرًا ما يَقْرِنُ الله بين العبادة والتوكُّل؛ كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩]، وأَمَر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعدِّدة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تُظْفِرْهُم بنا، وتُسَلِّطْهُم علينا، فيظنُّوا أنهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيُفتَنُوا بذلك. هكذا روي عن أبي مِجْلَز وأبي الضُّحى. وقال مجاهد: لا تعذِّبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، ولا سُلِّطْنا عليهم، فيُفتَنُوا بنا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلِّصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكَّلنا عليك.

الآية (٨٧): يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم؛ وذلك أن الله تعالى أَمَر موسى وأخاه هارون عليهما السلام ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: يتَّخذا لقومهما ﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾.

عن ابن عباس: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أُمِرُوا أن يتَّخِذوها مساجد. وكأن هذا -والله أعلم- لَـمَّا اشتدَّ بهم البلاء من قِبَل فرعون وقومه، وضَيَّقوا عليهم، أُمِرُوا بكثرة الصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:١٥٣].

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه[1] أَمْرٌ صَلَّى [رواه أحمد وأبو داود، وحسنه الألباني]. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب. وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: قالت بنو إسرائيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا نستطيع أن نُظهِر صلاتنا مع الفراعنة. فأَذِن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأُمِرُوا أن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: لَـمَّا خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يُقْتَلُوا في الكنائس الْجَامِعَة، أُمِرُوا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلةً الكعبة، يُصَلُّون فيها سرًّا. وكذا قال قتادة والضحاك.

الآية (٨٨): هذا إخبار من الله تعالى عمَّا دعا به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وَمَلَئه، لَـمَّا أَبَوْا قبول الحقِّ واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًّا وتكبُّرًا وعتوًّا، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: لِيَفْتَتِنَ بما أعطيتهم من شئت من خلقك، لِيَظُنَّ من أَغْوَيْتَه أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لِـحُبِّك إياهم، واعتنائك بهم.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانت.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. وهذه الدعوة كانت من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضَبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبيَّن له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء؛ كما دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهم هذه الدعوة التي أَمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩].

---

(١) حزبه الأمر: نابه واشتد عليه، أو ضغطه [القاموس المحيط].

الآية (٨٩): ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فامضيا لأمري، وهي الاستقامة.

الآية (٩٠-٩٢): يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لَـمَّا خرجوا من مصر صحبة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم -فيما قيل- ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القِبْط حُلِيًّا كثيرًا، فخرجوا به معهم، فاشتدَّ حَنَق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فرَكِب وراءهم في أُبَّهة عظيمة، وجيوش هائلة لِـمَا يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلَّف عنه أحد ممَّن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، وذلك أنهم لَـمَّا انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبقَ إلا أن يتقاتل الجمعان، وألَحَّ أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه في السؤال كيف الـمَخْلَصُ ممَّا نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أَسْلُكَ ههنا ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتَّسع، فأمَره الله تعالى أن يَضرب البحر بعصاه، فضَرَبه فانفَلَق البحر، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقًا، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنَشَّفت أرضه ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، وجازت بنو إسرائيل البحر، فلمَّا خَرَج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافَّته من الناحية الأخرى، أَمَر اللهُ القدير البحرَ أن يَرْتَطِمَ عليهم، فلم يَنْجُ منهم أحد، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟! ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض، الذين أضلوا الناس؛ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]. وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرار الغيب التي أَعْلَمَ الله بها رسوله؛ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالا من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة» [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شَكُّوا في موت فرعون، فأَمَر الله تعالى البحر أن يُلقِيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به، على نَجوَة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليَتحقَّقوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نَشَز من الأرض، ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويًّا صحيحًا، أي: لم يتمزَّق ليتحقَّقوه ويعرفوه. وكل هذه الأقوال لا مُنافَاة بينها، كما تقدَّم، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابَّة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: لا يتَّعِظُون بها، ولا يعتبرون. وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء؛ كما روي عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينَة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فصوموه» [متفق عليه].

الآية (٩٣): يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه؛ فإن الله تعالى لَـمَّا أهلك فرعون وجنوده استقرَّت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، ولكن استمروا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنَكَل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة، فشرَّدَهم الله تعالى في التِّيْه أربعين سنةً.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم وأزال عنهم اللَّبس. وقد وَرَد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد [وصححه الألباني]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَفصِل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الآية (٩٤-٩٧): هذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدِّمة التي بأيدي أهل الكتاب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧]. ثم مع هذا العلم -يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم- يلبسون ذلك ويحرِّفونه ويبدِّلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيمانًا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفسًا إيمانها؛ ولهذا لَـمَّا دعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

الآية (٩٨): يقول تعالى: فهلَّا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذَّبه قومه، أو أكثرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس:٣٠]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء، فجَعَل النبي يمرُّ ومعه الفِئام من الناس، والنبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد»، ثم ذكر كثرة أتباع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم ذكر كثرة أُمّته صلوات الله وسلامه عليه كثرةً سَدَّت الخافقين: الشرقي والغربي [متفق عليه].

والغرَض: أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم -ممَّن سَلَف من القرى- إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخَرَج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟! على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والقول الثاني: فيهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات:١٤٧-١٤٨]، فأَطْلَقَ عليهم الإيمان، والإيمان مُنْقِذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

الآية (٩٩-١٠٠): يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، لأَذِنَ لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [الرعد:٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تُلْزِمُهم وتُلْجِئُهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفَعَّال لِمَا يُريد، الهادي من يشاء، المُضِلُّ لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ وهو الخَبَال والضَّلال ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ حُجَجَ الله وأدلَّته، وهو العادل في كل ذلك: في هداية من هدى، وإضلال من ضلَّ.

الآية (١٠١-١٠٣): يُرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، ممَّا في السموات من كواكب نيّرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحُسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذَرَأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مُذلَّل للسالكين؛ يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحُججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون؟! كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خَلَوا من قبلهم من الأمم المكذِّبة لرسلهم؟!

﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ونهلك المكذِّبين بالرسل.

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: حقًّا أَوجَبَه تعالى على نفسه الكريمة؛ كقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعام:١٢] كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» [متفق عليه].

الآية (١٠٤-١٠٦)[1]: يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو ﴿ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقًّا، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتَضُرَّني، فإنها لا تضرُّ ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أَخلِص العبادة لله وحده ﴿حَنِيفٗا﴾ أي: مُنْحَرِفًا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) لم يفسر ابن كثير رحمه الله الآية (١٠٦) وهاكم تفسيرها من كلام السعدي: هذا وصف لكل مخلوق: أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى، ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ بأن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

الآية (١٠٧): **قوله:** ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ **الآية، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد؛ فهو الذي يستحق العبادة وحده، لا شريك له. وقوله:** ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أيّ ذنب كان، حتى من الشرك به؛ فإنه يتوب عليه.**

الآية (١٠٨): **يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مِرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه.**

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ **أي: وما أنا موكّل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.**

الآية (١٠٩): **قوله:** ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ **أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس** ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ **أي: يفتح بينك وبينهم** ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ **أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.**

تفسير سورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ

وهي مكية. [وعدد آياتها (١٢٣) آيةً].

[فضل السورة]: **عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قد شِبْتَ! قال: «شيّبتني هود والواقعة والمرسلات و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»** [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١): **قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، وبالله التوفيق.**

وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ **أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها؛ فهو كاملٌ صورةً ومعنى. هذا معنى ما رُويَ عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.**

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ **أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.**

الآية (٢): **قوله:** ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له؛ كقوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، **وقال:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ **أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه؛ كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بُطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تُصَبّحُكم، ألَسْتُم مُصدِّقي؟» فقالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»** [متفق عليه].

الآية (٣): **قوله:** ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ **أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك** ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ **أي: في الدنيا** ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ **أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة؛ كقوله:** ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. **وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أُجِرْت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك»** [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ **هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذَّب رسله؛ فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة.**

الآية (٤): ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ **أي: معادكم يوم القيامة،** ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مَقام الترهيب، كما أن الأول مَقام ترغيب.**

الآية (٥): **قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وِقاعِهم، فأنزل الله هذه الآية. وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلّوا فيُفْضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخاري: عن ابن عباس:** ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: **يغطون رؤوسهم.**

وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات. وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم؛ أي: إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئًا أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ **من القول** ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ **أي: يعلم ما تُكنّ صدورهم من النيات والضمائر والسرائر.**

وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى:

فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نفوسكم * ليخفى، فمهما يُكتَم الله يَعْلم

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره، وغطى رأسه، فأنزل الله ذلك.

وعَود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

الآية (٦): أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض؛ صغيرها وكبيرها، بحريّها وبرّيها، وأنه يعلم ﴿مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه مِن وكْرِها، وهو مستودعها. وقال ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك؛ كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

الآية (٧): يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك. عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر[1] مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» [رواه مسلم]. وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن يخلق شيئًا. وقال قتادة: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى؛ إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد. قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فَقَد العملُ واحدًا من هذين الشرطين بَطَلَ وحَبِطَ. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولون كفرًا وعنادًا: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْتَهُ، فهو يتبعك على ما تقول.

الآية (٨): ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يقول تعالى: ولئن أخّرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبًا واستعجالًا: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا؟! فإن سجاياهم قد أَلِفَت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. و«الأُمّة» تُستعمل في القرآن والسنة في مَعانٍ متعددة، فيُراد بها: الأمد؛ كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، وتستعمل في الإمام المقتدَى به؛ كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وتستعمل في الملة والدين؛ كقوله إخبارًا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. وتستعمل في الجماعة؛ كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٤٧] والمراد من الأمة ههنا: الذين يبعث فيهم الرسول؛ مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

الآية (٩-١١): يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة -إلا مَن رحم الله من عباده المؤمنين- أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفرٌ وجحود لماضي الحال؛ كأنه لم يرَ خيرًا، ولم يَرْج بعد تلك فرجًا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضَيْم ولا سُوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده، بَطِرٌ فخور على غيره. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء؛ كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَب ولا وَصَب، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه» [متفق عليه].

الآية (١٢): يقول تعالى مُسَلّيًا لرسوله ﷺ، عما كان يتعنَّت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧-٨]. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يصدنّه ذلك ولا يَثْنينه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧]، وقال ههنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟﴾ أي: لقولهم ذلك؛ فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبُوا وأوذُوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

---

(١) الذي في صحيح مسلم: (كتب) بدلاً من (قدَّر)، وقد أبقيناها كما هي عند ابن كثير إذ لعله اعتمد على نسخ لمسلم غير موجودة حاليًا؛ خاصة أن كلاً من ابن حجر في الفتح، وابن تيمية في العديد من مؤلفاته، وكذا ابن القيم؛ كلهم ذكروا الحديث بلفظ (قدَّر) كما فعل ابن كثير.

الآية (١٣): بيَّن تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزَّه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

الآية (١٤): قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

الآية (١٥-١٦): قال ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يُعطَون بحسناتهم في الدنيا؛ وذلك أنهم لا يُظلمون نقيرًا، يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا، صومًا أو صلاة أو تهجُّدًا بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أُوفّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحَبِطَ عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وهكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد. وقال قتادة: من كانت الدنيا همَّهُ وطِلْبَتَهُ ونيّتَهُ، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطَى بها جزاء. وأما المؤمن فيُجازَى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:١٨-٢١]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

الآية (١٧): يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية [الروم:٣٠]. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه؛ كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرَة المُكَمِّلَة المعظَّمة المُخْتَتَمَةِ بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كُلًّا من جبريل ومحمد -صلوات الله عليهما- بلَّغ رسالة الله تعالى؛ فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى؛ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة منَّ الله بها، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ثم قال تعالى متوعدًا لمن كذّب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض: مشركهم، وكافرهم، وأهل الكتاب، وغيرهم من سائر طوائف بني آدم، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلَغَهُ القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» [رواه مسلم].

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك؛ كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

الآية (١٨-١٩): يبين تعالى حال المفتَرين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من: الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان؛ عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عَرَضَ له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «إن الله عز وجل يُدني المؤمن، فيضع عليه كنَفَه، ويستره من الناس، ويقرِّره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [متفق عليه].

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ويجنبونهم الجنة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجًا غير معتدلة، ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

الآية (٢٠): ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغَلَبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢]، وفي الصحيحين: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يضاعف عليهم العذاب؛ وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميًا عن اتباعه؛ كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]؛ ولهذا يُعذَّبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

الآية (٢١-٢٢): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارًا حامية، فهم مُعذّبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئًا، بل ضرّتهم كل الضرر؛ كما قال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خُسْرِهِمْ ودمارهم. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميمٍ آن، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

الآية (٢٣): لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعَملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولًا وفعلًا، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغُرَف العاليات، والسُّرر المصفوفات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشْحُ مِسكٍ يعرقون.

الآية (٢٤): ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولًا بالشقاء، والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصمّ عن سماع الحجَج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية [الأنفال:٢٣]، وأما المؤمن ففَطِن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميعٌ للحجة، يفرق بينها وبين الشُّبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠].

الآية (٢٥-٢٧): يخبر تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذابًا أليمًا مُوجعًا شاقًّا في الدار الآخرة. قوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ الملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أُوحي إليك من دوننا؟! ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا؛ كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: في أول بادئ الرأي، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَـمَّا دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ فإنه ليس بعارٍ على الحق رَذَالة من اتبعه؛ فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبًا أنَّ ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته. وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، والرسل إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفَّاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

الآية (٢٨): يقول تعالى مخبرًا عما ردَّ به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها ورَدِّها، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: نغصبكم بقبولها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

الآية (٢٩): ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالًا؛ أُجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشامًا ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم؛ كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسًا خاصًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام:٥٢]، [وقال]: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الآيات [الأنعام:٥٣].

الآية (٣٠):(١)

الآية (٣١): ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يخبرهم أنه رسولٌ من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم أنه لا يَقدِر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم، الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنًا، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحدٌ بِشَرٍّ بعد ما آمنوا، لكان ظالمًا قائلًا ما لا علم له به.

الآية (٣٢): يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب؛ ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الآية (٣٣): ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يُعجِزُه شيء.

الآية (٣٤): ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أيْ: أيّ شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزِمَّة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

الآية (٣٥): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكد لها، مقرر لها؛ يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعَله من عنده. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: فإثم ذلك علي، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مُفتعَلًا، ولا مُفترًى؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

الآية (٣٦): يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوحُ دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يُهِمَّنك أمرهم.

الآية (٣٧): ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: تعليمنا لك ما تصنعه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

---

(١) لم يفسر ابن كثير -رحمه الله- هذه الآية، وقد قال السعدي فيها: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: من يمنعني من عذابه؟ فإنَّ طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتَدَبَّرون الأمور؟!

الآية (٣٨-٣٩): قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يهزؤون به ويُكذِّبون بما يتوعدهم به من الغرق. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبدًا.

الآية (٤٠): هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهَتَّان الذي لا يُقْلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١١-١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض؛ أي: صارت الأرض عيونًا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف، وعلماء الخلف. فحينئذٍ أمر الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين -من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات- اثنين: ذكرًا وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: من قومك، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نَزْر يسير مع طول المدة والمُقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسًا منهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسًا. وقيل: كانوا عشرة. والله أعلم وأحكم.

الآية (٤١): يقول تعالى إخبارًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال للذين أُمِر بحملهم معه في السفينة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوُّها. وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩]؛ ولهذا تُستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة، وعلى الدابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، وجاءت السنّة بالحث على ذلك والندب إليه. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم؛ كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

الآية (٤٢): ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّق جميع الأرض، حتى طفَتْ على رؤوس الجبال، وهذه السفينة على وجه الماء سائرةٌ بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته، وحراسته وامتنانه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٣-١٥].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافرًا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون.

الآية (٤٣): ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجَّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: ليس شيء يعصِم اليوم من أمر الله، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

الآية (٤٤): يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلِعَ عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: شَرَع في النقص، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبةً ممن كفر بالله؛ لم يبق منهم دَيَّار، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقال قتادة: استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها.

قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على الجُودي من أرض الجزيرة عِبرةً وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رمادًا! وقال الضحاك: الجُوديّ: جبل بالموصل. وقال بعضهم: هو الطور.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكًا وخسارًا لهم، وبُعدًا من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

الآية (٤٥): ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدُك الحق الذي لا يُخلَف، فكيف غرق ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟

الآية (٤٦-٤٧): ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتُ إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق؛ لكُفره ومخالفته أباه نبيَّ الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْية. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنَتْ امرأة نبيٍّ قطّ! قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتُك نجاتَهم.

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ فإن الله سبحانه أغْيَرُ من أن يُمكّن امرأة نبيٍّ من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رَمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوجَ النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١-١٥].

وقال ابن عباس: هو ابنه، غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عَمِل عملًا غير صالح».

الآية (٤٨): ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عما قيل لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أرست السفينة على الجوديّ، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة.

وقال ابن إسحاق: لما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدَّت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية [هود:٤٤]، فجعل الماء ينقص ويَغيض ويُدْبِرُ، و﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ الآية.

الآية (٤٩): ﴿تِلْكَ﴾ يقول تعالى لنبيّه ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة؛ نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها، ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: نُعلمك بها وحيًا منا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يُكَذِّبُك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذَّبك من قومك وأذاهم لك؛ فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ الآية [الصافات:١٧١-١٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الآية (٥٠-٥١): ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى ﴿عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أُجرةً على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطرَهُ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أُجرة.

الآية (٥٢): ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسَّر الله عليه رزقه، وسهَّل عليه أمره، وحفظ شأنه؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

الآية (٥٣): يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيِّهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدَّعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

الآية (٥٤-٥٥): **قوله:** ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ **يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها.** ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ﴾، **يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام،** ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ **أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقًّا،** ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ **أي: طرفة عين.**

الآية (٥٦): **قوله:** ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ **أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه؛ فإنه** ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقد تضمن هذا المقام حجةً بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

الآية (٥٧): ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ **يقول لهم هود: فإن تولَّوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها** ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ **يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم؛ فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وَبَالُ ذلك عليكم.**

قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ **أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشَرّ.**

الآية (٥٨): **قوله:** ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ **وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجَّى هودًا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.**

الآية (٥٩): **قوله:** ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ **كفروا بها، وعَصَوا رُسل الله؛ وذلك أن من كفر بنبيٍّ فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود، فَنُزِّل كفرُهم منزلة مَن كفر بجميع الرسل.**

الآية (٦٠): **قوله:** ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ **تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذُكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد** ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ **الآية. قال السُّدّي: ما بُعث نبيٌّ بعد عاد إلا لُعنوا على لسانه.**

الآية (٦١): **يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى** ﴿ثَمُودَ﴾ **وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحِجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم** ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ **فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال:** ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ **أي: ابتدأ خلقكم منها؛ خلق منها أباكم آدم،** ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ **أي: جعلكم عُمَّارًا تعمرونها وتستغلونها،** ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ **لسالف ذنوبكم،** ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ **فيما تستقبلونه** ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾؛ **كما قال تعالى:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة:١٨٦].

الآية (٦٢): **يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح** عليه السلام **وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم:** ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ **أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت!** ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ **وما كان عليه أسلافنا** ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ **أي: شك كثير.**

الآية (٦٣): **قوله تعالى:** ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ **فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان،** ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ **وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني** ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ **أي: خسارة.**

الآية (٦٤-٦٨): **تقدم الكلام عليها في سورة «الأعراف»**[1].

الآية (٦٩): **يقول تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ **وهم الملائكة** ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ **قيل: تُبشّره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى:** ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]. ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ **أي: عليكم.** ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ **أي: ذهب سريعًا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر، حَنِيذ: مَشْويّ على الرّضْف، وهي الحجارة المُحْماة. هذا معنى ما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد؛ كما قال في الآية الأخرى:** ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧]. **وقد تضمَّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.**

الآية (٧٠-٧١): **وقوله:** ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ **تنكرهم** ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ **وذلك أن الملائكة لا همّة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكُلّية، فعند ذلك** ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

وقوله تعالى إخبارًا عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ **أي: قالوا: لا تَخَفْ منا،** ﴿إِنَّآ﴾ **ملائكة** ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ **لِنُهلكهم. فضحكت سارة استبشارًا بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.**

قال ابن عباس: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ **أي: حاضت.** ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ **أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق؛ كما قال في آية البقرة:** ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]. **ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه؟! فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعيَّن أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصَحِّه وأَبْيَنِه، ولله الحمد.**

---

(١) ما في سورة الأعراف مما له تعلق بالآيات ههنا هو تفسير الآيتين: (٧٨،٧٧)، ص ١٦٠، وهو قول ابن كثير -رحمه الله-: أقامت الناقة وفصيلها -بعد ما وضعته بين أظهرهم- مدةً تشرب من بئرها يومًا، وتدَعُه لهم يومًا، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. فلمَّا طال عليهم ذلك واشتدَّ تكذيبهم لصالح النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَزَمُوا على قتلها؛ ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدلَّ على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح فكانت -يعني الناقة- ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحدًا كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» [رواه أحمد وهو على شرط مسلم].

الآية (٧٢-٧٣): قوله: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ الآية، حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩]، كما جرَت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله؛ فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنتِ عجوزًا عقيمًا، وبعلك شيخًا كبيرًا؛ فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله؛ محمود مُمجَّد في صفاته وذاته.

الآية (٧٤-٧٦): يخبر تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لما ذهب عنه الرَّوع، وهو ما أوْجَس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشَّروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتُهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟! قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟! قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟! قالوا: لا. قال: ثلاثون؟! قالوا: لا. حتى بلغ خمسةً، قالوا: لا. قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الآية [العنكبوت:٣٢]، فسكت عنهم واطمأنَّت نفسه. قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها. قوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

الآية (٧٧-٧٨): يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ في أرض له، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شُبَّان حِسَان الوجوه، ابتلاءً من الله، وله الحكمة والحجة البالغة، فساءَهُ شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُضِفْهم أن يُضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء. قوله: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: شديدٌ بلاؤه؛ وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم، ويشقُّ عليه ذلك. وقال السُّدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فبلغوا نهر سَدُوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم، وفَرِقَتْ عليهم مِن قومها، فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أدرك فتيانًا على باب المدينة، ما رأيت وجوهَ قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وكان قومه نَهَوْهُ أن يُضيف رجلًا، فقالوا: خلِّ عنا فلْنُضِف الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاؤوا يُهرعون إليه.

وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون مِن فرحهم بذلك. وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيّتهم حتى أُخذوا وهم على ذلك الحال.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يرشدهم إلى نسائهم؛ فإن النبي للأُمّة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر:٧٠] أي: ألم نَنْهَك عن ضيافة الرجال؟! ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧١-٧٢]، وقال في هذه الآية: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يَكُنَّ بناته ولكن كُنَّ من أُمَّتِهِ، وكل نبيٍّ أبو أُمَّتِه. وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يَعرض عليهم سِفاحًا. وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: فيه خير، يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه؟!

الآية (٧٩): ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرَبَ لنا فيهن ولا نشتهيهنّ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟! قال السُّدِّي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

الآية (٨٠-٨١): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن لوطًا توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لكنتُ نكَّلتُ بكم وفعلتُ بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يعني: الله عز وجل [متفق عليه]. فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رُسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾، وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتَّبع أدبارهم، أي: يكون ساقةً لأهله.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتَ ما نزل بهم، ولا تهولنَّكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ هو استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾.

ثم قرَّبوا له هلاك قومه تبشيرًا له؛ لأنه قال لهم: «أهلِكُوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وقُوف على الباب وعُكوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يُدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الآية [القمر:٣٧-٣٩].

الآية (٨٢): يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ وهي قريتهم سَدُوم ﴿سَافِلَهَا﴾(١)؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النَّجم:٥٣-٥٤] أي: أمطرنا عليها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهي بالفارسية: حجارة من طين. قاله ابن عباس وغيره. وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] أي: مُستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشويّة. وقال البخاري: ﴿سِجِّيلٍ﴾: الشديد الكبير؛ سجّيل وسجّين واحد؛ اللام والنون أُختان. قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي: مُعَدّة لذلك. وقال آخرون: أي: يتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم.

الآية (٨٣): ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمَةً مختومة، عليها أسماء أصحابها؛ كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه. وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمَّره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبقَ منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قوم لوط من سَرْحِهم ودُورهم، حَمَلهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم ثم أكفأهُم، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبَها كان أول ما سقط منها شُرفاتها. وعن قتادة وغيره: بلغَنا أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمَّها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، وَدَمْدَم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال السُّدّي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلَبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]، ومن لم يَمُتْ حين سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذًّا في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ [الحجر:٧٤] أي: في القرى حجارة من سجيل. قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم في ظلمهم ببعيد عنه.

الآية (٨٤): يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يُعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شُعيبًا، وكان من أشرفهم نسبًا؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

الآية (٨٥-٨٦): ينهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومُعطين، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خَيْر لكم. وقال الحسن: روق الله خير لكم من بخسكم الناس وقال الربيع: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله. وقال قتادة: حظُّكم من الله خير لكم. وقال ابن جرير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يَفْضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: مِن أخذ أموال الناس. قلت: ويُشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

الآية (٨٧): يقولون له على سبيل التهكُّم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قراءتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾، فنترك التطفيف على قولك؛ هي أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن: إيْ والله؛ إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم. وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾: يعنون الزكاة. وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وابن جرير وغيرهما: يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فَعَلْ.

الآية (٨٨): يقول لهم: أرأيتم يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال. ويحتمل الأمرين. وقال الثوري: قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فأفعله خُفيةً عنكم؛ كما قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمرٍ وأركبَه. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مُرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع. روى الإمام أحمد عن أبي حميد وأبي أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عنِّي تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب؛ فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنِّي تُنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد؛ فأنا أَبعدكم منه» وهذا إسناد صحيح. ومعناه: مهما بلغكم عنِّي من خير فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

(١) قال السعدي: ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها عليهم.

الآية (٨٩): يقول لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبُغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: إنما أُهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان. ويُحتمل الأمران.

الآية (٩٠): ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي: لمن تاب وأناب.

الآية (٩١): يقولون: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ أي: ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾: من قولك، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال السُّدي: أي أنت واحد. وقال أبو روق: يعنون: ذليلًا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزَّة قومك علينا ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ قيل: بالحجارة، وقيل: لسبَبْنَاك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك عندنا معزَّة.

الآية (٩٢): ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظامًا لجَناب الله أن تنالوا نبيَّهُ بمساءة؟! وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتموه خلفكم؛ لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

الآية (٩٣): لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له، قال: يا قوم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد شديد. ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على طريقتي، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم، ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

الآية (٩٤): قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: هامدين لا حِرَاك بهم. وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقَمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه؛ ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف:٨٨] ناسَب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا.

الآية (٩٥): وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريبًا منهم في الدار، وشبيهًا بهم في الكفر وقَطْع الطريق، وكانوا عرَبًا مثلهم.

الآية (٩٦-٩٧): يقول تعالى مُخبرًا عن إرساله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون، وهو ملك القبط، ومَلَئِهِ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغَيّ، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مُقَدَّمَهم ورئيسَهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢١-٢٦].

الآية (٩٨-٩٩): ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]. قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال مجاهد: زِيدوا لعنةً يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة. وكذا قال الضحاك وقتادة، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤١-٤٢].

الآية (١٠٠-١٠١): لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أُممهم، وكيف أهلك الكافرين ونَجّى المؤمنين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أخبارهم ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ أي: عامرٌ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رُسلنا وكُفرهم بهم ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير؛ وذلك أن سبب هلاكهم ودَمارهم إنما كان باتّباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

الآية (١٠٢): يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذّبة لِرُسُلِنا كذلك نفعل ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

الآية (١٠٣-١٠٥): يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿لَءَايَةً﴾ أي: عِظةً واعتبارًا على صدق موعودنا في الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: أولهم وآخرهم، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتُحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويَحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تكُ حسنةً يضاعفها. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدّر خروجُهم قامت الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يُزاد عليها ولا يُنتقَص منها. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول: يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله؛ كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]. قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي، ومنهم سعيد؛ كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

الآية (١٠٦-١٠٧): ثم بيَّن تعالى حال الأشقياء وحال السُّعَداء فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفُّسُهم زفير، وأخذُهم النفَس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذًا بالله من ذلك. قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: «هذا دائم دوامَ السموات والأرض»، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم. قلت: ويحتمل أن المراد بـ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: الجنس؛ لأنه لا بدّ في عالم الآخرة من سموات وأرض؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: تُبدَّل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس: لكل جنة سماء وأرض. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاها ابن جرير، واختار ما روي عن ابن عباس والحسن: أن الاستثناء عائدٌ على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط، وقال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة.

الآية (١٠٨): ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: فمأواهم الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها أبدًا ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمًا، ولهذا يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النَّفَس. وعَقَّبَ ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع؛ قاله ابن عباس. لئلا يتوهَّم مُتوَهِّم بعد ذكره المشيئة أنْ ثَمَّ انقطاعًا أو لَبْسًا، أو شيئًا، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلى مشيئته، وأنه بعَدْلِه وحكمته عذَّبهم؛ لهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وهنا طيَّب القلوب وثبَّت المقصود بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

الآية (١٠٩): يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون؛ إنه باطل وجَهل وضلال؛ فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَد فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذب كافرهم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾: ما وُعدوا فيه من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: لَمُوَفُّوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص.

الآية (١١٠): ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلَكَ بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يُهمنّك ذلك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم. ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:١٢٩-١٣٠]. ثم أخبر أن الكافرين في شك -مما جاءهم به الرسول- قوي، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

الآية (١١١): ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ، فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعًا، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

الآية (١١٢-١١٣): يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد. ونهى عن الطغيان، وهو البغي؛ فإنه مَصْرَعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلَمَ تعالى أنه بصير بأعمال العباد: لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء. قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا؛ أي: لا تستعينوا بالظلَمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يُخلصكم من عذابه.

الآية (١١٤): قال ابن عباس: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعني صلاة العشاء. وقال الحسن -في رواية- يعني: المغرب والعشاء. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهما: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نُسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه، ثم نُسخ عنه أيضًا في قولٍ، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة. عن عثمان ابن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضأ وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرًا غَمْرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئاً؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» [متفق عليه]. وعنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر» [رواه مسلم].

[سبب النزول]: عن ابن مسعود أن رجلًا أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» [متفق عليه].

الآية (١١٥): (١)

الآية (١١٦): قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، يقول تعالى: فهلَّا وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نِقَمِه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]. وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب» [رواه أحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

الآية (١١٧): قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أخبر تعالى أنه لم يُهلك قرية إلا وهي ظالمة، ولم يأتِ قريةً مُصلحةً بأسُه وعذابُه قط حتى يكونوا هم الظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

---

(١) لم يفسر ابن كثير -رحمه الله- هذه الآية، وهاكم مختصر قول السعدي فيها: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن معصيته، واستمر ولا تضجر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر؛ بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما وَنَتْ وفَتَرَتْ.

الآية (١١٨-١١٩): يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلِّهم أمة واحدة: من إيمان، أو كفران؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مِلَلِهِم ونِحَلِهِم ومذاهبهم وآرائهم. وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين مِن أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أُمروا به من الدين؛ أخبَرَتْهُم به رسُلُ الله إليهم، ولم يزَل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتَّبعوه وصدَّقوه، ونصروه ووازَرُوه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» [رواه أحمد والترمذي، وحسَّنه الألباني]. وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهلُ الجماعة وإن تفرَّقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فُرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري -في رواية عنه-: وللاختلاف خَلَقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين؛ كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم؛ كما قال الحسن البصري في رواية عنه: الناس مختلفون على أديان شتى، فمَن رَحِمَ ربُّك غيرُ مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنّته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وقال ابن وَهْب: سألت مالكًا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ الآية، قال: فريق في الجنة وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدَره -لعلمه التام وحكمته النافذة- أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

الآية (١٢٠): يقول تعالى: وكل أخبار نقصُّها عليك، من أنباء الرُّسل المتقدمين قبلك مع أُممهم، وكيف جرى لهم من المُحَاجَّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين؛ كل هذا مما نُثبّت به فؤادك -يا محمد- أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أُسْوة. ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف نَجَّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق ونبأ صدق، وموعظةٌ يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

الآية (١٢١-١٢٢): يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصَرَهُ وأيَّده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

الآية (١٢٣): يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ مَن توكَّل عليه وأناب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبَك عليهم في الدارين.

تفسير سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١١) آيةً].

الآية (١-٣): أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يُفصح عن الأشياء المبهمة ويفسّرها ويبينها. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبْيَنها وأوسعها، وأكثرها تأدِيَةً للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزلَ أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتُدِئَ إنزالُه في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

[سبب النزول]: عن سعد قال: أُنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿الٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ثم تلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية [الزمر:٢٣]، وذكر الحديث [رواه ابن حبان والحاكم، وصححه الألباني].

الآية (٤): ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخاري. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سِواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. رُوي هذا عن ابن عباس. وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

الآية (٥): يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قَصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرُّون له ساجدين إجلالًا وإكرامًا واحترامًا، فخشي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُحدِّث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حَسَدًا منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَك فيها. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّر، فإذا عُبِّرت وقعت» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتحدث.

الآية (٦): يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدةً لك كذلك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوّته.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني: تعبير الرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الخليل ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالاته.

الآية (٧): قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه؛ فإنه خبر عجيب يستحق أن يُستخبَر عنه.

الآية (٨): قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه -يعنون: بنيامين، وكان [أخاه- لأمه- ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أَحَبَّ ذَيْنك الاثنين أكثرَ من الجماعة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون: في تقديمهما علينا ومحبته إياهما أكثر منا.

الآية (٩): قوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليَخْلُو لكم وحدَكم؛ إما بأن تقتلوه، أو تُلقوه في أرض من الأراضي، تستريحوا منه وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قومًا صالحين. فأضمَروا التوبة قبل الذنب!

الآية (١٠): ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: كان أكبرهم، واسمه: روبيل، ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ أي: لا تَصِلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يُلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس. قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارَّة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال ابن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّعِ الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحُرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليُفرّقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كِبَر سنّه، ورِقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبَّهُ طفلًا صغيرًا، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرًا عظيمًا.

الآية (١١): لما تواطَؤوا على أخذِه وطَرْحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم رُوبيل، جاؤوا أباهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالوا: ما بالك ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾؟! وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحُبّ أبيه له.

الآية (١٢): ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك، والسُّدِّي، وغيرهم. قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

الآية (١٣-١٤): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يشقّ عليَّ مفارقتُهُ مُدَّةَ ذهابكم به إلى أن يرجع؛ وذلك لِفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون. فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذًا لهالكون عاجزون.

الآية (١٥): يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه: أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجُبّ، وقد أخذوه من عند أبيه -فيما يُظهرونه له- إكرامًا له وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالًا للسرور عليه.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيّق -تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له-: لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرَجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستُنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

الآية (١٦-١٧): يقول تعالى مُخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغَمَّمون لأبيهم. وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذَّر عليه. وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطّفٌ عظيم في تقرير ما يحاولونه؛ يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه- لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكلَه الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

الآية (١٨): قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب مُفترًى. وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالَؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلة - فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد- فذبحوها، ولطَّخوا ثوب يوسف بدمها، مُوهِمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يَرُجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم مُعرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه مِن تَمالُئِهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرّجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال. وقال ابن عباس: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه.

الآية (١٩-٢٠): يقول تعالى مُخبرًا عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريدًا وحيدًا. قال ابن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يُصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريبًا من تلك البئر، وأرسلوا واردهم -وهو الذي يتطلب لهم الماء- فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبَّث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾. قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي: وأسرَّه الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضَّعناه من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول، وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف أَسَرُّوا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يُباع، فباعه إخوته. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومُشتَروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودَفْعِهِ، ولكن له حكمة وقَدَرٌ سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه، ألا له الخلق والأمر. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلامٌ له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأُملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. والبخس: هو النقص، أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليلٍ ﴿وَكَانُوا۟﴾ مع ذلك ﴿فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا. وقال الضحاك: وذلك أنهم لم يعلموا نبوّته ومنزلته عند الله عز وجل.

الآية (٢١-٢٢): يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيَّض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسَّم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته كذلك ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي: إذا أراد شيئًا فلا يُرَدّ ولا يُمانَع ولا يُخالَف، بل هو الغالب لما سواه. قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطُّفه لما يريد. قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: استكمل عقله وتم خَلقه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة؛ أنه حباه بها بين أولئك الأقوام. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنه كان محسنًا في عمله، عاملًا بطاعة ربه تعالى. وقد اختُلِف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال الإمام مالك: الأشدّ: الحُلم. وقيل غير ذلك.

الآية (٢٣): يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه؛ أي: حاولته على نفسه، ودَعَتْهُ إليها؛ وذلك أنها أحبَّته حبًا شديدًا لجماله وحُسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمَّلَتْ له، وغلَّقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير؛ أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي؛ أي: منزلي، وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم. وقد اختلف القراء في قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء. وقال ابن عباس: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. تقول: هَلُمَّ لك. وقال أبو عبيدة: وكان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حَوْران، وقعت إلى أهل الحجاز. معناها: تعال. وقرأ آخرون: «هِئتُ لك» بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك. وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة: «هَيْتُ» بفتح الهاء وضم التاء. وقال آخرون: «هِيْتُ لَك» بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء.

الآية (٢٤): اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام: قال بعضهم: المراد بهمِّهِ بها هَمّ خَطَرات حديث النفس. حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هَمّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جَرَّائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها» [متفق عليه]. وقيل: همَّ بضربها. وقيل: تمنَّاها زوجة. وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فلم يهمّ بها.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضًا: قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زَجَرَه عما كان هَمّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون الملَك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يُطلق كما قال الله تعالى.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المُجتبَين المُطَهَّرين المختارين المُصطفَين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

الآية (٢٥-٢٨): يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّته قدًّا فظيعًا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربًا ذاهبًا، وهي في إثره، فألفَيا سيدها -وهو زوجها- عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها مُتنصّلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: فاحشة ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يُحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يُضرب ضربًا شديدًا موجعًا. فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرَّأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارًا صادقًا: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، وذكر أنها اتَّبعته تجذبه إليها حتى قدَّت قميصه. قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في قولها إنه أرادها على نفسها؛ لأنه يكون لما دعاها وأبَتْ عليه دفعته في صدره، فقدَّت قميصه، فيصح ما قالت. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلَّبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه. وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: ذو لحية. وقال: وكان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد والحسن، وقتادة، والسُّدِّي وغيرهم: إنه كان رجلًا. وقال زيد بن أسلم، والسدي: كان ابن عمها. وقال الحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مُزاحم: إنه كان صبيًّا في الدار. واختاره ابن جرير.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورَمَتْهُ به ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البُهْت واللَّطخ الذي لَطَّخْتِ عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

الآية (٢٩): ثم قال آمرًا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اضربْ عن هذا صفحًا، فلا تذكره لأحد ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ يقول لامرأته. وقد كان ليِّن العَريكة سهلًا، أو أنه عذَرَها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفِه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

الآية (٣٠): يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث به الناس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الكُبراء والأمراء، يُنكرن على امرأة العزيز، ويَعِبْنَ ذلك عليها: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي قد: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو غلافه. قال ابن عباس: الشَّغَف: الحُب القاتل، و [الشعف] دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا مِن حُبّها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

الآية (٣١): ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن. وقال ابن إسحاق: بل بَلَغهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحبَبْن أن يرَيْنَهُ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعَتْهُنّ إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم: هو المجلس المُعَدّ، فيه مفارش ومخادّ وطعام، فيه ما يُقطع بالسكاكين من أُتْرُجٍّ ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ كان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجلَلْن قدره؛ وجعلن يقطّعن أيديهن دَهَشًا برؤيته، وهُنّ يظنُنّ أنهن يقطعن الأترجّ بالسكاكين، والمراد: أنهن حزَزْن أيديهن بها، قاله غير واحد. وقد ذُكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجًا، وآتت كل واحدة منهن سكينًا: هل لكنَّ في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع؛ ليرينه مقبلًا ومدبرًا، وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتُنّ من نظرة واحدة فعلتُنّ هكذا، فكيف أُلام أنا؟! فقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريبًا منه؛ فإنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان قد أُعطي شطر الحُسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن» [رواه مسلم]. فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قال مجاهد: معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

الآية (٣٢-٣٣): ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا مُعتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يُحَبَّ لجماله وكماله. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال. ثم قالت تتوعد: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من شرِّهن وكيدهن، وقال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي -فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرًّا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي- ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

الآية (٣٤): قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذلك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَصَمه الله عِصمة عظيمة وحماه، فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك؛ خوفًا من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله» [متفق عليه].

الآية (٣٥): يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين؛ أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات -وهي الأدلة- على صدقه في عفته ونزاهته. وكأنهم -والله أعلم- إنما سجنوه لـمَّا شاع الحديث إيهامًا أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِيُّ العِرض. وذكر السُّدي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

الآية (٣٦): قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ الآية، قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبَّازه. قال السُّدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سَمِّه في طعامه وشرابه. وكان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحُسن السّمت وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًّا شديدًا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبًّا زائدًا. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحبني أبي فأُوذيت بسببه، وأحبّتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك. ثم إنهما رأيا منامًا، فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا -يعني عنبًا- وقال الآخر -وهو الخباز-: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره. وروى ابن جرير: عن عبد الله بن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كانا تحالما ليُجرِّبا عليه.

الآية (٣٧): يخبرهما يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنهما مهما رأيا في نومهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾، قال مجاهد: في نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد.

الآية (٣٨): ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين؛ فإنه يهدي قلبه ويعلّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد.

قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحَاهُ إلينا، وأمرَنا به ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلَنا دُعاةً لهم إلى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨].

الآية (٣٩): ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ثم إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أقبل على الفتيَيْن بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وَخَلْع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ذَلَّ كُلَّ شيء لعزّ جلاله، وعظمة سلطانه.

الآية (٤٠): قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ بيَّن لهما أنَّ التي يعبدونها ويسمّونها آلهة، إنما هي جهلٌ منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقَّاها خَلَفُهم عن سَلَفِهم، وليس لذلك مُستنَد من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة ولا برهان.

قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أخبرَهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلَّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه -من توحيد الله وإخلاص العمل له- هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين؛ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

وقد جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلةً وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيّتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه.

الآية (٤١): لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال، فقال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يُعيِّنه لئلا يحزن ذاك؛ ولهذا أبهَمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا. ثم أعلمهما أن هذا قد فُرغ منه، وهو واقع لا محالة.

وقال عبد الله بن مسعود: لما قالا ما قالا، وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئًا. فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

الآية (٤٢): ولما ظن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الساقي ناج قال له يوسف -خُفية عن الآخر والله أعلم؛ لئلا يُشعره أنه المصلوب- قال له: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتي عند الملك، فنسي ذلك المُوصَى أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان؛ لئلا يطْلع نبي الله من السجن. وأما «البِضع» فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مُنَبِّه: مكث أيوب في البلاء سبعًا، ويوسف في السجن سبعًا.

الآية (٤٣): هذه الرؤيا مِن مَلك مصر مما قَدَّر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن مُعزَّزًا مُكرَّمًا؛ وذلك أن المَلك رأى هذه الرؤيا، فهالَتْهُ وتَعجَّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكُبراء دولته وأمراءه وقَصَّ عليهم ما رأى.

الآية (٤٤-٤٨): سألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف مِن ذِكْر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة. وقرأ بعضهم: «بعد أَمَهٍ»[1] أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جَمَعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا المنام ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا، فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصَّاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخصْب والمطر سبع سنين متواليات، ففسَّر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تُسْتغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم[2] في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهُنَّ السبع السنين المُحْل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهُنَّ البقرات العِجاف اللاتي يأكلن السِّمان؛ لأن سِني الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعوه في سِني الخصب، وهُنَّ السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهن لا يُنبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

الآية (٤٩): ثم بشَّرهم بعد الجَدْب العامِّ المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المَطَرُ، وتُغلّ البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من: زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا. قال ابن عباس: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون.

الآية (٥٠): يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأَيْنَقَهُ، فعرف فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعِلْمه، وحُسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضِروه.

فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نُسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلمًا وعدوانًا، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وقد وردت السُّنَّةُ بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعُلُوّ قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي» [متفق عليه].

الآية (٥١): قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النّسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهن كلهن -وهو يريد امرأة العزيز-: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يعني: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: قالت النسوة جوابًا للملك: حاش لله أن يكون يوسف مُتَّهَمًا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول: الآن تبيَّن الحق وظهر وبرز. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٦].

الآية (٥٢): ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أن لم أَخُنْه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أني بريئة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

---

(١) ليست من القراءات العشر المتواترة، و(الأمَه) في اللغة: النسيان؛ كما ذكر ابن كثير. [ينظر: القاموس المحيط، مادة (أمه)].

(٢) استغللتم أي: جمعتم غَلَّته؛ فهو بمعنى حصدتم.

الآية (٥٣): ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي؛ فإن النفس تتحدَّث وتتمنَّى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي: إلا من عَصَمَه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تَيميَّة رحمه الله. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الآيتين أي: إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وهذا القول هو الذي لم يحكِ ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جُبَيْر والحسن وقتادة وغيرهم. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كلّه من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندهم، بل بعد ذلك أحضَرَه الملك.

الآية (٥٤-٥٥): يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقَّق براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزاهة عِرْضه ممَّا نُسِب إليه، قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملك وعَرَفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا ذو مكانة وأمانة، فقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مَدَح نفسه، ويجوز للرجل ذلك -إذا جُهِل أمره- للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصر بما يتولَّاه. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولِمَا في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُجْعَل على خزائن الأرض -وهي الأهرام التي يجمع فيها الغَلَّات لِمَا يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها- ليتصرَّف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبةً فيه، وَتَكْرِمَةً له.

الآية (٥٦-٥٧): يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قال السُّدي وابن أسلم: يتصرَّف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتَّخذ منها منزلًا حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبَه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يخبر تعالى أن ما ادَّخَره الله لنبيِّه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلُّ ممَّا خَوَّلَهُ من التصرف والنفوذ في الدنيا؛ كما قال تعالى في حقِّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٣٩-٤٠].

والغرض: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ولاَّه مَلِك مصر الوَزَارَةَ في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر، وأسلم الملك على يد يوسف عليه السلام؛ قاله مجاهد.

الآية (٥٨-٦٢): ذكر السُّدي وابن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدمَ إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا باشر الوزارة بمصر، ومَضَت السبع السنين المُخْصِبَة، ثم تَلَتْها سنينُ الجَدْب، وعمَّ القَحط بلاد مصر بكمالها، ووَصَل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده، وحينئذٍ احتاط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للناس في غلَّاتهم، وجَمَعَها أحسن جَمْع، فحَصَل من ذلك مبلغ عظيم، ووَرَد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعِيالهم، وكان رحمةً من الله على أهل مصر.

والغرض: أنه كان في جملة من وَرَد للمِيْرَة إخوةُ يوسف، عن أَمْر أبيهم لهم في ذلك؛ فإنه بَلَغَهم أن عزيز مصر يُعطِي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعامًا، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده بنيامين شقيق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان أحبَّ ولدِه إليه بعد يوسف. فلمَّا دخلوا على يوسف، وهو جالس في أُبَّهَتِه ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حَدَث، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السُّدي وغيره: أنه شَرَع يُخاطبهم، قالوا: أبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذَهَب أصغرنا، هلك في البَرِّيَّة، وكان أحبَّنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلَّى به عنه. فأَمَر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: وَفَّاهم كَيْلَهم، وحَمَل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صِدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ يُرَغِّبُهم في الرجوع إليه، ثم رَهَّبَهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي مِيرة، ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل مُـمْكن، ولا نُبْقِي مَجْهُودًا لتَعلَم صدقنا فيما قلناه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: غلمانه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ وهي التي قدموا بها ليمتاروا عِوَضًا عنها، ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خشي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ألَّا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للمِيرة بها. وقيل: أراد أن يردَّهم إذا وجدوها في متاعهم تحرُّجًا وتورُّعًا؛ لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

الآية (٦٣): ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرَّة، إن لم تُرسِل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا ﴿نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]؛ ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.

الآية (٦٤): ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟!

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَرِي وضَعْفِي ووَجْدِي بولدي، وأرجو من الله أن يرُدَّه عليَّ، ويجمع شَمْلي به؛ إنه ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

الآية (٦٥-٦٦): يقول تعالى: ولَـمَّا فَتح إخوة يوسف ﴿مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلمَّا وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ أي: ماذا نريد؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟! إن بضاعتنا رُدَّت إلينا وقد أُوفِي لنا الكيل!

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالـمِيرَة إلى أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ وذلك أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يُعطِي كل رجل حِمْلَ بعير. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تُغلَبُوا كلكم ولا تَقْدِرُون على تخليصه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكَّدَه عليهم فـ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قال ابن إسحاق: وإنما فَعَلَ ذلك لأنه لم يجد بُدًّا من بَعثِهم لأجل الـمِيرَة، التي لا غِنى لهم عنها، فبَعَثَه معهم.

الآيـة (٦٧-٦٨): ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ يقول تعالى إخبارًا عن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنه أَمَـر بَنِيـه لَـمَّا جَهَّزَهم مع أخيهم بنيامين إلى مصـر، ألَّا يدخلوا كلهم من بـاب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرِّقة؛ فإنه كما قال ابـن عبـاس وقتـادة والسُّدِّي وغيرهم: إنه خَشِـيَ عليهم العينَ؛ وذلك أنهـم كـانوا ذوي جَمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخَشِـيَ عليهم أن يصـيبهم النـاس بعيونهم؛ فإن «العين حَقٌّ» [متفق عليه]، تَسْتَنْزِلُ الفارس عن فَرَسه.

وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يردُّ قَدَر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يُخَالَف ولا يُمَانَع.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عَمَلٍ بعِلْمه. وقـال ابـن جريـر: لـذو علـم لتعليمنـا إيـاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٦٩): ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن إخوة يوسف لَـمَّا قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصِّلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأَطلَعه على شأنه، وما جَرَى له، وعَرَّفَه أنه أخوه، وقال له: لا ﴿تَبْتَئِسْ﴾، أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألَّا يُطلِعَهم على ما أَطلَعه عليه من أنه أخوه، وتَوَاطَأ معه أنه سيحتال على أن يُبقِيَه عنده، مُعزَّزًا مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا.

الآية (٧٠-٧٢): ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ **لَـمَّا جهزهم وحَمَّل لهم أَبْعِرَتَهم طعامًا، أَمَرَ بعض فتيانه أن يضع ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهي: إناء من فضة، في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب كان يَشرَب فيه، ويكيل للناس به من عِزَّة الطعام، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى منادٍ بينهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به. ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الـجِعَالة[1]، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضَّمان والكفالة.**

الآية (٧٣-٧٦): **لَـمَّا اتَّهَمهم أولئك الفتيان بالسـرقة، قـال لهـم إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لقد تَحَقَّقْتُم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرةً حسـنةً، أَنَّـا ما جئنا للفساد في الأرض، ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ أي: ليسـت سـجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيـان: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: السـارق، إن كان فـيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ أيْ: أيّ شيء يكـون عقوبتـه إن وجـدنا فـيكم مـن أخـذه؟ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وهكذا كانت شريعة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أن السارق يُدْفَع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعـاء أخيـه، أي: فَتَّشَـهَا قَبْلَـه تَوْرِيَـةً، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأَخَذَه منهم بحُكم اعترافهم والتـزامهم وإلزامًا لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعـالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهـذا مـن الكيـد المحبـوب الـذي يُحِبُّـه الله ويرضـاه، لِـمَا فيـه مـن الحكمة والمصلحة المطلوبة.**

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصـر، وإنما قيَّض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مَدَحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: ليس عالمٌ إلَّا فوقَه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وعن ابن عباس قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

الآية (٧٧): **وقال إخوة يوسف لَـمَّا رأوا الصُّواع قد أُخرِج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يَتَنَصَّلُون إلى العزيز من التَّشَبُّه به، ويذكرون أن هذا فَعَل كما فَعَل ﴿أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. قال سعيد بن جبير وقتادة: كان يوسف قد سَرَقَ صَنَمًا لجده أبي أمه فكَسَره. وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها؛ وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تَذْكُرون. قال هذا في نفسه، ولم يُبْدِهِ لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذِّكر، وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة.**

الآية (٧٨): **لَـمَّا تعيَّن أَخْذ بنيامين، وتقرَّر تَرْكُه عند يوسف بمُقتَضى اعترافهم، شَرَعُوا يَتَرَقَّقون له، ويُعَطِّفُونَه عليهم، فـ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يُحِبُّه حُبًّا شديدًا ويَتَسَلَّى به عن ولده الذي فَقَدَه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي: بَدَلَه، يكون عندك عِوَضًا عنه. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من العادلين المنصفين القابلين للخير.**

---

(١) الجِعالة: التزام عوض معلوم على عمل معين بقطع النظر عن فاعله؛ كقوله: من رد علي حصاني فله كذا. [معجم لغة الفقهاء].

الآية (٧٩): ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ كما قلتم واعترفتم، ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إن أخذنا بريئًا بسقيم.

الآية (٨٠-٨٢): ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لَـمَّا يَئسوا من تَخلِيص أخيهم بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم بِرَدِّه إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيّٗا﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هَمُّوا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتَرُدُّنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذَّر عليكم ذلك مع ما تقدَّم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في الرجوع إليه راضيًا عني، ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

ثم أَمَرَهم أن يُخبروا أباهم بصورة ما وَقَع، حتى يكون عذرًا لهم عنده، ويتنصَّلوا إليه، ويبرؤوا ممَّا وَقَع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما نعلم أن ابنك سَرَق. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه يَسْرِقُ له شيئًا، إنما سألَنَا ما جزاءُ السارق؟ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قيل: المراد مصر؛ قاله قتادة، وقيل: غيرها. ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحِفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سَرَق وأخذوه بسرقته.

الآية (٨٣-٨٦): قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾ قال ابن إسحاق: لَـمَّا جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جري اتَّهَمَهم، وظنَّ أنها كَفَعْلَتِهم بيوسف، ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾.

ثم تَرَجَّى من الله أن يَرُدَّ عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، والذي أقام بديار مصر ينتظر أَمرَ الله فيه: إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خُفيَة؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بَنِيْه، وقال -متذكرًا حُزنَ يوسف القديم الأول-: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جَدَّد له حزنُ الابنين الحزن الدفين. قال سعيد بن جبير: لم يُعْطَ أحد غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألَا تسمعون إلى قول يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره.

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾: كَمِيدٌ حَزِينٌ. فعند ذلك رَقَّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تُفَارِقُ تَذَكُّر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمرَّ بك هذا الحال خَشينا عليك الهلاك والتَّلَف.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾ أي: هَمِّي وما أنا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقةٌ، وأني سوف أَسجُد له.

الآية (٨٧-٨٨): ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه نَدَبَ بنيه على الذهاب في الأرض، يَسْتَعْلِمُون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر.

ونَهَّضَهم وبَشَّرَهُم وأمرهم ألَّا ييأسوا من رَوح الله؛ أي: لا يقطعوا رجاءهم وأَمَلَهم من الله فيما يَرُومُونه ويقصدونه؛ فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ تقدير الكلام: فذَهَبوا فدَخَلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ يعنون من الجَدْب والقَحْط وقلَّة الطعام، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نَمتَاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد والحسن وغير واحد.

وقوله إخبارًا عنهم: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أَعطنا بهذا الثمن القليل ما كنتَ تعطينا قبل ذلك. وقال ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ بِرَدِّ أخينا إلينا. وقال سعيد بن جبير والسدي: تصدَّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوَّز فيها.

الآية (٨٩-٩٢): يقول تعالى مخبرًا عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لَـمَّا ذَكَر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام، وتَذَكَّر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد وَلَدَيه، مع ما هو فيه من الـمُلْك والتَّصَرُّف والسَّعة، فعند ذلك أَخَذَته رِقَّة ورَأْفَة ورحمة وشَفَقَة على أبيه وإخوته، فتعرَّف إليهم، وقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾؟ يعني: كيف فرَّقوا بينه وبينه.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ أي: إنما حَمَلكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه؛ كما قال بعض السلف: كلُّ من عَصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل:١١٩].

والظاهر -والله أعلم- أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما تَعَرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لَـمَّا ضاق الحال واشتدَّ الأمر، فَرَّج الله تعالى من ذلك الضيق؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح:٥-٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾؟! أي: إنهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يَتَرَدَّدون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبُعْد المدة. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الـخُلُق والـخَلْق، والسَّعَة والـمُلْك، والتصرف والنبوة، أقرُّوا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا في حقِّه.

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عَتب عليكم اليوم، ولا أُعِيد ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال السُّدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم. وقال ابن إسحاق والثوري: أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

الآية (٩٣-٩٥): يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾، وكان قد عَمِي من كثرة البكاء، ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: بجميع بني يعقوب.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ يعني: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لِـمَن بقي عنده من بَنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تَنْسِبُوني إلى الفَنَد والكِبَر.

وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جُبَيْر: تُسَفِّهون. وقال مجاهد والحسن: تُهَرِّمون.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لَفِي خطئك القديم. وقال قتادة: أي من حُبِّ يوسف لا تَنْسَاه ولا تَسلَاهُ، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الآية (٩٦-٩٨): قال ابن عباس والضحاك: ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾: البريد قال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السُّدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو مُلَطَّخ بدم كَذِب، فأراد أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرًا.

وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سَيَرُدُّه إليَّ، وقلتُ لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؟ [يوسف:٩٤] فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفِّقين له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه.

الآية (٩٩-١٠٠): يخبر تعالى عن ورود يعقوب على يوسف عليهما السلام، وقدومه بلاد مصر، لَـمَّا كان يوسف قد تَقدَّم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحمَّلوا عن آخرهم وترَحَّلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلمَّا أُخْبِرَ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلَقِّي نبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ويُقال: إن الملك خرج أيضًا لتلقِّيه، وهو الأشبه.

وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قال السُّدي وابن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديمًا. وقال ابن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدلُّ على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدلُّ عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أجلسهما معه على سريره. ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصَّها على أبيه: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]. وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَحَرُمَ هذا في هذه الملة، وجُعِل السجود مختصًّا بجَناب الربِّ سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. والغرض: أن هذا كان جائزًا في شريعتهم؛ ولهذا خَرُّوا له سُجَّدًا، فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر؛ فإن التأويل يُطلَق على ما يصير إليه الأمر؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وُعِدوا من خير وشرّ.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ أي: صحيحةً صِدْقًا؛ يَذْكُرُ نِعَمَ الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية. قال ابن جُرَيْج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبات من أرض فلسطين، من غَوْرِ الشام. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: إذا أراد أمرًا قيَّض له أسبابًا ويَسَّره وقدَّره، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

الآية (١٠١): ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا دعاء من يوسف الصِّدِّيق؛ دعا به ربه عز وجل لَـمَّا تمَّت النعمة عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك؛ سأل ربه عز وجل كما أتمَّ نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلمًا حين يتوفَّاه، وأن يُلْحِقَه بالصالحين؛ وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهذا الدعاء يُحتَمَل أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قاله عند احتضاره، ويُحتمَل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك مُنْجَزًا؛ كما يقول الداعي: «اللهم أَحينا مسلمين، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين». ويحتمل أنه سأل ذلك مُنْجَزًا، وكان ذلك سائغًا في مِلَّتهم؛ كما قال قتادة: لَـمَّا جمع الله شمله وأقرَّ عينه، وهو يومئذٍ مغمور في الدنيا ومُلْكِها وغَضَارَتِها، فاشتاق إلى الصالحين قبله.

عن ابن عباس: أنه أوَّلُ نبي دعا بذلك. ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نَزَلَ به، إمَّا مُحْسِنًا فيزداد، وإما مُسِيئًا فلعلَّه يَسْتَعْتِب، ولكن ليَقُل: اللهم، أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي» [متفق عليه]. وهذا فيما إذا كان الضرُّ خاصًّا به، أما إذا كان فتنةً في الدين فيجوز سؤال الموت.

الآية (١٠٢-١٠٣): ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يقول تعالى لمحمد ﷺ لَـمَّا قَصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رَفَعَه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والـمُلك والـحُكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونُعْلِمُكَ به لِـمَا فيه من العبرة لك والاتِّعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم، ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الـجُبِّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أَعْلَمْنَاك به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ الآية [آل عمران:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤]. إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية [القصص:٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:٤٥].

يقول تعالى: إنه رسوله، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

الآية (١٠٤): وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرُّشْد من أَجْرٍ، بل تفعله ابتغاءَ وجه الله، ونصحًا لخلقه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يتَذَكَّرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

الآية (١٠٥-١٠٧): يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم: أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد والشعبي وقتادة. وقال الحسن: ذاك المنافق؛ يعمل إذا عَمِلَ رياءَ الناس، وهو مشرك بعمله ذاك. وثَمَّ شرك آخر خَفِيٌّ لا يشعر به غالبًا فاعله؛ كما في الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وعن ابن مسعود [مرفوعًا]: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وحسن إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

الآية (١٠٨): يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين -الجن والإنس- آمرًا له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسُنَّته؛ وهي: الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو، وكلُّ من اتَّبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأُنَزِّهُ الله وأُجِلُّهُ وأُعَظِّمُهُ وأُقَدِّسُهُ، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدَّس وتَنَزَّه عن ذلك كلّه علوًّا كبيرًا.

الآية (١٠٩): يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم وَحي تشريع. وإنما فيهنَّ صِدِّيقَات؛ كما قال تعالى مخبرًا عن أَشْرَفِهِنَّ مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]، فوَصَفَها في أشرف مقاماتها بالصِّدِّيقِيَّة، فلو كانت نبيَّةً لذَكَر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صِدِّيقَة بنصِّ القرآن. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان:٢٠].

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طِباعًا وأخلاقًا. وهذا هو المعهود المعروف: أن أهل المدن أرقُّ طِباعًا، وأَلطَفُ من أهل سَوَادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية [التوبة:٩٧].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذِّبة للرسل، كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]؛ كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضًا، وهي خير لهم من الدنيا بكثير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

الآية (١١٠): يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك؛كقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ الآية [البقرة:٢١٤].

وفي قوله: ﴿كُذِبُوا۟﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذِّبوا»، وكذلك كانت عائشة تقرؤها، وقالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممن كذَّبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك... والقراءة الثانية بالتخفيف، ... قال ابن عباس: لَـمَّا أَيِسَت الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كَذَبُوهُمْ، جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾. وقال سعيد بن جبير: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا.

الآية (١١١): يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله، أي: يُكْذَب ويُخْتَلَق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يُصَدِّق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الربِّ تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة.

تفسير سورة الرعد

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٣) آيةً].

الآية (١): أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقَدَّمنا أن كل سورة تُبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مِرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن. ثم عطف على ذلك عطفَ صفات فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

الآية (٢): يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، بل بإذنه وأمره، وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تُنالُ ولا يُدرَكُ مداها. قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القُبَّة، يعني بلا عمد. وهو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عَمَد كما ترونها. هذا هو الأكمل في القدرة. قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدم تفسير ذلك في سورة «الأعراف»، وأنه يُمَرَّر كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوًا كبيرًا. قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨]. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه - على الصحيح الذي تقومُ عليه الأدلة - قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائمَ وحَمَلة يحملونه ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف من الثوابت فإذا كان سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يُعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

الآية (٣-٤): لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرسَاها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جُعِلَ فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غَشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان كما تصرف في المكان والسكان. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمته ودلائله. قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة تُنْبِتُ ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخة مالحة لا تُنْبِتُ شيئًا. هكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه مُحجَّرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات!! فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. قوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يحتمل أن تكون [الواو] عاطفة على ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفًا على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾، فيكون مجرورًا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة. قوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار. قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفِص[1]، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق. ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآية (٥): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئًا مذكورًا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقًا جديدًا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذّبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]. ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: يُسْحَبُون بها في النار ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبدًا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

---

(١) أي: مُرٌّ قابض [القاموس المحيط، مادة: (عفص)].

الآية (٦): يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله؛ وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مُثْلة وعبرة وعِظة لمن اتعظ بهم. ثم أخبر تعالى أنه لولا حِلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٧].

الآية (٧): يقول تعالى إخبارًا عن المشركين أنهم يقولون كفرًا وعنادًا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أُرسل الأولون، كما تَعَنَّتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا. قال الله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم. وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي. كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: من يدعوهم إلى الله عز وجل.

الآية (٨-٩): يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان:٣٤] أي: ما حَمَلَتْ من ذكر أو أنثى، أو حَسَن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ خَلْقَ أحدكم يُجمع في بَطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُبعث إليه ملَك فيؤمر بأربع كلمات: يكْتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني: السَّقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال مجاهد: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بأجل؛ حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا. قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي: على كل شيء؛ قد أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل شيء، فخضعَت له الرقاب ودان له العباد، طوعًا وكرهًا.

الآية (١٠): يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء؛ كقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]. قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي: مُختفٍ في قَعْر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه؛ فإن كليهما في علم الله على السَّواء، كقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود:٥].

الآية (١١): قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَسٌ بالليل وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر؛ فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً. وقال ابن عباس: المعقبات من أمر الله، وهي الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له مَلَك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد حِفظُهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يَذُود عنه، حتى يُسْلِمه للذي قُدِّر له.

الآية (١٢): يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعًا من خَلَل السحاب. قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفًا للمسافر؛ يخاف أذاه ومشقته، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء.

الآية (١٣): ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]. روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحتَ له. وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديدٌ لأهل الأرض. [رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني].

قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرسلها نِقمَةً ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تَكْثُرُ في آخر الزمان.

قوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يَشُكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو. قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مماحَلَته في عقوبة من طغى عليه وعَتَا وتمادى في كفره. وعن علي: أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

الآية (١٤): قال علي بن أبى طالب: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: التوحيد. وقال ابن عباس: لا إله إلا الله. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدًا بيده، فكيف يبلغ فاه؟! وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يُحْكِمُ منه على شيء. ومعنى الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضًا وإما متناولًا له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلًا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهًا غيره لا ينتفعون بهم أبدًا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

الآية (١٥): يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجُد له كلّ شيء طوعًا من المؤمنين، وكرهًا من الكافرين. ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي: البُكُرات، ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ وهو جمع أصيل وهو آخر النهار؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]

الآية (١٦): يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها، ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تحَصِّل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة. فهل يَستوي مَن عبدَ هذه الآلهة مع الله، ومَن عبدَ الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟! ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجَعَلَ هؤلاء المشركون مع الله آلهة تُناظِرُ الربّ وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقةٌ من مخلوق غيره؟! أي: ليس الأمر كذلك؛ فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. فإذا كان الجميع عبيدًا، فَلِمَ يعبدُ بعضهم بعضًا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟! ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سِوَى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقَّتْ عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية (١٧): اشتملت هذه الآية الكريمة على مَثَلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وَسِعَ كثيرًا من الماء، وهذا صغير فَوسع بقَدْره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها؛ فمنها ما يَسَعُ علمًا كثيرًا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها. ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه، هذا مثل. وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسْبَك في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: ليُجعل حليةً. أو نحاس أو حديد فيجعل متاعًا؛ فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زبدٌ منه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: إذا اجتمعا؛ لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: لا يُنتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويَعلَق بالشجر وتَنْسِفُه الرياح. وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلًا من القرآن فلم أفهمه بَكَيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. وقال ابن عباس: قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ احتمل السيل ما في الوادي من عُود ودِمْنة. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحِلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك مثلَ العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يُستطاع أن يُعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثَه، ويخرج جيّدُهُ فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعُرِضَتْ الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

الآية (١٨): يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن؛ كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لم: يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أنْ يُمْكِنَهُم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يُتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

الآية (١٩): يقول تعالى: لا يستوي مَن يَعلَم من الناس أنَّ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لَبْسَ فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئًا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فَهِمَه ما انقاد له، ولا صدّقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟ أي: أفهذا كهذا؟! لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

الآية (٢٠-٢١): يقول تعالى مخبرًا عمن اتّصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدَّث كذب، وإذا ائتُمن خان. ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يَذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

الآية (٢٢-٢٤): قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات، وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالًا وصفحًا وعفوًا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]؛ ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعَدْن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها. قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: يُجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لِتقرَّ أعينُهم بهم، حتى إنه تُرْفَعُ درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانًا من الله وإحسانًا. وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: وتدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تَفِدُ عليهم الملائكة مُسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٢٥): قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الآية، هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [متفق عليه]. وفي رواية: «وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجَر» [متفق عليه].

ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار.

الآية (٢٦): يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويُقتِّر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرِح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالًا، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦]. ثم حقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادَّخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧]. عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بِمَ ترجعُ» وأشار بالسبابة رواه مسلم.

الآية (٢٧-٢٨): يخبر تعالى عن قيل المشركين: ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥]. تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأنَّ الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواءٌ بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أولم يُجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطًا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

الآية (٢٩): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قال ابن عباس: فرح وقُرة عين. وقال عكرمة: نعْم ما لهم. وقال الضحاك: غبطةٌ لهُم. وقال قتادة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: حسنى لهم ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها. وقال شَهْر بن حَوْشَب: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة في الجنة، كُلُّ شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا رُوي عن أبي هريرة وابن عباس. وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أن رجلًا قال: يا رسول الله، وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» [رواه أحمد، وحسنه الألباني].

الآية (٣٠): يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قَبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حُلول النقم بهم؛ فإن تكذيبهم لك أشدُّ من تكذيب غيرك من المرسلين. قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يُقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أَنِفُوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم [متفق عليه] قاله قتادة. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مُقِرٌّ له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

الآية (٣١): يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومُفضِّلًا له على سائر الكتب المُنزَّلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تُقْطَعُ به الأرض وتنشق، أو تُكَلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له.

قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مَرْجِعُ الأمور كلها إلى الله ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثَمَّ حجةٌ ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله. وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ، ولا يشبع منه العلماء.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تُصيبهم في الدنيا، أو تُصيب مَن حولهم ليتّعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧]. قال الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق. قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧].

الآية (٣٢-٣٣): يقول تعالى مُسَليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلَك فيهم أسوة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أَنظرْتُهم وأَجَّلْتُهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذةً رابيةً، فكيف بلغك ما صنعتُ بهم وعاقبتُهم؟! وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية. أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تُبصر ولا تَعْقِلُ، ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضُرٍّ عنها ولا عن عابديها؟! وحُذِف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلِمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعرَفوا؛ فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض [لعَلِمه]؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

قوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول. أي: إنما عبدْتُم هذه الأصنام بظنٍّ منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية [النجم:٢٣]. قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار. ﴿وَصُدُّوا۟﴾ أي: بما زُيّن لهم من صحة ما هم عليه، صُدّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، كما قال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ الآية [النحل:٣٧].

الآية (٣٤): ذكر تعالى عقابَ الكفار وثواب الأبرار فقال -بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك-: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلًا وأسرًا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: المُدَّخَر مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير؛ فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووِثَاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦].

الآية (٣٥): ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونَعْتُها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرًا، أي: يُصرّفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ الآية [محمد:١٥].

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع ولا فناء. عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون، طعامهم جُشَاء كريح المسك، ويُلهَمون التسبيح والتقديس كما تُلهَمون النَّفَس» [رواه مسلم]. وقد قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليُرَغّب في الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠].

الآية (٣٦): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به. قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أُنزل إليك. وقال مجاهد: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩]. قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بُعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أُرسل الأنبياء من قبلي. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

الآية (٣٧): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحكمًا مُعربًا، شرّفناك به وفضّلناك على مَن سِواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:١١]. قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: آراءهم ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من الله تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

الآية (٣٨): يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولًا بشريًا كذلك بعثنا المرسلين قبلك بَشَرًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية، وقد قال الله تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف:١١٠]، وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل الدّسَم، وأتزوج النساء» [أصل الحديث متفق عليه، ولكن بألفاظ مغايرة، وليس فيه: (وآكل الدسم)]. قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي قومَه بخارق إلا إذا أُذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مُدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار. وكان الضحاك يقول: يعني: لكل كتاب أنزله من السماء مُدَّةٌ مضروبةٌ عند الله ومقدارٌ معينٌ، فلهذا يمحو ما يشاء منها ويثبت، يعني: حتى نُسِخَتْ كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

الآية (٣٩-٤٠): ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ اختُلف في ذلك، فقال ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

عن أبي عثمان النهدي؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنبا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويُثْبِتُ منها ما يشاء. وقال الحسن: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من جاء أجله فَذَهَبَ، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ الذي هو حيّ يجري إلى أجله. وقد اختار هذا القول ابن جرير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين. وقال ابن عباس: الذكر.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد بعض الذي نَعِدُ أعداءك من الخزي والنَّكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أُمِرْتَ به ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم.

الآية (٤١): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟! وقال عِكْرِمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها. والقول الأول أولى؛ وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف:٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير.

الآية (٤٢): يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فمكرَ الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين؛ كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل! كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

الآية (٤٣): يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي الله، وهو الشاهد عليَّ وعليكم، شاهدٌ عَليَّ فيما بَلَّغْتُ عنه من الرسالة، وشاهد عليكم -أيها المكذِّبون- فيما تَفتَرُونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عن ابن عباس قال: هم مِن اليهود والنصارى. وقال مجاهد: هو الله تعالى. والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونَعْتَه في كتبهم المتقدِّمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف:١٥٦-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. وأمثال ذلك ممَّا فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

تفسير سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٢) آيةً].

الآية (١-٣): قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطَّعة في أوائل السور. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عَرَبهم وعَجَمهم. ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتُخرِج الناس ممَّا هم فيه من الضلال والغيِّ إلى الهدى والرُّشْد؛ كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الآية [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [الحديد:٩].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قَدَّر له الهداية على يدَي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُمانَع ولا يُغالَب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لِلْجَلَالَة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذَّبوك.

ثم وَصَفَهم بأنهم يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدِّمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويحبُّون أن تكون سبيل الله عوجًا مَائِلَةً عَائِلَةً، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرُّها من خالفها ولا من خَذَلَها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يُرجى لهم -والحالة هذه- صلاح.

الآية (٤): هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يُرسِل إليهم رُسُلًا منهم بلُغَاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أُرْسِلُوا به إليهم.

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يُضِلُّ تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فَيُضِلُّ من يستحقُّ الإضلال، ويهدي من هو أهلٌ لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيًّا في أمة إلا أن يكون بِلُغَتِهم، فاختصَّ كل نبيٍّ بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختصَّ محمدَ بن عبد الله رسولَ الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثَبَت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وَجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطَهُورًا، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبْعَث إلى قومه، وَبُعِثْتُ إلى الناس عامة»، وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

الآية (٥): يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لِتُخْرِجَ الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: وهي التسع الآيات. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ادعُهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بِأَيَادِيهِ ونِعَمِهِ عليهم في إخراجه إياهم مِن أَسْرِ فرعون وقَهْرِه وظلمه وغَشْمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وَفَلْقِهِ لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، إلى غير ذلك من النِّعَم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يدِ فرعون، وأنجيناهم ممَّا كانوا فيه من العذاب المهين ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: لعبرة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الضرَّاء ﴿شَكُورٍ﴾ أي: في السرَّاء، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أَمْر المؤمن كُلَّه عَجَب، لا يَقضِي الله له قَضَاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضرَّاء صَبَر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شَكَر فكان خيرًا له» [رواه مسلم بمعناه].

الآية (٦-٨): يقول تعالى مخبرًا عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيَّام الله عندهم ونِعَمِه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يَسُومُونَهُم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يَذْبَحُونَ مَنْ وُجِدَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، ويتركون إناثهم، فأنْقَذَهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويُحتمَل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذَنَكُم وأَعْلَمَكُم بوَعْدِه لكم. ويُحتَمَل أن يكون المعنى: وإذ أَقسَم ربكم وآلَى بِعِزَّته وجلاله وكبريائه؛ كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:١٦٧]. وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شَكَرتم نعمتي عليكم لأزِيدَنَّكُم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كَفَرتم النِّعَم وسَتَرْتُمُوها وجَحَدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾؛ وذلك بسَلْبِها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كَفَره من كَفَره؛ كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الآية [الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦].

وعن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي، لو أن أوَّلَكم وآخركم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أوَّلَكم وآخركم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، كانوا على أَفْجَر قلب رجل واحد منكم، ما نَقَصَ ذلك في مُلْكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أوَّلَكم وآخركم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأَعطَيتُ كل إنسان مسألته، ما نَقَص ذلك من مُلْكي شيئًا، إلا كما ينقُص المِخْيَط إذا أُدْخِل في البحر» [رواه مسلم]. فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

الآية (٩): هذا خبر من الله تعالى لهذه الأمة، خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذِّبة للرسل، ممَّا لا يُحصِي عدَدَهم إلا الله ﷻ أتَتْهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال عبد الله [ابن مسعود] في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كَذَبَ النَّسَّابون. وقال عروة بن الزبير: ما وَجدْنا أحدًا يعرف ما بعد مَعَدِّ بن عدنان.

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرُّسل يأمرونهم بالسكوت عنهم، لَـمَّا دعوهم إلى الله ﷻ. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه: أنهم كذَّبُوهم ورَدُّوا عليهم قولهم بأفواههم.

قلتُ: ويُؤَيِّد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكأنَّ هذا تفسير لمعنى ردِّ أيديهم في أفواههم. وقال ابن عباس: لَـمَّا سمعوا كتاب الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نُصَدِّقُكُم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكًّا قويًّا.

الآية (١٠): يُخبِر تعالى عمَّا دارَ بين الكفار وبين رُسُلِهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لَـمَّا واجهوهم بالشكِّ فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أفي وجوده شك؟! فإن الفِطَر شاهدةٌ بوجوده، ومَجبُولةٌ على الإقرار به، ولكن قد يَعرِض لبعضها شكٌّ واضطراب، فتَحتَاج إلى النظر في الدليل المُوْصِل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل تُرشِدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض الذي خَلَقَها وابتدعها على غير مثال سَبَق.

وقالت لهم الرسل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ الآية [هود:٣]، فقالت لهم الأمم مُحاجِّين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرَّد قولكم، ولَـمَّا نَرَ منكم معجزةً؟! ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خارق نَقْتَرِحُه عليكم.

الآية (١١-١٢): ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح أنَّا بشر، مثلكم في البشرية، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وَفْق ما سألتم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكُّل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

الآية (١٣-١٧): يُخبر تعالى عمَّا تَوَعَّدَت به الأمم الكافرة رُسُلَهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الآية [الأعراف:٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل:٥٦]، وقال تعالى إخبارًا عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسولَه ونصَرَه، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يَزَل يُرَقِّيه حتى فَتَح له مكة التي أَخرجَتْه، ومَكَّن له فيها، وأَرغَم آناف أعدائه منهم، وسائر الأرض، حتى دَخَل الناس في دين الله أفواجًا، وظهرَت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]. وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: استنصرت الرسل ربَّها على قومها. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها؛ كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]. ويُحتمَل أن يكون هذا مُرادًا وهذا مُرادًا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال:١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: مُتجبِّر في نفسه معاند للحق.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ و«وراء» ها هنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩].

أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدًا يوم المعاد، ويُعرَض عليها غدوًّا وعشيًّا إلى يوم التنادِ. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غسّاق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البَرْد والنَتَن، قال مجاهد: الصديد: من القَيْح والدم. وقال قتادة: هو ما يَسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتغصَّصه ويَتكَرَّهه، أي: يشربه قهرًا وقَسْرًا، لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:٢١]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: يَزْدَرِدُه لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. وقال ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يُعَذِّبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا وَرَدَ عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت لِيَخْلُدَ في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مُؤلِم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمرّ. وهذا كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤]، وقال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٧-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوُّع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، ممَّا لا يحصيه إلا الله ﷻ جزاءً وفاقًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

الآية (١٨): مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئًا، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدَّت به الريح العاصفة، ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فَقَدوا ثوابهم أَحْوَجَ ما هم إليه.

الآية (١٩-٢٠): يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفَليس[1] الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، [وبرارٍ وصحارٍ] وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يُذْهِبَكُم ويأتي بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

الآية (٢١): ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها، بَرُّها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في بَرَاز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: فهل تدفعون عنَّا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تَعدُوننا وَتُمَنُّونَنَا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حقَّ علينا قول ربنا، وسَبَقَ فينا وفيكم قَدَرُ الله، وحَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ليس لنا خَلاص ممَّا نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال ابن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله ﷻ، تعالوا نَبْكِ ونتضرَّع إلى الله، فبكوا وتضرَّعوا، فلمَّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرًا لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

الآية (٢٢-٢٣): يُخبر تعالى عمَّا خَطَبَ به إبليسُ أتباعَه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنَّات، وأسكن الكافرين الدَّرَكات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذٍ خطيبًا ليَزيدَهم حُزْنًا إلى حُزْنِهم، وغَبْنًا إلى غَبْنِهم، وحسرةً إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًّا، وخَبَرًا صِدْقًا، وأما أنا فوَعَدتكم وأخلَفتكم؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرَّد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صِدْق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصِرتُم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرَّد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومُنْقِذكُم ومُخَلِّصِكُم ممَّا أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بِنَافِعِيَّ بِإِنْقَاذِي ممَّا أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جَحَدْتُ أن أكون شريكًا لله ﷻ. وهذا الذي قاله هو الراجح؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨٢]. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار. وقال محمد بن كعب القُرظي: لَـمَّا قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلمَّا سمعوا مقالته مَقَتُوا أنفسهم، فنُوْدُوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

ثم لَـمَّا ذَكَر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخِزي والنَّكال، وأن خطيبهم إبليس، عَطَف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يَزُولُون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان:٧٥].

الآية (٢٤): قال ابن عباس: قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ. وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جُبَير وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء. وعن ابن مسعود قال: هي النخلة. وعن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تُشبه -أو كالرجل- المسلم، لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا [ولا، ولا، ولا][2] تؤتي أُكُلَهَا كلَّ حينٍ»... فلمَّا لم يقولوا شيئًا، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»... [متفق عليه].

(١) لعل خبر (ليس) دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

(٢) ما بين المعقوفين ليس عند ابن كثير، وأثبتناه من صحيح البخاري.

الآية (٢٥-٢٦): ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غُدوةً وعَشيًّا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة. والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له عمل صالح آناءَ الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملًا حسنًا كثيرًا طيبًا، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مَثَلُ كُفْرِ الكافر؛ لا أصلَ له ولا ثبات، وَشُبِّهَ بشجرة الحَنْظَل، ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّل منه شيء.

الآية (٢٧): عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾» [متفق عليه]. وعن طاووس: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: المسألة في القبر. وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف.

الآية (٢٨-٣٠): قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟! كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ [البقرة:٢٤٣]، البَوَار: الهلاك، بَارَ يَبُورُ بَورًا، و﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان:١٨، الفتح:١٢]: هالكين. عن ابن عباس قال: هم كفار مكة، وقال العوفي عن ابن عباس: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم، والمشهور الصحيح عن ابن عباس القول الأول، وإن كان المعنى يَعُمُّ جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بَعَثَ محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، ونعمةً للناس، فمن قَبِلَها وقام بشكرها دَخَلَ الجنة، ومن ردَّها وكَفَرَها دَخَل النار.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودَعَوُا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إليها؛ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٧٠].

الآية (٣١): يقول تعالى آمرًا العباد بطاعته والقيام بحقِّه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مِمَّا رَزَقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات، والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مِمَّا رَزَق في السرِّ، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخَلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: لا يقبل من أحد فِدْيةٌ بأن تُبَاع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد:١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَّة خليل، فَيَصْفَح عمن اسْتَوْجَب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدل والقسط. قلتُ: والمراد من هذا أنه يُخبر تعالى أنه لا ينفع أحدًا بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وَجَدَه، ولا ينفعه صداقةُ أحد ولا شفاعةُ أحد إذا لقيَ الله كافرًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

الآية (٣٢-٣٣): يُعَدِّد تعالى نِعَمَه على خلقه، بأن خَلَق لهم السموات سقفًا محفوظًا، والأرض فراشًا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجًا من نبات شتَّى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسَخَّر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وَسَخَّر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسَخَّر الأنهار تَشُقُّ الأرض من قُطْر إلى قُطْر، رزقًا للعباد من شُرْب وسَقْي وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: يسيران لا يفتران ليلًا ولا نهارًا، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارةً يأخذ هذا من هذا فيَطُول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيَقصُر، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٥].

الآية (٣٤): ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول: هَيَّأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم ممَّا تسألونه بحالكم وقالكم.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يُخبر عن عَجز العباد عن تَعْدَاد النِّعَم فضلًا عن القيام بشُكرِها؛ كما قال طَلْق بن حبيب: إن حقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نِعَمَ الله أكثر من أن يُحْصِيهَا العباد، ولكن أَصْبِحُوا تَوَّابِينَ وَأَمْسُوا تَوَّابِينَ.

ورسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُسْتَغْنى عنه ربَّنا» [رواه البخاري].

وقال الشافعي -رحمه الله-: الحمد لله الذي لا يُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ من نِعَمِه، إلا بنِعْمَةٍ تُوجِب عَلَى مُؤدى مَاضِي نعَمه بِأَدَائِهَا نِعْمَةً حادثةً تُوجِبُ عَلَيْهِ شُكْرَهُ بِهَا.

وقال القائل في ذلك:

لـــو كـــلُّ جَارِحَـــةٍ مِنِّـــي لـــهَا لغـــةٌ
تُثْنـــي عليـــك بِـــما أولَيْـــتَ مِـــنْ حَسَـــنِ
لكـــان مـــا زاد شُـــكْرِي إذ شَـــكَرْتُ بِـــهِ
إليـــك أبلـــغَ فِي الإحسَـــان والـمِـنَـــنِ

الآية (٣٥-٣٦): يذكر تعالى في هذا المقام مُحْتَجًّا على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وُضِعَتْ أَوَّلَ ما وُضِعَتْ على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم -الذي كانت عامرةً بسببه آهِلَةً- تَبَرَّأَ ممَّن عَبَدَ غيرَ الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٦، ٩٧].

وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، فَعَرَّفَهُ لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم:٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، كما ذكرناه في سورة البقرة.

وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذَكَرَ أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه بَرِيءٌ ممَّن عَبَدَها، وردَّ أَمرَهم إلى الله، إن شاء عذَّبَهم، وإن شاء غَفَر لهم، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، وليس في هذا أكثر من الردِّ إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

الآية (٣٧): وهذا يدلُّ على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدًا ورغبةً إلى الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن جرير: هو مُتَعَلِّق بقوله: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته مُحَرَّمًا لِيَتَمَكَّن أهله من إقامة الصلاة عنده، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختُصَّ به المسلمون.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها.

وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وهذا من لُطْفِه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تُجبَى إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

الآية (٣٨-٤١): قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم حَمِدَ ربَّه ﷻ على ما رَزَقَه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: إنه ليَستَجِيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظًا عليها مقيمًا لحدودها، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: فيما سألتك فيه كله. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: وقرأ بعضهم: «وَلِوَالِدِي» على الإفراد، وكان هذا قبل أن يتبرَّأ من أبيه لَـمَّا تبيَّن له عداوته لله ﷻ.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم تُحاسِب عبادك فتَجْزِيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

الآية (٤٢): يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا تَحْسَبَنَّه إذا أَنْظَرَهُم وأَجَّلَهُم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يُعاقِبهم على صُنعهم، بل هو يُحصِي ذلك عليهم ويَعُدُّه عدًّا. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

الآية (٤٣): ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ الآية [القمر:٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ الآية [المعارج:٤٣]. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: رافعي رؤوسهم. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: أبصارهم طائرة شاخصة، يُدِيمُون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لِمَا يحلُّ بهم، عياذًا بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوَجَل والخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَآءٌ﴾: خراب لا تَعِي شيئًا.

الآية (٤٤-٤٦): لشدة ما أخبر الله تعالى عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يقول تعالى مخبرًا عن قِيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. وقال تعالى رادًّا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معادَ ولا جزاءَ؟! فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل:٣٨]. ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلَغكُم ما أحللْنا بالأمم المكذِّبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم مُعْتَبَر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مُزْدَجَر لكم! وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووَجَّهَه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضرَّ ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها، وإنما عادَ وبالُ ذلك على أنفسهم. قلت: ويُشبه هذا إذًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]. والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١]، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

الآية (٤٧-٤٨): يقول تعالى مقرِّرًا لوعده ومؤكِّدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: من نُصْرَتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عِزَّة لا يَمتَنِع عليه شيء أراده، ولا يُغالَب، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممَّن كَفَر به وجَحَده، فويل يومئذٍ للمكذبين؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وَعْدُه هذا حاصل يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرْصَةِ النَّقِيِّ، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ».

وعن عائشة قالت: أنا أولُ الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قلت: أين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: خَرَجَت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قَهَر كل شيء وغَلَبَه، ودانت له الرقاب، وخَضَعَت له الألباب.

الآية (٤٩-٥١): يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وتَبْرُز الخلائق لدَيَّانها، ترى يا محمد يومئذٍ المجرمين، وهم الذين أجرَموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٣]. والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة. وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قَطِران، وهو الذي تُطْلَى به الإبل، وهو أَلْصَقُ شيء بالنار. وكان ابن عباس يقول: القَطِران هو: النحاس المُذَاب، وربما قرأها (سرابيلهم من قِطْرٍ آن) أي: من نحاس حار قد انتهى حَرُّه. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤]. وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم:٣١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وأن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: إحصاء. ويُحتمل أن يكون المعْنَيان مُرَادَيْن، والله أعلم.

الآية (٥٢): يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس؛ كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: لِيَتَّعِظُوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يَسْتَدِلُّوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية. [وآياتها (٩٩) آية].

الآية (١-٣): قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنَّون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا. وقيل: المراد أن كل كافر يَوَدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمنًا. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

وقال ابن جرير: كان ابن عباس وأنس بن مالك يَتأوَّلان هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار. فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا؟! فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيُخرِجهم، فذلك حين يقول: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القِبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام؟! فقد صِرتُم معنا في النار! قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخِذْنَا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرِجوا، فلمَّا رأى ذلك من بَقيَ من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [رواه الطبراني والحاكم وابن أبي عاصم، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

الآية (٤-٥): يخبر تعالى: أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يُؤخِّر أمةً حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدَّمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عمَّا هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقُّون به الهلاك.

الآية (٦-٩): يُخبِر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: الذي يَدَّعِي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وتَرْك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لَوْ مَا﴾ أي: هلاَّ ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢١-٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قَرَّر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

الآية (١٠-١٣): يقول تعالى مُسَلِّيًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذَّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمةً رسولٌ إلا كذَّبُوه واستهزؤوا به، ثم أَخبَر أنه سَلَكَ التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس والحسن البصري: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: يعني: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد عُلِمَ ما فَعَلَ تعالى بمن كَذَّب رسلَه من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

الآية (١٤-١٥): يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم بابًا من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لَمَا صدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قال مجاهد: سُدَّت أبصارنا، وقال ابن عباس: أُخِذَت أبصارنا، وقال الكلبي: عَميت أبصارنا.

الآية (١٦-٢٠): يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زَيَّنها به من الكواكب الثواقب لمن تأملها، وكرَّر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي: الكواكب. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وجعل الشُهب حَرَسًا لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسَّمَّعُوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرَّد منهم وتقدَّم لاستراق السمع جاءه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سَمِعها قبل أن يُدْرِكه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وَلِيِّه، كما جاء مصرحًا به في الصحيح، كما روى البخاري عن أبي هريرة، يبلُغُ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كأنه سلسلةٌ على صَفوان يَنفُذهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، فرُبَّما أَدْرَك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمي بها إلى صاحبه فيحرقَه، وربَّما لم يُدْرِكْه حتى يَرْمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض».

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض، ومدَّه إيَّاها وتوسيعها وبسطها، وما جَعَل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أَنبَتَ فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغيرهم. ومنهم من يقول: مُقَدَّر بقَدَر. وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَن ويُقَدَّر بقَدَر.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: يذكر تعالى أنه صَرَّفَهُم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش، وهي جمع معيشة. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾: قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد: أنه تعالى يمتَنُّ عليهم بما يَسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سَخَّر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورِزْقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

الآية (٢١-٢٥): يُخبِر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولِمَا لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على الوجوب، بل هو كَتَبَ على نفسه الرحمة. قال عبد الله [ابن مسعود]: ما من عام بأمطرَ من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عامًا ههنا، وعامًا ههنا. ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: تُلَقِّحُ السَّحَابَ فَتُدِرُّ ماءً، وتُلَقِّح الشجر فتتفتَّح عن أوراقها وأكمامها. وعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمُرُّ مَرَّ السحاب، حتى تُدِرَّ كما تُدِرُّ اللَّقحَة. وكذا قال ابن عباس. وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عَذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أُجاجًا كما ينبِّه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠]، وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزِّله ونحفظه عليكم، ونجعله معينًا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذَهَب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبًا، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع. وأَخبَر أنه تعالى يَرِث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال مخبرًا عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: المستقدمون: كل من هَلَك مِن لَدُنْ آدم عليه السلام، والمستأخرون: مَن هو حيٌّ ومَن سيأتي إلى يوم القيامة. وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير.

الآية (٢٦-٢٧): قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥]. وعن مجاهد أيضًا: الصلصال: المُنْتِنُ. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: الصلصال من حَمَأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، ولهذا روي عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس ومجاهد أيضًا: أن الحمأ المسنون هو المُنْتِنُ. وقيل: المراد بالمسنون ههنا: المصبوب. وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾: هي السَّمُومُ التي تَقْتُل، وعن ابن عباس: أن الجان خُلِقَ من لهبِ النار، وفي رواية: من أحسن النار. وقد وَرَد في الصحيح: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق بنو آدم ممَّا وُصِف لكم» [رواه مسلم]، ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عُنْصُره، وطهارة مَحْتِده[1].

الآية (٢٨-٣٠): يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له.

(١) المحْتِد: الأصل والطبع [القاموس المحيط، مادة (حتد)].

الآية (٣١-٣٣): يذكر [تعالى] تخلُّفَ إبليس عن السجود [لآدم] من بين سائر الملائكة، حَسَدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

الآية (٣٤-٣٨): يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمرًا كونيًا لا يُخَالَف ولا يُمَانَع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وأنه قد أَتْبَعَهُ لعنةً لا تزال مُتَّصِلةً به، لاحقةً له، متواترةً عليه إلى يوم القيامة. وأنه لَـمَّا تحقَّق الغَضَبَ الذي لا مَرَدَّ له، سأل -مِن تمام حسده لآدم وذريته- النَّظِرَةَ إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا، فلمَّا تحقَّق النَّظِرَةَ -قبحه الله- قال ما قصّه الله تعالى.

الآية (٣٩-٤٤): يقول تعالى مخبرًا عن إبليس وتمرُّده وعتوِّه أنه قال للرب: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ قال بعضهم: أقسمَ بإغواء الله له. قلتُ: ويُحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُحَبِّب إليهم المعاصي وأُرَغِّبُهُم فيها، وأَؤُزُّهم إليها، وأُزعجهم إزعاجًا، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني وقَدَّرت عليَّ ذلك ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

قال الله تعالى له مُتَهَدِّدًا ومُتَوَعِّدًا: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشرٌّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد والحسن وقتادة، كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: الذين قدَّرْتُ لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع(١).

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتَّبَع إبليس؛ كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود:١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كُتِب لكلِّ باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكُلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويَستقرُّ في دَرَك بقدر فعله. وقال عِكْرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جُرَيْج: أوّلها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمَة، ثم سعير، ثم سَقَر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى عن ابن عباس نحوه. وقال قتادة: وهي والله منازل بأعمالهم.

الآية (٤٥-٥٠): لَـمَّا ذَكَر تعالى حال أهل النار، عَطَف على ذِكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مُسلَّمًا عليكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل خوف وفَزَع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يُخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعضهم، مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخول الجنة» [رواه البخاري].

وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين: استأذن الأشتر على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنده ابن لطلحة، فحَبَسَه(٢) ثم أَذِنَ له. فلـمَّا دَخَل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أَجَل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني! قال: أَجَل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

وقال أبو صالح في قوله: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين «إن الله أمرني أن أُبَشِّر خديجة ببيت في الجنة من قصَب، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ».

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾؛ كما قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب أليم، وهي دالة على مَقَامَي الرجاء والخوف.

الآية (٥١): يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والضيف: يُطلَق على الواحد والجمع.

---

(١) الاستثناء المنقطع هو ما كان (المستثنى) في الكلام من غير جنس (المستثنى منه)، وتكون (إلا) حينئذ بمعنى (لكن).

(٢) فحبسه: أي: فمنعه من الدخول عليه؛ إذ من معاني الحبس: المنع. [ينظر: القاموس المحيط، مادة (منع)].

الآية (٥٢-٥٦): ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون. وقد ذَكَر سبب خوفه منهم لَـمَّا رأى أيديهم لا تصل إلى ما قرَّبَه لهم ضيافةً، وهو العجل السمين الحنيذ.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨] وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما تقدَّم في سورة هود.

ثم قال متعجِّبًا من كِبَره وكِبَر زوجته ومتحقِّقًا للوَعْد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأجابوه مُؤَكِّدين لِـمَا بشَّرُوه به تحقيقًا وَبِشَارَةً بعد بِشَارَةٍ، ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ فأجابهم بأنه ليس يَقْنَط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كَبِر وأَسَنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

الآية (٥٧-٦٠): يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا ذَهَب عنه الرَّوع وجاءته البشرى: إنه شَرَع يسألهم عمَّا جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سَيُنَجُّون آلَ لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الـمُهْلَكِين؛ ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين المهلكين.

الآية (٦١-٦٤): يخبر تعالى عن لوط لَـمَّا جاءته الملائكة في صورة شباب حِسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكُّون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه.

الآية (٦٥-٦٦): يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يَسري بأهله بعد مُضِيّ جانبٍ من الليل، وأن يكون لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يمشي وراءهم؛ ليكون أحفظَ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو، وإنما يكون سَاقَةً، يُزْجِي الضعيف، ويَحْمِل الـمنقطعَ.

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: تقدَّمنا إليه في هذا، ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

الآية (٦٧-٧٠): يُخبِر تعالى عن مجيء قوم لوط لَـمَّا علموا بأضيافه وصَبَاحَةِ وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يَعلَم بأنهم رُسُل الله -كما قال في سياق سورة هود[1]- وأما ههنا فتقدَّم ذِكرُ أنهم رسل الله، وعَطَف بذِكر مجيء قومه ومُحاجَّته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دلَّ دليل على خلافه. فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أَوَما نهيناك أن تُضِيفَ أحدًا؟!

(١) آيتا سورة هود هما: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٧، ٧٨].

الآية (٧١-٧٢): أرشَدَهم إلى نسائهم، وما خَلَق لهم ربهم مِنهنَّ من الفروج المباحة. هذا كله وهم غافلون عمَّا يُرَاد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصَبِّحهم من العذاب الْـمُسْتَقِر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه ﷺ وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خَلَقَ الله وما ذَرَأ وما بَرَأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره؛ قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحَيَاتِكَ وعُمرِكَ وبَقَائِكَ في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. وقال قتادة: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون. وقال ابن عباس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: لَعَيْشُكَ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَتَمَادَوْن.

الآية (٧٣-٧٧): يقول: تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف ﴿مُشْرِقِينَ﴾ عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنان السماء ثم قَلْبها، وجَعْل عالِيها سَافِلَهَا، وإرسال حجارة السجّيل عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بَصَره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: الـمُتَفَرِّسِين. وعن ابن عباس: لِلنَّاظِرِين. وقال قتادة: لِلْمُعْتَبِرِين. وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي: وإن قرية سَدُوم التي أصابها ما أصابها من القَلْب الصُّورِيِّ والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بُحيرةً مُنْتِنَةً خبيثةً لَبِطَرِيقٍ مَهْيَع[1]، مسالكه مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]. وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ قال: مُعَلَّم. وقال قتادة: بِطَرِيق واضح. وقال قتادة أيضًا: بِصُقْع من الأرض واحد. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن الذي صنَعْنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطًا وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

الآية (٧٨-٧٩): أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة: الشجر الْـمُلْتَفُّ. وكان ظُلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظُّلَّة، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط، بَعْدَهم في الزمان، ومُسَامِتِين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لَـمَّا أنذر شعيب قومه قال في نِذَارَتِه إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

الآية (٨٠-٨٤): أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيَّهم، ومن كذَّب برسول فقد كذَّب بجميع المرسلين؛ ولهذا أُطْلِقَ عليهم تكذيب المرسلين. وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلُّهم على صِدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرَجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْب ولهم شِرب يوم معلوم. فلمَّا عَتَوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وذكر تعالى: أنهم كانوا ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أَشَرًا وبَطَرًا وعَبَثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بِوَادي الحِجْر، الذي مَرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّع رأسه وأَسرَع دابَّته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فَتَبَاكوا خَشْيَةَ أن يصيبكم ما أصابهم» [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يستغلُّونه من زروعهم وثمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دَفَعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لَـمَّا جاء أمر ربك.

الآية (٨٥-٨٦): يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]. ثم أخبر نبيَّه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أَمَرَه بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا؛ فإن هذه مكِّيَّة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه ﴿الْخَلَّاقُ﴾ الذي لا يُعجِزه خَلْق ما يشاء، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تمزَّق من الأجساد، وتفرَّق في سائر أقطار الأرض.

الآية (٨٧-٨٨): يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تَنْظُرَنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما مَتَّعْنا به أهلها من الزهرة الفانية لِنَفْتِنَهم فيه، فلا تَغْبِطْهُم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنًا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥] أي: أَلِنْ لهم جانبك. وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نُهِيَ الرجل أن يتمنَّى مال صاحبه، وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾: هم الأغنياء.

الآية (٨٩-٩٠): يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ البيّن النِّذَارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحلَّ بهم على تكذيبه كما حلَّ بمن تقدَّمهم من الأمم المكذِّبة لرسلها، وما أَنزَل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسُمُّوا مُقْتَسِمِين.

---

(١) طريقٌ مَهْيَعٌ: أي: بَيِّنٌ [القاموس المحيط، مادة: (هيع)].

الآية (٩١-٩٣): ﴿عِضِينَ﴾ أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، روى البخاري عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه. وقال ابن عمر في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وكذا قال مجاهد. وقال أبو العالية: يُسأَل العباد كلُّهم عن خُلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عَمَلِكَ، وعن مَالِكَ. وقال ابن عباس: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟

الآية (٩٤-٩٩): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بإبلاغ ما بَعَثَه به وبإنفاذه والصَّدْع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أَمْضِهِ. وفي رواية: افعل ما تُؤْمَر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي: بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، ولا تَلْتَفِتْ إلى المشركين الذين يريدون أن يصدُّوك عن آيات الله ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، ولا تَخَفْهُم؛ فإن الله كافِيكَ إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبودًا آخر. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يَهِيدَنَّك[1] ذلك، ولا يَثْنِيَنَّكَ عن إبلاغك رسالةَ الله، وتَوَكَّل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذِكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أَمْرٌ صلَّى [رواه أحمد وأبو داود، وحسنه الألباني].

وقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ قال سالم بن عبد الله بن عمر: الموت، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦-٤٧].

ويُسْتَدَلُّ من هذه الآية الكريمة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا فيصلي بحسب حاله. ويُستَدَلُّ بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وَصَلَ أحدهم إلى المعرفة سَقَطَ عنه التكليف عندهم! وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فِعْل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين ههنا: الموت، كما قدمناه.

(١) لا يهيدنك: لا يزعجك ولا يكربك [انظر القاموس المحيط مادة: (هيد)].

تفسير سورة النحل

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٢٨) آيةً].

الآية (١): يُخبِر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوِّها مُعبِّرًا بصيغة الماضي الدالِّ على التحقيق والوقوع لا محالة.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قَرُبَ ما تَبَاعَدَ فلا تستعجلوه. يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣].

ثم إنه تعالى نَزَّهَ نفسه عن شِركِهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتَقَدَّس علوًّا كبيرًا، وهؤلاء هم المكذِّبون بالساعة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٢): يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي: لِيُنْذِرُوا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعَبَدَ غيري.

الآية (٣-٤): يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حَوَت، وأن ذلك مخلوق بالحقِّ لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]. ثم نَزَّهَ نفسه عن شِرْك من عَبَد معه غيره، وهو المُسْتَقِلُّ بالخَلْق وحده لا شريك له؛ فلهذا يستحقُّ أن يُعبَد وحده لا شريك له. ثم نَبَّهَ على خَلق جنس الإنسان ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ضعيفة مَهِينَة، فلمَّا استقلَّ ودَرَج إذا هو يُخَاصِم ربَّه تعالى ويكذِّبه، ويحارب رسله، وهو إنما خُلِق ليكون عبدًا لا ضدًّا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]. وعن بُسْر بن جَحَّاش قال: بَصَقَ رسول الله في كَفِّه، ثم قال: «يقول الله: ابنَ آدم، أَنَّى تُعجِزني وقد خَلَقْتُك من مثل هذه؟! حتى إذا سَوَّيْتُكَ فعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بين بُرْدَيْك وللأرض منك وَئِيدٌ، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بَلَغَتْ الحلقوم قلت: أَتَصَدَّقُ. وأَنَّى أَوَانُ الصدقة؟» [رواه أحمد وابن ماجه، وحسنه الألباني].

الآية (٥-٦): يَمْتَنُّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًّا من المرعى، فإنها تكون أَمَدّه خواصر، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

الآية (٧): ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: وهي الأحمال المُثْقِلَة التي تَعجزُون عن نَقلِها وحملها. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جَرى مَجْرَى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من رُكُوبٍ وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٧٩-٨١].

ولهذا قال ههنا بعد تَعْدَاد هذه النِّعَم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيَّض لكم هذه الأنعام وسَخَّرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧١-٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾[1] أي: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال مجاهد: ﴿دِفْءٌ﴾ لباس يُنْسَج، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ تُركَبُ، ولحم ولبن. وقال قتادة: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلْغَة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بألفاظ مُتَقَارِبَة.

الآية (٨): هذا صنف آخر ممَّا خَلَق تبارك وتعالى لعباده، يمتَنُّ به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل.

الآية (٩): لَمَّا ذَكَر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شَرَع في ذِكر الطُّرُق التي يَسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحقَّ منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، قال مجاهد: في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله. وقال السُّدي: الإسلام. وعن ابن عباس: وعلى الله البيان؛ أي يبين الهدى والضلالة، وكذا قال قتادة والضحاك. وقولُ مجاهد أقوى؛ لأنه تعالى أَخبَر أن ثَمَّ طُرُقًا تُسلَك إليه، فليس يَصِل إليه منها إلا طريقُ الحقِّ، وهي الطريق التي شَرَعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

الآية (١٠-١١): لَمَّا ذَكَر سبحانه ما أَنعَم به عليهم من الأنعام والدواب، شَرَع في ذِكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء، ممَّا لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذبًا زُلَالًا، يَسُوغُ لكم شَرَابُه، ولم يجعله مِلْحًا أُجَاجًا، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرًا ترعون فيه أنعامكم. ومنه الإبل السائمة، والسَّوْم: الرعي.

وقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله.

الآية (١٢-١٣): يُنَبِّه تعالى عباده على آياته العظام، ومِنَنِه الجِسَام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورًا وضياءً للمهتدين بها في الظلمات، وكلٌّ منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره.

كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله ويفهمون حُجَجِه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ لَمَّا نَبَّه سبحانه على معالم السموات، نَبَّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

الآية (١٤): يُخبِر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتَنُّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السَّمَك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حَيَّها ومَيِّتَها، في الحِلِّ والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تَمْخُرُهُ، أي: تَشُقُّه، بِجُؤْجُئِهَا -وهو صَدْرُهَا المسنَّم- الذي أَرشَد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثًا عن أبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نعمه وإحسانه.

---

(١) لعل ابن كثير أَخَّرَ تفسير هذ المقطع إلى هذا الموضع لاتصال الكلام قبله بعضه ببعض، وإلا فاللفظة جزء من الآية رقم (٥) الواردة بالصفحة السابقة.

الآية (١٥-١٨): ذَكَر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لِتَقِرَّ الأرض ولا تَميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]. وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقًا للعباد، يَنْبُعُ في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر! فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنةً ويسرةً، وجنوبًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت، وما بين نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وقويّ السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدَّر، وسخَّر ويسَّر، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه. وكذلك جَعَل فيها سُبلًا، أي: طُرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًّا ومَسْلَكًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء:٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: دلائل من جبال كِبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يَستَدِل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلُّوا الطريق.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس.

ثم نَبَّه تعالى على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئًا بل هم يُخلَقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نَبَّههم على كثرة نِعَمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشُكْر جميع نِعَمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أَمَرَكم به لَضَعُفْتُم وتَرَكْتُم، ولو عذَّبكم لعذَّبَكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لِمَا كان منكم من تقصير في شُكْر بعض ذلك، إذا تُبتُم وأَنَبْتُم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يُعذِّبكم بعد الإنابة والتوبة.

الآية (١٩-٢١): يُخبِر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تُبصِر ولا تَعقِل، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتَجى عند هذه نَفْعٌ أو ثواب أو جزاء؟! إنما يُرتَجى ذلك من الذي يَعلَم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

الآية (٢٢-٢٣): يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكِر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم مُتَعَجِّبِينَ من ذلك: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

الآية (٢٤-٢٥): يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟﴾ مُعرِضين عن الجواب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم يُنْزِلْ شيئًا، إنما هذا الذي يُتْلَى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كُتُب المتقدِّمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥] أي: يَفْتَرُون على الرسول، ويقولون فيه أقوالًا مختلفةً متضادةً، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٩]؛ وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ.

قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحمَّلوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتَّبِعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتَّبَعَه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتَّبَعَه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» [رواه مسلم]. وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يُخَفِّفُ عمَّن أطاعهم من العذاب شيئًا.

الآية (٢٦): قال ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو نمرود الذي بنى الصرح. وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حِيلة، وأمالوهم إلى شِركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الآية [سبأ:٣٣]. وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجْتَثَّهُ من أصله، وأَبطَل عملهم، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤]. وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، وقال ههنا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الآية (٢٧): ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يُظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩] أي: تَظْهَرُ وَتَشْتَهِر. عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لكلِّ غادر لواءٌ يوم القيامة عند اسْتِهِ بقَدْر غَدْرَته، فيُقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان» [متفق عليه].

وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يُسِرُّونَه من المكر، وَيُخْزِيهِمُ الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الربُّ تبارك وتعالى مُقرِّعًا لهم ومُوبِّخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؟ تُحَارِبُون وَتُعَادُون في سبيلهم، أين هم عن نَصرِكم وخلاصكم ههنا؟! ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٣]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠]. فإذا تَوَجَّهَتْ عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحَقَّت عليهم الكلمة، وأُسْكِتُوا عن الاعتذار حين لا فِرَار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السَّادَة في الدنيا والآخرة، والمُخْبِرُون عن الحقِّ في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذٍ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم بمن كَفَر بالله، وأَشرَك به ما لا يضرُّه ولا ينفعه.

الآية (٢٨-٢٩): يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أَظهَروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١٨]. قال الله مُكَذِّبًا لهم في قِيلِهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المَقِيلُ والمَقَامُ والمكان من دار هوان، لمن كان مُتكبِّرًا عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم مَمَاتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادَهم في قبورها من حَرِّها وسَمومِها، فإذا كان يوم القيامة سَلَكَتْ أرواحهم في أجسادهم، وَخَلَدَتْ في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

الآية (٣٠-٣٢): هذا خَبَرٌ عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل:٢٤] فقالوا معرضين عن الجواب: لم يُنزل شيئًا، إنما هذا أساطير الأولين.

وهؤلاء ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي: أَنْزَلَ خَيْرًا، أي: رحمةً وبركةً وحسنًا لمن اتَّبعه وآمن به.

ثم أَخْبَرُوا عمَّا وَعَدَ الله عباده فيما أَنزَلَه على رسله، فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، أي: مَن أَحسَنَ عملَه في الدنيا أحسنَ الله إليه في الدنيا والآخرة.

ثم أخبروا بأن دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتمُّ من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]. ثم وَصَفُوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كلَّ من آمن به واتَّقاه وأحسنَ عملَه. ثم أَخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مُخَلَّصُون من الشرك والدَّنَس وكل سوء، وأن الملائكة تُسَلِّم عليهم وتُبَشِّرهم بالجنة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

الآية (٣٣-٣٤): يقول تعالى مُتَهَدِّدًا للمشركين على تَمَادِيهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلُّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أَعْذَر إليهم، وأقام حُجَجَه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يَسْخَرون من الرسل إذا تَوَعَّدُوهم بعقاب الله؛ فلهذا يُقال يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤].

الآية (٣٥-٣٧): يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجِّين بالقَدَر، في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من البَحَائر والسَّوَائِبِ والوَصَائِلِ وغير ذلك ممَّا كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم يُنزِّل الله به سلطانًا.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهًا لِـمَا فعلنا لأَنكرَهُ علينا بالعقوبة ولَـمَا مَكَّننا منه. قال الله رادًّا عليهم شُبهَتَهم: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُعَيِّرْهُ عليكم ولم يُنْكِرْهُ، بل قد أَنكَرَه عليكم أشدَّ الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبَعَث ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾؛ أي: في كل قَرن من الناس وطائفة رسولًا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فلَمْ يَزَلْ تعالى يُرسِل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حَدَثَ الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بَعَثه الله إلى أهل الأرض إلى أن خَتَمَهم بمحمد ﷺ الذي طَبَّقَتْ دَعْوَتُهُ الإنس والجنَّ في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فكيف يَسُوْغُ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؟! فمشيئته تعالى الشرعية مُنْتَفِيَة؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدَرًا، فلا حُجَّة لهم فيها؛ لأنه تعالى خَلَق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبَرَ أنه عَيَّرَ عليهم، وأَنْكَرَ عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اسألوا عمَّا كان مِن أَمْر مَن خالف الرسل وكذَّب الحق كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك:١٨]. ثم أخبَرَ الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

فقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: شأنُه وأمرُه أنه ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: من أضلَّه، فمن الذي يهديه من بعد الله؟! أي: لا أحد، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: يُنْقِذُونَهُم من عذابه ووَثَاقِه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

الآية (٣٨-٤٠): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلّظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذَّبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذِّبًا لهم ورادًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَلِجَهْلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ أي: في أَيْمانهم وأَقسَامهم: لا يَبْعَثُ الله من يَمُوت؛ ولهذا يُدَعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دَعًّا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤]. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنَّما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: أن يأمر به دُفْعَةً واحدةً فإذا هو كائن، أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به؛ فإنه تعالى لا يُمَانَعُ ولا يُخَالَفُ، لأنه الواحد القهار العظيم، الذي قَهَر سلطانُه وجبروتُه وعِزَّتُه كلَّ شيء، فلا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

الآية (٤١-٤٢): يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاءَ مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخِلَّان، رجاءَ ثواب الله وجزائه. ويُحتَمَل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهَاجرة الحبشة الذين اشتدَّ أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أَظهُرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكَّنوا من عبادة ربهم. وقد فعل فوَعَدَهم تعالى بالـمُجَازَاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين؛ فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوَّضهم الله خيرًا منها في الدنيا؛ فإن من ترك شيئًا لله عَوَّضَه الله بما هو خير له منه، وكذلك وَقَع؛ فإنهم مكَّن الله لهم في البلاد وحَكَّمَهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكامًا، وكلٌّ منهم للمتقين إمامًا، وأَخبَرَ أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم ممَّا أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ممَّا أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان الـمُتَخَلِّفُون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادَّخر الله لمن أطاعه واتَّبع رسوله.

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: صبروا على أذى من آذاهم من قومهم، متوكِّلين على الله الذي أحسنَ لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

الآية (٤٣-٤٤): [سبب النزول]: قال ابن عباس: لَـمَّا بَعَث الله محمدًا ﷺ رسولًا، أَنكَرَت العرب ذلك، أو من أَنكَر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا. فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس:٢]، وقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل الكتب الماضية: أَبَشَرًا كانت الرسل التي أَتَتْكُمْ أم ملائكةً؟ فإن كانوا ملائكةً أَنكَرْتُم، وإن كانوا بَشَرًا فلا تُنْكِرُوا أن يكون محمد ﷺ رسولًا. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف:١٠٩] ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

والغرض: أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بَشَرًا كما هو بَشَر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣-٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].

ثم أَرشَدَ الله تعالى مَن شَكَّ في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بَشَرًا أو ملائكةً؟ ثم ذَكَر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلالات والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم. وَالزُّبُر: جمع زبور؛ تقول العرب: زَبَرْتُ الكتاب إذا كَتَبْتُهُ، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أي: لِعلمك بمعنى ما أُنزل عليك، وحِرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتُفَصِّل لهم ما أُجمِل، وتبيِّن لهم ما أَشْكَل، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

الآية (٤٥-٤٧): يخبر تعالى عن حِلمه وإنظاره العُصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تَقَلُّبِهم في المعايش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية.

وقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يُعجِزون الله على أي حال كانوا عليه. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم مِن أَخْذِه لهم؛ فإنه يكون أَبْلَغ وَأَشَدّ حالةَ الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقَّع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئتُ أخذتُه على أَنَفِ موت صاحبه وتَخَوُّفِهِ بذلك. وكذا رُوي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعاجِلكم بالعقوبة، كما ثَبَت في الصحيحين: «لا أَحَدَ أصبرُ على أذًى سَمِعَهُ من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم».

الآية (٤٨-٥٠): يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خَضَع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلَّفوها من الإنس والجنِّ والملائكة، فأخبرَ أن كل ما له ظِلٌّ يَتَفَيَّأُ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرةً وعشيًّا، فإنه ساجد بظلِّهِ لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سَجَدَ كلُّ شيء لله ﷻ. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضًا: سجود كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد:١٥]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تسجد لله، أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: يسجدون خائفين وَجِلين من الرب جَلَّجَلَالُهُ، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مُثابِرين على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

الآية (٥١-٥٤): يُقرِّر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه. ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: أي دائمًا. وعن ابن عباس أيضًا: واجبًا. وقال مجاهد: خالصًا. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض؛ كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣]. ثم أَخبَر أنه مالك النفع والضُّرِّ، وأن ما بالعبد من رِزْقٍ، ونعمة وعافية ونَصْر فمن فضله عليه وإحسانه إليه، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يَقدِر على إزالته إلا هو؛ فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه وتُلِحُّون في الرغبة مستغيثين به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٥٥): ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: «اللام» ههنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قَيَّضْنَا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نِعَمَ الله عليهم، وأنه المُسْدِي إليهم النِّعَمَ، الكاشف عنهم النِّقَم. ثم تَوَعَّدَهم قائلًا: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتَّعوا بما أنتم فيه قليلًا، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك.

الآية (٥٦-٦٠): يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبًا ممَّا رَزَقهم الله، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنَّهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليُقابلنَّهم عليه وليُجَازينَّهم أوفَر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطأوا خطأً كبيرًا في كلِّ مقام من هذه المقامات [الثلاثة]، فنَسَبُوا إليه تعالى أن له ولدًا، ولا ولد له! ثم أعطوه أَخَسَّ القِسْمَيْنِ من الأولاد، وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:٢١-٢٢]، وقال ههنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٤].

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التي نَسَبُوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ فإنه إذا ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيبًا من الهمِّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكتٌ من شِدَّة ما هو فيه من الحُزْن ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مُهَانَةً لا يُورِّثُها، ولا يَعتَني بها، ويُفَضِّل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يَئِدُها: وهو: أن يدفنها فيه حَيَّةً، كما كانوا يصنعون في الجاهلية. أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه، يجعلونه لله؟! ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قَسَموا، وبئس ما نَسَبوا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف:١٧]، وقال ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما يُنسَب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المُطْلَقُ من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الآية (٦١-٦٢): يخبر تعالى عن حِلْمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يُؤاخِذُهم بما كَسَبُوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعًا لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جَلَّجَلَالُهُ يحلم ويستر، ويُنْظِرُ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يُعاجِلُهم بالعقوبة؛ إذ لو فَعَل ذلك بهم لَـمَا أبقى أحدًا.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عَبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثمَّ معادٌ ففيه أيضًا لهم الحسنى، وإخبار عن قِيل من قال منهم؛ كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:٩-١٠]، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨]، وقال إخبارًا عن أحد الرجلين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥-٣٦] فجَمَع هؤلاء بين عَمَلِ السُّوءِ وتمنِّي الباطل بأن يُجازَوْا على ذلك حُسْنًا، وهذا مستحيل.

ولهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في تمنِّيهم: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا لا بدَّ منه ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جُبَير وقتادة وغيرهم: مَنْسِيُّون فيها مُضَيَّعُون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١]، وعن قتادة أيضًا: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مُعَجَّلُون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الوِرْد، ولا منافاة؛ لأنهم يُعَجَّلُ بهم يوم القيامة إلى النار، ويُنْسَون فيها، أي: يُخَلَّدُون.

الآية (٦٣-٦٤): يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رُسُلًا، فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوةٌ، فلا يَهيدنَّك[1] تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كَذَّبوا الرسل، فإنما حَمَلَهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وَلِيُّهم، ولا يملك لهم خلاصًا، ولا صريخَ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبيِّنَ للناس الذي يختلفون فيه؛ فالقرآن فاصل بين الناس في كلِّ ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لِمَن تمسَّك به ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) لا يهيدنك: لا يزعجك ولا يكربك [انظر القاموس المحيط مادة: (هيد)].

الآية (٦٥): كما جَعَل تعالى القرآن حياةً للقلوب الـمَيِّتَة بكفرها، كذلك يُحْيِي الأرض بعد موتها بما يُنْزِلُهُ عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

الآية (٦٦-٦٧): يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وأَفْرَدَ ههنا الضمير عَودًا على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نُسْقِيكُم ممَّا في بطن هذا الحيوان. ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يَتَخَلَّصُ بياضه وطعمه وحلاوته من بين فَرث ودم في باطن الحيوان، فيَسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نَضَج الغذاء في معدته تصرَّف منه دمٌ إلى العروق، ولبن إلى الضّرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى الـمَخْرَج، وكل منها لا يَشُوب الآخر ولا يُمازِجُه بعد انفصاله عنه، ولا يَتَغَيَّر به. وقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يَغَصُّ به أحد.

ولـمَّا ذَكَر اللبن وأنه تعالى جَعلَه شرابًا للناس سائغًا، ثَنَّى بذِكر ما يتَّخِذُه الناس من الأشربة من ثمرات: النخيل، والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ الـمُسْكِر قبل تحريمه؛ ولهذا امتنَّ به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾: السَّكَر: ما حُرِّمَ من ثَمَرَتَيْهِما، والرزق الـحَسَن ما أُحِلَّ من ثَمَرَتَيْهِما. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذِكْر العقل ههنا؛ فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حَرَّم الله على هذه الأمةِ الأشربةَ الـمُسْكِرَةَ صيانةً لعقولها.

الآية (٦٨-٦٩): ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ المراد بالوحي ههنا: الإلهام والهداية والإرشاد ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ أن تَتَّخِذَ ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تأوي إليها، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثم هي مُحكَمة في غاية الإتقان في تَسْدِيسِها ورَصِّهَا، بحيث لا يكون بينها خلَل. ثم أَذِنَ لها تعالى إذنًا قدريًّا تسخيريًّا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تَسلُكَ الطُّرُق التي جعلها الله تعالى لها مُذَلَّلَةً، أي: سهلة عليها حيث شاءت. وقال قتادة وابن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مطيعةً. فجعلاه حالًا من السالكة. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق؛ أي: فاسلكيها مذلَّلَةً لك، نصَّ عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كِلا القولين صحيح. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تَعْرِضُ لهم. في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطةِ مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كيَّةٍ بنار، وأنهى أمتي عن الكيّ». وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدوابِّ الضعيفة الخِلْقَة إلى السلوك في هذه المهامه[1] والاجتناء من سائر الثمار، ثم جَمْعِهَا للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومُقدِّرها ومُسخِّرها ومُيَسِّرها، فيَستَدِلُّون بذلك على أنه القادر الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

الآية (٧٠): يخبر تعالى عن تصرُّفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفَّاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهَرَم -وهو الضَّعْف في الخِلْقَة- كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد روي عن علي ﷺ في أرذل العمر قال: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضَعْف القوى والـخَرَف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالمًا أصبح لا يدري شيئًا من الفَنَد والـخَرَف. وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأَرْذَلِ العُمُرِ، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات» [متفق عليه].

الآية (٧١): يُبيِّن تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، فقال تعالى منكرًا عليهم: إنكم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟! قال ابن عباس في هذه الآية: لم يكونوا لِيُشْرِكُوا عَبِيدَهُم في أموالهم ونسائهم، فكيف يُشْرِكُونَ عَبِيدِي معي في سلطاني؟! فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟! وقال قتادة: هذا مَثَل ضَرَبه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟! فإن لم ترضَ لنفسك هذا، فالله أحقُّ أن يُنَزَّه منك.

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: إنهم جعلوا لله ممَّا ذَرَأَ من الحرث والأنعام نصيبًا، فجَحَدوا نعمته، وأشركوا معه غيره.

الآية (٧٢): يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جَعَل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشَكلِهم، ولو جَعَل الأزواج من نوع آخر لَـمَا حَصَل ائتلاف ومودة ورحمة، ولكن من رحمته خَلَق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والـحَفَدَة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد. قال ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولد وولد الولد. وقال مجاهد: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الـحَفَدَة: الأنصار والأعوان والخُدَّام. وقال عكرمة: الـحَفَدَة: مَنْ خَدَمَك من ولدك وولد ولدك. قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى: «الحَفْد» وهو الخِدمة، ولـمَّا كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم، فالنعمة حاصلة بهذا كله؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة الْـمُنْعِم غيرَه: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم: الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يسترون نِعَم الله عليهم ويُضِيفونها إلى غيره.

---

(١) (المهامه) هي في الأصل: المفازةُ والبَرِّيَّة القَفْر. ولكن من معانيها أيضًا: الأرض البعيدة؛ قالَ اللَّيْثُ: أَرضٌ مهامِهُ: بَعيدَةٌ. [ينظر: تاج العروس ولسان العرب، مادة (مهه)].

الآية (٧٣-٧٤): يقول تعالى إخبارًا عن المشركين الذين عَبَدوا معه غيره، مع أنه هو الْـمُنْعِمُ الْـمُتَفَضِّلُ الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

الآية (٧٥): قال ابن عباس: هذا مَثَل ضَرَبَه الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير؛ فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزقَ الحسنَ فهو يُنفِق منه سِرًّا وجَهرًا هو المؤمن. وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوَثَن وللحقِّ تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولـمَّا كان الفرق ما بينهما بَيِّنًا واضحًا ظاهرًا لا يجهله إلا كلُّ غَبِيٍّ، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٧٦): قال مجاهد: وهذا أيضًا المراد به الوَثَن والحقُّ تعالى، يعني: أن الوَثَنَ أَبْكَم لا يَتَكَلَّم ولا يَنْطِق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مَقَالَ ولا فِعَالَ، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عِيَالٌ وكُلْفَةٌ ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبْعَثْه، ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مَسعَاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ مَن هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فَقَالُهُ[1] حقٌّ وفِعَالُهُ مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السُّدي وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا، كما تقدَّم.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: نَزَلَت في رجل من قريش وعَبْدِه. وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأَبْكَمُ الذي ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان يُنفِق عليه ويَكفَلُه ويَكفِيه المئونة، وكان الآخر يَكرهُ الإسلام ويَأباه وينْهَاهُ عن الصدقة والمعروف، فنزَلَت فيهما.

الآية (٧٧-٧٩): يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك؛ فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يُطْلِعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تُخَالَفُ ولا تُمَانَعُ، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: «كن» فيكون، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

ثم ذَكَر تعالى مِنَّتَهُ على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول- التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ. والعقل به يُمَيِّز بين الأشياء ضارِّها ونافعها. وهذه القُوى والحواس تَحْصُلُ للإنسان على التدريج قَلِيلًا قَلِيلًا، كلَّما كَبِر زِيْدَ في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشدَّه.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكَّن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لَأُعْطِيَنَّهُ، ولئن دعاني لَأُجِيبَنَّهُ، ولئن استعاذ بي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ في شيء أنا فاعله تَرَدُّدِي في قَبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مَسَاءَتَهُ، ولابدَّ له منه».

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أَخلَصَ الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا الله، ولا يُبْصر إلا الله، أي: ما شَرَعَه الله له، ولا يَبطِش ولا يَمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعينًا بالله في ذلك كله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك:٢٣-٢٤].

ثم نبَّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير الْـمُسَخَّرِ بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جوِّ السماء ما يُمسِكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جَعَل فيها قوًى تفعل ذلك، وسَخَّر الهواء يحملها ويَسَّر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩]، وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) القول والقال بمعنى واحد أو متقارب. [ينظر القاموس المحيط (قول)].

الآية (٨٠-٨٣): يذكر تبارك وتعالى تمام نِعَمِهِ على عبيده، بما جَعَل لهم من البيوت التي هي سَكَن لهم، يأْوُون إليها، ويسترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجَعَل لهم أيضًا ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أي: من الأدم، يَسْتَخِفُّونَ حَمْلَها في أسفارهم، ليَضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر؛ ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الغَنَم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي: المَعْز، والضمير عائد على الأنعام.

﴿أَثَٰثًا﴾ أي: تَتخِذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب، والصحيح أعَمُّ من هذا كله؛ فإنه يُتَّخَذُ من الأثاث البُسُطُ والثياب وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالًا وتجارةً، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مُسمًّى ووقْت معلوم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قال قتادة: يعني: الشَّجَر، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي: حصونًا ومعاقل، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتّان والصوف، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفَّح والزَّرَد وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يَجعَل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عَونًا لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: من الإسلام.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقد أَدَّيْتَه إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المُسْدِي إليهم ذلك، وهو المُتَفَضِّل به عليهم، ومع هذا يُنكِرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويُسْندون النصر والرزق إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الآية (٨٤-٨٧): يُخبِر تعالى عن شأن المشركين يوم مَعادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدًا، وهو نبيُّها، يَشهَد عليها بما أجابته فيما بَلَّغها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكَذِبه، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُفَتَّر عنهم ساعةً واحدةً، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُؤَخَّر عنهم، بل يأخذهم سريعًا من الموقف بلا حساب.

ثم أخبر تعالى عن تَبرُّؤ آلِهَتِهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كَذَبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:٥٢]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذَلُّوا واسْتَسْلَمُوا يومئذٍ، أي: اسْتَسْلَمُوا لله جميعُهم، فلا أحد إلا سامع مطيع؛ كما قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أي: ما أسمَعهم وما أبصرَهم يومئذٍ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١] أي: خَضَعت وذلَّت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذَهَب واضْمَحَلّ ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله فلا ناصر لهم، ولا مُعين ولا مُجير.

الآية (٨٨): ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي: عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صَدِّهم الناس عن اتباع الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة.

الآية (٨٩): يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أمته، أي: اذكُر ذلك اليوم وهولَه وما مَنَحَك الله فيه من الشَّرف العظيم والـمَقَام الرفيع. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بُيِّنَ لنا في هذا القرآن كلُّ عِلْم، وكلُّ شيء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود: أعَمُّ وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعِلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم، ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أن المراد - والله أعلم- أن الذي فَرَض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة.

الآية (٩٠): يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويَندُب إلى الإحسان؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العَدْل والنَّدْب إلى الفَضل. وقال ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن عُيَينَة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملًا. والإحسان: أن تكون سَرِيرَتُه أحسنَ من علانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سَرِيرَته.

وقوله: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفواحش: المحرمات، والمنكرات: ما ظَهَر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]. وأما البَغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذَنْب أجدرُ أن يعجِّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يُدَّخَر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: إنَّ أجمعَ آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية. عن قتادة: ليس من خُلُق حَسَن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خُلُق سيِّئ كانوا يَتَعَايَرونه بينهم إلا نَهى الله عنه وقَدَّم فيه. وإنما نَهَى عن سَفَاسِفِ الأخلاق ومَذَامِّها.

الآية (٩١-٩٢): وهذا ممَّا يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان الـمُؤَكَّدَة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، لا تعارض بين هذا ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حَثّ أو مَنْع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحِلْف، أي: حِلْفَ الجاهلية؛ ويؤيِّده ما روي عن جُبَيْر بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْف في الإسلام، وأيُّما حِلْف كان في الجاهلية لم يَزِدْه الإسلام إلا شدة» [رواه مسلم]. ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحِلْف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه؛ فإن في التمسُّك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا. فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نَسَخ الله ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نَقَض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا مَثَلٌ لمن نَقَض عهده بعد توكيده. ﴿أَنكَاثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر: نَقَضت غَزلها أنكاثًا، أي: أنقاضًا. ويُحتمل أن يكون بدلًا عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثًا، جمع نكث من نَاكِثٍ؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعةً ومكرًا. ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غَدَرتُم. فنَهَى الله عن ذلك، لِيُنَبِّهَ بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأَنْ ينهى عنه مع التمكُّن والقدرة بطريق الأولى. قال ابن عباس: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعزَّ، فينقضون حِلْف هؤلاء ويُحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعزُّ، فنُهُوا عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قال ابن جُبَير: يعني بالكثرة، وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء والعهد. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيُجَازي كل عامل بعمله، من خير وشرّ.

الآية (٩٣): يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩] أي: لوَفَّق بينكم، ولَـمَا جَعَل اختلافًا ولا تباغُضَ ولا شحناء. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيُجازيكم عليها على الْفَتِيلِ وَالنَّقِيرِ والقِطْمير.

الآية (٩٤-٩٦): حَذَّر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دَخَلًا، أي: خديعةً ومكرًا، لئلَّا تَزِل قَدَم بعد ثبوتها: مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غَدَر به، لم يَبْقَ له وُثُوقٌ بالدِّين، فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها؛ فإنها قليلة، ولو حِيزَتْ لابن آدم الدنيا بحَذَافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاءُ الله وثوابه خيرٌ لمن رَجَاه وآمن به وطَلَبه، وحَفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: يفرغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مُقدَّر مُتَناهٍ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قسَمٌ من الرب ﷻ أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

الآية (٩٧): هذا وعد من الله تعالى لـ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو العمل المُتَابِع لكتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم، وقلبُه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يُحْيِيَهُ الله ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عَمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهةٍ كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فَسَّروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب، أنه فسَّرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس وعِكْرِمة ووهب بن منبه. وقال الحسن وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كلَّه؛ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمرُو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورُزِق كفافًا، وقَنَّعه الله بما آتاه» ورواه مسلم.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يَظلِم المؤمن حسنةً؛ يُعْطَى بها في الدنيا، وَيُثَابُ عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُعطِيه حسناته في الدنيا حتى إذا أَفضَى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعطَى بها خيرًا» انفرد بإخراجه مسلم.

الآية (٩٨-١٠٠): هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيِّه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ نَدْبٍ ليس بواجب، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يُلَبِّسَ على القارئ قراءتَه ويُخَلِّطَ عليه، ويَمنَعه من التَّدَبُّر والتَّفكُّر، ولهذا ذَهَب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يُوقِعَهُم في ذنب لا يَتُوبُون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ قال مجاهد: يُطِيعُونَه، وقال آخرون: اتَّخَذوه وليًّا من دون الله.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوه في عبادة الله تعالى، ويُحتَمل أن تكون الباء سببيةً، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

الآية (١٠١-١٠٢): يُخبر تعالى عن ضَعف عقول المشركين وقِلَّة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصوَّر منهم الإيمان وقد كَتَبَ عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كذَّاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فَيُصَدِّقُوا بما نَزَل أولًا وثانيًا، وتُخْبِتَ له قلوبهم.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هاديًا وبِشَارةً للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

الآية (١٠٣): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والْبَهْت: إن محمدًا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ هذا الذي يتلوه علينا من القرآن ﴿بَشَرٌ﴾، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعًا يبيع عند الصفا، فربَّما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويُكلِّمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخِطَاب فيما لابدَّ منه؛ فلهذا قال الله تعالى رادًّا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن، أي: فكيف يَتَعَلَّم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، كيف يَتَعَلَّم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل.

الآية (١٠٤-١٠٥): يُخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتَغَافل عمَّا أنزَله على رسوله، ولم يكن له قَصْد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسلَ به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم مُوجِع في الآخرة. ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بِمُفْتَرٍ ولا كَذَّاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شِرارُ الخلق، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أَصدَق الناس وأَبَرَّهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشكُّ في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعَى بينهم إلا بالأمين محمد.

الآية (١٠٦-١٠٩): أخبر تعالى عمَّن كَفَر به بعد الإيمان والتبصُّر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضِب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرِّدَّة لأجل الدنيا، ولم يَهْدِ الله قلوبهم ويثبِّتهم على الدين الحق، فطَبَع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وخَتَم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنَتْ عنهم شيئًا، فهم غافلون عمَّا يُراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بدَّ ولا عجبَ أنّ مَن هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لِمَا ناله من ضرب وأذًى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. [سبب النزول]: عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار ابن ياسر، حين عذَّبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوَافَقهم على ذلك مُكرَهًا، وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ، فأَنزَل الله هذه الآية؛ ولهذا اتّفق العلماء على أنه يجوز أن يُوَالِي المُكرَه على الكفر، إبقاءً لِمُهْجَتِه، ويجوز له أن يَسْتَقْتِل، كما كان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدَّة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أَغْيَظُ لكم منها لقلتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه. والأفضل والأولى أن يَثْبُتَ المسلم على دينه، ولو أَفضَى إلى قتله، كما [روى] الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله ابن حُذَافة السهمي أحد الصحابة: أنه أَسَرَتْهُ الروم، فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال له: تَنَصَّرْ وأنا أُشْرِكُكَ في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تَملِك وجميع ما تملكه العرب، على أن أَرجِع عن دين محمد طَرفَة عين، ما فعلتُ! فقال: إذًا أَقتلُك. قال: أنت وذاك! فأَمَرَ به فصُلِب، وأَمَر الرماة فرَمَوه قريبًا من يديه ورجليه، وهو يَعرِض عليه دين النصرانية فيَأبى، ثم أَمَرَ به فأُنزِل، ثم أَمَر بِقِدْر -وفي رواية: ببقرة من نحاس- فَأُحْمِيَتْ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عِظام تَلُوحُ. وعَرَضَ عليه فأبى، فأُمِر به أن يُلقَى فيها، فرُفِع في البَكَرَة ليُلقَى فيها، فبَكى فطَمِع فيه ودعاه، فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تُلْقَى في هذه القِدْر الساعةَ في الله، فأحببتُ أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفسٌ تُعذَّب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أيامًا، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يَقرَبْه، ثم استدعاه فقال: ما مَنَعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لِأُشَمِّتَكَ فِيّ. فقال له الملك: فَقَبِّلْ رأسي وأنا أُطْلِقُكَ. فقال: وتُطلِق معي جميع أَسَارَى المسلمين؟ قال: نعم. فقَبَّل رأسه، فأَطْلَقه وأَطْلَق معه جميع أَسَارَى المسلمين عنده، فلمَّا رَجَع قال عمر بن الخطاب: حَقٌّ على كل مسلم أن يُقَبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أَبْدَأُ. فقام فقَبَّل رأسه.

الآية (١١٠): ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مُهانين في قومهم قد واتَوْهُم[1] على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتَرَكُوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانْتَظَمُوا في سِلْك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصَبَروا، فأخبرَ الله تعالى أنه ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الْفِعْلَةِ، وهي الإجابة إلى الفتنة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم يوم معادهم.

(١) تقول: آتيتُه على ذلك الامر مواتاة، إذا وافقتَه وطاوعتَه. والعامَّةُ تقول: واتَيْتُهُ. فقوله: (واتوهم على الفتنة) معناه: وافقوهم وطاوعوهم بسبب الفتنة؛ [ينظر تاج اللغة وصحاح العربية، ولسان العرب، مادة (اتى)].

الآيـــة (١١١): ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي: تُحَـــاجُّ ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ ليس أحد يُحَاجُّ عنها، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشرٍّ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يَنقُص من ثواب الـخير، ولا يزاد على ثواب الشَّرِّ، ولا يُظلمون نقيرًا.

الآية (١١٢-١١٣): هذا مَثَلٌ أُرِيدَ به أهل مكة؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطَّف الناس مِن حولها، ومن دَخَلَها آمِنٌ لا يَخاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] وهكذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هَنِيئًا سَهْلًا، ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جَحَدَت آلاء الله عليها، وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

ولهذا بدَّلـهم الله بِحَالَيْهِم الأَوَّلَيْن خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ أي: أَلْبَسَها وأَذَاقَها الجوع بعد أن كان يُجْبَى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رَغَدًا من كل مكان.

وقوله: ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ وذلك بأنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، مِن سطوة سراياه وجُيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَال ودَمَار، حتى فَتَحَها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبَغْيِهم وتكذِيبهم الرسولَ الذي بَعَثَه الله فيهم منهم، وامتنَّ به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [الطلاق:١٠-١١]، وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرَّغَد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا، ورَزَقَهم بعد العَيْلَة، وجَعَلَهم أُمراءَ الناس وحُكَّامَهم، وسادتَهم وقادتَهم وأئمتَهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفي عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله.

الآية (١١٤-١١٧): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك؛ فإنه الـمُنْعِم الـمُتَفَضِّل به ابتداءً، الذي يستحقُّ العبادة وحده لا شريك له. ثم ذَكَر ما حَرَّمَه عليهم ممَّا فيه مضرَّة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم ولحم الخنزير، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ذُبِح على غير اسم الله.

ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: احتاج في غير بغي ولا عدوان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد تقدَّم الكلام على مثل هذه الآية في سورة «البقرة»(١).

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حلَّلُوا وحَرَّموا بمجرَّد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البَحِيرَة والسَّائِبَة والوَصِيلَة والـحَام، وغير ذلك ممَّا كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعةً ليس فيها مستند شرعي، أو حَلَّل شيئًا ممَّا حَرَّم الله، أو حَرَّم شيئًا ممَّا أباح الله، بمجرَّد رأيه وتَشَهِّيه.

ثم تَوَعَّدَ على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم؛ كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

الآية (١١٨): لَـمَّا ذَكَر تعالى أنه إنما حَرَّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، وأنه أَرْخَصَ فيه عند الضرورة، وفي ذلك توسعة لهذه الأمة؛ ذَكَر سبحانه وتعالى ما كان حَرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والـحَرَج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: فيما ضيَّقنا عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقُّوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء:١٦٠].

---

(١) الآية (١٧٣) ص ٢٦؛ وما قاله ابن كثير هناك هو: أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فَقْدِ غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بَغْي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.
قال قتادة: غير بَاغٍ في الميتة، أي: في أَكْلِه: أن يَتَعَدَّى حلالًا إلى حرام، وهو يَجِدُ عنه مَنْدُوحَةً.

الآية (١١٩): أخبر تعالى تَكَرُّمًا وامتنانًا في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عَصَى الله فهو جاهل.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: أقلعوا عمَّا كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفِعْلَة والزَّلَّة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الآية (١٢٠-١٢٣): يَمدَح تعالى عبدَه ورسولَه وخليلَه إبراهيمَ، إمامَ الحُنَفَاء ووالد الأنبياء، وَيُبَرِّئُهُ من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فأما «الْأُمَّة»، فهو الإمام الذي يُقْتَدَى به. والقانت: هو الخاشع الْمُطِيعُ. والحنيف: الْمُنْحَرِف قَصْدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائمًا بشُكر نِعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧]، أي: قام بجميع ما أَمَرَه الله تعالى به. ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جَمَعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنَّا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما قال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

الآية (١٢٤): قال تعالى منكرا على اليهود: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. لا شَكَّ أن الله شَرَع في كل ملة يومًا من الأسبوع، يَجتمع الناس فيه للعبادة، فشَرَع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، وتَمَّتْ النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شَرَع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعَدَلُوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يَخلق فيه الرَّبُّ شيئًا من المخلوقات الذي كَمَّلَ خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصَّاهم أن يتمسَّكوا به وأن يُحافِظوا عليه، مع أَمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بَعَثَه. وأخذه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتَّبعوه وتركوا الجمعة. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فَرَضَ الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد».

الآية (١٢٥): يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ قال ابن جرير: وهو ما أَنْزَلَه عليه من الكتاب والسنة، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس؛ ذَكِّرْهُم بها، ليَحذَروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحَسَن برفق ولين، وحُسن خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، فأمره تعالى بلِينِ الجانب، كما أَمَر موسى وهارون - عليهما السلام- حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤]. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: قد عَلِمَ الشقيَّ منهم والسعيد، وكَتَب ذلك عنده وفَرَغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضَلَّ منهم حسرات؛ فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

الآية (١٢٦-١٢٨): يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾: إنْ أَخَذَ منكم رجل شيئًا، فخذوا منه مثلَه. وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم. واختاره ابن جرير.

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن؛ فإنها مشتملة على مشروعية العدل والنَّدْب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما يُنَال بمشيئة الله وإعانته، وحَوْله وقُوَّته.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من خالفك، لا تَحزَن عليهم؛ فإن الله قدَّر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: غَمٍّ ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: ممَّا يجهدون في عداوتك وإيصال الشرِّ إليك؛ فإن الله كافيك وناصرك ومُؤيِّدك ومُظهرك ومُظفِرك بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه مَعيَّة خاصَّة؛ كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال:١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦]، وقول النبي ﷺ للصِّدِّيق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وأما المعيَّة العامَّة فبالسمع والبصر والعِلْم؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]. ومعنى: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: تركوا المحرَّمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات؛ فهؤلاء الله يحفظهم ويكلُؤهم، ويَنصُرُهم ويُؤيِّدُهم، ويُظفِرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة سبحان

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١١) آيةً].

[فضل السورة]: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العِتاق الأُوَل وهنَّ من تِلادي[1] [رواه البخاري]. وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل»، و«الزمر» [رواه أحمد والنسائي والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١): يمجّد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿لَيۡلٗا﴾ أي في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي هو بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جُمِعُوا له هنالك كُلّهم، فَأمّهم في مَحِلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدَّم. قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي: محمدًا ﴿مِنۡ ءَايَـٰتِنَآ﴾ أي: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النجم:١٨]. قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، مؤمنِهم وكافرِهم، مُصدِّقهم ومكذبهم، البصير بهم، فيعطي كُلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على موسى، عليه السلام، قائما يصلي في قبره» [رواه مسلم]. والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفًا بعباده. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا؛ والدليل على هذا قوله: ﴿سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظمًا، ولَـمَّا بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولَـمَّا ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾، وقد قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضًا فإنه حُمِلَ على البُراق، وهو دابة بيضاء بَرَّاقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه. وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. وقد تعقَّبه ابن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن.

الآية (٢-٣): لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضًا، فإنه تعالى كثيرًا ما يَقْرِنُ بين ذِكر موسى ومحمد -عليهما السلام- وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلۡنَـٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدٗى﴾ أي: هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلٗا﴾ أي: وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له. قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة؛ أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبَّهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمدًا ﷺ. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبدًا شكورًا، فاشفع لنا إلى ربك» [متفق عليه].

الآية (٤-٦): يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدَّم إليهم وأخبرَهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوًّا كبيرًا، أي: يتجبرون ويطغون ويَفْجُرون على الناس. قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين، ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِى بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أي: سلَّطنا عليكم جندًا مِن خلقِنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعِدَّة وسُلطة شديدة، ﴿فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: تملَّكوا بلادكم وسلكوا خِلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وَجَائِين لا يخافون أحدًا، ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾. وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المسلطين عليهم مَن هم؟ فعن ابن عباس: أنه جالوت الجَزَري وجنوده، سُلِّط عليهم أولًا، ثم أُدِيلوا عليه بعد ذلك. وقَتَلَ داودُ جالوتَ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير: أنه بُخْتُنَصَّرُ مَلِكُ بابلَ. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما بغوا وطغوا سلَّط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء. عن سعيد بن المسيب: ظهر بُخْتُنَصَّرُ على الشام، فخرَّب بيت المقدس وقتلَهم، ثم أتى دمشقَ فقتل سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم. وهذا صحيح إلى سعيد، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجَرَتْ أمورٌ وكوائنُ يطول ذكرها.

الآية (٧): قوله: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أي: فعليها كما قال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَـٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت:٤٦]. قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الكرّة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يُدَمِّروا ويُخَرِّبوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتۡبِيرٗا﴾.

---

(١) أي من أَوَّلِ ما أخَذْته وتعلَّمتُه بمكة. اهـ [النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة (تلَدَ)].

الآية (٨): ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما نَدَّخِرُه لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقرًا ومَحْصَرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه. قال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلَّط الله عليهم هذا الحي، محمدًا ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

الآية (٩-١٠): يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأَقْوم الطُّرق، وأوضح السُبُل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة. قوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويُبَشِّر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

الآية (١١): يخبر تعالى عن عَجَلَة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ [يونس:١١]، كذا فسره ابن عباس وغيره، وإنما يَحْمِلُ ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

الآية (١٢): يَمْتَنُّ تعالى على خَلْقِه بآياته العظام؛ فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عددَ الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مُضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نَسَقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عُرِفَ شيء من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي: علامة يُعْرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النَّيِّرة فيه، وفاوتَ بين نور القمر وضياء الشمس؛ ليعرف هذا من هذا؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [يونس: ٥]. قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر. وقد روى ابن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكَوَّاء سأل علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه.

الآية (١٣-١٤): يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس: من خير وشر، يُلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٥-٦]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساء. قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يُعْطَاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيدًا، أو بشماله إن كان شقيًا، ﴿مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره. قوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئًا مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأُمِّي. وإنما ذَكَرَ العُنُقَ؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه.

الآية (١٥): يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يُحَصِّلُ عاقبةَ ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعودُ وَبَالُ ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر:١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئا. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه؛ كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨، ٩].

الآية (١٦): اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أمرًا قدريًا؛ كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء. قالوا: إنه سخَّرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. قاله ابن عباس. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء. قلت: إنما يجيء على قراءة من قرأ «أَمَّرنا مُتْرِفيها». قال ابن عباس: سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٣]. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾: أكثرنا عددهم. وعن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

الآية (١٧): يقول تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ بأنه قد أهلك أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستُم أكرمَ على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرِّها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

الآية (١٨-١٩): يخبر تعالى أنه ما كلُّ مَنْ طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات؛ فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبعَدًا مقصِيًّا حقيرًا ذليلًا مهانًا. قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

الآية (٢٠): يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلًا ما يستحقه من الشقاوة والسعادة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لا يمنعه أحد ولا يردّه رادّ. قال قتادة: ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: منقوصًا. وقال الحسن: ممنوعًا.

الآية (٢١): قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيرًا، ومن يعمر حتى يبقى شيخًا كبيرًا، وبين ذلك. قوله: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتَفَاوتُهم في الدار الآخرة أكبرُ من الدنيا؛ فإن منهم مَن يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون؛ فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرونَ أهل عَلِّيِّين، كما ترون الكوكب الغابرَ في أُفُق السماء»؛ ولهذا قال: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

الآية (٢٢): يقول تعالى -والمراد المكلفون من الأمة-: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك به ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يَكِلُكَ إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغِنَى، إما آجلًا وإما عاجلًا» [رواه أحمد وأبو داود، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٢٣-٢٤): يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحسانًا؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]. قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تُسْمِعْهُما قولًا سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يصدُرْ منك إليهما فعلٌ قبيحٌ. قال عطاء: لا تنفضْ يدك عليهما. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لينًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم. قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضعْ لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: في كِبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. قال ابن عباس: ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمُ أنفُ، ثم رَغِمُ أنفُ رجلٍ أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة» [رواه مسلم].

الآية (٢٥): قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به -وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك- فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾. قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسبحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وقال سعيد بن المسيب: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. وقال عطاء بن يسار: هم الراجعون إلى الخير. قال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع.

الآية (٢٦-٢٧): لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «من أحب أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه» [متفق عليه]. قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطًا؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]. ثم قال منفرًا عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مُدًّا في غير حقه كان مبذرًا. قال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق، والفساد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: جَحُودًا؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته.

الآية (٢٨): قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: عِدْهُم وَعْدًا بسهولة ولِين: إذا جاء رزق الله فسنصلِكم إن شاء الله.

الآية (٢٩-٣٠): يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش، ذامًّا للبخل، ناهيًا عن السَّرَف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] أي: نسبوه إلى البخل. وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التي قد عجزت عن المسير، فوقفت ضعفًا وعجزًا؛ فإنها تسمى الحسير. هكذا فسَّر هذه الآية -بأن المراد هنا البخل والسرف- ابن عباس والحسن وقتادة. في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِي فَيُوعي الله عليك، ولا تُوكي فَيُوكي الله عليك». قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما لَه في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: خبير بصير بِمَن يستحق الغنى ومَن يستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا، والفقر عقوبة، عياذًا بالله من هذا وهذا.

الآية (٣١): هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عَيْلَتُه، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوفَ أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا. في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك».

الآية (٣٢): يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: ذنبًا عظيمًا ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقًا ومسلكًا.

الآية (٣٣): يقول تعالى ناهيًا عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: سلطة على القاتل؛ فإنه بالخيار فيه: إن شاء قتله قَوَدًا، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجانًا، كما ثبتت السنة بذلك. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: أن الوليَّ منصورٌ على القاتل شرعًا، وغالبٌ قدَرًا.

الآية (٣٤-٣٥): قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦]، وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ولا تَولَّين مال يتيم». وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها؛ فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: عنه. قوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم. قوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها -كالقرطاس- وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية، ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: مآلًا ومنقلبًا في آخرتكم.

الآية (٣٦): قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ قال ابن عباس: يقول: لا تقل، وقال قتادة: لا تقل: رأيتَ ولم تر، وسمعتَ ولم تسمع، وعلمتَ ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال؛ كما قال تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]. وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

الآية (٣٧-٣٨): يقول تعالى ناهيًا عباده عن التَّجَبّر والتبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلًا مشي الجَبَّارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده؛ كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» [متفق عليه]. وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض. قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ معناه: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى ههنا فَسيِّئُه؛ أي: فقبيحه مكروه عند الله.

الآية (٣٩): يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي: مُبعدًا من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه ﷺ معصوم.

الآية (٤٠-٤١): يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين الزاعمين أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيمًا، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي: خصَّصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ أي: اختار لنفسه على زعمِكم البنات!! ثم شدَّد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم أن لله ولدًا، ثم جَعْلِكُم وَلَدَه الإناثَ التي تأنفون أن يَكُنّ لكم، وربما قتلتموهُن بالوأد، فتلك إذًا قسْمة ضِيزَى! قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٢]. قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: عن الحق، وبُعدًا منه.

الآية (٤٢-٤٣): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأنَّ معه آلهة تُعْبد لِتُقرِّبَ إليه وتشفعَ لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يَعْبُده من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه؛ فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. ثم نزَّه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أنَّ معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعاليًا كبيرًا، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد.

الآية (٤٤): يقول تعالى: تُقدّسه السموات السبع والأرض ومَن فيهن، أي: من المخلوقات، وتُنزّهه وتُعظّمه وتبجّله وتُكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل.

قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله ويُنظِرُه، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

الآية (٤٥-٤٦): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا. قال قتادة: هو الأكنّة على قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: بمعنى ساتر، وقيل: مستورًا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى. ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ هي جمع «كنان» الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقْل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به. قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا وحَّدت الله في تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَّوْا﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ نفور: جمع نافر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

الآية (٤٧-٤٨): يخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سرًّا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السِّحر على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة، أي: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ -إن اتبعتم محمدًا- إلا بشرًا يأكل ويشرب. وقد صوَّب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رِئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه. ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مَخْلَصًا.

الآية (٤٩): يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المُستبعِدين وقوع المعاد، القائلين -استفهام إنكار منهم لذلك-: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: ترابًا؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: غبارًا. قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بَلِينا وصرنا عدمًا لا نُذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٠-١٢].

الآية (٥٠-٥١): أمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ إذْ هُما أشد امتناعًا من العظام والرفات. ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وعن ابن عمر أنه قال: لو كنتم موتى لأحييتكم. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صِرْتُم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء؛ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده. وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم. قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا؟! ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية [الروم:٢٧]. قوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك:٢٥]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكلُّ ما هو آتٍ آت.

الآية (٥٢): قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى؛ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمانع، بل كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بأمره. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وله الحمد في كل حال. قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

الآية (٥٣): يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوتُه ظاهرة بيّنة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة؛ فإن الشيطان يَنْزَغُ في يده، أي: فربما أصابه بها. قال رسول الله ﷺ: «لا يُشيرنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار» [متفق عليه].

الآية (٥٤-٥٥): يقول تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه. ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهّي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضل. ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى -عليهم السلام- على المشهور. قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

الآية (٥٦-٥٧): يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون، يعني: الملائكة والمسيح وعزيرًا. عن عبد الله في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يُعبدون فأسلموا. وفي رواية: كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم [متفق عليه].

[سبب النزول]: قال ابن مسعود في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: عيسى والعُزير والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلة هي القُربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء؛ فبالخوف يَنْكَفُّ عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يُحذر منه، ويُخاف من وقوعه وحصوله، عياذًا بالله منه.

الآية (٥٨): هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتَمَ وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يُبيدَ أهلها جميعَهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم؛ كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

الآية (٥٩): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يُنَحّي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [رواه أحمد والنسائي في الكبرى، وصحح إسناده أحمد شاكر].

قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك؛ فإنه سهلٌ علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذَّب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سُنّتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخَّرون إن كذّبوا بها بعد نزولها. كما قال تعالى عن ثمود حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصِدقِ الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها.

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم. قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يُخَوِّفُ الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ﷻ يرسلهما يخوف بهما عباده» [متفق عليه].

الآية (٦٠): يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضًا له على إبلاغ رسالته، ومخبرًا له بأنه قد عصمه من الناس؛ فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغَلَبَتِه. قال مجاهد والحسن وقتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم. قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين أُرِيَها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ شجرة الزقوم [رواه البخاري]. وقد تقدم أن ناسًا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختبارًا وامتحانًا. قوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

الآية (٦١-٦٢): يذكر تعالى عَدَاوَةَ إبليس لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خَلْق آدم؛ فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخارًا عليه واحتقارًا له: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]. و﴿قَالَ﴾ أيضًا: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ يقول للرب جراءةً وكفرًا، والرب يَحْلم ويُنظِر: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: يقول: لأستولينّ على ذريته إلا قليلًا. وقال مجاهد: لأحتوينّ. وقال ابن زيد: لأُضلّنّهم. وكلها متقاربة، والمعنى: أنه يقول: أرأيتك هذا الذي شرّفتَهُ وعظّمته عليّ، لئن أنظرتني لأُضلّن ذرّيته إلا قليلًا منهم.

الآية (٦٣-٦٥): لما سأل إبليس النَّظِرَة ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فقد أنظرتُك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:٣٧، ٣٨]. ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ قال مجاهد: وافرًا. وقال قتادة: موفورًا عليكم، لا ينقص لكم منه. قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفّهم بذلك. وقال ابن عباس: كل داع دعا إلى معصية الله ﷻ. واختاره ابن جرير. قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتِهم ورَجْلتِهم. ومعناه: تَسَلَّط عليهم بكل ما تقدر عليه. وقال ابن عباس ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: كل راكب وماش في معصية الله. قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام. وقال ابن عباس: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرَّموه من أنعامهم، يعني: من البحائر والسوائب ونحوها. قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعمّ ذلك كله.

قوله: ﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ قال مجاهد والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهًا بغير علم. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عُصي الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه مَن وُلد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عُصي الله فيه أو به، وأطيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّجه وكل من السلف فسر بعض المشاركة.

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية [إبراهيم:٢٢]. قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا ومؤيدًا وناصرًا.

الآية (٦٦): يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفُلْك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

الآية (٦٧): يخبر تعالى أن الناس إذا مسَّهم ضُرٌّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى. قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: سَجِيَّتُه هذا، ينسى النعم ويجحدُها، إلا من عَصَمَ الله.

الآية (٦٨): يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البَرِّ [أنكم] أمنتم من انتقامه وعذابه ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:٨٢]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه.

الآية (٦٩): يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البَرِّ ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب. قال ابن عباس: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. قوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيرًا، وقال مجاهد: نصيرًا ثائرًا، أي: يأخذ بثأركم بعدكم.

الآية (٧٠): يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أيضًا على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استُدل بهذه الآية على أفضلية جِنس البشر على جنس الملائكة.

الآية (٧١-٧٢): يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك؛ فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [يونس:٤٧]. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أُنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير. وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. ويحتمل أن المراد بإمامهم: أي كل قوم بمن يأتمون به؛ فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]. وفي الصحيحين: «لِتتبَعْ كلُّ أمة ما كانت تعبد، فَيَتَّبِعُ من كان يعبد الطواغيت». وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨، ٢٩]. وهذا لا ينافي أن يُجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته؛ فإنه لا بد أن يكون شاهدًا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته؛ كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩-٢٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة. وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأضل منه [عما] كان في الدنيا، عياذًا بالله من ذلك.

الآية (٧٣-٧٥): يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يَكِلُهُ إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه، في مشارق الأرض ومغاربها.

الآية (٧٦-٧٧): نزلت في كفار قريش همُّوا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية؛ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم: بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب. ولولا أنه رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية [الأنفال:٣٣].

الآية (٧٨-٧٩): يقول تبارك تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ عن ابن عباس: «دلوكها» زوالها. واختاره ابن جرير. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة، فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء. قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يعني: صلاة الفجر. قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [متفق عليه]. قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة. ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل؛ فإن التهجد ما كان بعد نوم. واختلف في معنى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فقيل: معناه: أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرهُ من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد. قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لِنُقيمك يوم القيامة مقامًا محمودًا يَحْمَدُك فيه الخلائق كلُّهم وخالقهم، تبارك وتعالى. عن عبد الله ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجنة كلهم» [رواه البخاري].

الآية (٨٠-٨١): قال قتادة: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني: مكة. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وهو اختيار ابن جرير. قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال الحسن: وعده ربه لَيَنْزِعَنَّ مُلْك فارس، وعِزَّ فارس، وليجعلنه له، ومُلْك الروم، وعِزَّ الروم. وقال قتادة: إن نبي الله ﷺ علم ألّا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكلَ شديدُهم ضعيفَهم. قال مجاهد: ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾: حجة وبينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه. قوله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الآية، تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزَهَقَ باطلهم، أي: اضمحل وهلك؛ فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء.

الآية (٨٢): يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ -وهو القرآن- أنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: يُذهب ما في القلوب من أمراض؛ من شكٍّ ونفاق، وشرك وزيغ وميل؛ فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدّقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعْدًا وتكذيبًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن. قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه؛ فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

الآية (٨٣-٨٤): يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عَصَمَ الله تعالى في حالتي السراء والضراء؛ فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قال مجاهد: بَعُد عنا. قلت: وهذا كقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢]. وبأنه إذا ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: قَنَطَ أن يعود يحصل له بعد ذلك خير؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:١٠]. قوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حِدَّتِه وطبيعته. وهذه الآية تهديد للمشركين ووعيد لهم؛ ولهذا قال: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كُلَّ عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية.

الآية (٨٥-٨٧): [سبب النزول]: عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرْثِ المدينة، وهو متوكئ على عَسِيب، فمر بقوم من اليهود، وقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئًا على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم: لا تسألوه [متفق عليه]. قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. [ثم] يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

الآية (٨٨): نبّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا؛ فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

الآية (٨٩): قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية؛ أي: بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضّحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحودًا وردًّا للصواب.

الآية (٩٠-٩٣): عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، اجتمعوا...فقالوا: يا محمد، لقد شتمت الآباء، وعِبتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك -وكانوا يُسمّون التابع من الجن الرئي- فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نُبَرِّئَكَ منه، أو نُعذِر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ولكن بعثني الله إليكم رسولًا، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»... قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك»... فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية...فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجّل لهم ما تخوّفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلّمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول. وايم الله، لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. [رواه ابن جرير].

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يُجري لهم عيونًا معينًا في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشَقُّ فيه السماء وتَهي[1]، وتدلَّى أطرافُها، فعجِّل ذلك في الدنيا، وأسقِطها كِسَفًا؛ أي: قِطعًا؛ كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال:٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه؛ فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]. وأما نبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا. وكذلك وقع؛ فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله بن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلامًا تامًّا، وأناب إلى الله ﷻ. قوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس: هو الذهب. ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعد في سُلَّم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلى الله ﷻ.

الآية (٩٤-٩٥): يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من البشر رسلًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس:٢]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]، ثم قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمَكُّنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بَعَثَ إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولمَّا كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة.

الآية (٩٦): يقول تعالى مرشدًا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذبًا عليه انتقم مني أشد الانتقام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦]. قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة.

---

(١) أي: تتخرق وتنشق [ينظر القاموس المحيط، مادة (وهى)].

الآية (٩٧): يقول تعالى مخبرًا عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا مُعقِّبَ له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يهدونهم؛ كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، كيف يُحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيَهم على وجوههم» [متفق عليه].

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ أي: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال؛ جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق، فَجُوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه. قوله: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طَفِئَتْ. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهبًا ووهجًا وجمرًا، كما قال: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠].

الآية (٩٨-٩٩): يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بأدلّتنا وحُجَجِنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: بالية نخرة ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نُعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم، ونبّههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك؛ كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأحقاف:٣٣]. وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨١-٨٣]، وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]. قوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم.

الآية (١٠٠): يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتُم خشية الإنفاق. أي الفقر؛ أي: خشية أن تُذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدًا؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلًا مَنُوعًا. وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطَوا أحدًا شيئًا، ولا مقدار نَقِير!! والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يَغيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه».

الآية (١٠١-١٠٣): يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطُّوفَان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا، وما نَجَعَتْ فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله؛ كما قال فرعون لموسى -وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات-: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. فهذه الآيات التسع هِيَ الْـمُرَادَةُ هَهُنَا، وَهِيَ الْـمَعْنِيَّةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٠-١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبيَّن الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفصَّلها.

وقد أوتي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيات أُخَرَ كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذَكَرَ ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: حججًا وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكًا قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: ملعونًا. وقال أيضًا هو والضحاك: مغلوبًا. والهالك يشمل هذا كله. قوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُخْلِيَهم منها ويُزيلَهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

الآية (١٠٤): ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ في هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة همُّوا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآيتين [الإسراء:٧٦]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عَنْوةً على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يُستضعَفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

الآية (١٠٥-١٠٦): يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نَزَلَ، أي: متضمِّنًا للحقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦] أي: مُتَضَمِّنًا عِلْمَ الله الذي أراد أن يُطْلِعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ونَزَل إليك -يا محمد- محفوظًا محروسًا، لم يُشَبْ بغيره، ولا زِيدَ فيه ولا نُقِصَ منه، بل وَصَل إليك بالحقِّ؛ فإنه نَزَلَ به شديد القُوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ معناه: فَصَلْنَاهُ من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة من السماء الدنيا، ثم نَزَلَ مُفرَّقًا مُنجَّمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتُبَلِّغَه الناس وتَتْلُوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مَهَل، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئًا بعد شيء.

الآية (١٠٧-١٠٩): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: سَوَاءٌ آمَنْتُم به أم لا هو حَقٌّ في نفسه، أَنزَله الله ونَوَّهَ بذِكْره في سالف الأزمان في كُتُبِه المُنَزَّلة على رُسُلِه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تَمَسَّكُوا بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقَن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله ﷻ شُكرًا على ما أَنْعَمَ به عليهم، مِن جَعْلِه إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أُنزِل عليه الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يُخلِف الميعاد الذي وَعَدَهم على ألسنة الأنبياء المتقدِّمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

الآية (١١٠-١١١): يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المُنْكِرين صفةَ الرحمن لله عز وجل المانِعين من تَسْمِيَتِه بـ«الرحمن»: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فَرْقَ بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»؛ فإنه ذو الأسماء الحسنى.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: نَزَلَت هذه الآية، وهو مُتَوَارٍ بمكة، كان إذا صَلَّى بأصحابه رَفَعَ صوته بالقرآن، فلمَّا سَمِع ذلك المشركون سَبُّوا القرآن، وسَبُّوا من أَنزَلَه، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيَسمَع المشركون فيَسبُّون القرآن. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسْمِعُهُمُ القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [متفق عليه]. وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة: نَزَلَت هذه الآية في القراءة في الصلاة. وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لَـمَّا أَثْبَتَ تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيَحتَاج أن يكون له وليٌّ أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبِّرها ومُقَدِّرها بمشيئته وحده لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: لم يُحالِف أحدًا، ولم يَبْتَغِ نَصْرَ أحد. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عَظِّمْه وأَجِلَّه عمَّا يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا.

تفسير سورة الكهف

وهي مكيَّة، [وآياتها (١١٠) آيةً].

[فضل السورة]: عن البراء قال: قَرَأ رجل الكهفَ، وفي الدار دابَّة، فجَعَلَت تَنْفِر، فنَظَرَ فإذا ضبابة -أو سحابة- غَشِيَتْهُ، فذَكَر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان؛ فإنها السكينة تَنَزَّلَت عند القرآن، أو تَنَزَّلَت للقرآن» [متفق عليه]. وهذا الرجل هو: أُسَيْدُ بن الحُضَيْر. وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حَفظ عَشْرَ آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال» وفي لفظ: «من قرأ العشر الأواخر» [رواه مسلم].

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قَرَأَ سورة الكهف في يوم الجمعة، أَضَاءَ له من النُّورِ ما بين الـجُمُعتين»، [رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني].

الآية (١-٤): يَحمَدُ تعالى نفسه المُقَدَّسَة عند فواتح الأمور وخواتيمها؛ فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأُولى والآخرة؛ ولهذا حَمِد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد ﷺ؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جَعَلَه كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زَيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحًا بيِّنًا جليًّا، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زَيْغًا ولا مَيْلًا، بل جعله معتدلًا مستقيمًا؛ ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا؛ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكَذَّبه ولم يؤمن به، يُنْذِرُه ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ عقوبةً عاجلةً في الدنيا، وآجلةً في الأُخرَى، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا القرآن الذين صَدَّقُوا إيمانَهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبةً عند الله جميلةً، ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائمًا لا زوال له ولا انقضاء. ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نَعبُد الملائكة، وهم بنات الله.

الآية (٥): ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بهذا القول الذي افْتَرَوْه واتْتَفَكُوه من عِلم ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: لأسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أَعْظِمْ بِكَلِمَتِهِم كَلِمَةً! وهذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ليس لها مُستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كَذِبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

الآية (٦-٨): يقول تعالى مُسلّيًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتَركِهم الإيمان وبُعدِهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]. ﴿بَٰخِعٌ﴾: أي مُهْلِكٌ نَفْسَك بِحُزْنك عليهم، ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تُهْلِكْ نفسك أَسَفًا. قال قتادة: قَاتِلٌ نَفْسَكَ غَضَبًا وحُزْنًا عليهم. أي: لا تأسف عليهم، بل أَبْلِغْهُم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مُزيَّنة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُسْتَخْلِفكم فيها فناظِر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [رواه مسلم]. ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ أي: وإنا لَمُصَيِّرُوهَا بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنَجعَل كل شيء عليها هالكًا ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ لا يُنْبِت ولا يُنْتَفَعُ به؛ كما قال ابن عباس: يَهْلَكُ كل شيء عليها ويَبِيدُ. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.

الآية (٩-١٢): هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيبًا في قدرتنا وسلطاننا؛ فإن خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله، وتسخير الشمسِ والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يُعجزه شيء أَعْجَبُ من أخبار أصحاب الكهف. وقال ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما «الكهف» فهو: الغار في الجبل، وهو الذي لَجَأَ إليه هؤلاء الفتية. وأما «الرقيم» فقال ابن عباس: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: لوح من حجارة، كَتَبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وَضَعُوه على باب الكهف. وقال ابن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير، قال: «الرقيم» فَعِيل بمعنى مَرْقُومٍ. والله أعلم.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فَرُّوا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَؤُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، ﴿فَقَالُوا۟﴾ حين دَخَلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: هَبْ لنا من عندك رحمةً ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وَقَدِّرْ لنا من أمرنا هذا رَشَدًا، أي: اجعل عاقبتنا رشدًا.

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من رَقدَتِهم تلك، وخَرَج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ قيل: عددًا، وقيل: غايةً، فإن الأمد الغاية.

الآية (١٣-١٥): من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذَكَر تعالى أنهم فتية -وهم الشباب- وهم أَقْبَلُ للحقِّ، وأَهدَى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عَتَوا وانغمسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا، وأما المشايخ من قريش، فعامَّتُهم بَقُوا على دينهم، ولم يُسلِم منهم إلا القليل. وهكذا أَخبَر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتيةً شبابًا ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية؛ فإنه لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة.

﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ ولن: لنفي التَّأْبِيد[1]، أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنَّا لو فعلنا ذلك لكان باطلًا؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطلًا وكذبًا وبهتانًا. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: هَلَّا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلًا واضحًا صحيحًا؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك. والمشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يَفِرَّ العبد خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: «يُوشِكُ أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يَتبَعُ بها شَعَفَ الجبال ومواقع القَطْر، يَفِرُّ بدينه من الفتن» [رواه البخاري بنحوه].

ففي هذه الحال تُشرَع العزلة عن الناس، ولا تُشرَع فيما عداها، لِمَا يَفُوت بها من ترك الجماعات والجُمَع.

---

(١) هذه العبارة من باب إضافة الشيء إلى صفته؛ كما هو بيِّنٌ من الشرح بعدها.

الآية (١٦): فلمّا وَقَع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: يَبسُط عليكم رحمةً يَستُرُكم بها من قومكم، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمرًا تَرْتَفِقُونَ به. فعند ذلك خرجوا هُرابًا إلى الكهف، فأووا إليه، فَفَقَدَهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خَبَرَهم. كما فَعَل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق، حين لجآ إلى غار ثور.

الآية (١٧): أخبرَ أن الشمس إذا دَخَلته عند طلوعها تَزَاوَر عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: يَتَقَلَّصُ الفَيْءُ يَمْنَةً، كما قال ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة: ﴿تَزَٰوَرُ﴾ أي: تَـمِيلُ؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ تَتْرُكُهُم.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبُّره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي. وقد تَكَلَّف بعض المفسِّرين فذَكَروا فيه أقوالًا، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركت شيئًا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به» [رواه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني]. فأعلمَنا تعالى بصفته، ولم يُعلمْنا بمكانه. ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في مُتَّسَع منه داخلًا، بحيث لا تَـمَسُّهُم؛ إذ لو أصابتهم لأَحرَقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الآية، أي: هو الذي أَرشَد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم؛ فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضلَّه فلا هادي له.

الآية (١٨): ذكر بعض أهل العلم أنهم لَـمَّا ضَرَب الله على آذانهم بالنوم، لم تَنطَبِق أعينهم؛ لئلا يُسرِع إليها البِلَى، فإذا بَقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لو لم يُقلبوا لَأَكَلَتْهُم الأرض. ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ الوصيد: الفِنَاء، وقال ابن عباس: بالباب، وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨] أي: مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ. رَبَض كلبهم على الباب كما جَرَتْ به عادة الكلاب. وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن «الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب» [متفق عليه]، وشَمَلَتْ كَلْبَهُم بَرَكَتُهُم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذِكْر وخَبَر وشَأْن. وقوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نَظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لِـمَا أُلْبِسُوا من المهابة والذُّعْر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تَمَسَّهُم يدٌ لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رَقدَتُهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لِـمَا له في ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

الآية (١٩-٢٠): يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أي: رقدتم، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: فِضَّتِكُم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها. ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعامًا. وقيل: أكثر طعامًا، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه؛ يقولون: وليَخْتَفِ كل ما يقدر عليه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يُعْلِمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ يخافون منهم أن يَطَّلِعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذِّبُونهم بأنواع العذاب إلى أن يُعِيدُوهم في مِلَّتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العَود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

الآية (٢١): يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس، ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾: ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة...فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أَطْلَعْنَا عليهم أهل ذلك الزمان. ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم، وذَرُوهم على حالهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يُحذِّر ما فعلوا [متفق عليه]. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لَـمَّا وُجِدَ قبر دانيال في زمانه بالعراق، أَمَرَ أن يُخفَى عن الناس، وأن تُدفَن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها. [رواه ابن إسحاق، بسند حسنه المقطري في تحقيق الصارم المنكي].الآية (٢٢): يقول تعالى مخبرًا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدلَّ على أنه لا قائل برابع، ولَـمَّا ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: قول بلا عِلم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدَلَّ على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ردُّ العلم إلى الله تعالى؛ إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وُفِّقْنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ؛ كانوا سبعة. وهو موافق لِـمَا قدَّمناه. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلًا هَيِّنًا؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا عِلْم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجمًا بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شكَّ فيه ولا مريةَ، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدَّمه من الكتب والأقوال.

الآية (٢٣-٢٤): هذا إرشاد من الله لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عَزَم على شيء لِيفعله في المستقبل، أن يَرُدَّ ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نَسِيْتَ الاستثناء، فَاسْتَثْنِ عند ذِكْرِكَ له. وعن ابن عباس في الرجل يَحلِف؟ قال: له أن يَستَثْنِي ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثني ولو بعد سنة» أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه: «إن شاء الله» وذَكَر ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيًا بسُنَّة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الـحِنْثِ. قاله ابن جرير، ونَصَّ على ذلك، لا أن يكون رافعًا لِـحِنْثِ اليمين ومُسقِطًا للكفارة. وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله- هو الصحيح، وهو الأليق بحَمْل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله ﷻ قد أَرشَدَ من نَسيَ الشيء في كلامه إلى ذِكْرِ الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]، وذِكْرُ الله تعالى يَطْرُدُ الشيطان، فإذا ذَهَب الشيطان ذَهَب النسيان، فذِكْر الله سَبَب للذِّكْر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سُئِلتَ عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتَوَجَّهْ إليه في أن يُوفِّقَك للصواب والرُّشْد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

الآية (٢٥-٢٦): هذا خبرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لَبِثَ أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أَرقَدَهم الله إلى أن بَعَثَهم وأَعثَر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية؛ فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾. وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: إذا سُئِلْتَ عن لَبْثِهِمْ وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تَتَقَدَّم فيه بشيء، بل قُل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو مَن أَطلَعه الله عليه من خَلْقِه، وهذا الذي قُلناه عليه غير واحد من علماء التفسير؛ كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف. والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله، لا حكايةً عنهم. وهذا اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح؛ كأنه قيل: ما أَبْصَرَهُ وأَسْمَعَهُ، وتأويل الكلام: ما أَبْصَر الله لكل موجود، وأَسْمَعَه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا مُعَقِّبَ لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدَّس.

الآية (٢٧): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا مُغيِّر لها ولا مُحَرِّف ولا مُزيل. وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً. قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تَتْلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأَ لك من الله.

الآية (٢٨): ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويُهَلِّلُونه، ويحمدونه ويُسبِّحُونه ويُكبِّرونه، ويسألونه بكرةً وعشيًّا من عباد الله، سواءً كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يُجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخَبَّاب وابن مسعود، وليُفْرِد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام:٥٢]، وأَمَرَه أن يَصبِر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نَفَر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يَجْتَرِئُون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل مِن هُذَيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوَقَع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يَقَع، فحَدَّثَ نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تُجاوِزهم إلى غيرهم: يعني: تطلب بَدَلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شُغِلَ عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريط وضياع، ولا تكن مُطِيعًا له ولا مُحِبًّا لطريقته، ولا تَغْبِطْه بما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

الآية (٢٩): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مِرية فيه ولا شكَّ. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أَرْصَدْنَا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المُهْل»: ماء غليظٌ مثل دُرْدِيِّ الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر؛ فإن المُهْل يجمع هذه الأوصاف الرَّذيلة كلها، فهو أسود مُنْتِنٌ غليظ حارٌّ؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي: من حَرِّه، إذا أراد الكافر أن يَشرَبَه وقَرَّبه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥] أي: حارَّة، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٤]، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت النار منزلًا ومَقِيلًا ومُجْتَمَعًا ومَوْضِعًا لِلارْتِفَاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

الآية (٣٠-٣١): لَـمَّا ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنَّى بذِكْر السعداء، الذين آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعَمِلوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ والعَدْن: الإقامة، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت غُرَفِهم ومنازلهم، قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١]. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحِلْية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، وفَصَّلَه ههنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسُّنْدُس: ثياب رِفَاع رِقاق كالقمصان وما جَرى مجراها، وأما الإستبرق: فغَليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربُّع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ههنا، ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكُلُ مُتَّكِئًا» [رواه البخاري]. فيه القولان. والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والله أعلم.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: نِعْمَتِ الجنةُ ثوابًا على أعمالهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حَسُنَتْ مَنْزِلًا ومَقِيلًا ومَقَامًا، كما قال في النار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

الآية (٣٢-٣٤): يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضَرَب لهم مثلًا برجلين، جَعَل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، مَحْفُوفَتَيْن بالنخل المُحْدِقَة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مُثمِر مُقبلٌ في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولم تَنْقُص منه شيئًا.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. وقيل: الثِّمار، وهو أظهر ههنا، ﴿فَقَالَ﴾ أي صاحب هاتين الجنَّتين: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يُجادِله ويُخاصِمه، يَفتَخِر عليه ويتَرَأَّس: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خَدَمًا وحَشَمًا وولدًا. قال قتادة: تلك -والله- أُمنية الفاجر: كثرة المال وعِزَّة النَّفَر.

الآية (٣٥-٣٦): قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بِكُفْرِه وتمرُّده وتكبُّره وتجبُّره وإنْكاره المَعَادَ. ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لِمَا رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تَفنَى ولا تَفْرَغ ولا تَهْلَك ولا تَتْلَف، وذلك لِقِلَّة عقله، وضَعْف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكُفْره بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان مَعَادٌ ورَجْعَةٌ ومَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧] أي: في الدار الآخرة، تَأَلَّى على الله ﷻ.

الآية (٣٧-٤١): يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عمَّا هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية؟! وهذا إنكار وتعظيم لِمَا وَقَع فيه من جحود ربه، الذي خَلَقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨]، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الآية [البقرة:٢٨]، أي: كيف تجحدون ربكم، ودلالتُه عليكم ظاهرة جليّة، كل أحد يعلمها من نفسه؛ فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويَعلَم أنه كان معدومًا ثم وُجِد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فَعُلِمَ إسنادُ إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء؛ ولذا قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية، هذا تحضيض وحَثٌّ على ذلك، أي: هَلَّا إذ أعجبَتْك حين دَخلْتَها ونظرتَ إليها حَمِدْتَ الله على ما أنعَم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعطِه غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أَعْجَبَه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليَقُل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كَنْزٍ من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» [متفق عليه].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظَنَنْتَ أنها لا تَبيدُ ولا تَفنَى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الظاهر أنه مَطَرٌ عظيم مُزعِج، يَقْلَع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بَلْقَعًا ترابًا أَمْلَسَ، لا يثبت فيه قَدَم.

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض، وهو ضِدُّ النابع الذي يُطْلَبُ وجهَ الأرض، فالغائر يُطْلَب أسفلَها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك:٣٠] أي: جارٍ وَسَائِح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ والغَوْر: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلَغ منه.

الآية (٤٢-٤٤): يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وَقَع بهذا الكافر ما كان يَحذَر، ممَّا خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحُسبَان على جَنَّته، التي اغْتَرَّ بها وأَلْهَتْهُ عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ يُصفِّق كفَّيه متأسِّفًا متلهِّفًا على الأموال التي أَذهَبَها عليها، ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي: عشيرة أو وَلَد، كما افتَخَر بهم واستعزَّ، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وَقَع العذاب، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ نعت لله ﷻ، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

الآية (٤٥): يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحَبِّ، فَشَبَّ وحَسُنَ، وعَلَاه الزهر وَالنَّوْرُ والنُّضْرة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بعد هذا كله ﴿هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تُفَرِّقُه وتطرَحُه ذات اليمين وذات الشمال.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيرًا ما يَضرِب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ الآية [يونس:٢٤]، وقال في الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ الآية [الزمر:٢١]. وقال في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية [الحديد:٢٠].

وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ» [رواه مسلم].

الآية (٤٦): قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾ الآية [آل عمران:١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥] أي: الإقبال عليه والتفرُّغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المُفْرِطَة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ قال ابن عباس: «الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سُئل [عنها] أمير المؤمنين عثمان بن عفان فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقال عبد الرحمن بن زيد: هي الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير رحمه الله.

الآية (٤٧-٤٩): يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:٩-١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، وكما قال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: بادية ظاهرة، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم؛ الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا؛ لا صغيرًا ولا كبيرًا.

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يُحتمَل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحدًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، ويُحتمَل أنهم يقومون صفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ هذا تقريع للمُنكِرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطبًا لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظَنُّكم أن هذا واقع بكم، ولا أنَّ هذا كائن. وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرَّطنا في أعمارنا، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملًا وإن صَغُر ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: ضَبَطَها وحَفِظَها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي: من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيَحْكُم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحدًا من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم يُنَجِّي أصحاب المعاصي، ويُخَلِّد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

الآية (٥٠): يقول تعالى مُنبِّهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومُقَرِّعًا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذي أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذَّاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: لجميع الملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: خانَهُ أصلُه؛ فإنه خُلِقَ من مارج من نار؛ كما ثبت عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم ممَّا وُصِفَ لكم» [رواه مسلم]. فعند الحاجة نضَحَ كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة؛ وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبَّد وتنسَّك، فلهذا دَخَل في خطابهم وعصى بالمخالفة. ونبَّه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢، ص:٧٦]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طَرْفَة عينٍ قَطُّ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أصل البشر [رواه ابن جرير بإسناد صحيح]. وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفِسق هو الخروج، يقال: فَسَقَتْ الرُّطَبة: إذا خَرجَت من أكمامها وفَسقَت الفأرة من جُحْرها: إذا خَرجَت منه لِلْعَيْثِ والفساد. ثم قال تعالى مُقَرِّعًا وَمُوَبِّخًا لِـمَنِ اتَّبَعَهُ وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ أي: بدلًا عنِّي؛ ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

الآية (٥١): يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتُهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا الْـمُسْتَقِلُّ بخلق الأشياء كلها، ومُدبّرها ومُقدّرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعوانًا.

الآية (٥٢-٥٣): يقول تعالى مُخبِرًا عمَّا يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مِمَّا أنتم فيه. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ مَهْلكًا. والمعنى: أن الله تعالى بيَّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يُفَرِّقُ بينهم وبينها في الآخرة، فلا [خُلوص] لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مَهْلَكٌ وهَولٌ عظيم وأَمْرٌ كبير. ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: إنهم لَـمَّا عاينوا جهنم حين جِيء بها تُقَاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحقَّقوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الـهَمِّ والـحُزْن لهم، فإنَّ تَوَقُّعَ العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذابٌ ناجِزٌ، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يَعْدِلُ بهم عنها، ولا بُدَّ لهم منها.

الآية (٥٤): يقول تعالى: ولقد بيَّنَّا للناس في هذا القرآن، ووضَّحنا لهم الأمور، وفصَّلناها، كيلا يَضِلُّوا عن الحق، ويَخرجُوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هَدَى اللهُ وبَصَّرَه لطريق النجاة. عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ﷺ طَرَقَهُ وفاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: «ألا تُصَلِّيان؟!» فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعَثَنا بَعَثَنا. فانصرف حين قلتُ ذلك، ولم يَرْجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يَضرِب فَخِذَه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [متفق عليه].

الآية (٥٥-٥٦): يُخبِر تعالى عن تمرُّد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحقِّ البيِّن الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما مَنَعَهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعِدُوا به عِيانًا؛ كما قال أولئك لنبيِّهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر:٦-٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: يرونه عِيانًا مواجهةً، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: قَبل العذاب مبشِّرين مَن صدَّقهم وآمن بهم، ومنذرين لِمن كَذَّبَهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يُجادِلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي: ليُضْعِفُوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بُعِثَ بها الرسل، وما أنذروهم وخوَّفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي: سَخِروا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التكذيب.

الآية (٥٧-٥٩): يقول تعالى: وأيُّ عباد الله أظلم ممن ذُكِّر بآيات الله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، أي: تَناساها وأعرض عنها، ولم يُصغِ لها، ولا ألقى إليها بالًا، ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صَمَمًا معنويًّا عن الرَّشَاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك -يا محمد- غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يَحلُم ويَستُر ويَغفِر، وربَّما هَدَى بعضهم مِن الغَيِّ إلى الرشاد، ومن استمر منهم فَلَهُ يومٌ يَشيْب فيه الوليد، وتَضَعُ كل ذات حَمْلٍ حَملَها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: ليس لهم عنه مَحِيد ولا مَحِيص ولا مَعْدِل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يُصِيبَكم ما أصابهم، فقد كَذَّبْتُم أشرف رسول وأعظم نبيٍّ، ولستم بأعزَّ علينا منهم، فخافوا عذابي ونُذُر.

الآية (٦٠-٦١): سبب قول موسى لفتاه -وهو يُوشَع بن نُون- هذا الكلام: أنه ذُكِرَ له أن عبدًا من عباد الله بمَجْمَع البحرين، عنده من العِلْم ما لم يُحِطْ به موسى، فأَحَبَّ الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال سائرًا ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: هذا المكان الذي فيه مَجْمَعُ البحرين، قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القُرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أني أسير حُقُبًا من الزمان. قال ابن جرير: ذَكَرَ بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس: سَنَة. وعن عبد الله بن عمرو قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ قال: دهرًا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [عن] أبي بن كعب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق. [متفق عليه].

الآية (٦٢-٦٥): ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نَسِيا الحوت فيه، ونُسِبَ النسيان إليهما، وإن كان يُوشَع هو الذي نَسِيَه؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]، وإنما يَخْرُج من المالح في أحد القولين. فلمَّا ذَهَبَا عن المكان الذي نَسِيَاه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان. ﴿نَصَبًا﴾ يعني: تعبًا، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي: طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: هذا الذي نَطلُب. ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رَجَعَا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي: يَقُصَّان أَثَرَ مشيهما، ويَقْفُوَان أَثَرَهما. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. [عن] أُبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قامَ خطيبًا في بني إسرائيل فَسُئِلَ: أيُّ الناس أعلم؟ قال: أنا. فعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأَوحَى الله إليه: إنَّ لي عبدًا بِمَجْمَع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا ربِّ، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حُوتًا، تجعله بمِكْتَل، فحيثما فَقَدْتَ الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حُوتًا، فجَعَله بمِكتَل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يُوشَع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى إذا أتيا الصخرة وَضَعَا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكتَل، فخَرَجَ منه، فسَقَطَ في البحر، واتَّخَذَ سبيله في البحر سَرَبًا، وأَمسَكَ الله عن الحوت جِريةَ الماء، فصار عليه مثل الطَّاق. فلمَّا استيقظ نَسِيَ صاحبُه أن يُخبِرَه بالحوت، فانطلقا بقيّةَ يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوَزَا المكان الذي أَمَرَه الله به. قال له فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سَرَبًا، ولموسى وفتاه عَجَبًا، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجّى بثوب، فسَلَّمَ عليه موسى، فقال الخَضِر: وأَنَّى بأرضِك السلام؟! فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتُعَلِّمني ممَّا عُلِّمت رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، يا موسى إني على عِلْم من عِلْم الله عَلَّمَنِيه، لا تَعلمه أنت، وأنت على عِلْم من عِلْم الله عَلَّمَكَهُ الله لا أَعلَمُه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكَلَّمهم أن يَحْمِلُوهم، فعَرَفُوا الخَضِر، فحَمَلُوهم بغير نَوْلٍ، فلمَّا ركبا في السفينة لم يَفْجَأْ إلا والخَضِر قد قَلَعَ لوحًا من ألواح السفينة بِالقَدُوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! لقد جئت شيئًا إمرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾، وقال ﷺ: «كانت الأُولى من موسى نسيانًا» [فذكر الحديث] قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أن موسى كان صَبَرَ حتى يَقُصَّ الله علينا من خَبَرِهما» [متفق عليه].

الآية (٦٦-٧٠): يخبر تعالى عن قيل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لذلك العَالِم، وهو الخَضِر، الذي خَصَّه الله بِعِلْم لم يُطْلِع عليه موسى، كما أنه أَعطَى موسى من العلم ما لم يُعطه الخَضِر. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال تَلَطُّف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المُتَعَلِّم مِن العَالِم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أَصحَبُك وأُرَافِقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: ممَّا عَلَّمَك الله شيئًا، أَسْتَرْشِد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: أنك لا تقدر على مصاحبتي لِمَا ترى منِّي من الأفعال التي تُخالِف شريعتك؛ لأني على عِلم من علم الله ما عَلَّمَكه الله، وأنت على عِلْم من عِلْم الله ما عَلَّمَنِيه الله، فكلٌّ مِنَّا مُكَلَّفٌ بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي، ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستُنكِر عليَّ ما أنت معذور فيه، ولكنْ ما اطَّلَعْتَ على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطَّلَعْتُ أنا عليها دونَك. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: ولا أخالفك في شيء. فعند ذلك شارطه الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أبدأكَ أنا به قبل أن تسألني.

الآية (٧١-٧٣): يقول تعالى مُخبرًا عن موسى وصاحبه، وهو الخَضِر، أنهما انطلقا، فركبا في السفينة. وفي الحديث أنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نَوْلٍ -يعني بغير أجرة- تكْرِمَةً للخضر. فلمَّا استقلَّت بهم السفينة في البحر، وَلَجَّجَتْ أي: دخلت اللُّجَّةَ، قام الخضر فخَرَقَها، واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رَقَعَها. فلم يملك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفسه أن قال منكرًا عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ مُنْكَرًا. فعندها قال له الخَضِر مُذَكِّرًا بما تقدَّم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصنيع فعلتُه قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطتُ معك ألَّا تُنكِرَ عليَّ فيها، لأنك لم تُحِطْ بها خُبرًا، ولَهَا دَاخِلٌ هو مَصْلَحَةٌ، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ أي: لا تُضَيِّق عَلَيَّ وتُشدِّد عَلَيَّ.

الآية (٧٤): يقول تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ فلمَّا شاهد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا أَنْكَرَه أَشَدَّ من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ أي صغيرةً لم تعمل الحِنْث، ولا حَمَلَت إثمًا بعد، فقتلته؟! ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مُستَنَد لقتله، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة.

الآية (٧٥-٧٦): ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فَأَكَّدَ أيضًا في التَّذْكَارِ بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أَعْذَرْتَ إِلَيَّ مرةً بعد مرةٍ.

الآية (٧٧-٧٨): انطلقا بعد المَرَّتين الأُولَيَيْن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ عن ابن سيرين أنها الأيلة. ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة؛ فإن الإرادة في المُحْدَثَات بمعنى المَيْل. والانقضاض هو: السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: فَرَدَّه إلى حالة الاستقامة، وهذا خارق، فعِندَ ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لأجل أنهم لم يُضيِّفُونا كان ينبغي ألَّا تعمل لهم مجَّانًا. ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: لأنك شَرَطْتَ عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

الآية (٧٩): هذا تفسير ما أَشْكَلَ أَمْرُه على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما كان أَنكَرَ ظاهره، وقد أَظهَر الله الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ على باطنه، فقال: إن السفينة إنما خَرَقْتُها لأَعِيبَهَا؛ لأنهم كانوا يَمرُّون بها على مَلِكٍ من الظَّلَمَة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحةٍ، أي: جيدةٍ ﴿غَصْبًا﴾ فأَرَدْتُ أن أَعِيبَهَا، لأَرُدَّه عنها لِعَيبِها، فيَنتَفِع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها.

الآية (٨٠-٨١): عن أُبيِّ بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قَتَلَه الخضر طُبِعَ يومَ طُبِعَ كافرًا» [رواه مسلم]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: يحملهما حُبُّه على متابعته على الكفر. قال قتادة: قد فَرِحَ به أبواه حين وُلِدَ، وحزنا عليه حين قُتِل، ولو بَقِي كان فيه هلاكهما، فلْيَرْضَ امرؤٌ بقضاء الله؛ فإن قضاءَ الله للمؤمن فيما يَكرَه خير له من قضائه فيما يُحِبُّ. وصَحَّ في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له» [رواه مسلم]. وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولدًا أَزْكَى من هذا، وهما أَرْحَمُ به منه.

الآية (٨٢): في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف:٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾. كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] يعني: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمَين في المدينة، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾. قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفَظ في ذريته، وتَشْمَلُ بَرَكَةُ عبادته لهم[1] في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورَفْع درجَتِهم إلى أعلى درجة في الجنة لِتَقَرَّ عَينُه بهم. قال ابن عباس: حُفِظَا بصَلَاح أبيهما، ولم يذكر لهما صَلَاحًا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ ههنا أَسنَد الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحُلُمَ لا يَقدِر عليه إلا الله؛ وقال في الغُلَام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾، وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فالله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلتُه في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذَكَرْنَا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ لكني أُمِرْتُ به ووقفتُ عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ما تقدَّم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]. وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّيَ الخَضِر؛ لأنه جَلَسَ على فَرْوَة، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» [رواه البخاري]. والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضِقْتَ به ذَرعًا، ولم تَصبِر حتى أُخبِرَك به ابتداءً، ولَـمَّا أن فَسَّرَه له وبيَّنه ووَضَّحه وأزال المُشْكِل قال: ﴿تَسْطِع﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قويًّا ثقيلًا فقال: ﴿تَسْتَطِع﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفَّ بالأخفِّ، فقابل كُلًّا بما يناسبه لفظًا ومعنى، والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكِرَ في أوَّل القصة ثُمَّ لم يُذْكَر بعد ذلك؟! فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذِكْر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تَبَعٌ.

الآية (٨٣): يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: عن خَبَرِه. وقد بَعَث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يَمتَحِنُون به النبي ﷺ، فقالوا: سَلُوه عن رجل طوَّاف في الأرض، وعن فِتْيَةٍ لا يُدْرَى ما صَنَعُوا، وعن الروح، فنَزَلَتْ سورة الكهف.

قال وهب بن منبه: كان ملكًا، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتَي رأسه كانتا من نُحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملَكَ الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شِبه القرنين، وقد سُئل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذي القرنين، فقال: كان عبدًا ناصحَ الله فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فضَرَبوه على قَرنِه فمات، فسُمِّي ذا القرنين. ويُقال: إنه إنَّما سُمِّي ذا القرنين؛ لأنه بَلَغَ المشارق والمغارب، من حيث يَطلُعُ قَرْنُ الشمس ويَغرُب.

---

(١) مُتعَلَّق حرف الجر في (لهم) هو كلمة (بركة) لا (عبادته) والمعنى أن بركة عبادته تشملهم في الدنيا والآخرة.

الآية (٨٤): وقوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا مُـمَكَّنًا؛ فيه له من جميع ما يُؤْتَى الملوك من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحِصَارات؛ ولهذا مَلَكَ المشارق والمغارب من الأرض، ودَانَتْ له البلاد، وخَضَعَت له ملوك العباد، وخَدَمَتْه الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذَكَر بعضهم أنَّه إنَّما سُمِّي ذا القرنين لأنه بَلَغَ قرني الشمس: مَشرِقَها ومَغرِبَها. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ يعني علمًا. ويَسَّرَ الله له الأسباب؛ أي: الطُّرُق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّساتيق والبلاد والأراضي وكَسْرِ الأعداء، وكَبْتِ ملوك الأرض، وإذْلَال أهل الشرك. أُوْتِيَ من كلِّ شَيء ممَّا يحتاج إليه مثله سَبَبًا، والله أعلم.

الآية (٨٥-٨٨): قال ابن عباس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني بالسبب: المنزل. وقال مجاهد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: منزلًا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: قال: طرفي الأرض. وقال قتادة: أي أَتْبَعَ مَنَازِل الأرض ومَعَالِمَها. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: عِلمًا. وهكذا قال عكرمة والسدي. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: فَسَلَك طريقًا حتى وَصَلَ إلى أقصى ما يُسْلَكُ فِيهِ من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذِّر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمس تَغرُب من ورائه فشيء لا حقيقةَ له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكَذِبِهم. ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في مَنْظَرِهِ تَغْرُبُ في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تَغرُب فيه، وهي لا تُفَارِق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. والـحَمِئَة مشتقَّة من «الحمأة» وهو الطين، كما قال: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨] أي: طين أَمْلَس. وقال ابن عباس: «حامية» يعني: حارَّة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان. قلت: ولا منافاة بين معنييهما؛ إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، و﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره. وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمّةً من الأمم.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مَكَّنَه منهم، وحَكَّمَه فيهم، وأَظْفَرَه بهم وخَيَّرَه: إن شاء قَتَل وسَبَى، وإن شاء مَنَّ أو فَدَى. فَعُرِفَ عَدْلُهُ وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمرَّ على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفيه إثبات المعاد والجزاء. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله ﷻ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفًا.

الآية (٨٩-٩١): يقول: ثم سَلَكَ طريقًا فسَار من مغرب الشمس إلى مَطلعها. ولـمَّا انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يُكِنُّهم، ولا أشجار تُظِلُّهم وتَستُرُهم من حرِّ الشمس. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد والسدي: علمًا، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض؛ فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

الآية (٩٢-٩٦): يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سَلَكَ طريقًا من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان مُتَناوِحَان[1] بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد التُّرْك، فيَعِيثُون فيهم فَسَادًا، ويُهلِكُون الـحَرْثَ والنَّسْل. ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما ثَبَت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة! فحينئذٍ يشيب الصغير، وتَضَع كل ذات حَمْل حَمْلَها، فيُقَال: إن فيكم أُمَّتَين، ما كانتا في شيء إلا كَثَّرتاه: يأجوج ومأجوج».

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لاستعجام كلامهم وبُعدِهم عن الناس، ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن عباس: أجرًا عظيمًا، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالًا يُعطُونَه إياه حتى يَجعَل بينهم وبينهم سدًّا. فقال ذو القرنين بعِفَّةٍ ودِيَانةٍ وصَلَاح وقَصْدٍ للخير: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه؛ كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل:٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعَمَلِكم وآلات البناء، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ وَالزُّبَر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه، وهي كاللَّبِنَة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وُضِع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حَاذَى به رءوس الجبلين طُولًا وعَرضًا ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي: أَجَّجَ عليه النار حتى صار كله نارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسُّدي: هو النُّحَاس. وزاد بعضهم: الـمُذَاب.

الآية (٩٧): يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السَّدِّ، ولا قَدَرُوا على نَقْبِه من أسفله. ولـمَّا كان الظهور عليه أسهل من نَقْبه قابل كُلًّا بما يُناسبه فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه، وهو يقول: «لا إله إلا الله! ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقتَرَبَ! فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحَلَّقَ. قلت: يا رسول الله، أَنَهلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «نعم إذا كَثُرَ الـخَبَثُ» [متفق عليه].

---

(١) أي: متقابلان؛ يُقَالُ: هُمَا جَبَلَانِ يَتَناوَحانِ وشجرتانِ تَتَناوَحانِ إذا كَانَتَا مُتَقَابِلَتَيْنِ.

الآية (٩٨-٩٩): لَـمَّا بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس؛ حيث جَعَل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلًا يمنعهم من العَيث في الأرض والفساد، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوَعْد الحقّ، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: سَاوَاه بالأرض. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] أي: مساويًا للأرض. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنًا لا محالة. ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: الناس يومئذٍ أي: يوم يُدَكُّ هذا السَّدّ، ويَخرج هؤلاء فيَمُوجُون في الناس، ويُفسِدُون على الناس أموالهم، ويُتْلِفُون أشياءهم، وهذا كلُّه قبل يوم القيامة وبعد الدجال. ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال ابن زيد: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن. وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: والصُّور كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر] والذي يَنفُخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الحديث: «كيف أَنْعَمُ، وصاحب القَرْن قد الْتَقَم القرن، وحَنَى جبهته واستمع متى يُؤْمَرُ». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أَحضَرْنا الجميع للحساب.

الآية (١٠٠-١٠٢): يقول تعالى مُخبرًا عمَّا يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يَعرِض عليهم جَهَنَّم، أي: يُبْرِزُها لهم ويُظهِرها، ليَرَوْا ما فيها من العذاب والنَّكال قبل دخولها، ليكون ذلك أَبلَغ في تعجيل الهمِّ والحزن لهم، وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». ثم قال مخبرًا عنهم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تَعامَوا وتَغافَلُوا وتَصامُّوا عن قبول الهدى واتباع الحق، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصحُّ لهم ذلك، وينتفعون به؟! ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعدَّ لهم جهنم يوم القيامة منزلًا.

الآية (١٠٣-١٠٦): عن سعد بن أبي وقاص: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾: هم اليهود والنصارى [رواه البخاري]. وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي: أن هذه الآية الكريمة تَشمَل الحرورية كما تَشمَل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نَزَلَت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعَمُّ من هذا؛ فإن هذه الآية مَكية قبل خِطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكُلِّية، وإنما هي عامة في كل مَن عَبَدَ الله على غير طريقة مَرْضِيَّة يَحْسَبُ أنه مُصِيبٌ فيها، وأن عَمَله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود؛ كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢-٤].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: نُخبِرُكم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ ثم فَسَّرَهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عَمِلُوا أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون مَحْبُوبُون.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جَحَدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصِدْق رُسله، وكذَّبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نُثَقِّل موازينهم؛ لأنها خَالية عن الخير. عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» [متفق عليه]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هُزُوًا، استهزؤوا بهم، وكذَّبُوهم أشدَّ التكذيب.

الآية (١٠٧-١٠٨): يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصَدَّقوهم فيما جاؤوا به، بأن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس: هو البستان بالرومية، وقال قتادة: الفردوس: رَبْوَةُ الْجَنَّة وأَوْسَطُها وأَفْضَلُهَا، وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة». وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافةً؛ فإن النُّزُل هو الضيافة. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدًا، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يُحِبُّون سِواها. وفي قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحُبِّهم لها، مع أنه قد يُتَوَهَّم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يَسأَمُه أو يَمَلُّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك مُتَحَوَّلًا ولا انتقالًا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلًا.

الآية (١٠٩): يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تُكتب به كلمات الله وحِكَمه وآياته الدالة عليه ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ قبل أن يَفْرَغ من كتابة ذلك، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهَلُمَّ جَرّا، ﴿مَدَدًا﴾ بُحُورٌ تَمُدُّه ويُكْتَبُ بها، لَـمَا نَفِدَتْ كلمات الله. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها. يقول: لو كانت تلك البحور مدادًا لكلمات الله، والشجر كُلُّه أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء!

الآية (١١٠): يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زَعَمَ أني كاذب فليأتِ بمثل ما جئتُ به؛ فإني لا أَعلَمُ الغيبَ فيما أخبرتُكم به من الماضي مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أُخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابَه وجزاءَه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان مُوَافِقًا لشرْع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يُرَاد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان رُكْنَا العمل المُتَقَبَّل: لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ؛ عن أبي هريرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا خيرُ الشركاء، من عمل لي عملا فأشرك فيه غيري فأنا منه بريءٌ، وهو للذي أشرك» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية، [وعدد آياتها (٩٨) آيةً].

[فضل السورة]: **عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه** [رواه أحمد، وحسّنه أحمد شاكر].

[وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العِتاق الأُوَل وهُنّ من تِلادي** [رواه البخاري]].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية (١-٤): أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا، وكان نبيًا عظيمًا من أنبياء بني إسرائيل. وفي صحيح البخاري: أنه كان نجارًا، أي: كان يأكل من عمل يديه في النجارة. قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا يُنسَب في طلب الولد إلى الرُّعونة لكِبَره. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحبُّ إلى الله؛ كما قال قتادة في ﴿خَفِيًّا﴾: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي: ضعفت وخارت القوى، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تَرُدَّني قطُّ فيما سألتك.

الآية (٥-٦): قوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة. ووجهُ خوفه: أنه خشيَ أن يتصرفوا بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًّا من بعده ليسوسهم بنبوّته ما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله؛ فإن النبي أعظمُ منزلة وأجلُّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف مِن وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم. هذا وجه. الثاني: أنه لم يُذْكَرْ أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ **قال: «لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة»** [متفق عليه]. **وعلى هذا فتعيَّن حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾؛ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾** [النمل:١٦] **أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لَمَا خصَّه من بين إخوته بذلك، ولَمَا كان في الإخبار بذلك كبير فائدة؛ إذ من المعلوم المُسْتَقِرِّ في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لَمَا أخبر بها، وكل هذا يقرره ويُثبته حديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَثُ، ما تركنا فهو صدقة»** [النسائي في السنن الكبرى، وأصله في الصحيحين كما سبق]. **قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: مرضيًا عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخُلقه.**

الآية (٧): هذا الكلام يتضمن محذوفًا؛ وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٨-٣٩]. **قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يُسَمَّ أحد قبله بهذا الاسم، وعن ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا** عَلَيْهِ السَّلَامُ **كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقرًا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة -عليهما السلام- فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لِعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾** [الحجر:٥٤]، **مع أنه كان قد وُلِدَ له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾** [هود:٧٢-٧٣].

الآية (٨-٩): ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ هذا تعجُّب من زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ **حين أُجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحًا شديدًا، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كِبَرِها، ومع أنه قد كَبُرَ وعَتَا، أي: عَسَا عَظمُه ونَحُل ولم يبقَ فيه لقاح ولا جماع. وقال مجاهد: ﴿عِتِيًّا﴾ يعني: نحول العظم. وقال ابن عباس: الكِبَر. والظاهر أنه أخص من الكبر. ﴿قَالَ﴾ أي: الملك مجيبًا لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أي: يسيرٌ سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾** [الإنسان:١].

الآية (١٠-١١): يقول تعالى مخبرًا عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ **أنه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة ودليلًا على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني؛ كما قال إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾** الآية [البقرة:٢٦٠]. **قوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تحبسَ لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾** [آل عمران:٤١]. **وهذا دليل على أنه لم يكن يُكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بُشِّر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفيَّةً سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أُمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكرًا لله على ما أولاه.**

الآية (١٢-١٥): قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ أي: تعلَّم الكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي: بجدّ وحرص واجتهاد، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حَدَثٌ. قوله: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال ابن عباس: ورحمة من عندنا لا يقدر عليها غيرنا. والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانٗا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ أي: وآتيناه الحكم وحنانًا، ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة؛ فالحنان هو المحبة في شفقة وميل. وقوله: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانٗا﴾ فالزكاة الطهارة من الدَّنس والآثام والذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ ذا طُهْرٍ، فلم يَهمّ بذنب. قوله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتُقىً، عطف بِذِكْر طاعته لوالديه وبرِّهِ بهما، ومجانبته عقوقهما، قولًا وفعلًا وأمرًا ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

الآية (١٦): لما ذكر تعالى قصة زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًّا طاهرًا مباركًا، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب؛ فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكانت من بيتٍ طاهر طيّب في بني إسرائيل. فلما أراد الله تعالى أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي: اعتزلتهم وتنحَّت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

الآية (١٧-٢٠): ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل. قوله: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي: لَمَّا تَبَدَّى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافَتْهُ وظنَّت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي: إن كنت تخاف الله. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فقال لها الملك مجيبًا لها ومزيلًا ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني رسول ربك؛ أي: بعثني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾. قوله: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي: فتعجَّبَتْ مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟! أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ والبغيّ: هي الزانية.

الآية (٢١): ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أي: فقال لها الملك مجيبًا لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلامًا، وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة؛ فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوَّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذَكَر ولا أنثى، وخلق حواء من ذَكَر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذَكَر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمَّت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه. قوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٤٥، ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة ربه في مَهْدِه وكُهُولَتِه.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ يُحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدّر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنَّى بهذا عن النفخ في فرجها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

الآية (٢٢): يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فالمشهور الظاهر -والله على كل شيء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن.

الآية (٢٣): ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: فاضطرَّها وألجأها الطلق إلى جِذْع نخلة في المكان الذي تنحَّت إليه. والمشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى: أنه ببيت لحم. وقوله تعالى إخبارًا عنها: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستُبتَلى وتُمتَحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدّقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية! فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي: لم أُخلق ولم أَكُ شيئًا. قاله ابن عباس. وقال قتادة: أي: شيئًا لا يُعرف، ولا يُذكر، ولا يُدرَى من أنا.

الآية (٢٤-٢٥): قرأ بعضهم: (مَن تحتَها) بمعنى: الذي تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك، وقال مجاهد: عيسى ابن مريم. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي: ناداها قائلًا: لا تحزني، ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾؛ عن البراء بن عازب قال: الجدول. وكذا قال ابن عباس: السريّ: النهر. والظاهر أنها لم تكن في إبَّان ثمرها، ولهذا امتنَّ عليها بذلك؛ أن جعل عندها طعامًا وشرابًا، فقال: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

الآية (٢٦): ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفسًا؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي؛ لئلا ينافي: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. قال أنس بن مالك في قوله: ﴿صَوْمًا﴾ أي: صمتًا. وكذا قال ابن عباس، والضحاك.

الآية (٢٧): يقول تعالى مخبرًا عن مريم حين أُمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحدًا من البشر؛ فإنها سَتُكْفَى أمرها ويُقام بحُجَّتِها، فسلَّمت لأمر الله ﷻ واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جدًا، و﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: أمرًا عظيمًا.

الآية (٢٨): ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟!

[و] عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيتَ ما تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟! قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم!» [رواه مسلم].

الآية (٢٩-٣٣): قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا مُعرِّضين بقَذْفِها ورميها بالفرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا مُتهكّمين بها، ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره. قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أول شيء تكلم به أن نزَّه جَنَاب ربه تعالى، وبرَّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئةً لأمّه مما نُسبت إليه من الفاحشة. وقال عكرمة: أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى. قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال مجاهد: وجعلني معلمًا للخير. قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]. وعن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر.

قوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة ربه؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يَقْرِنُ بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين. قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك. قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إثبات منه لعبوديته لله ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله، يُحيا ويُمات ويُبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشقُّ ما يكون على العباد.

الآية (٣٤): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصنا عليك من خبر عيسى ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به.

الآية (٣٥-٣٦): لما ذكر تعالى أنه خلقه عبدًا نبيًّا، نزَّه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئًا فإنما يأمر به، فيصير كما يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الآية [آل عمران:٥٩]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، من اتبعه رَشَدَ وهدي، ومن خالفه ضَلَّ وغوى.

الآية (٣٧): قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ فصَمَّمَت طائفة -وهم جمهور اليهود- على أنه ولد زِنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين. قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدًا. ولكن أَنْظَرَهم تعالى إلى يوم القيامة وأجَّلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحدَ أصبرُ على أذًى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم». وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم:٤٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة.

الآية (٣٨): يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمعَ شيء وأبصرَه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية [السجدة:١٢] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يُجْدِي عنهم شيئًا، ولو كان هذا قبل مُعاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومُنقذًا من عذاب الله؛ ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمَعَهُم وأبصَرَهُم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون؛ فحيث يُطْلَبُ منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

الآية (٣٩): قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فُصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودَخل كل إلى ما صار إليه مخلَّدًا فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذروا به، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدّقون به. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيُوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال: «فَيَشرَئِبُّون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟» قال: «فَيَشرَئِبُّون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به فيُذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ولفظهما قريب من ذلك. الآية (٤٠): قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كُلَّهم يَهْلَكُون ويبقى هو تعالى وتقدَّس، ولا أحدَ يَدّعي مُلْكًا ولا تصرُّفًا، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تُظلم نفس شيئًا ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

الآية (٤١-٤٥): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾: واتلُ على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن -الذين هم من ذريته، ويدّعون أنهم على ملته، وقد ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ - مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررًا. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: فإن كنتُ من صُلبك وترى أني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد اطّلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقًا مستقيمًا موصلًا إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تُطعه في عبادتك هذه الأصنام؛ فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به. قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تَصِرْ مثله. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليسُ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له مُوجِبٌ لإحاطة العذاب بك، كما قال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣].

الآية (٤٦-٤٨): يقول تعالى مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانْتَهِ عن سبّها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتُك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس. وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد: يعني دهرًا. وقال الحسن البصري: زمانًا طويلًا، وقال ابن عباس: سويًا سالمًا، قبل أن تصيبك مني عقوبة. واختاره ابن جرير. فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾؛ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣]. ومعنى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحُرمة الأُبُوّة. ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس: لطيفًا، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له. وقد استغفر إبراهيم لأبيه -مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام- في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٤١]، ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ -إلى قوله- ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٣-١١٤].

وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: أجتنبكم وأتبرأُ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى» هذه مُوجِبةٌ لا محالة؛ فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

الآية (٤٩-٥٠): يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء:٧٢]، وقال: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلًا وعَقِبًا أنبياءَ، أقرَّ الله بهم عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نُبِّئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضًا. قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يُثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الآية (٥١): لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عَطَف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مُصطفًى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ جُمع له بين الوصفين؛ فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الآية (٥٢-٥٣): قوله: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح فقصَدَها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غربية عند شاطئ الوادي، فكلَّمه الله تعالى وناداه وقرَّبه وناجاه. عن ابن عباس قال: أُدْنِيَ حتى سمع صريف القلم. قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًا، كما في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًّا.

الآية (٥٤-٥٥): هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليهما السلام- وهو والد عرب الحجاز كلهم، بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾. وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، فصَدَق في ذلك. فصِدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أنّ خُلْفَهُ من الصفات الذميمة. قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وُصف بالنبوّة فقط، وإسماعيل وُصف بالنبوّة والرسالة. قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ هذا أيضًا من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخَلَّة السديدة؛ حيث كان مثابرًا على طاعة ربه آمرًا بها لأهله.

الآية (٥٦-٥٧): ذكر إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ بالثناء عليه بأنه كان صدّيقًا نبيًا، وأن الله رفعه مكانًا عليًا. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة [متفق عليه].

الآية (٥٨): يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هؤلاء النبيون -وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء -عليهم السلام- استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ الآية. قال السُّدِّي وابن جرير: الذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم. قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة، وحمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة. «والبُكِيّ»: جمع باكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا، اقتداء بهم، واتباعًا لمنوالهم.

الآية (٥٩-٦٠): ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: قرون أُخَر ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لِمَا سواها من الواجبات أضيَع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد. وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خَسَارًا يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكلية، واختاره ابن جرير. وقال عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال الحسن: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن عباس: خسرانًا. وقال قتادة: شرًا. قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات؛ فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله مِن ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ وذلك لأن التوبة تُجُبُّ ما قبلها. ولهذا لا يُنْقَصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئًا، ولا قُوبِلُوا بما عملوه قبلها فيُنقَص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هَدَرًا وتُرك نسيًا، وذهب مَجَّانًا من كرم الكريم، وحلم الحليم. وهذا الاستثناء كقوله في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

الآية (٦١-٦٣): يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ بظهر الغيب؛ أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله؛ كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل:١٨] أي: كائنًا لا محالة. وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه. قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع؛ كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦]. قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: في مثل وقت البُكُرات ووقت العَشيّات، لا أن هناك ليلًا أو نهارًا ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مُضِيَّها بأضواء وأنوار. قال قتادة: فيها ساعتان: بكرة وعشي، ليس ثَمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله ﷻ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١].

الآية (٦٤): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية، انفرد بإخراجه البخاري.

قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: أمر الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبي العالية. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة. واختاره ابن جرير. قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال مجاهد والسُّدِّي: معناه: ما نسيك ربك. عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئًا» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [رواه الحاكم، وحسنه الألباني].

الآية (٦٥): قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبّره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا مُعقِّبَ لحكمه، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مِثلًا أو شبيهًا. قال عكرمة: عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

الآية (٦٦-٧٠): يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾. قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة؛ يعني أنه تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئًا، أفلا يعيده وقد صار شيئًا؟! كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعًا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قعودًا، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨]، وقال السدي في قوله: ﴿جِثِيًّا﴾: يعني قيامًا. قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة. قاله مجاهد. ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جُرمًا. وقال قتادة: ثم لننزعنّ من أهل كل دين قادتهم في الشر. قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد: أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يُصلَى بنار جهنم ويخلَّد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب؛ كما قال في الآية: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

الآية (٧١-٧٢): عن عبد الله -هو ابن مسعود- ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. عن أم مبشر -امرأة زيد بن حارثة- قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة، فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [رواه مسلم]. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسُّه النار، إلا تَحِلَّةَ القسم» [متفق عليه]. قال عبد الرزاق: يعني الورود. وقال أبو داود الطيالسي: قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسمًا واجبًا. وقال مجاهد: ﴿حَتْمًا﴾ قضاءً. وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجَّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجَوازُهم على الصراط، وسرعتُهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يُشفَّعُون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيُخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم -وهي مواضع السجود- وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخرجون أولًا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يُخرج الله من النار من قال يومًا من الدهر: «لا إله إلا الله» وإن لم يعمل خيرًا قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

الآية (٧٣-٧٤): يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل وأرفع دورًا وأحسن نديًّا، وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟! كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١]؛ ولهذا قال تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعةً ومناظرَ وأشكالًا.

الآية (٧٥): يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم المدّعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي. قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: فليدَعْه الله في طغيانه. هكذا قرر ذلك ابن جرير رحمه الله. وهذه مُباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى.

الآية (٧٦): لما ذكر تعالى إمداد مَن هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هُدى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ﴾ الآيتين [التوبة:١٢٤]. وقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قد تقدم تفسيرها والكلام عليها في سورة «الكهف»(١) ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومردًّا على صاحبها.

---

(١) راجع صفحة: ٢٩٩.

الآية (٧٧-٧٨): [سبب النزول]: عن خبّاب بن الأرَتّ قال: كنت رجلًا قَيْنًا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثُمَّ تبعث. قال: فإني إذا متُّ ثُم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [متفق عليه]. قال البخاري: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾: موثقًا.

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ -يعني يوم القيامة- أي: أَعَلِمَ ما له في الآخرة حتى تَأَلَّى وحلف على ذلك؟! ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟! وقال ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها.

الآية (٧٩-٨٠): ﴿كَلَّا﴾ هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: مِنْ طَلَبِهِ ذلك وحُكْمِه لنفسه بما تمنَّاه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة، على قوله ذلك وكفره في الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد؛ نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتى في الدار الآخرة مالًا وولدًا زيادة على الذي له في الدنيا؛ بل في الآخرة يُسلَب مِنَ الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: من المال والولد، لا يتبعه قليل ولا كثير.

الآية (٨١-٨٢): يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها. ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طَمِعُوا، فقال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦]. وقال السُّدي: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان. قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما رَجَوا منهم.

الآية (٨٣-٨٤): قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال ابن عباس: تُغويهم إغواءً. وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله. وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: إنما نؤخرهم لأجَلٍ معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم:٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٧]. قال السُّدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال ابن عباس: نعد أنفاسهم في الدنيا.

الآية (٨٥- ٨٧): يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه. والوفد: هم القادمون رُكْبانًا، ومنه الوفود، وركوبُهم على نَجَائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فإنهم يساقون عُنْفًا إلى النار ﴿وِرْدًا﴾ عِطَاشًا، قاله ابن عباس. وههنا يقال: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣]. وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾: ركبانًا. وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عطاشًا، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض؛ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]. ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها. قال ابن عباس: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله ﷻ.

الآية (٨٨- ٨٩): لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا - تعالى وتقدّس وتنزَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي: في قولكم هذا ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قال ابن عباس: أي عظيمًا.

الآية (٩٠-٩٥): قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة مِن فَجَرةِ بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالًا؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد. عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أصبَر على أذى يسمعه من الله؛ إنه يُشرَك به، ويُجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم، ويرزقهم» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: قد علم عَدَدَهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة؛ ذَكَرهم وأنثاهم وصغيرَهم وكبيرَهم. قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذَرّة، ولا يظلم أحدًا.

الآية (٩٦-٩٨): يخبر تعالى أنه يَغْرِسُ لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات -وهي الأعمال التي تُرْضِي الله ﷻ لِـمُتَابَعتها الشريعة المحمدية- يَغْرِسُ لهم في قلوب عباده الصالحين مودَّة، وهذا أمر لا بدَّ منه، ولا مَحِيدَ عنه. وقد وَرَدَت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه؛ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: يا جبريل، إني أحبُّ فلانًا فَأَحِبَّهُ. قال: فَيُحِبُّهُ جبريل». قال: «ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يُحِبُّ فلانًا». قال: «فَيُحِبُّهُ أهل السماء، ثم يُوضَع له القبول في الأرض» [متفق عليه]. وقال ابن عباس: الوُدّ من المسلمين في الدنيا، والرزق الحَسَن، واللسان الصادق.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي المُبِين الفصيح الكامل؛ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المستجيبين لله المصَدِّقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل ترى منهم أحدًا؟! ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جُبَير والضحاك وابن زيد: يعني: صوتًا. والرِّكْزُ في أصل اللغة: هو الصوت الخفي.

تفسير سورة طه

هي مكية، [وعدد آياتها (١٣٥) آيةً].

الآية (١-٨): تقدَّم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [سبب النزول]: قال الضحاك: لَـمَّا أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيرًا كثيرًا؛ كما ثَبَتَ عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» [متفق عليه].

وقال قتادة: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: لا، والله ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمةً ونورًا، ودليلًا إلى الجنة. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: إن الله أَنزَل كتابه، وبَعَثَ رسوله رحمةً رَحِمَ بها عباده، ليَتَذَكَّر ذاكرٌ، وينتفع رجل بما سَمِع من كتاب الله، وهو ذِكْر أَنزَل الله فيه حلاله وحرامه. ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من ربِّك ربِّ كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العُلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ تقدَّم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضًا، وأن المَسْلَك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمْرَار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تَكْيِيفٍ ولا تَحْرِيفٍ، ولا تَشْبِيهٍ، ولا تَعْطِيلٍ، ولا تَمْثِيلٍ.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا ربَّ غيره. وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أنزل هذا القرآنَ الذي خَلَق الأرض والسموات العُلَى، الذي يَعلَم السِّرَّ وأخفى. وقال الضحاك: ﴿ٱلسِّرَّ﴾: ما تُحَدِّثُ به نفسك، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما لم تُحَدِّثْ به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ غدًا، والله يعلم ما تُسِرُّ اليوم، وما تُسِرُّ غدًا. وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الذي أنزَل القرآن عليك هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

الآية (٩-١٠): من ههنا شَرَعَ تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأَجَل الذي كان بينه وبين صِهْره في رعاية الغنم، وسار بأهله، قيل: قاصدًا بلاد مصر، بعدما طالت الغَيْبَة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته فأَضَلَّ الطريق، وكانت ليلةً شاتيةً، ونَزَلَ مَنزِلًا بين شعاب وجبال، في بَرد وشتاء، وسحاب وظلام وضَبَاب، وجَعَل يَقْدَحُ بِزَنْدٍ معه ليُوريَ نارًا، كما جَرَتْ له العادة به، فجَعَلَ لا يَقْدَحُ شيئًا، ولا يَخْرُج منه شَرَر ولا شيء. فبينا هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارًا، أي: ظَهَرَت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يُبَشِّرُهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٢٩]، وهي: الجمر الذي معه لَـهَب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩]، دَلَّ على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دَلَّ على وجود الظلام. وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، دَلَّ على أنه قد تَاهَ عن الطريق، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهديني إلى الطريق. وكانوا شَاتِينَ وضَلُّوا الطريق، فلمَّا رأى النار قال: إن لم أجد أحدًا يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار تُوقِدُون بها.

الآية (١١-١٢): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار واقترب منها، ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:٣٠]، وقال ههنا ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلِّمُك ويُخاطِبُك، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال سعيد بن جبير: كما يُؤْمَرُ الرجل أن يَخلَعَ نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وقيل: لِيَطَأَ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير منتعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان؛ كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦].

الآية (١٣-١٦): ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: على جميع الناس مِنَ الموجودين في زمانه. ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحِّدني وَقُم بعبادتي من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرني. وقيل: معناه: وأَقِم الصلاة عند ذكرك لي. ويشهد لهذا الثاني ما رواه أنس، عن النبي ﷺ قال: «إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غَفِلَ عنها، فليُصَلِّها إذا ذَكَرَها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [متفق عليه].

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: قائمة لا محالة، وكائنة لا بدَّ منها. ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال ابن عباس: لا أُطْلِعُ عليها أحدًا غيري. وقال السُّدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه عِلْم الساعة، ولعَمْري لقد أخفاها الله من الملائكة المُقَرَّبين، ومن الأنبياء والمرسلين. وقوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تَتَّبِعُوا سبيل من كذَّب بالساعة، وأقبل على ملاذِّه في دنياه، وعصى مولاه واتَّبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخَسِر، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تَهلِك وتَعطَب.

الآية (١٧-٢١): هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخَرْق للعادة باهر، دالٌّ على أنه لا يَقدِر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبيٌّ مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها! فسترى ما نصنع بها الآن؛ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أَهُزُّ بها الشجرة لِيَسْقُطَ وَرَقُهَا، لتَرعَاه غنمي. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح ومنافع وحاجات أُخَر غير ذلك. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ أي: صارت في الحال حَيَّةً عظيمةً، ثعبانًا طويلًا، يتحَرَّك حركةً سريعةً، فإذا هي تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ، وهو أسرع الحيات حركةً، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكِبَر، وفي غاية سرعة الحركة! ﴿تَسْعَىٰ﴾ أي: تمشي وتضطرب. فكَشَفَ عن يده ثم قَبَضَ فإذا هي عصاه التي عَهِدَها، وإذا يدُه في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشُّعْبَتَيْن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

الآية (٢٢-٣٥): هذا بُرهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أَمَرَه أن يُدخِلَ يده في جيبه، كما صَرَّح به في الآية الأخرى، وههنا عَبَّر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص:٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كَفُّك تحت عَضُدِك. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير بَرَص ولا أذًى، ومن غير شَيْنٍ. قاله ابن عباس، ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾. وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: اذهب إلى فرعون مَلِك مصر، الذي خَرَجْتَ فارًّا منه وهاربًا، فادْعُه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومُرْهُ فَلْيُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يُعَذِّبهم؛ فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بَعَثَه به، فإنه قد أَمَرَه بأَمْر عظيم، وخَطْب جَسيم. بَعَثَه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأَجْبَرِهِم، وأَشَدِّهِم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأَعْمَرِهِم مُلكًا، وأطغاهم وأبلَغهم تمرُّدًا، بَلَغَ من أمره أنْ ادَّعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره! هذا وقد مَكَثَ موسى في داره مدةً وليدًا عندهم، في حَجْر فرعون، على فراشه، ثم قَتَلَ منهم نفسًا فخَافهم أن يقتلوه، فهَرَب منهم هذه المدَّة بكمالها. ثم بعد هذا بَعَثَه ربُّه عز وجل إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: إن لم تَكُنْ أنت عَوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك. ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لِمَا كان أصابه من اللَّثَغ حين عُرِضَ عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العِيّ، ويحصل لهم فَهْم ما يُرِيد منه وهو قَدْر الحاجة. ولو سأل الجميع لزَال، ولكن الأنبياء لا يَسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بَقِيَت بقية؛ قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] أي: يُفْصِح بالكلام. وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يَتَخَوَّفُ من آل فرعون في القتيل، وعُقْدَة لسانه، فإنه كان في لسانه عُقْدَةٌ تَمْنَعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يُعِينَه بأخيه هارون يكون له رِدْءًا ويَتَكَلَّم عنه بكثير ممَّا لا يُفصِح به لسانه، فآتاه سُؤْلَه، فَحَلَّ عُقْدَةً من لسانه.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضًا سؤال من موسى عليه السلام، في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال ابن عباس: نُبِّئ هارون ساعتئذٍ حين نُبِّئ موسى عليهما السلام. وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: في مشاورتي. ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: في اصطفائك لنا، وإعطائك إيَّانا النبوة، وبَعْثَتِكَ لنا إلى عدوك فرعون.

الآية (٣٦-٣٧): هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنِعَمِه السالفة عليه.

الآية (٣٨-٣٩): كان من أمر أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد وُلِدَ في السنة التي يقتلون فيها الغِلمان: [أنها] اتَّخَذَتْ له تابوتًا، فكانت تُرضِعُه ثم تَضَعُه فيه، وتُرسِلُه في البحر -وهو النيل- وتُمْسِكُه إلى منزلها بحَبْل، فذَهَبَت مرة لِتَربِطَه فانفَلَت منها وذَهَبَ به البحر، فحَصَلَ لها من الغَمِّ والهَمِّ ما ذَكَرَه الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠]، فذَهَبَ به البحر إلى دار فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، أي قَدَرًا مقدورًا من الله، حيث كانوا يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حَذَرًا من وجود موسى، فحَكَمَ الله -وله السلطان العظيم والقدرة التَّامة- ألَّا يُرَبَّى إلا على فراش فرعون، ويُغَذَّى بطعامه وشرابه، مع مَحبَّته وزوجته له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: عند عدوك، جعلته يُحِبُّك، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال أبو عمران الجوني: تَرَبَّى بعين الله. وقال ابن أسلم: يعني أجعله في بيت المَلِك يَنْعَمُ ويترَف، غذاؤه عندهم غذاء المَلِك، فتلك الصنعة.

الآية (٤٠-٤٤): قوله: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لَـمَّا استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢]. تعني: هل أدلُّكم على مَن تُرضعه لكم بالأجرة؟ فذَهَبَت به وهُمْ معها إلى أمه، فعَرَضَت عليه ثديها فقَبِلَه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، واستأجروها على إرضاعه فَنَالها بسببه سعادة ورِفْعَة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أَغْنَم وأَجْزَل. وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني: القِبْطِيّ، ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهو ما حَصَلَ له بسبب عَزْم آل فرعون على قتله، فَفَرَّ منهم هاربًا، حتى وَرَدَ ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبث مقيمًا في أهل «مدين» فارًّا من فرعون وملئه، يرعى على صِهْره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقًا لقَدَر الله وإرادته من غير مِيعَاد، والأمر كلُّه لله تبارك وتعالى، وهو المُسَيِّر عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال مجاهد: أي على مَوعِد. وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولًا لنفسي، أي: كما أُريد وأشاء. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بِحُجَجي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال ابن عباس: لا تُبْطِئا. وقال: لا تَضْعُفا. والمراد: أنهما لا يَفْتُرَان في ذكر الله، بل يَذْكُران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذِكْرُ الله عَونًا لهما عليه، وقُوَّة لهما وسلطانًا كاسرًا له. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تَـمَرَّدَ وَعَتَا وتَجَبَّر على الله وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتوِّ والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألَّا يُخاطِب فرعون إلا بالملاطفة واللين، وأن دعوتها له تكون بكلام رَقِيق لَيِّن قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأَبْلَغ وأَنْجَع؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: لعله يرجع عمَّا هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: يُوجِد طاعةً من خشية ربه، فالتَّذكّر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

الآية (٤٥-٤٨): يقول تعالى إخبارًا عن موسى وهارون -عليهما السلام- أنهما ﴿قَالَا﴾ مُستَجِيرَين بالله تعالى شاكيَيْن إليه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما، فيُعَاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا منه؛ فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليَّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلَّم ولا يتنفَّس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

وقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: والسلام عليك إن اتَّبَعْت الهدى؛ ولهذا لَـمَّا كَتَب رسول الله ﷺ إلى هرقل كتابًا، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتَّبَع الهدى...» [متفق عليه].

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوَحي المعصوم أن العذاب مُتَمَحِّضٌ لِـمَن كَذَّب بآيات الله وتولَّى عن طاعته؛ كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٢]. كَذَّبَ بقلبه وتَوَلَّى بفعله.

الآية (٤٩-٥١): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: الذي بعثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإني لا أعرفه، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال سعيد بن جبير: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه. قال بعض المفسرين: كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٣] أي: قَدَّرَ قَدَرًا، وهَدَى الخلائق إليه، أي: كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدَّر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لَـمَّا أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خَلَقَ ورَزَقَ وقَدَّر فَهَدَى، شرع يَحتَجُّ بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم -إذا كان الأمر كما تقول- لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟!

الآية (٥٢): ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ قال له موسى في جواب ذلك: هم، وإن لم يَعبُدُوه، فإن عَمَلَهم عند الله مضبوط عليهم، وسَيجزيهم بعَمَلِهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يَشِذُّ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصِف علمه تعالى بأنه بكل شيء مُحِيط، وأنه لا ينسى شيئًا تبارك وتعالى وتقدس؛ فإن عِلْم المخلوق يَعْتَرِيهِ نُقْصَانَان: أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد عِلمه، فَنَزَّهَ نفسه عن ذلك.

الآية (٥٣-٥٦): هذا من تمام كلام موسى فيما وَصَفَ به ربَّه ﷻ، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وفي قراءة بعضهم: «مِهَادًا» أي: قرارًا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتُسافِرون على ظهرها. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: من ألوان النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو، وسائر الأنواع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خَضِرًا ويَابِسًا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لَدَلالاتٍ وحُجَجًا وبراهين ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا ربَّ سواه. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: من الأرض مَبْدَؤُكُم؛ فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متّم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ يعني: فرعون؛ أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفرًا وعنادًا وبغيًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل:١٤].

الآية (٥٧-٥٩): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاءُ عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا، ونَزْعُ يده من تحت جناحه فخَرَجَت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر، جئتَ به لِتَسحَرَنا، وتَستَولِيَ به على الناس، فيَتَّبِعُوْنَك وتُكَاثِرُنَا بهم، ولا يَتِمُّ هذا معك؛ فإن عندنا سِحْرًا مثل سِحْرك، فلا يَغُرَّنَّكَ ما أنت فيه، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فَنُعَارِض ما جِئتَ به بما عندك من السِّحر في مكان معين، ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهُمْ مُوسَى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونَوْرُوزهم وتَفَرُّغِهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليُشَاهد الناس قدرةَ الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار؛ ليكون أَظْهَرَ وأَجْلَى وأَبْيَنَ وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء: كل أمرهم واضِحٌ بَيِّنٌ، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يَقُلْ «لـيلًا» ولكن نهارًا ضحًى. وقال مجاهد وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مَنْصَفًا. وقال السُّدي: عَدْلًا. وقال ابن أسلم: مُسْتَوٍ يَتَبَيَّن الناس ما فيه، ولا يَتَغَيَّبُ بَعْضُ ذلك عن بعض، مُسْتَوٍ حتى يُرى.

الآية (٦٠-٦٤): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لَـمَّا تَوَاعد هو وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى وقت ومكان معلومين ﴿تَوَلَّىٰ﴾ أي: شَرَعَ في جَمْعِ السَّحَرَة من مدائن مملكته، كل من يُنْسَبُ إلى سِحر في ذلك الزمان. وقد كان السِّحْر فيهم كثيرًا نافِقًا جدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجَلَسَ فرعون على سرير مملكته، واصطَفَّ له أكابر دولته، ووَقَفَت الرعايا يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَوَكَّأُ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووَقَف السَّحَرة بين يدي فرعون صُفوفًا، وهو يُحَرِّضُهم ويَحُثُّهم، ويُرَغِّبُهم في إجادة عَملهم في ذلك اليوم، ويَتَمَنَّون عليه، وهو يَعِدُهم ويُمَنِّيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تُخَيِّلُوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كَذَبْتم على الله. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يَغْلِبَاكُم وقومكم ويَسْتَوْلِيَا على الناس، وتتبعهما العامة ويُقَاتِلا فرعون وجنوده، فيَنتَصِرا عليه ويخرجاكم من أرضكم. ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويَسْتَبِدَّا بهذه الطريقة، وهي السحر؛ فإنهم كانوا مُعَظَّمِين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غَلَب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرَّدا بذلك، وتَمَحَّضَت لهما الرياسة بها دونكم.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي: اجتمعوا كلُّكم صَفًّا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرةً واحدةً، لتُبْهِروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي: مِنَّا ومنه، أما نحن فقد وَعَدنا هذا الملك العطاءَ الجزيلَ، وأما هو فَيَنَال الرياسة العظيمة.

الآية (٦٥-٧٠): يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ أي: أنت أولًا، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ أي: أنتم أولًا ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أَمْرِهم.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وفي الآية الأخرى أنهم لَـمَّا ألقوا قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦]، وقال ههنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًّا غفيرًا وجمعًا كثيرًا، فألقى كل منهم عصًا وحبلًا، حتى صار الوادي ملآن حَيَّاتٍ يَرْكَبُ بعضها بعضًا.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: خاف على الناس أن يَفْتِنوا بسحرهم ويَغُرُّوا بهم قبل أن يُلقِيَ ما في يمينه، فأَوْحَى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ وذلك أنها صارت تِنِّينًا عظيمًا هائلًا، فجَعَلَت تَتْبَعُ تلك الحبال والعِصِيَّ حتى لم تُبْقِ منها شيئًا إلا تَلَقَّفَتْه وابْتَلَعَتْه، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرةً، نهارًا ضحوةً. فقامت المعجزة، واتَّضح البرهان، وبَطَلَ ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. فلمَّا عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطُرُقه ووجوهه، عَلِمُوا علم اليقين أن هذا الذي فَعَلَه موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حقٌّ لا مِريَةَ فيه، ولا يَقدِر على هذا إلا الذي يقول للشيء: «كن» فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله، و﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]. ولهذا قال ابن عباس وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سَحَرَة، وفي آخر النهار شهداء بَرَرَة.

الآية (٧١-٧٣): يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلِب كل الغَلَب، شَرَع في المكابرة والْبَهْتِ، وعَدَلَ إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فَتَهَدَّدَهُم وتَوَعَّدَهُم، وقال ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أَمَرْتُكم بذلك، وقال قولًا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بُهْت وكَذِب: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليَّ وعلى رعيتي، لتُظهِرُوه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣].

ثم أخذ يَتَهَدَّدُهُم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مُثْلَةً ولَأُقَتِّلَنَّكُم ولَأُشَهِّرَنَّكُم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلمَّا صال عليهم بذلك وتَوَعَّدَهُم، هَانَت عليهم أنفسهم في الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يُحتَمَل أن يكون قَسَمًا، ويُحتَمَل أن يكون معطوفًا على البيِّنَات؛ يعنون: لا نَختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العَدَم، المُبْتَدِئ خلْقَنا من الطين، فهو المُسْتَحِقُّ للعبادة والخضوع لا أنت. ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شِئتَ وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك تَسَلُّطٌ في هذه الدار، وهي دار الزَّوال ونحن قد رَغِبْنا في دار القرار، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرَهتَنا عليه من السحر لنُعارِضَ به آيةَ الله تعالى ومعجزةَ نَبِيِّه. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: خير لنا منك، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أدوم ثوابًا ممَّا كُنْتَ وَعَدْتَنا ومَنَّيْتَنا. وهو رواية عن ابن إسحاق. وقال محمد بن كعب القُرَظِي: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إِنْ أُطِيعَ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصِيَ. والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صَمَّمَ على ذلك وفعله بهم عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سَحَرة، وأمسَوْا شهداء.

الآية (٧٤-٧٦): الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وَعَظَ به السَّحَرة لفرعون، يُحَذِّرُونَه من نِقمَة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويُرَغِّبُونَه في ثوابه الأبدي المُخَلَّد، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي: يَلقَى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]، وقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، ولكن الناس تُصِيبُهُم النار بذنوبهم، فَتُمِيتُهُم إِمَاتَةً، حتى إذا صاروا فَحْمًا، أُذِنَ في الشفاعة، جِيْءَ بهم ضَبَائِر ضَبَائِر[1]، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيُقَال: يا أهل الجنة، أَفِيضُوا عليهم، فيَنْبُتُون نبات الـحِبَّة[2] تكون في حَمِيلِ السَّيْل» [رواه مسلم].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ومن لَقِيَ ربَّه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صَدَق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغُرَف الآمنات، والمساكن الطيبات. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وهو بدل من: ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين أبدًا.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من الدنس والخَبَث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدَّق المرسلين فيما جاءوا به من خَبَر وطلب.

---

(١) الضَّبَائِر: جَمَاعَاتُ النَّاسِ. [لسان العرب، مادة (ضبر)].

(٢) الْحِبَّةُ بِالْكَسْرِ: بُذُورُ الْبُقُولِ وَحَبُّ الرَّيَاحِينِ. وَقِيلَ هُوَ نَبْتٌ صَغِيرٌ يَنْبُتُ فِي الْحَشِيشِ. [النهاية في غريب الحديث والأثر(١/ ٣٢٦)].

الآية (٧٧-٧٩): يقول تعالى مُخبرًا أنه أَمَر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أبى فرعون أن يُرسِل معه بني إسرائيل، أن يَسرِي بهم في الليل، ويَذْهَب بهم من قبضة فرعون. وقد بَسَطَ الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة؛ وذلك أن موسى لَـمَّا خَرَج ببني إسرائيل أصبحوا، وليس منهم بمصر لا داعٍ ولا مجيب، فغَضِبَ فرعون غضبًا شديدًا، وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الـجُنْد من بلدانه ورَسَاتِيقه[1]، ثم لَـمَّا جَمَعَ جنده واسْتَوْثَقَ له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء:٦٠] أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢]، وَوَقَف موسى ببني إسرائيل؛ البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يعني: من البحر أن يُغْرِقَ قومك.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، وكما تَقَدَّمَهُم فرعون فَسَلَكَ بهم في اليَمِّ فأَضَلَّهُم، وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

الآية (٨٠-٨٢): يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العِظام، ومِنَنه الجسام؛ حيث نَجَّاهم من عدوِّهم فرعون، وأقرَّ أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غَرِقُوا في صبيحة واحدة، لم يَنْجُ منهم أحد؛ كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠].

وعن ابن عباس قال: لَـمَّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أَظْفَرَ الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فَصُومُوه» [متفق عليه].

ثم إنه تعالى واعدَ موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلَّمَه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العِجل.

﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» وغيرها. فالـمَنُّ: حلوى كانت تَنزِل عليهم من السماء. والسَّلْوَى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كُلٍّ قَدرَ الحاجة إلى الغَد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: كُلُوا من هذا الذي رزَقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: أغضب عليكم، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي: فقد شَقِيَ.

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: كل من تاب إليَّ تُبْتُ عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عَبَدَ العجل من بني إسرائيل.

﴿تَابَ﴾ أي: رَجَع عمَّا كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية، ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بقلبه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: بجوارحه.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي ثم لم يُشَكِّكْ. وقال سعيد بن جبير: أي: استقام على السنة والجماعة. ورُوي نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف. وثم ههنا لترتيب الخبر على الخبر؛ كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

الآية (٨٣-٨٧): لَـمَّا سار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨،١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلةً ثم أَتبَعَها له عشرًا، فتَمَّتْ أربعين ليلةً، فسارع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبادِرًا إلى الطور، واسْتَخْلَفَ على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضًا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أخبرَ تعالى نبيَّه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عَمِلَه لهم ذلك السامري. وكَتَب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ في غاية الغَضَب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأَمرِهم، وتَسَلُّم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شَرَفٌ لهم، وهم قوم قد عَبَدُوا غير الله؛ ما يَعْلَمُ كل عاقل له لبٌّ بطلان وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رَجَعَ إليهم ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، والأسف: شدة الغضب. وقال مجاهد: أي: جَزِعًا. وقال قتادة والسدي: ﴿أَسِفًا﴾ أي: حزينًا على ما صَنَع قومه من بعده.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: أما وَعَدَكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحُسْن العاقبة كما شاهدتم من نُصرَتِه إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟! ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وَعَدَكُمْ الله، ونسيان ما سَلَف من نعمه، ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» ههنا بمعنى «بل»، وهي للإضراب عن الكلام الأوَّل، وعُدول إلى الثاني؛ كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلَّ عليكم غَضَبٌ من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أَنَّبَهُم موسى وقَرَّعَهُم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا. ثم شَرَعُوا يعتذرون بالعُذْر البارد؛ يخبرونه عن تَوَرُّعِهم عمَّا كان بأيديهم من حُلِيِّ القِبْط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خَرجُوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقيناها عَنَّا. ثم جاء ذلك السَّامِرِيُّ فأَلْقَى عليها تلك القبضة التي أَخَذَها من أثر الرسول، ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾.

---

(١) الرستق: كلمة معربة، أصلها بالفارسية: (رسته) معناها: الصف من الناس [ينظر: لسان العرب، مادة (رزدق)] والمقصود صفوف جنوده.

الآية (٨٨-٨٩): ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟﴾ أي: الضُّلَّال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: نَسِيَهُ ههنا، وذَهَبَ يَتَطَلَّبُه. وبه قال مجاهد. وقال سِماك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: نسي أن يُذَكِّرَكُم أن هذا إلهكم. وقال ابن عباس: فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ قال: فعَكَفوا عليه وأحبُّوه حُبًّا لم يُحِبُّوا شيئًا قطُّ يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: تَرَكَ ما كان عليه من الإسلام يعني: السَّامِرِي. قال الله تعالى رَدًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسَخافة عقولهم فيما ذَهَبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: في دنياهم ولا في أُخرَاهم. قال ابن عباس: لا والله ما كان خُوَارُه إلا أن يدخل الريح في دُبُره فيخرج من فِيْه، فيُسْمَع له صوت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تَوَرَّعُوا عن زينة الْقِبْطِ، فألقَوْها عنهم، وعَبَدُوا العِجْل. فتَوَرَّعُوا عن الحقير وفَعَلوا الأمر الكبير، كما جاء عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دَمِ البعوض إذا أصاب الثوب -يعني: هل يُصَلِّي فيه أم لا؟- فقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ -يعني: الحسين- وهم يسألون عن دم البعوض! [رواه البخاري].

الآية (٩٠-٩١): يخبر تعالى عمَّا كان من نَهْي هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم عن عبادة العِجْل، وإخباره إيَّاهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي خَلَق كل شيء فقدَّره تقديرًا، ذو العرش المجيد، الفعال لِمَا يُريد، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه. ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نَسْمَعَ كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه!

الآية (٩٢-٩٤): يخبر تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رَجَعَ إلى قومه، فرَأَى ما قد حَدَث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غَضَبًا، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأَخَذَ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه، وقد قدَّمنا في «الأعراف» بَسْطَ ذلك. وشَرَعَ يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أوَّل ما وَقَعَ.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: فيما كنت تَقَدَّمت إليك، وهو قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ تَرَفَّقَ له بِذِكْرِ الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذِكْر الأم ههنا أَرَقُّ وأَبْلَغُ، أي: في الحُنُوِّ والعَطْف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ أن أَتْبَعَكَ فَأُخْبِرَكَ بهذا، فتقول لي: لِمَ تَرَكْتَهم وحدهم وفَرَّقْتَ بينهم؟! ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي: وما راعيتَ ما أَمَرْتُكَ به حيث استخلفْتُك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائبًا له مطيعًا.

الآية (٩٥-٩٨): يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للسَّامِرِيِّ: ما حَمَلَك على ما صَنَعْتَ؟ وما الذي عَرَضَ لك حتى فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: رأيتُ جبريلَ حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من أَثَرِ فَرَسِه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها مع من ألقى، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: حَسَّنَتْهُ وأَعْجَبَهَا إذ ذاك.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أَخَذْتَ ومَسَسْتَ ما لم يكن لك أَخْذُهُ وَمَسُّهُ من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: «لا مساس» أي: لا تُمَاسُّ الناسَ ولا يَمَسُّونَكَ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لا مَحِيدَ لك عنه. وقال قتادة: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبةٌ لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ قال الحسن وقتادة وأبو نهيك: لن تَغِيب عنه.

وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: مَعْبُودِكَ ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: أَقَمْتَ على عبادته، يعني: العجل، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ليس هذا إلهكم، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحقُّ ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبدٌ له.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨]، فـ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

الآية (٩٩-١٠١): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قَصَصْنا عليك خَبَر موسى، وما جَرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نَقُصُّ عليك الأخبار الماضية كما وَقَعَت من غير زيادة ولا نَقْص، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذي لم يُعْطَ نبي من الأنبياء منذ بُعِثُوا إلى أن خُتِمُوا بمحمد ﷺ كتابًا مثله ولا أَكْمَل منه، ولا أَجمع لخبر ما سَبَق وخبر ما هو كائن، وحُكْم الفَصْل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كَذَّبَ به وأَعرَضَ عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى في غيره، فإن الله يُضِلُّه ويَهدِيْه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثمًا.

وهذا عام في كل من بَلَغَهُ القرآن من العَرَب والعَجَم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. فكل من بَلَغَه القرآن فهو نذير له ودَاعٍ، فمن اتَّبَعَه هُدِيَ، ومن خَالَفَه وأَعرَضَ عنه ضَلَّ وشَقِيَ في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: لا مَحِيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس الحِمْل حِمْلُهم.

الآية (١٠٢-١٠٤): ثَبَتَ في الحديث أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الصُّور، فقال: «قَرنٌ يُنفَخ فيه» [رواه أحمد وأبو داود وصحح إسناده أحمد شاكر]. ينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شِدَّة ما هم فيه من الأهوال، ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يَتَسَارُّونَ بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لُبْثُكُم فيها قليلًا، عشرةَ أيام أو نحوها. ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: لِقِصَر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كُلَّها، وإن تَكَرَّرَت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غَرَضُهم في ذلك دَرْءَ قيام الحجة عليهم لِقِصَر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

الآية (١٠٥-١٠٨): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يُذْهِبُهَا عن أماكنها ويَمْحَقُهَا ويُسَيِّرُهَا تسييرًا. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصَّفْصَف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مُرَادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ واديًا ولا رابيةً، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذلك قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أُمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر:٨]. وقال محمد بن كعب القُرَظِي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظُلمَة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي منادٍ، فَيَتْبَعُ النَّاسُ الصَّوْتَ يَؤُمُونَه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يميلون عنه. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السُّدي. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال ابن عباس: الصوت الخفي. وقال سعيد بن جبير: الحديث، وسِرُّه، ووطء الأقدام. أما وطء الأقدام فالمراد سَعْي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:١٠٥].

الآية (١٠٩-١١٢): ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وعن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عَزَّوَجَلَّ أنه قال: «آتي تحت العرش، وأَخِرُّ لله ساجدًا، ويَفْتَح عليّ بمحامد لا أُحْصِيها الآن، فَيَدَعُنِي ما شاء الله أن يَدَعَنِي، ثم يقول: يا محمد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَع، وَاشْفَعْ تُشَفَّع..» [متفق عليه].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يُحِيْط عِلْمًا بالخلائق كُلِّهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خَضَعَتْ وذَلَّتْ واسْتَسْلَمَت الخلائق لجبَّارها الحي الذي لا يموت، ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: الذي لا ينام، وهو قَيِّمٌ على كل شيء، يُدَبِّره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة؛ فإن الله سيُؤَدِّي كل حَقٍّ إلى صاحبه، حتى يَقتَصَّ للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْنَاء [رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني]، وفي الصحيح: «إياكم والظُّلْمَ؛ فإن الظُّلْمَ ظلماتٌ يوم القيامة» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: لَـمَّا ذَكَر الظالمين ووعيدهم، ثَنَّى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون؛ أي: لا يُزَاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

الآية (١١٣): يقول تعالى: ولَـمَّا كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعًا لا محالة، أَنزَلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا، بلسان عربي مبين فصيح، لا لَبْسَ فيهِ وَلَا عِيَّ، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفِعل القربات.

الآية (١١٤): ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تَنَزَّهَ وتَقَدَّس الملك الحقُّ، الذي هو حقٌّ، وَوَعْدُه حقٌّ، ووعيده حقٌّ، ورسله حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، وكل شيء منه حقٌّ. وعَدْلُه تعالى ألَّا يُعَذِّبَ أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذَار إلى خلقه؛ لئلا يَبقَى لأحد حجةٌ ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، وثبَتَ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يُعَالِجُ مِنَ الْوَحْيِ شِدَّةً، فكان مِمَّا يُحَرِّكُ لِسَانَه، فأنزَل الله هذه الآية [متفق عليه]. يعني: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلَّما قال جبريل آيةً قالها معه، من شِدَّة حرصه على حفظ القرآن، فأَرشَدَه الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخفُّ في حَقِّه؛ لئلا يَشُقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تَنسَى منه شيئًا، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: بل أَنْصِتْ، فإذا فَرَغَ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علمًا.

الآية (١١٥-١٢٢): ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قال ابن عباس: إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ. وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فَضَّلَه به على كثير ممن خَلَق تفضيلاً.

وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف»، وسيأتي في آخر سورة «ص». يَذكُر فيها تعالى خَلْقَ آدم وأَمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وَيُبَيِّنُ عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني: حواء عليها السلام.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: إيَّاكَ أن يسعى في إخراجك منها، فتتْعَب وتَعْنَى وتَشقَى في طلب رزقك؛ فإنك ههنا في عيش رغيد هَنِيء، لا كُلفةَ ولا مَشَقَّة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾: إنما قَرَنَ بين الجوع والعُرْي؛ لأن الجوع ذُلّ الباطن، والعري ذُلّ الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾: وهذان أيضًا متقابلان، فالظمأ: حَرُّ الباطن، وهو العطش. والضحى: حَرُّ الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ قد تقدم أنه دلَّاهما بغرور ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١].

وقد تقدَّم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يَزَلْ بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرةَ الخلد[1] يعني: التي مَن أكل منها خُلِّدَ ودام مُكْثُهُ. وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يُرَقِّعَان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة والسدي. وقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذي أَخرَجْتَ الناس من الجنة بذَنبِكَ وأَشقَيتَهم؟! قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أَتَلُومُنِي على أَمْرٍ قد كَتَبَه الله عَلَيَّ قبل أن يخلقني، أو: قَدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني؟!» قال رسول الله ﷺ: «فحَجّ آدَمُ مُوسَى» [متفق عليه].

الآية (١٢٣-١٢٥): يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعًا، أي: من الجنة كلكم. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته.

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾: قال ابن عباس: لا يَضِلُّ في الدنيا، ولا يَشْقَى في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي؛ أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا؛ فلا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدره، بل صدره ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِه، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولَبِسَ ما شاء وأَكَلَ ما شاء، وسَكَنَ حيث شاء؛ فإن قلبه ما لم يَخْلُصْ إلى اليقين والهدى، فهو في قَلَقٍ وحَيْرَةٍ وشَكٍّ، فلا يزال في رَيبِهِ يَتَرَدَّد. فهذا من ضَنْكِ المعيشة.

عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يُضيَّق عليه قبرُه حتى تَختَلِف أضلاعه فيه.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾: قال مجاهد وأبو صالح والسدي: لا حجةَ له. وقال عكرمة: عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم. ويُحتَمَل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يُبعَث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]. ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا.

---

(١) لعل ابن كثير يقصد: في زعم إبليس؛ وإلا فقد أكذبه في زعمه ذلك في تفسيره لآية الأعراف: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]. ينظر ص: ١٥٢.

الآية (١٢٦): ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: لَـمَّا أَعرَضْتَ عن آيات الله، وعامَلْتها معاملةَ مَن لم يَذكُرها، بعد بلاغها إليك؛ تناسيتها وأَعرَضْتَ عنها وأَغْفَلْتَها، كذلك نُعامِلُك اليوم معاملةَ من نَسِيَكَ، ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١] فإن الجزاء من جنس العمل.

أما نسيان لفظ القرآن مع فَهْم معناه والقيام بمُقتَضَاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص.

الآية (١٢٧): هكذا نجازي المسرفين المكذِّبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أشدُّ ألَـمًا من عذاب الدنيا، وأدْوَم عليهم، فهم مخلَّدون فيه.

الآية (١٢٨-١٣٠): يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يُعَذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل الـمُسَمَّى الذي ضَرَبَه الله تعالى لهؤلاء المكذِّبين إلى مدة مُعيَّنة، لجاءهم العذاب بَغتةً؛ ولهذا قال لنبيِّه مُسلِّيًا له: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء عن عمارة بن رُوَيْبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النارَ أحد صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها» [رواه مسلم]. ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتَهَجَّدْ به. وحَمَلَه بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥]. وفي الصحيح: «يقول الله: يا أهلَ الجنة، فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسَعْدَيك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟! فيقول: إني أُعطِيكم أفضلَ من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسخَط عليكم بعده أبدًا» [متفق عليه].

الآية (١٣١-١٣٢): يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء الـمُتْرَفين وأشباههم ونُظَرائِهم، وما هم فيه من النِّعَم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حَائلة، لِنَختبِرَهم بذلك. وقال مجاهد: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد آتاك الله خيرًا ممَّا آتاهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٧-٨٨]، وكذلك ما ادَّخَره الله تعالى لرسوله في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدّ ولا يُوصَف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥] ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فكان صلوات الله وسلامه عليه أزهدَ الناس في الدنيا مع القدرة عليها؛ إذا حَصَلَتْ له يُنْفِقُها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يَدَّخِرْ لنفسه شيئًا لغد. وقال قتادة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لِنَبْتَلِيَهُم.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: اسْتَنْقِذْهُم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصْطَبِرْ أنت على فِعلها؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]. وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، ولهذا قال: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نُكَلِّفُكَ الطلب. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لعبادتي أمْلأ صدرك غنًى، وأسدَّ فَقرَك، وإن لم تفعل مَلَأتُ صدرك شُغلًا، ولم أسدَّ فقرك» [رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحُسْن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتَّقَى الله.

الآية (١٣٣-١٣٥): يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟! قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: القرآن العظيم الذي أَنزَلَه عليه الله وهو أُميٌّ، لا يُحسِنُ الكتابة، ولم يُدَارِسْ أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدِّمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مُهَيمن عليها، يُصدّق الصحيح، ويُبيّن خطأ المكذوب فيها وعليها. و [عن أبي هريرة] عن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أُوتِيَ من الآيات ما آمَن على مثلِهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وَحْيًا أوحاه الله إليَّ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» [متفق عليه]. وإنما ذَكَرَ ههنا أعظم الآيات التي أُعْطِيَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَرُ. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، ونُنزِّل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تُهلِكَنا، حتى نؤمن به ونَتَّبعه؟ ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يُبيّن تعالى أن هؤلاء المكذِّبين متعنِّتون معاندون لا يؤمنون، ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٧]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن كَذَّبَك وخالفك واستمرَّ على كفره وعناده: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: مِنَّا ومنكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ أي: الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد.

تفسير سورة الأنبياء

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١٢) آيةً].

[فضل السورة:] قال ابن مسعود: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هُنَّ من العِتَاق الأُوَل، وهُنَّ من تِلَادِي. [رواه البخاري].

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية (١-٦): هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة وَدُنُوِّهَا، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدّون من أجلها. وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:١-٢]. ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أَنزَل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومَن شابَهم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جَديدٌ إنْزَالُهُ ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ قال ابن عباس: ما لكم تَسألون أهل الكتاب عمَّا بأيديهم وقد حَرَّفُوه وبَدَّلُوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابُكم أَحْدَثُ الكتب بالله تقرؤونه مَحْضًا لم يُشَبْ. [رواه البخاري بنحوه]. وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: قائلين فيما بينهم خُفْيَةً: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنونَ رسولَ الله ﷺ، يستبعدون كونه نبيًّا؛ لأنه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختصّ بالوحي دونهم؟! ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفَتَتْبَعُونَه فتكونون كمن أتى السِّحْر، وهو يَعلَم أنه سِحْر. فقال تعالى مُجيبًا لهم عمَّا افتروه واخْتَلَقُوه من الكَذِب: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي يَعلَم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أَنزَل هذا القرآن المشتمِل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد. وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذا إخبار عن تَعَنُّت الكفَّار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحَيْرَتِهم فيه، وضلالهم عنه. فتارةً يجعلونه سِحرًا، وتارةً يجعلونه شعرًا، وتارةً يجعلونه أضغاثَ أحلام، وتارةً يجعلونه مُفْتَرًى؛ كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٨، والفرقان:٩]. وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعنُون كناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [الإسراء:٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما آتينا قريةً -من القرى الذين بُعِث فيهم الرسل- آيةً على يَدَيْ نبيِّها فآمنوا بها، بل كذَّبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رَأَوْها دون أولئك؟! كلا، بل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

هذا كلُّه، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أَظْهَر وأَجْلَى، وأَبْهَر وأَقْطَع وأَقْهَر، ممَّا شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الآية (٧-٩): يقول تعالى رادًّا على من أنكر بِعْثة الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدَّموا كانوا رجالًا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، وقال تعالى حكايةً عمَّن تقدَّم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بَشَرًا أو ملائكةً؟ إنما كانوا بشرًا، وذلك من تمام نِعَم الله على خلقه؛ إذ بَعَثَ فيهم رُسلًا منهم يتَمَكَّنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] أي: قد كانوا بَشَرًا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتَّكَسُّب والتجارة، وليس ذلك بضَارٍّ لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما تَوَهَّمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧-٨].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وخَاصَّتُهُم أنهم يُوحَى إليهم من الله ﷻ، تَنزِلُ عليهم الملائكة عن الله بما يَحكُم في خلقه ممَّا يَأمُر به ويَنْهَى عنه. وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم ربهم: لَيُهْلِكَنَّ الظالمين، صَدَقَهم الله وَعْدَه ففعَل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المكذِّبين بما جاءت الرسل به.

الآية (١٠): يقول تعالى مُنَبِّهًا على شرف القرآن: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذه النعمة، وتتلقَّونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤].

الآية (١١-١٥): ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧]. وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥].

وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أُمَّةً أخرى بعدهم.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ أي: تَيَقَّنُوا أن العذاب واقع بهم، كما وَعَدهم نبيُّهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يَفِرُّون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ هذا تَهَكُّمٌ بهم قَدَرًا، أي: قِيل لهم قَدَرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاءً بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عمَّا كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة -وهي الاعتراف بالظلم- هِجِّيرَاهم[1]، حتى حَصَدْنَاهم حَصْدًا، وَخَمَدَتْ حركاتهم وأصواتهم خمودًا.

الآية (١٦-٢٠): يخبر تعالى أنه خَلَق السموات والأرض بالحقِّ، أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم:٣١]، وأنه لم يَخْلُق ذلك عَبَثًا ولا لَعِبًا، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ قال مجاهد: يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنةً ولا نارًا، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: اللَّهْو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال عكرمة والسدي: المراد باللَّهو ههنا: الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]، فَنَزَّهَ نفسه عن اتخاذ الولد مُطلَقًا، لا سيما عمَّا يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى أو العُزير أو الملائكة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣].

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادة وإبراهيم النخعي: أي: ما كنَّا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إِنْ» فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: نُبَيِّنُ الحق فَيَدْحَضُ الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مُضْمَحِلٌّ.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: تقولون وتفترون.

ثم أَخبَر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلًا ونهارًا، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يستنكفون عنها؛ كما قال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يَتْعَبُون ولا يَمَلُّون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مُطِيعون قصدًا وعملًا، قادرون عليه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

الآية (٢١-٢٣): يُنْكِر تعالى على من اتَّخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يُحيُون الموتى ويُنْشِرُونهم من الأرض؟! أي: لا يَقْدِرُون على شيء من ذلك، فكيف جَعَلُوها لله ندًّا وعَبَدوها معه؟!

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لَفَسَدَت السموات الأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ أي: في السماء والأرض ﴿لَّفَسَدَتَا﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عمَّا يقولون إن له ولدًا أو شريكًا سبحانه وتعالى وتقدَّس وتَنَزَّه عن الذي يفترون ويَأفِكُون علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: هو الحاكم الذي لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يَعتَرِض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعُلُوِّه وحكمته وعَدْلِه ولُطْفِه.

﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: وهو سائلٌ خَلْقَهُ عما يعملون؛ كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨].

الآية (٢٤): يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ما تقولون.

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني: الكتب المتَقَدِّمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أُنْزِلَ على نبيٍّ أُرسل، ناطقٌ بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم -أيها المشركون- لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه.

(١) أي: عادتهم وشأنهم.

الآية (٢٥): ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ كما قال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكل نبي بَعَثَه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غَضَب، ولهم عذاب شديد.

الآية (٢٦-٢٩): يقول تعالى ردًّا على من زَعَمَ أن له -تعالى وتَقَدَّس- ولدًا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا، ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يَتَقَدَّمون بين يديه بأمر، ولا يُخَالِفونه فيما أَمَرَهم به، بل يُبَادِرون إلى فعله، وهو تعالى عِلْمُه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُّشۡفِقُونَ ۝٢٨ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من ادَّعَى منهم أنه إله من دون الله، أي: مع الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

الآية (٣٠-٣٣): يقول تعالى مُنَبِّهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقَهرِه لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المُسْتَقِلُّ بالخلق، المُسْتَبِدُّ[1] بالتدبير، فكيف يَلِيْق أن يُعبَد غيره أو يُشرَك به ما سواه؟ ألم يروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ أي: كان الجميع مُتَّصلًا بعضه ببعض، متلاصق مُتَراكِم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، فَفَتَقَ هذه من هذه، فجَعَل السموات سبعًا، والأرض سَبعًا، وفَصَل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأَمْطَرَت السماء وأَنْبَتَت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تَحْدُثُ شيئًا فشيئًا عَيَانًا، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ أي: أَصلُ كلِّ الأحياء منه. وكذا قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «كل شيء خلق من ماء» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر] وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا أَرسَى الأرض بها وقَرَّرَها وثَقَّلَها؛ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ أي: لئلا تَمِيْدَ بالناس، أي: تَضطرب وتَتَحَرَّك، فلا يَحْصُل لهم عليها قرار لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليُشَاهِد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحِكَم والدلالات.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ أي: ثَغرًا في الجبال، يسلكون فيها طُرُقًا من قُطْر إلى قُطْر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المَشاهَد في الأرض، يكون الجبل حائلًا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيَجعَل الله فيه فجوةً -ثغرةً- ليَسْلُك الناس فيها من ههنا إلى ههنا؛ ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا﴾ أي: على الأرض، وهي كالقُبَّة عليها؛ كما قال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق:٦]، والبناء هو نَصْب القُبَّة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِي الإسلام على خمس» [متفق عليه] أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام على ما تعهده العرب.

﴿مَّحۡفُوظٗا﴾ أي: عاليًا محروسًا أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعًا.

وقوله: ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] أي: لا يَتَفَكَّرون فيما خَلَق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زُيِّنَتْ به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها وفي نهارها، من هذه الشمس التي تَقطَع الفَلَكَ بِكَمَالِه في يوم وليلة، فتَسِيرُ غايةً لا يَعلَمُ قَدْرَها إلا الذي قَدَّرَها وسَخَّرَها وسَيَّرَها.

ثم قال مُنَبِّهًا على بعض آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأُنْسِه، يَطُول هذا تارةً، ثم يَقصُر أخرى، وعكسه الآخر، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ هذه لها نُور يَخُصُّها، وفَلَك بذاته، وزمان على حِدَة، وحركة وسَير خاص، وهذا بنور آخر، وفَلَك آخر، وسَير آخر، وتقدير آخر، ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]، أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المِغْزَلُ في الفَلْكَةِ. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المِغْزَلُ إلا بالفَلْكَة، ولا الفَلْكَة إلا بالمِغْزَل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهنَّ.

الآية (٣٤-٣٥): يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: يا محمد ﴿ٱلۡخُلۡدَ﴾ أي: في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]. وقد اسْتَدَلَّ بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ مات، وليس بحيٍّ إلى الآن؛ لأنه بَشَر، سواءً كان وليًّا أو نبيًّا أو رسولًا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ أي: يا محمد ﴿فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾؟! أي: يُؤَمِّلُون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كلٌّ إلى الفناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

وقوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ أي: نَختَبِرُكم بالمصائب تارةً، وبالنِّعَم أخرى، فنَنْظُر من يَشْكُر ومن يَكْفُر، ومن يَصبر ومن يَقنَط، كما قال ابن عباس: ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ يقول: نَبْتَلِيكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسَّقَم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: فنُجَازِيكم بأعمالكم.

---

(١) أي المُتَفرِّد؛ استبدَّ به: تَفرَّد [القاموس المحيط؛ مادة (بدد)].

الآية (٣٦-٣٧): يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: كفار قريش؛ كأبي جهل وأشباهه، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذي يَسُبُّ آلهتكم ويُسَفِّه أحلامكم؟! قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

وقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١] أي: في الأمور.

والحكمة في ذِكر عَجَلَة الإنسان ههنا أنه لَـمَّا ذَكَر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يُمهِلي للظالم حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِته، يُؤَجِّل ثم يُعَجِّل، ويُنظِر ثم لا يُؤَخِّر.

ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: نَقْمِي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

الآية (٣٨-٤٠): يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم، تكذيبًا وجحودًا وكفرًا وعِنادًا واستبعادًا، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تَيَقَّنوا أنها واقعة بهم لا محالة لَـمَا استعجلوا به، ولو يعلمون حين يَغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم:٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم؛ كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: تأتيهم النار بغتةً، أي: فجأةً.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تَذْعَرُهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حِيلة في ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يُؤخَّر عنهم ذلك ساعةً واحدةً.

الآية (٤١-٤٣): يقول تعالى مُسليًّا لرسوله عمّا آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءَتِه وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؟! أي: بَدَلَ الرَّحمن، بمعنى: غيره.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يُعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: أَلَهُم آلهةٌ تمنعهم وتَكْلَؤُهم غيرُنا؟! ليس الأمر كما تَوَهَّموا ولا كما زَعَموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: أي: يُجارون، وقال قتادة: لا يُصْحَبُون من الله بخير، وقال غيره: يُمْنَعون.

الآية (٤٤): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: إنما غَرَّهم وحَمَلَهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم مُتِّعُوا في الحياة الدنيا، ونُعِّمُوا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء.

ثم قال واعظًا لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، اختلف المفسرون في معناه، وأحسن ما فُسِّر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنَصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المُكَذِّبَة والقُرَى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون، الأخسرون الأرذلون.

الآية (٤٥-٤٧): وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ أي: إنَّما أنا مُبَلِّغ عن الله ما أُنْذِرَكُم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عمَّا أوحاه الله إليَّ، ولكن لا يُجدِي هذا عمَّن أعمى الله بصيرته، وختَمَ على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: ولئن مَسَّ هؤلاء المكذِّبين أدنى شيء من عذاب الله، ليَعْتَرِفُنَّ بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمي أنفسهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمِع باعتبار تَعَدُّد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [متفق عليه].

وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ يَستَخْلِص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فيَنْشر عليه تسعةً وتسعين سجلًّا، كل سِجِلٍّ مَدّ البصر، ثم يقول أتُنكر من هذا شيئًا؟ أظَلَمَتْك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفَلَكَ عُذْرٌ، أو حسنة؟» قال: «فَيُبْهَتُ الرجل فيقول: لا، يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً واحدةً، لا ظلم اليوم عليك. فَيُخْرِجُ له بطاقةً فيها: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله) فيقول: أَحضروه، فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول: إنك لا تُظْلَم»، قال: «فَتُوضَعُ السجلات في كِفَّة»، قال: «فطاشت السجلات وثَقُلَت البطاقة» قال: «ولا يَثْقُلُ شيء بسم الله الرحمن الرحيم» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

الآية (٤٨-٥٠): تقدَّم التنبيه على أن الله تعالى كثيرًا ما يَقْرِن بين ذكر موسى ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما- وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. قال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فَرَّق الله بين الحق والباطل. وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية مشتملة على التَّفْرِقَة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغيّ والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يُحَصِّل نورًا في القلوب، وهدايةً وخوفًا وإنابةً وخشيةً؛ ولهذا قال: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيرًا لهم وعِظَةً.

ثم وَصَفَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ كقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون.

ثم قال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن العظيم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟!

الآية (٥١-٥٦): يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه آتاه ﴿رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أي: من صِغَره أَلْهَمَهُ الحقَّ والحجةَ على قومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، والمقصود: أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رُشدَه، من قبل، أي: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكان أهلًا لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ هذا هو الرُّشْد الذي أُوتِيَه من صِغَره: الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾: لم يكن لهم حُجَّةٌ سوى صنيع آبائهم الضُّلَّال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتُم بصَنِيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلمَّا سَفَّه أحلامهم، وضَلَّلَ آباءهم، واحتقَر آلهتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبًا أو مُحِقًّا فيه؟ فإنَّا لم نسمع به قَبلَك!

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حَوَت من المخلوقات الذي ابتدأ خَلقَهن، وهو الخالق لجميع الأشياء.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا ربَّ سِواه.

الآية (٥٧): أَقْسَمَ الخليل قَسَمًا أَسْمَعَهُ بعضَ قومه: لَيَكِيدَنَّ أصنامهم، أي: لَيَحْرِصَنَّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يُوَلُّوا مدبرين.

الآية (٥٨-٦٣): قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي: حُطامًا، كَسَّرَها كلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: إلا الصَّنَم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣].

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وَضَعَ القَدُوم في يَدِ كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غَارَ لنفسه، وأَنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنام الصغار، فكَسَّرَها.

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في صنيعه هذا؟! ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: قال من سَمِعَه يَخْلِف أنه لَيَكِيدَنَّهُمْ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شابًّا ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ قال ابن عباس: ما بَعَثَ الله نبيًّا إلا شابًّا، ولا أُوتي العلم عالمٌ إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: على رءوس الأشهاد في الملإ الأكبر بحَضرَة الناس كلِّهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم: أن يَتبيَّنَ في هذا المَحْفِل العظيم كثرة جهلهم وقِلَّة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرًّا، ولا تملك لها نصرًا، فكيف يُطْلَب منها شيء من ذلك؟! ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ يعني: الذي تركه لم يَكْسِرْهُ، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يُبَادروا من تِلقَاء أنفسهم، فيَعتَرِفُوا أنهم لا ينطقون؛ فإن هذا لا يَصدُر عن هذا الصَّنَم لأنه جماد. وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يَكذِب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]» قال: «وبينا هو يسير في أرض جَبَّار من الجبابرة ومعه سارة، إذْ نَزَلَ منزلًا، فأتى الجَبَّارَ رجلٌ، فقال: إنه قد نَزَلَ بأرضك رجل معه امرأة أَحسَن الناس، فأرسلَ إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسلْ بها إليَّ، فانطلَق إلى سارة فقال: إن هذا الجبَّار سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تُكَذِّبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مُسْلِم غَيْرِي وغَيْرُك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يُصَلِّي. فلمَّا أن دَخَلَتْ عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها، فأُخِذَ أَخْذًا شديدًا، فقال: ادْعِي الله لي ولا أَضُرُّك، فدَعَتْ له فأُرْسِلَ، فأهوى إليها فتناولها فأُخِذَ بمثلها أو أَشَدّ. ففعل ذلك الثالثة فأُخِذَ، فذَكَرَ مثل المَرَّتَيْن الْأُولَيَيْن، فقال: ادْعِي الله فلا أَضُرُّك. فدَعَتْ له فأُرْسِلَ، ثم دعا أدنى حُجَّابه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أَخْرِجْها وأَعْطِها هَاجَرَ، فأُخرِجَت وأُعطِيَت هَاجَرَ، فأَقْبَلَت، فلمَّا أحسَّ إبراهيم بمجيئها انْفَتَلَ من صلاته، قال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيدَ الكافر الفاجر، وأَخْدَمَني هاجرَ» [متفق عليه].

الآية (٦٤-٦٧): يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في تَرْكِكم لها مهملةً لا حافظ عندها. ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أَدْرَكَت القَوْمَ حَيْرَةُ سُوءٍ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. وقال السدي: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي. وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرةً وعجزًا؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا: سَلُوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟! فعندها قال لهم إبراهيم لَـمَّا اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تَنْطِق، وهي لا تَضُرُّ ولا تنفع، فلِمَ تعبدونها من دون الله.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تَتَدَبَّرُون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يَرُوج إلا على جاهل ظالم فاجر؟! فأقام عليهم الحجة، وأَلْزَمَهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية [الأنعام:٨٣].

الآية (٦٨-٧٠): لَـمَّا دَحَضَت حُجَّتُهم، وبانَ عَجْزهم، وظَهَرَ الحقُّ، واندفع الباطل، عَدَلُوا إلى استعمال جاه مُلْكِهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

فلمَّا ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» كما رواه البخاري عن ابن عباس قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

قال الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عن علي بن أبي طالب: قال: «لا تَضُرِّيه». وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله ﷻ قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إبراهيم بَرْدُها.

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنَبِيِّ الله كيدًا، فكادهم الله ونجاه من النار، ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ [الأعراف:١١٩].

الآية (٧١-٧٢): يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم، أنه سَلَّمَه الله من نار قومه، وأَخْرَجَه من بين أظهُرهم مُهَاجرًا إلى بلاد الشام، إلى الأرض المُقَدَّسَة منها، كما قال أبيُّ بن كعب وأبو العالية.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء ومجاهد: «عَطِيَّة». وقال ابن عباس وقتادة والحَكَم بن عُيينة: النافلة ولد الولد؛ يعني: أن يعقوب ولدُ إسحاق؛ كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد: سأل واحدًا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق، وزاده يعقوب نافلةً. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح.

الآية (٧٣-٧٥): ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يُقْتَدَى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من باب عَطْف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: فاعلين لِمَا يأمرون الناس به. ثم عَطَف بذكر لوطٍ، كان قد آمن بإبراهيم، واتَّبَعَه، وهاجر معه، فآتاه الله حُكمًا وعِلمًا، وأوحى إليه وجعله نَبِيًّا، وبَعَثَه إلى سَدُومَ وأعمالها، فخالفوه وكَذَّبوه، فأهلَكَهم الله ودَمَّر عليهم، كما قصَّ خبرَهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الآية (٧٦-٧٧): يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دعا على قومه لَـمَّا كذَّبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لَبِثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يُؤمِن به منهم إلا القليل، وكانوا يَتَصَدَّون لأذاه، ويتواصون قَرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل على خلافه. ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ أي: ونجَّيناه وخلَّصناه منتصرًا، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلَكَهم الله بعامَّة، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ دعا عليهم نبيُّهم.

الآية (٧٨-٨١): قال ابن عباس: النَّفْشُ: الرعي. وقال شُرَيح والزهري وقتادة: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادة: والهَمْلُ بالنهار. وقال ابن جرير عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كَرْمٌ قد أَنْبَتَتْ عَنَاقِيدُه، فأَفْسَدَتْه. قال: فقَضَى داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكَرْم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكَرْم فيُصِيب منها حتى إذا كان الكَرْم كما كان دَفَعْتَ الكَرْم إلى صاحبه، ودَفَعْتَ الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال حميد: إن إياس بن معاوية لَـمَّا استُقضي أتاه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قَصَّ الله من نبأ داود وسليمان -عليهما السلام- والأنبياء حُكْمًا يردُّ قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يَذُمَّ داودَ. ثم قال -يعني الحسن-: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلًا، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:٤٤].

قلتُ: أما الأنبياء -عليهم السلام- فكلُّهم معصومون مُؤيَّدون من الله ﷻ. وهذا ممَّا لا خلاف فيه بين العلماء المُحَقِّقين من السَّلَف والخَلَف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو ابن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، فهذا الحديث يَرُدُّ نَصًّا ما تَوَهَّمَه «إياس» من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقَضَى به فهو في الجنة، ورجل حَكَم بين الناس على جَهل فهو في النار، ورجل عَلِمَ الحقَّ وقَضَى بخلافه، فهو في النار» [رواه أبو داود وابن ماجة، وصححه الألباني]. وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخَذَ أحد الابنين، فتَحَاكمتا إلى داود، فقَضَى به للكبرى، فخَرَجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أَشُقُّه بينهما، فقالت الصغرى: يَرحَمُك الله هو ابنها، لا تَشُقَّه، فقَضَى به للصغرى» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وذلك لطِيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرَنَّم به تَقِفُ الطير في الهواء، فتُجَاوِبُه، وتَرُدُّ عليه الجبال تأْوِيبًا؛ ولهذا لَـمَّا مَرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طَيِّب، فَوَقَفَ واستمع لقراءته، وقال: «لقد أُوْتِيَ هذا من مزامير آل داود». قال: يا رسول الله، لو عَلِمْتُ أنك تَسمَع لَـحَبَّرْتُهُ لك تَحْبِيرًا [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني صَنعَة الدروع. قال قتادة: إنَّما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أوَّل من سَرَدَها حِلَقًا. كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١٠-١١] أي: لا تُوَسِّع الحَلْقَة فَتُقْلِقَ المسمار، ولا تُغْلِظِ المسمار فتَقُدَّ الحَلْقة؛ ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: نِعَمَ الله عليكم، لِـمَا أَلْـهَمَ به عبده داود، فعلَّمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وَسَخَّرْنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

الآية (٨٢): ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: في الماء يستخرجون اللآلئ وغير ذلك. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ذلك. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾[1] أي: يَحْرُسه الله أن يَنَاله أحد من الشياطين بسُوء، بل كلٌّ في قبضته وتحت قَهْره لا يَتَجَاسَر أحدٌ منهم على الدُّنُوِّ إليه والقُرْب منه، بل هو مُحَكَّم فيهم، إن شاء أَطْلَق، وإن شاء حَبَسَ منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٨].

الآية (٨٣-٨٤): يذكر تعالى عن أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجَسَدِه؛ وذلك أنه كان له من الدَّوَاب والأنعام والحَرْث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مَرْضيَّة. فَابْتُلِيَ في ذلك كله، وذَهَب عن آخره، ثم ابْتُلِيَ في جسده -يُقَال- بالجذام في سائر بدنه، ولم يبقَ منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله ﷻ، حتى عَافَه الجليس، وأُفْرِدَ في ناحية من البلد، ولم يَبْقَ من الناس أحد يَحْنُو عليه سوى زوجته؛ كانت تَقوم بأَمْره، ويُقَال: إنها احتاجت فصارت تَخْدُم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أَشَدُّ الناس بَلَاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]، وفي الحديث الآخر: «يُبْتَلَى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيْدَ في بلائه» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]. وقد كان نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ غايةً في الصبر، وبه يُضرَب المثل في ذلك.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال: رُدُّوا عليه بأَعيَانِهم. ورُوي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة. ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعلنا به ذلك رحمةً من الله به.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوةً، لئلا يَظُنَّ أهل البلاء أنَّا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسَّوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

الآية (٨٥-٨٦): إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تقدَّم ذِكْره، وكذلك إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وأما ذو الكِفْل فالظاهر من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبيٌّ. وقال آخرون: إنما كان رجلًا صالحًا، وكان مَلِكًا عادلًا، وحَكَمًا مُقسِطًا، وتوقَّف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

عن مجاهد قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي: ذا الكفل.

الآية (٨٧-٨٨): يونس بن مَتَّى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَعَثَه الله إلى أهل قرية «نِينَوى»، وهي قرية من أرض الـمَوْصِل، فدَعَاهم إلى الله، فأَبَوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخَرَجَ من بين أظهرهم مُغَاضِبًا لهم، ووَعَدَهم بالعذاب بعد ثلاث. فلمَّا تحققوا منه ذلك، وعَلِموا أن النبي لا يَكذِب، خَرَجُوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفَرَّقُوا بين الأمهات وأولادها، ثم تَضَرَّعوا إلى الله ﷻ، وجَأَرُوا إليه، ورَغَتْ الإبل وَفُصْلَانُهَا، وخَارَت البَقَر وأَوْلَادها، وثَغَتْ الغَنَم وحُمْلانها، فرَفَعَ الله عنهم العذاب؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]. وأما يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنه ذَهَبَ فرَكِبَ مع قوم في سفينة فَلَجَّجَت بهم، وخافوا أن يَغرَقُوا. فاقْتَرَعُوا على رجل يُلقُونَه من بينهم يَتَخَفَّفون منه، فوَقَعَت الْقُرْعَة على يونس، فأبوا أن يُلْقُوه، ثم أعادوا الْقُرْعَة فوَقَعَت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوَقَعَت عليه أيضًا، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١]، أي: وَقَعَت عليه الْقُرْعَة، فقام يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتَجَرَّد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أَرسَلَ الله، سبحانه حُوتًا فالتقم يونس حين أَلقَى نفسه من السفينة، فأَوحَى الله إلى ذلك الحوت أَلَّا تأكل له لحمًا، ولا تَهشِمَ له عَظمًا؛ فإن يونس ليس لك رِزْقًا، وإنما بَطْنُكَ تكون له سِجْنًا.

وقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحَّت الإضافة إليه بهذه النسبة، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نُضَيِّقَ عليه في بطن الحوت. يُروَى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]. وقال عطية العَوفي: نَقْضِيَ عليه؛ كأنه جَعَل ذلك بمعنى التقدير؛ فإن العرب تقول: قدَر وقَدَّر بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، أي: قُدِّر. ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظُلمَة بطن الحوت، وظُلمَة البحر، وظُلمَة الليل. وكذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير والحسن وقتادة. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: أَخرَجْناه من بَطْن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء؛ فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء ﷺ قال: «دعوةُ ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يَدْعُ بها مسلم ربَّه في شيء قَطُّ إلا استجاب له» [رواه أحمد والترمذي والنسائي في الكبرى، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٨٩-٩٠): يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يَهَبَهُ الله ولدًا يكون من بعده نبيًّا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: خُفيةً عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: لا وَلَدَ لي ولا وَارِثَ يقوم بعدي في الناس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ دعاءٌ وثناءٌ مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: امرأته. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَير: كانت عاقرًا لا تَلِدُ، فوَلَدَت.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عَمَل القُرُبات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، ﴿وَرَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال ابن عباس: أي مُصَدِّقين بما أَنزَلَ الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سِنَان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يُفارقه أبدًا. وقال الحسن وقتادة والضحاك: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: مُتَذَلِّلين لله ﷻ. وكل هذه الأقوال متقاربة.

---

(١) قال الطبري: «وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين»، وقال الزجاج: «معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا». [ينظر تفسير الآية عند ابن جرير والبغوي].

الآية (٩١): هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مقرونةً بقصَّة زكريا وابنه يحيى -عليهما السلام- فيَذكُر أولًا قصة زكريا، ثم يُتْبِعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد وَلَد من شيخ كبير قد طَعَن في السِّن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تَلِد في حال شبابها، ثم يَذْكُر قصة مريم وهي أعجَب؛ فإنها إيجاد وَلَدٍ من أنثى بلا ذَكَر. ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يعني: مريم -عليها السلام- كما قال: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: دلالةً على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١].

الآية (٩٢-٩٤): قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وابن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يقول: دينكم دينٌ واحد. وقال الحسن البصري: بَيَّنَ لهم ما يَتَّقُون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: سُنَّتكم سنةٌ واحدةٌ. أي: هذه شريعتكم التي بُيِّنَت لكم وَوُضِّحَت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ نصب على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد» [متفق عليه]، يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨]. وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها؛ فمن بين مُصَدِّق لهم ومُكَذِّب؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيُجَازَى كلٌّ بحسب عمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: قلبه مُصَدِّق، وعَمِل عَمَلًا صالحًا ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلٗا﴾ [الكهف:٣٠] أي: لا يُكْفَر سَعيُه، وهو عمله، بل يُشْكَر، فلا يُظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: يُكتب جميعُ عمله، فلا يَضيع عليه منه شيء.

الآية (٩٥-٩٧): ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ قال ابن عباس: وَجَبَ، يعني: قَدَرًا مُقَدَّرًا أن أهل كل قرية أُهْلِكُوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صَرَّح به ابن عباس وقتادة وغير واحد.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ [وهم] من سلالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هم من نَسْل نوح أيضًا، تُركوا من وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ [الكهف:٩٨].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ أي: يُسْرِعُون في المشي إلى الفساد. والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم؛ كأنَّ السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية [منها] حديث النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله: «.. فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله ﷻ إلى عيسى ابن مريم: أني قد أخرجت عبادًا من عبادي لا يَدَانِ[1] لكَ بقتالهم، فَحَوِّز[2] عبادي إلى الطور، فيَبعَث الله ﷻ يأجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾، فيَرْغَب عيسى وأصحابه إلى الله ﷻ، فيرسل الله عليهم نَغَفًا في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة. فيَهْبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتًا إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهُم، فيَرْغَب عيسى وأصحابه إلى الله، فيُرْسِل عليهم طيرًا كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» انفرد بإخراجه مسلم]. وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُحَجَّنَّ هذا البيت، ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج» [انفرد بإخراجه البخاري].

وقوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة، إذا حَصَلَت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أَزِفَت الساعة واقتربت، فإذا كانت وَوَقَعت قال الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر:٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: من شدَّة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: في الدنيا، ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

الآية (٩٨-١٠١): يقول تعالى مخاطبًا لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي وقودها؛ يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حَطَبُها. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يُرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحةً لَمَا وَرَدوا النار، ولَمَا دخلوها، ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون. ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ كما قال: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٞ﴾ [هود:١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ لَمَّا ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عَطَفَ بذِكْر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله، وهم الذين سَبَقَت لهم من الله السعادة، وأَسلَفُوا الأعمال الصالحة في الدنيا؛ كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجَّاهم من العذاب، وحَصَل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

---

(١) الْعَرَبُ تَقُولُ: مَا لِي بِهِ يَدٌ أَي مَا لِي بِهِ قُوَّة، وَمَا لِي بِهِ يَدانِ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ أَيْدٍ أَي قُوَّةٌ. [لسان العرب، مادة (يدد)].

(٢) «فَحَوِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ»: أَيْ ضُمَّهُمْ إِلَيْهِ. [النهاية في غريب الحديث والأثر] وفي نسخة لصحيح مسلم: (فَحَرِّزْ) بِالرَّاءِ.

الآية (١٠٢-١٠٣): ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد. ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فسَلَّمَهم من المحذور والمرهوب، وحَصَل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك ممَّا يعبد من دون الله ﷻ. وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج. وقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصُّوْر. وقيل: حين يُذبَح الموت بين الجنة والنار. ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة، تُبَشِّرُهم يوم معادهم إذا خَرَجُوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: قابلوا ما يَسُرُّكُم.

الآية (١٠٤): يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، وروى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يَقبِضُ يوم القيامة الأرضَين، وتكون السموات بيمينه».

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قيل: المراد بالسِّجِل: الكتاب. وقيل: مَلَك من الملائكة.

والصحيح عن ابن عباس أن السِّجِل هي الصحيفة، ونَصَّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ يعني: هذا كائن لا محالةَ، يوم يُعِيد الله الخلائق خَلْقًا جديدًا، كما بَدَأَهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع؛ لأنه من جملة وَعْدِ الله الذي لا يُخْلَفُ ولا يُبَدَّلُ، وهو القادر على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وعن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله ﷻ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» [متفق عليه].

الآية (١٠٥-١٠٧): يقول تعالى مُخْبِرًا عمَّا حَتَّمَه وقَضَاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة. وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جُبَير: الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن. وقال ابن عباس وقتادة وغير واحد: الزبور: الذي أُنْزِل على داود، والذِّكْر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكُتُبُ بعد الذِّكر، والذِّكر: أُمُّ الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله. وقال ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض: أن يُوَرِّثَ أُمَّةَ محمد ﷺ الأرض ويُدْخِلَهم الجنة، وهم الصالحون. وعن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جُبَير والشعبي وقتادة وغيرهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ ﴿لَبَلَاغًا﴾: لَمَنْفعةً وكفاية ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وهم الذين عبدوا الله بما شَرَعَه وأَحَبَّه ورَضِيَه، وآثروا طاعةَ الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يُخبِر تعالى أن الله جَعَل محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، أي: أرسله رحمةً لهم كلِّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشَكَر هذه النعمةَ سعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجَحَدَها خَسِر في الدنيا والآخرة، وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادعُ على المشركين، قال: «إني لم أُبعَثْ لَعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رحمةً» انفرد بإخراجه مسلم. فإن قِيلَ: فأيُّ رحمةٍ حَصَلَت لمن كَفَر به؟ فالجواب: عن ابن عباس قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتِبَ له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِي ممَّا أصاب الأمم من الخَسْفَ والقَذْف.

الآية (١٠٨-١١٢): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُتَّبِعُونَ على ذلك، مستسلمون مُنقادون له.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تَركوا ما دَعَوْتَهم إليه ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أَعلَمْتُكم أني حَرْب لكم، كما أنكم حَرْبٌ لي، بَرِيءٌ منكم كما أنكم بُرَآءُ مني. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا عِلْمَ لي بقُرْبِه ولا ببُعْدِه ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يَعلَم الغيب جَمِيعَه، ويَعلَم ما يُظْهِرُه العباد وما يُسِرُّون؛ يَعلَم الظواهر والضمائر، ويَعلَم السِّرَّ وأخفى، ويَعلَم ما العباد عاملون في أَجْهَارِهِم وأَسْرَارِهِم، وسَيَجْزِيهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنةٌ لكم، ومتاعٌ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى. وحكاه عون عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: افْصِل بيننا وبين قومنا المُكَذِّبين بالحَقِّ. قال قتادة: كان الأنبياء -عليهم السلام- يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩]، وأُمِر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج

[مدنية، وآياتها (٧٨) آيةً].

الآية (١-٢): يقول تعالى آمرًا عباده بتقواه، ومخبرًا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزَلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسِّرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نُشُورهم إلى عَرصَات القيامة، أو ذلك عِبارة عن زَلزَلة الأرض قبل قيام الناس من أَجداثهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:١-٢]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عُمُر الدنيا، وأوَّل أحوال الساعة. وعن عَلْقَمَة قال: قبل الساعة. وقال الشعبي: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

[فـ] هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأُضِيفَت إلى الساعة لقُرْبها منها، كما يُقال: أشراط الساعة ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هَولٌ وفَزَع وَزِلْزَال وبِلْبَال كائن يوم القيامة في العَرَصَات، بعد القيامة من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتَجُّوا بأحاديث [منها حديث] أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم! فيقول: لبَّيْك ربَّنا وسَعْدَيْك. فيُنادي بصوت: إن الله يأمرك أن تُخْرِجَ من ذرِّيَّتك بَعثًا إلى النار. قال: يا رب، وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويَشيب الوليد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾..» [متفق عليه]. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر كبير، وخَطْب جليل، وطارق مُفْظِعٌ، وحادث هَائل، وكائن عَجِيب. والزلزال: هو ما يَحصُلُ للنفوس من الفَزَع والرُّعْب.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مُفَسِّرًا له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تَشتَغِل -لِـهَوْل ما تَرَى- عن أَحبِّ الناس إليها، والتي هي أَشْفَق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مُرضِع»، وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لِشدَّة الهول، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: من شِدَّة الأمر الذي صاروا فيه قد دَهِشَتْ عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حَسِبَ أنهم سُكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

الآية (٣-٤): يقول تعالى ذامًّا مَن كَذَّب بالبعث، وأَنكَر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعْرِضًا عمَّا أَنزَل الله على أنبيائه، مُتَّبِعًا في قوله وإنكاره وكفره كلَّ شيطان مَريد من الإنس والجنِّ، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المُتَّبِعين للباطل؛ يتركون ما أَنزَله الله على رسوله من الحقِّ المبين، ويتَّبِعُون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: عِلْم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كُتِبَ عليه كتابةً قدريةً ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتَّبَعَه وقَلَّدَه، ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يُضِلُّه في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحارُّ المُؤْلِمُ المُزْعِجُ المُقْلِق.

الآية (٥): لَـمَّا ذَكَر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذَكَر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يُشاهَد من بَدْئِه للخلق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي: في شَكٍّ ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصل بَرْئِه لكم من تراب، وهو الذي خُلِق منه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم جَعَلَ نَسلَه من سلالة من ماء مَهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾؛ ذلك أنه إذا استقرَّت النطفة في رَحِم المرأة مَكَثَت أربعين يومًا كذلك، يُضَاف إليه ما يَجتَمع إليها، ثم تَنقَلِب علقةً حمراء بإذن الله، فتَمْكُث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغةً -قطعةً من لَـحْم لا شَكْلَ فيها ولا تخطيط- ثم يَشرَع في التشكيل والتخطيط، فيُصَوَّر منها رأس ويَدَان، وصَدْر وبَطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتَارَة تُسقِطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارةً تُلقِيها وقد صارت ذات شَكْل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارةً تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تُسقِطها؛ عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادق المصدوق-: «إن خَلْق أحدكم يُجمَع في بطن أمه أربعين ليلةً، ثم يكون عَلقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغةً مثل ذلك، ثم يَبعَث الله إليه المَلَك فيُؤمَر بأربع كلمات: بكَتْب عمله وأجله ورزقه، وشَقيّ أو سعيد، ثم يُنْفَخُ فيه الروح» [متفق عليه]. وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ضعيفًا في بَدَنه، وسمعه وبَصَره وحوَاسه، وبَطشِه وعَقْلِه. ثم يُعطِيه الله القوة شيئًا فشيئًا، ويَلطُف به، ويُحْنِن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: يَتكامل القُوَى ويتزايد، ويَصِل إلى عُنْفُوَان الشباب وحُسْن المنظر، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والـهَرَم وضعف القوة والعقل والفَهْم، وتناقص الأحوال من الـخَرَف وضَعْف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يُحْيِي الأرض الميتة الهامدة، وهي القَحْلَة التي لا نَبْتَ فيها ولا شيء، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكت وحَيِيَتْ بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لَـمَّا سَكَن فيها الثرَى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: حَسَن المنظر طَيِّب الريح.

الآية (٦-٧): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الخالق المُدَبِّرُ الفَعَّالُ لِمَا يشاء، ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبتَ منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فـ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مِريَة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يُعِيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رِمَمًا، ويُوجِدهم بعد العدم.

الآية (٨-١٠): لَـمَّا ذكر تعالى حال الضُّلَّال الجُهَّال المُقَلِّدين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣]، ذَكَر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبِدَع، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: بلا عَقْل صحيح، ولا نَقْل صحيح صريح، بل بمجرَّد الرأي والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبرًا عن الحق إذا دُعِيَ إليه، وقال مجاهد وقتادة: لَاوِيَ عُنُقِه، وهي رَقَبَته، يعني: يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إليه من الحقِّ، ويَثْنِي رقَبَته استكبارًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان:١٨] أي: تُمِيلْهُ عنهم استكبارًا عليهم. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يَقْصِد ذلك، ويُحتَمَل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جَبَلْناه على هذا الخُلُق الذي يجعله ممن يُضِلُّ عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذلُّ، كما أنه لَـمَّا استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المَذَلَّةَ في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمِّه ومَبلَغ عِلمه، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يُقَال له هذا تقريعًا وتوبيخًا، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

الآية (١١-١٣): قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شَكٍّ، وقال غيرهم: على طَرَف. ومنه حَرْف الجَبَل، أي: طَرَفه؛ أي: دَخَل في الدين على طَرَف، فإن وَجَدَ ما يُحِبُّه استقرَّ، وإلا انْشَمَرَ.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيُسْلِمون، فإذا رَجعوا إلى بلادهم، فإن وَجدوا عام غَيث وعام خِصْب وعام وَلَادٍ حَسَن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمَسَّكُوا به»، وإن وجدوا عام جُدوبة وعام وَلَاد سَوء وعام قَحْط، قالوا: «ما في ديننا هذا خير» فأنزل الله على نبيِّه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جُريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية [رواه البخاري بنحوه].

وقال عبد الرحمن بن زيد: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فَسَدَت عليه دنياه وتَغَيَّرت، انقلبَ فلا يُقيم على العبادة إلا لِمَا صَلُحَ من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شِدَّة أو اختبار أو ضِيق، تَرَك دينه ورَجَع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتد كافرًا. وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: فلا هو حَصَل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كَفَر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي: من الأصنام والأنداد؛ يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضرُّه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: ضَرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضَرَره مُحقَّق مُتيَقَّن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ قال مجاهد: يعني الوَثَن، يعني: بئس هذا الذي دعا به من دون الله مولًى، يعني: وليًّا وناصرًا.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يَعبُد الله على حَرْف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]. وقول مجاهد: إن المراد به الوَثَن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

الآية (١٤): لَـمَّا ذَكَر أهل الضلالة الأشقياء، عَطَف بذِكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصَدَّقوا إيمانَهم بأفعالهم، فعَمِلُوا الصالحات من جميع أنواع القُربات، وتركوا المنكرات، فأورَثَهم ذلك سُكنَى الدرجات العاليات، في روضات الجنات. ولَـمَّا ذَكَر أنه أضَلَّ أولئك وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

الآية (١٥): قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر اللهُ محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحَبْل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم لِيَخْتَنِقْ به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ليَتوصَّل إلى بلوغ السماء؛ فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قَدَر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أَولى وأَظهَر في المعنى، وأَبلَغ في التَّهَكُّم؛ فإن المعنى: من ظَنَّ أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليَذهَب فليَقتُل نفسه، إن كان ذلك غائظَهُ، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ قال السُّدي: يعني: مِنْ شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يَشْفِي ذلك ما يَجِدُ في صدره من الغيظ.

الآية (١٦): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي: يُضِلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التَّامَّة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا مُعَقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

الآية (١٧): يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين -وقد قدَّمنا في سورة «البقرة»[1] التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم- والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيُدْخِل من آمن به الجنَّةَ، ومن كَفَر به النارَ؛ فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حَفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِنُّ ضمائرهم.

الآية (١٨): يخبر تعالى أنه الْـمُسْتَحِقُّ للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طَوعًا وكَرهًا، وسجود كل شيء ممَّا يختصُّ به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨]. وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾: إنما ذَكَر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدَت من دون الله، فبيَّنَ أنها تَسجُد لخالقها، وأنها مربوبة مسخَّرة، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]. وفي الصحيحين عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيُوشِك أن يُقَال لها: ارجعي من حيث جِئت». وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشَّجَر فسجودهما بفَيء ظِلَالها عن اليمين والشمائل. ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أي: الحيوانات كلها. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طَوعًا مختارًا متعبدًا بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ممَّن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا وَيْلَه. أُمِرَ ابن آدم بالسجود فَسَجَد، فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ، فلي النار» [رواه مسلم].

الآية (١٩-٢٢): [سبب النزول]: في الصحيحين عن أبي ذر؛ أنه كان يُقسِم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نَزَلَت في حمزة وصاحِبَيه، وعُتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في بدر، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليّ وحمزة وعُبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد بإخراجه البخاري. وعن قتادة: مصدق ومكذب. وقال مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون. وقولُهما يشمل الأقوال كلها، ويَنتَظِم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فُصِّلَت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشدُّ الأشياء حرارةً إذا حَمِيَ.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: إذا صُبَّ على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار في غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: هو النحاس الـمُذَاب، أذاب ما في بطونهم من الشَّحْم والأمعاء. قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم.

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ وقال ابن عباس: يُضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فَيَدْعُون بالثُّبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة، لا يُضِيء لَـهَبُها ولا جَمْرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾. وقال الفُضيل ابن عياض: والله ما طَمِعُوا في الخروج، إن الأرجل لَـمُقَيَّدة، وإن الأيدي لَـمُوثَقَة، ولكن يَرفَعُهم لَـهَبُها، وتَرُدُّهم مَقَامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يُهَانُونَ بالعذاب قولًا وفعلًا.

الآية (٢٣): لَـمَّا أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذًا بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أُعِدَّ لهم من الثياب من النار، ذَكَرَ حال أهل الجنة -نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة- فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تتخَرَّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقُصُورها، يُصَرِّفُونها حيث شاؤوا وأين أرادوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: في أيديهم، كما قال النبي ﷺ: «تَبلُغُ الحِلْيَة من المؤمن حيث يَبْلُغ الوُضُوء» [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فُصِّلَت لهم، لباسُ هؤلاء من الحرير، إِسْتَبْرَقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١].

---

(١) صفحة: ١٠.

الآية (٢٤): ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فَهُدُوا إلى المكان الذي يَسمَعُون فيه الكلام الطَّيِّب، لا كما يُهَان أهل النار بالكلام الذي يُرَوَّعون به ويُقَرَّعون به. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الذي يَحمَدُون فيه ربهم، على ما أَحسَن إليهم وأَنعَم به وأسداه إليهم، «يُلْهَمون التسبيح والتحميد، كما يُلْهَمون النَّفَسَ» [رواه مسلم]. وقيل: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة. ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا يُنافي ما ذكرناه، والله أعلم.

الآية (٢٥): يقول تعالى منكرًا على الكفار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ويَصُدُّون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر.

﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ شرعًا ﴿سَوَآءً﴾ لا فَرقَ فيه بين الـمُقِيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسُكنَاها، قال ابن عباس: يَنزِل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد. وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله. ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ أي: عامدًا قاصدًا أنه ظُلْمٌ، ليس بِمُتَأَوَّل. قال ابن عباس: ﴿بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ بشِرْك، وقال مجاهد: أن يَعبُدَ فيه غير الله. وكذا قال غير واحد.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرا أبابيل وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء.

الآية (٢٦-٢٧): ذَكَر تعالى أنه بَوَّأ لإبراهيم مكانَ البيت، أي: أرشده إليه، وسلَّمه له، وأَذِن له في بنائه. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى﴾ أي: ابْنِه على اسمي وحدي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك، ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: في الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقَرَن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يُشرَعَان إلا مُختَصَّيْن بالبيت.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ذُكِر أنه قال: يا ربِّ، وكيف أُبَلِّغ الناس وصوتي لا يَنفُذُهم؟ فقيل: نادِ، وعلينا البلاغ. فبَلَغَ الصوت أرجاء الأرض، وأسمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حَجَر ومَدَر وشَجَر، ومن كَتَبَ الله أنه يَحُجُّ إلى يوم القيامة: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ». هذا مضمون ما روي عن ابن عباس وغير واحد من السلف، والله أعلم. وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية، قد يَستدلّ بهذه الآية من ذَهَب من العلماء إلى أن الحجَّ ماشيًا -لمن قَدَر عليه- أفضلُ من الحجِّ راكبًا، والأكثرون على أن الحج راكبًا أفضل؛ اقتداءً برسول الله ﷺ؛ فإنه حَجَّ راكبًا مع كمال قوته. ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعني: طريق، ﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد. قاله مجاهد وعطاء وغير واحد.

الآية (٢٨-٢٩): ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال ابن عباس: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يُصِيبون من منافع البُدْن والذبائح والتجارات. وكذا قال مجاهد وغير واحد. ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير، وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل. والعشر مشتمل على يوم عرفة؛ سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية» [رواه مسلم]، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد وَرَد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله. [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني]. [وقيل] في الأيام المعلومات [غير ذلك]. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم. ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ استَدَلَّ بهذه الآية من ذَهَب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب. وقال مجاهد: في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢] وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ الـمُتَعَفِّف. وقال مجاهد: هو الذي لا يَبسُطُ يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هو وَضْعُ الإحرام من حَلْق الرأس ولُبْس الثياب وقَصِّ الأظفار ونحو ذلك. وقال عكرمة عن ابن عباس: التَّفَث: المناسك. ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: نَحْر ما نَذَرَ من أمر البُدن. وقال مجاهد: نَذْر الحج والهدي وما نَذَر الإنسان من شيء يكون في الحج. وقال عكرمة: حَجَّهم. ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر. قلتُ: وهكذا صَنَع رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس قال: أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأة الحائض [متفق عليه]. ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قال خَصِيف: إنما سُمِّي البيت العتيق لأنه لم يَظهَر عليه جبَّار قطُّ. وقال مجاهد: أُعْتِقَ من الجبابرة أن يُسَلَّطُوا عليه.

الآية (٣٠): ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يَجتَنِب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فَلَه على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكَما على فِعْل الطاعات ثواب كثير وأجر كبير، كذلك على تَرْك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مكة والحج والعمرة، وما نَهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: أحللنا لكم جميع الأنعام ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم: ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ الآية [المائدة:٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقَرَن الشرك بالله بقول الزُّور، ومنه شهادة الزُّور.

الآية (٣١): ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قَصْدًا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ ثم ضَرَب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه وبُعدِه عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سَقَط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مُهلِك لمن هوى فيه.

الآية (٣٢-٣٣): ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدْن، كما قال ابن عباس: تعظيمها: اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا. وقال أبو أمامة ابن سهل: كنا نُسَمِّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون [رواه البخاري]. وقال ابن عباس: البُدْن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت. قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ أي: لكم في البُدْن منافع، من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس: ما لم يُسَمَّ بُدْنًا. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها، وإن كانت هَدْيًا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا أُلجئتَ إليها» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: مَحِل الـهَدْي وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة؛ كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥].

الآية (٣٤-٣٥): يُخبر تعالى أنه لم يَزَل ذَبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل. قال ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيدًا. وقال عكرمة: ذبحًا. ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بكبشين أَمْلَحَيْن أَقْرَنَيْن، فسَمَّى وكَبَّر، ووَضَع رِجْله على صِفَاحِهما. ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضًا؛ فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: الـمُطْمَئِنِّين، وقال الضحاك وقتادة: الـمُتَوَاضِعِين. وقال السُّدي: الوَجِلين. وأحسن ما يُفَسَّر بما بعده، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: من المصائب، ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الـمُؤَدِّين حَقَّ الله فيما أَوجَب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طَيِّب الرزق على أَهلِيهم وأَرِقَّائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويُحسِنون إلى خَلْق الله مع محافظتهم على حدود الله.

الآية (٣٦): ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ قال عطاء: البقرة والبعير. وكذا رُوي عن ابن عمر وابن المسيب والحسن. وقال مجاهد: إنما البُدْن من الإبل. قلت: أما إطلاق البَدَنة على البعير فمُتَّفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البَدَنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يُطلَق عليها ذلك، ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثَبَتَ به الحديث من رواية جابر قال: أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ في الأضاحي، البَدَنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة [رواه مسلم].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: ثواب في الدار الآخرة. وقال مجاهد: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: يركبها ويَحلِبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عن جابر قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلمَّا انصرف أُتِيَ بكَبش فذَبَحَه، فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنّي، وعمن لم يُضَحِّ من أمتي» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ﴿صَوَآفَّ﴾ قال ابن عباس: قيامًا على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى. وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: ابعَثْها قيامًا مقيدةً؛ سنةُ أبي القاسم ﷺ. وقال ابن مسعود: «صَوافِن»، أي: مُعقَّلة قيامًا. وقال مجاهد: مَن قرأها «صَوافن» قال: معقولة. ومن قرأها: ﴿صَوَآفَّ﴾ قال: تَصُفُّ بين يديها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال مجاهد: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل. وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني: ماتت. وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد؛ فإنه لا يجوز الأكل من البُدْن إذا نُحِرَت حتى تموت وتَبْرُدُ حركتها. وفي الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قَتَلتُم فأَحْسِنوا القِتْلة، وإذا ذَبَحتم فأحسنوا الذبح، ولْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته» [رواه مسلم]. وعن أبي واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهي حية، فهو ميتة» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ اختلف في المراد، فقال ابن عباس: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: المتعفف، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: السائل. وهذا قولُ قتادة وإبراهيم النَّخَعي. [وقيل غير ذلك]، واختار ابنُ جرير أنّ ﴿ٱلْقَانِعَ﴾: هو السائل؛ لأنه مِنْ أَقْنَع بيده إذا رَفَعَها للسُّؤال، و﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ من الاعترار، وهو: الذي يتعرض لأكل اللحم. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَـٰهَا﴾ أي: ذَلَّلْناها ﴿لَكُمْ﴾ أي: جعلناها مُنقَادةً لكم خَاضِعَة، إن شئتم رَكِبتُم، وإن شِئتُم حَلَبْتُم، وإن شِئتُم ذَبَحْتُم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الآية (٣٧): ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: من أجل ذلك سَخَّر لكم البُدْن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: لتُعظِّموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، وما يرضاه، ونهاكم عن فِعْل ما يَكرَهُه ويأباه. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عملهم، القائمين بحدود الله، الْـمُتَّبِعِينَ ما شرَعَ لهم، الـمُصَدِّقِين الرسولَ فيما أبلَغَهم وجاءهم به من عند ربه ﷻ.

الآية (٣٨): يخبر تعالى أنه يَدْفع عن عباده الذين توكَّلوا عليه وأنابوا إليه شرَّ الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي: لا يحب من عباده من اتَّصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الـجَحد لِلنِّعم، فلا يَعتَرِف بها.

الآية (٣٩-٤٠): [سبب النزول]: قال ابن عباس: نَزَلت في محمد وأصحابه حين أُخْرِجوا من مكة. وقال غير واحد من السلف - كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم-: هذه أول آية نَزَلَت في الجهاد. وعن ابن عباس قال: لَـمَّا أُخْرِج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أَخْرَجوا نَبيَّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ. قال ابن عباس: فأَنزَل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فعَرَفْتُ أنه سيكون قتال [رواه أحمد والترمذي وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نَصْر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يُبْلُوا جَهْدَهم في طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد فَعَل. وإنما شَرَع الله تعالى الجهادَ في الوقت الأليق به؛ لأنهم لَـمَّا كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أَمرَ المسلمين -وهم أقلُّ من العُشر- بقتال الباقين لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لَـمَّا بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نَيِّفًا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألَا نَميل على أهل الوادي -يَعْنُون أهل مِنى- فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ «إني لم أُومَرْ بهذا». فلمَّا بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهَمُّوا بقتله، وشَرَّدُوا أصحابه شَذرَ مَذَر، فذَهَب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلمَّا استقرُّوا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعْقِلًا يلجؤون إليه شَرَع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أوَّلَ ما نَزَل في ذلك. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال ابن عباس: أُخْرِجوا من مكة إلى المدينة بغير حقٍّ، يعني: محمدًا وأصحابه. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه يَدْفَع عن قوم بقوم، ويَكشِفُ شَرَّ أناس عن غيرهم بما يَخلُقه ويُقَدِّرُه من الأسباب، لفَسَدَت الأرض، وأَهْلَكَ القويُّ الضعيفَ. ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمة وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حَيَّان: هي البيوت التي على الطرق. ﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي أَوسَع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضًا، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وغيرهم. وحكي عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صلوات. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطُّرُق. وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يُذكر فيها اسم الله كثيرًا. وقال ابن جرير: الصوابُ: لُهُدِّمَتْ صوامع الرهبان وبِيَعُ النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذكَر فيها اسم الله كثيرًا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَف نفسه بالقوة والعِزَّة، فبِقُوَّته خَلَق كلَّ شيء فَقَدَّره تقديرًا، وَبِعِزَّته لا يَقْهَرُه قاهر، ولا يَغلِبُه غالب، بل كلُّ شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القويُّ العزيز ناصِرَه فهو المنصور، وعَدُوُّه هو المقهور؛ قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

الآية (٤١): قال عثمان بن عفان: فينا نَزَلَت: أُخْرِجْنا من ديارنا بغير حقٍّ إلا أن قلنا: «ربُّنا الله»، ثم مُكِّنَّا في الأرض، فأَقَمْنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأَمَرْنا بالمعروف، ونَهيْنا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

الآية (٤٢-٤٦): يقول تعالى مسليًا نبيَّه محمدًا ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: أَنْظَرْتُهم وأَخَّرْتُهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟! وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتُها، ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مُكَذِّبَة لرسولها، ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سُقُوفها، أي: قد خَرِبَت منازلها وتَعَطَّلَت حواضرها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي: لا يُسْتَقَى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها، ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة: المُبَيَّض بالْجِصِّ. وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المَلِيح والضحاك نحو ذلك، وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكلُّ هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها؛ فإنه لم يَحْمِ أهله شدةُ بنائه ولا ارتفاعُه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضًا، وذلك كافٍ، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة؛ فإنها لا تنفذ إلى العِبَر، ولا تدري ما الـخَبَر.

الآية (٤٧-٤٨): يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المُكَذِّبُون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي قد وَعَد من: إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يَعجَل؛ فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجَّلَ وأَنْظَر وأَمْلَى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم؛ خمسمائة عام» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (٤٩-٥١): يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طَلَب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إليَّ من حسابكم من شيء، أَمْرُكم إلى الله، إن شاء عَجَّلَ لكم العذاب، وإن شاء أَخَّرَه عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أَضَلَّ من كَتَبَ عليه الشقاوة، وهو الفَعَّال لِمَا يشاء ويريد ويختار، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرةٌ لِمَا سَلَف من سيئاتهم، ومُجازاةٌ حَسَنةٌ على القليل من حسناتهم، قال محمد بن كعب: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارَّة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

الآية (٥٢-٥٤): قد ذَكَر كثير من المفسِّرين ههنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرَها مسندةً من وجه صحيح، والله أعلم. وقد ساقها البغوي ثم سأل: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟

ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ هذا فيه تسليةٌ له صلوات الله وسلامه عليه؛ أي: لا يَهيدنّك ذلك؛ فقد أصاب مثل هذا مَن قبلَك من المرسلين والأنبياء. قال ابن عباس: ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إذا حَدَّث أَلقَى الشيطان في حديثه، فيُبْطِلُ الله ما يُلْقِي الشيطان، ويُحكِم الله آياته. وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قال. وقال الضحاك: إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: حقيقة النَّسْخ لغةً: الإزالة والرَّفْع. قال ابن عباس: أي فيُبْطِل الله سبحانه وتعالى ما أَلْقَى الشيطان. وقال الضحاك: نَسَخَ جبريل بأَمْر الله ما ألقى الشيطان، وأَحْكَمَ الله آياته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التَّامَّة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ وشِركٌ وكُفْر ونِفَاق؛ كالمشركين حين فَرِحُوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضَلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يُفَرِّقون به بين الحقِّ والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربِّك، الذي أَنزَله بعلمه، وحَفِظَه وحَرَسَه أن يَختَلِط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: يُصَدِّقُوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تَخْضَعُ وتذلّ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيُرشِدُهم إلى الحقِّ واتباعه، ويوفِّقُهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، المُوصِلِ إلى درجات الجنات، ويُزَحْزِحُهُم عن العذاب الأليم والدَّرَكَات.

الآية (٥٥): يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم لا يزالون في مِريَة، أي: في شَكٍّ وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِمَّا أَلقَى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد: فجأةً، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال أُبيُّ بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة ومجاهد -في رواية عنهما-: هو يوم القيامة لا ليلةَ له. وكذا قال الضحاك والحسن البصري. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أُوعِدُوا به، لكن هذا هو المراد.

الآية (٥٦-٥٧): ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]. وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وصَدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافَقَ قلوبُهم وأقوالُهم وأعمالُهم، ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يَبيد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كَفَرَت قلوبهم بالحقِّ، وجَحَدُوا به وكَذَّبُوا به، وخالفوا الرُّسُل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحقِّ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] أي: صاغرين.

الآية (٥٨-٦٠): يُخبرُ تعالى عمَّن خَرَج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاءَ مرضاته، وطلبًا لِمَا عنده، وتَرَكَ الأوطان والأهلين والخِلاَّن، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرةً لدين الله، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ أي: في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ أي: حَتْفَ أَنفِهِم، أي: من غير قِتَال على فُرُشهم، فقد حَصَلُوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: ليُجْرِيَن عليهم من فَضْلِه ورِزْقِه من الجنة ما تَقَرُّ به أعينهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجنَّة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]، فأخبر أنه يَحصُل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال ههنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يُهاجِر ويُجاهِد في سبيله، وبمن يَستحِقُّ ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يَحْلُمُ ويَصْفَحُ ويَغفِر لهم الذنوب ويُكفِّرُها عنهم بهجرتهم إليه، وتَوَكُّلِهم عليه. فأما من قُتِل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حَيٌّ عند ربه يُرزَق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة، وأما من تُوُفِّي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تَضَمَّنَت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراءَ الرِّزْق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [سبب النزول]: ذَكَر مقاتل وابن جريج أنها نَزَلَت في سَرِيَّة من الصحابة، لقوا جَمْعًا من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنَصَرَهم الله عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

الآية (٦١-٦٢): يقول تعالى مُنَبِّهًا على أنه الخالق المُتَصَرِّف في خلقه بما يشاء؛ كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧]، ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارةً يَطُوْل الليل ويَقصُر النهار؛ كما في الشِّتاء، وتارةً يَطُوْل النهار ويَقصُر الليل؛ كما في الصَّيف. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بأقوال عباده، ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولَـمَّا بيَّن أنه المُتَصَرِّف في الوجود، الحاكم الذي لا مُعَقِّب لحكمه، قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإله الحقُّ الذي لا تَنبَغِي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليلٌ لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عُبِدَ من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، فكل شيء تحت قَهْره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أَعظَم منه، العَلِيُّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وعَزَّ وجلَّ عمَّا يقول الظالمون عُلُوًّا كَبِيرًا.

الآية (٦٣-٦٤): وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، وأنه يُرسِل الرياح، فتُثِير سحابًا، فيُمطِر على الأرض الجُرُز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء قَحْلَةٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥].

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: خضراء بعد يُبْسِها ومُحُولها. وقد ذُكِر عن بعض أهل الحجاز: أنها تُصْبِح عَقِب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحَبِّ وإن صَغُر، لا يخفى عليه خافية، فَيُوَصِّلُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْمَاءِ فَيُنْبِتُه به؛ كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦] وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس:٦١]. وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.

الآية (٦٥-٦٦): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من حيوان وجماد وزروع وثمار؛ كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] أي: من إحسانه وفضله وامتنانه.

﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بتسخيره وتسييره، أي: في البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورِفْق وتُؤَدَة، فيَحمِلُون فيها ما شاؤوا من تِجَائِر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقُطْرٍ إلَى قُطْرٍ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذَهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، ممَّا يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسَقَطَت على الأرض، فهَلَكَ من فيها، ولكن من لُطْفِه ورحمته وقدرته يُمسِكُ السماء أن تَقَع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: مع ظلمهم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادًا وتعبدون معه غيره، وهو المُسْتَقِلُّ بالخَلْق والرزق والتَّصَرُّف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يُذكَر، فأوجَدَكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحُود.

الآية (٦٧-٦٩): يخبر تعالى أنه جَعَل لكل قوم مَنْسَكًا. قال ابن جرير: يعني: لكلِّ أمةٍ نبيٍّ مَنْسَكًا. قال: وأصل المَنْسَك في كلام العرب: الموضع الذي يعتاده الإنسان، ويَتَرَدَّد إليه، إما لخير أو شرٍّ. قال: ولهذا سُمِّيَت مناسك الحج بذلك، لِتَرْدَادِ الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد: لكلِّ أمةٍ نبيٍّ جعلنا مَنْسَكًا فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: لكل أمة جعلنا مَنْسَكًا جَعْلًا قَدَرِيًّا؛ كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨] ولهذا قال ههنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أي: فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق؛ أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قَدَر الله وإرادته، فلا تَتَأَثَّر بمنازعتهم لك، ولا يَصرفُك ذلك عمَّا أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مستقيم مُوصِل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص:٨٧]. وقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف:٨]؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه كقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية [الشورى:١٥].

الآية (٧٠): يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يَعزُب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِم الكائنات كلها قبل وجودها، وكَتَب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثَبَت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خَلْق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عَرشُه على الماء». وحديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّل ما خَلَقَ الله القلمَ، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجَرَى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. وهذا من تمام علمه تعالى أنه عَلِم الأشياء قبل كونها، وقَدَّرها وكَتَبها أيضًا، فما العباد عاملون قد عَلِمَه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيَعلَم قبل الخَلْق أن هذا يُطِيع باختياره، وهذا يَعصِي باختياره، وكَتَب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علمًا، وهو سهل عليه يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الآية (٧١-٧٢): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما جَهلوا وكفروا، وعَبَدوا من دون الله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا، يعني: حجةً وبرهانًا؛ كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا عِلمَ لهم فيما اخْتَلَقُوه وائْتَفَكُوه، وإنما هو أمرٌ تَلَقَّوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله ممَّا سَوَّل لهم الشيطان وزيَّنه لهم؛ ولهذا توَعَّدَهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يَحِلُّ بهم من العذاب والنكال. ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذُكِرَت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حَقٌّ وصِدْق، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يكادون يُبَادِرُون الذين يحتجُّون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويَبسُطُون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء، ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشدُّ وأشقُّ وأَطَمُّ وأعظم ممَّا تُخَوِّفُون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صَنِيعكم هذا أعظَم ممَّا تنالون منهم، إن نِلْتُم بزَعْمكم وإرادتكم.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار منزلًا ومَرْجِعًا ومَوئلًا ومُقامًا ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

الآية (٧٣-٧٤): يقول تعالى مُنَبِّهًا على حقارة الأصنام وسَخَافة عقول عابديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لِمَا يعبُدُه الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: أَنْصِتُوا وتَفَهَّمُوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تَعبُدون من الأصنام والأنداد على خَلْق ذباب واحد ما قَدَروا على ذلك.

كما روي عن أبي هريرة -مرفوعًا-: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبَّة» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]، و«قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» [متفق عليه].

ثم قال تعالى أيضًا: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خَلْق ذباب واحد، بل أَبلَغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سَلَبَها شيئًا من الذي عليها من الطِّيب، ثم أرادت أن تَسْتَنْقِذَه منه، لَمَا قَدَرت على ذلك.

هذا والذباب من أَضعَف مخلوقات الله وأَحْقَرِها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾. قال ابن عباس: ﴿ٱلطَّالِبُ﴾: الصنم، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السُّدي وغيره: ﴿ٱلطَّالِبُ﴾: العابد، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عَرَفوا قَدْر الله وعظمته حين عَبَدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضَعْفِها وعَجْزِها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقُوَّته خَلَق كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٢-١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] [الذاريات:٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عَزَّ كل شيء فَقَهَره وغَلَبَه، فلا يُمانع ولا يُغالَب، لعَظَمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

الآية (٧٥-٧٦): يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلًا فيما يشاء من شَرعِه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده، ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم، عليم بمن يَستَحِقُّ ذلك منهم؛ كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: يعلم ما يفعل رسُلُه فيما أَرسَلَهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء؛ كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قوله ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيدٌ على ما يُقَال لهم، حافظ لهم، ناصر لِجَنابهم؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [المائدة:٦٧].

الآية (٧٧-٧٨): اختلف الأئمة، في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]. وقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفَضَّلَكم وشَرَّفكم وخَصَّكم بأكرم رسول، وأَكمَل شَرْع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كَلَّفكم ما لا تُطِيقُون، وما أَلْزَمَكم بشيء يَشُقُّ عليكم إلا جَعَل الله لكم فَرَجًا ومَخْرَجًا، فالصلاة -التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين- تَجِبُ في الحَضَر أربعًا، وفي السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة؛ كما ورد به الحديث، وتُصَلى رجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. والقيام فيها يَسقُطُ بعذر المرض، فيُصَلِّيها المريض جالسًا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرُّخَص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أَمِيرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرا» [متفق عليه]. والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: مِن ضِيْق.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ حَثَّهُم وأَغْرَاهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه مِلَّة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذَكَرَ مِنَّته تعالى على هذه الأمة بما نَوَّهَ به من ذِكْرِها والثناء عليها في سَالِف الدهر وقديم الزمان، في كُتُب الأنبياء، يُتْلَى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي القرآن.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمةً وسطًا عُدولًا خيارًا، مشهودًا بعَدَالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن جميع الأمم معترفة يومئذٍ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تُقْبَل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بَلَّغَتْهم رسالةَ ربهم، والرسول يَشْهَد على هذه الأمة أنه بَلَّغَها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: قابلوا هذه النِّعْمة العظيمة بالقيام بشُكْرها، وأَدُّوا حَقَّ الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجَب، وتَرْك ما حَرَّم. ومِن أهمّ ذلك: إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة؛ وهو الإحسان إلى خلق الله بما أَوْجَب للفقير على الغني، من إخراج جُزْءٍ نَزْر من ماله في السَّنة للضعفاء والمَحَاوِيج.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتَوَكَّلُوا عليه، وتَأَيَّدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصِرُكم ومُظفِرُكم على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ يعني: نِعْمَ الولي، ونِعْمَ الناصِر من الأعداء.

تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١٨) آيةً].

الآية (١-١١): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسُعِدُوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المُتَّصِفُون بهذه الأوصاف:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خائفون ساكنون. وكذا رُوي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري. وعن عليٍّ ابن أبي طالب: الخشوعُ: خشوعُ القلبِ. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغَضُّوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح.

والخشوع في الصلاة إنما يَحصُل لمن فَرَّغ قلبَه لها، واشتغلَ بها عمَّا عَدَاها، وآثَرَها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحةً له وقُرَّةَ عين، كما في حديث أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إليَّ الطِّيب والنساء، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة» [رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطل. وهو يشمل الشرك -كما قاله بعضهم- والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا: زكاة الأموال. ويُحتَمَل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدَّنَس؛ كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، على أحد القولين في تفسيرها، ويُحتَمَل أن يكون كِلَا الأمرين مرادًا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: قد حفظوا فُرُوجَهم من الحرام؛ فلا يَقعُون فيما نهاهم الله عنه من زِنا أو لواط، ولا يَقرَبُون سوى أزواجهم التي أَحَلَّها الله لهم، وما مَلَكَتْ أيمانُهم من السَّرَاري، ومن تَعاطى ما أَحَلَّه الله له فلا لَومَ عليه ولا حَرَج؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون.

وقد استدل الإمام الشافعي ومن وَافَقَه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة. قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي: إذا اؤْتُمِنُوا لم يَخُونوا، بل يُؤَدُّونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أَوْفَوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا أُؤْتُمِنَ خان» [متفق عليه].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يُواظِبون عليها في مَوَاقيتها؛ كما قال ابن مسعود: سألتُ النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أَحَبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «برُّ الوالدين». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله» [متفق عليه].

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدَلَّ على أفضليتها. ولَـمَّا وَصَفَهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وثبَتَ في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنةَ فاسألوه الفردوسَ؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]. فالمؤمنون يَرِثُون منازلَ الكفار لأنهم خُلِقُوا لعبادة الله تعالى، فلمَّا قام هؤلاء المؤمنون بما وَجَبَ عليهم من العبادة، وتركَ أولئك ما أُمروا به ممَّا خُلقوا له، أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم. قلت: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]. وقد قال مجاهد وسعيد بن جُبَيْر: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السَّلَف: لا يُسَمَّى البستان فِرْدَوْسًا إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

الآية (١٢-١٦): يقول تعالى مُخبرًا عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ خَلَقَه الله ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦]. وقال ابن عباس: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صَفوةُ الماء. وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: من مَنِيِّ آدم. قال ابن جرير: وإنما سُمِّي آدم طِينًا لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: اسْتُلَّ آدمُ من الطين. وهذا أَظْهَر في المعنى، وأَقْرَبُ إلى السياق؛ فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ ﴿مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١]، وهو الصَّلْصَال من الحَمَإِ المسنون، وذلك مخلوق من التراب. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان؛ كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] أي: ضعيف. ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: الرحمُ مُعَدٌّ لذلك مُهَيَّأٌ له. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثم صَيَّرنا النُّطْفَة، وهي الماء الدَّافق الذي يَخرُج من صُلْب الرجل -وهو ظهره- وتَرائب المرأة -وهي عظام صدرها ما بين التَّرْقُوَة إلى الثَّنْدُوَة[1]- فصَارَت عَلَقةً حمراء على شَكْل العَلَقَة مُستَطيلةً. قال عكرمة: وهي دَمٌ. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة كالبَضعة من اللَّحْم، لا شَكْلَ فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ يعني: شَكَّلْنَاها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: وجعلنا على ذلك ما يَستُرُه ويَشُدُّه ويُقَوِّيه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: ثم نَفَخْنَا فيه الروح، فتَحَرَّكَ وصارَ ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ذا سمعٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ وحركةٍ واضطراب، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

الآية (١٧): لَـمَّا ذَكَر تعالى خَلْق الإنسان، عَطَف بخَلْق السموات السبع. وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: وهو سبحانه لا يحجب عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار.

---

(١) التَّرْقُوَة: عُظَيْمٌ بين ثغرة النحر والعاتق. والثَّنْدُوَة: لحم الثدي أو أصله. [القاموس المحيط، مادة: (ترق) ومادة (ثند)].

الآية (١٨-٢٢): يذكر تعالى نِعَمَهُ على عَبيْدِه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، في إنزاله القَطْر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الحاجة، لا كثيرًا فيُفْسِد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يَكفِي الزروع والثمار، بل بِقَدْرِ الحاجة إليه من السَّقْي والشُرْب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تَحتَاج ماءً كثيرًا لزَرْعِها، ولا تَحتَمِل دِمْنَتُها إنزالَ المطر عليها، يَسوْق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مِصْر، ويُقال لها: «الأرض الجُرُز»، يَسُوق الله إليها ماءَ النيل معه طِيْنٌ أحمر يَجْتَرِفُهُ من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يَحمِل طينًا أحمر، فيَسْقِي أرض مِصر، ويقر الطين على أرضهم ليَزْدَرِعوا فيه؛ لأن أرضهم سِبَاخٌ يَغْلِبُ عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نَزَلَ من السحاب يَخْلُدُ في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّة له، تَشْرَبُه ويَتَغَذَّى به ما فيها من الحَبِّ والنَّوَى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شِئْنا ألَّا تُمْطِر لفعلنا، ولو شئنا لَصَرَفْناه عنكم إلى السِّبَاخ والبراري والبحار والقفار، ولو شئنا لجعلناه أُجاجًا لا ينتفع به لشُرْب ولا لِسَقْي، ولو شئنا لجعلناه لا يَنْزِل في الأرض، بل يَنْجَرُّ على وجهها، ولو شئنا لجعلناه إذا نَزَلَ فيها يغور إلى مَدًى لا تَصلون إليه ولا تنتفعون به. ولكن بلُطْفِه ورحمته يُنَزِّل عليكم الماء من السحاب عَذْبًا فُرَاتًا زُلالًا، فيُسْكِنَه في الأرض ويَسْلُكُه ينابيع في الأرض، فيَفْتَحَ العيون والأنهار، فيَسْقِي به الزروع والثمار، وتَشرَبُون منه ودَوَابُّكم وأنعامكم، وتَغتَسِلُون منه وتَتَطَهَّرُون وتَتَنَظَّفُون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ يعني: فأَخرَجْنا لكم بها أَنْزَلنا من الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق ذات بهجة، أي: ذات مَنْظر حسن. وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يَأْلَف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حقِّ كل أهل إقليم؛ عندهم من الثمار من نِعْمَة الله عليهم ما يَعْجَزُونَ عن القيام بِشُكْره. وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حُسْنِه ونُضْجِه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ يعني: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يُسمَّى طُورًا إذا كان فيه شَجَر، فإن عَرِيَ عنها سُمِّيَ جَبَلًا لا طُورًا، والله أعلم.

وطور سيناء: هو طور سِيْنِين، وهو الجبل الذي كَلَّم الله عليه موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما حَولَه من الجبال التي فيها شَجَر الزيتون. وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾: أي: تَخْرُجُ بالدُّهْن، أو تأتي بالدُّهْن، ﴿وَصِبْغٍ﴾ أي: أُدْم ﴿لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدُّهْن والاصطباغ.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يذكر تعالى ما جَعَلَ لِخَلْقِه في الأنعام من المنافع؛ وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْثٍ ودَمٍ، ويأكلون من لُحُمَانها، ويَلْبَسُون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويُحَمِّلُونها الأحمال الثِّقَال إلى البلاد النائية عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣].

الآية (٢٣-٢٥): يخبر تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بَعَثَه إلى قومه، لِيُنذِرَهم عذابَ الله وبَأْسَه الشديد، وانتقامَه ممَّن أَشرَك به وخالف أَمْرَه وكَذَّبَ رُسُله ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أَلَا تَخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ -وهم السادة والأكابر- منهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعنُون: يَتَرَفَّع عليكم ويَتَعَاظَم بدعوى النبوة، وهو بَشَرٌ مِثْلُكم، فكيف أُوحِيَ إليه دُونكم؟!

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يَبعَثَ نبيًّا، لبَعَثَ مَلَكًا من عنده، ولم يكن بَشَرًا!

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بِبَعْثَة البشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنُون بهذا أسلافهم وأجدادَهم والأمم الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: مَجنون فيما يَزْعُمُه من أن الله أَرسَلَه إليكم، واختَصَّه من بينكم بالوحي، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به رَيبَ المنون، واصبروا عليه مدةً حتى تستريحوا منه.

الآية (٢٦-٢٧): يقول تعالى مخبرًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه دعا ربه لِيَستَنْصِرَه على قومه، كما قال تعالى مخبرًا عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، وقال ههنا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أَمَرَه الله تعالى بصَنْعَة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يَحمِل فيها من كل زوجين اثنين؛ أي: ذَكَرًا وأنثى من كل صِنْف من الحيوانات والنباتات والثِّمار وغير ذلك، وأن يَحمِل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: سَبَقَ فيه القول من الله بالهلاك؛ وهم الذين لم يُؤمنوا به من أهله؛ كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تُؤَاخِذَنَّكَ رأفة بقومك، وشَفَقَة عليهم، وطَمَع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قَضَيت أنهم مُغرَقُون على ما هم عليه من الكفر والطغيان.

الآية (٢٨-٣٠): ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

وقد امتثل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١].

فذَكَر اللهَ تعالى عند ابتداء سَيْره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع -وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين- ﴿لَّءَايَٰتٍ﴾ أي: لَحُجَجًا ودلالاتٍ واضحاتٍ على صِدْقِ الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لِمَا يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لَمُخْتَبِرِينَ للعباد بإرسال المرسلين.

الآية (٣١-٤١): ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ قيل: المراد بهم عاد؛ فإنهم كانوا مُسْتَخْلَفين بعدَهم.

وقيل: المراد بهؤلاء ثَمُود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وأنه تعالى أَرسَل فيهم رسولًا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكَذَّبوه وخالفوه، وأَبَوْا من اتباعه لكونه بَشَرًا مثلهم، واسْتَنْكَفُوا عن اتباع رسول بشريٍّ، وكَذَّبُوا بِلقَاء الله في القيامة، وأَنكَرُوا المعاد الجُثْمَانِيَّ، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: بعيدٌ بعيدٌ ذلك.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنِّذَارَة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: اسْتَفْتَحَ عليهم الرسول واستنصَرَ ربَّه عليهم، فأجاب دعاءَه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أي: بمخالفتك وعِنَادك فيما جِئتَهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يَسْتَحِقُّون ذلك من الله لكُفْرهم وطُغْيَانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صَيْحَةٌ مع الريح الصرصر الْعَاصِفِ القويِّ الباردة ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: صَرعَى هَلْكَى كغُثَاء السَّيْل، وهو الشيء الحَقِير التَّافِه الهالك الذي لا يُنتفَع بشيء منه.

قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] أي: بكُفرِهم وعِنَادهم ومخالفةِ رسول الله، فليَحذَر السامعون أن يُكَذِّبُوا رسولهم.

الآية (٤٢): يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أُمَمًا وخلائق.

الآية (٤٣-٤٤): ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعني: بل يُؤْخَذون حَسَب ما قَدَّر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعِلمه قبل كونهم، أمةً بعد أمة، وقَرْنًا بعد قَرْن، وجيلًا بعد جيل، وخَلفًا بعد سَلَف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ قال ابن عباس: يعني يَتْبَع بعضهم بعضًا.

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس:٣٠]. ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخبارًا وأحاديث للناس؛ كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية [سبأ:١٩] ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٤٥-٤٩): يُخبِر تعالى أنه بَعَثَ رسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخاه هارون إلى فرعون ومَلَئِه، بالآيات والحُجَج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعها، والانقياد لأمرهما، لكونهما بَشَرَين كما أَنكَرَت الأمم الماضية بِعْثَة الرسل من البَشَر، تَشَابَهَت قلوبهم، فأَهْلَك الله فرعون وملَأَه، وأَغرَقَهم في يوم واحد أجمعين، وأَنزَلَ على موسى الكتاب -وهو التوراة- فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قَصَمَ الله فرعون والقِبْطِ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أَنزَلَ الله التوراة لم يُهلِكْ أُمةً بعامةٍ، بل أَمَرَ المؤمنين بقتال الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

الآية (٥٠): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليهما السلام- أنه جَعَلَهما آيةً للناس: أي حجةً قاطعةً على قدرته على ما يشاء؛ فإنه خَلَقَ آدم من غير أبٍ ولا أمٍّ، وخَلَقَ حوَّاءَ من ذَكَر بلا أنثى، وخَلَقَ عيسى من أنثى بلا ذَكَر، وخَلَقَ بقيَّةَ الناس من ذَكَر وأنثى.

وقوله: ﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال ابن عباس: الرَّبْوَة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة. قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهرًا.

وعن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق. وقال مجاهد: ﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ عيسى ابن مريم وأمه حين أَوَيَا إلى غُوطَةِ دمشق وما حولها. وأقرب الأقوال في ذلك ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤]. وكذا قال الضحاك وقتادة: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى. والقرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا.

الآية (٥١-٥٦): يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدَلَّ هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء -عليهم السلام- بهذا أتمَّ القيام، وجمعوا بين كل خير، قولًا وعملًا ودَلالةً ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا. قال الحسن البصري: أما والله ما أُمِرُوا بِأَصْفَرِكم ولا أَحْمَرِكم، ولا حُلْوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنَّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أَمَرَ به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]. ثم ذَكَرَ الرجل يُطِيلُ السَّفَر أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حرام، ومَشرَبُه حرام، ومَلبَسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأَنَّى يُستجاب لذلك؟!».

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد، وملة واحدة؛ وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بُعِث إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال مُتَهَدِّدًا لهم ومُتَوَعِّدًا: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غَيِّهم وضلالهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزَّتهم عندنا؟! كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾. قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تَعْتَبِر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

الآية (٥٧-٥٩): يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وَجِلُون مِن مَكْرِهِ بهم؛ كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جَمَع إحسانًا وشفقةً، وإن المنافق جَمَعَ إساءةً وأمنًا. ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية؛ كقوله تعالى إخبارًا عن مريم -عليها السلام-: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم:١٢]، أي: أيقنت أن ما كان إنَّما هو عن قَدَر الله وقضائه، وما شَرَعه الله فهو إن كان أمرًا فمِمَّا يُحِبُّه ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو مِمَّا يَكرَهه ويأباه، وإن كان [خبرًا] فهو حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يُوحِّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا، لم يَتَّخِذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

الآية (٦٠-٦١): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي: يُعطُون العطاء وهم خائفون ألَّا يُتَقبَّل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قَصَّروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما رُوي عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يُصَلُّون ويصومون ويَتَصَدَّقُون، وهم يخافون ألَّا يُقبل منهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يأتون مَآ أَتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون. والمعنى على القراءة الأولى -وهي قراءة الجمهور- أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

الآية (٦٢-٦٧): يقول تعالى مخبرًا عن عَدله في شَرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّف نفسًا إلا وُسْعَهَا، أي: إلا ما تُطِيقُ حَمْلَه والقيام به، وأنه يوم القيامة يُحاسِبهم بأعمالهم التي كَتَبَها عليهم في كتاب مسطور لا يَضِيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُبخَسون من الخير شيئًا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

ثم قال مُنكِرًا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ أي: سيئة من دون ذلك، يعني: الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قال: لا بدَّ أن يعملوها؛ كذا رُوي عن مجاهد والحسن وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: قد كُتب عليهم أعمال سيئة لا بدَّ أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لِتَحِقَّ عليهم كلمة العذاب. ورُوِي نَحو هذا عن مقاتل بن حيَّان والسُّدِّيّ وابن أسلم. وهو ظاهرٌ قويٌ حسَن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم -وهم السعداء الْـمُنَعَّمُون في الدنيا- عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا يُجيركم أحد ممَّا حلَّ بكم، سواءً جأرتُم أو سكتُّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ، لَزِمَ الأمر ووَجَب العذاب. ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: إذا دُعِيتُم أَبَيْتُم، وإن طُلِبتم امتنعتُم، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]. وقوله: ﴿مُّسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيره قولان، أحدهما: أن «مستكبرين» حالٌ منهم حين نُكُوصِهم عن الحق وإبائهم إيَّاه، استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، فعلى هذا الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم، أي: بمكة؛ ذُمُّوا لأنهم كانوا يَسْمُرون بالـهُجْر من الكلام. والثاني: أنه ضمير للقرآن، كانوا يَسْمُرون ويَذْكُرون القرآن بالـهُجْر من الكلام: «إنه سِحْر، إنه شِعْر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد ﷺ؛ كانوا يذكرونه في سَمَرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أَظهَرَه الله عليهم، وأَخرَجَهم من الـحَرَم صاغرين أذلَّاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُّسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به.

الآية (٦٨-٧٤): يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تَفَهُّمِهم للقرآن العظيم، وتَدَبُّرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم يُنزل الله على رسول أَكمَلَ منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية؛ حيث لم يَبلُغْهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يُقَابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتَفَهُّمِها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فَعَله النجباء منهم ممَّن أسلم واتَّبع الرسول ﷺ ورضي عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ إذًا والله يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تَدَبَّره القوم وعَقَلُوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أَفَهُمْ لا يعرفون محمدًا وصِدقَهُ وأمانته وصيانته التي نَشَأَ بها فيهم، أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟!

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ يَحكِي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوَّلَ القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنونًا لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تُؤمِن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن؛ فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تَحدَّاهم وجميعَ أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويُحتمَل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشَرَع الأمور على وَفْق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لِفساد أهوائهم واختلافها، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني: القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾: قال الحسن: أجرًا، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم أُجرةً ولا جُعْلًا ولا شيئًا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تَحتَسِب عند الله جزيلَ ثوابه؛ كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي: لعادلون جائرون منحرفون؛ تقول العرب: نَكَبَ فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

الآية (٧٥): يخبر تعالى عن غِلَظِهِمْ في كفرهم بأنه لو أزاح عِلَلَهم وأَفْهَمَهم القرآن، لَـمَا انقادوا له ولاستمرُّوا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون.

الآية (٧٦-٨٣): يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: فما رَدَّهم ذلك عمَّا كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغَيِّهم، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أي: ما خَشَعوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما دعوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣].

[سبب النزول]: عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أَكَلْنَا الْعِلْهِزَ -يعني: الوَبَرَ والدم- فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ الآية. [رواه أحمد والنسائي وابن حبان، وصححه الألباني] وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يوسف».

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: حتى إذا جاءهم أَمْر الله وجاءتهم الساعة بغتةً، وأَخَذَهم من عقاب الله ما لم يكونوا يَحتَسِبون، فعند ذلك أَبْلَسُوا من كلِّ خير، وأَيِسُوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده في أن جَعَلَ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لِـمَا يشاء. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقلَّ شُكْرَكم لله على ما أنعم به عليكم؛ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في بَرْئِهِ الخليقة وذَرْئِهِ لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصِفَاتهم، ثم يوم القيامة يَجمَع الأولين منهم والآخرين لِـميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرًا ولا كبيرًا، ولا ذَكَرًا ولا أنثى، ولا جليلًا ولا حقيرًا، إلا أعاده كما بدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يُحيي الرِّمَم ويُمِيت الأُمَم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كلٌّ منهما يَطلُب الآخر طَلَبًا حثيثًا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما؛ كقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:٤٠].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تَدُلُّكم على العزيز العليم، الذي قد قَهَر كل شيء، وخَضَعَ له كل شيء؟! ثم قال مخبرًا عن مُنكري البعث الذين أَشبَهوا من قبلهم من المكذِّبين: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البِلَى.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: الإعادة مُحَال، إنما يُخْبِر بها من تَلَقَّاها عن كُتُب الأولين واختلاقهم.

الآية (٨٤-٨٩): يُقَرِّر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والـمُلك ليُرشِد إلى أنه الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعَبَدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عَبَدوهم لا يَخلُقون شيئًا، ولا يَملِكُون شيئًا، ولا يَستَبِدُّون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زُلفَى؛ فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي: مَن مالكها الذي خَلَقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره؟!

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مَن هو خالق العالم العُلْوي بما فيه من الكواكب النَّيِّرَات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم؟! يعني: الذي هو سَقْف المخلوقات. وقال الضحاك عن ابن عباس: إنما سُمِّي عَرشًا لارتفاعه. وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كَحَلَقَةٍ في أرض فَلاة. وعن ابن عباس قال: العرش لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه إلا الله ﷻ.

ولهذا قال ههنا: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: الكبير: وقال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦] أي: الـحَسَنِ البَهِيِّ؛ فقد جَمَع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو، والـحُسْن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نورُ العرش من نور وجهه.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه ربُّ السموات وربُّ العرش العظيم، أفلا تَخافون عقابه وتَحذَرُون عذابه، في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟! ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]، أي: مُتَصرِّف فيها. فهو سبحانه الخالق المالك الـمُتَصَرِّف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأَجَار أحدًا، لا يُخْفَر في جواره، وليس لمن دونه أن يُجِيْر عليه، لئلا يَفْتَاتَ عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أَعظَم منه، الذي له الـخَلْق والأَمْر، ولا مُعَقِّب لحكمه، الذي لا يُمَانع ولا يُخَالَف، وما شاء كان، وما لم يَشَأ لم يكن.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يُجير ولا يُجَار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؟! أي: فكيف تَذهَب عُقُولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟!

الآية (٩٠): ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك؛ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادَهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعًا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال؛ كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

الآية (٩١-٩٢): يُنَزِّه تعالى نفسه عن أن يكون له وَلَد أو شريك في المُلْكِ والتصرف والعبادة، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قُدِّر تَعدُّد الآلهة لانفَرد كل منهم بما يَخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهَد أن الوجود منتظم مُتَّسِقٌ؛ كلٌّ من العالم العلوي والسفلي مرتبطٌ بعضُه ببعض في غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، ثم لكان كل منهم يَطلُب قَهْر الآخر وخلافَهُ، فيَعْلُو بعضهم على بعض؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عمَّا يقول الظالمون المُعْتَدُون في دعواهم الولد أو الشريك علوًّا كبيرًا. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يَعلَم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدَّس وتنزَّه وتعالى وعزَّ وجلَّ عمَّا يقول الظالمون والجاحدون.

الآية (٩٣-٩٨): يقول تعالى آمرًا نبيَّه محمدًا ﷺ أن يدعو هذا الدعاء عند حلول النِّقَم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إنْ عاقبتَهُم -وإني شَاهِدٌ ذلك- فلا تجعلني فيهم؛ كما جاء في الحديث: «وإذا أَرَدْتَ بقوم فتنةً فَتَوَفَّنِي إليك غير مفتون» [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شِئنا لأَرينَاك ما نُحِلُّ بهم من النِّقَم والبلاء والمِحَن. ثم قال مرشدًا له إلى التِّرْياق النافع في مخالطة الناس؛ وهو الإحسان إلى من يُسِيء لِيَستَجْلِبَ خاطره، فتَعُوْد عداوتُه صَدَاقةً وبُغضُه مَحبةً، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، كما قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] أي ما يُلْهَم هذه الوصية أو الخَصْلَةُ أو الصِّفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت:٣٤] أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أَمَرَهُ أن يستعيذ من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحِيَل، ولا ينقادون بالمعروف.

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: في شيء من أمري؛ ولهذا أَمَرَ بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطَرْد الشيطان عند الأكل والجماع والذَّبح، وغير ذلك من الأمور.

الآية (٩٩-١٠٠): يُخبر تعالى عن حال المُحتَضِر عند الموت، من الكافرين أو المُفْرِّطِين في أَمْر الله تعالى، وقِيْلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليُصلح ما كان أَفْسَدَه في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠-١١]. فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون: عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم.

﴿كَلَّآ﴾ حرف رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أي: لا نُجيبه إلى ما طَلَب ولا نَقبَل منه. وقوله: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قال ابن أسلم: أي لا بدَّ أن يقولها - لا محالةَ- كلُّ مُحتَضِر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علةً لقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لأنها كلمة، أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه، وقولٌ لا عَمَلَ معه، ولو رُدَّ لَـمَا عَمِل صالحًا، ولكان يَكذِب في مقالته هذه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقال قتادة: والله ما تمنَّى أن يَرجع إلى أهلٍ ولا إلى عَشيرة، ولكن تمنَّى أن يَرجِع فيَعمَل بطاعة الله، فرَحِمَ الله امرأً عَمِل فيما يَتَمَنَّاه الكافر إذا رأى العذاب. وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ يعني: أَمَامَهم. وقال مجاهد: البَرْزَخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وفي قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المُحْتَضَرين من الظَّلَمة بعذاب البرزخ. وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يستمرُّ به العذاب إلى يوم البَعْث.

الآية (١٠١-١٠٤): يخبر تعالى أنه إذا نُفِخ في الصور نَفخَة النُّشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا تَنْفَع الأنساب يومئذٍ، ولا يَرْثِي والِدٌ لوَلَدِه، ولا يَلْوِي عليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج:١٠-١١] أي: لا يَسأَل القريب قريبَه وهو يُبْصِرُه، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أَثقَلَ ظهره، وهو كان أَعَزَّ الناس عليه في الدنيا، ما التفتَ إليه ولا حَمَل عنه وَزْنَ جناح بعوضة؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ الآيات [عبس:٣٤-٣٦]. وعن المسور بن مخرمة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بَضعة مني؛ يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري». [رواه أحمد، وصححه الألباني]

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: من رَجَحَت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازُوا فنَجَوا من النار وأُدخِلُوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طَلَبوا، ونَجَوا من شرِّ ما منه هَرَبوا.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: ثَقُلَتْ سَيِّئاته على حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهَلَكوا، وباؤوا بالصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال: ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون، دائمون مُقيمون لا يَظْعَنون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٩].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، قال ابن عباس: يعني عابسون. وقال ابن مسعود: ألم تَرَ إلى الرأس المُشَيَّط[1] الذي قد بَدَا أسنانه وقَلَصَتْ شفتاه.

---

(١) المشيط: المحترق بالنار [راجع القاموس المحيط، مادة (شيط)].

الآية (١٠٥-١٠٧): هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أَوْبَقَتْهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: قد أَرْسَلْتُ إليكم الرسل، وأَنْزَلْتُ عليكم الكتب، وأَزَلْتُ شُبَهكم، ولم يَبْقَ لكم حُجَّةٌ؛ كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١١].

ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نَنْقَاد لها ونَتَّبِعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقْهَا.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: رُدَّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سَلَفَ منا، فنحن ظالمون مُسْتَحِقُّون للعقوبة؛ كما قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١١-١٢] أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وَحَّدَه المؤمنون.

الآية (١٠٨-١١١): هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مُهانين أذلَّاء، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا؛ فإنه لا جواب لكم عندي.

قال ابن عباس: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

ثم قال تعالى مُذَكِّرًا لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فَسَخِرْتم منهم في دعائهم إياي وتَضَرُّعهم إليّ، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: حَمَلَكم بُغْضُهم على أن نَسِيتُم معاملتي.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠] أي: يَلمِزُونهم استهزاءً.

ثم أخبر عمَّا جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

الآية (١١٢-١١٦): يقول تعالى مُنَبِّهًا لهم على ما أضاعوه في عُمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وَحْدَه، لو صَبَروا في مدة الدنيا القصيرة لفَازوا كما فَازَ أولياؤه المُتَّقون.

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ أي: الحاسبين، ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مُدَّةً يسيرةً على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لَمَا آثرتم الفاني على الباقي، ولَمَا تَصَرَّفتم لأنفسكم هذا التَّصرُّف السّيئ، ولا استحققتم من الله سُخْطَهُ في تِلْكَ الْمُدَّة اليسيرة، ولو أنكم صَبَرتُم على طاعة الله وعبادته -كما فَعَل المؤمنون- لفُزْتُم كما فَازوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: أَفظَنَنْتُم أنكم مخلوقون عَبَثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعَبَث، أي لتَلْعَبوا وتَعْبَثوا كما خُلِقَت البهائم؛ لا ثوابَ لها ولا عقابَ، وإنما خَلَقْناكم للعبادة وإقامة أوامر الله ﷻ.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، يعني هَمَلًا.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تقدَّس أن يخلق شيئًا عَبَثًا؛ فإنه الْمَلِك الحَقُّ المُنَزَّه عن ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فذَكَرَ العَرش لأنه سَقف جميع المخلوقات، ووَصَفه بأنه كريم؛ أي: حَسَنُ المنظر بَهِيُّ الشَّكْل؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

الآية (١١٧-١١٨): يقول تعالى مُتَوَعِّدًا مَن أَشرَكَ به غيره، وعَبَدَ معه سواه، ومخبرًا أن من أَشرَكَ بالله ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: الله يُحاسِبه على ذلك.

ثم أَخبرَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء؛ فالغَفْرُ -إذا أُطْلِق- معناه: مَحوُ الذنب وسَتْرُه عن الناس، والرحمة معناها: أن يُسَدِّدَهُ وَيُوَفِّقَهُ في الأقوال والأفعال.

تفسير سورة النور

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٦٤) آيةً].

الآية (١-٢): ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها، ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: بيَّنا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: مُفَسَّرات واضِحَات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الزاني لا يخلو إمَّا أن يكون بِكْرًا، وهو الذي لم يَتزَوَّج، أو مُحْصَنًا، وهو الذي قد وَطِئَ في نكاح صحيح، وهو حُرٌّ بالغ عاقل. فأما إذا كان بكرًا لم يَتزَوَّج، فإن حَدَّه مائة جلدة كما في الآية، ويُزَاد على ذلك أن يُغرَّب عامًا عن بلده عند جمهور العلماء؛ لِـمَا ثَبَت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجُهَنيّ قال رسول الله ﷺ: «على ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغد يا أنيس -لرجل من أسلم- إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها»، وعن ابن عباس أن عمر قال: رَجمَ رسول الله ﷺ وَرَجمْنا بعده، فالرجم في كتاب الله حَقٌّ على من زنى، إذا أُحْصِن، إذا قامت البينة أو الـحَبَل أو الاعتراف [متفق عليه].

وقد أَمَرَ رسول الله ﷺ برجم زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لَـمَّا زَنَت مع الأجير، ورَجَم النبي ﷺ ماعِزًا والغامِدِيَّة. وكل هؤلاء لم يُنقَل عن رسول الله ﷺ أنه جَلَدَهم قبل الرَّجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة؛ كما روى مسلم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «البِكْر بالبِكْر، جَلْد مائة وتغريب سنة، والثَّيِّب بالثَّيِّب، جلد مائة والرجم».

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله. وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تَحمِل الحاكم على تَرك الحدِّ، فلا يجوز له ذلك. قال مجاهد: الحدود إذا رُفِعَت إلى السلطان تُقَام ولا تُعَطَّل. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَيْر وعَطَاء بن أبي رَبَاح. وقيل: المراد: فلا تقيموا الحدَّ كما ينبغي، من شِدَّة الضَّرْب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضَّرْب الـمُبَرِّح.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك؛ أقيموا الحدود على من زَنَى، وشَدِّدوا عليه الضَّرْب، ولكن ليس مبرِّحًا؛ ليَرتَدِع هو ومن يصنع مثله بذلك. وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزَّانِيَيْن إذا جُلِدا بحَضْرَة الناس؛ فإن ذلك يكون أَبْلَغَ في زَجْرِهما، وأَنجَع في رَدْعِهما؛ فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان الناس حضورًا. عن ابن عباس: الطائفة: الرجل فما فوقه. قال الحسن: يعني: علانيةً. قال قتادة: أَمَرَ الله أن يَشهَدَ عذابهما طائفة من المؤمنين؛ أي: نَفَرٌ من المسلمين؛ لِيَكُون ذلك موعظةً وعِبرةً ونكالًا.

الآية (٣): الزاني لا يُطَاوعه على مُرَاده من الزِّنا إلا زانيةٌ عاصيةٌ أو مشركةٌ، لا تَرَى حُرمَة ذلك، وكذلك: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه. قال ابن عباس: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع؛ لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك.

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالفُجَّار من الرجال. وعن ابن عباس قال: حرَّم الله الزِّنا على المؤمنين، وهذه الآية كقوله: ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]

ومن ههنا ذهب الإمام أحمد، رحمه الله، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة.

الآية (٤-٥): أَوجَبَ على القاذف إذا لم يُقِم بيّنةً على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: أحدها: أن يُجلَد ثمانين جلدة. الثاني: أنه تُـرَدُّ شهادته دائمًا. الثالث: أن يكون فاسقًا ليس بعَدْل؛ لا عند الله ولا عند الناس. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ الآية، اختُلف في هذا الاستثناء هل يعود على الجملة الأخيرة؟ أو الجملتين الثانية والثالثة؟ فذهب مالك والشافعي وأحمد إلى أنه إذا تاب قُبِلَت شهادته، وارتفع عنه حكم الفِسْق. ونصَّ عليه سعيد بن المسيب وجماعة من السلف أيضًا. وقال أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفِسْق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبدًا. وممن ذهب إليه من السلف: القاضي شُرَيح وإبراهيم النَّخَعِيّ وسعيد بن جُبَيْر ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والله أعلم.

الآية (٦-١٠): هذه الآية فيها فَرَج للأزواج ومَخْرَج، إذا قَذَف أحدهم زوجته وتَعَسَّر عليه إقامة البيِّنة، أن يُلَاعِنها كما أَمَرَ الله ﷻ، وهو أن يُحضِرَها إلى الإمام، فيَدَّعِي عليها بما رَمَاها به، فيُحَلِّفَه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رَمَاها به من الزِّنا، ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾. فإذا قال ذلك بانت منه بنَفْس هذا اللِّعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحَرُمَت عليه أبدًا، ويُعْطِيها مَهرَها، ويَتوَجَّه عليها حَدُّ الزِّنا، ولا يَدْرَأ عنها العذاب إلا أن تُلاعِن، فـ﴿تَشْهَدُ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، أي: فيما رماها به، ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فخَصَّها بالغَضَب، كما أن الغالب أن الرجل لا يَتَجَشَّم فضيحةَ أهله ورَمْيها بالزِّنا إلا وهو صادق معذور، وهي تَعلَم صِدْقه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسة في حَقِّها أن غَضَب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يَعلَم الحقَّ ثم يَحِيدُ عنه.

ثم ذَكَر تعالى لُطفَه بخلقه، ورَأفَته بهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: لَـحَرِجْتُمْ ولَشَقَّ عليكم كثير من أموركم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أي: على عباده -وإن كان بعد الـحَلْف والأيمان المغلظة- ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يَشرَعه ويَأمُر به وفيما يَنهَى عنه. وقد وَرَدَت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية.

ذِكْر سبب نزولها: عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قَذَفَ امرأته، فقال النبي ﷺ: «البَيِّنَةُ وإلَّا حَدٌّ في ظَهْرِك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلقُ يَلْتَمِسُ البينة؟! والذي بعثك بالحق إني لصادق، وَلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبرئ ظَهري من الحدِّ. فنَزَل جبريل وأَنْزَلَ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأَرسَل إليهما، فجاء هلال فشَهِدَ، والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» الحديث [رواه البخاري].

الآية (١١): هذه العشر الآيات كلها نَزَلَت في شأن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين رَمَاها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكَذِب البَحْتِ، والفِرْيَة التي غَارَ الله ﷻ لها ولنبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فأَنزَل الله تعالى براءتها صيانةً لعِرْض الرسول ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم في هذه اللعنة عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رأس المنافقين؛ فإنه كان يَجْمَعُه ويَسْتَوْشِيه حتى دَخَلَ ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلَّموا به، وبقي الأمر كذلك قريبًا من شهر حتى نَزَلَ القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة ... وعن أم رومان، قالت: بينا أنا عند عائشة، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله -بابنها- وفعل. فقالت عائشة: ولِمَ؟ قالت: إنه كان فيمن حدَّث الحديث. قالت عائشة: وأي حديث؟ قالت: كذا وكذا. قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم، فخرت عائشة، رضي الله عنها، مغشيا عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض. قالت: فقمت فدثرتها، قالت: وجاء النبي ﷺ فقال: «ما شأن هذه؟» قلت: يا رسول الله، أخذتها حمى بنافض. قال: «فلعله في حديث تحدث به؟». قالت: فاستوت له عائشة قاعدة فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: وخرج رسول الله ﷺ، فأنزل الله عذرها، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر، فدخل فقال: «يا عائشة، إن الله تعالى قد أنزل عذرك». فقالت: بحمد الله لا بحمدك [رواه أحمد بلفظه، والبخاري بنحوه].

﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ بالكذب والبَهْتِ والافْتِرَاء. ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أي: يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة؛ لسانُ صِدْقٍ في الدنيا ورِفعَةُ منازل في الآخرة، وإظهار شَرَف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين؛ حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢]. وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلَّم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بشيء من الفاحشة، نصيبٌ عظيمٌ من العذاب. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يَجْمَعُه ويَسْتَوْشِيه ويُذِيعه ويُشِيعه ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول قَبَّحَه الله ولَعَنَه.

الآية (١٢-١٣): هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذُكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ بمعنى: هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رُمِيَت به أم المؤمنين. ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يَلِيقُ بهم فَأُمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأَحْرَى.

[سبب النزول]: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة، رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك. وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: هَلَّا ظَنُّوا الخير؛ فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: بألسنتهم، ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كَذِبٌ ظاهرٌ على أم المؤمنين، فإن الذي وَقَع لم يَكُن ريبةً؛ وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبةً جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقتِ الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، فتعَيَّن أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البَحْت، والقول الزور، والرّعُونة الفاحشة، والصفقة الخاسرة. قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هَلَّا، ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه، ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

الآية (١٤-١٥): ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بأنْ قَبِلَ توبَتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان يَقبل الله بسببه التوبة؛ كمِسْطَح، وحسان، وحَمْنَةَ بنت جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين؛ كعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأضرابِه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة، أو عدم ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه.

ثم قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذَكَر بعضهم كذا. ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لَـمَّا كان هَيِّنا، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟!

الآية (١٦-١٨): هذا تأديب آخر بعد الأوَّل: الآمر بالظَّنِّ خيرًا، أي: إذا ذُكِر ما لا يَلِيق من القول في شأن الـخِيَرَة، فأَوْلَى [ما] يَنْبَغي: الظن بهم خيرًا، وألَّا يُشْعِر نفسه سوى ذلك، ثم إنْ عَلِق بنفسه شيء من ذلك - وسوسةً أو خيالًا- فلا ينبغي أن يَتكلَّم به. وقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أن نَتفَوَّهَ بهذا الكلام ولا نَذكُره لأحد، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سبحان الله أن يُقَال هذا الكلام على زوجةِ رسوله وحليلَةِ خليلِه. ثم قال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله مُتَوَعِّدًا أن يَقَع منكم ما يُشبه هذا أبدًا، أي: فيما يُستَقْبَل. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتُعَظِّمُون رسوله ﷺ، فأمَّا من كان مُتَّصِفًا بالكفر فذاك له حكم آخر. ثم قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يُوضِّحُ لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيّة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يُصلِحُ عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعه وقَدَره.

الآية (١٩): وهذا تأديب ثالث لمن سَمِعَ شيئا من الكلام السيئ، فقام بذهنه شيء منه، وتكَلَّم به، فلا يُكْثِر منه ويُشِيعه ويُذِيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فرُدُّوا الأمور إليه تَرْشُدُوا.

الآية (٢٠): يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطَهَّر من طَهَّر منهم بالـحَدِّ الذي أُقِيم عليه.

الآية (٢١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأَفْصَح عبارة وأَوْجَزها وأَبْلَغِها وأَحْسَنِها. قال ابن عباس: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: عمله. وقال عكرمة: نَزَغَاته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ أي: لولا هو يَرزُقُ من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويُزَكِّي النفوس من شِرْكها وفُجُورها ودَسِّها وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحَسَبه، لَـمَا حَصَّل أحد لنفسه زكاةً ولا خيرًا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ أي: من خَلقِه، ويُضِلُّ من يشاء ويُردِيه في مَهَالِك الضَّلَال والغيِّ. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمُۢ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

الآية (٢٢): ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ من الأَلِيَّة، وهي: الـحَلِف، أي: لا يَحلِف ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ أي: الطَّوْل والصَّدَقَة والإحسان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: الجِدَة؛ ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تَحلِفُوا ألَّا تَصِلُوا قراباتكم المساكين والمهاجرين.

وهذه في غاية التَّرَفُّق والعَطْف على صِلَة الأرحام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ أي: عمَّا تقدَّم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حِلْمِه تعالى وكَرَمه ولُطْفِه بخَلقِه مع ظلمهم لأنفسهم.

[سبب النزول]: وهذه الآية نَزَلَت في الصِّدِّيق، حين حَلَفَ ألَّا يَنفَع مِسْطَح بن أُثَاثَة بنافعةٍ أبدًا بعدما قال في عائشة ما قال. فلمَّا أَنزَل الله براءةَ أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرَّت، وتاب الله على من كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقِيمَ الحدُّ على من أُقِيمَ عليه - شَرَع تبارك وتعالى يُعَطِّفُ الصِّدِّيقَ على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَح بن أُثَاثَة؛ فإنه كان ابن خالة الصِّدِّيق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما يُنْفِق عليه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة[1] تاب الله عليه منها، وضُرب الحدَّ عليها. وكان الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروفًا بالمعروف، له الفَضْل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلمَّا نَزَلَت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ الآية -أي: فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكما تَغفِر ذَنْبَ من أَذْنَبَ إليك يَغفِر الله لك، وكما تَصفَح يُصفَح عنك، فعند ذلك قال الصِّدِّيق: بلى، والله إنا نُحِبُّ أن تَغفِر لنا يا ربَّنا. ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يَصِله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصِّدِّيق هو الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن ابنته.

الآية (٢٣-٢٥): هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يَرمُون الـمُحْصَنَات الغافلات المؤمنات -خُرِّج مَخْرَج الغالب- فأُمَّهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل مُحصَنَة، ولا سيِّما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقد أجمع العلماء قاطبةً على أن مَن سَبَّها بعد هذا فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الآية كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب:٥٧]. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح.

وقوله: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾ الآية عن أنس [مرفوعًا]: «...فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام عليك شهودًا. فيُخْتَم على فِيه، ويُقَال لأركانه: انطِقي، فتَنطِق بعمله، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعَنْكُنَّ كُنتُ أُناضل» [رواه مسلم]. وقال قتادة: ابنَ آدم، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ مُتَّهَمَة مِن بَدَنِك، فرَاقِبهم، واتَّقِ الله في سِرِّك وعلانيتك؛ فإنه لا يَخفَى عليه خافية، الظُّلمة عنده ضَوء، والسِّرُّ عنده علانية، فمن استطاع أن يَموتَ وهو بالله حَسَن الظَّنِّ، فَلْيَفْعَل، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ قال ابن عباس: أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد. وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: وَعْدُه ووعيده وحسابه هو العدل، الذي لا جَوْرَ فيه.

الآية (٢٦): قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك. وهكذا رُوي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جُبَير وغيرهم. واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نَسَبَه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. وهذا -أيضًا- يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طَيِّب من البَشَر، ولو كانت خبيثةً لَـمَا صَلُحَتْ له، لا شَرعًا ولا قَدَرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَداء عمَّا يقوله أهل الإفك والعدوان، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: بسبب ما قِيل فيهم من الكَذِب، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم. وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

الآية (٢٧): هذه آداب شرعية، أَدَّبَ الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان؛ أمرهم ألَّا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا؛ أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلّموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أُذِنَ له، وإلا انصرف، كما ثَبَتَ أن أبا موسى قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يُؤذَن له، فلْيَنْصَرِف» [متفق عليه]. وقال مجاهد: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ قال: تَنحنَحُوا أو تَنَخَّموا.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنى: هو خير للطرفين: لِلمُسْتَأذِن ولأهل البيت ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) الواو واللام والقاف: كلمة تدل على إسراع وخفة [معجم مقاييس اللغة]، والوَلْقُ: أخف الطعن [لسان العرب]؛ فمقصود ابن كثير أنه تعجل بالخوض في الإفك ولم يقصده ولا تبنَّاه.

الآية (٢٨-٢٩): ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وذلك لِمَا فيه من التَّصَرُّف في مِلْك الغير بغير إذنه، فإن شاء أَذِنَ، وإن شاء لم يَأْذَن، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: إذا رَدُّوكم من الباب قبلَ الإذن أو بعده ﴿فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر، وقال سعيد بن جبير: أي: لا تقفوا على أبواب الناس. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة أَخَصُّ من التي قبلها؛ وذلك أنها تَقْتَضِي جَوَاز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له فيها مَتَاع، بغير إذن؛ كالبيت الـمُعَدِّ للضيف، إذا أُذِنَ له فيه أول مرَّة كفى. وقال آخرون: هي بيوت التجار؛ كالخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهر، والله أعلم.

الآية (٣٠): هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يَغُضُّوا من أبصارهم عمَّا حَرَّم عليهم، فلا ينظروا إلَّا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يَغُضُّوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتَّفَق أن وَقَع البصر على مُحَرَّم من غير قَصد، فليَصْرِف بَصَرَه عنه سريعًا، كما روي عن جرير قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بَصَري [رواه مسلم].

ولـمَّا كان النظر داعيةً إلى فساد القلب، أمر الله بحِفظ الفروج كما أَمَر بحفظ الأبصار التي هي بَوَاعِث إلى ذلك، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾. وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمَنْعِه من الزِّنا، وتارةً يكون بحفظه من النظر إليه. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

الآية (٣١): هذا أمْرٌ من الله للنساء المؤمنات، وغيْرَةٌ منه لأزواجهنَّ المؤمنين، وتمييزٌ لـهُنَّ عن صفة نساء الجاهلية وفِعَال المشركات؛ فقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أي: عمَّا حَرَّم الله عَلَيْهِنَّ من النَّظَر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذَهَب كثير من العلماء إلى أنه: لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلًا. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نَظَرِهِنَّ إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت أن رسول الله [رواه البخاري] ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى ملَّت ورجعت [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جُبَيْر: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عمَّا لا يَحِلُّ لـهُنَّ. وقال مقاتل: عن الزِّنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يُظهِرْنَ شيئًا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه؛ قال ابن مسعود: كالرِّدَاء والثياب. وقال ابن عباس: وجهها وكفَّيها والخاتم.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: الـمَقَانع يُعمَل لها صَنَفَات ضَارِبَات على صدور النساء، لتُوَاري ما تَحتَها من صَدْرها وتَرائِبِها؛ ليُخَالِفْن شِعَارَ نساء أهل الجاهلية؛ فإنهن لم يكن يَفعَلْن ذلك. فأَمَر الله المؤمنات أن يَستَتِرْن في هَيْئَاتِهن وأحوالهن؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩]

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والـخُمُر: جمع خِمَار، وهو ما يُخَمَّر به، أي: يُغَطَّى به الرأس، وهي التي تُسَمِّيها الناس الـمَقَانع. قال سعيد بن جبير: ولِيَشْدُدْن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: على النَّحْر والصَّدْر، فلا يُرَى منه شيء.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: أزواجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تَظْهَر عليهم بزينتها، ولكن من غير اقتِصَاءٍ[1] وَتَبَهْرُج. وقال عِكْرِمَة: لم يذكر العمَّ ولا الخال؛ لأنَّهما ينْعَتان لأبنائهما... فأمَّا الزَّوج فإنَّما ذلك كُلُّه من أَجلِه، فتَتَصَنَّع له ما لا يكون بحَضْرة غيره.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: تُظهِر زينَتَها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تَصِفَهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ، وأمَّا المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فَتَنْزَجِرُ عنه. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تُبَاشِرْ المرأةُ المرأةَ، تَنْعَتُهَا لزوجِها كأنه يَنظُر إليها» [متفق عليه]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وإن كانت مشركةً؛ لأنها أَمَتُها. وإليه ذهب سعيد بن المسيَّب. وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تَظهَر على رقيقها من الرجال والنساء.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يعني: كالأُجَرَاء والأَتبَاع الذين ليسُوا بِأَكْفَاء، وهم مع ذلك في عُقولهم وَلَهٌ وحَوْب[2]، ولا هَمَّ لهم إلى النساء ولا يَشْتَهُونَهُنَّ. قال ابن عباس: هو الـمُغَفَّلُ الذي لا شَهْوَةَ له. وقال مجاهد: هو الأَبْلَهُ. وعن عائشة؛ أن مُخَنَّثًا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدّونه من غير أولي الإربة، فدخل النبيّ ﷺ وهو يَنْعَتُ امرأةً. فقال رسول الله ﷺ: «لا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» فأَخْرَجَه [رواه مسلم].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لِصِغَرِهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتِهنَّ. فأمَّا إن كان مُرَاهِقًا أو قريبًا منه، بحيث يَعرِفُ ذلك ويَدْريه، ويُفَرِّق بين الشَّوهَاء والـحَسْنَاء، فلا يُمَكَّن من الدخول على النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق -وفي رجلها خلخال- ضَرَبَت برِجْلِها الأرض فيَسمَع الرجال طَنِينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا، فتَحَرَّكَت بحركةٍ لتُظهِر ما هو خفي، دَخَل في هذا النهي. ومن ذلك أيضًا أنها تُنهَى عن التَّعَطُّر والتَّطَيُّب عند خروجها من بيتها فيَشُمُّ الرجالُ طِيبَها.

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرَّذِيلة، فإن الفَلاح كل الفَلاح في فِعْل ما أَمَر الله به ورسوله، وتَرْك ما نَهَيا عنه.

---

(١) أي: من غير مبالغة في ذلك؛ من الاستقصاء بمعنى بلوغ الغاية القصوى.

(٢) الوله: ذهاب العقل. والحوب: ضَعْفُه. [ينظر القاموس المحيط، مادتي: (وله) و(حوب)].

الآية (٣٢-٣٤): ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ هذا أمر بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قَدَر عليه. ا﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: جمع أَيِّم، ويُقَال ذلك للمرأة التي لا زَوجَ لها، وللرجل الذي لا زَوجَة له. وسَواءٌ كان قد تزوَّج ثم فَارَق، أو لم يَتزَوَّج واحد منهما.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: رَغَّبَهُم الله في التزويج، وأَمَرَ به الأحرارَ والعبيد، ووَعَدَهم عليه الغِنَى. وعن ابن مسعود: التَمِسُوا الغِنَى في النكاح. ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذا أَمْرٌ من الله تعالى لِـمَن لا يَجِد تزويجًا بالتَّعَفُّف عن الحرام؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [متفق عليه]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: هذا أَمرٌ من الله تعالى للسَّادَة إذا طَلَب منهم عَبيدُهم الكتابةَ أن يُكاتِبُوا، بِشَرْط أن يكون للعبد حيلةٌ وكَسْبٌ يُؤَدِّي إلى سَيِّده المال الذي شَارطه على أدائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشاد واستحباب، لا أمر تَحَتُّم وإيجَاب. وذهب آخرون إلى أنه يجب. واختار ابن جرير الوجوب لظَاهر الآية. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانةً. وقيل: صِدْقًا. وقيل: مالًا، وقيل: حِيلةً وكَسبًا.

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قيل: معناه اطْرَحُوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: جزء من الكتابة من غير حَدٍّ. وقال آخرون: بل المراد هو النصيب الذي فَرَضَ الله لهم من أموال الزكوات. وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل. واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية. كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أَمَةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبةً يأخذها منها كلَّ وقت. فلمَّا جاء الإسلام نهى الله المسلمين عن ذلك. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة -فيما ذكره غير واحد من المفسرين من السَّلَف والـخَلَف- في شأن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول المنافق، فإنه كان له إماء، فكان يُكرِهُهُن على البِغاء طلبًا لخَراجهن، ورغبةً في أولادهن، ورياسةً منه فيما يَزعُم. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: هذا خَرَج مخرج الغالب، فلا مفهوم له[1]. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مِن خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن. وقد نهى رسول الله ﷺ، عن كسب الحجَّام، ومهر البَغيّ، وحُلْوان الكاهن [متفق عليه].

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لَـهُنَّ، وقال ابن عباس: إِثْمُهُنَّ على من أَكرَهَهُنَّ. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحات مُفَسِّرات.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خَبَرًا عن الأمم الماضية، وما حَلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي: زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتَّقَى الله وخَافَه.

الآية (٣٥): ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: هادِي أهل السموات والأرض. وقال مجاهد وابن عباس: يُدَبِّر الأمر فيهما؛ نجومهما وشمسهما وقمرهما. وقال أنس بن مالك: إن إلهي يقول: نوري هُداي. واختار هذا القول ابن جرير. وقال السُّدي: فبنوره أضاءت السموات والأرض. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في هذا الضمير قولان: أحدهما: أنه عائد إلى الله ﷻ، أي: مَثَل هُداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، قاله ابن عباس. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دَلَّ عليه سياق الكلام، وتقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾. فشَبَّهَ قَلبَ المؤمن في صفائه في نَفْسِه بالقنديل من الزجاج الشَّفَّاف الجوهري، وما يَسْتَهْدِيه من القرآن والشَّرْع بالزيت الجيِّد الصافي الـمُشرِق المعتدل، الذي لا كَدَر فيه ولا انحراف.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل. هذا هو المشهور. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو الذُّبالة التي تُضِيء.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ كأنها كوكب من دُرٍّ. قال أُبَيُّ بن كعب: كوكبٌ مضيءٌ. وقال قتادة: مضيء مُبين ضَخْم. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ أي: يَسْتَمِدُّ من زيت زيتون شجرة مباركة، ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدلٌ أو عطفُ بيان، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهر ضَاحٍ للشمس، تَفْرَعُهُ من أوَّل النهار إلى آخره، ليكونَ ذلك أصفى لزيتها وأَلْطَف، كما قال غير واحد؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد: يعني: لِضَوْء إِشْرَاق الزَّيت. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال ابن عباس: إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد والسدي: نور النار ونور الزيت. وقال أُبَيّ: فهو يتَقَلَّب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومَدْخَلُه نور، ومَخْرَجُه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة. وقال السُّدي: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يُضِيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُرشِدُ الله إلى هدايته من يختاره.

لَـمَّا ذَكَر تعالى هذا مثلًا لنور هُدَاه في قلب المؤمن، خَتَم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو أعلم بمن يَستَحِقُّ الهداية ممَّن يَستحِقُّ الإضلال.

الآية (٣٦): ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ هي المساجد ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أَمَر الله بتَعاهُدها وتطهيرها من الدَّنَس واللَّغو والأفعال والأقوال التي لا تَلِيقُ فيها، قال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله ببنائها وعِمَارتها ورَفْعها وتطهيرها، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة». أخرجاه في الصحيحين. وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: اسم الله، قال ابن عباس: يعني: يُتلى فيها كتابه. وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ أي: في البُكرات والعَشِيَّات. ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال ابن عباس: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: صلاة الغداة، ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأَحَبَّ أن يَذْكُرهما وأن يُذَكِّر بهما عباده.

---

(١) يريد أن أسلوب الشرط هنا ليس له مفهوم مخالف؛ بحيث لو لم يردن التحصن فلا بأس بدفعهن للبغاء! وإنم جاء قيد الشرط لأن هذا هو الغالب حال الإكراه. ولإيراده هنا نكتة بلاغية؛ حيث يفيد التنفير من الإكراه.

الآية (٣٧-٣٨): قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بِهِمَمِهم السَّامِية ونِيَّاتهم وعزائمهم العَالية التي بها صاروا عُمَّارًا للمساجد؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا تَشغَلُهم الدنيا وزُخْرُفها وزينتها ومَلاذُّ بَيعها ورِبحها عن ذِكْر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع ممَّا بأيديهم؛ لأن ما عندهم يَنفَد وما عند الله باقٍ؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: يقدِّمون طاعته ومُرَاده ومحبَّته على مرادهم ومحبتهم. قال ابن عباس: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة. وقال السُّدي: عن الصلاة في جماعة. وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من شِدَّة الفَزَع وعظمة الأهوال؛ كما قال تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: هؤلاء من الذين يَتَقَبَّل عنهم أحسن ما عملوا ويَتَجَاوَز عن سيئاتهم. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يَتَقَبَّل منهم الحَسَن ويُضَاعِفه لهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية (٣٩-٤٠): هذان مثلان ضَرَبَهما الله تعالى لِنَوعَي الكفار؛ فأما الأول: فهو للكفار الدُّعَاة إلى كُفْرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمَثَلُهم في ذلك كالسراب الذي يُرَى في القيعان من الأرض عن بُعْد كأنَّه بَحرٌ طام. ﴿بِقِيعَةٍ﴾ الْقِيعَةُ: جمع قاع، كجَار وجِيرَةٍ، والقاع أيضًا: واحد القِيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية الـمُتَّسِعَة الـمُنْبَسِطَة، وفيه يكون السَّرَاب، يُرَى كَأَنَّه ماءٌ بين السماء والأرض، فإذا رأى السَّرَاب من هو محتاج إلى الماء، حَسِبَه ماءً فقَصَدَه ليَشرَب منه، فلمَّا انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، فكَذَلك الكافر يَحسِبُ أنه قد عَمِلَ عَمَلًا، وأنه قد حَصَّل شيئًا، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونُوقِشَ على أفعاله، لم يَجِدْ له شيئًا بالكُلِّية قد قُبِل؛ إمَّا لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. وقال ههنا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وهكذا رُوي عن أُبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد.

وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب.

فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام الـمُقَلِّدُون لأئمة الكفر، الصُّمُّ البُكْم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ قال قتادة: وهو العَمِيق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يُقَارِبْ رؤيتها من شدَّة الظلام، فهذا مَثَلُ قَلْب الكافر الجاهل البسيط الـمُقَلِّدِ الذي لا يدري أين يذهب، ولا يعرف حال من يَقُوده. وقال ابن عباس: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾: يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر. وقال أُبيّ بن كعب في قوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: فهو يَتَقَلَّبُ في خمسة من الظُّلَم: كلامه ظُلمَة، وعمله ظُلمَة، ومَدْخَله ظُلمَة، ومَخْرَجه ظُلمَة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات، إلى النار. وقال الربيع بن أنس والسُّدِّي نحو ذلك أيضًا. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يَهْده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، وهذا في مُقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [المؤمنون:٣٥] فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورًا، وعن أيماننا نورًا، وعن شمائلنا نورًا، وأن يُعْظِم لنا نورًا.

الآية (٤١-٤٢): يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُ له من في السموات والأرض؛ أي: من الملائكة والأناسي، والجانِّ والحيوان، حتى الجماد؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ الآية [الإسراء:٤٤]. وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: في حال طيرانها تُسَبِّح ربها وتَعبُدُه بتسبيح أَلْـهَمَهَا وأَرْشَدَهَا إليه، وهو يَعلَم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كُلٌّ قد أَرْشَدَهُ إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم أخبر أن له: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو الحاكم الْـمُتَصَرِّفُ الذي لا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، فهو الخالق المالك، ألا له الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والآخرة.

الآية (٤٣): يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أوَّلَ ما يُنْشِئُها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يَجمَعُه بعد تَفَرُّقه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكمًا، أي: يركب بعضه بعضًا، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: «مِنْ خَلَلِهِ». وكذا قرأها ابن عباس والضحاك.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قال بعض النحاة: «من» الأُوْلى لابتداء الغاية، والثانية للتَّبعِيض، والثالثة لبيان الجنس. وهذا إنما يَجِيءُ على قول من ذَهَب من المفسرين إلى أن معناه: أن في السماء جبالَ بَرَد يُنَزِّلُ الله منها البرد. وأما من جَعَل الجبال ههنا كنايةً عن السحاب، فإن «مِن» الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا، لكنها بَدَل من الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ يُحتَمَل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما يُنَزِّل من السماء من نوعي البرد والمطر، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمةً لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤَخِّر عنهم الغَيْث.

ويُحتَمَل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبرد نقمةً على من يشاء لِـمَا فيه من نَثْر ثمارهم وإتلاف زُرُوعهم وأشجارهم. ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ رحمةً بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: يكاد ضَوء بَرْقِه من شِدَّته يَخْطِف الأبصار إذا اتَّبَعَتْه وتَرَاءَتْه.

الآية (٤٤): ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يَتَصَرَّفُ فيهما، فيأخذ من طُوْل هذا في قِصَر هذا حتى يَعْتَدِلَا، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيَطُول الذي كان قصيرًا، ويَقْصُر الذي كان طويلًا. والله هو المُتَصَرِّف في ذلك بأَمره وقَهْره وعِزَّته وعِلْمه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: لدليلًا على عظمته تعالى. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] وما بعدها من الآيات.

الآية (٤٥): يَذْكُر تعالى قدرته التَّامة وسلطانه العظيم في خَلقه أنواعَ المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحَرَكَاتها وسَكَنَاتها، من ماءٍ واحد، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحَيَّة وما شَاكَلَهَا، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطَّيْر، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شَاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يكن؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية (٤٦): يُقَرِّرُ تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكم والحِكم والأمثال البينة المحكمة، كثيرًا جدًا، وأنه يُرشِدُ إلى تَفَهُّمِهَا وَتَعَقُّلِهَا أولي الألباب والبصائر والنُّهَى. ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية (٤٧-٥٢): يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يُظْهِرُونَ خلاف ما يُبطِنُونَ، يقولون قولًا بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يُخَالِفُونَ أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أي: إذا طُلِبُوا إلى اتِّبَاع الهُدَى فيما أَنْزَل الله على رسوله، أَعْرَضُوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتِّباعه؛ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦٠-٦١].

وقوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: إذا كانت الحُكُومَة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مُطِيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾، وإذا كانت الحُكُومَة عليه أَعْرَضَ ودعا إلى غير الحقِّ، وأَحَبَّ أن يَتَحَاكم إلى غير النبي ﷺ لِيُرَوِّجَ بَاطِلَه ثَمَّ. فَإِذْعَانُهُ أَوَّلًا لم يَكُن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحقُّ، بل لأَنَّه مُوَافِق لهواه؛ ولهذا لَمَّا خالف الحقُّ قَصْدَه، عَدَلَ عنه إلى غيره.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: لا يَخْرُجُ أَمْرُهُم عن أن يكون في القلوب مَرَضٌ لازمٌ لها، أو قد عَرَضَ لها شكٌّ في الدين، أو يَخَافُون أن يَجُورَ الله ورسوله عليهم في الحُكْم.

وأَيًّا ما كان فهو كُفْرٌ مَحْضٌ، والله عليم بِكُلٍّ مِنهم، وما هو عليه مُنْطَوٍ من هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مُبَرَّآنِ ممَّا يَظُنُّون ويَتَوَهَّمُون من الحَيْفِ والجَوْر، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون دينًا سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعًا وطاعةً؛ ولهذا وَصَفَهم تعالى بالفَلَاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أَمَرُوا بطاعة الله أكثر من أن تُحْصَرَ في هذا المكان.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قال قتادة: فيما أَمَرَاه به وَتَرْك ما نهياه عنه، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مَضَى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يَسْتَقْبِلُ.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأَمِنُوا من كل شرٍّ في الدنيا والآخرة.

الآية (٥٣): يقول تعالى مُخبرًا عن أهل النفاق، الذين كانوا يَحلِفُون للرسول ﷺ: لَئِنْ أَمَرْتَهُم بالخروج في الغزو لَيَخْرُجُنَّ، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ أي: لا تحلفوا.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه: طاعتُكم طاعةٌ معروفةٌ؛ أي: قد عُلِم طاعتكم، إنما هي قولٌ لا فِعْلَ معه، وكلَّما حَلَفْتُم كَذَبْتم؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:٢]، فَهُمْ من سَجِيَّتِهِم الْكَذِب حتى فيما يختارونه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر:١١-١٢].

وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: لِيَكُنْ أَمْرُكُم طاعةً معروفةً، أي: بالمعروف من غير حَلِف ولا إِقْسَام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حَلِف، فكونوا أنتم مثلهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو خبير بكم، وبمن يُطِيع ممَّن يَعْصِي، فالحَلِف وإظهار الطاعة -والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق- فالخالق تعالى يعلم السِّرَّ وأَخْفَى، لا يَرُوج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده، وإن أظهروا خلافها.

الآية (٥٤): ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: اتَّبِعوا كتاب الله وسنة رسوله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تَتَوَلَّوا عنه وتَتْرُكُوا ما جاءكم به، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة.

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: من ذلك، وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

الآية (٥٥): هذا وَعدٌ من الله لرسوله ﷺ، بأنه سيجعل أُمَّته خلفاء الأرض؛ أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبَدِّلَنَّهُم من بعد خوفهم أَمْنًا وحُكْمًا فيهم، وقد فَعَل تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة؛ فها نحن نتقلَّب فيما وَعَدَنا الله ورسوله، وصَدَق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يُرضيه عَنَّا.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٥-٦].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعديِّ بن حاتم حين وَفَدَ عليه: «أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعتُ بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى تَخْرُج الظَّعِينَة من الحِيْرَة حتى تطوف بالبيت في غير جِوار أحد، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، ولَيُبْذَلَنّ المالُ حتى لا يَقْبَلَهُ أحد» [رواه البخاري].

قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ عن معاذ بن جبل قال: بَيْنَا أنا رَدِيف رسول الله ﷺ، قال: «يا معاذ»، قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيك. قال: «هل تَدْرِي ما حَقُّ الله على العباد؟»، قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «حَقُّ الله على العباد أن يَعبُدُوه ولا يُشْرِكوا به شيئًا». قال: «فهل تَدْرِي ما حَقُّ العباد على الله إذا فَعَلُوا ذلك؟»، قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حَقَّ العِبَاد على الله أن لا يُعَذِّبَهُم» [متفق عليه].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: فمن خَرَجَ عن طاعتي بعد ذلك فقد فَسَقَ عن أَمْر رَبِّه، وكَفَى بذلك ذنبًا عظيمًا. فالصحابة ﷺ لَـمَّا كانوا أقوَم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ، وأطوعهم لله كان نَصْرُهُم بِحَسَبِهِم، وأَظْهَرُوا كلمةَ الله في المشارق والمغارب، وأَيَّدَهم تأييدًا عظيمًا، وتحكَّموا في سائر العباد والبلاد. ولَـمَّا قَصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نَقَصَ ظهورهم بِحَسَبِهِم، ولكن قد ثَبَت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ، لا يَضُرُّهم من خَذَلَهم ولا من خَالفهم إلى يوم القيامة».

الآية (٥٦-٥٧): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين: ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ؛ أي: سالكين وراءه فيما به أَمَرَهم، وتاركين ما عنه زَجَرَهم، لعلَّ الله يرحمهم بذلك. ولا شكَّ أن من فَعَل هذا أن الله سيرحمه؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٧١].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا تَظُنَّ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: خالفوك وكذَّبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيُعَذِّبهم على ذلك أَشَدَّ العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل مآلُ الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

الآية (٥٨): هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض. وما تَقَدَّم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض. فأَمَرَ الله تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خَدَمُهم ممَّا مَلَكَت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يَبْلُغوا الحُلُم منهم في ثلاثة أحوال: الأول: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فُرُشِهم، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يَضَعُ ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾؛ لأنه وقت النوم، فيُؤمَرُ الخَدَمُ والأطفال ألَّا يَهجُمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لِـمَا يُخشَى من أن يكون الرجل على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال.

ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: إذا دَخَلُوا في حال غير هذه الأحوال فلا جُنَاح عليكم في تمكينكم إيَّاهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئًا في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أُذِنَ لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ عليكم، أي: في الخِدْمة وغير ذلك، ويُغتَفَر في الطَّوَّافين ما لا يُغتَفَر في غيرهم.

ولَـمَّا كانت هذه الآية محكمةً، ولم تُنسَخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلًا جدًا، أَنْكَرَ ابن عباس ذلك على الناس فقال: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]، والآية التي في الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ومِمَّا يَدُلُّ على أنها مُحكَمَة لم تُنْسَخ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية (٥٩-٦٠): ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ يعني: إذا بَلَغَ الأطفال الذين إنَّما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بَلَغُوا الحُلُمَ، وَجَبَ عليهم أن يستأذنوا على كلِّ حال، يعني بالنِّسبَة إلى أجانبهم، وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث. قال يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رَبَاعِيًّا فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بَلَغَ الحُلُم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبير. وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكِبَار من وَلَدِ الرَّجُل وأقاربه. وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال سعيد بن جُبَيْر ومُقاتل ابن حَيَّان وقتادة والضحاك: هنَّ اللَّواتي انقطع عنهن الحيض، ويَئِسْنَ من الوَلَد، ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يَبْقَ لَهُنَّ تَشوُّف إلى التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليها من الحَرَج في التَّستُّر كما على غيرها من النساء. قال ابن مسعود: ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: الجلباب، أو الرِّدَاء: وكذا رُوي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وغيرهم. وقال سعيد بن جبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يَتَبَرَّجْنَ بوَضْع الجلباب، أن يُرى ما عليها من الزينة. وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وتَرْك وَضْعِهِنَّ لِثِيَابِهِنَّ -وإن كان جائزًا- خير وأفضل لهنَّ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الآية (٦١): اختلف المفسرون -رحمهم الله- في المعنى الذي رُفِعَ من أَجْلِهِ الحَرَج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا؛ فقال عطاء الخُرَاساني وعبد الرحمن بن زيد: نَزَلَت في الجهاد؛ أي: أنهم لا إِثْم عليهم في تَركِ الجهاد؛ لضَعْفِهم وعَجْزِهم. وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يَتَحَرَّجُون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يَرى الطعام وما فيه من الطَّيِّبَات، فربَّما سَبَقَه غيره إلى ذلك، ولا مَعَ الأعرج؛ لأنه لا يَتَمَكَّن من الجلوس، فيَفْتَاتُ عليه جَلِيسُه، والمريض لا يَسْتَوْفي من الطعام كغيره، فكَرِهُوا أن يُؤَاكِلُوهم لئلا يَظلِمُوهم، فأَنْزَل الله هذه الآية رخصةً في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير ومِقْسَم. وقال الضحاك: كانوا قبل المَبْعَث يَتَحَرَّجُون من الأكل مع هؤلاء تَقَذُّرًا وتَقَزُّزًا، ولئلا يَتَفَضَّلُوا عليهم، فأَنْزَلَ الله هذه الآية.

وقال السُّدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتُتْحِفُه المرأة بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رَبَّ البيت ليس ثَمَّ. فقال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ إنما ذَكَر هذا -وهو معلوم- ليعطفَ عليه غيره في اللفظ، وليُسَاويه ما بعده في الحُكْم. وتَضَمَّن هذا بيوت الأبناء؛ لأنه لم يَنُصَّ عليهم. ولهذا استدلَّ بهذا من ذَهَب إلى أنَّ مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك» [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه إسناده أحمد شاكر].

وقوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ هذا ظاهر. وقد يَسْتَدِلُّ به من يُوجِب نَفَقَة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما. وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ فقال سعيد بن جُبَير والسُّدِّي: هو خادم الرجل من عَبد وقَهْرَمان، فلا بأس أن يأكل ممَّا استودعه من الطعام بالمعروف.

[سبب النزول]: عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم، ويقولون: قد أَحْلَلْنا لكم أن تأكلوا ما احتَجْتُم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يَحِلُّ لنا أن نأكل؛ إنهم أَذِنُوا لنا عن غير طِيْب أنفسهم، وإنما نحن أُمَنَاء. فأَنْزَل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا عَلِمْتم أن ذلك لا يَشُقُّ عليهم، ولا يَكرَهون ذلك. وقال قتادة: إذا دَخَلْت بيت صَديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [سبب النزول]: قال ابن عباس في هذه الآية: وذلك لَمَّا أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:٢٩]، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يَحِلُّ لأحد مِنَّا أن يأكل عند أحد. فكَفَّ الناسُ عن ذلك، فأَنْزَل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾. وكانوا أيضًا يَأْنَفُون ويَتَحَرَّجُون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فرَخَّصَ الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. فهذه رُخْصَة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأَبْرَك، كما روي أنّ رجلًا قال للنبيّ ﷺ: إنا نأكلُ ولا نَشْبَع. قال: «فلعلَّكم تأكلون مُتَفَرِّقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يُبَارِكْ لكم فيه» [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصري: فليُسَلِّم بعضكم على بعض. وقال جابر: إذا دخلتَ على أهلك فسَلِّم عليهم ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾. وقال مجاهد: إذا دَخَلْتَ المسجد فقُل: السلام على رسول الله. وإذا دَخَلْتَ على أهلك فسَلِّم عليهم، وإذا دَخَلْتَ بيتًا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا ذَكَر تعالى ما في السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المُتْقَنَة المُبْرَمَة، نَبَّه تعالى على أنه يُبَيِّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا، ليَتَدَبَّروها ويَتَعَقَّلوها لعلهم يَعقِلُون.

الآية (٦٢): وهذا أيضًا أَدَبٌ أَرشَدَ الله عبادَه المؤمنين إليه، فكما أَمَرَهُم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أَمَرَهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أَمْرٍ جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أَمَرَهم الله تعالى ألَّا يَتَفَرَّقوا عنه -والحالة هذه- إلَّا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين. ثم أَمَرَ رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ الآية.

الآية (٦٣): قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك؛ إعظامًا لنبيه ﷺ. قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جُبَير. وقال قتادة: أَمَرَ الله أن يُهَابَ نبيُّه ﷺ، وأن يُبَجَّل وأن يُعَظَّم وأن يُسَوَّد. هذا قولٌ، وهو الظاهر من السياق؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. فهذا من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أُمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

والقول الثاني: أن المعنى: لا تعتقدوا أن دعاءَه على غيره كدعاء غيره؛ فإن دعاءَه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتَهْلِكوا. حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن والعَوفي، والله أعلم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقون. وقال السُّدي: إذا كانوا معه في جماعة، لاذَ بعضهم ببعض، حتى يتَغَيَّبوا عنه، فلا يراهم. وقال قتادة: يعني: لِوَاذًا عن نبيِّ الله وعن كتابه. وقال سفيان: مِن الصَّفِّ. وقال مجاهد: ﴿لِوَاذًا﴾: خلافًا.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته، فَتُوزَنُ الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافَقَ ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عَمِل عَمَلًا ليس عليه أَمْرنا؛ فهو رَدٌّ» [وهذا لفظ مسلم]. أي: فَلْيَحْذَر وليخْشَ من خَالَف شريعةَ الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كُفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتلٍ أو حَدٍّ أو حَبْس أو نحو ذلك.

الآية (٦٤): يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سِرِّهم وجَهْرِهم، فقال: ﴿قَدْ﴾ و«قد» للتحقيق؛ كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مُشَاهِد له، كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، فهو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم يَرْجِعُ الخلائق إلى الله -وهو يوم القيامة- ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: يُخَبِّرُهُم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقير، وصغير وكبير؛ كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية، [وآياتها (٧٧) آيةً].

الآية (١-٢): يقول تعالى حامدًا نفسه الكريمة على ما نَزَّلَه على رسوله الكريم من القرآن العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [الكهف: ١]. وقال ههنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تَفَاعُلٌ من البركة المُسْتَقِرَّة الدائمة الثابتة.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نَزَّل: فَعَّل، من التَّكَرُّر والتَّكَثُّر؛ لأن الكتب المُتَقَدِّمَة كانت تَنْزِل جملةً واحدةً، والقرآن نَزَل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا، آياتٍ بعد آياتٍ، وأحكامًا بعد أحكام، وسُورًا بعد سُوَر. وهذا أشدُّ وأَبلَغ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِلَ عليه، كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ولهذا سماه ههنا الفرقان؛ لأنه يَفْرِقُ بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغيّ والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صفة مَدْح وثَنَاء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وَصَفَه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وكما وَصَفَهُ بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وَصَفَه عند إنزال الكتاب عليه ونزول المَلَك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خَصَّه بهذا الكتاب العظيم المُبِين المُفَصَّل المُحْكَم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جَعَلَه فرقانًا عظيمًا، إنما خَصَّه به ليَخُصَّه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود» [رواه مسلم]. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كُنْ فيكون. وهو الذي يُحيي ويُميت، وهكذا قال ههنا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فَنَزَّه نفسه عن الوَلَد، وعن الشريك. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء ورَبُّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قَهْره، وتدبيره وتقديره.

الآية (٣): يُخْبِر تعالى عن جَهل المشركين في اتِّخاذهم آلهةً من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأَزِمَّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يَكُن، ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام ما لا يَقْدِر على خَلْق جَنَاح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضَرًّا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعابديهم؟!

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُم، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن. وهو الذي لا وَلَدَ له ولا والد، ولا عَدِيل ولا نَدِيد ولا وَزِيرَ ولا نظير، بل هو الأَحَد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

الآية (٤-٦): يقول تعالى مخبرًا عن سَخَافة عقول الجَهَلَة من الكفار، في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كَذِب.

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنون: النبي ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جَمْعِه بقوم آخرين، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: فقد افتروا هم قولًا باطلًا، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كَذِبَ أنفسهم فيما يزعمون.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنون: كُتُبُ الأوائل استنسخها، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: في أول النهار وآخره. وهذا الكلام -لسخافته وكَذِبِه وبُهْتِه منهم- كُلُّ أحد يَعلَم بطلانه؛ فإنه قد عُلِم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أوَّل عمره ولا في آخره، وقد نَشَأ بين أَظْهُرهم من أوَّل مَولِده إلى أن بَعَثَه الله نَحْوًا من أربعين سنةً، وهم يعرفون مَدْخَله ومَخْرَجه، وصِدقه، وبِرَّه وأمانته ونزاهته من الكَذِب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسَمُّونَه في صِغَره إلى أن بُعِثَ إلا الأمين، لِمَا يعلمون من صِدْقِه وبِرِّه. فلمَّا أَكرَمه الله بما أَكرَمه به، نَصَبُوا له العداوة، وَرَمَوْه بهذه الأقوال التي يَعلَمُ كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يَقذِفُونه به، فتارةً من إفكهم يقولون: ساحر، وتارةً يقولون: شاعر، وتارةً يقولون: مجنون، وتارةً يقولون: كَذَّاب، قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٨، الفرقان:٩].

وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَنزَل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًّا صِدْقًا مُطَابِقًا للواقع، ماضيًا ومستقبلًا.

﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دعاءٌ لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حِلْمَه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كَذِبهم وافترائهم وفُجُورهم وبُهْتِهم وكُفْرِهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عمَّا هم فيه إلى الإسلام والهدى؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣-٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، قال الحسن: انظروا إلى هذا الكَرَم والجود؛ قَتَلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

الآية (٧-١١): يخبر تعالى عن تَعَنُّت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحقِّ بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تَعَلَّلوا بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج.

﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: يَتَرَدَّد فيها وإليها طَلَبًا للتَّكَسُّب والتجارة، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلَّا أُنْزِل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهدًا على صِدْق ما يَدَّعيه! كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٥٣]

وكذلك قال هؤلاء على السَّوَاء؛ تَشَابَهت قلوبهم. ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ يُنفِق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سَهل يسيرٌ على الله، ولكن له الحكمة في تَرك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: جاؤوا بما يَقذِفونك به ويَكذِبون به عليك، من قولهم: «ساحر، مسحور، مجنون، كذَّاب، شاعر». وكلُّها أقوال باطلة، كلُّ أَحَد ممَّن له أدنى فَهْم وعَقْل يَعْرِف كَذِبَهم وافتراءهم في ذلك. ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن طريق الهدى، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ وذلك لأن كلَّ من خَرَجَ عن الحقِّ فإنه ضَالٌّ حيثما تَوَجَّه؛ لأن الحقَّ واحد ومنهج مُتَّحِد، يُصَدِّق بعضه بعضًا. ثم قال تعالى مخبرًا نبيَّه أنه لو شاء لآتاه خيرًا ممَّا يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾. قال مجاهد: يعني: في الدنيا، قال: وقريش يُسَمُّون كلَّ بيت من حجارة قَصْرًا، سواءً كان كبيرًا أو صغيرًا.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا، لا أنهم يطلبون ذلك تَبَصُّرًا واسْتِرْشَادًا، بل تَكذِيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأَرصَدْنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: عذابًا أليما حارًّا لا يُطَاق في نار جهنم. وقال سعيد بن جبير: «السَّعِير»: وادٍ من قَيْح جهنم.

الآية (١٢-١٤): ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: جهنم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: في مقام المَحْشَر. قال السُّدي: من مسيرة مائة عام.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: حَنَقًا عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٧-٨]، أي: يكاد يَنفَصِل بعضها من بعض، من شدة غَيْظِها على مَن كَفَر بالله. عن ابن عباس قال: «إن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار، فَتَنْزَوِي وتَنْقَبِضُ بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لكِ؟ قالت: إنه يَستَجير مني. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار، فيقول: يا ربِّ، ما كان هذا الظَّنُّ بك! فيقول: فما كان ظَنُّك؟ فيقول: أن تَسَعني رحمتك. فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليُجَرُّ إلى النار، فتَشْهَقُ إليه النار شُهُوقَ البَغْلَة إلى الشعير، وتَزْفُرُ زَفْرَةً لا يَبْقَى أحدٌ إلا خاف» وهذا إسناد صحيح.

وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال عبد الله بن عمرو: مثل الزُّجِّ في الرمح، أي: من ضِيقه. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني: مُكَتَّفين، ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالوَيْل والحَسْرَة والخَيْبَة، ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ قال ابن عباس: لا تدعوا اليوم وَيْلًا واحدًا، وادعوا وَيْلًا كثيرًا.

وقال الضحاك: الثُّبُور: الهلاك. والأظهَر: أن الثُّبور يَجْمعُ الهلاكَ والويلَ والخَسَار والدَّمَار؛ كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، أي: هَالِكًا.

الآية (١٥-١٦): يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وَصفْنَاه من حال أولئك الأشقياء، الذين يُحشَرون على وجوههم إلى جهنم، فتَتَلَقَّاهم بوجه عَبُوس وتَغَيُّظٍ وزَفِير، ويُلقَون في أماكنها الضيقة مقرَّنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فَكَاكًا ممَّا هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وَعَدَها الله المتقين من عباده، التي أَعَدَّها لهم، وجَعَلَها لهم جزاءً على ما أطاعوه في الدنيا، وجَعَل مآلهم إليها. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذِّ: من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قلب أحد. وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سَرْمدًا بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاء، لا يبغون عنها حِوَلًا.

وهذا مِن وَعْد الله الذي تَفَضَّل به عليهم، وأَحْسَنَ به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي لا بدَّ أن يقع وأن يكون، كما حكاه ابن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أي: وَعْدًا واجبًا. وقال ابن عباس: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يقول: سَلُوا الذي وَعدْتُكم -أو قال: وعدناكم- نُنْجِزْ.

الآية (١٧-١٩): يقول تعالى مخبرًا عمَّا يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: عيسى والعُزَير والملائكة، ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: فيقول الرَّبُّ تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عَبَدُوكم من تِلقَاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية [المائدة:١١٦]. ولهذا قال تعالى مخبرًا عمَّا يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواكَ، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أَمْرِنا ولا رضانا ونحن بُرَآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الآية [سبأ:٤٠-٤١].

وقرأ آخرون بضم النون «نُتَّخَذَ»، أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنَّا عبيدٌ لك، فُقراء إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رُسُلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي هَلْكَى. وقال الزهري: أي لا خير فيهم.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كَذَّبَكم الذين عَبَدْتُم فيما زَعَمْتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتَّخَذْتموهم قُربانًا يقرِّبونكم إليه زُلفى.

وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرون على صَرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يُشْرِك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

الآية (٢٠): يقول تعالى مخبرًا عن جميع من بَعَثَه من الرسل المُتَقَدِّمين: إنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التَّغذِّي به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للتَّكَسُّب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم وَمَنْصِبِهِمْ؛ فإن الله جَعَل لهم من السِّمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يَسْتَدِلُّ به كُلُّ ذي لُبٍّ سليم، وبصيرة مستقيمة، على صِدْق ما جاؤوا به من الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممَّن يَعصِي؛ ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمن يَسْتَحِقُّ أن يُوحَى إليه، ومن يَستَحِقُّ أن يَهدِيَه الله لِمَا أَرسَلَهم به، ومن لا يَستَحِقُّ ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئتُ أن أَجْعَلَ الدنيا مع رُسُلي فلا يُخَالَفُون، لَفَعَلْتُ، ولكنِّي قد أَرَدْتُ أن أَبتَلِي العبادَ بهم، وأَبْتَلِيهم بهم. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني مبتليك، ومبتل بك».

الآية (٢١-٢٤): يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالة كما نُزِّل على الأنبياء كما أخبر تعالى في قوله: {﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويُحتَمَل أن يكون مرادهم: فنراهم عِيانا، فيُخبرونا أن محمدًا رسول الله كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: هم لا يَرَون الملائكة في يوم خَير لهم، بل يوم يَرَون الملائكة لا بُشرَى يومئذٍ لهم، وذلك يصْدُق على وَقْت الاحتضار حين تُبَشِّرُهم الملائكة بالنار، وغَضَب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجَسَد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظِلٍّ من يحموم. فتَأْبى الخروج وتَتَفَرَّق في البَدَن، فيَضْرِبُونه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم؛ فإنهم يُبَشَّرُون بالخيرات، وحصول المسرات. وقال آخرون: بل المرادُ يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما. ولا مُنافاةَ بين هذا وبين ما تَقَدَّم؛ فإن الملائكة في هذين اليومين يوم المهات ويوم المعاد تَتَجَلَّى للمؤمنين وللكافرين، فتُبَشِّر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتُخْبِر الكافرين بالخيبة والخسران، ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين حَرَام مُحَرَّم عليكم الفلاح اليوم. وأصل «الحَجْر»: المَنْع، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة. هذا قول مجاهد وعكرمة، وقد حكى ابن جرير عن ابن جُريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: يَتَعَوَّذُون من الملائكة؛ وذلك أن العَرَب كانوا إذا نَزَل بأحدهم نَازِلة أو شِدَّة يقولون: «حِجْرًا مَحْجُورًا». وهذا القول -وإن كان له مأخذ ووجه- ولكنه بالنسبة إلى السِّيَاق في الآية بعيد، لا سيَّما وقد نَصَّ الجمهور على خلافه. ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ وهذا يوم القيامة، حين يُحَاسِب الله العباد على ما عَمِلُوه من خير وشر، فأَخبَر أنه لا يَتَحَصَّل لهؤلاء المشركين من الأعمال -التي ظَنُّوا أنها مَنْجَاة لهم- شيء؛ وذلك لأنها فَقَدَت الشَّرْط الشرعي: إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشَرْع الله. ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ قال مجاهد والثوري: عَمَدْنَا. وبعضهم يقول: أتينا عليه.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ عن عليٍّ قال: شعاع الشمس إذا دَخَلَ في الكُوَّة. وعنه: الـهَبَاءُ: رَهْج الدواب. وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها شيء، فلمَّا عُرِضَت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يَظلِم أحدًا، إذا [بها] لا شيء بالكلية. وشُبِّهَت في ذلك بالشيء التَّافِه الحقير الـمُتَفَرِّق، الذي لا يَقدِر منه صاحبه على شيء بالكلية. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين، حَسَن المنظر، طيب المقام، فَنَبَّه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية. ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال ابن عباس: إنما هي ضَحْوَةٌ، فيَقِيْل أولياء الله على الأَسِرَّة مع الحور العين، ويَقِيْل أعداء الله مع الشياطين مقرَّنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف نهار، وقال قتادة: ﴿مَقِيلًا﴾ أي: مأوًى ومنزلًا.

الآية (٢٥-٢٩): يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطُّرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يُبهِر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذٍ، فيُحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء الربُّ تبارك وتعالى لفَصْل القضاء كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صعبًا؛ لأنه يوم عَدْل وقضاء فَصْل، فهذا حال الكافرين في هذا اليوم. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يُخبر تعالى عن نَدَم الظالم الذي فارق طريق الرسول، وما جاء به من عند الله من الحقِّ المبين، الذي لا مِرْية فيه، وسَلَك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يومُ القيامة نَدِمَ حيثُ لا ينفعه النَدمُ، وعَضَّ على يديه حسرةً وأَسَفًا. وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامَّة في كل ظالم. فكل ظالم يَندَم يوم القيامة غايةَ الندم، ويَعَضّ على يديه قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، يعني: مَنْ صَرَفه عن الهدى، وعَدَل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواءٌ في ذلك أمية بن خَلَف، أو أخوه أبيُّ بن خَلَف أو غيرهما. ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي: بعد بلوغه إليّ. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: يَخذُله عن الحقِّ، ويَصرِفه عنه، ويَستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

الآية (٣٠-٣١): ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يستمعونه، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أَكثَروا اللَّغَط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه، فهذا من هُجْرَانِه، وتركُ الإيمان به وتصديقه من هُجْرَانِه، وتركُ تَدَبُّره وتَفَهُّمِه من هُجْرَانِه، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هُجْرَانِه، والعدولُ عنه إلى غيره من شِعر أو قول أو غِناء أو لَـهْو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هُجْرَانِه. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما حَصَل لك -يا محمد- في قومك من الذين هَجَروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين؛ لأن الله جعل لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: لمن اتَّبَع رسوله وآمن بكتابه وصَدَّقه واتَّبَعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يَصدُّون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحدٌ به، ولتَغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية.

الآية (٣٢): ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هلَّا أُنزِل عليه هذا الكتاب الذي أُوحِيَ إليه جملةً واحدةً، كما نَزَلَت الكتب قبله جملةً واحدةً. فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أُنْزِلَ مُنَجَّمًا؛ لتثبيت قلوب المؤمنين به؛ كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قال قتادة: وبَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا. وقال عبد الرحمن بن زيد: وَفَسَّرْنَاهُ تفسيرًا.

الآية(٣٣-٣٤): ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولًا يُعارضون به الحقَّ، إلا أَجَبْنَاهم بما هو الحقُّ في نفس الأمر وأبيَنُ وأوضحُ وأفصحُ من مقالتهم. قال ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يلتمسون به عَيبَ القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: إلا نَزَل جبريل مِنَ الله بجوابهم. ثم في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول ﷺ؛ حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحًا ومساءً، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب ممَّا قبله من الكتب المتقدِّمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ، وأعظم من سائر إخوانه من الأنبياء ﷺ. فالقرآن أشرف كتاب أَنزَلَه الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله، وقد جَمَع الله تعالى للقرآن الصفتين معًا: ففي الملأ الأعلى أنزِل جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة في سماء الدنيا، ثم نَزَل بعد ذلك إلى الأرض مُنَجَّمًا بحسب الوقائع والحوادث.

ثم قال تعالى مخبرًا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وعن أنس: أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيَه على وجهه يوم القيامة» [متفق عليه].

الآية (٣٥-٤٠): يقول تعالى مُتَوَعِّدًا من كَذَّب رسولَه محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومُحَذِّرَهُم من عقابه وأليم عذابه، ممَّا أحَلَّه بالأمم الماضية المكذِّبين لرسله، فبَدَأ بذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه ابْتَعَثَهُ وجَعَلَ معه أخاه هارون وزيرًا، أي: نبيًّا مُؤَازِرًا ومؤيِّدًا وناصرًا، فكذَّبهما فرعون وجنوده، فدمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها. وكذلك فَعَل بقوم نوح حين كَذَّبوا رسوله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فُرِضَ أن الله بَعَثَ إليهم كلَّ رسول فإنهم كانوا يُكذِّبُونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ولم يُبْعَثْ إليهم إلا نوح فقط، وقد لَبِث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يَدعُوهم إلى الله، ويحذِّرهم نِقَمَه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أَغْرَقَهُم الله جميعًا، ولم يَبْقَ منهم أحد، ولم يَبْقَ على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: عِبرَة يعتبرون بها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢] أي: وأبقينا لكم من السُّفُن ما تركبون في لُجَج البحار، لتَذكروا نعمةَ الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أَمْرَه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ قد تقدم الكلام على قصّتيهما في غير ما سورة.

وأما أصحاب الرَّسِّ؛ فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال عكرمة: أصحاب الرَّسِّ بفَلَج، وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فَلَج من قرى اليمامة. وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قال: بئر بأذربيجان. وقال عكرمة: الرَّسُّ بئر رَسُّوا فيها نبيهم. أي: دَفَنُوه فيها. واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرَّسِّ هم أصحاب الأخدود، الذين ذُكِروا في سورة البروج، فالله أعلم. وقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وَأُمَمًا -بَيْنَ أَضْعَافِ مَنْ ذُكر- أَهْلَكْنَاهُمْ كَثِيرَةً.

ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بيَّنَّا لهم الحُجَج، ووضَّحنا لهم الأدلة؛ كما قال قتادة: أَزَحْنا عنهم الأعذار.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا؛ كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧]. والقَرْن: هو الأمة من الناس؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٣١]. وحَدَّهُ بعضُهم بمائة وعشرين سنة، وقيل: بمائة سنة. وقيل: بثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك. والأظهر: أن القَرْن هم الأمة المُتَعَاصِرُون في الزمن الواحد؛ فإذا ذَهَبُوا وخَلَفَهُم جيل آخر فهم قرن ثانٍ، كما ثَبَتَ في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يَلُونَهُمْ، ثم الذين يَلُونَهُمْ» الحديث.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلَكَها الله بالقَلْب، وبالمطر من الحجارة التي من سجيل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[الحجر:٧٦] ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، أي: فيعتبروا بما حَلَّ بأهلها من العذاب والنَّكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله.

وقوله: ﴿بَل كَانُوا﴾ يعني: السَّارِّين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، أي: معادًا يوم القيامة.

الآية (٤١-٤٣): يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، يَعْنُونَهُ بالعيب والنَّقْص ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟! أي: على سبيل التَّنَقُّص والازدراء -قبَّحهم الله- كما قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:٣٢].

وقوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعنون: أنه كاد يَثنِيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلَّدوا واستمرُّوا على عبادتها. قال تعالى مُتَوَعِّدًا لهم ومتهدِّدًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. ثم قال تعالى لِنَبيِّه، منبِّهًا له أن من كَتَب الله عليه الشقاوةَ والضلالَ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه، كان دينَه ومذهبَه. ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يَعبُد الحَجَر الأبيض زمانًا، فإذا رأى غيره أحسنَ منه عبدَ الثاني، وتَرَكَ الأوَّل.

الآية (٤٤): ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: أسوأُ حالًا من الأنعام السارحة؛ فإن تلك تَعقِل ما خُلِقَت له، وهؤلاء خُلِقُوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

الآية (٤٥-٤٧): شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾؟ قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا لا يزول كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لَمَا عُرِف؛ فإن الضِّدَّ لا يُعرَف إلا بضِدِّه. وقال قتادة والسّدّي: دليلًا يَتلُوه ويَتبَعُه حتى يأتي عليه كله. ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أي: الظِّل. وقيل: الشمس. ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا. قال ابن عباس: سريعًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: يَلْبَسُ الوجودَ ويُغَشّيه ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: قَطْعًا للحَرَكة لراحة الأبدان؛ فإن الأعضاء والجوارح تَكِلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعايش، فإذا جاء الليل وسَكَنَ سَكَنَتِ الحركات، فاستراحت فحَصَل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معًا. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم.

الآية (٤٨-٥٠): وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم؛ وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: آلة يتطهر بها؛ كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصَحُّ ما يُقَال في ذلك.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي: أرضًا قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلمَّا جاءها الحَيَا عاشت واكتست رُبَاها أنواع الأزاهير والألوان؛ كما قال: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: وليَشرَب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غايةَ الحاجة، لشُربهم وزروعهم وثمارهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسُقْنا السحابَ فمَرَّ على الأرض وتَعَدَّاها وجاوزها إلى الأرض الأخرى فأمطرتها، والتي وراءها لم يَنزِل فيها قَطْرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن مسعود وابن عباس: ليس عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يُصَرِّفُهُ كيف يشاء. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: لِيَذَّكَّرُوا بإحياء الله الأرض الميتةَ أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرُّفَات. أو: لِيَذَّكَّرَ من مُنِع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيُقلِع عمَّا هو فيه.

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: يعني الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ كما في الحديث: «قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطرنا بِنَوْء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب» [رواه مسلم].

الآية (٥١-٥٤): ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ، ولكنا خَصَصْناك -يا محمد- بالبِعْثَة إلى جميع أهل الأرض، وأَمَرناك أن تُبَلِّغ الناس هذا القرآن، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. وفي الصحيحين: «بُعثت إلى الأحمر والأسود»، وفيهما: «وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً، وبُعِثْت إلى الناس عامة»؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: خَلَق الماءَيْن: الـحُلْوَ والـمِلْح؛ فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزُّلال، قاله ابن جريج واختاره ابن جرير. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه؛ فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم. ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالحٌ مُرٌّ زُعَاقٌ لا يُسْتَسَاغ؛ وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر؛ خَلَقَها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء لئلا يَحصُل بسببها نتنُ الهواء، فيَفْسُد الوجود بذلك، ولئلا تُجوَى الأرض بما يَموت فيها من الحيوان.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا، وهو اليبس من الأرض ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي: مانعًا أن يصل أحدهما إلى الآخر؛ كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢١].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي: خَلَق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسوَّاه وعَدَّله، وجَعَله كامل الخِلقة، ذَكَرًا أو أنثى، كما يشاء.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فهو في ابتداء أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثم يتزوج فيصير صِهْرًا، ثم يصير له أَصْهَار وأُخْتَانٌ وَقَرَابات. وكلُّ ذلك من ماء مَهِين؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الآية (٥٥): يخبر تعالى عن جَهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، بلا دليل قادَهُم إلى ذلك، ولا حجة أدَّتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتَّشَهِّي والأهواء، فهم يُوالُونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويُعَادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: عونًا في سبيل الشيطان على حِزْب الله، وحِزْبُ الله هم الغالبون. قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: يُظَاهِر الشيطان على معصية الله؛ يُعِيْنه. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ظَهِيرًا﴾: عَونًا للشيطان على رَبِّه بالعداوة والشِّرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿ظَهِيرًا﴾ قال: مواليًا.

الآية (٥٦-٦٠): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مُبشِّرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أُجرة أَطلُبها من أموالكم، وإنما أَفْعَل ذلك ابتغاءَ وجه الله.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدي فيها بما جِئتَ به. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلها كُنْ متوكلًا على الله الحي الذي لا يموت أبدًا، الذي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]، الدائم الباقي السَّرْمَدِي الأبدي، الحي القيوم ربُّ كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك ومَلْجَأك، وهو الذي يُتَوَكَّل عليه ويُفْزَع إليه؛ فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومُظفرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم رَبَّنا وبحمدك» [متفق عليه]، أي: أَخْلِص له العبادة والتَّوَكُّل.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يَعزُب عنه مثقال ذرة. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع، في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: يُدَبِّر الأمر، ويَقضِي الحقَّ، وهو خير الفاصلين. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلِم عنه من هو خبير به عالم به فاتَّبِعْه واقْتَدِ به، وقد عُلِم أنه لا أحدَ أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ﷺ سيدِ وَلَدِ آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، قال مجاهد: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: ما أخبرتُك من شيء فهو كما أخبرتُك. وكذا قال ابن جُرَيج.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرف الرحمن ولا نُقرُّ به، وكانوا يُنكرون أن يُسَمّى الله باسمه الرحمن. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟! أي: لِـمُجَرَّدِ قولك، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾. أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتَّفَقَ العلماء -رحمهم الله- على أن هذه السَّجْدة التي في الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارئها ومستمعها، والله أعلم.

الآية (٦١-٦٢): ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يقول تعالى ممجِّدًا نفسه، ومعظِّمًا على جميل ما خَلَق في السماء من البروج؛ وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جُبير. وقيل: هي قصور في السماء للحَرَس؛ يُروَى هذا عن علي وابن عباس. والقول الأول أظهر؛ اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحَرَس، فيجتمع القولان. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي: مضيئًا مشرقًا بنور آخر ونوع آخر وفَنٍّ آخر، غير نور الشمس.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يَخلُف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يَفتُران، إذا ذَهَب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذَهَب ذاك. ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جَعَلهما يتعاقبان توقيتًا لعبادة عباده له، فمن فاته عَمَل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عَمَل في النهار استدركه في الليل. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يَبْسُطُ يده بالليل ليَتُوبَ مُسيء النهار، ويَبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل» [رواه مسلم]. وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمله، أَدرَكَه بالنهار، أو من النهار أَدرَكَه بالليل. وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن. وقال مجاهد وقتادة: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مُخْتَلِفَيْن، هذا بسَوَاده، وهذا بضِيَائه.

الآية (٦٣-٦٧): هذه صفات عباد الله ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووَقَار من غير جبرية ولا استكبار ولا مَرَح، ولا أَشَرٍ ولا بَطَر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانُع تَصَنُّعًا وَرِيَاءً؛ فقد كان سَيِّد وَلَدِ آدم ﷺ إذا مَشَى كأنَّـمَا يَنْحَطُّ من صَبَب [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. وقد كَرِه بعض السلف المشي بِتَضَعُّفٍ وتَصَنُّع.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: إذا سَفِهَ عليهم الـجُهَّال بالسيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا؛ كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلْمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ [وسب رجل رجلا عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما] إن ملكا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به. وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا بل عليك، وأنت أحق به» إسناده حسن. وقال مجاهد: ﴿سَلَٰمًا﴾: قالوا سَدَادًا. وقال سعيد بن جبير: رَدُّوا معروفًا من القول. وقال الحسن: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قال: حُلَمَاء لا يجهلون، وإن جُهِلَ عليهم حَلُموا: يُصَاحِبون عبادَ الله نهارهم بما تسمعون، ثم ذَكَر أن ليلهم خير ليل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ أي: في عبادته وطاعته؛ كما قال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: مُلازمًا دائمًا. ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿غَرَامًا﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب: ما نَعِمُوا في الدنيا؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يَرُدُّوها إليه، فأَغْرَمَهم فأدخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المنزل مَنظَرًا، وبئس المَقيل مقامًا. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بُخَلاء على أهْليهم فيقصِّرون في حقِّهم فلا يكفونهم، بل عَدْلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾؛ كما قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩].

الآية (٦٨-٧١): [سبب النزول]: عن ابن عباس: أن ناسًا من أهل الشرك قَتَلُوا فأَكْثَرُوا، وزَنَوْا فأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخْبِرُنا أنَّ لِمَا عَمِلنا كفارة، فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، ونَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر:٥٣] [متفق عليه].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾: وادٍ في جهنم. وقال عكرمة: أودية في جهنم يُعَذَّب فيها الزُّنَاة. وكذا رُوي عن سعيد بن جبير ومجاهد. وقال قتادة: ﴿أَثَامًا﴾: نكالًا، كُنَّا نُحَدَّث أنه وادٍ في جهنم. وقال السُّدي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاءً. وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فَسَّرَه بما بعده مُبْدَلًا منه، وهو قوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُكرَّر عليه ويُغْلَّظُ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي: حقيرًا ذليلًا.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فَعَل من هذه الصفات القبيحة ما ذُكِر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك؛ فإن الله يتوب عليه. وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل.

في معنى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قولان: أحدهما: أنهم بُدِّلُوا مكانَ عَمَل السيئات بعَمَل الحسنات، قال ابن عباس: هم المؤمنون؛ كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرَغِبَ الله بهم عن السيئات فحَوَّلهم إلى الحسنات، فأبدَلَهم مكان السيئات الحسنات. وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة، ثم يُبَدِّلُهُ اللهُ بها خَيْرًا. والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تَنْقَلب بنفس التوبة النصوح حسناتٍ، وما ذاك إلا أنه كلَّما تَذَّكَر ما مضى نَدِم واسترجع واستغفر، فيَنقَلِب الذَّنب طاعةً بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وَجَدَه مكتوبًا عليه، لكنه لا يضره، وينقلب حسنةً في صحيفته، كما ثَبَتَت السنّة بذلك، وصحَّت به الآثار المروية عن السلف -رحمهم الله تعالى- قال علي زين العابدين: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسناتٍ.

ثم قال تعالى مخبرًا عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان، جليل أو حقير، كبير أو صغير: فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فإن الله يقبل توبته.

الآية (٧٢-٧٤): ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام. وقيل: الكَذِب والفسق واللغو والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللهو والغناء. وقال أبو العالية والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقيل: المراد: شهادة الزور، وهي الكَذِب مُتَعَمِّدًا على غيره. والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتَّفَقَ مرورهم به مرُّوا، ولم يَتَدَنَّسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ وهذه من صفات المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر؛ فإنه إذا سمع كلام الله لا يُؤَثِّر فيه ولا يُقْصر عمَّا كان عليه، بل يبقى مستمرًا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله. فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه، فيستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئًا. وقال الحسن: كم من رجل يقرؤها وَيَخِرُّ عليها أصم أعمى. وقال قتادة: لم يصمُّوا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم -والله- قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: الذين يسألون الله أن يُخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتَقَرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صَبَاحةً ولا جمالًا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال ابن جريج: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي والربيع بن أنس: أئمةً يُقْتَدَى بنا في الخير. وقال غيرهم: هداةً مهتدين ودعاةً إلى الخير، فأَحبُّوا أن تكون عبادتهم مُتَّصِلَة بعبادة أولادهم وذُرِّيَّاتهم، وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنَّفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا.

الآية (٧٥-٧٧): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المُتَّصِفُون بهذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: سُمِّيَت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُبْتَدرُون فيها بالتحية والإكرام، ويَلْقَون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام؛ فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها و﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ أي: لا يُبَالي ولا يَكْتَرث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خَلَق الخلق ليعبدوه ويوحِّدُوه ويُسَبِّحوه بكرةً وأصيلًا. وقال مجاهد وعمرو بن شعيب: يقول: ما يَفْعَلُ بكم ربي. وقال ابن عباس: يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لَحَبَّب إليهم الإيمان كما حَبَّبه إلى المؤمنين. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فَسَّرَه بذلك ابن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة وغيرهم. وقال الحسن: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يوم القيامة. ولا منافاةَ بينهما.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية. [وآياتها (٢٢٧) آيةً]. وَوَقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتُها: سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية (١-٩): أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: الْبَيِّنِ الواضح، الذي يفصل بين الحقِّ والباطل، والغيِّ والرشاد.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: مُهْلِكٌ ﴿نَّفْسَكَ﴾ أي: ممَّا تحرص وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]. قال مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ نفسك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: لو شِئنا لأنزلنا آيةً تَضطرُّهم إلى الإيمان قهرًا، ولكن لا نفعل ذلك لأنَّا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فنَفَذ قَدَرُه، ومَضَت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: كلَّما جاءهم كتاب من السماء أَعرَض عنه أكثر الناس؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠]، وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤].

ولهذا قال ههنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: فقد كذَّبوا بما جاءهم من الحقِّ، فسيعلمون نَبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

ثم نَبَّهَ تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: دلالةً على قدرة الخالق للأشياء، الذي بَسَطَ الأرض ورَفَع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كَذَّبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي عَزَّ كلَّ شيء وقَهَرَه وغَلَبَه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: بخلقه، فلا يَعجَل على من عصاه، بل يُنْظِرُهُ ويُؤَجِّلُه ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية وقتادة: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعَبَدَ غيره. وقال سعيد ابن جبير: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب إليه وأناب.

الآية (١٠-١٩): يخبر تعالى عمَّا أَمَر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكَلَّمَه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأَمَرَه بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه؛ كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٢٥-٣٦].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: بسبب ما كان من قَتْل ذلك القِبطيِّ الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تَخَفْ من شيء من ذلك كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: برهانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥].

﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧] أي: كلٌّ مِنَّا رسول الله إليك.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ فإنهم عباد الله المؤمنون، وحِزْبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلمَّا قال له موسى ذلك أَعرَض فرعون عمَّا هنالك بالكلية، ونَظَر بعين الازدراء وَالْغَمْصِ، فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أما أنت الذي ربّيناه فينا، وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذَّيناه، وأنعمنا عليه مدةً من السنين، ثم بعد هذا قابلتَ ذلك الإحسان بتلك الفَعْلَة: أن قَتَلْتَ منَّا رجلًا، وجَحَدت نعمتنا عليك؟! ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدين. قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

الآية (٢٠-٢٢): ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: قبل أن يُوحَى إليَّ ويُنْعِم الله عليَّ بالرسالة والنبوة. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: الجاهلين. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر؛ فقد أرسلني الله إليك، فإن أطَعْتَه سَلِمْتَ، وإن خالفتَه عَطِبْتَ.

ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وما أحسنتَ إليَّ وربَّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخَدَمًا، تُصَرِّفُهُم في أعمالك ومشاقِّ رعيتك، أفَيَفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أَسَأْتَ إلى مجموعهم؟! أي: ليس ما ذَكَرتَه شيئًا بالنسبة إلى ما فَعَلْتَ بهم.

الآية (٢٣-٢٨): يقول تعالى مخبرًا عن كُفر فرعون، وتَمَرُّدِه وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع تعالى، ويعتقدون أنه لا ربَّ لهم سوى فرعون، فلمَّا قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦]، قال له: ومن هذا الذي تَزْعُم أنه ربُّ العالمين غيري؟! هكذا فَسَّرَه علماء السلف وأئمة الخَلَف، حتى قال السُّدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

فعند ذلك قال موسى لَـمَّا سأله عن ربِّ العالمين: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمُتَصَرِّف فيه وَإِلَـهُهُ، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها: العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو؛ الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة.

فعند ذلك الْتَفَتَ فرعون إلى مَن حوله مِن مَلَئِه ورؤساء دولته قائلًا لهم، على سبيل التَّهَكُّم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟! أي: ألا تعجبون ممَّا يقول هذا في زَعْمه أن لكم إِلَـهًا غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ليس له عَقْل في دعواه أن ثَمَّ ربًّا غيري. ﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أَوْعَزَ إليهم فرعون ما أَوْعَزَ من الشُّبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هو الذي جَعَل الـمَشْرِق مشرقًا تَطْلُعُ منه الكواكب، والـمَغْرِب مغربًا تَغْرُب فيه الكواكب، ثوابتها وسيَّارَاتها، مع هذا النظام الذي سَخَّرها فيه وقدَّرها، فإن كان هذا الذي يَزعُم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليَعْكِس الأمر، وليجعل الـمَشْرِق مغربًا، والـمَغْرِب مشرقًا؛ كما أَخبَر تعالى عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]؛ ولهذا لَـمَّا غُلِبَ فرعون، وانقطعت حُجَّته، عَدَل إلى استعمال جاهه وقوَّته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافعٌ له ونافذٌ في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الآية (٢٩-٣٧): لَـمَّا قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عَدَل إلى أن يَقهَر موسى بيده وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ببرهان قاطع واضح، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفمٍ كبير، وشَكْلٍ هائل مزعج.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضل بارع في السحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيَّجَهم وحَرَّضَهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيَكْثُر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويَغلِبُكم على دَولَتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أَخِّرْه وأخاه حتى تَجْمَع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتَغْلِبُه أنت وتكون لك النُّصْرَة والتَّأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتَظْهَر آيات الله وحُجَجُه وبراهينه على الناس في النهار جَهْرَةً.

الآية (٣٨-٣٩): ذَكَر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والقِبْط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه»، وفي هذه السورة؛ وذلك أن القِبْط أرادوا أن يُطْفِئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وهذا شأن الكفر والإيمان: ما تواجها وتقابلا إلا غَلَبَه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ولهذا لَـمَّا جاء السَّحَرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أَسْحَر الناس وأَصْنَعهم وأَشَدَّهم تخييلًا في ذلك، وكان السَّحَرة جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا، والله أعلم بعِدَّتهم.

الآية (٤٠-٤٨): اجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، ولم يقولوا: نَتَّبع الحقَّ سواءً كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: إلى مجلس فرعون وقد ضَرَبَ له وطَاقًا، وجَمَع حَشَمَه وخَدَمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السَّحرة بين يدي فرعون، يطلبون منه الإحسان إليهم والتَّقَرُّب إليه إن غَلَبُوا، أي هذا الذي جَمَعْتَنا من أَجْلِه، فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأَخَصُّ ممَّا تَطلبون أَجْعَلكم من الـمُقَرَّبين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه:٦٥-٦٦]، وقد اختصر هذا ههنا. فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فَعَلُوا شيئًا: هذا بثواب فلان. وقد ذَكَر الله في «سورة الأعراف»: أنهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال في «سورة طه»: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٦-٦٩]. وقال ههنا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تَخْتَطِفُهُ وتَجْمَعُه من كل بُقْعَة وتَبْتَلعه فلم تَدَع منه شيئًا، قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢] وكان هذا أمرًا عظيمًا جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجةً دامغةً؛ وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يَغلِبوا، قد غُلِبُوا وخَضَعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسَجَدُوا لله رب العالمين، الذي أَرسَل موسى وهارون بالحقِّ وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِب فرعون غَلبًا لم يُشَاهِد العالم مثله، وكان وَقِحًا جريئًا، عليه لعنة الله، فعَدَل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فَشَرَع يَتَهَدَّدُهم ويَتَوَعَّدُهم، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣].

الآية (٤٩-٥١): تَهَدُّدهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتَوَعُّدهم فما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا؛ وذلك أنه قد كُشِفَ عن قلوبهم حجاب الكفر، وظَهَر لهم الحق بعِلْمِهم ما جَهِلَ قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يَصدُر عن بَشَر إلا أن يكون الله قد أَيَّدَه به، وجَعَله له حجةً ودلالةً على صِدْق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لَـمَّا قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟! أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أَذِنْتُ لكم فَعَلْتم، وإن مَنَعْتُكُم امْتَنَعْتم، فإني أنا الحاكم الـمُطَاعُ. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذه مكابرة يَعلَم كلُّ أحد بُطلانها؛ فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟! هذا لا يقوله عاقل. ثم تَوَعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصَّلْب، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا حَرَج ولا يَضُرُّنا ذلك، ولا نُبَالي به.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: المرجع إلى الله، وهو لا يُضِيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخفى عليه ما فَعَلْتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أَتَمَّ الجزاء؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أنَّا بادرنا قومَنا من القِبط إلى الإيمان. فقتَلَهم كُلَّهم.

الآية (٥٢-٥٩): لَـمَّا طال مقام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبقَ لهم إلا العذاب والنَّكال، فأَمَرَ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَخْرُجَ ببني إسرائيل ليلًا من مصر، وأن يَمضِيَ بهم حيث يُؤْمَر، ففَعَل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أَمَرَه به ربُّه عَزَّوَجَلَّ؛ خَرَج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حليًّا كثيرًا. وأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل عن قبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فدَلَّته امرأةٌ عجوزٌ من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه -عليهما السلام- وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم [رواه ابن حبان والحاكم، وصححه الألباني]. فلمَّا أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتدَّ غَضَبُه على بني إسرائيل؛ لِـمَا يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعًا في بلاده حاشرين، أي: من يحشر الجُندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: لَطائفةٌ قليلة ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: كل وقت يَصِل لنا منهم ما يَغيظُنَا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: نحن كل وقت نَحْذَر من غائلتهم، وإني أُرِيد أن أستأصل شَأْفَتَهم، وأُبِيدَ خَضْراءهم. فجُوزِيَ في نفسه وجُنْدِه بما أراد لهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فخَرَجُوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتَركُوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والـمُلْك والجاه الوافر في الدنيا.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية [الأعراف:١٣٧]، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥].

الآية (٦٠): ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خَرَجَ في محفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أُولي الـحَلِّ والعَقْد والدُّوَل من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.

الآية (٦١-٦٨): ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ وذلك أنه انتهى بهم السَّيْر إلى سِيْفِ البحر، وهو بحر القُلْزُم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أَدْرَكهم بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي: لا يَصِلُ إليكم شيء ممَّا تحذرون؛ فإن الله سبحانه هو الذي أَمَرَني أن أسير ههنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد. وكان هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّاقة.

وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضَرَبَه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفَجّ بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا، لكل سِبْطٍ طريق، وبَعَثَ الله الريح على قَعْر البحر فلَفْحَتْهُ، فصار يَبَسًا كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، وقال في هذه القصة: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي: هنالك ﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾. قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: قَرَّبْنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يَهلِك منهم أحد، وأُغْرق فرعون وجنوده، فلم يَبْقَ منهم رجل إلا هَلَكَ. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَقَدَّم تفسيره.

الآية (٦٩-٧٧): هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يَتْلُوه على أمته ليَقتَدوا به في الإخلاص والتَّوَكُّل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتَّبَرِّي من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صِغَره إلى كِبَره، فإنه من وقت نَشَأ وشَبَّ أَنْكَر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ، فـ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ أي: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟! [الأنبياء:٥٢].

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرَعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إليَّ بالمساءة؛ فإني عدوٌّ لها لا أُبَالِيها ولا أُفَكِّر فيها. وهذا كما قال تعالى مُخبرًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤-٥٦]. وهكذا تَبَرَّأ إبراهيم من آلهتهم، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام:٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله.

الآية (٧٨-٨٢): يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: هو الخالق الذي قَدَّرَ قَدَرًا، وهَدَى الخلائق إليه، فكلٌّ يجري على ما قَدَّر، وهو الذي يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سَخَّر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأَخرَج به من كل الثمرات رزقًا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زُلالًا ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٩]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قَدَر الله وقضائه وخَلْقِه، ولكن أَضَافَه إلى نفسه أدبًا؛ كما قال تعالى آمرًا للمصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧] فأسند الإنعام إلى الله سبحانه وتعالى والغضب حُذِف فاعلُه أدبًا، وأَسنَد الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وَقَعْتُ في مَرَض فإنه لا يَقْدِر على شفائي أحدٌ غيرُه، بما يُقَدِّر من الأسباب الْـمُوَصِّلَةِ إليه.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي: هو الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يُبْدِئُ وَيُعِيدُ.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: هو الذي لا يَقْدِرُ على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟! [آل عمران:١٣٥]. وهو الفعال لِـمَا يشاء.

الآية (٨٣): وهذا سؤال من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُؤْتِيَه رَبُّه حُكْمًا. قال ابن عباس: وهو العِلْم. وقال عكرمة: هو اللُّبُّ. وقال مجاهد: هو القرآن. وقال السُّدي: هو النبوة. قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة؛ كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم الرفيقَ الأعلى» قالها ثلاثًا [متفق عليه].

الآية (٨٤-٨٩): ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أُذْكَر به، ويُقْتَدَى بي في الخير. قال مجاهد وقتادة: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ يعني: الثناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢]. قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تُحِبُّهُ وتتَوَلَّاه. وكذا قال عكرمة.

وقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: أَنْعِمْ عَلَيَّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم

وقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم:٤١]، وهذا ممَّا رَجَعَ عنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:١١٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: أجرني من الخِزي يوم القيامة يوم يُبْعَث الخلائق أوَّلهم وآخرهم. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزَرَ يوم القيامة، وعلى وجه آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقلْ لك: لا تَعصِني؟! فيقول أبوه: فاليوم لا أَعْصِيك. فيقول إبراهيم: يا ربِّ، إنك وَعَدْتني ألَّا تُخزيني يوم يبعثون، فأي خِزْي أخزى من أبي الأبعد؟! فيقول الله تعالى: إني حَرَّمْتُ الجنةَ على الكافرين. ثم يقول: يا إبراهيم، ما تَحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بذِيخٍ مُتَلَطِّخ، فيُؤْخَذُ بقوائمه فيُلْقَى في النار» [رواه البخاري]. والذِّيخُ: هو الذَّكَر من الضِّبَاع، كأنه حَوَّل آزر إلى صورة ذِيخ مُتَلَطِّخ بعَذِرَته، فيُلْقَى في النار كذلك.

وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا يَقِي المرءَ من عذاب الله مالُه، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدى بمن في الأرض جميعًا، ولا ينفعُ يومئذٍ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتَّبَرِّي من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي: سالم من الدَّنَس والشِّرك. قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يَعلَم أن الله حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريبَ فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: يعني: يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد والحسن وغيرهما: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن إلى السنة.

الآية (٩٠-١٠٤): ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أي: قُرِّبَتِ الجنة وأُدْنِيَتْ من أهلها مُزَخْرَفةً مزينةً لناظريها، وهم المتقون الذين رَغِبوا فيها على ما في الدنيا، وعَمِلوا لها في الدنيا. قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ أي: أُظْهِرَتْ وكُشف عنها، وبَدَت منها عُنقٌ، فَزَفَرَتْ زَفْرَةً بَلَغَت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾؟ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله -من تلك الأصنام والأنداد- تُغْنِي عنكم اليوم شيئًا، ولا تَدْفَع عن أنفسها؛ فإنكم وإيَّاها اليوم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. وقوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ قال مجاهد: يعني: قد هَوَوا فيها. وقال غيره: كُبُّوا فيها، والكاف مكررة، والمراد: أنه أُلْقِيَ بعضهم على بعض؛ من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ أي: أُلقوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٧]. ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: نَجعَل أَمرَكم مطاعًا كما يُطَاع أَمْر رب العالمين، وعبدناكم مع ربِّ العالمين.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ قال بعضهم: يعني من الملائكة. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ أي: قريب. قال قتادة: يعلمون -والله- أن الصديق إذا كان صالحًا نَفَعَ، وأن الحميم إذا كان صالحًا شَفَع.

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ وذلك أنهم يتمنَّون أنهم يُرَدُّون إلى الدار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم -فيما يزعمون- وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو رَدَّهُم إلى الدار الدنيا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن في محاجَّة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآيةً ودلالةً واضحةً جليَّةً على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآية (١٠٥-١١٠): هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أَوَّل رسول بَعَثَه الله إلى الأرض بعدما عُبِدَت الأصنام والأنداد؛ بَعَثَه الله ناهيًا عن ذلك، ومُحَذِّرًا من وَبِيْل عِقَابه، فكَذَّبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفِعَال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونَزَّل الله تعالى تكذيبهم له مَنْزِلة تكذيبهم جميعَ الرسل؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟! ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ من الله إليكم، ﴿أَمِينٞ﴾ فيما بَعَثَني به؛ أُبَلِّغُكم رسالةَ الله لا أزيد فيها ولا أُنْقِصُ منها، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا أطلب منكم جزاءً على نُصحِي لكم، بل أَدَّخِر ثواب ذلك عند الله. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وَضَحَ لكم وبان صِدْقي ونصحي وأمانتي فيما بَعَثني الله به وائتمنني عليه.

الآية (١١١): يقولون: لا نُؤْمِنُ لك ولا نَتَّبِعُك، ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتَّبَعُوكَ وصَدَّقُوكَ، وهم أراذلنا؛ ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾؟!

الآية (١١٢-١١٥): ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما عليَّ أن أَقْبَل منهم تصديقهم إياي، وأَكِلُ سَرائرهم إلى الله ﷻ.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم سألوا منه أن يُبْعِدَهُم عنه لِيُتَابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما بُعِثْتُ نذيرًا، فمن أطاعني واتَّبَعني وصَدَّقني كان مني وكُنْتُ منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلًا أو حقيرًا.

الآية (١١٦-١٢٢): لَـمَّا طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، وكلَّما كرَّر عليهم الدعوة صَمَّمُوا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخِر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ أي: عن دعوتك إيَّانا إلى دينك يا نوحُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لَنَرْجُمَنَّكَ. فعند ذلك دعا عليهم دعوةً استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٠-١٤].

وقال ههنا: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ والمشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حُمِلَ فيه من كُلٍّ زوجين اثنين، أي: أنجينا نوحًا ومن اتَّبعه كلَّهم، وأَغْرَقْنا من كَفَر به وخالف أمره، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

الآية (١٢٣-١٣٥): وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرَّمْل قريبًا من بلاد حضرموت من جهة اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، وكانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبَطْش الشديد، والطُّول المديد، والأرزاق الدَّارَّة، والأموال والجنَّات، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبَعَثَ الله إليهم رجلًا منهم رسولًا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده، وحَذَّرَهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ اختلف المفسرون في الرِّيْع بما حَاصِله: أنه المكان المُرْتَفِعُ عند جَوَادِّ الطرق المشهورة. تَبْنُونَ هناك بنيانًا مُحْكَمًا باهرًا هائلًا؛ ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ أي: مَعْلَمًا بِنَاءً مشهورًا.

﴿تَعْبَثُونَ﴾ وإنما تفعلون ذلك عَبَثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لِمجرَّد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أَنكَر عليهم نبيُّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يُجْدِي في الدنيا ولا في الآخرة.

ولهذا قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال مجاهد: المصانع: البروج المُشَيَّدَة، والبنيان المُخَلَّد. وفي رواية عنه: بروج الحَمَام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم. وروي ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء لَـمَّا رأى ما أَحدَث المسلمون في الغُوطَة من البنيان ونَصْب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تَسْتَحْيُون! ألا تَسْتَحْيُون؟! تجمعون ما لا تأكلون، وتَبنُون ما لا تسكنون، وَتَأْمُلُونَ ما لا تُدْرِكون، قد كانت قبلكم قرون، يجمعون فَيُوْعُون، ويَبْنُون فيُوثِقُون، ويَأْمُلُونَ فيُطيلون، فأصبح أَمَلُهم غرورًا، وجَمْعُهم بُورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عَدن وعُمَان خيلًا وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين؟!

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم. ثم شَرَع يُذَكِّرهم نِعَم الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إن كَذَّبْتُم وخالفتم. فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نَفَع فيهم.

الآية (١٣٦): يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له، بعدما حَذَّرَهم وأنذَرَهم، وَرَغَّبَهُم ورَهَّبَهم، وبيَّن لهم الحقَّ ووضَّحه: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: لا نرجع عمَّا نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣]. وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

الآية (١٣٧-١٤٠): ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قرأ بعضهم بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود وابن عباس وعلقمة ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق[1] الأولين كما قال المشركون: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾[الفرقان: ٥]. وقرأ آخرون بضم الخاء واللام، يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بَعْثَ ولا مَعَاد؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال ابن عباس: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، واختاره ابن جرير. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكَهم الله، وقد بيَّن سَبَب إهلاكه إيَّاهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسَل عليهم ريحًا صَرصرًا عاتيةً، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جِنْسِهم؛ فإنهم كانوا أَعْتَى شيء وأَجْبَره، فسَلَّط الله عليهم ما هو أَعْتَى منهم وأَشَدّ قوةً، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، أي: بقوا أبدانًا بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتَلِعه وترفَعه في الهواء، ثم تُنَكِّسُهُ على أُمِّ رأسه فتَشْدَخُ دماغه، وتكْسِر رأسه، وتُلْقِيه، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠]. وقد كانوا تَحَصَّنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحَفَروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يُغْنِ عنهم ذلك من أَمْرِ الله شيئًا؛ ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ الآية.

الآية (١٤١-١٤٥): وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح عليه السلام: أنه بَعَثَه إلى قومه ثمود، وكانوا عَرَبًا يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام، فدَعَاهم نَبِيُّهم صالح إلى الله عزوجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يُطِيعوه فيما بَلَّغَهُمْ من الرسالة، فأَبَوا عليه وكَذَّبوه وخالفوه. فأَخْبَرَهم أنه لا يَبتَغِي بدعوتهم أجرًا منهم، وإنما يَطلُب ثواب ذلك من الله ﷻ.

الآية (١٤٦-١٥٢): يقول لهم واعظًا لهم ومحذِّرًا إيَّاهم نِقَم الله أن تَحِلَّ بهم، ومُذَكِّرًا بأَنْعُم الله عليهم فيما رَزَقَهم من الأرزاق الدَّارَّة، وجَعَلَهم في أَمْنٍ من المحذورات، وأَنْبَتَ لهم من الجنات، وفَجَّر لهم من العيون الجاريات، وأَخرَج لهم من الزروع والثمرات: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال العوفي عن ابن عباس: أَيْنَعَ وبَلَغ، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يقول: مُعْشِبةٌ. وقال عن ابن عباس: إذا رَطُب وَاسْتَرْخَى. وقال أبو العلاء: هو المُذَنَّب من الرُّطَب. وقال مجاهد: هو الذي إذا يَبِسَ تَهَشَّم وتَفَتَّتَ وتَنَاثَر. و[عن] مجاهد قال: حين يطلعُ تَقْبِضُ عليه فتهضمه، فهو من الرَّطْب الهَضِيم، ومن اليابس الهشيم، تَقْبِضُ عليه فَتُهَشِّمُهُ. وقال عكرمة وقتادة: الهضيم: الرَّطْبُ اللَّيِّنُ. وقال الضحاك: إذا كَثُرَ حِمْلُ الثمرة، ورَكِبَ بعضُه بعضًا، فهو هَضِيم. وقال مَرَّة: هو الطَّلْعُ حين يَتَفَرَّقُ ويَخْضَرُّ. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: ما رَأَيْتَ الطلعَ حِينَ يُشَقُّ عنه الكُمُّ، فَتَرَى الطَّلْع قد لَصِقَ بعضه ببعض؟! فهو الهَضِيم.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شَرِهِينَ أَشِرِينَ. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاةَ بينهما؛ فإنهم كانوا يَتَّخِذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبَطَرًا وعَبَثًا، من غير حاجة إلى سُكنَاها، وكانوا حاذقين مُتْقِنين لنَحْتِها ونَقْشِها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أَقبِلُوا على عَمَل ما يَعود نَفعُه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربِّكم الذي خَلَقَكم ورَزَقكم لتُوَحِّدُوه وتعبدوه وتُسَبِّحُوه بكرةً وأصيلًا، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحقِّ.

الآية (١٥٣-١٥٩): يقول تعالى مخبرًا عن ثمودَ في جوابهم لنبيِّهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربِّهم أنَّهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يعنون من المَسْحُورين. وعن ابن عباس: من المخلوقين، يعني الذين لهم سُحور، والسَّحْر: هو الرئة. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عَقْل لك. ثم قالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: فكيف أُوحِيَ إليك دوننا؟! كما قالوا: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥-٢٦].

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صِدْقَه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع مَلَؤُهُم وطلبوا منه أن يُخرِجَ لهم الآن من هذه الصخرة ناقةً عُشَرَاء -وأشاروا إلى صخرة عندهم- من صِفَتِها كذا وكذا. فعند ذلك أَخَذَ عليهم نبيُّ الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمِنُنَّ به، ولَيَتَّبِعُنَّهُ، فأَنْعَمُوا بذلك. فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله ﷻ أن يُجِيبَهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَرَاء، على الصفة التي وَصَفُوها. فآمن بعضهم وكَفَر أكثرهم. ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: تَرِدُ ماءكم يومًا، ويومًا تَردُونه أنتم. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فحَذَّرَهم نقمةَ الله إن أصابوها بسوء، فمَكَثَتْ الناقة بين أَظْهُرِهم حِينًا من الدهر تَرِدُ الماء، وتَأكل الوَرَقَ والمَرْعَى. وينتفعون بلَبَنِها، يَحتَلِبون منها ما يَكفِيهم شُرْبًا وريًّا، فلمَّا طال عليهم الأَمَد وحَضَر شقاؤهم، تمالؤوا على قَتْلِها وعَقْرِها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو أن أَرضَهم زُلْزِلَت زِلزَالًا شديدًا، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ اقتَلَعَت القلوب عن مَحَالِّهَا، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) المراد: (اختلاق) كما هو بَيّن من الكلام بعدها. وقد قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف بضم الخاء واللام وقرأ الباقون بفتح الخاء وسكون اللام. [ينظر: فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات: ٣/ ٦٤٠].

الآية (١٦٠-١٦٤): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان الله تعالى قد بَعَثَه إلى أمةٍ عظيمةٍ في حياة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانوا يسكنون «سدُوم» وأعمالها التي أهلَكَها الله بها، وجَعَل مكانها بُحيرةً منتنةً خبيثةً، وهي مشهورة ببلاد الغور، بناحية جبال البيت المُقَدَّسِ، فدَعَاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أن يَعبدُوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بَعَثَه الله إليهم، ونَهَاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، ممَّا لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذُّكْران دون الإناث.

الآية (١٦٥-١٧٥): لَـمَّا نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأَرشَدَهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خَلقَهُن الله لهم، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ أي: عمَّا جئتنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: ننفيك من بين أظهرنا؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]، فلمَّا رأى أنَّهم لا يرتدعون عمَّا هم فيه، وأنهم مستمرُّون على ضلالتهم، تَبَرَّأ منهم، وقال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: المُبغِضِين، لا أُحِبُّه ولا أَرضَى به؛ فأنا بَرِيءٌ منكم.

ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهَلَكَت مع من بقي من قومها، حين أَمَرَه الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يَلتَفِتُون إذا سَمعُوا الصَّيحَة حين تَنزِل على قومه، فصَبَروا لأمر الله واستمرُّوا، وأَنزَل الله على أولئك العَذَاب الذي عَمَّ جميعَهم، وأَمْطَر عليهم حجارةً من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآية (١٧٦-١٨٠): أصحاب الأَيْكَة: هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يَقُلْ هنا «أخوهم شعيب»؛ لأنهم نُسِبوا إلى عبادة الْأَيْكَةِ، وهي شَجَرة. وقيل: شَجَرٌ مُلْتَفٌّ كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لَـمَّا قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لم يَقُل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نِسبةَ الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نَسَبًا. ومن الناس من لم يَفْطَن لهذه النُّكْتَة، فظَنَّ أن أصحاب الأَيْكَة غير أهل مدين، فزَعَم أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَه الله إلى أُمَّتين، ومنهم من قال: ثلاث أُمَم.

والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصِفُوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وَعَظَ هؤلاء وأَمَرَهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواءً بسواء، فدلَّ ذلك على أنهم أمة واحدة.

الآية (١٨١-١٨٣): يأمرهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: إذا دَفَعْتم إلى الناس فكَمِّلُوا الكَيْلَ لهم، ولا تَبخَسوا الكيل فتُعْطُوهُ نَاقِصًا، وتأخذوه -إذا كان لكم- تامًّا وافيًا، ولكن خُذُوا كما تُعطُون، وأَعْطُوا كما تَأخُذون.

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ والقسطاس هو: الميزان، وقيل: القَبَّانُ. وقال قتادة: القسطاس: العَدْلُ.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: تَنْقُصوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: قَطْع الطريق، كما في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:٨٦].

الآية (١٨٤): ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يُخَوِّفهم بأسَ الله الذي خَلقَهم وخَلَق آباءهم الأوائل. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: خلق الأوَّلين.

الآية (١٨٥-١٩١): يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون: من المسحورين، ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: تَتعمَّد الكَذِب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال الضحاك: جانبًا من السماء. وقال قتادة: قِطَعًا من السماء. وقال السُّدي: عَذَابًا من السماء. ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وَقَع بهم كما سألوا، جزاءً وِفَاقًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكِسَفِ عليهم؛ فإن الله سبحانه وتعالى جَعَل عُقُوبتهم أنْ أصابهم حرٌّ شديدٌ جدًّا مُدَّة سبعة أيام لا يُكِنُّهم منه شيء، ثم أَقْبَلَت إليهم سَحَابةٌ أَظَلَّتْهم، فجَعَلوا يَنطَلِقون إليها يَستَظِلُّون بِظِلِّها من الحَرِّ، فلمَّا اجتمعوا تَحتَها أرسل الله تعالى عليهم منها شَررًا من نار، ولهبًا ووَهَجًا عظيمًا، ورَجَفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أَزْهَقَتْ أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق؛ ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤] وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التَّهكُّم والازدراء، فنَاسَب أن تأتيهم صيحة تُسْكِتُهُم. وههنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على وجه التَّعَنُّت والعناد، فناسب أن يَحِقَّ عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكافرين. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

الآية (١٩٢-١٩٥): يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أَنزَله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن -الذي تَقَدَّم ذِكْره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥]- ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أَنزَله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج. وهذا ما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:٩٧]. وقال مجاهد: من كَلَّمَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ لا تَأْكُلُهُ الأرض. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: نَزَل به مَلَكٌ كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، سالمًا من الدَّنَس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لِتُنْذِرَ به بأس الله ونِقمَتَه على من خَالَفه وكَذَّبَه، وتُبَشِّر به المؤمنين الْـمُتَّبِعِينَ له. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الذي أَنزَلْناه إليك أَنزَلْناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بَيِّنًا واضِحًا ظاهرًا، قاطعًا للعُذْر، مُقِيمًا للحُجَّة، دليلًا إلى الـمَحَجَّة.

الآية (١٩٦-١٩٩): يقول تعالى: وإنَّ ذِكْرَ هذا القرآن والتَّنْوِيهَ به لَـمَوجودٌ في كُتُب الأوَّلين المأثورة عن أنبيائهم الذين بَشَّروا به في قديم الدَّهر وحديثه، كما أَخَذَ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، والزُّبُرُ ههنا هي الكُتُب، وهي جمع زُبْرَة، وكذلك الزَّبُور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢] أي: مكتوب عليهم في صُحُف الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أَوَليس يَكفِيهم من الشَّاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يَجِدُون ذِكْر هذا القرآن في كُتُبهم التي يَدرُسونها؟! والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صِفَة محمد ﷺ ومَبْعَثه وأُمَّته، كما أَخبَر بذلك مَنْ آمن منهم؛ كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمَّن أَدْرَكه منهم ومن شَاكَلَهم. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧].

ثم قال تعالى مخبرًا عن شِدَّة كُفْر قريش وعنادهم لهذا القرآن؛ أنه لو أَنزَلَه على رجل من الأعاجم، ممَّن لا يدري من العربية كلمةً، وأَنزَلَ عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كما أَخبَرَ عنهم في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

الآية (٢٠٠-٢٠٦): يقول تعالى: كذلك سَلَكْنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالحق ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حيث ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢]. ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: يَتَمَنَّوْن حين يُشَاهِدون العذاب أن لو أُنْظِرُوا قليلًا ليَعمَلوا بطاعة الله، فكلُّ ظالم وفاجر وكافر إذا شَاهَد عقوبَتَه، نَدِمَ نَدَمًا شديدًا.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكارٌ عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٢٩]، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [العنكبوت:٥٣]. ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

الآية (٢٠٧-٢٠٩): ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ أي: لو أَخَّرْنَاهُم وَأَنْظَرْنَاهُم، وأَمْلَينا لهم برهةً من الزمان وحِينًا من الدَّهر وإن طال، ثم جاءهم أَمْرُ الله، أَيُّ شيء يُجْدِي عنهم ما كانوا فيه من النعم؟! ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عَدْله في خَلقه: أَنَّه ما أَهْلَكَ أمةً من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبَعْثَة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

الآية (٢١٠-٢١٢): يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز: أنه نَزَلَ به الروح الأمين المُؤَيَّد من الله، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾. ثم ذَكَر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما يَنْبَغي لهم، أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طِلْبَتِهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهُدًى وبرهان عظيم، فَبَيْنَهُ وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انْبَغَى لهم لَـمَا استطاعوا ذلك. ثم بيَّن أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حَمْلَه وتأديته، لَـمَا وَصَلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ﴿مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ [الجن: ٨] في مُدَّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يَخْلُص أحد من الشياطين إلى استماع حَرْف واحد منه، لئلا يَشتَبِهَ الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩].

الآية (٢١٣-٢٢٠): يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومُخبرًا أنَّ من أَشرَكَ به عَذَّبَه. ثم قال تعالى آمِرًا لرسوله ﷺ أن يُنْذِرَ عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحدًا منهم إلا إيمانهُ بربه ﷻ، وأَمَرَه أن يُلِينَ جانبه لمن اتَّبَعه من عباد الله المؤمنين. ومن عصاه من خَلْق الله كائنًا من كان فلْيَتَبَرَّأ منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. وهذه النّذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فَرْدٌ من أجزائها. وعن ابن عباس قال: لَـمَّا أَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصَّفَا فصَعَد عليه، ثم نادى: «يا صَبَاحَاهُ». فاجتمع الناس إليه بين رجل يَجِيءُ إليه، وبين رجل يَبْعَثُ رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المُطَّلِب، يا بني فِهْر، يا بني لُؤَيٍّ، أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خَيلًا بسَفْح هذا الجبل، تريد أن تُغِيرَ عليكم، صَدَّقْتُموني؟». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد. فقال أبو لهب: تَبًّا لك سائر اليوم، أما دَعَوْتَنا إلا لهذا؟! وأَنزَل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: في جميع أمورك؛ فإنه مُؤَيِّدك وحافظك ومُظَفِّرُكَ ومُعْلٍ كلمَتَك. وقوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: هو مُعْتَنٍ بك. قال ابن عباس: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده. وقال الحسن: إذا صليت وحدك. وقال الضحاك: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: قائمًا وجالسًا وعلى حالاتك. وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال قتادة: في الصلاة، يراكَ وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم.

الآية (٢٢١-٢٢٧): ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾ أي: أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك. ﴿أَثِيمٖ﴾ أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تَنَزَّلُ عليه الشياطين؛ كالكُهَّان وما جَرَى مجراهم من الكَذَبَة الفَسَقَة؛ فإن الشياطين أيضًا كَذَبَة فَسَقَة. ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كَذْبة، ثم يُلْقُونَها إلى أوليائهم من الإنس فيَتَحَدَّثون بها، فيُصَدِّقُهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صِدْقِهم في تلك الكلمة التي سُمِعَت من السماء؛ كما روى البخاري عن عائشة قالت: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء». قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًا! فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الكفار يَتَّبِعُهُمْ ضُلَّالُ الإنس والجن. وكذا قال مجاهد وعبد الرحمن بن زيد وغيرهما. وقال عكرمة: كان الشاعران يَتَهَاجَيان، فَيَنْتَصِر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فِئَامٌ من الناس، فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ قال ابن عباس: في كل لَغْوٍ يخوضون. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره، وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل.

﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: أكثر قولهم يَكْذِبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس هو الواقع في نَفْس الأمر؛ فإن الشعراء يتبجَّحون بأقوال وأفعال لم تَصْدُر منهم ولا عنهم، فيَتَكَثَّرُون بما ليس لهم. والمراد من هذا: أن الرسول ﷺ الذي أُنزِل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله منافٍ لحالهم من وجوه ظاهرة.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد: إن هذا استثناء ممَّا تقدَّم. ولا شكَّ أنه استثناء، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يَدْخُل فيه من كان مُتَلَبِّسًا من شعراء الجاهلية بذمِّ الإسلام وأهله ثم تاب وأناب، ورَجَعَ وأَقلَع، وعَمِل صالحًا، وذَكَر الله كثيرًا في مقابلة ما تَقَدَّم من الكلام السيئ؛ فإن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات، وامتدح الإسلامَ وأهلَهُ في مقابلة ما كَذَب بذمِّه.

﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ قيل: معناه: ذَكَروا الله كثيرًا في كلامهم. وقيل: في شِعْرهم، وكلاهما صحيح مُكَفِّر لِـمَا سَبَق.

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال ابن عباس: يردُّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم -أو قال: هاجهم- وجبريل معك» [متفق عليه]. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة» [متفق عليه].

وقال قتادة: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ من الشعراء وغيرهم. وقيل: المراد بهم أهل مكة. وقيل: الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامَّة في كل ظالم.

تفسير سورة النمل

وهي مكية. [وعدد آياتها (٩٣) آيةً].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية (١-٦): قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آياتُ ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّن واضح، ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تَحصُل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتَّبَعَه وصَدَّقَه، وعَمِل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقَنَ بالدار الآخرة والبَعْث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خَيرها وشَرّها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ [فصلت:٤٤]. وقال: ﴿لِّتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يكذِّبون بها، ويستبعدون وقوعها، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما هم فيه، ومَدَدْنا لهم في غَيِّهم فهم يَتِيهُون في ضَلَالهم. وكان هذا جزاءً على ما كَذَّبوا به من الدار الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ ليس يَخْسَرُ أَنْفُسَهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد! ﴿لَتُلَقَّى﴾ قال قتادة: أي: لَتَأْخُذ ﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ﴾ أي: من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ في أوامره ونواهيه، ﴿عَلِيمٍ﴾ بالأمور جَلِيلها وحَقِيرها، فخَبَرُه هو الصِّدْق المَحْض، وحُكْمه هو العَدْل التَّام؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

الآية (٧-١٣): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مُذَكِّرًا له ما كان من أَمْرِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كيف اصطفاه الله وكَلَّمَه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابْتَعَثَه إلى فرعون ومَلَئِه، فجَحَدُوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأَضَلَّ الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنَسَ من جانب الطور نارًا، أي: رأى نارًا تأَجَّجُ وَتَضْطَرِم، فقال ﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تَستَدْفِئُون به. وكان كما قال؛ فإنه رَجَعَ منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلمَّا أتاها رأى منظرًا هائلًا عظيمًا؛ حيث انتهى إليها والنار تَضْطَرِمُ في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا تَوَقُّدًا، ولا تَزْدَاد الشجرة إلا خُضْرَةً ونَضْرَةً، ثم رَفَعَ رأسه فإذا نورها مُتَّصِل بعَنَان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تَكُن نارًا، إنما كانت نُورًا يَتَوَهَّج. وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوَقَفَ موسى مُتَعَجِّبًا ممَّا رأى.

﴿أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: تَقَدَّس.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من الملائكة. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد ابن جبير. وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْط ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَل الليل قبل النهار، وعَمَل النهار قبل الليل، وحِجَابه النور -أو النار- لو كَشَفَها لأَحرَقَت سُبُحَات وجهه كلَّ شيء أَدْرَكَه بَصَرُه». ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني، وأصله في مسلم].

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يُشبِه شيئًا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يَكتَنِفُه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصَّمَد، المُنَزَّه عن مماثلة المُحْدَثَات.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أَعْلَمَه أن الذي يُخَاطِبه ويُنَاجِيه هو رَبُّه الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي عَزَّ كلَّ شيء وقَهَرَه وغَلَبَه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يُلْقِيَ عَصَاه من يده؛ ليُظْهِر له دليلًا واضِحًا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلمَّا ألقَى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حَيَّةً عظيمةً هائلةً في غاية الكِبَر، وسُرعَة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانُّ: ضَرْب من الحَيَّات، أَسْرَعُهُ حَرَكَةً، وأَكْثَرُه اضطرابًا.

فلمَّا عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يَلْتَفِتْ من شدة فَرَقِه، ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تَخَفْ ممَّا ترى؛ فإني أُرِيد أن أصطفيك رسولًا، وأجعَلَك نبيًّا وَجِيهًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا استثناء منقطع، وفيه بِشَارة عظيمة للبَشَر؛ وذلك أن من كان على عَمَل شيء ثُم أَقْلَع عنه، ورَجَع وأناب، فإن الله يَتُوب عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠] والآيات في هذا كثيرة جدًا.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: هذه آيةٌ أخرى، ودليلٌ باهرٌ على قدرة الله الفاعل المختار، وصِدْق من جَعَل له معجزةً؛ وذلك أن الله تعالى أَمَرَه أن يُدخِل يَدَه في جَيْب دِرْعِه، فإذا أَدْخَلَها وأَخْرَجَها خَرَجَت بيضاء ساطعةً، كأنها قِطْعَةُ قَمَر، لها لَمَعَانٌ يَتَلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: هاتان ثنتان من تِسع آيات أُؤَيِّدك بهن، وأجعَلُهن برهانًا لك إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: بيِّنةً واضحةً ظاهرةً. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسِحْرِهم فغُلِبُوا وانقلبوا صاغرين.

الآية (١٤): ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: في ظاهر أَمْرِهم، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: عَلِمُوا في أنفسهم أنها حقٌّ من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْمًا﴾ أي: ظلمًا من أنفسهم، سجيةً ملعونةً، ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: استكبارًا عن اتِّباع الحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبةُ كفرهم، في إهلاك الله إيَّاهم، وإغْراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذِّبون بمحمد، الجاحدون لِـمَا جاء به من رَبِّه، أن يُصِيبَكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدًا ﷺ أَشرَف وأعْظَم من موسى، وبرهانه أدَلُّ وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سَبَقَه من البشارات من الأنبياء به، وأَخْذِ المواثيق له، عليه من رَبِّه أفضل الصلاة والسلام.

الآية (١٥-١٩): يخبر تعالى عمَّا أَنْعَمَ به على عَبْدَيْه ونَبِيَّيه داود وابنه سليمان -عليهما من الله السلام- من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جَمَعَ لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والـمُلْك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في الـمُلْك والنبوة، وليس المراد وراثة المال؛ إذ لو كان كذلك لم يَخُصَّ سليمانَ وحده من بين سائر أولاد داود؛ فإنه قد كان لداود مائة امرأة. ولكن المراد بذلك وراثة الـمُلْك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تُوَرَّث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معشر الأنبياء لا نُورَثُ، ما تركناه صدقةٌ» [رواه البخاري].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: أَخْبَرَ سليمان بنِعَم الله عليه، فيما وَهَبَه له من الـمُلْك التَّام، والتمكين العظيم، حتى إنه سَخَّرَ له الإنس والجن والطير. وكان يَعرِف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يُعْطَه أحدٌ من البشر -فيما عَلِمْناه- ممَّا أَخبَرَ الله به ورسوله. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ممَّا يَحتَاج إليه الـمَلِك.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البَيِّن لله علينا.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجُمِع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: رَكِبَ فيهم في أُبَّهَةٍ وعَظَمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يَلُونَه، والجنُّ وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حَرًّا أَظَلَّته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يَكُفُّ أَوَّلُهم على آخرهم؛ لئلا يَتَقَدَّمَ أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جَعَل على كل صِنْف وَزَعَةً، يَرُدُّون أُولَاها على أُخْرَاها، لئلا يَتَقَدَّمُوا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مَرَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: خافت على النمل أن تَحْطِمَها الخيول بحَوَافِرها، فأَمَرَتْهُم بالدخول إلى مساكنها، فَفَهِم ذلك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ منها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: أَلْـهِمْني أن أَشْكُر نعمتك التي مَنَنْتَ بها عليَّ، من تعليمي مَنطِقَ الطير والحيوان، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: عملًا تُحِبُّه وترضاه.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا تَوَفَّيتني فأَلحِقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

والغرض: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِم قولها وتَبَسَّم ضاحكًا من ذلك، وهذا أمر عظيم جدًّا. وقد ثَبَت عند مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قَرَصَت نَبِيًّا من الأنبياء نملةٌ، فأَمَرَ بقرية النَّمل فأُحْرِقَت، فأوحى الله إليه، أفي أن قَرَصَتْكَ نملةٌ أَهلَكْتَ أمةً من الأمم تُسَبِّح؟! فَهَلَّا نملةً واحدةً!».

الآية (٢٠-٢١): قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسًا، يَدُلُّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على الماء؛ إذا كان بأرض فلاة طَلَبَه فنَظَرَ له الماء في نُخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بُعْدِه من وَجْه الأرض، فإذا دَلَّـهُم عليه أَمَرَ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجانَّ فحَفَروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنَزَل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا بفلاةٍ من الأرض، فتَفَقَّدَ الطير لِيَرَى الهدهد، فلَمْ يَرَه؛ ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾. حَدَّثَ يومًا عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: «نافع ابن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قِفْ يا ابن عباس، غُلِبْتَ اليوم! قال: ولِـمَ؟ قال: إنك تُخبِر عن الهدهد أنه يَرَى الماء في نُخُوم الأرض، وإن الصبي ليَضَع له الـحَبَّةَ في الفَخِّ، ويَحْثُو على الفَخِّ ترابًا، فيَجِيء الهدهد ليأخذها فيَقَعُ في الفَخِّ، فيَصِيدُه الصَّبِي. فقال ابن عباس: لولا أن يَذْهَبَ هذا فيقول: رَدَدْتُ على ابن عباس، لَـمَا أجبتُه. [ثم] قال له: وَيْحَكَ! إنه إذا نَزَل القدَر عَمِيَ البَصَر، وذَهَبَ الـحَذَر. فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدًا.

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن عباس: يعني نَتْفَ رِيشِه. وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يعني: قتله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بعُذْرٍ واضح بَيِّن.

الآية (٢٢): ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب زمانًا يسيرًا ثم جاء، فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطلعتُ على ما لم تَطَّلِع عليه أنت ولا جنودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صِدْقٍ حَقٍّ يَقِين. وسَبَأ: هم: حِمْيَر، وهم ملوك اليمن.

الآية (٢٣-٢٦): ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال الحسن: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من مَتَاع الدنيا ممَّا يحتاج إليه الملِك المتَمكِّن، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سَرير تَجلِس عليه، عظيم هائل مُزَخْرَف بالذَّهَب، وأنواع الجواهر واللآلئ. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قَصْرٍ عظيم مَشِيد رفيع البناء مُحكَم، قد وُضِعَ بناؤه على أن تَدخُل الشمس كل يوم من طاقة، وتَغرُب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾. وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خَلَق من شيء من الكواكب وغيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يَعلَمُ كل خَبِيئَةٍ في السماء والأرض. وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد. وقال سعيد بن المسيب: الخَبْء: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد: خَبْء السموات والأرض: ما جَعَل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذي جَعَل الله فيه من الخاصية ما ذَكَره ابن عباس وغيره من أنَّه يَرَى الماء يَجْرِي في تُخوم الأرض ودواخلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولَـمَّا كان الهدهد داعيًا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له؛ نُهِيَ عن قَتْلِه، كما رُوِيَ عن أبي هريرة، قال: نَهَى النبي ﷺ عن قَتْل أربع من الدواب: النَّمْلَة والنَّحْلَة والهدهد والصُّرَد [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

الآية (٢٧-٣١): يقول تعالى مخبرًا عن قيل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ أي أَصَدَقْتَ في إخبارك هذا ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك، لتَتَخَلَّصَ من الوعيد الذي أَوْعَدْتُكَ؟! ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وذلك أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحَمَلَه، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قَصر بلقيس، إلى الْخَلْوَةِ التي كانت تخلي فيها بنفسها، فألقاه إليها مِن كُوَّةٍ هنالك بين يديها، ثم تَوَلَّى ناحيةً أدبًا ورياسةً، فتَحَيَّرَتْ ممَّا رَأَت، وهالها ذلك، ثم عَمَدَتْ إلى الكتاب فأَخَذَتْه، ففَتَحَت خَتْمَه وقَرَأَته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. فجَمَعَت عند ذلك أُمراءَها ووزراءَها وكُبراءَ دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكَرَمِه: ما رَأَتْهُ من عجيب أَمْرِه، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تَوَلَّى عنها أَدَبًا. وهذا أَمْرٌ لا يَقْدِرُ عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأَتْهُ عليهم. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قِبَلَ لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة؛ فإنه حَصَّل المعنى بأَيْسر عبارة وأَحسَنِها.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ قال قتادة: يقول: لا تَجَبَّرُوا عليَّ، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: مُوَحِّدِين. وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

الآية (٣٢-٣٥): لَـمَّا قَرَأَت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أَمْرِها، وما قد نَزَل بها؛ ولهذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: حتى تَحضُرون وتُشِيرُون ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: مَنُّوا عليها بعَدَدِهم وعُدَدِهم وقوَّتهم، ثم فَوَّضُوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحن ليس لنا عَاقَّةٌ ولا بنا بأس، إن شِئتِ أن تَقْصِدِيه وتُحاربيه فما لنا عَاقَة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مُرِي فِينَا برأيك نمْتَثِلْه ونُطِيعه. قال الحسن: فلمَّا قالوا لها ما قالوا، كانت هي أَحْزَمَ رَأْيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قِبَل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخِّرَ له من الجِنِّ والإنس والطير، وقد شَاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشى أن نُحارِبَه ونَمْتَنِع عليه، فيَقْصُدَنا بجنوده، ويُهْلِكَنا بمَن معه، ويَخْلُص إليَّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قال ابن عباس: أي إذا دَخَلوا بَلَدًا عَنوة أَفْسَدُوه، أي: خَرَّبُوه، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: وقَصَدوا مَن فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غايةَ الهوَان، إما بالقَتْل أو بالأَسْر. وقال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ قال الرب ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ثُم عَدَلَت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: سَأَبْعَث إليه بِهَدِيَّة تَلِيقُ به، وأَنْظُر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلَعَلَّهُ يَقبَل ذلك ويَكُفّ عَنَّا، أو يَضْرِب علينا خَرَاجًا نَحْمِلُه إليه في كُلِّ عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أَعقَلَها في إسلامها وفي شِركِها! عَلِمَتْ أنَّ الهديةَ تَقَعُ مَوقِعًا من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إنْ قَبِلَ الهدية فهو مَلِكٌ فقَاتِلُوه، وإن لم يَقْبَلْها فهو نبيٌّ فاتَّبِعُوه.

الآية (٣٦-٣٧): ذَكَر غير واحد من المفسرين: أنها بَعَثَت إليه بهدية عَظِيمة مِن ذَهَبٍ وجواهر ولآلئ وغير ذلك. والظاهر أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أَعْرَضَ عنه، وقال مُنكِرًا عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتُصَانِعُونِي بمالٍ لأَتْرُكَكم على شِرْكِكم ومُلْكِكُم؟! ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الـمُلْك والمال والجنود خير مِمَّا أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تَنْقَادون للهدايا والتُّحَف، وأما أنا فلا أَقْبَلُ منكم إلا الإسلام أو السَّيْف. قال ابن عباس: أَمَرَ سليمان الشياطين فمَوَّهُوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلمَّا رَأَت رسُلُها ذلك قالوا: ما يَصنَع هذا بهديَّتنا. وفي هذا دلالة على جواز تَهيُّؤ الملوك وإظهارهم الزِّينة للرُّسُل والقُصَّاد.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديَّتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من بلدهم، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهَانُون مَدْحُورُون.

فلمَّا رَجَعَتْ إليها رُسُلُها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعَتْ وأطاعَت هي وقومها، وأقبلَتْ تسير إليه في جنودها خاضعةً ذليلةً، معظمةً لسليمان، ناويةً متابعته في الإسلام. ولـمَّا تَحَقَّق سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهم عليه ووُفُودَهم إليه، فَرِحَ بذلك وسَرَّهُ.

الآية (٣٨-٤٠): قال قتادة: لـمَّا بَلَغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذُكِرَ له عرشُها فأعجَبَه، فكَرِهَ أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد عَلِمَ نبي الله أنهم متى أسلموا تَحرُم أموالهم مع دمائهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال مجاهد: أي مارِدٌ من الجن، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال مجاهد: مَقعَدك، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس: أي قَوِيٌّ على حَمْله، أمينٌ على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أريد أَعْجَلَ من ذلك. ومن ههنا يَظهَر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهارَ عَظَمَةِ ما وَهَبَه الله له من الـمُلْك، وسُخِّرَ له من الجنود، الذي لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلَه، ولا يكون لأحد من بعده. ولِيَتَّخِذَ ذلك حجةً على نبوَّته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعَرشِهَا كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، فلمَّا قال سليمان: أريد أَعْجَلَ من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصَف كاتب سليمان. وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: ارفع بَصَرَك وانظر مَدَّ بَصَرِكَ مِمَّا تَقدِر عليه، فإنك لا يَكِلُّ بَصَرُكَ إلا وهو حَاضِر عندك. وقال ابن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحمَل بين يديه فلمَّا عاين سليمان ومَلَؤُهُ ذلك، ورآه مُستَقِرًّا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: هذا من نِعَم الله عليَّ ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ أي: ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾. وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ أي: هو غَنِي عن العباد وعبادتهم ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أَحَد؛ فإنَّ عظمته ليست مفتقرةً إلى أحد.

الآية (٤١-٤٤): لـمَّا جِيءَ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَرْش بلقيس قبل قُدُومها؛ أَمَرَ به أن يُغَيَّرَ بَعْضُ صفاته، ليَخْتبِر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تُقْدِم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: نَزَعَ عنه فُصُوصَه ومرافقه. وقال مجاهد: أَمَرَ به فَغُيِّرَ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: عَرَضَ عليها عَرْشَها، وقد غُيِّرَ ونُكِّر، وزِيدَ فيه ونُقِص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُبٌّ ودَهَاء وحَزْم، فلم تُقْدِمْ على أنه هو لبُعْدِ مسافته عنها، ولا أنه غيره -لِـمَا رَأَت من آثاره وصفاته، وإن غُيِّرَ وبُدِّلَ ونُكِّرَ- فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد: سليمان يقوله. وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: هذا من تمام كلام سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ -في قول مجاهد وسعيد بن جبير- أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي كانت قد صَدَّهَا، أي: مَنَعَها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضًا. ثم قال ابن جرير: ويُحتَمَل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله ﷻ، تقديره: ومَنَعَها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: صَدَّها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. قلتُ: ويؤيدُ قول مجاهد: أنها إنَّما أَظْهَرَت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الشياطين فبَنَوا لها قَصْرًا عظيمًا من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يَعرف أَمرَه يَحسِب أنه ماء، ولكن يحول بين الماشي وبينه. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لا تَشُكُّ أنه ماء تَخُوضُه، قيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أصل الصَّرْح في كلام العرب هو: القَصْر، وكلُّ بناء مرتفع، والصَّرْح: قَصْر في اليمن عالي البناء، والـمُمَرَّد، أي: المبنى بناءً مُحكَمًا أَمْلَس، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج. وتَمْرِيدُ البناء تَمْلِيسُه. ومارد: حِصْن بدومة الـجَنْدَل. والغَرَض أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّخَذَ قَصرًا عظيمًا مُنِيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ لِيُرِيَها عظمةَ سلطانه وتمكُّنه، فلمَّا رَأَتْ ما آتاه الله تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتَبَصَّرَتْ في أمره؛ انقَادَتْ لأَمْر الله وعَرَفَت أنه نبيٌّ كريم، ومَلِكٌ عظيم، فأَسلَمَتْ لله ﷻ، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بما سَلَفَ من كُفْرها وشِرْكِها وعبادتها وقومها الشمسَ من دون الله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُتابِعةً لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خَلَقَ كل شيء فقدَّرَه تقديرًا.

الآية (٤٥-٤٧): يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أَمْرِها مع نَبيِّها صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بَعَثَه الله إليهم، فدَعَاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تَدْعُون بحُضُور العَذَاب، ولا تَطْلُبون من الله رحمته؟!

ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتَّبَعَك خيرًا؛ وذلك أنهم -لشقائهم- كان لا يُصِيبُ أحدًا منهم سُوْءٌ إلا قال: هذا من قِبَل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم.

وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨] أي: بقضاء الله وقدره.

وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس:١٨-١٩].

وقال هؤلاء: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الله يُجَازِيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تُبْتَلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُسْتَدْرَجُون فيما أنتم فيه من الضلال.

الآية (٤٨-٥٣): يخبر تعالى عن طُغَاةِ ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دُعاةَ قومهم إلى الضَّلَالة والكفر وتكذيب صالح، وآلَ بهم الحال إلى أنهم عَقَرُوا الناقة، وهَمُّوا بقَتْل صالح أيضًا، بأن يُبَيِّتُوهُ في أهله ليلًا فيَقْتُلوه غيْلَةً، ثم يقولوا لأوليائه من أَقْرَبِيه: إنهم ما عَلِمُوا بشيء من أَمْرِه، وإنهم لصادقون فيما أَخبَرُوهم به من أنهم لم يُشَاهِدُوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة نَفَر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنَّما غَلَبَ هؤلاء على أَمْرِ ثمود؛ لأنهم كانوا كُبَرَاء فيهم ورؤساءهم. قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عَقَرُوا الناقةَ؛ أي: الذي صَدَر ذلك عن آرائهم ومشورتهم -قَبَّحَهم الله ولَعَنَهم- وقد فَعَل ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، وقال تعالى ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس:١٢]. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ قال: كانوا يَقْرِضُونَ الدراهمَ، يعني: أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يَتَعَامَلون بها عَدَدًا، كما كان العرب يَتَعَامَلون.

وقال سعيد بن المسيب: قَطْع الذَّهَبِ والوَرِقِ من الفساد في الأرض. والغَرَضُ: أن هؤلاء الكَفَرَة الفَسَقَة، كان من صِفَاتِهم الإفساد في الأرض بكل طريق يَقدِرُون عليها، فمنها ما ذَكَرَه هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

وقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تَحالَفُوا وتَبَايَعوا على قَتْل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلًا غِيلَةً. فكَادَهم الله، وجَعَلَ الدائرة عليهم. قال مجاهد: تَقَاسَمُوا وتَحَالَفُوا على هَلَاكه، فلَمْ يَصِلُوا إليه حتى هَلَكُوا وقومُهم أجمعين. وقال ابن عباس: هم الذين عَقَرُوا النَّاقَة، قالوا حين عَقَرُوها: لَنُبَيِّتَنَّ صالحًا وأهله وقومه فنَقْتُلَهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شَهِدْنا مِن هذا شيئًا، وما لنا به من عِلْمٍ. فدَمَّرَهُم الله أجمعين.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لَمَّا عَقَرُوا الناقة وقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، قالوا: زَعَمَ صالح أنه يَفْرُغُ منَّا إلى ثلاثة أيام، فنحن نَفْرُغُ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحِجْر عند شِعْب هناك يُصَلِّي فيه، فخَرَجُوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلًا، فقالوا: إذا جاء يُصَلِّي قَتَلْنَاه، ثم رَجَعْنا إذا فَرَغْنا منه إلى أهله، فَفَرَغْنا منهم. فبَعَثَ الله صخرةً من الهَضَب حِيَالهم، فخَشُوا أن تَشْدَخَهُم فتَبَادروا فانطبقَتْ عليهم الصَّخْرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فُعِلَ بقومهم. فعَذَّبَ الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأَنْجَى الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: فارغةً ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

الآية (٥٤-٥٥): يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أَنْذَرَ قومه نقمةَ الله بهم في فِعْلِهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشةٌ عظيمةٌ؛ استغنى الرجالُ بالرجال، والنساءُ بالنساء، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يَرَى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكم المنكر؟!

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعرفون شيئًا لا طَبعًا ولا شَرْعًا؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

الآية (٥٦-٥٨): ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يَتَحَرَّجُون من فِعل ما تَفعلون، ومن إقراركم على صَنيعكم، فأَخْرِجُوهم من بين أظهركم فإنهم لا يَصْلُحون لِمُجَاوَرَتكم في بلادكم. فعَزَمُوا على ذلك، فدمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت رِدْءًا لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رِضَاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تَدُلُّ قومَها على ضِيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تَفْعَل الفواحش؛ تكرمةً لنبي الله ﷺ لا كرامةً لها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٢،٨٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة، وَوَصَل إليهم الإنذار، فخَالَفوا الرَّسول وكَذَّبوه، وهَمُّوا بإخراجه من بينهم.

الآية (٥٩-٦٠): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نِعَمِه على عباده، التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يُسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم؛ وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين، ورُوي نحوه عن ابن عباس. ولا منافاةَ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أَمَر رسوله ومن اتَّبعه بعد ما ذُكِر لهم ما فَعَل بأوليائه من النَّجَاة والنَّصر والتَّأييد، وما أَحَلَّ بأعدائه من الخِزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يُسَلِّموا على عباده الـمُصْطَفَيْن الأخيار. وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟! استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهةً أخرى.

ثم شَرَعَ تعالى يُبيِّن أنه الـمُنْفَرِدُ بالـخَلْق والرِّزْق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟! أي: تلك السموات بارتفاعها وصَفَائها، وما جَعَل فيها من الكواكب النيّرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جَعَل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقًا للعباد ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حَسَن وشَكْل بَهِيّ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شَجَرها، وإنما يَقدِر على ذلك الخالق الرازق، الـمُسْتَقِل بذلك الـمُتَفَرِّد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: أإله مع الله يُعْبَد، وقد تَبيَّن لكم ولكل ذي لُبٍّ ممَّا يَعْرفون به أيضًا أنه الخالق الرازق؟! ومن الـمُفَسِّرين من يقول: معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: أإله مع الله فَعَل هذا؟! وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمَّ أحد فَعَل هذا معه، بل هو الـمُتَفَرِّد به. فيُقَال: فكيف تعبدون معه غيره وهو الـمُسْتَقِل الـمُتَفَرِّد بالخلق والتدبير؟! ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟! ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أَمَنْ يَفعَل هذه الأشياء كمَنْ لا يَقْدِر على شيء منها؟! هذا معنى السياق وإن لم يُذْكَر الآخَر. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عِدْلًا ونَظِيرًا.

الآية (٦١): ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟! أي: قارَّةً ساكنةً ثابتةً، لا تَميد ولا تَتَحَرَّك لأهلها ولا تَرجِف بهم؛ فإنها لو كانت كذلك لَـمَا طاب عليها العيش والحياة، بل جَعَلَها من فَضْله ورَحمَته مِهادًا بساطًا ثابتةً لا تَتَزَلْزَل ولا تَتَحرك.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العَذْبَة الطَّيِّبة.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا شامخةً تُرْسِي الأرض وتُثَبِّتُها؛ لئلا تَـمِيْدَ بكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جَعَل بين المياه العَذْبة والـمَالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يَفْسُد هذا بهذا وهذا بهذا؛ فإن الحكمة الإلهية تَقْتَضِي بقاء كلٍّ منهما على صفته المقصودة منه؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فَعَل هذا؟! أو يُعْبَد؟ على القول الأوَّل والآخر؟! وكلاهما مُتَلَازم صحيح.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

الآية (٦٢): يُنَبِّهُ تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يَلْجَأُ الـمُضْطَر إلا إليه، والذي لا يكشف ضُرَّ الـمَضْرُورين سواه.

عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من بلهجيم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُخْلِفُ قَرنًا لِقَرْنٍ قبلهم وخَلَفًا لِسَلَف؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، أي: قومًا يَخْلُفُ بعضهم بعضًا. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أمةً بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، وقومًا بعد قوم. ولو شاء لأَوْجَدَهم كلَّهم في وقت واحد.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: يَقْدِرُ على ذلك، أو إله مع الله يُعْبَد، وقد عُلِم أن الله هو الـمُتَفَرِّد بفعل ذلك؟! ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أَقَلَّ تذكُّرهم فيما يُرشِدُهم إلى الحقِّ، ويَهدِيهم إلى الصراط المستقيم.

الآية (٦٣): ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟! أي: بما خَلَقَ من الدلائل السماوية والأرضية؛ كما قال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: بين يدي السَّحاب الذي فيه مَطَر، يُغِيث به عباده الـمُجْدِبين الأَزِلين القَنِطين ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٦٤): أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بما يُنزل من مَطَر السماء، ويُنْبِت من بركات الأرض، فهو تبارك وتعالى يُنزل من السماء ماءً مباركًا فيُسْكِنه في الأرض، ثم يُخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فَعَلَ هذا؟! وعلى القول الآخَر: يُعْبَد؟!

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما تَدَّعُونه من عبادة آلهة أخرى.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك، وقد عُلِمَ أنه لا حُجَّة لهم ولا برهان؛ كما قال الله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

الآية (٦٥-٦٦): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول مُعْلِمًا لجميع الخلق: أنه لا يَعْلَم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيبَ. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يعلم أحدٌ ذلك إلا الله ﷻ؛ فإنه المُنْفَرِد بذلك وحده، لا شريك له؛ كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام:٥٩]. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يَشعُر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة؛ كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]. عن عائشة قالت: من زعم أنه يَعْلَم -[تعني][1] النبي ﷺ- ما يكون في غَدٍ، فقد أَعظَمَ على الله الفِرْية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [رواه ابن أبي حاتم، وهو متفق عليه بنحوه].

وقال قتادة: إنَّما جَعَل الله هذه النجوم لثلاث خصلاتٍ: جَعَلَها زينةً للسماء، وجَعَلَها يُهتَدَى بها، وجَعَلَها رُجُومًا للشياطين، فمن تَعَاطَى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حَظَّه، وأضَاعَ نَصِيْبَه وتَكَلَّفَ ما لا عِلْمَ له به.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: انتهى عِلْمُهم وعَجَزَ عن معرفة وقتها. وقَرَأ آخرون: «بَلْ أَدْرَك عِلْمُهُمْ» أي: تَسَاوَى عِلمُهم في ذلك، أي: تَسَاوَى في العَجْز عن دَرك ذلك عِلْمُ المسؤول والسائل. قال ابن عباس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: غاب. وقال قتادة: يعني: يُجَهِّلهم ربهم، يقول: لم يَنْفُذ لهم إلى الآخرة عِلْمٌ، هذا قول. وعن ابن عباس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: حين لم ينفع العِلْم، وبه قال عطاء الخراساني والسدي: أن عِلْمَهم إنما يُدرك ويَكْمُل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ والمراد الكافرون، شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

الآية (٦٧-٧٠): يقول تعالى مخبرًا عن مُنكري البَعْث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورُفَاتًا وترابًا، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زِلْنَا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نَرَى له حقيقةً ولا وقوعًا.

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعنون: ما هذا الوَعْد بإعادة الأبدان ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أَخَذَه قومٌ عمَّن قبلهم، مِن كُتُبهم يَتَلَقَّاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مُجيبًا لهم عمَّا ظَنُّوه من الكُفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المكذِّبين بالرسل وما جاؤوهم به من أَمْر المعاد وغيره، كيف حَلَّت بهم نِقَمُ الله وعذابه ونكاله، ونَجَّى الله من بينهم رُسُلَه الكرام ومن اتَّبَعَهم من المؤمنين، فَدَلَّ ذلك على صِدْق ما جاءت به الرسل وصحته.

ثم قال تعالى مُسليًّا لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المكذِّبين بما جِئتَ به، ولا تَأْسَف عليهم وتَذْهَب نَفْسُك عليهم حَسَرات.

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: في كَيدِك وَرَدِّ ما جِئْتَ به؛ فإن الله مُؤَيِّدُك وناصِرُك، ومُظْهِرٌ دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

الآية (٧١-٧٥): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال الله مجيبًا لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال ابن عباس: قَرُب - أو: يقرب-. وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي. وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: في إسباغه نِعَمَه عليهم مع ظُلْمِهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يَشْكُرُونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يَعلَم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠]، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]. ثم أَخبَر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة -وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه- فقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء في السماء والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

الآية (٧٦): يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: أنه ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم حَمَلة التوراة والإنجيل، ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى وتَبايُنِهم فيه؛ فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا، فجاء القرآن بالقول الوَسَط الحقِّ العَدْل: أنه عَبْدٌ من عِبَاد الله وأنبيائه ورسله الكرام عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤].

---

(١) في الأصل: (يعني) بالياء، والتصحيح من تفسير ابن أبي حاتم.

الآية (٧٧-٨١): ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هُدًى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أمورك، وبَلِّغْ رسالةَ ربك. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: أنت على الحقِّ الْـمُبِين وإن خالَفَك مَن خَالَفَكَ ممَّن كُتِبَتْ عليه الشقاوة وحَقَّتْ عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٧]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لا تُسْمِعُهم شيئًا ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غِشاوة، وفي آذانهم وَقْر الكفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير؛ السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لله، ولِـمَا جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

الآية (٨٢): هذه الدَّابَّة تَخرُج في آخر الزمان عند فَسَاد الناس وتَرْكِهم أوامرَ الله وتَبْدِيلهم الدين الحقَّ، يُخْرِج الله لهم دابَّة من الأرض -قيل: من مكة. وقيل: من غيرها- فَتُكَلِّم الناس على ذلك.

قال ابن عباس والحسن وقتادة -ورُوِيَ عن عليٍّ-: تُكَلِّمُهم كَلَامًا؛ أي: تُخَاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تُكَلِّمُهم فتقول لهم: إن ﴿ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1]. واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نَظَرٌ لا يَخْفَى، والله أعلم. وقال ابن عباس -في رواية-: تَجْرَحُهُمْ. وعنه -في رواية-: كُلًّا تَفْعَل. يعني هذا وهذا، وهو قول حَسَن، ولا منافاة، والله أعلم. روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أَوَّلَ الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مَغرِبها، وخروج الدَّابَّة على الناس ضُحًى، وأيَّتُهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أَثَرِها قريبًا». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة» [رواه مسلم].

الآية (٨٣-٨٦): يقول تعالى مخبرًا عن يوم القيامة، وحَشْر الظالمين المكذِّبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عمَّا فَعَلوه في الدار الدنيا، تقريعًا وتوبيخًا، وتصغيرًا وتحقيرًا، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: من كل قوم وقَرن ﴿فَوْجًا﴾ أي: جماعةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال ابن عباس: يُدْفَعُون. وقال قتادة: وَزَعَةٌ[2] تَرُدُّ أَوَّلَـهم على آخِرِهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يُسَاقُونَ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ أي: أُوقِفُوا بين يدي الله ﷻ في مقام المساءلة ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم، فلمَّا لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة:٣١، ٣٢]، فحينئذٍ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]. ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: بُهِتُوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظَلَمَةً لأنفسهم، وقد رُدُّوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى مُنَبِّهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع. الذي تَجِب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحقِّ الذي لا مَحِيدَ عنه، فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فيه ظلام تَسكُنُ بسببه حركاتهم، وتَهدَأ أنفاسهم، ويَستَرِيحُون مِن نَصَب التَّعَب في نهارهم. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: منيرًا مشرقًا، فبسبب ذلك يَتَصَرَّفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٨٧-٨٨): يُخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع في الصُّور، وأنَّ إسرافيل هو الذي يَنفُخ فيه بأمر الله تعالى، فيَنفُخ فيه أولًا نفخة الفَزَع ويُطَوِّلها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شِرار الناس من الأحياء، فيَفزَع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهم الشهداء؛ فإنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «.. فيَبقَى شرار الناس في خِفَّة الطَّير وأحلام السباع، لا يَعرِفون معروفًا، ولا يُنكِرون منكرًا، فيَتَمَثَّل لهم الشيطان فيقول: ألَا تستجيبون؟ فيقولون: فما تَأمُرُنا؟ فيَأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دَارٌّ رِزْقُهم حَسَنٌ عَيْشُهُم. ثم يُنفخ في الصُّوْر فلا يَسمَعه أحدٌ إلا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا». قال: «فَيَصْعَقُ الناس، ثم يُرسِل الله -أو قال: يُنْزِل الله- مطرًا كأنه الطَّل -أو قال: الظِّل- فتَنْبُتُ منه أجساد الناس، ثم يُنْفَخُ فيه أُخرَى فإذا هم قيام ينظرون» [رواه مسلم]. وقوله: «لِيتًا»، اللِّيتُ: صفحة العنق، أي: أَمَالَ عُنُقَه ليَسْتَمِعه من السماء جيِّدًا. فهذه نفخة الفَزَع. ثم بعد ذلك نفخة الصَّعْق، وهو الموت. ثم بعد ذلك نفخةُ القيام لربِّ العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مُطِيعِين، لا يَتَخَلَّف أحد عن أَمْره؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٥٢]، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تَـمُرُّ مَرَّ السحاب، أي: تزول عن أماكنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]. وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أَتْقَنَ كلَّ ما خَلَقَ، وأَودَعَ فيه مِن الحكمة ما أَودَعَ ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، فيجازيهم عليه.

---

(١) خلاصة قول السعدي -رحمه الله- في هذه الآية: أي: لأجل أن الناس ضَعُفَ يقينهم بآيات الله أظهر الله هذه الدابة من آياته العجيبة، وأن التكليم منها خارق للعوائد المألوفة وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه. [ينظر: تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية ٨٢ من سورة النمل].

(٢) الوَزَعَة: جمع وازع [القاموس المحيط]؛ مثل سَحَرَة جمع ساحر. تقول: وَزَعْتُه؛ أي: كَفَفْتُه ورددته. والمقصود: الملائكة في المحشر ترد أولهم على آخرهم.

الآية (٨٩-٩٠): بَيَّنَ تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال قتادة: بالإخلاص. وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله، وقد بيَّن في المكان الآخر أن له عَشْرَ أمثالها.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت:٤٠]، وقال: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: من لَقِيَ الله مُسيئًا لا حسنةَ له، أو: قد رَجَحَت سيئاته على حسناته، كلٌّ بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد في قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: بالشرك.

الآية (٩١-٩٣): يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس:١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البَلْدَة على سبيل التَّشْريف لها والاعتناء بها؛ كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش:٣-٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صَارَت حرامًا قَدَرًا وشرعًا بتحريمه لها؛ كما ثَبَت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حَرَّمَه الله يوم خَلَق السموات والأرض، فهو حرام بحُرْمَة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شَوْكُهُ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه، ولا يُلْتَقَطُ لُقَطَتُه إلا لِمن عَرَّفَها، ولا يُخْتَلَى خَلاهَا».

وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ من باب عَطْف العام على الخاص، أي: هو رَبُّ هذه البلدة، ورَبُّ كل شيء ومَلِيكه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المُوَحِّدين المُخْلِصين المُنْقَادِين لِأَمْرِه المُطِيعين له.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: على الناس أُبَلِّغُهُم إياه؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨]، وكقوله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٣] أي: أنا مُبَلِّغ ومُنْذِر.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي أسوةٌ بالرُّسُل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عُهْدتهم، وحسابُ أُمَمِهم على الله؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد الذي لا يُعَذِّبُ أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء. وقد ذُكِرَ عن الإمام أحمد أنه كان يُنشِدُ هذين البيتين، إمّا له أو لغيره:

إذَا مَـا خَلَـوْتَ الـدَّهْرَ يومًـا فـلَا تَقُـلْ
خَلَـوْتُ ولكـن قُـل عَـلَيّ رَقِيـبُ
ولاَ تَحْسَـبَنَّ اللهَ يَغْفَـلُ سَـاعَةً
ولاَ أَنَّ مَـا يَخْفَـى، عَلَيْـهِ يَغِيـبُ

تفسير سورة القصص

وهي مكية. [وعدد آياتها (٨٨) آيةً].

الآية (١-٥): قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجَلِيِّ الكاشف عن حقائق الأمور، وعِلْم ما قد كان وما هو كائن.

وقوله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ كما قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، أي: نَذْكُرُ لك الأمر على ما كان عليه، كأنَّك تُشَاهِد وكأنَّك حَاضِر.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكَبَّر وتَجَبَّر وطَغَى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافًا، قد صَرَّف كل صِنْف فيما يُريد من أمور دولته.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سُلِّطَ عليهم هذا المَلِك الجَبَّار العنيد؛ يستعملهم في أَخَسِّ الأعمال، ويَكُدُّهُم ليلًا ونهارًا في أَشغَاله وأَشغَال رعيته، ويَقْتُل مع هذا أبناءَهم ويَستَحْيِي نساءَهم، إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا من أن يُوجَدَ منهم الغلام الذي كان قد تَخَوَّفَ هو وأهل مملكته من أن يُوجَدَ منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذَهَاب دولته على يديه. وكانت القِبْط قد تَلَقَّوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يَدرُسُونه من قول إبراهيم الخليل، حين وَرَدَ الدِّيَار المصرية، وجَرَى له مع جَبَّارِها ما جَرى، حين أَخَذَ سَارَة ليَتَّخِذَها جاريةً، فصَانَها الله منه، ومَنَعَهُ منها بقدرته وسُلطَانه. فبَشَّرَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَه أنه سيُولَد من صُلبه وذُرِّيَّته مَن يكون هلاك مَلِك مِصْرَ على يديه، فكانت القِبْط تَتَحدَّث بهذا عند فرعون، فاحْتَرَزَ فرعون من ذلك، وأَمَرَ بقَتْلِ ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حَذَرٌ من قَدَر؛ لأن أَجَلَ الله إذا جاء لا يُؤَخَّر، ولكلِّ أَجَل كتاب.

ولهذا قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

الآية (٦): ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وقد فعَل تعالى ذلك بهم؛ كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]، أراد فرعون بحَوْلِهِ وقُوَّته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَر الملِك العظيم الذي لا يُخَالَفُ أَمْرُه القدري، بل نَفَذَ حُكْمُه وجَرَى قَلَمُه في القِدَم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزتَ من وجوده، وقَتَلْتَ بِسَببه ألوفًا من الولدان، إنَّما منشؤه ومُرَبَّاه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تُرَبِّيهِ وتُدَلِّلُه وتتَفَدَّاه، وحَتْفُك وهَلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتَعْلَمَ أن ربَّ السموات العُلا هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المِحَال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الآية (٧-٩): ذَكَرُوا أن فرعون لَـمَّا أَكْثَرَ من قَتْل ذكور بني إسرائيل، خافت القِبْط أن يُفْنِيَ بني إسرائيل، فيَلُون هم ما كانوا يَلُونَه من الأعمال الشَّاقَّة. فقالوا لفرعون: إنه يُوشِك -إن استمرَّ هذا الحال- أن يَموت شيوخهم، وغلمانهم لا يَعيشون، ونساؤهم لا يُمكِن أن يَقُمْن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيَخْلُص إلينا ذلك. فأَمَرَ بقَتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فوُلِدَ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّنة التي يَتْرُكُون فيها الولدان، ووُلِدَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السَّنة التي يَقْتُلون فيها الولدان، فلمَّا ضاقت [أم موسى] ذَرْعًا به أُلْهِمَتْ في سِرِّها، وأُلْقِي في خَلَدِها، ونُفِثَ في رُوْعها كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ وذلك أنه كانت دارها على حَافَّة النِّيل، فاتَّخَذَت تابوتًا، وَمَهَّدَتْ فيه مَهْدًا، وجَعَلَتْ تُرْضِع وَلَدَها، فإذا دَخَل عليها أحد ممَّن تَخَاف جَعَلَته في ذلك التَّابوت، وسيَّرَته في البحر، وربطته بحَبْل عندها. فلمَّا كان ذات يوم دَخَل عليها من تخافه، فذَهَبَت فوَضَعَته في ذلك التَّابوت، وأَرسَلَته في البحر وذَهَلَتْ عن أنْ تَرْبِطه، فذَهَبَ مع الماء واحتمله، حتى مَرَّ به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتمَلْنَه، فذَهَبْنَ به إلى امرأة فرعون، ولا يَدْرِين ما فيه، وخَشِينَ أن يَفْتَتْنَ عليها في فتحه دونها. فأَوقَع الله محبَّتَه في قلبها حين نَظَرت إليه؛ وذلك لسعادتها وما أراد الله مِن كَرَامتها وشَقَاوة بَعْلِها؛ ولهذا قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ معناه: أن الله قَيَّضَهم لالتقاطه ليَجْعَلَه لهم عَدوًّا وحَزَنًا فيكون أَبْلَغ في إبطال حَذَرِهم منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. وقوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أن فرعون لَـمَّا رآه هم بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، فجَعَلَت امرأته آسية بنت مزاحم تُحَاجُّ عنه وتَذُبُّه دونه، وتُحَبِّبُه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال: أما لك فنَعَم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله به، وأَهْلَكَه الله على يديه.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد حَصَل لها ذلك، وهَدَاها الله به، وأَسْكَنَها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: أرادت أن تَتَّخِذَه وَلَدًا وتَتَبَنَّاه، وذلك أنه لم يكن لها وَلَدٌ منه.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إيَّاه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة.

الآية (١٠-١٣): يقول تعالى مخبرًا عن فؤاد أم موسى، حين ذَهَب وَلَدُها في البحر، أنه أصبح فارغًا، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. قاله ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمة وسعيد بن جُبَيْر وغيرهم. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: إن كَادَت من شِدَّة وَجْدِها وحُزْنِها وأَسَفِها لَتُظهر أنَّه ذَهَب لها وَلَد، وتُخبِر بحالها، لولا أن الله ثَبَّتها وصَبَّرها.

قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي: أَمَرَتْ ابنتها -وكانت كبيرة تَعِي ما يُقَال لها- فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتْبَعِي أَثَرَه، وخُذِي خَبَرَه، وتَطَلَّبي شأنه من نواحي البلد. فخَرَجَت لذلك، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قال ابن عباس: عن جانب. وقال مجاهد: عن بعيد. قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: تحريمًا قَدَريًّا، وذلك لكَرَامة الله له صَانَه عن أن يَرتَضِع غير ثدي أمه؛ ولأن الله جعل ذلك سَبَبًا إلى رجوعه إلى أمه، لتُرضِعَه وهي آمنةٌ، بعدما كانت خائفة.

فلمَّا رأتْهم أخته حائرين فيمن يُرضِعه قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته. فأرسلوها، فلمَّا قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم، ذَهَبوا معها إلى منزلهم، فدَخَلوا به على أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، ثم سألتها آسية أن تُقِيم عندها فتُرْضِعه، فأَبَتْ عليها، وقالت: إن لي بَعْلًا وأولادًا، ولا أَقْدِر على المَقَام عندك. ولكن إن أَحْبَبْتِ أن أُرضِعَه في بيتي فَعَلْتُ. فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجْرَتْ عليها النفقة والصِّلات والكسَاوي والإحسان الجزيل.

فرَجَعت أم موسى بولدها راضيةً مرضيةً، قد أَبْدَلَهَا الله من بعد خوفها أَمْنًا، في عِزٍّ وجَاهٍ ورزق دَارٍّ. فسبحان من بيديه الأمر! ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتَّقَاه بعد كل هَمٍّ فَرَجًا، وبعد كل ضِيقٍ مَخرَجًا. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وَعَدَهَا مِن رَدِّه إليها، وجعله من المرسلين. فحينئذٍ تَحَقَّقَت بِرَدِّه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشَرعًا. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حِكَمَ الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربَّمَا يقع الأمر كريهًا إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

الآية (١٤-١٧): لَـمَّا ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَر أنه لَـمَّا بَلَغ أشُدَّه واستوى، آتاه الله حكمًا وعلمًا، قال مجاهد: يعني النبوة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم ذَكَر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قَدَّر له من النبوة والتَّكليم في قضية قَتْلِه ذلك القِبْطيِّ، الذي كان سَبَب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مَدْيَن، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: إسرائيلي، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قِبطي، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق.

فاستغاث الإسرائيلي بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَجَد موسى فُرصَةً، وهي غفلة الناس، فعَمِدَ إلى القِبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛ قال مجاهد: وَكَزَه أي: طَعَنه بجُمْع كَفِّه. وقال قتادة: وَكَزَه بعصا كانت معه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: كان فيها حَتْفُه فمات. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بما جَعَلْتَ لي من الجاه والعِزَّة والـمَنَعَة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعينًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لِأَمْرِك.

الآية (١٨-١٩): يقول تعالى مُخْبِرًا عن موسى لَـمَّا قَتَل ذلك القِبطيَّ أنه أصبحَ ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ أي: من مَعَرّة ما فَعَل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتَلَفَّتُ ويَتَوَقع ما يكون من هذا الأمر.

فمَرَّ في بعض الطُّرُق ﴿فَإِذَا﴾ ذاك ﴿ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ على ذلك القِبطي يُقَاتِل آخرَ، فلمَّا مَرَّ موسى استصرخه على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر الغواية كَثِير الشر. ثم عَزَم على البَطْش بذلك القِبطيِّ، فاعتقد الإسرائيلي لِـخَوَرِه وضَعْفِه وذِلَّته أن موسى إنَّما يُريد قَصْدَه لَـمَّا سَمِعَه يقول ذلك، فقال يَدْفَع عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾؛ وذلك لأنه لم يَعلَم به إلا هو وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمَّا سَمعَها ذلك القِبطي لقَفَها من فَمِه، ثم ذَهَب بها إلى باب فرعون فأَلْقَاهَا عنده، فعَلِمَ بذلك، فاشْتَدَّ حَنَقُه، وعَزَمَ على قَتْل موسى، فطَلَبُوه وبَعَثُوا وراءه ليُحْضِرُوه لذلك.

الآية (٢٠): قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ وَصَفَه بالرّجُولية لأنه خالف الطريق، فسَلَك طريقًا أَقْرَبَ من طريق الذين بُعِثُوا وراءه، فسَبَقَ إلى موسى.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ أي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

الآية (٢١): لَـمَّا أَخْبَره ذلك الرجل بما تَـمَالَأ عليه فرعون ودولته في أمره، خَرَج من مصر وَحدَه، ولـم يَأْلَفْ ذلك قلبه، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يَتَلَفَّتُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه. فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكًا على فرس فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم.

الآية (٢٢-٢٤): ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أَخَذَ طريقًا سالكًا مَهْيَعًا[1] فَرِحَ بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: إلى الطريق الأقوم. فَفَعَل الله به ذلك، وهداه إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، فجَعَله هاديًا مهديًّا. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: ولَـمَّا وَصَل إلى مدين ووَرَد ماءها، وكان لها بئر تَرِدُه رِعَاءُ الشَّاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: جماعةً ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تُكَفْكِفَان غَنَمَهما أن تَرِدَ مع غَنَم أولئك الرعاء لِئَلا يُؤْذَيَا. فلمَّا رآهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَـهُمَا ورَحِمَهما.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما خَبَرُكما لا تَرِدَان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: لا يَحْصُل لنا سَقْي إلا بعد فراغ هؤلاء، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الـمُلْجِئ لنا إلى ما تَرَى.

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [روى] أبو بكر بن أبي شيبة عن عمر ابن الخطاب: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، قال: فلمَّا فَرَغُوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يُطِيقُ رَفْعَها إلا عَشَرة رجال، فإذا هو بامرأتين تَذُودَان، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ فحَدَّثَتاه، فأتى الـحَجَر فَرَفَعَه، ثم لم يَسْتَقِ إلا ذَنُوبًا واحدًا حتى رَوِيَتِ الغنم. إسناد صحيح. وقوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسُّدِّي: جَلَسَ تحتَ شجرة.

الآية (٢٥-٢٨): لَـمَّا رَجَعَت المرأتان سريعًا بالغَنَم إلى أبيهما، أَنْكَرَ حالهما ومجيئهما سريعًا، فسألهما عن خَبَرِهما، فقَصَّتَا عليه ما فَعَل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبَعَثَ إحداهما إليه لتَدْعُوه إلى أبيها؛ قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مَشْي الحرائر، كما روى ابن أبي حاتم عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كانت مُسْتَتِرَة بِكُمِّ دِرْعها. وعن عمرو بن ميمون قال: قال عمر: جاءت تَـمْشِي على استحياء، قائلةً بثوبها على وجهها، ليست بسَلْفَعٍ خَرَّاجة وَلَّاجة. هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السَّلْفَع من الرجال: الـجَسُورُ، ومن النساء: الـجَرِيئَةُ السَّلِيطَةُ، ومن النُّوق: الشديدة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تَأَدُّبٌ في العِبَارة، لم تطلبه طَلَبًا مُطْلَقًا لِئَلَّا يُوهِمَ رِيبَةً، بل قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: لِيُثِيبَكَ وَيُكَافِئَك على سَقْيِكَ لغنمنا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: ذَكَرَ له ما كان من أَمْرِه، وما جَرَى له من السَّبب الذي خَرَجَ من أجله من بلده.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: طِبْ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا؛ فقد خَرَجْتَ من مملكتهم فلا حُكْمَ لهم في بلادنا؛ ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أُرسِلَ إلى أهل مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمُدَّةٍ طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩]. وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَصِّ القرآن، وقد عُلِمَ أنه كان بين موسى والخليل -عليهما السلام- مدةٌ طويلةٌ تزيد على أربعمائة سنة كما ذَكَرَه غير واحد. وما قِيل إن شعيبًا عاشَ مدةً طويلةً، إنما هو-والله أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثُمَّ مِن الـمُقَوِّي لِكَوْنه ليس بشعيب أنه لو كان إِيَّاهُ لأَوْشَكَ أن يَنُصَّ على اسمه في القرآن ههنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذِكْرِه في قصة موسى لم يصح إسناده، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل. قيل: هي التي ذَهَبَت وراء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: لرعية هذه الغَنَم. قال عمر وابن عباس وشُرَيح القاضي وقتادة وغير واحد: لَـمَّا قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما عِلْمُكِ بذلك؟ قالت: إنه رَفَعَ الصَّخْرة التي لا يُطِيق حَمْلَها إلا عشرةُ رجال، وإنه لَـمَّا جِئتُ معه تَقَدَّمَتُ أمامَهُ، فقال لي: كوني من ورَائي، فإذا اجتنبتُ الطريق فاحْذِفي لي بحَصَاة أعلمُ بها كيف الطريق لِأَهتدي إليه. عن ابن مسعود قال: أَفْرَس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تَفَرَّسَ في عُمَر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ أي: طَلَبَ إليه هذا الرَّجُل الشيخ الكبير أن يَرعَى عنه ويُزَوِّجه إحدى ابنَتَيْه هاتين.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: على أن تَرْعَى عليَّ ثماني سنين، فإن تَبَرَّعْتَ بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي ثمانٍ كفاية.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: لا أُشَاقُّك، ولا أُؤَاذِيك، ولا أُمَارِيك.

وقوله تعالى إخبارًا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، يقول: إن موسى قال لصِهْره: الأمرُ على ما قُلْتَ من أَنَّكَ استأجرتني على ثمان سنين، فإن أَتْـمَمْتُ عَشْرًا فمن عندي، فأنا مَتى فَعَلْتُ أَقَلَّهُمَا فقد بَرِئْتُ من العَهْد، وخَرَجْتُ من الشَّرط؛ ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حَرَجَ عليَّ. هذا وقد دَلَّ الدليل على أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما فَعَل أَكْمَلَ الأجلين وأَتَـمَّهُمَا؛ روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ فقلتُ: لا أدري حتى أقدُمَ على حَبْر العرب فأسأَله. فقَدِمتُ فسَأَلْت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: قَضَى أَكْثَرَهما وأَطْيَبَهما، إن رسولَ الله إذا قالَ فَعَلَ.

(١) طريق مهيع: واسعٌ واضحٌ بيِّنٌ [لسان العرب مادة (هيع)].

الآية (٢٩-٣٢): قد تَقَدَّم في تفسير الآية قبلها أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضَى أَتَمَّ الأجلين وأَوْفَاهما وأَبَرَّهُما وأَكْمَلَهما وأَنْقَاهما، وقد يُستفَاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: الأَكْمَل منهما، والله أعلم. ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعَزَمَ على زيارتهم في خُفْيَةٍ من فرعون وقومه، فتَحَمَّلَ بأهله وما كان معه من الغنم التي وَهَبَهَا له صِهْرُه، فسَلَكَ بهم في ليلة مَطِيرَة مُظْلِمَة باردة، فنَزَل مَنْزِلًا، فَجَعَلَ كلَّما أَورَى زَنْدَهُ لَا يُضيء شيئًا، فتَعَجَّب من ذلك، فبَيْنَمَا هو كذلك إذ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: رأى نارًا تُضِيْء له على بُعْد، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أَذْهَبَ إليها، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أَضَلَّ الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قِطْعَة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تَتَدَفَّؤون بها من البَرْد.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانب الوادي ممَّا يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغَرْب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤]، فهذا ممَّا يُرشِدُ إلى أن موسى قَصَدَ النَّار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وَجَدَها تضطرم في شجرة خضراء في لَحْف الجبل ممَّا يلي الوادي، فوَقَفَ هاتفًا في أَمْرها، فناداه ربُّه: ﴿مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. وقوله: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: الذي يُخَاطِبك ويُكَلِّمُك هو رَبُّ العالمين، الفَعَّال لِمَا يشاء، لا إله غيره، ولا ربَّ سِوَاه، تعالى وتَقَدَّس وتَنَزَّهَ عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه!

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك. كما قَرَّرَه على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٧-١٨].

والمعنى: أَمَا هذه عصاك التي تَعْرِفُها! ﴿أَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، فعَرَفَ وتَحَقَّقَ أن الذي يُخَاطِبه ويُكَلِّمه هو الذي يقول للشيء: «كُنْ» فيكون. وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: في حركتها السريعة مع عِظَم خَلْق قوائمها واتساع فَمِهَا، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، فتَنْحَدِر في فيها تَتَقَعْقَع، كأنها حَادِرَةٌ في وَادٍ فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يكن يَلْتَفِت؛ لأن طَبْع البشرية يَنْفِر من ذلك. فلمَّا قال الله له: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ رَجَع فوَقَفَ في مقامه الأول. ثم قال الله له: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: إذا أَدْخَلْتَ يَدَكَ في جَيْب دِرْعِك، ثُمَّ أَخْرَجْتَها فإنها تَخْرُج تَتَلَألأ، كأنها قِطْعَة قمر في لمعان البَرْق؛ ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير بَرَص.

وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفَزَع. وقال قتادة: من الرُّعْب. وقال ابن أسلم وابن جرير: ممَّا حَصَل لك من خَوفِك من الحَيَّة. والظاهر أن المراد أَعَمُّ من هذا، وهو أنه أُمِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا خاف من شيء أن يَضُمَّ إليه جناحه من الرَّهْب، وهي يَدُه، فإذا فَعَلَ ذلك ذَهَبَ عنه ما يَجِدُه من الخوف. ورُبَّما إذا استعمل أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء فوَضَع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يَجِد أو يَخِف إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني إلقاءه العصا وجَعْلَها حَيَّةً تَسعَى، وإدخاله يده في جيبه فتَخْرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوَّة من جَرَى هذا الخارق على يديه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأَمْره ودينه.

الآية (٣٣-٣٥): لَـمَّا أَمَرَه الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خَرَجَ من دِيَار مصر فِرَارًا منه وخوفًا من سطوته، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني: ذلك القِبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: إذا رأوني.

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في لِسَانه لَثْغَة، بسبب ما كان تَنَاول تلك الجمرة حين خُيِّر بينها وبين التَّمْرة أو الدُّرَّة، فأخذ الجَمْرة فوضعها على لسانه، فحَصَل فيه شِدَّة في التعبير؛ ولهذا قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٧-٣٢]، أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا المَلِك المتكبِّر الجبار العنيد.

ولهذا قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ أي: وزيرًا ومُعِينًا ومُقوِّيًا لأمري، يصدِّقني فيما أقوله وأُخبِر به عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن خَبَر اثنين أَنجَع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾. وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ أي: يُبَيِّنُ لهم عنِّي ما أُكَلِّمُهم به؛ فإنه يَفْهَم عني ما لا يفهموني.

فلمَّا سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقَوِّي أَمْرَك، ونُعِزُّ جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبيًّا معك. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم مِنَّةً على أخيه من موسى على هارون -عليهما السلام- فإنه شَفَع فيه حتى جَعَله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون ومَلَئِه، ولهذا قال الله تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي: حجةً قاهرةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]، أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيِّدًا. ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

الآية (٣٦-٣٧): يُخبر تعالى عن مَجِيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعَرْضِه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة، على صِدْقِهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ من توحيده واتباع أوامره. فلمَّا عاين فرعون ومَلَؤُه ذلك وشاهدوه وتحقَّقوه، وأَيقَنُوا أنه من الله، عَدَلُوا بكفرهم وبَغْيهم إلى العناد والمباهتة؛ وذلك لطغيانهم وتكبُّرهم عن اتباع الحقِّ، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مُفْتَعَل مصنوع. وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صَعِدَ معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحدًا من آبائنا على هذا الدين، ولم نَرَ الناس إلا يُشرِكُون مع الله آلهةً أخرى.

فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيبًا لهم: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يعني: مني ومنكم، وسيَفْصِل بيني وبينكم. ولهذا قال: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: النُّصْرَةُ والظَّفَر والتأييد؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله ﷻ.

الآية (٣٨-٤٢): يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة -لعنه الله- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقِلَّة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وقال تعالى إخبارًا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٣- ٢٦] يعني: أنه جَمَع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصَرِّحًا لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقَمَ الله تعالى منه، فجَعَلَه عبرةً لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجَه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: أَمَرَ وزيره هامان ومُدَبِّرَ رعيته ومشير دولته أن يُوقِد له على الطِّين، ليَتَّخِذَ له آجُرًّا لبناء الصَّرْح، وهو القَصْر المُنِيف الرفيع؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصَّرْح الذي لم يُرَ في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يُظهِرَ لرعيته تكذيب موسى فيما زَعَمَه من دعوى إله غير فرعون؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: في قوله: إنَّ ثَمَّ ربًّا غيري، لا أنه كَذَّبَه في أن الله أرسَلَه؛ لأنه لم يكن يَعترِف بوجود الصانع؛ فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذا قول ابن جرير.

وقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: طَغَوا وتَجَبَّروا، وأَكثَرُوا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا مَعَادَ ولا قِيَامَة، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٣-١٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: أَغْرَقْنَاهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يَبْقَ منهم أحد.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: لمن سَلَك وراءهم وأَخَذَ بطريقتهم في تكذيب الرُّسُل وتعطيل الصانع.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خِزْي الدنيا موصولًا بِذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]. وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشَرَعَ الله لعنتهم ولعنةَ مَلِكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المُتَّبِعِين رُسُلَه، وكما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك يوم القيامة هم من المقبوحين.

قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٩].

الآية (٤٣): يخبر تعالى عمَّا أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربِّه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أَهْلَكَ فرعون وملأه.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّة، بل أَمَرَ المؤمنين أن يُقَاتِلوا أعداء الله من المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:٩، ١٠].

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: من العَمَى والغَيّ، ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: إرشادًا إلى الأعمال الصالحة؛ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلَّ الناس يتذكَّرون به، ويهتدون بسببه.

الآية (٤٤-٤٧): يقول تعالى مُنَبِّهًا على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أَخبَرَ بالغيوب الماضية، خبرًا كأنَّ سامعه شاهدٌ ورَاءٍ لِما تقدَّم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب، نَشَأَ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك، كما أنه لَـمَّا أَخبَرَه عن مريم وما كان من أَمْرها، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]، أي: ما كنتَ حاضرًا لذلك، ولكن الله أوحاه إليك كما قال -بعد قصة يوسف-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقال ههنا: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: يا محمد، ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كَلَّمَ الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليجعله حجةً وبرهانًا على قرون قد تطاول عهدها، ونَسُوا حُجَج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء الـمُتقَدِّمين. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيمًا في أهل مَدْين تتلو عليهم آياتنا، حين أَخْبرتَ عن نبيِّها شعيب، وما قال لقومه وما ردُّوا عليه. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولاً.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال مقاتل: نادينا أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا، وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى. وهذا -والله أعلم- أَشْبَه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾. ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أَخَصّ من ذلك، وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء:١٠]، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ما كنتَ مشاهِدًا لشيء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمةً منه لك وبالعباد بإرسالك إليهم؛ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لَعَلَّهم يهتدون بما جِئتَهم به من الله ﷻ.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأرسلناك إليهم لتُقِيمَ عليهم الحجة ولتَقْطَعَ عُذْرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيَحْتَجُّوا بأنهم لم يَأتِهم رسولٌ ولا نذيرٌ، كما قال تعالى بعد ذِكْره إنزال كتابه المبارك، وهو القرآن: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٦-١٥٧]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٩]، والآيات في هذا كثيرة.

الآية (٤٨-٥٠): يقول تعالى مخبرًا عن القوم الذين لو عَذَّبَهم قبل قيام الحجة عليهم لاحْتَجُّوا بأنهم لم يَأتِهم رسول: أنهم لَـمَّا جاءهم الحقُّ من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وَجْه التَّعَنُّت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ الآية، يعنون -والله أعلم-: من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد، والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم، وتنقيص الزروع والثمار، ممَّا يَضِيق على أعداء الله، وكفَلْقِ البحر وتظليل الغَمَام، وإنزال المنِّ والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والـحُجَج القاهرة، التي أجراها الله على يدي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حُجَّة وبراهين له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم يَنْجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:٤٨].

ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أَوَلَـمْ يَكْفُر البشر بما أُوتِيَ موسى من تلك الآيات العظيمة.

﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بكلٍّ منهما كافرون. قال مجاهد بن جَبْر: أَمَرَت اليهود قريشًا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاونا وتَنَاصَرا وصَدَّق كلٌّ منهما الآخر. وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رَزِين في قوله: ﴿ساحران﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قَويٌّ، والله أعلم.

وأمَّا من قَرَأَ ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ فقال ابن عباس: يعنون: التوراة والقرآن. قال السُّدي: يعني صَدَّق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون: التوراة والإنجيل. واختاره ابن جرير. والظاهر على قراءة: ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون: التوراة والقرآن؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾، وكثيرًا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، وقد عُلِمَ بالضَّرُورة لذوي الألباب أن الله لم يُنْزِلْ كتابًا من السماء فيما أَنْزَلَ من الكتب المتعددة على أنبيائه أَكْمَل ولا أَشْمَل ولا أَفْصَح ولا أَعْظَم ولا أَشْرَف من الكتاب الذي أَنْزَلَ على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشَّرَف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإنجيل إنما نَزَلَ مُتَمِّمًا للتوراة ومُحِلًّا لِبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تُدَافِعُونَ به الحقَّ وتُعَارِضُونَ به من الباطل.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: فإن لم يُجِيبُوك عمَّا قُلْتَ لهم ولم يَتَّبِعُوا الحقَّ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: بلا دليل ولا حُجَّةٍ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بغير حُجَّة مأخوذة من كتاب الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية (٥١): ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قال مجاهد: فَصَّلْنَا لهم القول. وقال السُّدي: بَيَّنَّا لَهم القول. وقال قتادة: أَخْبَرَهم كيف صَنَع بمن مَضى وكيف هو صانع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الآية (٥٢-٥٥): يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣]. قال سعيد بن جبير: نَزَلَتْ في سبعين من القسيسين بَعَثَهُمُ النجاشي، فلمَّا قَدِمُوا على النبي ﷺ قَرَأَ عليهم: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حتى خَتَمَها، فجَعَلوا يَبْكُون وأَسْلَمُوا، ونَزَلَتْ فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ يعني: من قبل هذا القرآن كُنَّا مسلمين، أي: مُوَحِّدين مخلصين لله مُسْتَجِيبين له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: هؤلاء المُتَّصِفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأوَّل، ثم بالثاني يُؤْتَون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثُم بالثاني؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تَجشُّم مثل هذا شديد على النفوس. وقد وَرَد في الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتَونَ أجْرهم مَرّتَين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه ثم آمن بي..» الحديث.

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: لا يُقَابِلون السَّيِّئَ بمثله، ولكن يَعْفُون وَيَصْفَحون، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي رَزَقَهم من الحلال يُنْفِقُون على خَلْق الله في النَّفَقَات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة، والمُسْتَحَبة من التَّطَوُّعات، وصَدَقَات النَّفْل والقُرُبَات. وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي: لا يُخَالِطون أهله ولا يُعَاشِرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢].

﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفيه، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أَعْرَضُوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يَصْدُرُ عنهم إلا كلام طيب؛ ولهذا قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نُريد طَريق الجاهلين ولا نُحِبُّها.

الآية (٥٦): يقول تعالى لرسوله ﷺ: يا محمد ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وهذه الآية أَخَصّ من هذا؛ فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أَعْلَم بمن يَسْتَحِق الهداية ممن يَسْتَحِق الغواية.

[سبب النزول]: وقد ثبت أَنَّها نَزَلَتْ في أبي طالب عَمِّ رسول الله ﷺ، وقد كان يَحوطُه ويَنْصُره، ويقوم في صَفِّه ويُحِبُّهُ حُبًّا شديدًا طَبْعِيًّا لا شَرْعيًا. عن المسيب بن حَزْن المخزومي قال: لَمَّا حَضَرَت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوَجَدَ عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عَمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أَتَرْغَبُ عن ملة عبد المطلب؟! فلم يَزَلْ رسول الله ﷺ يَعْرِضُهَا عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على مِلَّة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا لَأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك». فأَنْزَل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣]، وأُنْزِلَ في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [متفق عليه].

الآية (٥٧): يقول تعالى مخبرًا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى؛ حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: نَخْشَى إن اتبعنا ما جئتَ به من الهدى، وخالفنا من حَوْلَنَا مِن أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويَتَخَطَّفُونَا أينما كُنَّا، فقال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: هذا الذي اعتذروا به كَذِبٌ وباطل؛ لأن الله جَعَلَهم في بلد أمين، وحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ منذ وُضِع، فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كُفْرِهم وشركهم، ولا يكون آمنًا لهم وقد أَسْلَمُوا وتابعوا الحقَّ!

وقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من سائر الثمار ممَّا حَوْلَه من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

الآية (٥٨-٥٩): يقول تعالى مُعَرِّضًا بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: طَغَتْ وأَشِرَت وَكَفَرت نعمةَ الله، فيما أَنْعمَ به عليهم من الأرزاق.

ولهذا قال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: دَثَرت ديارهم فلا تُرَى إِلَّا مساكنهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: رَجَعَت خَرَابًا ليس فيها أحد.

ثم قال الله مخبرًا عن عدله، وأنه لا يُهْلِكُ أحدًا ظالمًا له، وإنما يُهْلِكُ من أَهْلَكَ بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ وهي مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبيَّ الأميَّ، وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى، من عَرَبٍ وأَعْجَام. فجَعَل تعالى بعْثَةَ النَّبِيِّ الأميِّ شاملةً لجميع القرى؛ لأنه مبعوث إلى أُمِّها وأصلها التي تَرجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود». ولهذا خَتَمَ به الرسالة والنبوة، فلا نَبِيَّ بعده ولا رسول، بل شَرْعُهُ باقٍ بقاءَ الليل والنهار إلى يوم القيامة.

الآية (٦٠-٦١): يقول تعالى مخبرًا عن حَقَارة الدنيا، وما فيها من الزِّينة الدَّنِيئَة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أَعَدَّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم الـمُقِيم، كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦]، وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِس أَحَدُكم إِصْبَعَه في اليَمِّ، فَلْينظُر ماذا يَرْجِعُ إليه» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا يعقل مَنْ يقدّم الدنيا على الآخرة؟!

وقوله: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ يقول: أفمن هو مؤمن مُصَدِّقٌ بما وَعَدَه الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالةَ، كمن هو كافر مُكَذِّبٌ بلقاء الله ووَعْدِه ووَعِيْدِه، فهو مُمَتَّعٌ في الحياة الدنيا أيامًا قلائل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة: من المعذَّبين. ثم قد قيل: إنها نَزَلَتْ في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعليٍّ وأبي جهل، وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامَّة، وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات وذاك في الدركات: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥٧].

الآية (٦٢-٦٧): يقول تعالى مخبرًا عمَّا يُوَبِّخ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يُنَادِيهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تَعْبُدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟! وهذا على سبيل التقريع والتهديد.

وقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ يعني: من الشياطين والـمَرَدَة والدُّعاة إلى الكُفْر: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فشَهِدُوا عَلَيهم أنهم أَغْوَوْهُم فاتَّبَعوهم، ثم تَبَرَّؤوا من عبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم:٨١-٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقال الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، ولهذا قال: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي: ليُخَلِّصُوكم ممَّا أنتم فيه، كما كنتم تَرْجُون منهم في الدار الدنيا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي: وتَيَقَّنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ أي: فَوَدُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٢-٥٣].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ النداء الأَوَّل عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النُّبُوَّات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسْأَل العبد في قبره: مَن ربك؟ ومَن نبيُّك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيَشْهَد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله. وأما الكافر فيقول: هاه، هاه. لا أدري؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سَبِيلًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وقال مجاهد: فعَمِيَتْ عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب.

وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أي: يوم القيامة، و«عسى» من الله مُوجِبَة، فإن هذا واقع بفَضْل الله ومَنِّه لا مَحَالة.

الآية (٦٨-٧٠): يخبر تعالى أنه الـمُنْفَرِد بالخَلْق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك مُنَازِع ولا مُعَقِّب، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نَفْيٌ على أصحِّ القولين؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقد اختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ ههنا بمعنى «الذي»، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خِيرَة. والصحيح أنها نافية؛ فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالـخَلْق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

ثم قال: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: يعلم ما تُكِنُّ الضمائر، وما تَنْطَوي عليه السرائر، كما يَعْلَم ما تُبْدِيه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد:١٠].

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: هو الـمُنْفَرِد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا ربَّ يَخْلُقُ ويَخْتَار سواه، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعَدْله وحكمته.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا مُعَقِّب له، لقَهْره وغَلَبَتِه وحكمته ورحمته، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيُجَازِي كلَّ عامل بعمله، من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

الآية (٧١-٧٣): يقول تعالى ممتنًّا على عباده بما سَخَّرَ لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما. وبيَّن أنه لو جَعَلَ الليلَ دائمًا عليهم سَرْمَدًا إلى يوم القيامة لأضرَّ ذلك بهم، ولسَئِمَتْهُ النفوس وانحَصَرَت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: تُبْصِرُون به وتَسْتَأْنِسُون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر أنه لو جَعَلَ النَّهار سَرْمَدًا دائمًا إلى يوم القيامة لَأَضَرَّ ذلك بهم، ولتَعِبَت الأبدان وكَلَّتْ من كَثْرَة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تَسْتَرِيحُون من حركاتكم وأشغالكم.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: خَلَق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالأَسْفَار والترحال، والحركات والأشغال.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل اسْتَدْرَكَه بالنهار، أو بالنهار اسْتَدْرَكَه بالليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

الآية (٧٤-٧٥): وهذا أيضًا نداءٌ ثانٍ على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عَبَدَ مع الله إلهًا آخر؛ يُنَادِيهم الربّ تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في الدار الدنيا.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني رسولًا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادَّعَيْتُمُوه من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، أي: فلم يَنْطِقُوا، ولم يُجِيرُوا جوابًا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذَهَبُوا فلم يَنْفَعُوهم.

الآية (٧٦-٧٧): عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن عَمِّه. وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي وابن جُرَيْج وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال ابن جرير: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: لَيُثْقِلُ حَمْلُها الفئامَ من الناس لِكَثْرَتِها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: وَعَظَهُ فيما هو فيه صَالِحُ قومِه، فقالوا على سبيل النُّصْح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تَبْطَرْ بما أنت فيه من الأموال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الْمَرِحِينَ.

وقال مجاهد: يعني: الأَشِرين البَطِرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: استعمل ما وَهَبَك الله -من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة- في طاعة ربك والتَّقَرُّبِ إليه بأنواع القربات، التي يَحْصُل لك بها الثواب في الدار الآخرة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مِمَّا أباح الله فيها من المآكل والمشَارِب والملابس والمساكن والمناكِح؛ فإن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولِزَوْرِك عليك حقًّا، فآتِ كل ذي حَقٍّ حَقَّه.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسِن إلى خَلْقِه كما أَحسَن هو إليك.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تكنْ هِمَّتُك بما أنت فيه أن تُفْسِدَ به الأرض، وتُسِيءَ إلى خَلق الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الآية (٧٨): يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه، حين نَصَحُوه وأَرشَدُوه إلى الخير: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنا لا أَفْتَقِرُ إلى ما تقولون؛ فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لِعِلْمِه بأني أَسْتَحِقُّه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أُعْطِيتُهُ لِعِلْم الله فيَّ أني أَهْلٌ له[1]؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر:٤٩] أي: على عِلْم مِن الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت:٥٠] أي: هذا أَسْتَحِقُّه؛ ولهذا قال الله تعالى -رادًّا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال-: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا، وما كان ذلك عن مَحَبَّة مِنَّا له، وقد أَهْلَكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم. وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال: لولا رِضَا الله عني، ومعرفته بفَضْلي ما أَعْطَاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهكذا يقول من قَلَّ عِلْمُه إذا رأى من وَسَّع الله عليه يقول: لولا أنه يَسْتَحِقُّ ذلك لَمَا أُعْطِي.

الآية (٧٩-٨٠): يقول تعالى مخبرًا عن قارون: إنه خَرَجَ ذات يوم على قومه في زينةٍ عظيمة، وتَجَمُّلٍ بَاهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خَدَمِهِ وحَشَمِه، فلمَّا رآه من يُرِيْد الحياة الدنيا ويَمِيْل إلى زَخَارفها وزينتها، تَمَنَّوا أن لو كان لهم مثل الذي أُعْطِيَ، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو حَظٍّ وافر من الدنيا. فلمَّا سَمِع مقالتهم أهلُ العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير ممَّا ترون؛ كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر، واقرؤوا إن شِئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: قال السُّدي: وما يُلَقَّى الجنة إلا الصابرون. كأنه جَعَل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يُلَقَّى هذه الكلمة إلا الصابرون عن مَحَبَّة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنه جَعَل ذلك مقطوعًا من كلام أولئك، وجَعَلَه من كلام الله ﷻ وإخباره بذلك.

الآية (٨١-٨٢): لَمَّا ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفَخْره على قومه وبَغْيه عليهم، عَقَّبَ ذلك بأنه خَسَفَ به وبدَارِه الأرض؛ كما روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يَجُرُّ إِزَارَه إذ خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة».

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما أَغْنَى عنه مالُه، وما جَمَعه، ولا خَدَمُه وحَشَمُه. ولا دَفَعُوا عنه نِقْمَة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه، فلا ناصر له من نفسه، ولا من غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: الذين لَـمَّا رأوه في زينته قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فلمَّا خُسِفَ به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال بِدَالٍّ على رضا الله عن صاحبه؛ فإن الله يُعْطِي ويَمْنَع، ويُضَيِّقُ ويُوَسِّع، ويَخْفِض ويَرْفع، وله الحكمة التَّامَّة والحجة البالغة. ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا لُطف الله بنا وإحسانه إلينا لَـخَسَفَ بنا كما خَسَفَ به، لأنَّا وَدِدْنا أن نكون مثله. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعنون: أنه كان كافرًا، ولا يُفْلِح الكافرون عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختُلف في معنى ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ فقال بعضهم: معناها: «ويلك اعلم أن»، وقيل: معناها: ألم تر أن. قاله قتادة. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة.

الآية (٨٣-٨٤): يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها الْـمُقِيم الذي لا يَحُول ولا يَزُول، جَعَلَها لعباده المؤمنين الـمُتَوَاضِعين، الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تَرَفُّعًا على خَلْق الله وتَعَاظُمًا عليهم وتَجَبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم. كما قال عكرمة: العُلُو: التَّجَبُّر. وقال سعيد بن جبير: العلو: البَغْي.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تَعْظُّمًا وتَجَبُّرًا.

﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملًا بالمعاصي. وقال عليٌّ: إن الرجل ليُعْجِبُهُ مِن شِرَاك نَعْله أن يكون أَجْوَدَ من شِرَاك صاحبه، فيَدْخُل في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفَخْر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثَبَتَ في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أُوحِيَ إليَّ أن تَواضَعُوا، حتى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحد، ولا يَبْغِي أحدٌ على أحد» [رواه مسلم]، وأما إذا أَحَبَّ ذلك لِـمُجَرَّد التجمُّل فهذا لا بأس به؛ فقد ثَبَتَ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني أُحِبُّ أن يكون ردائي حَسَنًا ونَعْلِي حسنةً، أفمن الكِبْر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يُحِبُّ الجمال» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: ثواب الله خير من حَسَنَة العبد، فكيف والله يُضَاعِفه أضعافًا كثيرة؟! فهذا مقام الفضل. ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠] وهذا مقام الفَضْلِ والعَدْل.

---

(١) ذكر السعدي -رحمه الله- تفسيرًا آخر للاية، فقال: «أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي. [تيسير الكريم الرحمن، (القصص:٧٨)].

الآية (٨٥-٨٨): يقول تعالى آمرًا رسولَه ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبرًا له بأنه سيَرُدُّهُ إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيَسْأله عمَّا استرعاه من أعباء النبوة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك.

وقال ابن عباس: لَرَادُّكَ إلى الـجَنَّة، ثم سَائِلُك عن القرآن. وقال: إلى يوم القيامة. وقال: إلى الموت.

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس، وفي بعضها: لرَادُّكَ إلى مَعْدِنِك من الجنة. وقال مجاهد: يُحْيِيك يوم القيامة. وكذا رُوِيَ عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير، وقال الحسن البصري: إي والله! إن له لَـمَعَادًا، فيَبْعَثُه الله يوم القيامة ثم يُدخله الجنة.

وقد رُوي عن ابن عباس غير ذلك، كما روى البخاري عن ابن عباس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة. ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فَسَّرَ ذلك تارةً برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أَمَارَة على اقتراب أَجَلِه ﷺ، كما فَسَّرَه ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ أنه أَجَلُ رسول الله ﷺ نُعِيَ إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك، وقال: لا أعلم منها غير الذي تَعْلَمُ. ولهذا فَسَّرَ ابن عباس تارةً أخرى قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارةً بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارةً بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الجن والإنس، ولأنه أَكْمَل خلق الله، وأَفْصَحُ خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قل لِـمَنْ خَالفَك وكَذَّبَك يا محمد من قومك من المشركين ومن تَبِعَهم على كُفْرِهم: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى مذكرًا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: ما كُنْتَ تَظُنُّ قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي يَنْزِلُ عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنَّما نَزَل الوَحْي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا مَنَحَكَ بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم. ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصَدِّهم الناس عن طريقك، لا [تَلْو] على ذلك ولا تُبَالِهِ؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتَك، ومؤيدٌ دينَك، ومظهرٌ ما أُرْسِلْتَ به على سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تَلِيقُ العبادة إلا له ولا تَنْبَغِي الإلهية إلا لعظمته.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدَّائِم الباقي الحيُّ القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعَبَّرَ بالوجه عن الذات، قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه. وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أُرِيد به وجهه، وهذا القول لا يُنَافِي القول الأول؛ فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله ﷻ من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة. والقول الأوَّل مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى؛ فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الـمُلْكُ والتَّصَرف، ولا مُعَقِّب لحُكمه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيَجْزِيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية. [وعدد آياتها (٦٩) آيةً].

الآية (١-٤): الكلام على الحروف المقطعة تقدَّم في أول «البقرة».

وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بدَّ أن يَبْتَلِيَ عباده المؤمنين بحَسَبِ ما عندهم من الإيمان؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «أَشَدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثُمَّ الصالحون، ثم الأَمْثَل فالأَمْثَل؛ يُبْتَلَى الرجل على حَسَبِ دِينه، فإن كان في دينه صلابة زِيْدَ في البلاء» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]؛ وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: الذين صَدَقُوا في دعواهم الإيمان ممَّن هو كاذب في قوله ودعواه. والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مُجْمَعٌ عليه عند أئمة السنة والجماعة.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: لا يَحْسَبَنَّ الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يَتَخَلَّصُون من هذه الفتنة والامتحان؛ فإنّ مِن وَرَائِهم من العقوبة والنَّكَال ما هو أَغْلَظُ من هذا وأَطَمّ؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يَفُوتُونا، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يظنون.

الآية (٥-٦): ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعَمِل الصالحات رجاءَ ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيُحَقِّقُ له رجاءه ويُوَفِّيهِ عَمله كاملًا موفورًا، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات.

وقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ من عَمِلَ صالحًا فإنَّمَا يعود نَفْع عمله على نفسه؛ فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أَتْقَى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يومًا من الدهر بسيف.

الآية (٧): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبرِّه بهم يُجازِي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أَحْسَن الجزاء؛ وهو أنه يُكَفِّر عنهم أسوأَ الذي عَمِلُوا، ويَجْزِيهم أَجْرَهُم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويُثِيبُ عليها الواحدة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعْفُو ويَصْفَح.

الآية (٨-٩): يقول تعالى آمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحَثِّ على التَّمَسُّك بتوحيده؛ فإن الوالدين هما سَبَبُ وجود الإنسان، ولهما عليه غايةُ الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدِّم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن حَرَصا عليك أن تُتابِعَهما في دينهما إذا كانا مُشْرِكَيْن، فإياكَ وإياهما، لا تُطِعْهما في ذلك؛ فإنّ مَرْجِعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيكَ بإحسانكَ إليهما، وصَبْرِك على دينك، وأَحْشُرُك مع الصالحين لا في زُمْرَة والديك، وإن كنت أَقْرَب الناس إليهما في الدنيا؛ فإن المرء إنما يُحْشَر يوم القيامة مع من أَحَبَّ، أي: حُبًّا دِينِيًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

عن سعد، قال: نَزَلَت فيَّ أربع آيات. فذَكَر قصةً، وقالت أم سعد: أليس قد أَمَرَكَ الله بالبِرِّ؟! والله لا أَطْعَمُ طعامًا، ولا أَشْرَبُ شرابًا حتى أَمُوتَ أو تَكْفُر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطْعِمُوها شَجَروا فَاهَا، فأنزل الله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ الآية [رواه مسلم].

الآية (١٠-١١): يقول تعالى مُخْبِرًا عن صفات قوم من المكذِّبين الذين يَدَّعُون الإيمان بألسنتهم، ولم يَثْبُت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومِحْنَة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نِقْمَة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتدَّ عن دينه إذا أُوذِيَ في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١].

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولَئِنْ جاء نَصْرٌ قريب من ربك -يا محمد- وفَتْحٌ ومَغانم، ليَقُولُنَّ هؤلاء لكم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي كُنَّا إخوانكم في الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١].

وقال تعالى مُخْبِرًا عنهم ههنا: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أَوَلَيْسَ الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكِنُّه ضمائرهم، وإن أَظْهَرُوا لكم الموافقة؟! وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: وليَخْتَبِرَنّ الله الناس بالضراء والسراء، ليَتَمَيَّزَ هؤلاء من هؤلاء، ومن يُطِيعُ الله في الضراء والسراء، ومن إنما يُطِيعُهُ في حَظِّ نفسه؛ كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٣١].

الآية (١٢-١٣): يقول تعالى مُخْبِرًا عن كفار قريش: أنهم قالوا لمن آمن منهم واتَّبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: وآثامكم -إن كانت لكم آثام في ذلك- علينا وفي رقابنا؛ كما يقول القائل: «افعل هذا وخطيئتك في رقبتي». قال الله تكذيبًا لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه: إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر:١٨]. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزارًا أُخَر بسبب من أَضَلُّوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥]. وفي الصحيح: «..من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتَّبعه إلى يوم القيامة، من غير أن يَنْقُصَ من آثامهم شيئًا» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذِّبون ويَخْتَلِقُون من البُهْتَان.

الآية (١٤): هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه مَكَثَ في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، وسِرًّا وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فِرارًا عن الحقِّ، وإعراضًا عنه وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نَجَعَ فيهم البلاغ والإنذار، فأنت -يا محمد- لا تَأْسَف على من كَفَر بك من قومك، ولا تَحْزَن عليهم؛ فإن الله يَهدِي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور، واعلم أن الله سيُظْهِرُكَ ويَنْصُرُك ويُؤَيِّدُك، ويُذِلُّ عَدوَّك، ويَكْبِتُهُمْ ويجعلهم أسفل السافلين، عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان ستين عاما، حتى كثر الناس وفشوا.. وظاهر السياق من الآية أنه مَكَثَ في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا.

الآية (١٥): ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد تَقَدَّم ذِكْر ذلك في سورة «هود».

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجَعَلْنا تلك السفينة باقيةً، إما عَيْنُها كما قال قتادة: إنها بَقِيَتْ إلى أوَّل الإسلام على جبل الجُودِيِّ، أو نَوْعُها جَعَلَه للناس تَذْكِرَةً لِنِعَمِه على الخَلْق، كيف نجَّاهم من الطوفان؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس:٤١- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢]، وقال ههنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية (١٦-١٨): يُخْبِر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التَّقوى، وطَلَب الرِّزْق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر؛ فإنه المشكور على النِّعَم، لَا مُسْدِيَ لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: أَخْلِصُوا له العبادة والخوف.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فَعَلْتُم ذلك حَصَلَ لكم الخير في الدنيا والآخرة، وانْدَفَعَ عنكم الشَّرُّ في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تَضُرُّ ولا تنفع، وإنما اخْتَلَقْتُم أنتم لها أسماءً سَمَّيْتُمُوها آلهةً، وإنما هي مَخْلُوقة مثلكم. هكذا روى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد والسدي.

وروى الوالبي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكًا، أي: تَنْحِتُونها أصنامًا. وبه قال مجاهد -في رواية- وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير.

وهي لا تملك لكم رزقًا ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، وهذا أَبْلَغ في الحَصْر[1]؛ كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١].

ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره؛ فإنَّ غيره لا يَمْلِك شيئًا، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: كُلُوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيُجَازِي كلَّ عامل بعمله.

وقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبَلَغكم ما حَلَّ بهم من العذاب والنَّكال في مخالفة الرسل.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني: إنَّما على الرسول أن يُبَلِّغكم ما أَمَرَه الله تعالى به من الرسالة، والله يُضِلُّ من يشاء ويَهْدِي من يشاء، فاحْرِصُوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

الآية (١٩-٢٣): يقول تعالى مُخْبِرًا عن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أَرْشَدَهم إلى إثبات المَعَاد الذي يُنْكِرُونه، بما يُشَاهِدُونه في أنفسهم من خَلْق الله إيَّاهم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم وُجِدُوا وصاروا أناسًا سامعين مُبْصِرين، فالذي بَدَأَ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سَهْلٌ عليه يسير لديه. ثم أَرْشَدَهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خَلْق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسَّيَّارات، والأرضين وما فيها من مِهَاد وجبال، وأودية [وبرار] وقِفَار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دالٌّ على حدوثها في أَنْفُسِها، وعلى وجود صانعها، الذي يقول للشيء: «كن» فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو الحاكم المُتَصرف، الذي يَفعَل ما يشاء، ويَحْكُم ما يُرِيْد، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، فلَهُ الخَلْقُ والأَمْر، مهما فَعَلَ فَعَدْلٌ؛ لأنه المالك الذي لا يَظْلِم مِثقَالَ ذَرَّة، ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: تُرْجَعُون يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يُعْجِزُه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل ﴿هُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨، ٦١]، وكُلُّ شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عمَّا سِوَاه.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: جَحَدوها وكفروا بالمَعَاد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي: لا نصيب لهم فيها.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُوجِع في الدنيا والآخرة.

---

(١) يعني تقديم الظرف مع لفظ الجلالة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿ٱلرِّزْقَ﴾؛ فذلك من الأساليب البلاغية التي تفيد الحصر؛ أي حصر الرزق في كونه من عند الله. ومثله الآيتان اللتان مثَّل بهما بعد ذلك.

الآية (٢٤-٢٥): يقول تعالى مُخْبِرًا عن قوم إبراهيم في كُفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودَفْعِهم الحقَّ بالباطل: أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المُشْتَمِلَة على الهدى والبيان ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتَوَجَّهَت عليهم الحجة، فعَدَلُوا إلى استعمال جاههم وقُوَّةِ مُلْكِهِم، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٧-٩٨]، وذلك أنهم حَشَدوا في جَمْعِ أَحطَاب عظيمة مدَّةً طويلة، وحَوَّطوا حَولَها، ثُمَّ أَضْرَمُوا فيها النار، فارتفع لها لَهَبٌ إلى عَنَان السماء، ولم تُوقَدْ نار قَطُّ أَعْظَم منها، ثُمَّ عَمَدُوا إلى إبراهيم فكَتَّفُوهُ وأَلْقوه في كِفَّةِ المَنْجَنِيق، ثُمَّ قَذَفُوا به فيها ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: سَلَّمَه منها، بأن جَعَلَها عليه بَرْدًا وسَلامًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مُقَرِّعًا لهم ومُوَبِّخًا على سُوْء صَنِيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتَّخَذْتم هذه لتَجْتَمِعُوا على عبادتها في الدنيا، صداقةً وأُلْفَةً منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا.

وهذا على قراءة من نَصَبَ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتِّخاذكم هذا يُحَصِّل لكم المَوَدَّة في الدنيا فقط، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينْعَكِس هذا الحال، فتَبْقَى الصَّدَاقَة والمَوَدَّة بَغْضَة وشَنَآنًا، فـ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تَتَجَاحَدُون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يَلْعَنُ الأتباعُ المَتْبُوعِين، والمَتْبُوعُون الأتباعَ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]. وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ومصيركم ومَرْجِعُكُم بعد عَرَصَات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر يَنْصُرُكُم، ولا مُنْقِذٍ يُنْقِذُكم من عذاب الله. وهذا حال الكافرين، فأمَّا المؤمنون فبخلاف ذلك.

الآية (٢٦-٢٧): يقول تعالى مُخْبِرًا عن إبراهيم: أنه آمَنَ له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يعني: ولم يُؤْمِن به من قومه سواه، وسارة امرأةُ الخليل. لكن يُقَال: كيف الجَمْع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة: ما هي منه؟ فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له: «إنك أختي، فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري، فأنت أختي في الدين» [رواه مسلم].

وكأن المراد من هذا -والله أعلم- أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ يُحْتَمَل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ﴾ على لوط؛ لأنه أقرب المذكورين، ويُحْتَمَل عوده إلى إبراهيم. قال ابن عباس، والضحاك: وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: من قومه.

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجَرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكُّن من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية. وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: لَـمَّا فارق قومَه أقرَّ الله عَيْنَه بوجود وَلَدٍ صالح نبي ووُلِدَ له ولد صالح في حياة جده. وكون يعقوب وُلِدَ لإسحاق نَصَّ عليه القرآن، وثَبَتَت به السنة النبوية؛ قال الله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، وفي الصحيحين: «إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم: يوسفُ بن يعقوبَ ابن إسحاقَ بن إبراهيم».

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ هذه خَلْعَة سَنِيَّة عظيمة، مع اتخاذ الله إيَّاه خليلًا، وجَعْلِه للناس إمامًا، أن جَعَلَ في ذُرِّيَّته النبوة والكتاب، فلم يُوجَد نبي بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مُبَشِّرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد وَلَد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام-: ولم يُوجَد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جَمَعَ الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهَنيّ، والمَنْزِل الرَّحْب، والمَوْرِد العَذْب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذِّكر الحَسَن، فكلُّ أحد يُحِبُّه ويَتَوَلَّاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]، أي: قام بجميع ما أُمِرَ به، وكَمَّلَ طاعة ربه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الآية (٢٨-٣٠): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أنكر على قومه سُوْء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذُّكْران من العالمين، ولم يَسبِقْهم إلى هذه الفِعْلَة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذِّبون رسوله، ويُخَالِفون ويَقْطَعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يَقتُلُونهم ويأخذون أموالهم. ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: يَفْعَلون ما لا يَلِيقُ من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا يُنْكِر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ، قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يَتَضَارَطُون ويتضاحكون، قالته عائشة والقاسم. ومن قائل: كانوا يُنَاطِحُون بين الكباش، ويُنَاقِرون بين الديوك. وكلُّ ذلك كان يَصدُر عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الآية (٣١-٣٥): لَـمَّا استنصر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ اللهَ عليهم؛ بَعَثَ الله لنُصْرَته ملائكةً فمَرُّوا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هيئة أضياف، فجاءهم بما يَنْبَغِي لِلضَّيف، فلمَّا رأى أنه لا هِمَّة لهم إلى الطعام نَكِرَهم وأَوْجَسَ منهم خِيفةً، فشَرَعُوا يُؤَانِسُونه ويُبَشِّرُونَه بوجود وَلَدٍ صالح من امرأته سارة -وكانت حاضرةً- فتَعَجَّبَتْ من ذلك.

فلمَّا جاءت إبراهيم البشرى، وأخبروه بأنهم أُرْسِلُوا لهلاك قوم لوط، أَخَذَ يُدَافِع لعلَّهم يُنْظَرون، لعلَّ الله أن يَهدِيَهم، ولَـمَّا قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تُـمَالِئُهم على كُفْرهم وبَغْيهم. ثم ساروا من عنده فدَخَلُوا على لوط في صورة شَبَاب حِسَان، فلمَّا رآهم كذلك ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اغْتَمَّ بأَمْرِهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يُضِفْهم خَشِيَ عليهم منهم، ولم يَعلَم بأَمْرِهم في الساعة الراهنة ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ وذلك أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْتَلَعَ قُرَاهم من قرار الأرض، ثم رَفَعَها إلى عَنَان السماء، ثم قَلَبَها عليهم.

وأرسلَ الله عليهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣]، وجَعَلَ الله مكانها بُحيرةً خبيثةً مُنْتِنةً، وجَعَلَهم عِبرَةً إلى يوم التَّنَاد، وهم من أشدِّ الناس عذابًا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: واضحةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

الآية (٣٦-٣٧): يُخْبِر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أَنْذَر قومه أَهْلَ مَدْيَن، فأَمَرَهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يَخَافوا بأسَ الله ونِقْمَتَه وسَطْوَتَه يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة:٦].

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفَسَاد، وهو السَّعي فيها والبَغْي على أهلها؛ وذلك أنهم كانوا يُنْقِصُونَ المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأَهْلَكَهم الله برَجْفَةٍ عظيمة زَلْزَلَتْ عليهم بلادهم، وصَيْحَة أَخْرَجَت القلوب من حَنَاجرها، وعذاب يوم الظُّلَّة الذي أَزْهَقَ الأرواح من مُسْتَقَرِّها، إنه كان عذاب يوم عظيم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ قال قتادة: مَيِّتِين. وقال غيره: قد أُلْقِيَ بعضهم على بعض.

الآية (٣٨): يُخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذِّبة للرسل كيف أبادَهم وتَنَوَّعَ في عذابهم، وأَخْذِهِم بالانتقام منهم؛ فعَادٌ قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الـحِجْر قريبًا من وادي القرى. وكانت العرب تَعْرِفُ مساكنهما جيدًا، وتَـمُرُّ عليها كثيرًا.

الآية (٣٩-٤٠): قارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القِبْطِيَّان الكافران بالله ورسوله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يُنَاسِبُه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم عادٌ؛ وذلك أنهم قالوا: من أَشَدُّ مِنَّا قوةً؟ فجاءتهم ريحٌ صَرْصَرٌ باردة شديدة البَرْد، عاتيةٌ شديدةُ الهبوب جدًّا، تَحْمِل عليهم حَصْبَاء الأرض فتَقْلِبُها عليهم، وتَقْتَلِعُهم من الأرض فتَرْفَعُ الرَّجُل منهم إلى عَنَان السماء، ثم تُنكِّسُهُ على أُمِّ رأسه فَتَشْدَخُه فيَبْقَى بَدَنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نَخْلٍ مُنْقَعِر.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، قامت عليهم الحجة، وظَهَرَت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انْفَلَقَتْ عنها الصخرة، مثلما سألوا سواءً بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتَهَدَّدوا نبيَّ الله صالحًا ومن آمن معه، وتوعَّدوهُم بأن يُخرِجُوهم ويَرْجُمُوهم، فجاءتهم صيحة أَخْمَدَت الأصوات منهم والحركات.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون الذي طَغَى وبَغَى وعَتَا، وعَصَى الرَّبَّ الأعلى، ومَشَى في الأرض مَرَحًا، وفَرِحَ ومَرِحَ وتَاهَ بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخَسَفَ الله به وبداره الأرض، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أُغْرِقُوا في صبيحة واحدة، فلم يَنْجُ منهم مُخْبِر.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فَعَل بهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فَعَلَ ذلك بهم جزاءً وِفَاقًا بما كَسَبَتْ أيديهم. وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللَّفِّ والنَّشْر، وهو أنه ذَكَر الأمم المكذِّبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ الآية، أي: من هؤلاء المذكورين.

الآية (٤١-٤٣): هذا مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى للمشركين في اتِّخَاذِهم آلهةً من دون الله، يرجون نَصْرَهم ورِزْقَهم، ويَتَمَسَّكُون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبَيْتِ العنكبوت في ضَعْفِه وَوَهَنِه.

فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كَمَن يَتَمَسَّك ببيت العنكبوت؛ فإنه لا يُجْدِي عنه شيئًا، فلو عَلِمُوا هذا الحال لَمَا اتَّخَذُوا من دون الله أولياء. وهذا بخلاف المسلم المؤمن؛ قلبُه لله، وهو مع ذلك يُحْسِن العمل في اتِّبَاع الشَّرْع، فإنه مُسْتَمْسِكٌ ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦] لِقُوَّتِها وثَبَاتِها.

ثم قال تعالى مُتَوَعِّدًا لمن عَبَدَ غيره وأَشْرَكَ به: إنه تعالى يَعْلَم ما هُم عليه من الأعمال، ويَعْلَم ما يُشْرِكُون به من الأنداد، وسَيَجْزِيهم وَصْفَهُم إنه حكيم عليم.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يَفْهَمُها ويَتَدَبَّرُها إلا الراسخون في العلم الـمُتَضَلِّعُون منه.

الآية (٤٤-٤٥): يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة: أنه خَلَق السموات والأرض بالحقِّ، يعني: لا على وجه العَبَث واللَّعِب ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥]، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم:٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى الـمُتَفَرِّد بالـخَلْق والتدبير والإلهية.

ثم قال تعالى آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تَشْتَمِل على شيئين: على تَركِ الفواحش والمنكرات، أي: إن مُواظَبَتها تَحْمِل على تَرْكِ ذلك. عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق! فقال: «إنه سينهاه ما يقول» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وتَشْتَمِل الصلاة أيضًا على ذِكْر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أَعْظَم من الأوَّل.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خِلَال، فكُلُّ صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخِلال فليست بصلاة: الإخلاص، والـخَشْية، وذِكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والـخَشْية تنهاه عن المنكر، وذِكْر الله -القرآن- يأمره وينهاه. وقال ابن عَوْن الأنصاري: إذا كُنْتَ في صلاة فأنتَ في معروف، وقد حَجَزَتْك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذِكْر الله أكبر. وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يعني: ما دُمْتَ فيها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ولَذِكْرُ الله لعباده أكبر -إذا ذَكَرُوه- من ذِكْرِهم إيَّاه. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد وغيره.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: لها وَجْهان، قال: ذِكْرُ الله عند ما حَرَّمَه، قال: وذِكْر الله إيَّاكم أَعْظَم من ذكركم إياه. وقال ابن جرير عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلتُ: نعم. قال: فما هو؟ قلتُ: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك. قال: لقد قُلتَ قولًا عَجَبًا، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذِكْرُ الله إيَّاكم عند ما أَمَرَ به أو نَهَى عنه إذا ذَكَرْتُمُوه، أكبر من ذِكْرِكُم إيَّاه. وقد رُوِيَ هذا من غير وجه عن ابن عباس. ورُوِيَ أيضًا عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم. واختاره ابن جرير.

الآية (٤٦): ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبقَ معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيُجادَل بالتي هي أحسن، ليكون أنجعَ فيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]. وهذا القول اختاره ابن جرير. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويُقاتَلون بما يردعهم ويمنعهم. قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية. ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني: إذا أَخبَروا بما لا يُعلَم صِدقُهُ ولا كَذِبُه، فهذا لا نُقدِم على تكذيبه لأنه قد يكون حقًا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا على شرط وهو أن يكون منزلًا، لا مُبدَّلًا ولا مؤولًا. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون» [تفرد به البخاري].

الآية (٤٧): قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكُتُب على من قبلك -يا محمد- من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن، ومُناسبته وارتباطه جيد. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: الذين أخذوه فتَلَوْهُ حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء؛ كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما. ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ يعني: العرب من قريش وغيرهم. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما يكذّب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات.

الآية (٤٨): ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمّي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تُحسنها لارتاب بعض الجهَلة من الناس فيقول: إنما تعلَّم هذا مِن كُتبٍ قبله مأثورةٍ عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان:٥].

الآية (٤٩): ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ أي: القرآن آيات بيّنةٌ واضحة في الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يَسَّره الله عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧]. واختار ابن جرير أن المعنى: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ولا تخطه بيمينك، آياتٌ بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جُرَيج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ما يكذّب بها ويبخس حقها ويردّها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

الآية (٥٠): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في تعنُّتهم وطلبهم آيات -يعنون- ترشدهم إلى أن محمدًا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله؛ فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنّت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بُعثت نذيرًا لكم بيّنَ النّذارة، فَعَلَيَّ أن أبلغكم رسالة الله و﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف:١٧].

الآية (٥١): ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: إن في هذا القرآن ﴿لَرَحۡمَةٗ﴾ أي: بيانًا للحق، وإزاحة للباطل ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ بما فيه حلول النّقْمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

الآية (٥٢): ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٨] من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيَّدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات. ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل؛ كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

الآية (٥٣-٥٤): يقول تعالى مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢]، وقال ههنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: لولا ما حَتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة.

الآية (٥٥): ثم قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء:٣٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس؛ كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٨-٤٩]، وقال ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٣-١٦].

الآية (٥٦): هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحَمة النجاشي ملك الحبشة -رحمه الله- آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيُومًا ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

الآية (٥٧-٥٨): ثم قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم؛ فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب. ولهذا قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: لنُسكنّنهم منازلَ عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف:١٠٨]، ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ نعمت هذه الغُرَفُ أجرًا على أعمال المؤمنين.

الآية (٥٩): ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم.

الآية (٦٠): ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار؛ ولهذا قال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدَّخر شيئًا لغد، ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

الآية (٦١-٦٣): ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين -الذين يعبدون معه غيره- معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومُقدّر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يُصلح كلًا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعبَد غيره؟! ولِمَ يُتوكل على غيره؟! فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك».

الآية (٦٤): يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق [التي] لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

الآية (٦٥-٦٦): أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلَّا يكون هذا منهم دائمًا ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ هذه اللام لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل.

الآية (٦٧-٦٩): يقول تعالى ممتنًا على قريش فيما أحلهم مِن حَرَمِهِ، الذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمنًا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ إلى آخر السورة [قريش:١ - ٤]. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله؟! فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديقَ الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين أظهُرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه، ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذّب بالحق لـمَّا جاءه، فالأول مُفترٍ، والثاني مُكذّب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنُبصِّرنَّهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة، قال عباس الهمداني أبو أحمد -من أهل عكا- في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون.

تفسير سورة الروم

وهي مكية. [وعدد آياتها ستون آية].

الآية (١-٥): عن ابن عباس قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون». فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دُون» أراه قال: «العشر». قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر. ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [رواه الترمذي وغيره، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح]. وعن مسروق قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم [متفق عليه]. قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، وكان من مَلك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر. كان آخرهم هرقل. فناوأه كسرى ملك الفرس، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَره، ولم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد لحصانتها. فلما طال الأمر دبّر قيصر مكيدة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالًا عظيمة. فطاوعه قيصر، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك، فأطلق سراحه. فركب قيصر وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلًا، حتى انتهى إلى المدائن، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وركّبه على حمار، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبتَ فخُذْه. فلما بلغ ذلك كسرى اشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك. وقدم قيصر وجنوده، ودخلوا القسطنطينية. وكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارى. فكان هذا مِن غَلَبِ الروم فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم. قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس. وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية؛ قاله عكرمة والزهري. والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ الآية [المائدة:٨٢]. قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

الآية (٦): قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به - يا محمد - مِن أنَّا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يُخلَف، ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سُنّته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

الآية (٧): قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حُذّاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأنّ أحدهم مُغفَّل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي!

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

الآية (٨): يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلمون أنها ما خُلقت سُدًى ولا باطلًا، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

الآية (٩-١٠): نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيّدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك مَن كَفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؛ ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالًا وأولادًا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومُكّنوا في الدنيا تمكينًا لم تبلغوا إليه، وعُمّروا فيها أعمارًا طوالًا، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، ﴿أَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١]، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال.

قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أُتُوا مِن أنفسهم؛ حيث كذّبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]. وعلى هذا تكون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوبة مفعولًا لـ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: كانت السُّوأى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون.

الآية (١١): يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

الآية (١٢-١٣): قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكتئب المجرمون.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

الآية (١٤-١٥): ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ قال قتادة: هي -والله- الفرقة التي لا اجتماع بعدها. يعني: إذا رُفع هذا إلى عليين، وخُفض هذا إلى أسفل السافلين، فذاك آخر العهد بينهما.

ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحَبْرة أعم من هذا كله.

الآية (١٧)[1]: هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاده لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء؛ وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح؛ وهو إسفار النهار عن ضيائه.

الآية (١٨): ثم اعترض بحمده، مناسبةً للتسبيح وهو التحميد، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود -على ما خلق- في السموات والأرض. قوله: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس:٣-٤].

الآية (١٩): قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط؛ فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك: إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. قوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس:٣٣-٣٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الآية (٢٠): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تَصَوّر فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظامًا شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحمًا، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيرًا ضعيف القُوَى والحركة، ثم صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب مَتن البحور، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال. فسبحان من أقدَرَهُم وسَيّرهم وسخّرهم وصرَّفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحَزْن، وبين ذلك» [رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني].

الآية (٢١): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثًا يَكُنَّ لكم أزواجًا، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورًا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن ﴿مَّوَدَّةً﴾ وهي المحبة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي الرأفة؛ فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الآية (٢٢): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها، وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها، وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار.

قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات؛ فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرْبر، وهؤلاء تكْرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى في اختلاف بني آدم. واختلاف ألوانهم -وهي حلاهم[2]- فجميع أهل الأرض -بل أهل الدنيا- منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كلٌ له عينان، وحاجبان، وأنف، وجبين، وفم، وخدّان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهرًا كان أو خفيًا، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

الآية (٢٣): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: ومن الآيات ما جعل لكم في صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب. وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون.

الآية (٢٤): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق مُتلِفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) لم يفسر ابن كثير -رحمه الله- الآية (١٦): ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وفسرها ابن جرير -رحمه الله- بقوله: وأما الذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسله، وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة، فأولئك في عذاب الله محضرون، وقد أحضرهم الله إياها، فجمعهم فيها ليذوقوا العذاب الذي كانوا في الدنيا يكذّبون.

(٢) الحِلْيَةُ: تَحْلِيَتُك وجه الرّجل إذا وصفته، وحلية الرجل: صورته بِكَسْر الحاء لَا غير. [كتاب العين، وجمهرة اللغة، مادة (حلي)].

الآية (٢٥): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، وكان عمر بن الخطاب إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره» أي: هي قائمة بأمره وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدّلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢].

الآية (٢٦-٢٧): قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا. قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: يعني أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هيّن. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. عن ابن عباس: كلٌّ عليه هين. ومال إليه ابن جرير، قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق، أي: وهو أهون على الخلق. قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. وقال قتادة: مَثَله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأقواله، شرعًا وقَدَرًا.

الآية (٢٨): هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، مُلْكٌ له، فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله، فهو وهو فيه على السواء، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مِجْلَز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له. والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه. وهذا كقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: من البنات، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر. وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك؛ أن يكون عبدُه شريكه في ماله، يساويه فيه، ولو شاء لقاسمه عليه.

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآية (٢٩): ثم قال تعالى مبينًا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلًا: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: المشركون ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كَتَب الله إضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله مُنقذ ولا مُجير، ولا مَحيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الآية (٣٠): يقول تعالى: فسدّد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكمَّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره. وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حُنَفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» [رواه مسلم]. قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم عليها، فيكون خبرًا بمعنى الطلب؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧]، وهذا معنى حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجِبِلَّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله. قال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، خَلْقُ الأولين: دينُ الأولين، والدين والفطرة: الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يُهوّدانِه أو يُنَصّرانِه أو يُمَجّسانِه، كما تنتج البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟!» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [متفق عليه]. قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسُّك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

الآية (٣١-٣٢): قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج: أي راجعين إليه، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه. وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم؛ أي: بدّلوه وغيّروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرأ بعضهم: «فارقوا دينهم»؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعَبَدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة، مما عدا أهل الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء.

الآية (٣٣-٣٥): يقول تعالى مخبرًا عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره. قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك. ثم توَعَّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توَعَّدني حارس دَرْبٍ لَخِفْتُ منه، فكيف والمتوعّد ههنا الذي يقول للشيء: «كن»، فيكون! ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾؟! وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

الآية (٣٦-٣٧): قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا مَنْ عَصَمه الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بَطِرَ وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قَنِطَ وأَيِسَ أن يحصل له بعد ذلك خير بالكُلّية! قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود:١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سرّاء شكَر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبَر فكان خيرًا له» [رواه مسلم]. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية (٣٨): يقول تعالى آمرًا بإعطاء ذي ﴿ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: من البر والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وهو: الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا وفي الآخرة.

الآية (٣٩): قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله -بهذا فسَّره ابن عباس- وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نُهِيَ عنه رسولُ الله ﷺ خاصة. قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] أي: لا تُعطِ العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح، يعني: ربا البيع. وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾. وإنما الثواب عند الله في الزكاة.

ولهذا قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تصدَّق أحد بعدل تمرة من كسبٍ طيّب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيُربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوّه أو فصيلَهُ، حتى تصير التمرة أعظم مِن أُحُد» [متفق عليه].

الآية (٤٠): قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق، يُخرج الإنسانَ من بطن أمه عريانًا، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة. قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة؛ ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتعاظم وجلّ وعَزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مُساوٍ، أو ولد أو والد.

الآية (٤١): قال ابن عباس: المراد بالبر: الفيافي، وبالبحر: الأمصار والقرى. وقال آخرون: بل المراد بالبر: هو البر المعروف، وبالبحر: البحر المعروف. وقال زيد بن رُفَيع: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه. وعن مجاهد قال: فساد البر: قتل ابن آدم، وفساد البحر: أخذ السفينة غصبًا. وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر: جزائره. والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق: أن رسول الله ﷺ صَالَح ملك أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني: ببلده. ومعنى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ ولهذا إذا نزل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحْفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أُقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت في الصحيح: «إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد، والشجر والدواب» [متفق عليه]. قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختبارًا منه، ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

الآية (٤٢): قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبلكم، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ماذا حلَّ بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

الآية (٤٣-٤٥): يقول تعالى آمرًا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

الآية (٤٦): يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: في البحر، وإنما سيَّرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقُطر إلى قُطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

الآية (٤٧): ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ هذه تسلية الله لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإنْ كذَّبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو حق أوجبه على نفسه الكريمة، تكرُّمًا وتفضلًا؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

الآية (٤٨): يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو ممَّا يشاء الله ﷻ، ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يَمُدّه فيكثّره وينميه، ويجعل من القليل كثيرًا، ينشئ سحابة فتُرَى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثِقالًا مملوءة ماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧]، وكذلك قال ههنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الورّاق، وقتادة: يعني قِطعًا.

وقال غيره: متراكمًا؛ قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ أي: فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم.

الآية (٤٩-٥٠): قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قَنِطِين أَزِلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعًا عظيمًا.

ثم نبّه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية (٥١): يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشبّ واستوى على سوقه، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: قد اصفر وشرع في الفساد، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم؛ كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧].

الآية (٥٢-٥٣): يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامَك الصُّمّ الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مُدْبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، ورَدّهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى؛ فإنه بقدرته يُسْمِعُ الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مَثَل الكافرين؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]. وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين أُلقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطبُ من قوم قد جَيَّفوا؟! فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمَع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» [متفق عليه]. وتأوَّلته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أنَّ ما كنت أقول لهم حق» [متفق عليه]. وقال قتادة: أحياهم الله حتى سمعوا مقالته توبيخًا ونقمة. والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر؛ لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححًا له عن ابن عباس مرفوعًا: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام». وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه [رواه البخاري ومسلم]. وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلّموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلّم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» [رواه مسلم]، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا. وقد شُرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر، ولا يعلم بالمسلّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية» [رواه مسلم]، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلّم الرد، والله أعلم.

الآية (٥٤): ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظامًا ثم تكسى لحمًا، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا واهن القوى، ثم يشب قليلًا قليلًا حتى يكون صغيرًا، ثم حَدثًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا، وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل. ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللِّمَّة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

الآية (٥٥-٥٦): يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا؛ فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: فيردّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: من يوم خُلقتم إلى أن بُعثتم، ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٥٧): قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤].

الآية (٥٨-٥٩): ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل؛ كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٦٠): ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم؛ فإن الله تعالى مُنجزٌ لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به؛ فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدًى يُتَّبع، بل الحق كله منحصر فيه.

تفسير سورة لـقمان

وهي مكية، [وعدد آياتها أربع وثلاثون آية].

الآية (١-٥): تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يُراءوا به ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكورًا، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

الآية (٦): لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما رُوي عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يُسأل عن هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فقال عبد الله: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وكذا قال ابن عباس، وجابر، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، ومكحول، وعمرو بن شعيب.

وقال الحسن البصري: أُنزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالًا، ولكن شراؤه استحبابه، بحَسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: عنَى بقوله: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ اشتراء المغنّيات من الجواري. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني: الشرك. وبه قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم. واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزوًا يستهزئ بها. وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هزوًا. وقول مجاهد أولى. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أُهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

الآية (٧): قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامّ وما به من صَمَم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرَبَ له فيها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: يوم القيامة؛ يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

الآية (٨-٩): هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصَدّقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائمًا فيها، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولًا.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

الآية (١٠): بيّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها[1]. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ يعني: الجبال أرسَت الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: لئلا تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي: وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس - أيضًا - من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

الآية (١١): قوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي: جهل وعمى ﴿مُّبِينٍ ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

---

(١) ينظر أيضًا كلام ابن كثير أول سورة الرعد، ص ٢٤٩.

الآية (١٢): اختلف السلف في لقمان: هل كان نبيًا، أو عبدًا صالحًا من غير نبوة. جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًا. قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله ﷻ على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين؛ لقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]. قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا؛ فإنه الغني عما سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

الآية (١٣-١٤): يقول تعالى مخبرًا عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر؛ فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولًا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا، ثم قال محذرًا له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم. عن ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يَلْبس إيمانه بظلم؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [متفق عليه].

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البرَّ بالوالدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]. وكثيرًا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾. قال مجاهد: مشقة وَهْن الولد، وقال قتادة: جهدًا على جهد، وقال عطاء الخراساني: ضعفًا على ضعف. قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين؛ كما قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]. ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]. وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلًا ونهارًا، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه؛ كما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

الآية (١٥): قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حَرَصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفًا، أي: محسنًا إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ يعني: المؤمنين ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[سبب النزول]: عن سعد [بن أبي وقاص]، قال: نزلت فيّ أربع آيات. فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟! والله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾الآية [العنكبوت:٨]. [رواه مسلم].

الآية (١٦-١٩): هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صَمَّاء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دَقَّت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم. ثم قال: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور. قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولكن ألِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم. قال ابن عباس: لا تتكبر فتحقِر عبادَ الله، وتُعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وقال زيد بن أسلم: لا تكَلِّم وأنت مُعرض. وقال إبراهيم النَّخَعِي: يعني بذلك: التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تُلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبَّه به الرجل المتكبر. قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: جَذِلًا متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور: أي على غيره. قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين. قوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى. وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه» [متفق عليه]. فهذه وصايا نافعة جدًا، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم.

الآية (٢٠): يقول تعالى منبهًا خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفًا محفوظًا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروعٍ وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشُّبَه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله؛ أي: في توحيده وإرسال الرسل، ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبين يضيء.

الآية (٢١): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]؛ أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

الآية (٢٢): يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أُمِر وترك ما عنه زُجِر.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

الآية (٢٣): ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: لا تحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية.

الآية (٢٤): قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مُشِقٍّ على النفوس؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

الآية (٢٥): يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء المشركين به: إنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٦): ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

الآية (٢٧): يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العُلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا ومَدّه سبعة أبحر معه، فكُتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونَفِدَ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مَدَدًا. وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يُرِد الحصر. وقال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وقال الله: «إنّ مِن أمري كذا، ومِن أمري كذا..» لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلامًا، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه. وقال الربيع بن أنس: إن مثَل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية، يقول: لو كان البحر مدادًا لكلمات الله والأشجار كلها أقلامًا، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه. إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز قد عزَّ كلّ شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد، ولا مخالف ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه.

الآية (٢٨): قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة؛ الجميع هين عليه و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء، لا يحتاج إلى تكرره وتوكده ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة؛ ولهذا قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الآية (٢٩): يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يعني: يأخذ منه في النهار، فيطولُ ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف؛ يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]. ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

الآية (٣٠): قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنما يُظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل؛ فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابًا لعجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العلي: الذي لا أعلى منه، الكبير: الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

الآية (٣١): يخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّار في الضراء، شكور في الرخاء.

الآية (٣٢): ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]. ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي كافر. كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]. وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]، فالمقتصد ههنا هو: المتوسط في العمل. ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا والحالة هذه، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالخَتَّار: هو الغَدَّار. وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَتْر: أتَم الغدر وأبلغه، ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جَحُود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

الآية (٣٣): يقول تعالى منذرًا للناس يوم المعاد، وآمرًا لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قُبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة؛ فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُهُ ويُمنّيه، وليس من ذلك شيء، بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

الآية (٣٤): هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى، أو شقيًا أو سعيدًا، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا في دنياها وأخراها، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام:٥٩]. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب. عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» [انفرد بإخراجه البخاري]. قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يُطلع عليهن مَلَكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلًا أو نهارًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت، لعلك الميت غدًا! لعلك المصاب غدًا ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل! عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال: بها - حاجة» [رواه أحمد وغيره، وصححه الألباني].

تفسير سورة السجدة

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣٠) آية].

[فضل السورة]: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [رواه البخاري ومسلم]. وعن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١-٢): قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الآية (٣): ثم قال مخبرًا عن المشركين: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق.

الآية (٤): يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فـ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾. قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ أي: بل هو المالك لأَزِمَّةِ الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدّس وتنزّه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

الآية (٥): قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ أي: يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وتُرفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسُمْكُ السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

الآية (٦): ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يُرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغَلَبَه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته، وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

الآية (٧): يقول تعالى مخبرًا أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾: أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

الآية (٨): لَـمَّا ذَكَر خلق السموات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

الآية (٩): ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ يعني: العقول ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ. فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

الآية (١٠): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ أي: أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن، فيكون.

ولهذا قال: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

الآية (١١): ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان.

وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُويت له الأرض فجُعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

الآية (١٢): يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدار الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنَّا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذّبون آيات الله ويخالفون رسله؛ كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

الآية (١٣): قال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدَارُهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

الآية (١٤): ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئًا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤]. قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٢٤-٣٠].

الآية (١٥-١٦): يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفُرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: يعني بذلك: قيام الليل. وعن أنس وعكرمة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضًا: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد. وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومُقدَّم هؤلاء وسيّدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ. عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ فقال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟! الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [رواه النسائي والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١٧): قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لَمَّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب جزاءً وفاقًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر. عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [متفق عليه].

الآية (١٨): يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوي في حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمنًا بآياته متبعًا لرسله، بمن كان فاسقًا، أي: خارجًا عن طاعة ربه مكذبًا لرُسُله إليه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]؛ وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: عند الله يوم القيامة. وقد ذكر عطاء بن يسار والسُّدِّي أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي مُعَيط.

الآية (١٩-٢٠): قال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نُزُلًۢا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي: خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ كقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢]. قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

الآية (٢١-٢٢): ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. وروي مثله عن أبي بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة. وعن أُبيّ بن كعب: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام [رواه مسلم موقوفًا بنحوه، وعند البخاري عن ابن مسعود نحوه]. وقال عبد الله بن مسعود أيضًا في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر. قال السُّدي: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غَرموا، ومنهم من جُمع له الأمران. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي: لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبيّنها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها. قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله؛ فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشد العَوَز، ولهذا قال تعالى متهددًا لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

الآية (٢٣): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه آتاه الكتاب وهو التوراة. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. [وعن] ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت ليلة أسري بي موسى بن عمران؛ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا، كأنه من رجال شنوءة... في آيات أراهن الله إياه» ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به. [البيهقي في الدلائل، وأصله في البخاري]. قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٢].

الآية (٢٤-٢٥): ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك نواهيه وزواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحَرّفوا وأوّلوا، سُلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملًا صالحًا، ولا اعتقادًا صحيحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قال قتادة: لما صبروا عن الدنيا. وقال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إمامًا يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا. وقال بعض العلماء: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: من الاعتقادات والأعمال.

الآية (٢٦): يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؛ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها؛ كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟!

الآية (٢٧): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها؛ كما قال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٨]، أي: يبَسًا لا تنبت شيئًا. قال ابن عباس: قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ هي التي لا تُمطَر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا، إلا ما يأتيها من السيول. وقال عكرمة وقتادة: الأرض الجرز: التي لا نبات فيها وهي مغبرة. قلت: وهذا كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥].

الآية (٢٨): يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: متى تُنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتًا تُدَال علينا، ويُنتقَم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

الآية (٢٩): ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥]، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النجْعة، وأخطأ فأفحش؛ فإن يوم الفتح قد قَبل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨].

الآية (٣٠): ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غِبَّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٧٣) آية].

[فضل السورة]: روى الإمام أحمد عن زِرّ قال: قال لي أُبَيّ بن كعب: كَأَين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثًا وسبعين آية. فقال: قَط! لقد رأيتها وإنها لتعادل «سورة البقرة»، ولقد قرأنا فيها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالًا من الله، والله عليم حكيم). وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نُسخ لفظه وحكمه أيضًا، والله أعلم.

الآية (١-٣): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى؛ فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. قال طَلْق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه؛ فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

الآية (٤): يقول تعالى مُوطِّئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا معروفًا حسيًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنتِ عَلَيَّ كظهر أمي أُمًّا له، كذلك لا يصير الدَّعيّ ولدًا للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنًا له، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢]. وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبنَّاه قبل النبوة، وكان يقال له: زيد بن محمد. فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة. قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تبنّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا؛ فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. قال سعيد بن جبير: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: العدل. وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المستقيم. [سبب النزول]: قد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر. فأنزل الله هذه الآية ردًا عليه. واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس قال: قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي، فخَطَر خَطْرَة[1]، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين، قلبًا معكم وقلبًا معهم؟! فأنزل الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [رواه أحمد وغيره، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٥): ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تعالى بِرَدّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط. عن عبد الله بن عمر أن زيدًا مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [متفق عليه]. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك. ولهذا لما نسخ هذا الحكم تزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة. وأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نهي عنه في هذه الآية. قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم؛ أي: عوضًا عما فاتهم من النسب؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [رواه مسلم]. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

الآية (٦): قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقَدّمًا على اختيارهم لأنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]. عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾» [رواه البخاري]. قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. قوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم. قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية. قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم -وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض- حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد. وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي.

---

(١) يريد الوسوسة التي يوسوس بها الشيطان للمرء في صلاته. [ينظر: النهاية في غريب الحديث، ولسان العرب، مادة (خطر)].

الآية (٧-٨): يقول تعالى مخبرًا عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]. فهذا العهد والميثاق أُخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وقد صرح بذكرهم أيضًا في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب. فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها. قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلّغين المؤدين عن الرسل. قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلَّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإنْ كذَّبهم مَن كذَّبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال.

الآية (٩-١٠): يقول تعالى مخبرًا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألَّبوا عليهم وتحزَّبوا، وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح. وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير، الذين أجلاهم رسول الله ﷺ إلى خيبر اجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول الله ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا. وخرجت قريش، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾. وكانت بنو قريظة لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضَري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال. ومكثوا مُحاصِرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ عليًا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي رضي الله عنه. ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار، ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين؛ كما قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾. قال مجاهد: هي الصبا. ويؤيده الحديث: «نصرت بالصبا[1]، وأهلكت عاد بالدبور[2]» [رواه البخاري]. قوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف. قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بنو قريظة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: من شدة الخوف والفزع.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال الحسن: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا وأصحابه يُستأصَلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيُظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

الآية (١١-١٣): يقول تعالى مخبرًا عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم: أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة، لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة. وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: ههنا، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة، ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق. وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك: هو أوس ابن قَيظيّ، يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة، أي: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هَرَبًا من الزحف.

الآية (١٤): يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقُطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. وهذا ذم لهم في غاية الذم.

الآية (١٥): قال تعالى يُذكّرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد، لا بد من ذلك.

---

(١) الصَّبا: ريح يقال لها القَبول -بفتح القاف- لأنها تقابل باب الكعبة؛ إذ مهبها من مشرق الشمس. [فتح الباري لابن حجر: ٢/ ٥٢١].

(٢) الدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبا [القاموس المحيط، مادة (دبر)].

الآية (١٦): أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غِرّة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هَرَبكم وفراركم، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

الآية (١٧): ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

الآية (١٨-١٩): يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخلطائهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظّلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: استقبلوكم. وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشحّ قوم، وأسوؤه مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق. وهم مع ذلك أشِحّة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا هينًا عنده.

الآية (٢٠): هذا أيضًا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخوف والخور ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ بل هم قريب منهم، وإنّ لهم عودة إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: وَيَودّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلًا؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

الآية (٢١): هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلّقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟!

ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الآية (٢٢): قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤] أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم؛ كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقيادًا لأوامره، وطاعةً لرسوله.

الآية (٢٣): لما ذكر ﷻ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق، و﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾. قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده. وهو يرجع إلى الأول. عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [رواه البخاري]. قال مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾: عهده ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يومًا فيه القتال فيصدق في اللقاء. قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين.

الآية (٢٤): ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

الآية (٢٥): يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد، ولكن قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فسلط عليهم هواء فرَّق شملهم، وردّهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقِهم، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعداوة، وهمّهم بقتله واستئصال جيشه، ومن هَمّ بشيء وصدَّق هَمَّه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله. قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يُجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» [متفق عليه]. وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم؛ عن سليمان بن صرد يقول: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا» [رواه البخاري]. قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: بحوله وقوته ردّهم خائبين، لم ينالوا خيرًا، وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده.

الآية (٢٦-٢٧): لما أيد الله ونَصَر، وكبَت الأعداء وردّهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا، ووضع الناس السلاح. إذ تبدى جبريل فقال: أوَضعتَ السلاح يا رسول الله؟! قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ، فلما أقبل جعل الأوس يقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم. فقال: إني أحكم أن تُقتل مُقَاتلتهم، وتُسْبى ذريتهم [وتقسم] أموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» [في الصحيحين بنحوه]. ثم جيء بهم مكتفين فضرب أعناقهم، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: حصونهم. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فالذين قُتلوا هم المقاتلة، والأُسَراء هم الأصاغر والنساء. قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قتلكم لهم، ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قيل: خيبر. وقيل: مكة. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مرادًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

الآية (٢٨-٢٩): هذا أمر من الله لرسوله ﷺ بأن يخَيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

الآية (٣٠): يقول تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة، قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال زيد بن أسلم: في الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا هينًا.

الآية (٣١): ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: يطع الله ورسوله ويستجب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنة؛ فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

الآية (٣٢): هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطبًا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السُّدي: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دَغَل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير. ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

الآية (٣٣-٣٤): قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن -وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج- فنهى الله عن ذلك. وقال مُقاتل بن حَيَّان: والتبرج: أنها تُلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عُمَّت نساءُ المؤمنين في التبرج. وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهاهن أولًا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من: إقامة الصلاة؛ وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة؛ وهي: الإحسان إلى المخلوقين. ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا. قالت عائشة: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرط مُرحَّل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [رواه مسلم]. ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة. واذكرن هذه النعمة التي خُصصتن بها من بين الناس: أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصدّيقة بنت الصدّيق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصّهن من هذه الرحمة العميمة؛ فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما في الحديث: «وأهل بيتي أحق» [رواه أحمد، وصححه شعيب الأرنؤوط]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير -رَحِمَهُ اللَّهُ- واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة -وهي السنة- خبيرًا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجًا.

الآية (٣٥): [سبب النزول]: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يَرُعْني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسَرّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرتي، حُجْرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾» إلى آخر الآية. [رواه أحمد والنسائي، وصححه شعيب الأرنؤوط]. فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»؛ فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه. ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القنوت: هو الطاعة في سكون، قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنها. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال؛ فإن الصدق خَصلة محمودة، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا. ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ هذه سَجيّة الأثبات؛ وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وَتَلَقّي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى؛ أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته. ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يُعطَون من فضول الأموال طاعةً لله، وإحسانًا إلى خلقه. ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح. وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة فقال: «سبق المُفَرّدون». قالوا: وما المُفَرّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات» [رواه مسلم]. قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم، أن الله تعالى قد أعدّ لهم أي: هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا وهو الجنة.

الآية (٣٦): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسبًا، فأنزل ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها. وهذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي ولا قول؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]؛ ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

الآية (٣٧): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذي ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام، ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله» قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾. عن أنس قال: إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [رواه البخاري]. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرَغ منها وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ. ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبَحْنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنَّى زيد بن حارثة، فكان يقال له: «زيد بن محمد»، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤-٥] زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب لما طلقها زيد؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدّره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

الآية (٣٨): ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دَعِيُّه زيد بن حارثة. قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله؛ لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة، وواقعًا لا محيد عنه ولا مَعدِل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الآية (٣٩): يمدح تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه، فلا تمنعهم سَطوةُ أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا. وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام- محمد رسول الله ﷺ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون.

الآية (٤٠): ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد. أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه؛ فإنه صلوات الله عليه وسلامه لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم. قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة». انفرد بإخراجه مسلم.

الآية (٤١-٤٢): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله ﷻ» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]. وقال ابن عباس: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر؛ فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على تركه، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال. ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عند الصباح والمساء؛ كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧].

الآية (٤٣): ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ هذا تهييج إلى الذكر؛ أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم؛ كقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]. والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة. وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم. وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جَهله غيرهم، وبَصّرهم الطريق الذي ضَل عنه وحاد عنه مَن سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

الآية (٤٤): ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ الظاهر أن المراد ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: من الله تعالى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي: يوم يسلم عليهم؛ كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يُحيّي بعضهم بعضًا بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير. قلت: وقد يستدل بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الآية (٤٥-٤٨): عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًا، وقلوبًا غُلفًا» [رواه البخاري]. ﴿شَٰهِدًا﴾ أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله؛ فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

الآية (٤٩-٥٠): هذه الآية الكريمة فيها أحكام، منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس وجماعة بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقَّب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي وأحمد وطائفة كثيرة من السلف والخلف. وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق. فعندهما متى تزوجها طلقت منه. وعن ابن عباس قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية. وقال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني]. قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طُلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها مَن شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها؛ فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦]. عن سهل بن سعد وأبي أُسَيد؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل، فلما دخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أَسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيّين [رواه البخاري]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مُهُورَهُنَّ، وهي الأجور ههنا. كما قاله مجاهد، وقد كان مَهْرُهُ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة فإنه أمهرها عنه النجاشي أربعمائة دينار، وإلا صفية فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جُوَيرية بنت الحارث أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها. ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التسرّي مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، وكانتا من السراري. ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت. ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال قتادة: المراد: من هاجر معه إلى المدينة. ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: ويحل لك -يأيها النبي- المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأةً وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئًا. أي: أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها. وقال قتادة: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: مِنْ حَصْرِهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأُمَّة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئًا منه ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

الآية (٥١): [سبب النزول]: عن عائشة أنها كانت تُغَيِّر النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟! فأنزل الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قالت: إني أرَى رَبَّك يسارع لك في هواك [متفق عليه]. قوله: ﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك: إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. وقال آخرون: بل المراد: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت. ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه يقسم لهن. عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية [رواه البخاري]. فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمِنّتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه. روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر.

الآية (٥٢): ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ذكر غير واحد من العلماء أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضًى عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لَمَّا خيرهن رسول الله ﷺ. فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن، إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن. وقال آخرون: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: بعدما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذُكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعًا. وهذا الذي قاله جيد. قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ نهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه.

الآية (٥٣): [سبب النزول]: عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية [متفق عليه]. فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك. ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: أي غير مُتحيّنين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول؛ فإن هذا يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل. قال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ في صحيح مسلم عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فلْيُجب، عُرسًا كان أو غيره». قال: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىٖ مِنكُمْ﴾. وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىٖ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه. قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب. قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أجمع العلماء قاطبة على أن من تُوفّي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين. وقد عظَّم الله تعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

الآية (٥٤): ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: مهما تُكِنُّه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية.

الآية (٥٥): ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم عند قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١] إلى آخرها، وفيها زيادات على هذه. وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعني به: أرقاءهن من الذكور والإناث، قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به: الإماء فقط. وقوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: واخشينه في الخلوة والعلانية؛ فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

الآية (٥٦): قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبرِّكون. وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعًا. وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه: عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» [رواه البخاري]. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ واحدة، صلى الله عليه بها عشرًا».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علي» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء.

الآية (٥٧): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يقول تعالى متهددًا ومتوعدًا من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو تنقص، عياذًا بالله من ذلك. قال عِكْرِمة: نزلت في المصورين. في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يَسُبّ الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره». ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ، فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي. وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

الآية (٥٨): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم بُرآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو البهت البين: أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين.

الآية (٥٩): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات -خاصة أزواجَه وبناته لشرفهن- بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء. والجلباب: هو الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود. قال الجوهري: الجلباب: الملحفة. قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة. وقال محمد ابن سيرين: سألت عَبيدةَ السّلماني عن: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. وعن أم سلمة قالت: لما نزلت: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سُود يلبسنها [رواه ابن أبي حاتم وأبو داود وصححه الألباني]. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عُرْفنَ أنَّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر. وقال مجاهد: يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك.

الآية (٦٠-٦٢): قال تعالى متوعدًا للمنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر-: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة ههنا، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يقولون: جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء. لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: لنسلطنَّك عليهم. وقال قتادة: لنحرّشَنَّك بهم. وقال السُّدي: لنعلمنّك بهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وجدوا ﴿أُخِذُوا۟﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه؛ أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

الآية (٦٣-٦٥): يقول تعالى مخبرًا لرسوله ﷺ: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك. وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كما قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

الآية (٦٦): ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]. وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا.

الآية (٦٧-٦٨): ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن، وليس له الجمع بينهما.

الآية (٦٩): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله ﷻ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يومًا وحده، فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل، فلمَّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانًا أحسن ما خلق الله ﷻ، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾» هذا الحديث من أفراد البخاري. قوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: له وجاهة وجاه عند ربه ﷻ. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه. ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ﷻ. وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣].

الآية (٧٠-٧١): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه يجار نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم. قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد: الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

الآية (٧٢): عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة التي عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحمَّلها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وقال ابن عباس: الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني: غرًا بأمر الله. وقال ابن عباس: عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غَفَرت لك، وإن عَصَيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله.

الآية (٧٣): ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات؛ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفًا من أهله، ويبطنون الكفر متابعة لأهله. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ﷻ، ومخالفة رسله. ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تفسير سورة سَبأ

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٤) آية].

الآية (١-٢): يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٣].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبدًا، المحمود على طول المدى.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. قال الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره؛ ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من قطر ورزق ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

الآية (٣): هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد؛ فإحداهن في سورة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]. فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة؛ فإنه بكل شيء عليم.

الآية (٤-٥): ثم بيّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين؛ كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

الآية (٦): قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا، رأوه حينئذٍ عين اليقين، ويقولون يومئذٍ أيضًا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، ويقال أيضًا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ العزيز: هو المنيع الجناب الذي لا يُغالب ولا يُمانع، بل قد قهر كل شيء، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

الآية (٧): هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك.

الآية (٨): ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ هو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ قال الله ﷻ رادًا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

الآية (٩): ثم قال منبهًا لهم على قدرته في خلق السموات والأرض: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مُظلّة عليهم والأرض تحتهم؛ كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨]. عن قتادة قال: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ قال قتادة: المنيب: المقبل على الله ﷻ؛ أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ [يس:٨١]، وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

الآية (١٠-١١): يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِى﴾: التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها؛ أي: رَجّعي مُسَبّحة معه. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري: كان لا يحتاج أن يُدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط؛ ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد: لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق في الحلقة، ولا تُغَلّظه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال ابن عباس: السَّرد: حَلَق الحديد. وقال بعضهم: يقال: درع مسرودة: إذا كانت مسمورة الحلق. قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي: في الذي أعطاكم الله من النعم، ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء.

الآية (١٢): لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان -عليهما الصلاة والسلام- من تسخير الريح له تحمل بساطه، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾. قوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس: القطر: النحاس. قال السُّدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام. قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو الحريق. قال الحسن: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان.

الآية (١٣): ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره. وقال مجاهد: المحاريب: بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي المساجد والقصور. وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء. وقال ابن عباس: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: كالجَوبة من الأرض. وقال العوفي عنه: كالحياض. والقدور الراسيات: أي الثابتات في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها. وقال عكرمة: أثافيها منها. قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين. و﴿شُكْرًا﴾: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية. قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر. وأفضل الشكر: الحمد. وعن محمد بن كعب القُرَظي قال: الشكر: تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود كذلك قائمين بشكر الله قولًا وعملًا. قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ إخبار عن الواقع.

الآية (١٤): ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له في الأعمال الشاقة؛ فإنه مكث متوكئًا على عصاه - وهي مِنْسَأته -كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد - مدة طويلة نحوًا من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

الآية (١٥): كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد. روى الإمام أحمد عن ابن عباس: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان». هذا إسناد حسن. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام؛ وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه؛ كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثم فسَّرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

الآية (١٦-١٧): ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس؛ كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ قيل: المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرَذ. وقيل: الماء الغزير. وذكر ابن عباس أن الله ﷻ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: «الجُرَذ» نقبته. وقال قتادة: الجُرَذ: هو الخَلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول، صَدمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونَضَبَ الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: وهو الأراك، وأكلة البَرير. ﴿وَأَثْلٍ﴾ قال ابن عباس: هو الطَّرْفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السّمُر. ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل. ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي: عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم؛ لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

الآية (١٨-١٩): يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وقال مجاهد والحسن: يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: بيّنةً واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه. ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثًا للناس، وسَمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء؛ تفرقوا في البلاد ههنا وههنا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

الآية (٢٠-٢١): لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾، قال ابن عباس: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]. ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورًا وأماني دعاهم إليها فأجابوه. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُو مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

الآية (٢٢): يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عُبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا استقلالًا، ولا على سبيل الشركة. ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: من عون يعينه بشيء.

الآية (٢٣): ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة؛ كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ هذا أيضًا مقام رفيع في العظمة؛ وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه، أزعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قال ابن عباس وابن عمر: جُلِّي عن قلوبهم. فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال مجاهد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: ما فيها من الشك، قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره: عن أبي هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خَضْعَانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير [رواه البخاري]. وعن ابن عباس وقتادة: أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

الآية (٢٤-٢٧): يقول تعالى مقررًا تفرُّدَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أي: بما يُنزل من المطر وينبت من الزرع- إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: واحد من الفريقين مبطل والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إنّ أحد الفريقين لمهتد. وقال عِكْرِمة: معناها: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين. ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ معناه: التبرّي منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم:١٤-١٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور. ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا، وصيرتموها له عدْلًا. ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظير ولا نَديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

الآية (٢٨): يقول تعالى لعبده محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين؛ كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت إلى الأسود والأحمر» [رواه مسلم]. قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم، والكل صحيح.

الآية (٢٩-٣٠): قال تعالى مخبرًا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨] الآية. ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤].

الآية (٣١): يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم، وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجّهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به.

الآية (٣٢): ﴿قَالَ﴾ لهم القادة والسادة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

الآية (٣٣): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغُرّونا وتُمَنّونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن. قال قتادة وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وآلهة معه، وتقيمون لنا شُبَهًا وأشياءَ من المحال، تُضِلُّوننا بها. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع؛ كُلٌّ نَدم على ما سَلَف منه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه؛ للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم؛ ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

الآية (٣٤): يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ، وآمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبيًا في قرية إلا كذَّبه مُترفوها، واتبعه ضعفاؤهم؛ كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود:٢٧]. وقال الكبراء من قوم صالح: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]. وقال ههنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جَبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر.

﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه. وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضُعَفاء الناس اتّبعه أم أشرافهم؟ فزعمتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل [متفق عليه].

الآية (٣٥-٣٦): قوله تعالى إخبارًا عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك؛ قال الله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥]. وقد أخبر الله عن صاحب الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئًا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء، ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٣٧): ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم].

ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: تُضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحذَر منه.

الآية (٣٨): ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصدّ عن سبيل الله واتباع الرسل والتصديق بآياته، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

الآية (٣٩): قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: بحسب مَا لَه في ذلك من الحكمة؛ يبسط على هذا من المال كثيرًا، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمَرات في أسفل الدركات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كَفَافًا، وقَنَّعه الله بما آتاه» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أَنْفِق أُنْفِق عليك» [متفق عليه]. وفي الحديث: «أنَّ مَلَكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعط مُمْسِكًا تَلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خَلَفًا» [متفق عليه]. وقال مجاهد: لا يتأوَّلنَّ أحدكم هذه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليَقْصِد فيه؛ فإن الرزق مقسوم.

الآية (٤٠-٤١): يخبر تعالى أنه يُقَرِّعُ المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة، الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقرّبوهم إلى الله زُلفَى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؟! أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟! كما قال في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان:١٧]، وكما يقول لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦].

وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء.

﴿بَل كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء:١١٧].

الآية (٤٢): قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

الآية (٤٣): يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الآية (٤٤): قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أُنزل علينا كتاب، لكُنّا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه.

الآية (٤٥): ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي من القوة في الدنيا. وكذا قال قتادة والسدّي وابن زيد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر:٨٢]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله.

ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي؟!

الآية (٤٦): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: إنما آمركم بواحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قيامًا خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضًا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. هذا معنى ما ذكره مجاهد وقتادة وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ عن ابن عباس قال: صَعِدَ النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصبِّحُكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًا لك! ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١] [رواه البخاري]. وعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات، فقال: «أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه، أيها الناس [أُتِيتُمْ]، أيها الناس [أُتِيتُمْ]» ثلاث مرات [رواه أحمد، وصححه شعيب الأرنؤوط].

الآية (٤٧): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جُعلًا ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه.

الآية (٤٨): قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]. أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

الآية (٤٩-٥٠): ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل؛ كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطعن الصنم بسِيَة قَوْسِه، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [متفق عليه]. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة. ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله ﷻ من الوحي والحق المبين؛ فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

الآية (٥١-٥٢): يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ -يا محمد- إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وَزَر ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يُمَكَّنُوا أَنْ يُمْعِنُوا فِي الْهَرَب بَلْ أُخِذُوا مِنْ أَوَّل وَهْلَة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذُكر متصلًا بذلك. ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا. وقال الحسن البصري: أنّا إنهم طلبوا الأمر من حيث لا يُنال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد. وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة.

الآية (٥٣-٥٤): ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسل؟! ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: بالظن. قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢]، فتارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري: يعني: الإيمان. وقال السُّدي: هي التوبة. وهذا اختيار ابن جرير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروي نحوه عن ابن عباس وابن عمر. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمُنعوا منه. وقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يُتقبَّل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٥) آية].

الآية (١): قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها. وقال ابن عباس أيضًا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: بديع السموات والأرض. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أُمروا به سريعًا ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب [متفق عليه]؛ ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال السُّدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري وابن جُرَيْج: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: حسن الصوت.

الآية (٢): يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ عن المغيرة بن شعبة: سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» [متفق عليه]. وهذه الآية كقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]. كان أبو هريرة إذا مُطروا يقول: مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يقرأ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الآية (٣): ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَلْيُفْرَد بالعبادة، ولا يُشرَك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان.

ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟!

الآية (٤-٦): يقول تعالى: وإن يكذبك -يا محمد- هؤلاء المشركون بالله، ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة؛ فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تَتَلَهّوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ هو الشيطان؛ قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته؛ فإنه غرَّار كذَّاب أفاك، وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، وهذه كقوله عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

الآية (٧-٨): لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعَصَوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار؛ يعملون أعمالًا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟! لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تأسف على ذلك؛ فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام. ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

الآية (٩-١٠): كثيرًا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك؛ فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض؛ ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب، منه خُلق ومنه يُرَكَّب» [رواه مسلم]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله؛ فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩].

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله يُصعد به إلى الله ﷻ، والعمل الصالح: أداء الفريضة. ومَن ذكَر الله ولم يؤدّ فرائضه رُدّ كلامه على عمله، فكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضاء إلى الله ﷻ، يراؤون بأعمالهم ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد: هم المشركون. الصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأَولى، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهَى؛ فإنه ما أسرَّ عبد سريرةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

الآية (١١): ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذكرًا وأنثى، لطفًا منه ورحمةً أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: ما يعطى بعض النُّطَف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين؛ لأن العين: الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. وعن ابن عباس يقول: ليس أحد قضيتُ له طول عُمُر وحياة، إلا وهو بالغ ما قدّرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة. وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغٌ ما بلَغ. واختار ابن جرير القول الأول، وهو كما قال؛ عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سرَّهُ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره فليَصِلْ رَحِمه» وقد رواه البخاري ومسلم.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته؛ فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها.

الآية (١٢): يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعَاقًا مُرَّة، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مُرّ. ثم قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مُقدَّمها المُسَنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير؛ وهو: صدره. وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة، من قُطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم -وهو البحر- تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته.

الآية (١٣): ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ هذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان.

ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاءً.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهم: القطمير هو: اللفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير.

الآية (١٤): ثم قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثلُ خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

الآية (١٥): يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه.

الآية (١٦-١٧): قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الآية (١٨): قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: وإن تدع نفس مُثْقَلَة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان قريبًا إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها؛ كل مشغول بنفسه وحاله.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن عمل صالحًا فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

الآية (١٩-٢٢): يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات؛ كقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال ﷻ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤]، فالمؤمن سميع بصير، في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم -وهم كفار- بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم.

الآية (٢٣-٢٦): ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النُّذر، وأزاح عنهم العلل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]. قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا؟!

الآية (٢٧): يقول تعالى منبهًا على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهَد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد:٤] الآية. قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق -وهي: الجُدَد، جمع جُدّة - مختلفة الألوان أيضًا. قال ابن عباس: الجُدَد: الطرائق. وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي. ومنها: ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود. وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب.

الآية (٢٨): ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب -وهو: كل ما دب على قوائم- والأنعام، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضًا؛ فالناس منهم: بربر وحُبُوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلقَ، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين. قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى؛ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال: العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله. وقال سعيد ابن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ. وقال الحسن البصري: العالِم مَنْ خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سَخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وعن ابن مسعود أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وعن أبي حيان التميمي، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله ﷻ.

الآية (٢٩-٣٠): يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من: إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا، سرًا وعلانيةً ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مُطَرِّف -رَحِمَهُ اللَّهُ- إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

الآية (٣١): يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدَتْ له بالتنويه، وأنه مُنزل من رب العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه.

الآية (٣٢): يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال ابن عباس: هم أمة محمد ﷺ ورَّثهم الله كل كتاب أنزله؛ فظالمهم يُغفَر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب. وقال مجاهد: هم أصحاب المشأمة. وقال الحسن وقتادة: هو المنافق. والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

إذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة.

الآية (٣٣-٣٤): يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أُورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين، يوم القيامة مأواهم ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله ﷻ ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ كما ثبت عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» [رواه مسلم]. ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أباحه الله لهم في الدار الآخرة. ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة. قال ابن عباس: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

الآية (٣٥): ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله وَمنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك؛ كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لن يُدخِل أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَني الله برحمة منه وفضل» [متفق عليه]. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء. والنصَب واللغوب: كل منهما يُستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِى ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

الآية (٣٦-٣٧): لما ذكر تعالى حال السعداء شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه:٧٤]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٥]. قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٖ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق.

﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جَلَّجَلَالُهُ أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نُهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أوما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟! وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا؛ فروي عن الحسن قال: أربعين سنة، وعن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أربعون سنة. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس عن ابن عباس قال: ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا لما ثبت في البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله ﷻ إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة». ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۚ﴾ روي عن ابن عباس وعِكْرِمة وقتادة أنهم قالوا: يعني: الشيب. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني به الرسول ﷺ، وقرأ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ [النجم:٥٦]. وهذا هو الصحيح عن قتادة. وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥].

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذابَ النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

الآية (٣٨): يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله.

الآية (٣٩): قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم؛ كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]. ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين؛ فإنهم كلما طال عُمُرُ أحدهم وحَسُنَ عملُه، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

الآية (٤٠): يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير.

وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولون من الشرك والكفر؟! ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور.

الآية (٤١): ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما؛ كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر ويُنظِر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الآية (٤٢-٤٣): يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام:١٥٦-١٥٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:١٦٧-١٧٠].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو: محمد ﷺ، بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم.

ثم بين ذلك بقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدّهم إياهم عن سبيل الله.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. وقال محمد بن كعب القُرَظِي: ثلاث من فعلهن لم يَنْجُ حتى ينزل به: مَن مكَر أو بغَى أو نكَث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١]، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد، والله أعلم.

الآية (٤٤): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل؟! كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]، فخَلَتْ منهم منازلُهم، وسُلِبُوا ما كانوا فيه من النّعم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

الآية (٤٥): قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق. عن عبد الله بن مسعود قال: كاد الجُعَل أن يُعذّب في جُحْره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. وقال سعيد بن جبير والسُّديّ: أي: لَمَا سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن يُنْظِرُهُم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذٍ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهلَ الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

تفسير سورة يس

وهي مكية. [وعدد آياتها (٨٣) آية].

الآية (١-٥): قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢]. ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئتَ به تنزيلٌ من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

الآية (٦-٧): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني بهم العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذِكرُهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتَّم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

الآية (٨): يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعِل في عنقه غُل، فجَمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسُه، فصار مُقمَحًا؛ ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ والمقمح: هو الرافع رأسه. واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، والغُلّ إنما يُعرف فيما جَمَع اليدين مع العنق. قال ابن عباس: هو كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير. وقال مجاهد: رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

الآية (٩): قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: في الضلالات. قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يَخلُصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧] ثم قال: من منعه الله لا يستطيع.

الآية (١٠-١١): قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]. قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كبير واسع حسن جميل؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

الآية (١٢): قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق؛ كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]. قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي: من الأعمال. وفي قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر؛ كقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده» [رواه مسلم]. والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. قال مجاهد: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾: أعمالهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: خُطاهم بأرجلهم. قال قتادة: لو كان الله تعالى مُغْفِلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تُعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله فليفعل.

عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» رواه مسلم. وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى؛ فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فلأن تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب.

الآية (١٣-١٤): يقول تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس-: إنها مدينة أنطاكية، وهكذا روي عن بُرَيدة ابن الحُصَيب وعِكْرِمة وقتادة، والزهري. قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: لأهل تلك القرية: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له.

الآية (١٥-١٦): ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلِمَ لا أوحيَ إلينا مثلكم؟! ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة. وهذه شُبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقوله حكاية عنهم في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رُسُلُه إليكم، ولو كنا كَذَبةً عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢].

الآية (١٧): ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإن أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبّ ذلك، والله أعلم.

الآية (١٨-١٩): عند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: لم نرَ على وجوهكم خيرًا في عيشنا. وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عُذّب أهلها. ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد: بالشتم. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: عقوبةٌ شديدةٌ، فقالت لهم رسلهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي: مردود عليكم؛ كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٣١]، وقوم صالح: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٤٧]. وقال قتادة: أي أعمالكم معكم. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٧٨].

قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي: من أجل أنَّا ذكّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعَّدتمونا وتهدَّدتمونا؟! بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة: أي: إن ذكَّرناكم بالله تطيّرتم بنا، بل أنتم قوم مسرفون.

الآية (٢٠-٢٢): قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عباس-: إن أهل القرية هَمُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يحضّ قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له. قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

الآية (٢٣-٢٤): ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟! استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا؛ فإن الله لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله.

الآية (٢٥): قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ قال ابن إسحاق -فيما بلغه عن ابن عباس- يقول لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي: الذي أرسلكم، ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إنّي آمنت بربكم واتبعتكم. وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

الآية (٢٦-٢٧): قال ابن مسعود: إنهم وطئوه بأرجلهم فوجبت له، فلما رأى الثواب قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا؛ لمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله، وما هجم عليه. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. وقال أبو مِجْلَز: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: بإيماني بربي، وتصديقي المرسلين. ومقصوده: أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصًا على هداية قومه.

الآية (٢٨-٢٩): يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضبًا منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذّبوا رسله، وقتلوا وليّه. ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قال ابن مسعود: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: ما كاثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قال: فأهلك الله ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية. وقيل: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من رسالة أخرى إليهم. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾. قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جندًا. قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق فيهم روح تتردد في جسد. وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين؛ ذكروه عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف، أو تكون أنطاكية -إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة- مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة؛ فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الآية (٣٠-٣٢): قال ابن عباس: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يا ويل العباد. وقال قتادة: أي: يا حسرة العباد على أنفسها، على ما ضيعت من أمر الله، وفرّطت في جنب الله. ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب! كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله؟! فإنهم كانوا في الدار الدنيا -المكذبون منهم- ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أُرسل به من الحق. ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ألم يتّعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل؟ كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كَرَّةٌ ولا رجعة! ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون:٣٧]. ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيام بين يدي الله ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

الآية (٣٣-٣٦): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: إذا كانت ميتةً هامدةً لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلناه رزقًا لهم ولأنعامهم. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: جعلنا فيها أنهارًا سارحةً في أمكنة، يحتاجون إليها. ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم؛ عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدّهم، ولا بحولهم وقوّتهم. ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟! أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى؟! ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكرًا وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها.

الآية (٣٧-٣٨): يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة: خلق الليل والنهار؛ هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا؛ كما قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب، فيُقبل الليل؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، كما في الحديث: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم» [متفق عليه]. وفي معنى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات. والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو: منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يُخالَف ولا يُمانَع ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكُس؛ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

الآية (٣٩-٤٠): ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مُضيّ الشهور، كما أن الشمس يُعرف بها الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥] الآية، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا. والقمر قدّره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلةً، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس: وهو أصل العِذْق. يعني: أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى. ثم بعد هذا يبديه الله جديدًا في أول الشهر الآخر. قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا. وقال عكرمة: يعني: أن لكل منهما سلطانًا، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ المعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران [دائبان] يتطالبان طلبًا حثيثًا. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء. قال ابن عباس وغير واحد: في فَلْكَةٍ كفَلْكَة المِغْزَل.

الآية (٤١): يقول تعالى: ودلالةً لهم أيضًا على قدرته تعالى: تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك -بل أوله-: سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم. ولهذا قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون: المُوقَر. وكذا قال سعيد بن جبير والشعبي وقتادة. وقال الضحاك وقتادة: وهي سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الآية (٤٢): قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ عن ابن عباس: يعني بذلك: الإبل؛ فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وقال السُّدي -في رواية-: هي الأنعام. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: تدرون ما ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال قتادة والسدي. ويُقوّي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢].

الآية (٤٣-٤٤): قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: مما أصابهم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهذا استثناء منقطع، تقديره: لكن برحمتنا نسيّركم في البر والبحر، ونُسَلّمكم إلى أجل مسمى؛ ولهذا قال: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

الآية (٤٥-٤٦): يقول تعالى مخبرًا عن تمادي المشركين في غيّهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب[1]، وقال غيره بالعكس ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها.

الآية (٤٧): قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وإذا أُمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجِّين لهم فيما أمروهم به: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك.

الآية (٤٨): يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨].

الآية (٤٩-٥٠): قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه -والله أعلم- نفخة الفزع؛ يُنفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى لِيتًا، ورفع لِيتًا - وهي صفحة العنق- يتسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

الآية (٥١): ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، والنَّسلان هو: المشي السريع؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣].

الآية (٥٢): ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ يعنون: قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. وقال أُبي بن كعب وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفختين. فلذلك يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾. فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون -قاله غير واحد من السلف-: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. نقله ابن جرير، واختار الأول وهو أصح، وذلك كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات:٢٠-٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٦].

الآية (٥٣-٥٤): قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢] أي: إنما نأمرهم أمرًا واحدًا، فإذا الجميع محضرون. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: من عملها، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) العبارة غامضة، والكلام يشعر بوجود سقط، ويتضح بما في تفسير الطبري: «عن مجاهد، قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال: ما مضى من ذنوبهم». وعليه فيكون: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ معناه: ما لم تعملوه بعد من الذنوب. وبهذا التوضيح تصح عبارة ابن كثير: «وقال غيره بالعكس»؛ أي: جعل ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ لما يستقبل من الذنوب، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ لما مضى منها. [ينظر تفسير الطبري، سورة: يس، الآية ٤٥].

الآية (٥٥-٥٨): يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في رَوْضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم. قال الحسن البصري: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد: ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به. وقال ابن عباس: أي: فرحون. وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب: شغلهم افتضاض الأبكار. ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هي السرر تحت الحجال[1]. ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ. ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة. وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

الآية (٥٩): يقول تعالى مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يميزون عن المؤمنين في موقفهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤٣] أي: يصيرون صِدْعَين: فرقتين.

الآية (٦٠-٦٢): ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والمراد بذلك: الخلق الكثير. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾؟! أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُولِكم إلى اتباع الشيطان؟!

الآية (٦٣-٦٥): يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد بُرِّزَت الجحيم لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٣-١٥]. ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت.

عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تُجرني من الظلم؟! فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز عليّ إلا شاهدًا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا. فيختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي. فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لكنَّ وسُحقًا، فعنكُنّ كنتُ أناضل» [رواه مسلم].

الآية (٦٦-٦٧): ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟! وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عُميًا يترددون. وقال السُّدي: لو شِئْنا أعمينا أبصارهم. قال مجاهد وقتادة والسدي: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يعني: الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراط ههنا: الحق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمسنا على أعينهم؟! وقال ابن عباس: لا يبصرون الحق. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أهلكناهم. وقال السُّدي: يعني: لغيرنا خَلْقهم. وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي: إلى أمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إلى وراء، بل يلزمون حالًا واحدًا، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

الآية (٦٨): يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدَّ إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]. والمراد من هذا -والله أعلم- الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشَّبيبَة، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

الآية (٦٩-٧٠): ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما هو في طبعه؛ فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّته. عن النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا، خير له من أن يمتلئ شعرًا» [رواه البخاري ومسلم]. والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وأمثالهم وأضرابهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب. قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي علمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض؛ كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة. وقال الضحاك: يعني: عاقلًا. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

---

(١) الحجلة: كالقبة تزين بالثياب والستور [القاموس المحيط، مادة (حجل)]. والمقصود أن الأرائك كالسرر التي تُضْرَب عليها الستائر المزينة.

الآية (٧١-٧٣): يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخّرها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ قال قتادة: مطيقون، أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه. وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر، لسار الجميع بسيرِ صغيرٍ. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[النحل:٨٠]، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟! أي: أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومُسَخّره، ولا يشركون به غيره؟!

الآية (٧٤-٧٦): يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خِزْيهم، وأَدَلّ في إقامة الحجة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيرًا، ولا تدفع عنهم سوءًا، إنما هي أصنام. وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلًا ولا حقيرًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا.

الآية (٧٧): [سبب النزول]: قال مجاهد وعِكْرِمة وقتادة: جاء أُبي ابن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفَتّتُهُ ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟! فقال: «نعم، يميتك الله ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن. وعن ابن عباس أن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيُحيي الله تعالى هذا بعد ما أرى؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم». قال: ونزلت الآيات من آخر «يس». وعلى كل تقدير سواءً كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث. والألِف واللام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل مَن أنكر البعث بالبدء على الإعادة؛ فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢٠-٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟!

الآية (٧٨-٧٩): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: استبعد إعادة الله تعالى -ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض- للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت.

الآية (٨٠): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضِرًا نَضِرًا ذا ثمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا، تُوقد به النار، كذلك هو فعَّال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه.

الآية (٨١-٨٢): يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة؛ كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]. وقال ههنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم. قاله ابن جرير. وقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، لا يحتاج إلى تكرار.

الآية (٨٣): ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، وهو المنعم المتفضل. ومعنى قوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

تفسير سورة الصافات

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٨٢) آية].

عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمُّنا بالصافات. [رواه أحمد والنسائي، وحسنه الألباني].

الآية (١-٥): عن ابن مسعود قال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ وهي: الملائكة، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكة. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. روى مسلم عن جابر ابن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟!» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يُتِمّون الصفوف المتقدمة، ويَتَراصون في الصف». وقال السُّدي: معنى قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ما زجر الله عنه في القرآن. ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ قال السُّدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات:٥-٦]. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠].

الآية (٦-٨): يخبر تعالى أنه زَيّن السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾، قُرئ بالإضافة وبالبدل[1]، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥]. وقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظًا ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله بما يقوله من شرعه وقدره. ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يُرمَون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها.

الآية (٩-١٠): ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجمًا يُدحرون به ويُزجرون، ويُمنعون من الوصول إلى ذلك. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر؛ كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥]. ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدَر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مستنير.

الآية (١١-١٩): يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيُّما أشد خلقًا هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟! فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقًا منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلِم ينكرون البعث؟! وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؛ كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]. ثم بيّن أنهم خُلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال مجاهد: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن عباس: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد. ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبت -يا محمد- من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب -وهو إعادة الأجسام بعد فنائها- وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد: يستهزئون. ﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تُبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابًا وعظامًا، ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة؛ كما قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: إنما هو أمر واحد من الله، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

الآية (٢٠-٢٤): يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدِمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ. ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير: يعني بأزواجهم: أشباههم وأمثالهم. وعن عمر قال: أشباههم. يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، تُحشر معهم في أماكنهم. ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، كما قال الضحاك. عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون. وقال ابن المبارك: سمعت عثمان بن زائدةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه.

---

(١) قوله: بالبدل، أي على أن (الكواكب) بدل من (زينة)، فتكون (زينة) بالتنوين غير مضافة للكواكب؛ وهي قراءة عاصم وحمزة. أما الإضافة أي: إضافة (زينة) إلى (الكواكب) بدون تنوين فهي قراءة الباقين.

الآية (٢٥-٢٦): يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

الآية (٢٧-٣٢): يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دَرَكات النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۝٤٧ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧، ٤٨] قالوا لهم ههنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنّا كنا أذلّاء وكنتم أعزّاء. وقال مجاهد: يعني: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، [فتنهوننا] عنه [وتبطئوننا] عنه. وقال السُّدي: تأتوننا من قبل الحق، تزينون لنا الباطل، [وتصدوننا] عن الحق. وقال الحسن: إيْ والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه. وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أُمرنا به. ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به، فخالفتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنّا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا.

الآية (٣٣-٣٧): ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: الجميع في النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟! يعنون رسول الله ﷺ. قال الله تعالى تكذيبًا لهم، وردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وأمره كما أخبروا.

الآية (٣٨-٤٧): يقول تعالى مخاطبًا للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:١-٣]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قال قتادة والسدي: يعني الجنة. ثم فسّره بقوله: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ أي: يُخْدَمون ويُرَفّهون ويُنعَّمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٧-١٩]، فنزّه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغَول- وذهابها بالعقل جملة، فقال ههنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مُشرق حسَن بهيّ، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، مِن حُمرة أو سواد أو اصفرار أو كُدُورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غَولًا، وهو وجع البطن-قاله مجاهد- كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها. وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن. وعن السُّدي: لا تغتال عقولهم. وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السُّكْر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزَّهها عن هذه الخصال.

الآية (٤٨-٤٩): ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس. قوله: ﴿عِينٌ﴾ أي: حِسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وصفهن بِتَرَافَةِ الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن: يعني: [مصون] لم تمسه الأيدي. وقال السُّدي: البيض في عشه مكنون. وقال عطاء الخراساني: هو السِّحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السُّدي: بياض البيض حين يُنزع قِشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها.

الآية (٥٠-٥١): يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السُّرُر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعني شيطانًا. وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلامًا تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاونان، وكل منهما يوسوس.

الآية (٥٢-٥٧): ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون! وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القُرَظي: لمجزيّون بأعمالنا؟! وكلاهما صحيح. ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: يعني في وسط الجحيم. وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتّقد. ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول المؤمن مخاطبًا للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، مُحضَر معك في العذاب، ولكنه تفضَّل ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

الآية (٥٨-٦١): ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هذا من كلام المؤمن مُغْبِطًا نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. قال ابن عباس في قول الله لأهل الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩]: قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: لا يموتون فيها، فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإنَّ الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟! قيل: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة.

الآية (٦٢): يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذّ، خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ أي: التي في جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له: الزقوم؛ كقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، يعني الزيتونة.

ويؤيد ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة:٥١-٥٢].

الآية (٦٣): ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [سبب النزول]: قال قتادة: ذُكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ غذَت من النار، ومنها خُلقت. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارًا نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب؛ كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٦٠].

الآية (٦٤-٦٥): قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أصل منبتها في قرار النار.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها. وإنما شبّهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

الآية (٦٦): ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه؟!» [رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٦٧-٧٠): ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: شرب الحميم على الزقوم. وقال في رواية عنه: مزجًا من حميم. وقال غيره: يعني: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي. ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

الآية (٧١-٧٤): يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفَّرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الآية (٧٥-٧٦): لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلًا، فذكر نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة؛ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نُفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى.

الآية (٧٧-٨٢): ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: يُذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله؛ نجعل له لسانَ صدْق يُذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم، فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذِكر لهم، ولا عين ولا أثر، ولا يُعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

الآية (٨٣-٨٧): قال ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الحسن: سليم من الشرك. وقال عروة: لا يكون لعَّانًا. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال قتادة: يعني: ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

الآية (٨٨-٩٨): إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم؛ فإنه كان قد أزِفَ خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلامًا هو حق في نفس الأمر، فَهِموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه. ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾. قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. يعني قتادة أنه نظر في السماء متفكرًا فيما يلهيهم به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف. قال سفيان: يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون[1]، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وقال آخرون: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى. ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: إلى عيدهم. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها -بعد أن خرجوا- في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعامًا قُربانًا لتبارك لهم فيه. قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضربًا باليمين. وقال قتادة: فأقبل عليهم ضربًا باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جُذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون. وقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قال مجاهد: أي يسرعون. وهذه القصة ههنا مختصرة؛ فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة مَن فعَل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟! أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي»؛ تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

الآية (٩٩-١٠٢): يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولادًا مطيعين عوَضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه أولُ ولد بُشّر به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل؛ فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١] أي: يولد له في حياتها ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما. وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعني: شبَّ وارتجل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجَلَدَه وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه. ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصدق -صلوات الله وسلامه عليه- فيما وعد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

(١) الطاعون: وباء معروف، ويقال للمصاب به: طعينٌ، ومطعونٌ. [يراجع القاموس المحيط، مادة (طعن)].

الآية (١٠٣): ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: فلما تشهّدا وذكرا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسۡلَمَا﴾ يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعةً لله وأبيه. قاله مجاهد وعكرمة والسدي. ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أكبّه على وجهه. عن ابن عباس أنه قال: لما أُمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشيطان عند المسعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعالجه ليخلعه، فنُوديَ من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش [رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر].

الآية (١٠٤-١٠٥): قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك وإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السُّدي وغيره أنه أمَرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عند ذلك: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق:٢-٣].

الآية (١٠٦): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أُمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر الله، منقادًا لطاعته؛ ولهذا قال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧].

الآية (١٠٧-١١١): قوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ عن ابن عباس قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثَبِير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وعن عكرمة أنّ ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذرًا أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنتُ أفتيتُه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشًا؛ فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾. والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه فُدي بكبش. وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم -وَلَدَت عامة أهل دارنا-: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنتُ رأيت قرني الكبش، حين دخلت البيت [أي: الكعبة]، فنسيت أن آمرك أن تُخمّرهما، فخمّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت، فاحترقا [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني].

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإن قريشًا توارثوا قرني الكبش الذي فَدَى به إبراهيم خلفًا عن سلف وجيلًا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

الآية (١١٢-١١٣): ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح -وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق. قوله: ﴿نَبِيّٗا﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين. قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ كقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود:٤٨].

الآية (١١٤-١١٦): يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخسّ الأشياء. ثم بعد هذا كله نصَرهم عليهم، وأقرَّ أعينهم منهم، وغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم.

الآية (١١٧-١٢٢): ثم أنزل الله ﷻ على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾ [الأنبياء:٤٨]. وقال ههنا: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: في الأقوال والأفعال ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا.

ثم فسّره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الآية (١٢٣-١٢٤): قال قتادة وابن إسحاق: يقال: إلياس هو إدريس. عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟!

الآية (١٢٥-١٢٦): ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿بَعۡلٗا﴾ يعني: ربًّا. قال قتادة وعكرمة: وهي لغة أهل اليمن. وفي رواية عن قتادة: هي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك» غربي دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه. قوله: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ أي: أتعبدون صنمًا؟! ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

الآية (١٢٧-١٣٢): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الموحدين منهم. قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء جميلًا ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة بني أسد. وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهي قراءة عبد الله بن مسعود. قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره.

الآية (١٣٣-١٣٨): يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته؛ فإنها هلكت مع من هلك من قومها؛ فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلًا ونهارًا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟!

الآية (١٣٩-١٤٢): في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى». قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أي: المملوء بالأمتعة ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين؛ وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يَضِنُّون[1] به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتًا من البحر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يَهْشِمُ له لحمًا، ولا يكسر له عظمًا.

الآية (١٤٣-١٤٦): ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس وقتادة. واختاره ابن جرير. وفي حديث عن ابن عباس: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه أحمد والترمذي، وصححه أحمد شاكر والألباني]. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَيْر: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعني: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقيل: المراد هو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، قاله سعيد بن جبير. ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السُّدي: كهيئة الصبي حين يولد، وهو المنفوس. ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وعن سعيد بن جُبَير: وكل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين. وفي رواية عنه: كل شجرة تَهْلِك من عَامِها فهي من اليقطين. وذكر بعضهم في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخًا بلبه وقشره أيضًا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من حَوَاشي الصَّحْفة [متفق عليه].

الآية (١٤٧-١٤٨): ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أُرسل إليهم أولًا، أُمِر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس - في رواية عنه-: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفًا. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. ولهذا سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد. ﴿فَآمَنُوا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أُرسل إليهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ جميعهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم؛ كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

الآية (١٤٩-١٥٣): يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون؛ أي: من الذكور؛ أي: يَودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول ﷻ: فكيف نسبوا إلى الله القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟! ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾؟! كقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١-٢٢]. ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟! كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة. ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب: فأولًا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا. وجعلوا ذلك الولد أنثى. ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كافٍ في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكرًا عليهم: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أي: أيّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟! كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:٤٠].

(١) يضِنُّون به: يبخلون به؛ والمقصود أنه يعز عليهم إلقاؤه لمعرفتهم بصلاحه.

الآية (١٥٤-١٦٠): ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة على ما تقولونه. ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب مُنزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه؛ فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجوّزُه العقل بالكلية. ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم. وقولهم الباطل بلا علم.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزَّه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوًّا كبيرًا. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل.

الآية (١٦١-١٦٣): يقول تعالى مخاطبًا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُري للنار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٨، ٩] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

الآية (١٦٤-١٦٦): قال تعالى مُنزّهًا للملائكة مما نَسَبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم وأنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعدّاه. قال الضحاك: كان مسروق يَرْوي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [رواه الطحاوي في مُشكِل الآثار، وحسنه الألباني]. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أي: نقف صفوفًا في الطاعة. قال الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ فصفّوا. وفي صحيح مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» الحديث.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: نصطف فنسبّح الرب ونمجّده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الملائكة يسبحون الله عز وجل. وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعني: المصلون، يثبتون بمكانهم من العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

الآية (١٦٧-١٧٠): ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر:٤٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

الآية (١٧١-١٧٥): ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجَّى عباده المؤمنين. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: تكون لهم العاقبة. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل؛ فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

الآية (١٧٦-١٧٩): ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم؛ فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم. قال السُّدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يُصبَّحون، أي: بئس الصباح صباحهم. ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

الآية (١٨٠-١٨٢): ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي: ذي العزة التي لا تُرام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقّيته، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال.

ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص؛ قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن. ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تفسير سورة «ص»

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨٠) آية].

الآية (١-٣): أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد. قال الضحاك: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠] أي: تذكيركم. واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: مخالفة له ومعاندة ومفارقة. ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوا۟﴾ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:١٢] أي: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:١٣].

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ عن ابن عباس: ليس بحين مغاث. وقال محمد ابن كعب: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا[1] للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال مجاهد: ليس بحين فرار ولا إجابة. ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

الآية (٤-٨): ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: أزَعَم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله؛ فإنهم كانوا قد تلقّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ٱمْشُوا۟﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش ... فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ...، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه فجاء النبي ﷺ ... فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم؟ ... وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية». ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرًا؛ فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [رواه ابن جرير، ولأحمد نحوه، وصحح إسناده أحمد شاكر].

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة. قال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش. وقال ابن عباس: يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقًّا أخبرَتْنا به النصارى. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ قال مجاهد وقتادة: كذب. وقال ابن عباس: تخرُّص. ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم؛ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبَّ ما قالوا، وما كذّبوا به، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا.

الآية (٩-١١): ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أي: العزيز الذي لا يُرام جَنابُه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس: يعني طُرق السماء. ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيُهزمون ويُغلبون ويُكبتُون، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة:٥] من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٤، ٤٥].

الآية (١٢-١٦): يقول تعالى مخبرًا عن هؤلاء القرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة، وأكثر أموالًا وأولادًا، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: ما ﴿يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨]، أي: فقد اقتربَت ودَنَتْ وأزِفَت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله ﷻ. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب؛ فإن القط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس: سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]. وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة؛ إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك في الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا. وهذا الذي قاله جيد، والله أعلم.

---

(١) المناص: الملجأ. فالمقصود: لجؤوا إلى التوبة [ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (نوص)].

الآية (١٧): ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بالصبر على أذاهم، ومبشرًا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾. يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس وابن زيد والسدي: الأَيْد: القوة. وقرأ ابن زيد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أُعطي داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قوة في العبادة، وفقهًا في الإسلام. وقد ذُكر لنا أنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر. وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى». وإنه كان أوابًا، وهو الرجّاع إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه.

الآية (١٨-١٩): قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [سبأ:١٠]. وكذلك كانت الطير تسبّح بتسبيحه، وتُرجّع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجّع معه، وتسبّح تبعًا له؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗ﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: مطيع يسبح تبعا له. قال سعيد بن جبير، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: مطيع.

الآية (٢٠): قوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي: جعلنا له ملكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطانًا. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السُّدي: ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان. وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدَّعَى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل -أو قال: المؤمنون والصالحون- وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك. وقال مجاهد أيضًا: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير. وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: «أما بعد».

الآية (٢١-٢٥): قوله: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنها. وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غَلَبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ قال ابن عباس: أي اختبرناه. وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ أي: ساجدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولًا، ثم سجد بعد ذلك. ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال في السجود في «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها [ورواه البخاري]. وعن العَوَّام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠]، فكان داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فسجدها رسول الله ﷺ [رواه البخاري]. وعن أبي سعيد الخدري، قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن[1] الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم». فنزل وسجد، وسجدوا» تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح. قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقُربة يقرّبه الله ﷻ بها، وحُسن مرجع، وهو الدرجات العاليات في الجنة، لتوبته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا» [رواه مسلم].

الآية (٢٦): هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعَّد تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد؛ عن إبراهيم أبي زرعة -وكان قد قرأ الكتاب- أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة؛ فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ﷻ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعَّده في كتابه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾. وقال عكرمة: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر؛ لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السُّدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه الموفق للصواب.

---

(١) التشَزُّن: التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له. [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (شزن)].

الآية (٢٧-٢٩): يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثًا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الذين لا يرون بعثًا ولا معادًا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدّة لهم. ثم بيّن تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء؛ فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعيَّن أن هناك دارًا أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب. قال الحسن البصري: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى له القرآنُ في خُلق ولا عمل.

الآية (٣٠-٣٣): يقول تعالى مخبرًا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيًّا، كما قال ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره. قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي: إذ عُرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرفِ حافرِ الرابعة. والجياد: السراع. ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من المفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا، كما شُغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب. ويحتمل أنه كان سائغًا في ملّتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال. ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليكِ. ثم أَمر بها فعُقرت. وقال السُّدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حُبًّا لها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة[1]، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبًا لله ﷻ بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوَّضه الله تعالى ما هو خير منها، وهي الريح التي تجري بأمره رُخاء حيث أصاب، غدوُّها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

الآية (٣٤-٤٠): ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: يعني شيطانًا ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأُبَّهته. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ قال بعضهم: معناه: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه. والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكًا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة -أو كلمة نحوها- ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ قال روح: فرده خاسئا» [متفق عليه]. ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال الحسن البصري: لما عقر سليمان الخيل غضبًا لله ﷻ عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر. ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد من البلاد. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: موثَّقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى. ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. ولما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان في الدنيا نبَّه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضًا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

الآية (٤١-٤٢): يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله ورسوله. فلما طال المطال، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، وفي هذه الآية قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قيل: بنصبٍ في بدني وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينًا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عينًا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا قال: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

---

(١) العرقبة: قطع عرقوب الفرس أو الدابة. والعرقوب: الوتر الذي خلف الكعبين بين مفصل القدم والساق من ذوات الأربع، وهو من الإنسان فويق العقب. [ينظر النهاية في غريب الحديث، مادة (عرقب)].

الآية (٤٣-٤٤): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به، على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة. ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وذلك أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها في أمرٍ فعَلَتْهُ. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تُقابَل بالضرب، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثًا -وهو: الشِّمراخ[1]- فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد بَرّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

الآية (٤٥): يقول تعالى مخبرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. قال ابن عباس: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ يقول: أولي القوة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ يعني: القوة في طاعة الله ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني: البصر في الحق. وقال قتادة والسدي: أعطُوا قوة في العبادة وبَصرًا في الدين.

الآية (٤٦-٤٨): قوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرها. وقال مالك ابن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وقال سعيد بن جُبَيْر: يعني بالدار: الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ عقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يُذَكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصةً أفضل شيء في الدار الآخرة. ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون. ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته ههنا.

الآية (٤٩-٥٣): ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر. وقال السُّدي: يعني القرآن. ثم يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أي: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين فيها على سُرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨]. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويات في السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

الآية (٥٤): ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨] أي: غير مقطوع، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

الآية (٥٥-٦٠): لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثَنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال ﷻ: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسّره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾: ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه. ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، يعني: بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي: داخل معكم، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير.

الآية (٦١): ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كما قال ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]، أي: لكل منكم عذاب بحسبه.

---

(١) الشمراخ هو: عذق النخل؛ وهو مجموع القضبان التي يكون عليها البسر أو الرطب أو التمر.

الآيــة (٦٢): ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ هــذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالًا كانوا يعتقدون أنهم على الضــلالة -وهــم المؤمنــون- في زعمهــم، قــالوا: مــا لنــا لا نــراهم معنا في النار؟! قال مجاهد: هذا قول أبي جهــل، يقــول: مــا لي لا أرى بلالًا وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا.

وهذا مثَلٌ ضُرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم؛ يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾.

الآية (٦٣): قوله: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ يُسلّون أنفسهم بالمحال؛ يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٤-٤٩].

الآية (٦٤): قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد -من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض- لحقٌّ لا مرية فيه ولا شك.

الآية (٦٥): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر، لستُ كما تزعمون. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

الآية (٦٦): ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه.

﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: غفار مع عزته وعظمته.

الآية (٦٧-٦٨): ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم. ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون. قال مجاهد والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ يعني: القرآن.

الآية (٦٩-٧٠): قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟! يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجَّته ربه في تفضيله عليه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاذ قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعًا، فثوّب بالصلاة فصلى، وتجوّز في صلاته، فلما سلّم قال: «كما أنتم على مصافّكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قُدّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب -أعادها ثلاثًا- فرأيته وضع كفه بين كتفيّ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجُمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سَلْ. قلت: اللهم، إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي وقال: «حسن صحيح» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني]. وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن فإن هذا قد فُسر.

الآية (٧١-٨٣): الاختصام الذي في القرآن هو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ الآيات. هذه القصة ذكرها الله تعالى في سورة «البقرة» وفي أول «الأعراف» وفي سورة «الحجر» و«سبحان» و«الكهف»، وههنا؛ وهي أن الله سبحانه أعلمَ الملائكة قبل خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه سيخلق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر: متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظامًا واحترامًا، وامتثالًا لأمر الله ﷻ. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا؛ كان من الجن، فخانه طبعه وجبلّته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادّعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، في زعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قُدسه، وسماه «إبليس» إعلامًا له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يَعْجَل على من عصاه.

فلما أمِن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥].

الآيـــة (٨٤-٨٥): ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى، وفسّره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق منّي، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السُّدي: هو قسم أقسم الله به. قلت: وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:٦٣].

الآية (٨٦-٨٨): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أُمرت به أدّيته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة. عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم؛ فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [متفق عليه]. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. قال الحسن: يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

تفسير سورة الزمر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٧٥) آية].

[فضل السورة]: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر [رواه النسائي، وصححه الألباني].

الآية (١-٣): يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن العظيم- من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]. وقال ههنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر ﷻ عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة والسدي: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل بردّها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبَوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، تعالى الله عن ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

الآية (٤): ثم بيّن تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه؛ كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٧]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: تعالى وتنزّه وتقدّس عن أن يكون له ولد؛ فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبدٌ لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

الآية (٥): يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا؛ كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضي يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

الآية (٦): قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء -عليها السلام- كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: قدّركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: يكون أحدكم أولًا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يُخلّق فيكون لحمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا، ويُنفخ فيه الروح فيصير خلقًا آخر، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]. وقوله: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة -التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد- وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟! أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

الآية (٧): يقول تعالى مخبرًا عن نفسه تعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]. وفي صحيح مسلم: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا». وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم من فضله. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئًا، بل كلٌّ مُطالَبٌ بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

الآية (٨): قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أندادًا، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلًا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد؛ كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

الآية (٩): ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يقول ﷻ: أمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا؟! لا يستوون عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]، وقال ههنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود: القانت المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس والحسن: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ جوف الليل. وقال منصور: بلغَنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن وقتادة: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أوله وأوسطه وآخره. وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه. عن يحيى البَكَّاء أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، وإنما قال ابن عمر ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه. وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادًا ليضل عن سبيله؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب؛ وهو العقل.

الآية (١٠): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان. وقال عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي: ليس يُوزن لهم ولا يُكال، إنما يُغرف لهم غرفًا. وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يُزادون على ذلك. وقال السُّدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة.

الآية (١١-١٢): ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إنما أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال السُّدي: يعني من أمته ﷺ.

الآية (١٣): يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى.

الآية (١٤-١٥): ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أيضًا تهديد وتَبَرٍّ منهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدًا، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أُسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخسار البيِّن الظاهر الواضح.

الآية (١٦): ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ كما قال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم، ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

الآية (١٧-١٨): قال زيد بن أسلم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي. والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن.

فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه؛ كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥]. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة، والفِطَر المستقيمة.

الآية (١٩): ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِيٌّ تَقْدِرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟! أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له.

الآية (٢٠): أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة، وهي القصور الشاهقة. ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات. عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام» [رواه أحمد، وحسنه الألباني]. وعن سهل ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبي عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: «كما تراءون الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدّقوا الرسل» [رواه أحمد والترمذي، وصححه لغيره الألباني].

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: تسلك الأنهار من خلال ذلك، كما يشاؤون وأين أرادوا. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

الآية (٢١): يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبعهُ عيونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فمن سرّه أن يعود الملح عذبًا فليصعده. وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء. وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعًا ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ﴾ أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ قد خالطه اليُبْس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾ أي: ثم يعود يابسًا يتحطم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزًا شوهاء، والشاب يعود شيخًا هَرِمًا كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير. وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعًا وثمارًا، ثم يكون بعد ذلك حُطامًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

الآية (٢٢): ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الآية (٢٣): ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: ﴿مَّثَانِىَ﴾ ترديد القول ليفهموا عن ربهم ﷻ. وقال عكرمة والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء، زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها. وقال ابن عباس: ﴿مَّثَانِىَ﴾ القرآن يشبه بعضه بعضًا، ويُرَد بعضه على بعض. وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ أن سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، وكقوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين. وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضًا، فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، ذلك معنى آخر. قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه: أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات من أصوات القَيْنات. الثاني: أنهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدًا وبكُيًا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم. الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك. قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله.

الآية (٢٤-٢٦): ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمنًا يوم القيامة؟! كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت:٤٠]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. قوله: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفّي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٧-٢٩): ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بيَّنَّا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن المثل يُقَرّب المعنى إلى الأذهان؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصًا لرجل لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟! أي: لا يستوي هذا وهذا. كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المُخْلِص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟! قال ابن عباس ومجاهد: هذه الآية ضُربت مثلًا للمشرك والمُخْلِص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرًا بيَّنًا جليًّا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا يشركون بالله.

الآية (٣٠-٣١): ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ الآية [آل عمران:١٤٤]. ومعنى هذه الآية: ستُنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المُخْلِصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا؛ فإنه تُعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدي الضال، والضعيف المستكبر. وقال أبو العالية: يعني أهل القبلة. وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر. والصحيح العموم، والله أعلم.

الآية (٣٢): يقول تعالى مخاطبًا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادَّعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدًا، ومع هذا كذَّبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل: كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردُّوا الحق؛ ولهذا قال متوعدًا لهم: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

الآية (٣٣): ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ. وقال السُّدي: هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

وقال ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يعني: محمدًا ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا بالصدق» يعني: الأنبياء، «وصدقوا به» يعني: الأتباع.

وقال مجاهد: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير؛ فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ المسلمون. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

الآية (٣٤-٣٥): ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦].

الآية (٣٦-٣٧): يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ -وقرأ بعضهم: «عباده» - يعني: أنه تعالى يكفي مَن عَبَدَه وتوكل عليه.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني المشركين؛ يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دونه؛ جهلًا منهم وضلالًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: منيع الجناب، لا يُضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه؛ فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقامًا منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

الآية (٣٨): وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ يعني: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: لا تستطيع شيئًا من الأمر. عن ابن عباس مرفوعًا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفَّت الصحف، ورُفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا» [رواه أحمد والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون؛ كما قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤-٥٦].

الآية (٣٩-٤٠): وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غِبَّ ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة، أعاذنا الله منها.

الآية (٤١): يقول تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

الآية (٤٢): ثم قال تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفَظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦٠-٦١]، فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْينْفُضْه بداخلَةِ إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» [متفق عليه].

وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال السُّدي: إلى بقية أجلها.

وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الآية (٤٣): يقول تعالى ذامًّا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير.

الآية (٤٤): ثم قال: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلًّا بعمله.

الآية (٤٥): ثم قال تعالى ذامًّا للمشركين أيضًا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾. ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: نفرَت وكفرَت واستكبَرت؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، أي: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويُسَرُّون.

الآية (٤٦): يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق. ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السر والعلانية.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. روى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألتُ عائشة: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وعن أبي عبد الرحمن قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسًا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون. أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثمًا، أو أجُرَّه إلى مسلم» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٤٧): قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضِعفه معه ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

الآية (٤٨): ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

الآية (٤٩): يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ﷻ وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوَّله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خَصِيصٌ لما خَوَّلني هذا! ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟! مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي: اختبار، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدّعون ما يَدّعون.

الآية (٥٠-٥٢): ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادَّعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا مَنَعهم جَمْعُهُم وما كانوا يكسبون. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرًا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لَعِبَرًا وحُجَجًا.

الآية (٥٣): هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفَرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه. عن ابن عباس أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [رواه البخاري ومسلم]. والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية [الفرقان:٧٠]، فالمراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنَطَنَّ عبدٌ من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، وقال ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤]. وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:١٠] قال الحسن البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!. وقال ابن عباس: قد دعا الله إلى مغفرته مَن زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عُزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤]، ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولًا من هؤلاء: من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]. قال ابن عباس: مَن آيسَ عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحَد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه. وعن شُتَير بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنّ أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرَجًا في سورة الغُرَف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وإنّ أشد آية في كتاب الله تفويضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]. فقال له مسروق: صدقت. وعن أبي الكنود قال: مَرَّ عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاصّ، وهو يذكر الناس، فقال: يا مُذكّر، لِمَ تُقنِّط الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

الآية (٥٤-٥٦): ثم استحثَّ تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسّر المجرم المفرّط في التوبة والإنابة، ويودّ لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

الآية (٥٧-٥٩): ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **أي: تود أن لو أُعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال -ولا ينبئك مثل خبير-: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدُّوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني!» قال: «فيكون له الشكر»** [رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني]. **ولما تمنى أهل الجرائم العَوْدَ إلى الدنيا، وتحسروا على [عدم] تصديق آيات الله واتباع رسله؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.**

الآية (٦٠): **يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسودّ فيه وجوه، وتبيضّ فيه وجوه؛ تسودّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكًا وولدًا ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم. قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلًا، لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبّرهم وإبائهم عن الانقياد للحق. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يُحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويُسقون عصارة أهل النار، ومن طينة الخَبَال»** [رواه أحمد والنسائي والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٦١): **قوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مُزَحزحُون عن كل شر، مُؤمّلون كل خير.**

الآية (٦٢-٦٣): **يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح. وقال السُّدي: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أَزِمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: حُججه وبراهينه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.**

الآية (٦٤-٦٥): **قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [سبب النزول]: ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].**

الآية (٦٦): **قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: أخلِص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدَّقك.**

الآية (٦٧): **﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السُّدي: ما عظموه حق تعظيمه. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبَلَغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إلى آخر الآية.** [متفق عليه]. **وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»** [متفق عليه]. **وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يُمجّد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به!** [رواه مسلم].

الآية (٦٨-٧٠): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم -الذي كان أولًا، وهو الباقي آخرًا- بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يحيي أول مَن يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظامًا ورفاتًا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]. عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «...ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله -أو ينزل الله- مطرا كأنه الطل أو الظل شك نعمان -فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» انفرد بإخراجه مسلم. ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلّغوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

الآية (٧١-٧٢): يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يُساقون إلى النار، وإنما يُساقون سَوقًا عنيفًا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] أي: يُدفعون إليها دفعًا. هذا وهم عِطاش ظِماء؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعُمي، منهم من يمشي على وجهه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعًا، لتُعجّل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشِّقْوة التي كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مُخبرًا عنهم: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١١] أي: بُعدًا لهم وخسارًا. قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبُّركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيَّركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

الآية (٧٣): هذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يُساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتُصّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا، وتلقّتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حُذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨].

الآية (٧٤): يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: الذي كان وعَدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤]. وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قال أبو العالية وقتادة والسدي: أي أرض الجنة. وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

الآية (٧٥): لما ذكر تعالى حُكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلًّا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم مُحدِقُون من حول عرشه المجيد، يسبّحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ونطق الكون أجمعُه - ناطقُه وبهيمُه - لله رب العالمين، بالحمد في حُكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهِدَت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

تفسير سورة غافر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨٥) آية].

[فضل السورة]: قد كره بعض السلف -منهم محمد بن سيرين- أن يقال الحواميم، وإنما يقال: آل حم. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: آل حم ديباج القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن آل حم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات أتأنق فيهن. قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن بُيِّتُّم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون» [مصنف عبد الرزاق، ورواه بنحوه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١-٣): أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته ههنا. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب -وهو القرآن- من الله ذي العزة والعلم، فلا يُرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه. ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله وبغى. وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى، وقال يزيد بن الأصم: يعني: الخير الكثير، وقال عكرمة: ذي المن، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن و[الأنعُم]، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ الآية [إبراهيم:٣٤، والنحل:١٨]. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١]. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس [رواه ابن أبي حاتم وابن جرير].

الآية (٤): يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها؛ كما قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]، وقال ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

الآية (٥-٦): قال تعالى مسلّيًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة مَن سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذَّبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: مَاحَلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟! قد كان شديدًا موجعًا مؤلمًا. قال قتادة: كان والله شديدًا. ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

الآية (٧): يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي: يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: خاشعون له أذلّاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيّض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يُؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله». وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره، فقال:

رَجُلٌ ونَوْرٌ تحت رِجْل يمينه ... والنَّسْرُ للأخرى ولَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». وهذا إسناد جيد: وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم.

الآية (٨-٩): ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة؛ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١] أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا ناقص العمل، فساويناه بكثير العمل، تفضُّلًا منّا ومِنّة. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يُمانَع ولا يُغالَب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي: لطفت به ونجّيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الآية (١٠): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن الكفار: إنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم في غَمَرات النيران يتلظّون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليًا؛ نادوهم نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرَض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة: لَمقتُ الله أهلَ الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبرُ مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة. وهكذا قال ابن جرير.

الآية (١١): ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال ابن مسعود: هذه الآية كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]. وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية. والمقصود: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة؛ كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، فلا يُجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووُقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يُجابون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسِيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم. وفي هذه الآية تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مُقدّمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة؛ فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتًا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وأننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجِيبُوا ألّا سبيل إلى عَودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا.

الآية (١٢-١٤): ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَدُه وتنفيه، فقال: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رُددتم إلى الدنيا؛ كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يُظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومُنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مُشاهَد بالحسّ، من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله ﷻ. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم.

الآية (١٥-١٦): يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها؛ كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٣-٤]، وهذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح. قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقد يقال: إن يوم التلاق هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يُكِنُّهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أي: الجميع في علمه على السواء. ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ في حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟! ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلًا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي هو وحده قد قَهَر كل شيء وغلبه.

الآية (١٧): ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه؛ أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة. ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ -فيما يحكي عن ربه ﷻ- أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» ... إلى أن قال: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسًا واحدة، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

الآية (١٨-١٩): ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ هو: اسم من أسماء يوم القيامة؛ سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٧-٥٨] وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]. ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي. ومعنى ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]. وقال ابن جُرَيْج: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: باكين. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء؛ جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وأنه ﷻ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. وقال الضحاك: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم يرء؛ أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟! وقال السُّدي: أي: من الوسوسة.

الآية (٢٠-٢٢): ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل. وقال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وهذا الذي فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم:٣١]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئًا ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء؛ ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق. ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها.

﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع.

الآية (٢٣-٢٥): يقول تعالى مُسلّيًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشّرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى عليه السلام؛ فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو: وزيره في مملكته ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالًا وتجارة ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مموّهًا كذابًا في أن الله أرسله. وهذه كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية: لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصَروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

الآية (٢٦-٢٧): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ هذا عَزْمٌ من فرعون على قتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتهجم والعناد. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ يخشى فرعونُ أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذَكِّرًا»، يعني: واعظًا، يشفق على الناس من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق، مجرم ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

الآية (٢٨-٢٩): المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطيًّا من آل فرعون. واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠]. وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٢٦]، فأخذت الرجل غضبة لله، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني]، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، اللهم إلا ما رواه عبد الله بن عمرو قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ بمنكبه ودَفَعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [رواه البخاري].

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: ربي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟! ثم تَنَزّل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبًا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم؛ فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون، لكان أمره بيّنًا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله؛ كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، واحذروا نقمة الله إن كذّبتم رسوله. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، رادًّا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون؛ فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة [كما قال له موسى:] ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كذَب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم. وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضًا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧] وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» [متفق عليه].

الآية (٣٠-٣١): هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون، أنه حذّر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر؛ كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حلَّ بهم بأس الله، وما رده عنهم رادّ، ولا صده عنهم صادّ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره.

الآية (٣٢-٣٣): ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يعني: يوم القيامة؛ وسُمّي بذلك، قال بعضهم: لِمَا جاء في حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قُطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضًا. وقال الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هِرَابًا، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة:١٧]. وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم: ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سُمّي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ﴾ [الأعراف:٤٤]، ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار. واختار البغوي أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١١-١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

الآيــة (٣٤): قولــه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى، وهو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عزيز أهل مصر، وكان رسولًا يدعو إلى الله أمة القبط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في فعاله وارتياب قلبه.

الآية (٣٥): ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: والمؤمنون أيضًا يُبغضُون من تكون هذه صفته؛ فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا.

ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

الآية (٣٦-٣٧): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون، وعتوّه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجُرّ المضروب من الطين المشوي؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص:٣٨].

وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال سعيد ابن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طُرُق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وهذا من كفره وتمرده؛ أنه كذّب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسله إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ يعني: إلا في خسار.

الآية (٣٨): يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا كما كذَب فرعون في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

الآية (٣٩-٤٠): ثم زهّدهم في الدنيا التي آثروها على الأخرى، وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد.

الآية (٤١-٤٣): يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: جهل بلا دليل، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ قال السُّدي وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقًا. وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا كذب. وعن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾. قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السُّدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كلًّا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

الآية (٤٤): ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

الآية (٤٥-٤٦): ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما في الآخرة فبالجنة. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم؛ فإنّ أرواحهم تُعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. ولكن ههنا سؤال: وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، روى الإمام أحمد عن عائشة أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعمّ ذلك؟» قالت: هذه اليهودية لا نصنع إليها شيئًا من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذاب القبر. قال: «كذبَت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه. فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصًّا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب. عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرتِ أنكم تُفتنون في قبوركم؟! فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يُفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرتِ أنه أُوحي إليَّ أنكم تُفتنون في القبور؟!». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعدُ يستعيذ من عذاب القبر. [رواه مسلم]. وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلما أوحي إليه في ذلك بخصوصيته استعاذ منه. وقال قتادة في قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحًا ومساء، ما بقيت الدنيا؛ يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخًا ونقمة وصَغَارًا لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يُغدَى بهم ويُراح إلى أن تقوم الساعة. عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عَزَّوَجَلَّ إلى يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين.

الآية (٤٧-٤٩): يخبر تعالى عن تحاجِّ أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة والسادة والكبراء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قسطًا تتحملونه عنا. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئًا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله سبحانه لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] سألوا الخزنة - وهم كالبوابين لأهل النار- أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب.

الآية (٥٠): قالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أي: أَوَما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟! ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نودّ خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم.

ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: إلا في ذهاب، لا يُتقبل ولا يستجاب.

الآية (٥١): أورد ابن جرير عند قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ سؤالًا فقال: قد عُلِم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية؛ كيحيى وزكريا وشعيا. ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟! ثم أجاب عن ذلك بجوابين: أحدهما: أن يكون الخبر خرج عامًا، والمراد به البعض؛ قال: وهذا سائغ في اللغة. الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سُلِّط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذُكِر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام؛ وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويُقرُّ أعينهم ممن آذاهم؛ ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب»؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح و[عادًا] وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدًا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدًا. وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذَّبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سَرَاتَهم، فاستاقهم مُقرَّنين في الأصفاد، ثم مَنَّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرَّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

الآية (٥٢-٥٥): قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾. ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم المشركون ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ أي: لا يُقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي: الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي النار. قاله السُّدي، بئس المنزل والمقيل. وقال ابن عباس: أي: سوء العاقبة. ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى عليه السلام. وفي الكتاب الذي أورثوه -وهو التوراة- ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهي: العقول الصحيحة السليمة. قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ أي: يا محمد ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي: وعدناك أنا سنُعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

الآية (٥٦): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشُّبَه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، أو: من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

الآية (٥٧): يقول تعالى منبهًا على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلْقُهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادًا وكفرًا وعنادًا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

الآية (٥٨): ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

الآية (٥٩): قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

الآية (٦٠): هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب. عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [رواه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله ﷻ غضب الله عليه» وهذا إسناد لا بأس به.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّرّ في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار، حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٦١): يقول تعالى ممتنًّا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

الآية (٦٢): ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة منحوتة.

الآية (٦٣): قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أُفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

الآية (٦٤): قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها مستقرًا لكم، بساطًا مهادًا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا للعالم محفوظًا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب في الدنيا.

فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق؛ فهو الخالق الرازق؛ كما قال في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] وقال ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدّس وتنزّه رب العالمين كلهم.

الآية (٦٥): ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلًا وأبدًا، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له.

﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: موحدين له مُقرّين بأنه لا إله إلا هو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملًا بهذه الآية. ثم روى عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

عن محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله ﷺ يُهلّ بهن دبر كل صلاة. رواه مسلم.

الآية (٦٦): ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه؛ من الأصنام والأنداد والأوثان.

الآية (٦٧): بيَّن تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطًا، ومنهم من يتوفى صغيرًا، وشابًّا، وكهلًا قبل الشيخوخة؛ كقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج:٥] وقال ههنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج: تتذكرون البعث.

الآية (٦٨): قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان.

الآية (٦٩-٧٠): يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرَف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جَلَّجَلَالُهُ لهؤلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥].

الآية (٧١-٧٢): قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤]. وقال بعد ذكْره أكلَهم الزقوم وشربَهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة:٤١- ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:٤٣-٥٠]، أي: قال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكُّم والاستهزاء بهم.

الآية (٧٣-٧٤): قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟! هل ينصرونكم اليوم؟! ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: جحدوا عبادتهم؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الآية (٧٥-٧٦): قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشَرِكم وبَطَرِكم.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس الْـمَنزلُ والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُججه.

الآية (٧٧): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجَعْل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: في الدنيا، وكذلك وقع؛ فإن الله أقر أعينهم مِن كُبرائهم وعُظمائهم؛ أُبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ. وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

الآية (٧٨): **ثم قال مسليًا له:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ **كما قال في «سورة النساء» سواء[1]؛ أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة،** ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ **وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف.**

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ **أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به.** ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ **وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين** ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ **فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال:** ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

الآية (٧٩-٨٠): **يقول تعالى ممتنًا على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم،** ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧٢]؛ **فالإبل تُركب وتؤكل وتُحلب، ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويُشرب لبنها، وتُحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويُشرب لبنها. والجميع تُجزّ أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيُتّخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، ولهذا قال ههنا:** ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

الآية (٨١): **قوله:** ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ **أي: حُججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم،** ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾**؟! أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.**

الآية (٨٢-٨٣): **يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثّروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.**

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُبعث ولن نُعذّب. وقال السُّدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ **أي: أحاط بهم** ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ **أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه.**

الآية (٨٤): ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ **أي: عاينوا وقوع العذاب بهم،** ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ **أي: وحّدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق:** ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، **قال الله تعالى:** ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] **أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال:** ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

الآية (٨٥): **قال:** ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ **أي: هذا حكم الله في جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يُقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال:** ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

---

(١) **يعني قوله تعالى:** ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. الجزء السادس، صفحة: ١٠٤.

تفسير سورة فصلت

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٤) آية].

[فضل السورة[1]]: **عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثًا من ذوات الر». فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثًا من ذوات حم»** [رواه أحمد وأبو داود، وابن حبان واللفظ له، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (١-٤): ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني: القرآن مُنزل من الرحمن الرحيم؛ كقوله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بُيّنت معانيه وأُحكمت أحكامه، ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: في حال كونه لفظًا عربيًّا، بيّنًا واضحًا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة؛ كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢]. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيانَ والوضوحَ العلماءُ الراسخون. ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين. ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه.

الآية (٥): ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أي: في غُلُف مغطّاة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صمم عما جئتنا به ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك. عن محمد بن كعب القُرَظي قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة...جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي... إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه...حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال:...فاستمع مني: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه.

الآية (٦): ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

الآية (٧-٨): ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وهذا كقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]. والمراد بالزكاة ههنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقًا إلى استعماله في الطاعات. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورًا به في ابتداء البعثة؛ كقوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، فأما الزكاة ذات النُّصب والمقادير فإنما بُيِّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعًا بين القولين. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ قال مجاهد: لا مقطوع ولا مجبوب؛ كقوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ [الكهف:٣]، وكقوله تعالى ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود:١٠٨].

الآية (٩-١٠): هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ أي: نُظَراء وأمثالًا تعبدونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] ففي هذه الآية أن دحى الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحي هو مفسر بقوله: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس، يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهُما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال مجاهد وعكرمة في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾: جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها. وقال ابن عباس في قوله: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: أي: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدّر له ما هو محتاج إليه.

الآية (١١): ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خُلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي. وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير. ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعًا مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلًا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

---

(١) ذكر ابن كثير -رحمه الله- في أول سورة غافر (ص٤٦٧) بعض ما ورد في فضائل آل حم، ولم يذكر الحديث الذي أضفناه هنا.

الآية (١٢): ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ أي: ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

الآية (١٣): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلّت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما.

الآية (١٤): قوله: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف:٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ أي: لو أرسل الله رسلًا لكانوا ملائكة من عنده.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

الآية (١٥): قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ أي: منوا[1] بشدة تركيبهم وقُواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله!

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟! فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركّب فيها قواها الحاملة لها، وإنّ بطشه شديد؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله.

الآية (١٦): قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحًا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدًّا؛ كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة:٦] أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرًا»[2] لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي: متتابعات[3]؛ ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة:٧] وكقوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر:١٩] أي: ابتُدِئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أي: أشد خزيًا لهم، ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

الآية (١٧): وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: بيَّنَّا لهم. وقال الثوري: دعوناهم. ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بصّرناهم، وبيَّنَّا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فخالفوه وكذَّبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم.

﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وهوانًا وعذابًا ونكالًا. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود.

الآية (١٨): ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بإيمانهم، وتقواهم لله عَزَّوَجَلَّ.

الآية (١٩): يقول تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم:٨٦]، أي: عطاشًا.

الآية (٢٠): وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: وُقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه؛ لا يُكْتَم منه حرف.

---

(١) تحتمل أن تكون: (مُنُوا) أي: أُبتُلوا وفُتِنوا؛ تقول: مُني بكذا أي: أُبتُلي به [القاموس المحيط مادة (مني)]. وتحتمل أن تكون: (مَنُّوا) أي: تَقَوَّوا؛ من المُنَّة بمعنى القوة. [القاموس المحيط، مادة (منن)].

(٢) أحد روافد نهر الفرات، يقال له أيضًا: نهر الملك، ونهر عيسى. وصرصر في الأصل قريتان من سواد بغداد، وإليهما يُنسب النهر. [ينظر: معجم البلدان: (٣/ ٤٠١، و٤/ ٢٤١)].

(٣) من معاني (نحس): التتابع؛ تقول: تنحَّسَ الأخبار أي: تتبعها. وعلى التفسير الثاني تكون (نحسات) من النَّحْس: ضد السَّعْد [ينظر القاموس المحيط، مادة (نحس)].

الآية (٢١): ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يُخالَف ولا يُمانَع، وإليه ترجعون. عن أنس بن مالك قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسَّم، فقال: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟!» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة؛ يقول: أي ربي! أليس وعدتني ألّا تظلمني؟! قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهدًا إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أوَليس كفى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارًا». قال: «فيُختَم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحقًا، عنكُنّ كنت أجادل» [رواه مسلم].

الآية (٢٢): ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتّمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الآية (٢٣): ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: هذا الظن الفاسد -وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون- هو الذي أتلَفكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم. [سبب النزول]: عن عبد الله[1] قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشي، وختَناه[2] ثقفيّان -أو: ثقفي وختَناه قُرشيان- كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئًا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [متفق عليه].

الآية (٢٤): قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارًا فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات. قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم، قال: وهذا كقوله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

الآية (٢٥): يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: حَسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧]. قوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب كما حق على أُمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: استوَوا هم وإياهم في الخسار والدمار.

الآية (٢٦): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: إذا تُلي لا تستمعوا له. قال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قريش تفعله. وقال ابن عباس: عِيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

الآية (٢٧-٢٨): قال تعالى منتصرًا للقرآن، ومنتقمًا ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بِشَرِّ أعمالهم وسيِّئ أفعالهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

الآية (٢٩): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ قال سفيان الثوري عن علي في قوله: ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. وقال السُّدي عنه: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: «ما قُتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل» [متفق عليه]. قوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابًا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] أي: إنه تعالى قد أعطى كلًا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

---

(١) هو عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) الخَتَن: الصهر، أو: كل من كان من قبل المرأة؛ كالأب والأخ. [القاموس المحيط، مادة (ختن)].

الآية (٣٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرخص[1]؟ قال قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا -والله- لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال ابن عباس: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على أداء فرائضه. وقال قتادة: وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: أخلصوا له العمل والدين. عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم» [رواه مسلم].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي: مما تُقْدِمُون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ أي: على ما خَلَّفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دَين؛ فإنا نَخْلُفكم فيه. ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يُبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدًّا. وهو الواقع.

الآية (٣١-٣٢): ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم؛ أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقرّ به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم. ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعامًا من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر وستر، ورحم ولطف.

الآية (٣٣): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال محمد بن سيرين والسدي. وقيل: المراد بها المؤذّنون الصُّلَحاء. والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصري: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خِيَرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله.

الآية (٣٤): ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه. ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه؛ كما قال عمر: ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي: إذا أحسنتَ إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك.

الآية (٣٥): ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك؛ فإنه يشق على النفوس. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والأخرى. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم.

الآية (٣٦): ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلّطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه كفّه عنك وردَّ كيده.

الآية (٣٧-٣٨): يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره؛ فإنه لا يغفر أن يُشرَك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾؛ كقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

(١) أي: أكثر رخصة.

الآية (٣٩): قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية (٤٠): قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ أي: أنه تعالى عالم بمن يُلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟! أي: أيستوي هذا وهذا؟! لا يستويان.

ثم قال ﷻ تهديدًا للكفرة: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء: وعيد؛ أي: من خير أو شر، إنه عليم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الآية (٤١): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة: وهو القرآن. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع الجناب، لا يُرام أن يأتي أحد بمثله.

الآية (٤٢): ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه مُنزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

الآية (٤٣): ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كُذِّبتَ فقد كُذِّبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لمن تاب إليه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

الآية (٤٤): لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبَّه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنُّت؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأْتُهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنُّت والعناد: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: لقالوا: هلَّا أُنزل مفصلًا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك فقالوا: أعجمي وعربي؟! أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟! هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: هلَّا أُنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله: (أعجمي)، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هُدًى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. وقال الضحاك: يُنادَون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

الآية (٤٥): قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّب وأوذي، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى أجل مسمى بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجَّل لهم العذاب، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجَّهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

الآية (٤٦): يقول تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدًا إلا بذنبه، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

الآية (٤٧): ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ -وهو سيد البشر- لجبريل -وهو من سادات الملائكة- حين سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [رواه مسلم]، وكما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يَعْزُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال جَلَّتْ عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، وقال ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة يُنَادِي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عَبَدْتُمُوهم معي؟! ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أَعْلَمْنَاكَ ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحدٌ مِنَّا اليوم يشهد أن معك شريكًا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذَهَبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظنَّ المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا مَحِيدَ لهم عن عذاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

الآية (٤٩-٥١): يقول تعالى: لا يَمَلُّ الإنسان من دعائه ربَّه بالخير وهو: المال وصِحَّة الجسم وغير ذلك، وإن مَسَّهُ الشَّرُّ -وهو: البلاء أو الفقر- ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يَتَهَيَّأُ له بعد هذا خير. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شِدَّة ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ إني كنت أَسْتَحِقُّه عند ربي، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمةً يَفْخَر ويَبْطَر ويكفر؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦-٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثَمَّ مَعادٌ فلَيُحْسِنَنَّ إليَّ ربي، كما أَحْسَنَ إليَّ في هذه الدار؛ يَتَمَنَّى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعَدَم اليقين.

قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَتَهَدَّدُ تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: أَعْرَضَ عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات:٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: يُطِيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لَفْظُه وقَلَّ معناه، والوجيز: عَكْسه، وهو: ما قَلَّ ودَلَّ. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس:١٢].

الآية (٥٢-٥٤): يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ أي: كيف ترون حالكم عند الذي أَنْزَلَه على رسوله؟! ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟! أي: في كُفْرٍ وعِنَادٍ ومُشَاقَّةٍ للحقِّ، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: سنُظْهِرُ لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقًّا منزَّلًا من عند الله ﷻ على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد والحسن والسُّدِّي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بهم؛ نَصَرَ الله فيها محمدًا وصَحْبَه، وخَذَلَ فيها الباطل وحِزْبَه.

ويُحْتَمَلُ أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مُرَكَّبٌ منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في عِلْم التَّشْرِيح الدَّال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسَن وقبيح وبين ذلك، وما هو مُتَصَرِّف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحِيَله وحذره أن يجوزها، ولا يَتَعدَّاها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كفى بالله شهيدًا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يَشْهَد أن محمدًا صادق فيما أَخْبَرَ به عنه.

كما قال: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شَكٍّ من قيام الساعة؛ ولهذا لا يَتَفَكَّرُون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يَعْبَؤُون به، وهو واقع لا ريبَ فيه وكائن لا محالة.

ثم قال تعالى -مُقَرِّرًا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى-: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قَهْرِه وفي قبضته، وتحت طَيِّ علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

تفسير سورة الشورى

وهي مكية. [وعدد آياتها (٥٣) آيةً].

الآية (١-٦): قد تقدَّم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: كما أَنزلَ إليك هذا القرآن كذلك أَنزلَ الكتب والصُّحُف على الأنبياء قبلك.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَس -وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ- فيَفْصِمُ عني وقد وَعَيتُ ما قال، وأحيانًا يأتيني المَلَك رَجُلًا فيُكَلِّمُني، فَأَعِي ما يقول» قالت عائشة: فلقد رأيتُه يَنْزل عليه الوَحْيُ في اليوم الشديد البَرْدِ، فيَفْصِمُ عنه، وإن جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا [متفق عليه].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الجميع عبيد له ومُلْك له، تحت قَهْرِهِ وتصريفه.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، **﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾** [سبأ:٢٣]، **والآيات في هذا كثيرة.**

وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسُّدِّي: أي فَرَقًا من العظمة. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر:٧].

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتَنْوِيهٌ به.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: المشركين.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: شهيد على أعمالهم، يُحصِيْها ويَعُدُّهَا عَدًّا، وسيجزيهم بها أوفرَ الجزاء، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [هود:١٢].

الآية (٧-٨): يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: واضحًا جليًّا بَيِّنًا.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقًا وغربًا، وسُمِّيتْ مكة «أم القرى» لأنها أَشْرَف من سائر البلاد، لأدلةٍ كثيرة مذكورة في مواضعها.

ومن أوجز ذلك وأَدَلِّهِ ما رُوي عن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء الزهري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول -وهو واقف بالحَزْوَرَةِ في سوق مكة-: «والله إنكِ لَخَيْرُ أرض الله، وأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منك ما خَرَجْتُ» [رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني]. **وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.**

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ في وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾؛ كقوله: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩] **أي: يَغْبِنُ أهلُ الجنة أهلَ النار**(١)**، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾** [هود:١٠٣-١٠٥].

وعن عبد الله بن عمرو، قال: خَرَجَ علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلَّا أن تُخْبِرَنا يا رسول الله، قال للذي في يده اليُمنى: «هذا كتاب من ربِّ العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أَجْمَلَ على آخرهم، لا يُزَادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبدًا» ثم قال للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أَجْمَلَ على آخرهم، لا يُزَادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبدًا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأيِّ شيءٍ إذًا نَعمَل إن كان هذا أَمْرٌ قد فُرِغَ منه؟! فقال رسول الله ﷺ: «سَدِّدُوا وقاربوا؛ فإنّ صاحب الجنة يُخْتَمُ له بعمل الجنة، وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَل، وإنّ صاحب النار يُخْتَمُ له بعمل النار، وإنْ عَمِلَ أيَّ عَمَل» ثم قال بيده فقَبَضَها، ثم قال: «فَرَغَ ربكم ﷻ من العباد» ثم قال باليمنى فنَبَذَ بها فقال: «فريق في الجنة»، ونَبَذَ باليسرى فقال: «فريق في السعير» [رواه أحمد والترمذي والنسائي، وحسّنه الألباني].

وعن أبي نضرة، أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ -يُقَال له: أبو عبد الله- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قَبَضَ بيمينه قَبْضَةً، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أُبَالِي» فلا أدري في أَيِّ القَبْضَتين أنا. [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وأحاديث القَدَر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدًّا.

وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: إما على الهداية أو على الضَّلالة، ولكنه تعالى فاوتَ بينهم، فهَدَى من يشاء إلى الحقِّ، وأَضَلَّ من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الآية (٩-١٠): يقول تعالى مُنكِرًا على المشركين في اتِّخاذهم آلهةً من دون الله، ومُخبرًا أنه هو الولي الحقُّ الذي لا تَنبَغي العبادة إلا له وحده؛ فإنه القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير.

ثُم قال ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ؛ كقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: أَرْجِعُ إليه في جميع الأمور.

---

(١) أي: يستنقصون عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان. [لسان العرب، مادة (غبن)].

الآية (١١-١٢): ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جِنسِكم وشَكْلكم، مِنَّةً عليكم وتفضُّلًا جَعَل من جنسكم ذَكَرًا وأنثى.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخَلَقَ لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواج.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخَلْق على هذه الصفة لا يزال يَذْرَؤُكم فيه ذكورًا وإناثًا، خَلْقًا من بعد خَلْق، وجيلًا بعد جيل، ونَسْلًا بعد نَسْل، من الناس والأنعام.

وقال البغوي: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرَّحِم. وقيل: في البَطْن. وقيل: في هذا الوَجْه من الخِلْقَة. قال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل من الناس والأنعام.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفَرْدُ الصَّمَد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم تفسيره في «سورة الزُّمَر»(١)، وحاصل ذلك أنه المُتَصَرِّف الحاكم فيهما.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع على من يشاء، ويُضَيِّقُ على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الآية (١٣-١٤): يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فذَكَرَ أَوَّل الرُّسُل بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذَكَر مَن بين ذلك مِن أُولِي العَزْم وهم: إبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهذه الآية انتظمت ذِكر الخمسة كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب:٧].

والدِّين الذي جاءت به الرُّسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وفي الحديث: «نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلَّاتٍ، ديننا واحد» [متفق عليه]. أي: القَدْر المُشْتَرَك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختَلَفَت شرائعهم ومناهجهم؛ كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: وَصَّى الله تعالى جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالائتلاف والجماعة، ونَهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شَقَّ عليهم وأنكروا ما تَدْعُوهم إليه يا محمد من التوحيد.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يُقدِّر الهداية لمن يَسْتَحِقُّها، ويَكتُب الضلالة على من آثَرَها على طريق الرُّشْد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: إنَّما كان مخالفتهم للحقِّ بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حَمَلَهم على ذلك إلا البَغْيُ والعِنَادُ والمشاقَّة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعَجَّلَ لهم العقوبة في الدنيا سريعًا: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذِّب للحقِّ.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: ليسوا على يقين مِن أَمْرِهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم في حَيْرَة من أمرهم، وشكٍّ مُرِيب، وشِقَاق بعيد.

الآية (١٥): اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مُسْتَقِلَّات، كل منها مُنْفَصِلة عن التي قَبلها، حُكْمٌ برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي؛ فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه.

قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدِّين الذي وَصَّيْنا به جميع المرسلين قَبْلَك أصحاب الشرائع الكبار المُتَّبَعَة كأولي العَزْم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتَّبَعَك على عبادة الله، كما أَمَرَكم الله ﷻ.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكَذَبُوه وافتروه من عبادة الأوثان. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: صَدَّقْتُ بجميع الكُتُب المُنْزَلَة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أَمَرَني الله.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نُقِرُّ بذلك اختيارًا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا، فله يَسْجُدُ من في العالمين طَوْعًا واختيارًا.

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن بَرَآءُ منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السُّدِّي: وذلك قبل نزول آية السَّيف. وهذا مُتَّجِهٌ؛ لأن هذه الآية مكِّيَّة، وآية السَّيف بعد الهجرة.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة؛ كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦].

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

---

(١) صفحة ٤٦٥.

الآية (١٦-١٨): يقول تعالى مُتَوَعِّدًا الذين يَصُدُّون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليَصُدُّوهم عمَّا سَلَكُوه من طريق الهدى. ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس ومجاهد: جَادَلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليَصُدُّوهم عن الهدى، وطَمِعُوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى؛ قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كَذَبُوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني: الكُتُب المُنْزَلة من عنده على أنبيائه، ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وهو: العَدْل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة. وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِى ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧-٩]. وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

وقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا، وكُفْرًا وعِنَادًا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أي: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي: كائنةٌ لا محالة، فهم مُسْتَعِدُّون لها عاملون من أجلها. وقد رُوي من طرق تَبلُغ درجة التواتر، في الصِّحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوريٍّ، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد. فقال له النبي ﷺ نحوًا من صوته «هَاؤُم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وَيْحَكَ، إنها كائنة، فما أَعْدَدْتَ لها؟». فقال: حُبُّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أَحْبَبْتَ» [متفق عليه]. فقوله: «المرء مع من أَحَبَّ» متواتر لا محالة، والغرض: أنه لم يُجِبْهُ عن وقت الساعة، بل أَمَرَهُ بالاستعداد لها. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يُحَاجُّون في وجودها ويدفعون وقوعها.

﴿لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في جَهْلٍ بيِّن؛ لأن الذي خَلَق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأَحْرَى؛ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم:٢٧].

الآية (١٩-٢٢): يقول تعالى مُخْبِرًا عن لُطْفِه بخَلْقِه في رِزْقِه إيَّاهم عن آخرهم، لا ينسى أحدًا منهم، سواء في رزقه البَرُّ والفاجر؛ كقوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ولها نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُوَسِّعُ على من يشاء، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء. ثم قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: عَمَل الآخرة. ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦ﴾ أي: نُقَوِّيه ونُعِينه على ما هو بصَدَده، ونُكْثِر نماءه، ونجزيه بالحسنة عَشْرِ أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان إنَّما سَعيُه ليَحْصُل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هَمٌّ أَلْبَتَّة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يَحْصُل له لا هذه ولا هذه، وفَازَ السَّاعِي بهذه النِّيَّة بالصَّفْقَة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في «سبحان»؛ وهي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلًا﴾ [الإسراء:١٨-٢١]. عن أُبَيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرْ هذه الأمة بالسَّنَاء والرِّفْعَة، والنَّصْرِ والتَّمكين في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

وقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: هم لا يَتَّبِعُون ما شَرَع الله لك من الدين القويم، بل يَتَّبِعُون ما شَرَع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حَرَّموا عليهم، من البَحِيرَة والسَّائِبَة والوَصِيلَة والحَام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثَبَت أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ عمرو بن لُحَيِّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه[1] في النار؛ لأنه أول من سَيَّبَ السوائب» [متفق عليه]. وهو الذي حَمَل قريشًا على عبادة الأصنام، لَعَنَه الله وقَبَّحَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لَعُوجِلُوا بالعقوبة، لولا ما تَقَدَّم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد مُوجِعٌ في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: في عَرَصَات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي: الذي يَخَافون منه واقع بهم لا محالةَ، هذا حالهم يوم مَعَادهم، وهم في هذا الخوف والوَجَل. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فأين هذا من هذا؟! أين من هو في العَرَصَات في الذُّلِّ والهوان والخوف المُحَقَّق عليه بظُلْمه، ممَّن هو في رَوْضَات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذّ، فيما لا عين رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

---

(١) بضم القاف وسكون الصاد؛ أي: أمعاءه. [ينظر: القاموس المحيط، مادة (قصب)].

الآية (٢٣-٢٤): يقول تعالى لَـمَّا ذَكَر رَوْضَات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: هذا حَاصِلٌ لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به. وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنُّصْح لكم مالًا تُعْطُونِيهِ، وإنما أَطْلُب منكم أن تَكُفُّوا شَرَّكُم عني، وتذروني أُبَلِّغْ رسالات ربي، إن لم تَنْصُرُوني فلا تُؤْذُوني بما بيني وبينكم من القرابة. عن ابن عباس: أنه سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قُربَى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بَطْنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلَّا أَنْ تَصِلُوا ما بيني وبينكم من القرابة [رواه البخاري]. وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسُّدِّي وغيرهم. وقول ثانٍ: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تُقَرِّبُكم عند الله زُلْفَى. وروي عن الحسن البصري مثله. وقول ثالث عن سعيد بن جبير ما معناه أنه قال: معنى ذلك أن تَوَدُّوني في قرابتي، أي: تُحْسِنُوا إليهم وتَبَرُّوهم. والحقُّ تفسير الآية بما فَسَّرَها به الإمام حَبرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري. ولا تُنْكَرُ الوَصَاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم؛ فإنهم من ذرِّية طاهرة، من أشرف بيت وُجِدَ على وجه الأرض، فَخْرًا وحَسَبًا ونَسَبًا، ولا سيما إذا كانوا مُتَّبِعِين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الـجَلِيَّة، كما كان عليه سَلَفُهم؛ كالعباس وبَنِيه، وعليٍّ وأهل بيته وذريّته رضي الله عنهم أجمعين.

وعن أبي بكر الصديق، قال: ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته، وقال: والله لَقَرَابة رسول الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي [رواهما البخاري].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضي الله عنهما: والله لإسلامك يـوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسـلم؛ لأن إسـلامك كـان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب. [رواه الحاكم، وصححه الألباني].

فحال الشيخين، رضي الله عنهما، هـو الواجـب عـلى كـل أحـد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين. وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يعمـل حسـنةً ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: أجـرًا وثوابًـا. وقال بعض السلف: مِن ثـواب الحسـنةِ: الحسـنةُ بعـدها، ومِـن جـزاء السـيئةِ: السـيئةُ بعـدها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفـر الكثـير مـن السيئات، ويُكَثِّرُ القليل من الحسنات، فيَسْتُرُ ويَغْفِر، ويُضَاعِفُ فيَشْكُر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لو افتريتَ عليه كذبًا كما يَزعُم هؤلاء الجاهلون، ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لَطَبَعَ على قلبك وسَلَبَكَ ما كان آتاك من القرآن؛ كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] أي: لانتقمنا منه أشدَّ الانتقام، وما قَدَرَ أحد من الناس أن يَحْجِز عنه.

وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُحَقِّقُه ويُثْبِتُه ويُبَيِّنُه ويُوَضِّحُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بحُجَجه وبراهينه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تُكِنُّه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

الآية (٢٥-٢٨): يقول تعالى ممتنًّا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه مِن كَرَمِه وحِلْمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠] وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح». وقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتُم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال السُّدِّي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جَعَلها كقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥]. وحَكى عن بعض أهل العربية أنه جَعَل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر:١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويَتَّبِعُونه، والمعنى الأول أَظْهَر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لـحَمَلَهم ذلك على البَغْي والطغيان من بعضهم على بعض، أَشَرًا وبَطَرًا. وقال قتادة: كان يُقَال: خير العيش ما لا يُلْهيك ولا يُطْغيك. وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك فيُغْني من يَسْتَحِقُّ الغنى، ويُفْقِرُ من يَسْتَحِقُّ الفَقْر. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، يُنَزِّلُه عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه. وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: يَعُمُّ بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو الـمُتَصَرِّف لخلقه بما يَنْفَعهم في دنياهم وأُخْرَاهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يُقَدِّرُه ويفعله.

الآية (٢٩-٣١): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: ذَرَأَ فيهما، أي: في السموات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهذا يَشْمَل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فَرَّقَهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كُلِّه ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يَجْمَع الأوَّلِين والآخِرين وسائر الخلائق في صَعِيد واحد، يُسْمِعُهم الداعي، ويَنْفُذُهم البَصَر، فيَحْكُمُ فيهم بحكمه العدل الحقِّ.

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم -أيها الناس- من المصائب فإنَّما هو عن سيئات تقدَّمت لكم، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فلا يُجَازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]. وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، ما يُصِيبُ المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَب ولا هَمٍّ ولا حَزَن، إلا كَفَّر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يُشَاكها» [متفق عليه].

الآية (٣٢-٣٥): يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسُّدِّي والضحاك، أي: هذه في البحر كالجبال في البر.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أي: التي تسير بالسُّفُن، لو شاء لسَكَّنَها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه [الهواء] بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: ولو شاء لأَهْلَكَ السُّفُن وغَرَّقَها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم. ولو أَخَذَهم بجميع ذنوبهم لأَهْلَكَ كلَّ مَن رَكِبَ البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: لو شاء لأَرْسَلَ الريح قويةً عاتيةً، فأخَذَتْ السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصَرَفَتْها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقةً لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول يتَضَمَّن هلاكها، وهو مناسب للأوَّل، وهو أنه تعالى لو شاء لسَكَّنَ الريح فوَقَفَتْ، أو لقَوَّاه فشَرَدَت وأبقَت وهَلَكت. ولكن مِن لُطْفه ورحمته أنه يُرسِلُه بحسب الحاجة؛ كما يُرسِلُ المطر بقدر الكفاية، ولو أَنْزَلَه كثيرًا جدًّا لـهَدَمَ البنيان، أو قليلًا لَـمَا أَنْبَتَ الزرع والثمار، حتى إنه يُرسِل إلى مثل بلاد مِصْرَ سَيْحًا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مَطَر، ولو أَنْزَل عليهم لـهَدَم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا مَحِيدَ لهم عن بأسِنا ونِقْمَتِنا؛ فإنهم مقهورون بقدرتنا.

الآية (٣٦-٣٩): يقول تعالى مُحَقِّرًا لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تُقَدِّموا الفاني على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذّ في الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليُعِينَهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وقد قدَّمْنا الكلام على الإثم والفواحش في «سورة الأعراف»[1]، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سَجِيَّتُهم تقتضي الصَّفح والعفو عن الناس، ليس سَجِيَّتُهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تُنْتَهَكَ حرمات الله [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتَّبَعوا رُسُله وأطاعوا أَمْرَه، واجتنبوا زَجْرَه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أَعْظَم العبادات لله ﷻ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يُبْرِمُون أمرًا حتى يَتَشَاوروا فيه، ليَتَسَاعَدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها؛ كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولهذا كان -عليه الصلاة السلام- يُشَاوِرُهم في الحروب ونحوها لِيُطَيِّبَ بذلك قلوبهم. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممَّن ظَلَمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أَذِلَّة، بل يقدرون على الانتقام ممَّن بَغَى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عَفَوا، كما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النَّفَر الثمانين الذين قَصَدُوه عام الحديبية، ونَزَلُوا من جبل التَّنْعِيم، فلمَّا قَدَرَ عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام.

الآية (٤٠-٤٣): ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾؛ كقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، فشَرَعَ العَدْل وهو القصاص، ونَدَبَ إلى الفَضْل وهو العفو؛ كقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يَضِيعُ ذلك عند الله كما صَحَّ في الحديث: «وما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلا عِزًّا» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المعتدين، وهو الـمُبْتَدِئُ بالسيئة.

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممَّن ظَلَمهم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي: إنما الـحَرَجُ والعَنَتُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يَبْدَؤُون الناس بالظُّلْم؛ كما جاء في الحديث: «الـمُسْتَبَّان: ما قالا فعلى البادئ، ما لم يَعْتَدِ المظلوم» [رواه مسلم]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجع.

ثم إنه تعالى لَـمَّا ذَمَّ الظلم وأهله وشَرَع القصاص، قال نادبًا إلى العفو والصَّفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صَبَرَ على الأذى وسَتَرَ السيئة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: لمن حقّ الأمور التي أَمَرَ الله بها، أي: لمن الأمورِ المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. عن أبي هريرة، رضي الله عنه أن رجلا شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة» [رواه أحمد، وجود إسناده الألباني].

الآية (٤٤): يقول تعالى مُخْبِرًا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا رادَّ له، وما لم يشأ لم يكن فلا مُوجِد له، وأنه مَن هداه فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له؛ كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]. ثم قال ﷻ مُخْبِرًا عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة تَـمَنَّوا الرَّجْعَة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

---

(١) صفحة ١٥٤، وفيها ذكر الفرق بين الإثم والبغي، ولم يشرح معنى الفواحش. والفحش: كلمة تدل على قبح في شيء وشناعة، وكل شيء جاوز قدره فهو فاحش، ولا يكون ذلك إلا فيما يُتكرَّه. [معجم مقاييس اللغة، مادة (فحش)].

الآية (٤٥-٤٦): ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار، ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: الذي قد اعْتَرَاهم بما أَسْلَفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي يَنْظُرُون إليها مُسَارَقَةً خوفًا منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم ممَّا في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار، فعَدِمُوا لَذَّتَهُم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفُرِّقَ بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فَخَسِرُوهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي. لا خروج لهم منها ولا مَحِيدَ لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم ممَّا هم فيه من العذاب والنَّكال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص.

الآية (٤٧-٤٨): لَـمَّا ذَكَر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حَذَّر منه وأَمَر بالاستعداد له، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أَمَرَ بكونه فإنه كلَمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حِصن تَتَحَصَّنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعِلْمِه وبَصَرِه وقدرته، فلا مَلْجَأَ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة:١٠-١٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]. وقال ههنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنَّما كَلَّفْنَاكَ أن تُبْلِغَهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: جَدْب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدَّم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أَشِرَ وبَطِرَ، وإن أصابته مِحْنَةٌ يَئِسَ وقَنِطَ.

كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تَصَدَّقْنَ فإني رأيتُكُنَّ أكثرَ أهل النار» فقالت امرأة: ولِـمَ يا رسول الله؟ قال: «لِأنَّـكُنَّ تُكْثِرن الشَّكَايَة، وتَكْفُرْنَ العشير، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهن الدَّهْر، ثم تَرَكْتَ يومًا قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قَطّ» [رواه مسلم].

وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألْـهَمَهُ رُشْدَهُ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شَكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَرَ فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [رواه مسلم].

الآية (٤٩-٥٠): يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يُعْطِي من يشاء، ويَمْنَع من يشاء، ولا مانع لِـمَا أعطى، ولا معطي لِـمَا مَنَع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: يرزقه البنات فقط، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط، لم يُولَد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: ويُعطِي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يُولَد له. فجَعَل الناس أربعة أقسام: منهم من يُعطِيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا، ومنهم من يَمْنَعه هذا وهذا، فيَجْعَله عقيمًا لا نَسْلَ له ولا يُولَد له.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يَسْتَحِقُّ كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على [ما] يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١] أي: دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدَّس؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلوق من تراب لا من ذَكَرٍ ولا أنثى، وحواء عَلَيْهَا السَّلَامُ مخلوقة من ذَكَر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذَكَرٍ وأنثى، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثى بلا ذَكَر، فتَمَّت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١] فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكلٌّ منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

الآية (٥١): هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تعالى تارةً يقذِف في رُوْع النبي شيئًا لا يَتَمَارَى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نَفَثَ في رُوعِي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأَجْمِلُوا في الطَّلَب» [رواه ابن حبان والحاكم، وصححه الألباني]. وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ كما كلَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فَحُجِبَ عنها. وفي الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كَلَّمَ الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وإنه كَلَّمَ أباك كفاحًا» الحديث [رواه الترمذي وابن ماجه، وحَسَّنه الألباني]، ولكن قد قُتِلَ يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ كما ينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره من الملائكة على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ فهو عليٌّ عليم خبير حكيم.

---

(١) الحديث ليس في البخاري ولا مسلم، وعادة ابن كثير إذا قال ذلك أن يقصد أنه فيهما أو في أحدهما، فلعل قصده ههنا -خلافًا لعادته- أنه مما صحَّ من الأحاديث.

الآية (٥٢-٥٣): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: على التفصيل الذي شُرِعَ لك في القرآن. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحقُّ القويم، ثم فَسَّرَه بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أي: شَرْعه الذي أَمَرَ به الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ربها ومالكها، والمُتَصَرِّف فيها، الحاكم الذي لا مُعَقِّبَ لحكمه.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

تفسير سورة الزُّخرف

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨٩) آيةً].

الآية (١-٨): ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البيِّن الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نَزَلَ بِلُغَة العَرَب التي هي أفصح اللغات للتَّخَاطُب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بِلُغَة العرب فصيحًا واضحًا. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونه وتَتَدَبَّرُونَه؛ كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ بَيَّنَ شَرَفَه في الملأ الأعلى، لِيُشَرِّفَه ويُعَظِّمَه ويُطِيعَه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشَرَفٍ وفَضْل، قاله قتادة. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ من اللَّبْس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شَرَفِه وفضله؛ كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦].

ولهذا استنبط العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ من هاتين الآيتين أن المُحْدِثَ لا يَمَسُّ المصحف؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأَحْرَى؛ لأنه نَزَلَ عليهم، وخطابه مُتَوَجِّه إليهم، فهم أحقُّ أن يُقَابِلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها: أَتَحْسَبُون أنْ نَصْفَح عنكم فلا نُعَذِّبكم ولم تفعلوا ما أُمِرْتُم به؟! قاله ابن عباس ومجاهد والسُّدِّي، واختاره ابن جرير.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين رَدَّتْه أوائل هذه الأمة لَهَلَكُوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكَرَّرَه عليهم ودعاهم إليه عشرين سنةً، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جدًّا، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يَتْرُكُ دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم -وهو القرآن- وإن كانوا مُسْرِفين معرضين عنه، بل أَمَرَ به ليَهْتَدِي مَن قَدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كَتَبَ شقاوته.

ثم قال تعالى -مُسَلِّيًا لنبيِّه في تكذيب من كَذَّبَه من قومه، وآمرًا له بالصَّبر عليهم-: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في شِيَع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يُكَذِّبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذِّبين بالرسل، وقد كانوا أَشَدَّ بطشًا من هؤلاء المكذِّبين لك يا محمد؛ كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر:٨٢] والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: قال مجاهد: سُنَّتُهُم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عِبْرَتُهُم، أي: جعلناهم عبرةً لِمن بعدهم من المكذِّبين أن يُصِيبَهم ما أصابهم؛ كقوله في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦]، وكقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:٨٥]، وقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

الآية (٩-١٠): يقول تعالى: ولَئِنْ سألتَ -يا محمد- هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لَيَعْتَرِفُنَّ بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فِرَاشًا قرارًا ثابتةً، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طُرُقًا بين الجبال والأودية.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقُطْر إلى قُطْر، وإقليم إلى إقليم.

الآية (١١-١٤): ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بحَسْب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أرضًا ميتةً، فلمَّا جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] ثم نَبَّهَ بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثُمَّ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: ممَّا تُنبِت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السُّفُن، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذَلَّلَهَا لكم وسَخَّرَها ويَسَّرَها لأكلكم لحومها، وشُرْبِكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستووا متمكنين مرتفقين. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سَخَّر لكم، ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس وقتادة والسُّدِّي وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مُطِيقين.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سَيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نَبَّهَ بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

عن علي بن ربيعة قال: رأيت عليًّا أتي بدابَّة، فلمَّا وَضَعَ رجله في الرِّكاب قال: باسم الله. فلمَّا استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثًا، وكَبَّرَ ثلاثًا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمتُ نفسي فاغفر لي» [رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وصححه الألباني].

الآية (١٥-٢٠): قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾: يقول تعالى مُخْبِرًا عن المشركين فيما افتروه وكذَبوه في جَعْلِهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله؛ كما ذكر الله في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦]. [و] قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:٢١]، وقال ههنا: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟! وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثُمَّ ذَكَرَ تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: إذا بُشِّرَ أحد هؤلاء بما جَعَلُوه لله من البنات يَأنَف من ذلك غاية الأنفة، وتَعلُوه كآبة من سوء ما بُشِّرَ به، ويَتَوارى من القوم من خَجَلِه من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتَنْسِبُونه إلى الله ﷻ؟!

ثم قال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: المرأة ناقصة يَكْمُلُ نَقصها بلُبْس الحُليِّ منذ تكون طفلةً، وإذا خاصَمَت فلا عبارةَ لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَمَنْ يكون هكذا يُنْسَبُ إلى جناب الله ﷻ؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيَكْمُل نَقْصُ ظاهرها وصورتها بلُبْس الحُليِّ وما في معناه، ليجبر ما فيها من نَقْص، وأما نَقْص معناها: فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار؛ عند الانتصار لا عبارةَ لها ولا هِمَّة. وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنْكَر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وقد خَلَقَهم الله إناثًا، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أي: بذلك، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي: لو أراد الله لَحَالَ بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله؛ فإنه عالم بذلك وهو يُقَرِّرنا عليه. فجَمَعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جَعْلُهم لله ولدًا، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا. الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا. الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والْخَبْط في الجاهلية الجهلاء. الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَرًا، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلًا كبيرًا؛ فإنه تعالى قد أَنْكَرَ ذلك عليهم أشدَّ الإنكار، فإنه منذ بَعَثَ الرسل وأَنْزَلَ الكُتُب يأْمُر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه؛ قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]. ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويتقوَّلون. وقال مجاهد: أي: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

الآية (٢١-٢٢): يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾؟! أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك؛ كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشِّرْك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أُمَّةٍ، والمراد بها: الدِّين ههنا وفي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: وراءهم، ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

الآية (٢٣-٢٥): ثم بيَّن تعالى أن مقالةَ هؤلاء قد سَبَقَهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذِّبة للرُّسُل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

وهكذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾[1] أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو عَلِمُوا وتيَقَّنُوا صحةَ ما جِئتَهم به، لَـمَا انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحقِّ وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذِّبة بأنواع من العذاب، كما فَصَّلَه تعالى في قصصهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهَلَكوا، وكيف نجَّى الله المؤمنين؟!

الآية (٢٦-٣٣): يقول تعالى مُخْبِرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بُعِثَ بعده من الأنبياء، الذي تَنْتَسِبُ إليه قريش في نَسَبِها ومذهبها: أنه تَبَرَّأَ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخَلْع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذُرِّيَّته يَقْتَدِي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. وقال عكرمة ومجاهد وقتادة، وغيرهم في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذُرِّيَّته من يقولها. ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: المشركين، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: فتَطَاول عليهم العمر في ضلالهم.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن الرسالة والنذارة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بِالصُّدُورِ والرَّاح[2] كفرًا وحَسَدًا وبَغيًا؛ ﴿وَقَالُوا۟﴾ -أي: كالمعترضين على الذي أَنْزَلَه تعالى وتقدَّس-: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلَّا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟! يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة.

وقد ذَكَر غير واحد -منهم قتادة-: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي. وقال زيد بن أسلم والضحاك والسُّدِّي: يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي. وعنه أيضًا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السُّدِّي: عنوا الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان.

قال الله تعالى رادًّا عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟! أي: ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته؛ فإنه لا يُنْزِلُها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا.

ثم قال تعالى مبينًا أنه قد فاوت بين خَلْقِه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قيل: معناه: ليُسَخِّرَ بعضهم بعضًا في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السُّدِّي وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليمْلِكَ بعضهم بعضًا. وهو راجع إلى الأوَّل.

ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم ممَّا بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال؛ هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسُّدِّي وغيرهم.

﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودَرَجًا من فِضَّة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون.

---

(١) اعتمد ابن كثير في تفسيره القراءة بصيغة الأمر: ﴿قُلْ﴾؛ وهي قراءة الجميع عدا ابن عامر وحفص اللذَين قرآها: ﴿قَلَ﴾ على الماضي. [ينظر: فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات، ٤/ ٣٦٩].

(٢) الراح: جمع راحة الكف؛ وهي باطن الكف [ينظر: تاج العروس، مادة (روح)]. وقول ابن كثير: «ودفعوا بالصدور والراح» يقصد به: رفضته قلوبهم، ودفعوا بأيديهم في وجه قائل الحق.

الآية (٣٤-٣٥): ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: أغلاقًا على أبوابهم.

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون فضة.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: وذهبًا قاله ابن عباس وقتادة والسُّدِّي وابن زيد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنَّما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى؛ أي: يُعَجِّلُ لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليُوَافُوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يَجْزِيهم بها، كما وَرَد به الحديث الصحيح[1]. ثم قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصَّةً لا يشاركهم فيها أحد غيرهم. وفي الصحيحين وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضَّة، ولا تأكلوا في صِحَافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». وإنما خوَّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها؛ عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناح بعوضة، ما سَقَى منها كافرًا شَرْبَةَ ماء أبدًا» [رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

الآية (٣٦-٤٥): يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يَتَعَامى ويَتَغَافَل ويُعْرِض، ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ والعَشَا في العين: ضَعْف بصرها. والمراد ههنا: عَشَا البصيرة. ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وكقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نُقَيِّض له من الشياطين من يُضِلُّه، ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله يوم القيامة يَتبَرَّم بالشيطان الذي وُكِّلَ به: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي: فبئسَ القرين كنتَ لي في الدنيا. وقَرَأَ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعني: القَرِين والمُقَارِن. والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل ههنا تغليبًا، كما يُقال: القمران، والعمران، والأبوان. قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: لا يُغْنِي عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وهو الحكم العَدْل في ذلك. ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: لا بدَّ أن نَنْتَقِم منهم ونُعَاقِبَهُم، ولو ذَهَبْتَ أنت، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يَقْبِضِ الله رسوله حتى أَقَرَّ عينه من أعدائه، وحَكَّمَه في نواصيهم، ومَلَّكَهُ ما تَضَمَّنَتْهُ صَيَاصِيهم. هذا معنى قول السُّدِّي، واختاره ابن جرير. وتلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة.

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: خُذْ بالقرآن المُنَزَّل على قلبك؛ فإنه هو الحقُّ، وما يَهدِي إليه هو الحقُّ المُفْضِي إلى صراط الله المستقيم، المُوصِل إلى جَنَّات النعيم، والخير الدائم المُقِيم.

ثم قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لَشَرَف لك ولقومك؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّي وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يَحْكِ سواه. وعن معاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يُنَازِعُهُم فيه أحدٌ إلا أَكَبَّهُ الله على وجهه ما أقاموا الدين» [رواه البخاري]. وقيل: معناه: أنه شَرَف لهم من حيث إنه أُنْزِل بَلُغَتِهم، فهم أَفْهَم الناس له، فينبغي أن يكونوا أَقْوَمَ الناس به وأَعْمَلَهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصَفْوتُهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأوَّلين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم؛ كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾! أي: جميع الرُّسل دعوا إلى ما دعوتَ الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونَهَوا عن عبادة الأصنام والأنداد؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

الآية (٤٦-٤٧): يقول تعالى مُخْبِرًا عن عبده ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه ابْتَعَثَهُ إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القِبْط وبني إسرائيل، يَدعُوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بَعَثَ معه آيات عظامًا، كَيَدِهِ وعَصَاه، وما أَرْسَلَ معه من الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم، ومن نَقْص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كُلِّه استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكَذَّبوها وسَخِروا منها، وضَحِكوا ممَّن جاءهم بها.

---

(١) قال ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» [مسلم، ح ٢٨٠٨].

الآية (٤٨-٥٠): ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رَجَعوا عن غَيِّهم وضلالهم، وجهلهم وخَبَالهم. وكلَّما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويَتَلَطَّفُون له في العبارة بقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: العالِم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السَّحَرة. ولم يكن السِّحْر عندهم في زمانهم مذمومًا، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تُنَاسِب ذلك، وإنما هو تعظيم في زَعْمهم، ففي كل مرة يَعِدُون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنْ كَشَفَ عنهم هذا أن يؤمنوا ويُرْسِلُوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة يَنْكُثُون ما عاهدوا عليه.

الآية (٥١-٥٦): يقول تعالى مُخْبِرًا عن فرعون وتَمَرُّدِه وعُتُوِّه وكفره وعناده: أنه جَمَعَ قومه، فنادى فيهم مُتَبَجِّحًا مُفْتَخِرًا بمُلْك مِصر وتَصَرُّفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؟ قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟! أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والمُلْك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني فرعون -عليه اللعنة- أنه خير من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد كَذَبَ في قوله هذا كذبًا بَيِّنًا واضحًا، فعليه لعائن الله المُتَتَابِعَة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسُّدِّي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا مُلْكَ له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يُفْصِح عن كلامه، فهو عَيِيٌّ حَصِرٌ. قال السُّدِّي: أي: لا يكاد يُفْهِم. وقال قتادة والسُّدِّي وابن جرير: يعني: عَيِيّ اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجَمْرة حين وَضَعَها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون -لعنه الله- كَذِب واختلاق، وإنما حَمَلَه على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعين كافرة شَقِيَّة، وقد كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجلالة والعظمة والبَهَاء في صورة يُبْهِرُ أبصارَ ذوي الألباب.

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كَذِب، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخُلُقًا ودِينًا. وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد.

وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضًا؛ فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صِغَره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَحُلَّ عُقْدةً من لسانه ليَفْقَهُوا قوله، وقد استجاب الله له في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يَسْأَل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يَحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخَلْقيَّة التي ليست من فِعْل العبد لا يُعَابُ بها ولا يُذَمُّ عليها، وفرعون إن كان يَفهَم وله عَقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته؛ فإنهم كانوا جَهَلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: وهي ما يُجْعَل في الأيدي من الحُلِيِّ، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمةً له ويشهَدُون بتصديقه، نَظَر إلى الشَّكْل الظاهر، ولم يَفْهَم السِّرَّ المعنوي الذي هو أَظْهَر ممَّا نَظَر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخفَّ عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أسخطونا. وقال الضحاك عنه: أغضبونا. وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم. عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي العبد ما شاء، وهو مُقِيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [رواه أحمد، وصححه الألباني]. وقال عمر بن عبد العزيز: وجدتُ النِّقْمة مع الغفلة. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ قال أبو مِجلَز: ﴿سَلَفًا﴾ لِمِثْلِ مَن عَمِل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرةً لمن بعدهم.

الآية (٥٧-٦٠): يقول تعالى مُخْبِرًا عن تَعَنُّتِ قريش في كفرهم وتَعَمُّدِهم العناد والجَدَل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يضحكون، أي: أُعْجِبُوا بذلك. وقال قتادة: يَجْزَعُون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يُعْرِضُون.

[سبب النزول]: قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعْبَدُ من دون الله فيه خير»، وقد عَلِمَتْ قريش أن النصارى تَعبُد عيسى ابن مريم... فقالوا: يا محمد، ألستَ تَزعم أن عيسى كان نَبِيًّا وعَبْدًا من عباد الله صالحًا؟! فإن كنت صادقًا كان آلهتهم كما تقولون. قال: فأنزلَ الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقال مجاهد: قالت قريش: إنما يُريد محمد أن نَعْبُدَه كما عَبَدَ قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. يعنون محمدًا ﷺ. وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي: مِرَاءً، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لِمَا لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يُوردوه، فتَعَيَّنَ أن مقالتهم إنما كانت جَدَلًا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقال رسول الله ﷺ: «ما ضَلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أُورِثُوا الجَدَل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما هو إلا عَبْدٌ أَنْعَمَ الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: دلالةً وحجةً وبرهانًا على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بَدَلَكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال السُّدِّي: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس وقتادة: يَخْلُفُ بعضهم بعضًا، كما يخلف بعضكم بعضًا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بَدَلَكُم.

الآية (٦١-٦٥): ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ على الصحيح أنه عائد على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن السياق في ذِكْره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩]، ويُؤَيِّد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة.

وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة وابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم. وقد تَوَاتَرَت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أَخْبَرَ بنزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا، وحَكَمًا مُقْسِطًا.

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تَشُكُّوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أُخْبِرُكم به ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: عن اتباع الحقِّ، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حَسَن جَيِّد، ثم ردَّ قول من زَعَم أن «بعض» ههنا بمعنى «كل».

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أَمَرَكُم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جِئْتُكم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب عَزَّوَجَلَّ وحده.

وقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفِرَق وصاروا شِيَعًا فيه، منهم من يُقِرُّ بأنه عبد الله ورسوله -وهو الحقُّ- ومنهم من يَدَّعِي أنه وَلَد الله، ومنهم من يقول: إنه الله. تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

الآية (٦٦-٧٣): يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذِّبون للرُّسُل ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟! أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدِّين، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذٍ يَندَمُون كل النَّدَم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: صارت كلُّ خُلَّةٍ عداوةً يوم القيامة إلا الـمُتَّقِين.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بَشَّرَهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لِشَرْع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يُبْعَثُون لا يبقى أحد منهم إلا فَزِعَ، فيُنَادي منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيَرجُوها الناس كلُّهم، قال: فيُتْبِعُها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قال: فيَيْأَسُ الناس منها غير المؤمنين. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: يُقَال لهم: ادخلوا الجنة.

﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تنعمون وتسعدون.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: زَبَادِيٍّ آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي: آنية الشراب، أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرًى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: طيبَ الطَّعْم والرِّيح.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وحسَن الْـمَنْظر.

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة.

﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حِوَلًا.

ثم قيل لهم على وجه التَّفَضُّل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سَبَبًا لشمول رحمة الله إيَّاكم؛ فإنه لا يُدْخِلُ أحدًا عملُه الجنَّةَ، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولَـمَّا ذَكَر الله تعالى الطعام والشراب، ذَكَر بعده الفاكهة لِتَتِمّ النعمة والغِبْطَة.

الآية (٧٤-٨٠): لَـمَّا ذَكَر تعالى حال السعداء، ثَنَّى بذِكْر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعةً واحدةً، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كُلِّ خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذَّبُوا وعَصوا، فجُوزُوا بذلك جزاءً وِفَاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو: خازن النار. روى البخاري عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليَقْبِضْ أرواحَنا فيُرِيحَنا ممَّا نحن فيه؛ فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

فلمَّا سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مَكَثَ ألف سنة، ثم قال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي: لا خروج لكم منها ولا مَحِيد لكم عنها. ثم ذَكَر سبب شِقْوَتِهم؛ وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بيَّنَّاه لكم ووضَّحْنَاه وفَسَّرْناه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تَقْبَلُه ولا تُقْبِل عليه، وإنما تَنقاد للباطل وتُعَظِّمه، وتَصدُّ عن الحقِّ وتأباه، وتُبْغِض أهله، فعُودُوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كَيْدَ شَرٍّ فكِدْناهم. وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل:٥٠]؛ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيَّلون في رَدِّ الحقِّ بالباطل بحِيَل ومَكْر يَسْلُكُونه، فكادهم الله، ورَدَّ وَبَالَ ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: سِرَّهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم؛ صغيرها وكبيرها.

الآية (٨١-٨٩): يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: لو فُرِضَ هذا لعَبَدْتُهُ على ذلك؛ لأني عَبْد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فُرِضَ كان هذا، ولكن هذا مُـمْتَنِع في حَقِّه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضًا؛ كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]. وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: الآنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويُقَال: ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الجاحدين، من عَبِدَ يَعْبَدُ. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: أوَّل من عَبَدَه ووَحَّدَه وكذَّبكم. وقال البخاري: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عَابِدٌ وعَبِدٌ. والأوَّل أَقْرَب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو مُـمْتَنِع؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدَّس وتَنَزَّه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد؛ فإنه فَرْد أحد صَمَد، لا نظير له ولا كُفءَ له، ولا وَلَد له.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ أي: في جهلهم وضلالهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو إله مَن في السماء، وإله مَن في الأرض، يعبده أهلها، وكُلُّهم خاضعون له، أذلّاء بين يديه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقهما ومالكهما والـمُتَصَرِّف فيهما، بلا مُدَافَعة ولا مُمَانَعة، فسبحانه وتعالى عن الوَلَد. ﴿وَتَبَارَكَ﴾: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرَّبُّ العَلِيُّ العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أَزِمَّة الأمور نقضًا وإبرامًا، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: لا يجلِّيها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيُجَازي كلًّا بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشَرّ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لكن من شَهِدَ بالحقِّ على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: ولئن سألتَ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممَّن لا يملك شيئًا ولا يَقْدِر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسَخَافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أي: وقال محمد قِيلَهُ؛ أي: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كَذَّبوه، فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ كما أَخْبَرَ تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود ومجاهد وقتادة، وعليه فسَّر ابن جرير. قال البخاري: وقرأ ابن مسعود: «وقال الرسول يا ربِّ». وقال مجاهد في قوله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فَأَبَرَّ الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه ﷻ. وقوله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يُخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تَأَلَّفْهم واصفح عنهم فعلًا وقولًا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أَحَلَّ بهم بأسَه الذي لا يُرَدُّ، وأعلى دينه وكلمته، وشَرَعَ بعد ذلك الجهاد والجِلَاد، حتى دَخَل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

تفسير سورة الدّخان

وهي مكية [وعدد آياتها (٥٩) آيةً].

الآية (١-٨): يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم: أنه أَنْزَلَه في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١] وكان ذلك في شهر رمضان؛ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان -كما روي عن عكرمة- فقد أَبْعَدَ النُّجْعَة؛ فإنّ نَصَّ القرآن أنها في رمضان. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويَضُرُّهم شَرْعًا، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يُفْصَل من اللَّوح المحفوظ إلى الكَتَبَة أَمْر السَّنَة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: مُحْكَم، لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر؛ ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي: جميع ما يكون ويُقدِّره الله تعالى وما يُوحِيه فبأَمْره وإِذْنه وعِلْمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولًا يَتْلو عليهم آيات الله مُبيِّنات، فإن الحاجة كانت مَاسَّة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: الذي أَنزلَ هذا القرآن هو رَبُّ السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مُتحقِّقين. ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية كقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ الآية [الأعراف:١٥٨].

الآية (٩-١٦): يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شكٍّ يلعبون؛ أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشُكُّون فيه ويَمْتَرُون، ولا يُصَدِّقون به، ثم قال مُتَوَعِّدًا لهم ومُهَدِّدًا: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن مسعود: إن قريشًا لَـمَّا أبطَأَتْ عن الإسلام واسْتَعْصَتْ على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كَسِني يوسف، فأصابهم من الـجَهْد والجوع حتى أكلوا العظام والـمَيْتَة، وجَعَلُوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يَرون إلا الدخان -وفي رواية: فجَعَل الرجل ينظر إلى السماء، فيَرَى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد- قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فأُتِيَ رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، اسْتَسْقِ الله لـمُضَر؛ فإنها قد هَلَكَتْ. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأَنْزَل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فلمَّا أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ يعني يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام [متفق عليه]. وقد وافق ابن مسعود -على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى- جماعة من السَّلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير. وقال آخرون: لم يمضِ الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة؛ كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تَرَوا عشر آيات: طلوع الشمس من مَغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قَعْر عدن تسوق الناس -أو: تَحْشُرُ الناس- تَبِيْتُ معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا» تفرد بإخراجه مسلم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّن واضح يراه كلُّ أحد -وعلى ما فَسَّر به ابن مسعود: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد- وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويَعُمُّهم. ولو كان أمرًا خياليًّا يَخُصُّ أهل مكة المشركين لَـمَا قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾. وقوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يُقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولًا بيّن الرسالة والنذارة، ومع هذا تولَّوا عنه وما وافقوه، بل كذَّبوه، ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كَشَفْنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب؛ كقوله جلَّت عظمته: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخِّرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد سَبَبه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرُّون فيما أنتم فيه من الطُّغيان والضَّلال، ولا يَلزَم من الكَشْف عنهم أن يكون باشَرَهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتَّصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أَقْلَعوا عن كفرهم، ثُمَّ عادوا إليه. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾: إلى عذاب الله. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فَسَّرَ ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وروي أيضًا عن ابن عباس من رواية العوفي عنه، وعن أُبَيِّ بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا. وقال ابن عباس: قال ابن مسعود: البَطْشَة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين عنه.

الآية (١٧-١٨): يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبلَ هؤلاء المشركين قومَ فرعون، وهم قِبْط مصر ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أُبَلِّغُكُمُوه.

الآية (١٩-٣٣): ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لـحُجَجِه والإيمان ببراهينه؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحُجَّة ظاهرة واضحة، وهي ما أَرسَلَه الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرَّجْم باللسان وهو الشَّتْم. وقال قتادة: الرَّجْم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خَلَقَني وخَلَقَكم من أن تَصِلُوا إليَّ بسُوء من قول أو فعل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: فلا تَتَعَرَّضُوا لي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مُسَالَـمَةً إلى أن يقضي الله بيننا. فلمَّا طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعِنادًا، دعا ربه عليهم دعوةً نَفَذَتْ فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾[يونس: ٨٨، ٨٩].

وهكذا قال ههنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ فعند ذلك أَمَرَه الله تعالى أن يَخْرُجَ ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أَمْر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

وقوله ههنا: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يَضْرِبَه بعَصَاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يَصِل إليهم. فأَمَرَه الله أن يَتْرُكَه على حاله ساكنًا، وبَشَّرَه بأنهم ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فيه، وأنه لا يَخَاف دَرَكًا ولا يَخْشَى. قال ابن عباس: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: كهيئته وامضِهْ. وقال مجاهد: ﴿رَهْوًا﴾: طريقًا يَبَسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يَرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد.

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر. وقال عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوَّله إلى آخره في الشقين جميعًا، ما بين أسوان إلى رشيد، مُتَّصِلَة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين كُله من أوَّل مِصر إلى آخر ما يَبْلغه الماء، وكانت جميع أرض مِصْر تُرْوَى من ستة عشر ذراعًا، لـما قَدَّرُوا ودَبَّرُوا من قناطرها وجسورها وخُلُجِها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي: عِيشَة كانوا يتفَكَّهون فيها فيأكلون ما شاؤوا، ويلبسون ما أَحَبُّوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسُلِبُوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية، وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]. وقال ههنا: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تَصْعَد في أبواب السماء فتَبْكِي على فَقْدِهم، ولا لهم في الأرض بِقَاعٌ عَبَدُوا الله فيها فَقَدَتْهم؛ فلهذا اسْتَحَقُّوا ألَّا يُنْظَرُوا ولا يُؤَخَّرُوا لكُفْرهم وإجرَامهم، وعُتُوِّهم وعِنَادهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يَمْتَنُّ عليهم تعالى بذلك؛ حيث أَنْقَذَهم ممَّا كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إيَّاهم في الأعمال الـمُهِينَة الشَّاقَّة.

﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا.

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مُسْرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال مجاهد: على من هم بين ظَهْرَيْه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يُقَال: إن لكل زمان عَالَـمًا. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤] أي: أهل زمانه.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر جَلِيٌّ لمن اهتدى به.

الآية (٣٤-٣٧): يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البَعْث والمعاد، وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بَعْث ولا نشور. ويحتجُّون بآبائهم الماضين الذين ذَهَبوا فلم يرجعوا، فإن كان البَعْث حَقًّا ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنَّما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يُعيد الله العالمين خَلْقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا.

ثم قال تعالى مُتَهَدِّدًا لهم، ومُتَوَعِّدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يُرَدُّ، كما حَلَّ بأشباههم ونُظَرائهم من المشركين والمنكرين للبَعْث، وكقوم تُبَّع -وهم سبأ- حيث أَهْلَكَهم الله وخَرَّب بلادهم، وشَرَّدَهم في البلاد، وفَرَّقَهم شَذَرَ مَذَرَ، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كُلَّما مَلَكَ فيهم رجل سمَّوه تُبَّعًا، كما يُقال: كسرى لمن مَلَك الفُرْس، وقيصر لمن مَلَك الروم، وفرعون لمن مَلَكَ مِصْر كافرًا، والنجاشي لمن مَلَك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس.

قال قتادة: ذُكِر لنا أن كعبًا كان يقول في تُبَّع: نُعِت نَعْت الرجل الصالح، ذَمَّ الله تعالى قومه ولم يَذُمَّه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تَسُبُّوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان رجلًا صالحًا.

الآية (٣٨-٣٩): يقول تعالى مُخْبِرًا عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعَبَث والباطل؛ كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

الآية (٤٠-٤٢): ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يَفْصِل الله فيه بين الخلائق، فيُعَذِّب الكافرين ويُثِيبُ المؤمنين.

وقوله: ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم؛ أوَّلهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفع قريبٌ قريبًا، كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج:١٠-١١] أي: لا يَسْأَلُ أحًا له عن حاله وهو يراه عيانًا.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يَنْصُر القريب قريبه، ولا يأتيه نَصْرُه من خارج. ثم قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله ﷻ بخلقه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

الآية (٤٣-٥٠): يقول تعالى مُخْبِرًا عمَّا يُعَذِّبُ به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ والأثيم: أي في قوله وفعله، وهو الكافر. وذَكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شكَّ في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصَّةً به.

وقوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ قالوا: كعَكَرِ الزَّيْت، ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: من حرارتها ورداءتها.

وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الكافر، وقد وَرَدَ أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾ ابْتَدَرَه سبعون ألفًا منهم، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: سُوقُوه سَحْبًا ودَفْعًا في ظهره. قال مجاهد: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: خُذُوه فادفعوه. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وَسطها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كقوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠].

وقد تقدَّم أن المَلَك يَضْرِبُه بمِقْمَعَةٍ من حديد، تَفْتَح دماغه، ثم يُصَبُّ الحميم على رأسه فيَنْزِل في بدنه، فيَسْلِتُ ما في بطنه من أمعائه، حتى تَمْرُقَ من كعبيه. أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي: قولوا له ذلك على وجه التَّهَكُّم والتوبيخ. وقال ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٣-١٥].

ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

الآية (٥١-٥٩): لَـمَّا ذَكَر تعالى حال الأشقياء عَطَف بذِكْر السعداء -ولهذا سُمِّي القرآن مثاني- فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لله في الدنيا ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: في الآخرة -وهو الجنة- قد أَمِنُوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هَمٍّ وحُزْن وجَزَع وتَعَب ونَصَب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشُرْب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالرِّيَاشِ وما يُلْبَسُ على أعالي القماش، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: على السُّرُر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: هذا العطاء مع ما قد مَنَحْنَاهم من الزَّوجَات الحور العِين الحِسَان اللاتي ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحْضِرَ لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يُحْضَر إليهم كلَّما أرادوا.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ لا يذوقون فيها الموت أبدًا، كما ثَبَت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بالموت في صورة كَبْش أَمْلَح، فيُوقَفُ بين الجنة والنار ثم يُذْبَح، ثم يُقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت».

وعن أبي سعيد وأبي هريرة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لأهل الجنة: إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأسوا أبدًا، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم الـمُقِيم قد وقاهم وسَلَّمَهم ونجَّاهم وزَحْزَحَهم من العذاب الأليم في دَرَكَات الجحيم، فحَصَل لهم المطلوب، ونَجَّاهم من المرهوب؛ ولهذا قال: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثَبَتَ في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسَدِّدُوا وقَارِبُوا، واعلموا أن أحدًا لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْل» [متفق عليه].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يَسَّرْنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بَيِّنًا جَلِيًّا بلسانك الذي هو أَفْصَح اللُّغَات وأَجْلَاها وأَحْلَاها وأعْلَاها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لَـمَّا كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كَفَر وخالف وعاند؛ قال الله تعالى لرسوله مُسلِّيًا له وواعدًا له بالنصر، ومُتَوَعِّدًا لمن كَذَّبه بالعَطَب والهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن يكون النصر والظَّفَر وعُلُوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتَّبَعَكم من المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣٧) آيةً].

الآية (١-٥): يُرشِد تعالى خَلْقه إلى التَّفَكُّر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خَلَق بها السموات الأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجنِّ والإنس، والدوابِّ والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أَنزلَ الله تعالى من السَّحَاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسَمَّاه رِزْقًا؛ لأن به يَحْصُل الرزق.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد ما كانت هامدةً لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: جنوبًا وشمالًا، ودبورًا وصَبًا، بحريةً وبريةً، ليليةً ونهاريةً. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو لِلِّقَاح، ومنها ما هو غِذَاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولًا: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أَشْرَف منه وأعلى.

وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

الآية (٦-١١): يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُتَضَمِّنةً الحقَّ من الحقِّ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يَنْقَادُون لها، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟!

ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: أفَّاك في قوله كذَّاب حَلَّاف مَهِين، ﴿أَثِيمٍ﴾ في فعله وقِيله، كافر بآيات الله.

ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقْرأ عليه.

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكبارًا وعنادًا.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابًا أليمًا موجعًا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا حَفِظَ شيئًا من القرآن كَفَرَ به واتَّخَذَه سِخْرِيًّا وَهُزُوًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به.

ولهذا روي عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُسَافَرَ بالقرآن إلى أرض العدو مَخَافَةَ أن يَنَاله العدو [رواه مسلم].

ثم فَسَّرَ العذاب الحاصل له يوم مَعَادِه فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كلُّ من اتَّصَفَ بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تُغْني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعني القرآن. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المُؤْلِم المُوجِع.

الآية (١٢-١٣): يَذْكُر تعالى نِعَمَهُ على عبيده فيما سَخَّرَ لهم من البحر ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ وهي السُّفُن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تعالى؛ فإنه هو الذي أَمَرَ البحر أن يحملها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المَجْلُوبَة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فَضْلِه وإحسانه وامتنانه.

ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

الآية (١٤-١٥): ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يَصْفَحُوا عنهم ويَحْتَمِلوا الأذى منهم.

وهذا كان في ابتداء الإسلام؛ أُمِرُوا أن يَصْبِروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثُمَّ لَـمَّا أَصَرُّوا على العِنَاد شَرَع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا رُوي عن ابن عباس وقتادة.

وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يُبَالُون نِعَمَ الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صَفَحُوا عنهم في الدنيا، فإن الله مُجازيهم بأعمالهم السَّيِّئة في الآخرة.

ولهذا قال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتُعْرَضُون بأعمالكم عليه، فيَجْزِيكم بأعمالكم خيرها وشَرّها.

الآية (١٦-٢٠): يَذْكُر تعالى ما أَنْعَمَ به على بني إسرائيل من إنزال الكُتُب عليهم، وإرسال الرُّسُل إليهم، وجَعْله المُلْكَ فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حُجَجًا وبراهين وأدلَّة قاطعات، فقامت عليهم الحُجَج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيًا منهم على بعضهم بعضًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيَفْصِل بينهم بحُكمه العدل.

وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تَسْلُكَ مَسْلَكَهم، وأن تقصد مَنْهَجَهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال ههنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تُغْنِي عنهم وِلَايَتُهُم لبعضهم بعضًا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خَسَارًا ودمارًا وهلاكًا.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو تعالى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

الآية (٢١-٢٢): يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، وقال ههنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكَسَبُوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نُساوِيهم بهم في الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظَنُّوا بنا وبِعَدْلِنا أن نُسَاوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية (٢٣): قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: إنَّما يَأْتَمِر بهواه، فمهما رآه حَسَنًا فَعَله، ومهما رآه قبيحًا تَرَكه، وعن مالك: لا يهوى شيئًا إلا عبَدَهُ.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأَضَلَّه اللهُ لعِلْمِه أنه يَسْتَحِقُّ ذلك. والآخر: وأَضَلَّه الله بعد بلوغ العِلْم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يَسْتَلْزِمُ الأوَّل، ولا ينعكس.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئًا يهتدي به، ولا يَرَى حجةً يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦].

الآية (٢٤-٢٦): يُخْبِرُ تعالى عن قول الدَّهْرية من الكفار، ومن وافَقَهم من مشركي العَرَب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معادٌ ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمَعَاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرَّجْعَة، وتقوله الفلاسفة الدَّهْرِيَّة الدَّوْرِيَّة المنكرون للصَّانِع، فكابروا المعقول وكذَّبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهَّمون ويتَخَيَّلون.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يُؤْذِينِي ابن آدم؛ يَسُبُّ الدَّهْر وأنا الدَّهْر، بيدي الأمر، أُقَلِّبُ ليله ونهاره» [متفق عليه]. وفي رواية: «لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر» [رواه مسلم]، قال الشافعي وأبو عبيدة: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شِدَّة أو بلاء أو نَكبَة، قالوا: يا خَيْبَةَ الدهر. فيُسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويَسُبُّونَه، وإنما فاعلها هو الله ﷻ، فكأنهم إنما سَبُّوا الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهِيَ عن سَبِّ الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدَّهر الذي يعنونه، ويُسنِدُون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: إذا اسْتُدِلَّ عليهم وبُيِّنَ لهم الحقُّ، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتَفَرُّقها ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أَحْيُوْهم إن كان ما تقولونه حَقًّا. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَىٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أي: الذي قَدِرَ على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يُعِيدُكم في الدنيا، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المَعَاد، ويستبعدون قيام الأجساد.

الآية (٢٧-٢٩): يُخْبِرُ تعالى أنه مالك السموات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أَنْزَلَهُ على رُسُلِه من الآيات البينات والدلائل الواضحات. ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على رُكَبِها من الشِّدَّة والعَظَمَة، ويُقَال: إن هذا إذا جِيءَ بجهنم فإنها تَزْفِرُ زَفْرَةً لا يبقى أحد إلا جَثَا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألكَ اليوم إلا نفسي، لا أسألكَ مريم التي ولدتني. قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على الركب. وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: مُتَمَيِّزَةً على ناحيتها، وليس على الرُّكَب. والأول أولى. وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها؛ كقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشَرّها. ثم قال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص؛ كقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنا كنا نأمر الحَفَظَة أن تَكْتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تَصْعَد بها إلى السماء، فيُقَابِلُون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيديهم ممَّا قد أُبْرِزَ لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلةِ قَدْر، ممَّا كَتَبَه الله في القِدَم على العباد قبل أن يَخْلُقَهم، فلا يزيد حرفًا ولا يَنْقُص حرفًا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الآية (٣٠-٣٢): يُخْبِر تعالى عن حُكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعَمِلَت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشَّرْع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ وهي الجنة، كما ثَبَتْ أن الله قال للجنة: «أنتِ رحمتي، أَرْحَمُ بك من أشاء» [متفق عليه].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: البَيِّن الواضح.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟! أي: يُقَال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا: أَمَا قُرِئَتْ عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأَعْرَضْتم عن سماعها.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟! ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إنْ نَتوَهَّمُ وقوعها إلا تَوَهُّمًا، أي مَرْجُوحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمُتَحَقِّقِين.

الآية (٣٣-٣٧): قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظَهَر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة النَّاسي لكم في نار جهنم، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: فلم تَعْمَلُوا له؛ لأنكم لم تُصَدِّقُوا به ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أُزَوِّجْكَ؟! ألم أُكْرِمْكَ؟! ألم أُسَخِّرْ لك الخيل والإبل، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَع؟! فيقول: بلى يا رب. فيقول: أَفَظَنَنْتَ أنك مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أَنْسَاكَ كما نَسِيتَنِي» [رواه مسلم].

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتَّخَذْتُم حُجَج الله عليكم سخْرِيًّا، تسخرون وتستهزئون بها. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خَدَعَتْكُم فاطْمَأْنَنْتُم إليها، فأَصْبَحْتُم من الخاسرين.

ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُطْلَبُ منهم العُتْبَى، بل يُعَذَّبُون بغير حساب ولا عِتَاب، كما تَدخُل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثُم لَمَّا ذَكَر حُكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما.

ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثُم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان؛ أي: هو العظيم المُمَجَّد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه.

وقد وَرَد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما أَسْكَنْتُه ناري» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغَالَب ولا يُمَانَع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره تعالى وتقدَّس لا إله إلا هو.

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣٥) آيةً].

الآية (١-٥): يُخْبِرُ تعالى أنه نَزَّلَ الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ووَصَفَ نفسه بالعِزَّة التي لا تُرَام، والحكمة في الأقوال والأفعال.

ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العَبَث والباطل.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لَاهُون عمَّا يُرَاد بهم، وقد أَنزلَ الله تعالى إليهم كتابًا، وأرسل إليهم رسولًا، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غِبَّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي اسْتَقَلُّوا بخلقه من الأرض.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ولا شِرْك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إنِ الـمُلْك والتَّصرُّف كلُّه إلا لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتُشْرِكُون به؟! من أَرْشَدَكُم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أَمَرَكم به؟! أم هو شيء اقْتَرَحْتُمُوه من عند أنفسكم؟! ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتابًا من كُتُب الله الـمُنْزَلَة على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يأمركم بعبادة هذه الأصنام.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بَيِّن على هذا الـمَسْلَكِ الذي سَلَكْتُمُوه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نَقْلِيًّا ولا عَقْلِيًّا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَةٍ مِن علم» أي: أو عِلْم صحيح يَأْثُرُونَه عن أحد ممَّن قبلهم.

كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأْثُر عِلمًا. قال ابن عباس: أو بيّنةٍ من الأمر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من عِلم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ شيء يستخرجه فَيُثِيرُه. وقال ابن عباس ومجاهد وأبو بكر بن عياش أيضًا: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعني الخط. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم. وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: لا أَضَلُّ ممَّن يدعو أصنامًا، ويَطْلُب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عمَّا يقول، لا تَسْمَع ولا تُبْصِر ولا تَبْطِش؛ لأنها جماد حجَارة صُمّ.

الآية (٦): قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله تعالى: {﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيَخُونُونَهُم أَحْوَجَ ما يكونون إليهم، وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

الآية (٧-٩): يقول ﷻ مُخْبِرًا عن المشركين في كُفرهم وعنادهم: أنهم إذا تُتْلى عليهم آيات الله بيناتٍ؛ أي: في حال بيانها ووُضُوحها وجَلائها، يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سِحْرٌ واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلُّوا وكفروا، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدًا ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كَذَبْتُ عليه وزَعَمْتُ أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشَدَّ العقوبة، ولم يَقْدِرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يُجِيرَنِي منه؛ ولهذا قال ههنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كُلِّه إن رجعتُم وتُبْتُم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغَفَر لكم ورَحِم. وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لستُ بأوَّل رسول طَرَق العالم، بل قد جاءت الرُّسُل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتَستبعدوا بَعْثَتِي إليكم؛ فإنه قد أَرسَل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأوَّل رسول. ولم يَحْكِ ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: نَزَلَ بعدها: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]. وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]. وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: ما أدري بماذا أُؤْمَرُ، وبماذا أُنْهَى بعد هذا؟! وقال الحسن البصري: أما في الآخرة فمَعَاذ الله؛ قد عَلِمَ أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم في الدنيا، أُخْرَجُ كما أُخْرِجَتِ الأنبياء من قبلي؟! أم أُقْتَلُ كما قُتِلَتِ الأنبياء من قبلي؟! ولا أدري أَيُخْسَفُ بكم أو تُرمَون بالحجارة؟! وهذا القول هو الذي عَوَّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شكَّ أن هذا هو اللائق به صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يَدْرِ ما كان يؤُول إليه أَمْرُه وأَمْرُ مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيُعَذَّبُون فيُسْتَأْصَلُون بكفرهم؟! عن أم العلاء -وكانت بايعت رسول الله ﷺ -قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فمرّضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟!» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!» قالت: فقلت: والله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا. وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله». انفرد بإخراجه البخاري. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يُقْطَعُ لِمُعَيَّن بالجنة إلا الذي نَصَّ الشارع على تعيينهم؛ كالعشرة، وابن سلَّام، والغُميصاء، وبلال، وسُرَاقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقُرَّاء السبعين الذين قُتِلُوا ببئر مَعُونَة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ. وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: إنَّما أتَّبع ما يُنَزِّله الله عليَّ من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن النِّذَارة، وأمري ظاهر لكل ذي لُبٍّ وعَقْلٍ.

الآية (١٠-١٤): يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أي: ما ظَنُّكم أن الله صانعٌ بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتُكم به قد أَنْزَلَه عليَّ لأُبَلِّغكُموه وقد كَفَرتم به وكَذَّبتموه؟!

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ﴾ أي: هذا الذي شَهِدَ بِصِدْقه من بني إسرائيل لمعرفته بحَقِّيَّته، ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنَبِيِّه وكتابه، وكفرتم أنتم بنَبِيِّكُم وكتابكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يَعُمُّ عبد الله بن سلام وغيره؛ فإن هذه الآية مكية نَزَلَت قبل إسلام عبد الله بن سلام. واختاره ابن جرير. وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نَزَلَت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [متفق عليه]. وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله ابن سلام وهلال بن يَسَاف والسُّدِّي والثوري ومالك ابن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه. يعنون بلالًا وعمَّارًا وصُهَيبًا وخَبَّابًا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وَجَاهة وله بهم عِنَاية. وقد غَلِطُوا في ذلك غَلَطًا فَاحِشًا، وأخطؤوا خَطَأً بَيِّنًا. وأهل السنة والجماعة يقولون في كل فِعْل وقول لم يَثْبُتْ عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسَبَقُونَا إليه؛ لأنهم لم يَتْرُكُوا خَصْلةً من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ﴾ أي: كَذِب ﴿قَدِيمٌ﴾ أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكِبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بَطَرُ الحقِّ، وغَمْط الناس» [رواه مسلم].

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لِمَا قبله من الكُتُب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحًا بَيِّنًا واضحًا، ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على النِّذَارَة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ تقدم تفسيرها في سورة «حم، السجدة». ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يَسْتَقْبِلُون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خَلَّفُوا، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: الأعمال سَبَبٌ لِنَيْلِ الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم.

الآية (١٥-١٦): لَـمَّا ذَكَر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عَطَف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: أَمَرْنَاه بالإحسان إليهما والـحُنُوِّ عليهما. عن سعد [بن أبي وقاص] قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أَمَرَ الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعامًا، ولا أَشْرَب شرابًا حتى تكفر بالله. فامتنعَت من الطعام والشراب، حتى جَعَلوا يفتحون فاها بالعصا، ونَزَلَت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت:٨] [رواه مسلم].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي: قاسَتْ بسببه في حال حمله مَشَقَّةً وتَعَبًا، من وِحَام وغشيان وثِقَلٍ وكَرْب إلى غير ذلك مما تَنَالُ الحوامل من التَّعَب والـمَشَقَّة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمَشَقَّةٍ أيضًا من الطَّلْق وشِدَّته، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقد استدل عَلِيٌّ بهذه الآية مع التي في لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]، وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافَقَه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: قَوِيَ وشَبَّ وارْتَجَلَ ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تَنَاهَى عَقْله وكَمُلَ فَهْمُه وحِلْمُه. ويُقَال: إنه لا يَتَغَيَّر غالبًا عمَّا يكون عليه ابن الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: نَسْلِي وعَقِبِي، ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بَلَغَ الأربعين أن يُجَدِّدَ التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويَعْزِم عليها.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: هؤلاء المتَّصِفون بما ذَكَرْنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركُون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يَتَقَبَّل عنهم أَحْسَن ما عَمِلُوا، ويَتَجَاوَز عن سيئاتهم، فيَغْفِر لهم الكثير من الزَّلَل، ويَتَقَبَّل منهم اليسير من العمل، ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وَعَدَ الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

الآية (١٧-٢٠): لَـمَّا ذَكَر تعالى حال الدَّاعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عَطَف بحال الأشقياء العاقِّين للوالدين فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وهذا عامٌّ في كلِّ من قال هذا، ومن زَعَم أنها نَزَلَت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أَسْلَم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وإنما هذا عامٌّ في كل من عَقَّ والديه وكَذَّبَ بالحقِّ، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ عَقًّا لَهُمَا.

وعن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخَطَب وجَعَل يَذْكُر يزيد بن معاوية لكي يُبَايَع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خُذُوه. فدَخَل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أُنزِل فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أَنزَلَ الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أَنْزَلَ عُذْرِي [رواه البخاري].

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أُبْعَث، ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: قد مَضَى الناس فلم يَرجِع منهم مُخْبِر، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يَهديَه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي: دَخَلُوا في زُمْرَة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسَهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جِنْسٌ يَعُمُّ كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاقُّ لوالديه، الـمُكَذِّب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: لكلٍّ عذاب بحَسَب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سِفَالًا، ودرجات الجنة تذهب عُلُوًّا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي: يُقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا. وقد تَوَرَّعَ عمر ابن الخطاب عن كثير من طيِّبات المآكل والمشارب، وتَنَزَّه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقَرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

وقال أبو مِجْلَز: ليَتَفَقَّدَنَّ أقوامٌ حَسَناتٍ كانت لهم في الدنيا، فيُقَال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجُوزُوا من جنس عملهم، فكما تَعَمَّوا أنفسَهم واستكبروا عن اتباع الحقِّ، وتَعَاطَوُا الفِسْقَ والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الـهُون، وهو الإهانة والخِزْي والآلام الموجِعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدَّرَكات المفظِعة، أجارنا الله من ذلك كله.

الآية (٢١-٢٥): يقول تعالى مُسلِّيًا لنبيِّه في تكذيب من كَذَّبه من قومه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَه الله إلى عادٍ الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف -جمع حِقْف وهو: الجبل من الرَّمْل- قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال علي بن أبي طالب: الأحقاف: وادٍ بحضرموت، يُدعى بُرْهوت، تُلْقَى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكِر لنا أن عادًا كانوا حَيًّا باليمن أهل رَمْلٍ مشرفين على البحر بأرض يُقال لها: الشِّحْر.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ يعني: وقد أرسلَ الله إلى من حَول بلادهم من القرى مرسَلين ومنذِرين؛ كقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:١٣-١٤] أي: قال لهم هود ذلك[1]، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لِتَصُدَّنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه؛ كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيَفْعَلُ ذلك بكم، وأما أنا فمِن شأني أني أُبَلِّغُكم ما أُرْسِلْتُ به، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لَـمَّا رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مُمْطِر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا مُمْحِلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قُلْتُم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُخَرِّب ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من بلادهم، ممَّا من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك؛ كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تَبْقَ لهم باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حُكمنا فيمن كَذَّب رسلنا، وخالف أمرنا.

عن الحارث البكري قال: أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال [ﷺ]: «هِيْه، وما وافد عاد؟» -وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه- قلتُ: إن عادًا قُحِطُوا فبَعَثُوا وافدًا لهم يُقال له: قَيل، فمَرَّ بمعاوية بن بَكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتُغَنِّيه جاريتان يُقَال لهما: «الجرادتان»، فلمَّا مَضَى الشهر خَرَج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أَجِئْ إلى مريض فأُدَاوِيه، ولا إلى أسير فأُفَادِيه، اللهم اسقِ عادًا ما كنتَ تَسْقِيه. فمَرَّتْ به سحابات سُود، فنُودِيَ منها: «اختر»، فأومأَ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنُودِيَ منها: «خُذْهَا رَمَادًا رِمْدِدًا، لا تُبْقِي من عاد أحدًا». قال: فما بَلَغَني أنه أُرْسِلَ عليهم من الريح إلا كَقَدْر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هَلَكوا -قال أبو وائل: وصَدَق- وكانت المرأة والرجل إذا بَعَثُوا وافِدًا لهم قالوا: «لا تكن كوافدِ عاد» [رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني].

وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لَـهَوَاته، إنما كان يَتَبَسَّم. قالت: وكان إذا رأى غيمًا -أو ريحًا- عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فَرِحُوا رجاءَ أن يكون فيه المطر، وأراكَ إذا رأيتَه عَرَفْتُ في وجهك الكراهية؟! فقال: «يا عائشة، ما يُؤَمِّنُنِي أن يكون فيه عذاب، قد عُذِّبَ قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض مُمْطِرُنا» [متفق عليه].

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عَصَفَت الريح قال: «اللهم، إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرْسِلَتْ به، وأعوذ بك من شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرْسِلَتْ به». قالت: وإذا تَخَيَّلَت السماء تَغَيَّر لونه، وخَرَج ودَخَل، وأَقْبَلَ وأَدْبَر، فإذا مَطَرَتْ سُرِّيَ عنه، فعَرَفَتْ ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾» [رواه مسلم].

الآية (٢٦-٢٨): يقول تعالى: ولقد مَكَّنَّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نُعْطِكُم مثله ولا قريبًا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذِّبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيُصِيبَكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أَهْلَكَ الله الأمم المكذِّبة بالرسل ممَّا حولها؛ كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومَدْيَن وكانت في طريقهم ومَـمَرِّهِم إلى غَزَّة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضًا.

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: بَيَّنَّاها ووَضَّحْناها؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ أي: فَهَلَّا نَصَرُوهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذَهَبوا عنهم أَحْوجَ ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كَذِبُهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهةً، وقد خابوا وخَسِروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

(١) يقصد بذلك إنذار هود لقومه؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾.

الآية (٢٩-٣٢): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلمَّا سمعوه قالوا: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ قالوا: صَهٍ، وكانوا تسعةً، أحدهم زَوْبَعَة، فأنزَل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، والواديعي في أسباب النزول]. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي: استمعوا، وهذا أَدَبٌ منهم. وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي: فرغ؛ كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠] ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رَجَعوا إلى قومهم فأَنْذَرُوهم ما سَمِعُوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد اسْتُدِلَّ بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رُسُل: ولا شكَّ أن الجن لم يَبْعَث الله منهم رسولًا؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ [يوسف:١٠٩]. فكل نبي بَعَثَه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيَصْدُق على أحدهما وهو الإنس.

ثُمَّ إنه تعالى فَسَّر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرًا عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُنْزِلَ عليه الإنجيل فيه مواعظ وتَرْقِيقَات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالـمُتَمِّم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾. وهكذا قال وَرَقة بن نوفل حين أَخْبَرَه النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه أَوَّلَ مَرَّة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَذَعًا [رواه البخاري]. ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب الـمُنْزَلَة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: في الأعمال؛ فإن القرآن يشتمل على شيئين خبر وطَلَب، فخبره صِدْق، وطلبه عَدْل.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقَرَأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووَعْدِهم ووَعِيدهم، وهي سورة الرحمن؛ ولهذا قال ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قِيل: إنّ «مِن» ههنا زائدة، وفيه نَظَر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ويَقِيكم من عذابه الأليم.

وقد استَدَلَّ بهذه الآية من ذَهَب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يُجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تَبَجُّح[1] ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة. والحق أن مُؤمِنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف؛ وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جَعَل جزاء مُحْسِنِهِمُ الجنة، وقد قابلَت الجِنُّ هذه الآية بالشُّكر القولي أَبْلَغَ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضًا فإنه إذا كان يُجازي كافرهم بالنار -وهو مقام عَدْل- فَلَأَنْ يُجازي مؤمنَهم بالجنة -وهو مقام فَضْل- بطريق الأولى والأحرى.

ثم قال مُخْبِرًا عنهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بل قُدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: لا يُجِيرُهم منه أحدٌ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نَجَع في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودًا وفودًا.

الآية (٣٣-٣٥): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبَعْث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم يُكْرثهُ خَلْقُهن، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا مُمَانَعة ولا مُخَالَفة، بل طائعة مجيبة خائفة وَجِلة، أفليس ذلك بقادر على أن يُحْيي الموتى؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال مُتَهَدِّدًا ومُتَوَعِّدًا لمن كَفَر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُقَال لهم: أَمَا هذا حقٌّ؟! ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[الطور:١٥]؟! ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يَسَعُهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كَذَّبه من قومه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم.

وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نَصَّ الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأُولي العزم جميع الرُّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

﴿بَلَٰغٌ﴾ قال ابن جرير: يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون تقديره: وذَلِكَ لُبْثُ بَلَاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يُعذِّب إلا مَن يستحقُّ العذاب.

---

(١) أي: فَرَح؛ يقال: بَجِح بالشيء: إذا فَرِح به. [معجم مقاييس اللغة، مادة (بجح)].

تفسير سورة القتال

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٣٨) آيةً].

الآية (١-٣): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أَبْطَلَها وأَذْهَبَها، ولم يَجْعَلْ لها جزاءً ولا ثوابًا؛ كقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشَرْع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عَطْفُ خاصٍّ على عام، وهو دليل على أنه شَرْط في صحة الإيمان بعد بِعْثَته ﷺ. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حَسَنَة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي أَمْرَهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويُصْلِحُ بالكم» [رواه البخاري].

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: إنما أَبْطَلنا أعمال الكفار، وتَجاوَزْنا عن سيئات الأبرار، وأَصْلَحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتَّبَعُوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحقِّ، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: يُبيِّن لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في مَعَادهم.

الآية (٤-٩): يقول تعالى مُرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحْصُدُوهم حَصْدًا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أَهْلَكْتُمُوهم قَتْلًا ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ وَثَاقَ الأسارى الذين تَأْسِرُونَهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مُخَيَّرُون في أمرهم: إن شئتم مَنَنْتُم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نَزَلَت بعد وقعة بدر؛ فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذٍ ليأخذوا منهم الفِدَاء، والتقليل من القَتل يومئذٍ.

ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة:٥]، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله قتادة والضحاك والسُّدِّي وابن جُرَيْج. وقال الأكثرون: ليست بمنسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين الـمَنِّ على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء؛ لحديث قَتْل النبي ﷺ النَّضْر بن الحارث وعُقْبة بن أبي مُعَيط من أسارى بدر(١)، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت [رواه البخاري].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكأنه أَخَذَه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يُقَاتل آخرهم الدجال» [رواه أبو داود، وصححه الألباني]. **وقال قتادة: حتى لا يبقى شرك. ثم قال بعضهم: أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله ﷻ. وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله ﷻ.**

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونَكَال مِن عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ولكن شَرَع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليَخْتَبِرَكم، ويَبْلُوَ أخباركم. كما ذَكَر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و«براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]. وقال في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

ثم لَـمَّا كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: لن يُذهبها بل يُكَثِّرها ويُنميها ويُضاعفها. عن عبد الله بن عَمْرو، وأبي قتادة رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن» [رواه مسلم]. **و«يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»** [رواه أبو داود، وصححه الألباني]. **والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدًّا.**

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩]. وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أَمْرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عَرَّفَهُم بها وهداهم إليها. وروى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا». ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾؛ كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أَحْبَطَها وأَبْطَلَها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبُّونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

الآية (١٠-١١): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ يعني: المشركين بالله المكذِّبين لرسوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونَجَّى المؤمنين من بين أَظْهُرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، قال أبو سفيان يوم غزوة أُحُد: لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم. فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟!» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» [رواه البخاري].

---

(١) ضعفه الألباني، لكن جود إسناد ما يفيد قتل النبي ﷺ عقبة خاصة، وقال: أخرجه أبو داود والبيهقي. [إرواء الغليل ١٢١٤].

الآية (١٢-١٣): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أي: في دنياهم، يَتَمَتَّعُون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْمًا وقَضْمًا[1]، وليس لهم هِمَّة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» [متفق عليه]. ثم قال: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أي: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ يعني: مكة، ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أَهْلَكَ الأمم الذين كَذَّبوا الرُّسُل قبله بسببهم، وقد كانوا أشدَّ قوة من هؤلاء، فماذا ظَنُّ هؤلاء أن يَفْعَلَ الله بهم في الدنيا والأخرى؟! فإنْ رَفَع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإنّ العذاب يُوَفَّر على الكافرين به في مَعَادهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]. وقوله: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أَظْهُرهم [سبب النزول]: عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة -وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليَّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك، فأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول[2] الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾. [أخرجه ابن جرير، وأخرج ابن عبد البر في التمهيد شقه الأول، وقال: من أصح الآثار].

الآية (١٤-١٥): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أَنزَل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَلَه الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؟! أي: ليس هذا كهذا.

ثم قال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: نَعْتُها ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني غير مُتَغَيِّر. والعرب تقول: أَسِنَ الماء، إذا تَغَيَّر ريحُه. ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حَسَنَة الـمَنْظَر والطَّعْم والرائحة والفِعْل، ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٧]، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات:٤٦]. ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء، وحُسْن اللون والطَّعم والريح. وفي الصحيح: «إذا سَأَلْتُم الله فاسْأَلُوه الفِرْدَوْس، فإنه أَوسط الجنة وأَعْلَى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عَرْش الرحمن» [رواه البخاري].

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كقوله: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾[الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: أهؤلاء الذين ذَكَرْنا مَنْزِلَـتَهم من الجنة كمن هو خالدٌ في النار؟! ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ أي: حارًّا شديد الحر، لا يُسْتَطَاع، ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ أي: قَطَّع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذًا بالله من ذلك.

الآية (١٦-١٩): يقول تعالى مُخْبِرًا عن المنافقين في بَلَادَتهم وقِلَّة فَهْمهم، حيث كانوا يَجْلِسون إلى رسول الله ﷺ، ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا، فإذا خَرَجوا من عنده ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الساعة؛ لا يَعقِلون ما يُقَال، ولا يَكْتَرِثُون له. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: فلا فَهْم صحيح، ولا قَصْد صحيح. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ أي: والذين قَصَدُوا الهداية وَفَّقهم الله لها فهداهم إليها، وثَبَّتهم عليها وزَادَهم منها، ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: أَلْـهَمَهم رُشْدَهم. وقوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ أي: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها؛ كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، وكقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[القمر: ١]، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] فبعثةُ رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرُّسُل الذي أَكْمَلَ الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يُؤْتَهُ نبي قبله. وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه عَلَيْهِ السَّلَام أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحْشَر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وعن سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» [رواه البخاري]. ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتَّذَكُّر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [سبأ:٥٢].

وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يُنَافي كونه آمِرًا بعِلم ذلك؛ ولهذا عَطَف عليه بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾. عن عبد الله بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأَكَلْتُ معه من طعامه، فقلتُ: غَفَرَ اللهُ لك يا رسول الله. فقال: «ولك». فقال القومُ: استغفر لك رسولُ الله؟! فقال: نعم، ولكم. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: يعلم تَصَرُّفكم في نهاركم ومُسْتَقَرَّكم في ليلكم؛ كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود:٦]. وهذا القول ذَهَب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: مُتَقَلَّبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. والأول أولى وأَظْهَر، والله أعلم.

---

(١) الخضم: ملء الفم بالمأكول، والقضم: الأكل بطرف الأسنان. [القاموس المحيط، مادتي: (خضم) و(قضم)].

(٢) الذحل: الحقد والعداوة. يقال: طلب بذَحْلِه، أي بثأره. والجمع ذحول. [تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ذحل)]. فالمقصود: ثارات الجاهلية.

الآية (٢٠-٢٣): يقول تعالى مُخْبِرًا عن المؤمنين أنهم تَـمَنَّوْا شرعية الجهاد، فلمَّا فَرَضَه الله ﷻ، وأَمَرَ به نَكَلَ عنه كثير من الناس؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

وقال ﷻ ههنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حُكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: من فَزَعِهم ورُعْبِهم وجُبْنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مُشَجِّعًا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويُطِيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ الحال، وحَضَرَ القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونَكَلْتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تَسْفِكُون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قَطْع الأرحام خصوصًا، بل قد أَمَرَ الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصِلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وَرَدَت الأحاديث الصحاح والحِسَان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طُرُق عديدة، ووجوه كثيرة: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ الله الخَلْق، فلمَّا فَرَغ منه قامت الرَّحِم فأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرحمن ﷻ، فقال: مَهْ! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: أَلَا تَرْضَيْنَ أن أَصِلَ من وَصَلَك وَأَقْطَعَ من قَطَعَك؟! قالت: بلى. قال: فذاك». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [متفق عليه].

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أَحْرَى أَنْ يُعَجِّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يُدَّخَرُ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرَّحِم» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرَّحم معلَّقة بالعرش، وليس الواصل بالـمُكَافِئ، ولكن الواصل الذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها» [رواه البخاري].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «تُوضَع الرَّحِم يوم القيامة لها حُجْنَة كَحُجْنَةِ الـمِغْزَل[1]، تَتَكَلَّم بلسان طَلْقٍ ذَلِقٍ؛ فَتَصِلُ مَن وَصَلها، وتَقْطَعُ مَن قَطَعها» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وعن عبد الله بن عمرو -يَبْلُغُ به النبي ﷺ- قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرَّحِمُ شُجْنَة من الرحمن، من وَصَلَها وَصَلْتُه، ومن قَطَعَهَا بَتَتُّهُ» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٢٤-٢٨): يقول تعالى آمرًا بتدبُّر القرآن وتَفَهُّمه، وناهيًا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بلْ على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يَخْلُص إليها شيء من مَعَانيه. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمُ﴾ أي: فارقوا الإيمان ورَجَعوا إلى الكفر، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زَيَّن لهم ذلك وحَسَّنَه. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: غَرَّهم وخَدَعَهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين: يُظهِرون خلاف ما يُبطِنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما يُسِرُّون وما يُخْفُون، الله مُطَّلِع عليه وعالم به؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقَبْضِ أرواحهم وتَعَصَّتْ الأرواح في أجسادهم، واسْتَخْرَجَتْها الملائكة بالعُنْف والقَهْر والضَّرْب؛ كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال:٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضَّرْب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

الآية (٢٩): يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾؟! أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يَكْشِف أَمْرَهم لعباده المؤمنين؟! بل سيُوضِّح أَمْرَهم ويُجَلِّيه حتى يَفْهَمَهم ذوو البصائر، وقد أَنْزَل تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبيَّن فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تُسمَّى الفاضحة. والأضغان: جمع ضِغْن، وهو ما في النفوس من الـحَسَد والحِقْد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

---

(١) حجنة المغزل: الصنارة؛ وهي الحديدة العقفاء التي يعلق بها الخيط ثمَّ يفتل المغزل وكل شَيْء انعقف فهو أحجن. [غريب الحديث لابن قتيبة:١/ ٣٣٤].

الآية (٣٠-٣١): ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نَشَاء يا محمد لأَرَيْنَاك أشخاصهم، فعَرَفْتَهُم عيانًا، ولكن لم يَفعَل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خَلْقِه، وحَمْلًا للأمور على ظاهر السلامة، ورَدّ السرائر إلى عالمها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: فيما يَبدُو من كلامهم الدَّالِّ على مقاصِدِهم؛ يَفْهَم الْـمُتَكَلِّمَ من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفَحْواه، وهو المراد من لَـحْن القول؛ كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ما أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيْرَةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنَخْتَبِرَنَّكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تَقَدُّمِ عِلْم الله تعالى -بما هو كائن أنه سيكون- شكٌّ ولا ريبٌ، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنَعْلَم، أي: لنرى.

الآية (٣٢-٣٥): يُخْبِرُ تعالى عمَّن كَفَر وصَدَّ عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقَّه، وارتَدَّ عن الإيمان من بعد ما تبيَّن له الهدى: أنه لن يَضُرَّ الله شيئًا، وإنما يَضُرُّ نفسه ويَخْسَرُها يوم مَعَادها، وسيُحْبِطُ الله عملَه فلا يُثِيبُهُ على سالف ما تقدَّم من عمله الذي عَقَّبَهُ بِرِدَّتِهِ مثقال بعوضة من خير، بل يُحْبِطه ويَمْحَقه بالكلية، كما أن الحسنات يُذْهِبْن السيئات.

ثم أَمَر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مُبْطِلٌ للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ أي: بالرِّدَّة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦].

ثم قال جلَّ وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: لا تَضْعُفُوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: المهادنة والمسالَـمة، ووَضْع القتال بينكم وبين الكفار في حال قُوَّتِكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال عُلُوِّكم على عَدُوِّكم، فأَمَّا إذا كان الكفار فيهم قوة وكَثْرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مَصْلَحَة، فَلَه أن يَفْعَل ذلك، كما فَعَلَ رسول الله ﷺ حين صَدَّه كفار قريش عن مكة، ودَعَوه إلى الصُّلْح ووَضْع الـحَرْب بينهم وبينه عَشْر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنَّصْر والظَّفَر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ أي: ولن يُحْبِطَها ويُبْطِلَها ويَسْلُبَكم إيَّاها، بل يُوَفِّيكم ثوابها ولا يُنْقِصُكم منها شيئًا.

الآية (٣٦-٣٨): يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتَهْوِينًا لشأنها: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يَطلُب منكم شيئًا، وإنما فَرَضَ عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء، ليعود نَفْعُ ذلك عليكم، ويَرجِعَ ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ أي: يُحْرِجكم تَبْخَلُوا: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ قال قتادة: «قد عَلِمَ الله أن في إخراج الأموال إخراجَ الأضغان». وصَدَقَ قتادة؛ فإن المال محبوب، ولا يُصْرَف إلا فيما هو أَحَبُّ إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك، ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: إنما نَقَص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائمًا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي: بالذات إليه. فوَصْفُه بالغِنَى وَصْفٌ لازم له، ووَصْفُ الخلق بالفقر وَصْفٌ لازم لهم، لا ينفَكُّون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٢٩) آيةً].

[ذكر ما ورد في فضلها: عن عمر قال: قال النبي ﷺ: «نَزَلَتْ عليَّ البارحة سورةٌ هي أحبُّ إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾» [رواه البخاري]. وعن أنس بن مالك، قال: نَزَلَتْ على النبي ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَهُ من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أُنْزِلَتْ علي آية أحبُّ إليَّ مِمَّا على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هَنِيئًا مَرِيئًا يا نبيَّ الله، لقد بيَّنَ الله ﷻ ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنَزَلَتْ عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بَلَغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [متفق عليه]].

عن عبد الله بن مغفل قال: قَرَأَ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرَجَّع فيها. قال معاوية: لولا أني أَكْرَهُ أن يجتمع الناس علينا لَحَكَيْتُ لكم قراءته [متفق عليه].

الآية (١-٣): نَزَلَتْ هذه السورة الكريمة لَمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صَدَّهُ المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليَقْضِيَ عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامَه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تَكَرُّهٍ من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب. فلمَّا نَحَر هَدْيَهُ -حيث أُحْصِرَ- ورجع، أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجَعَل ذلك الصُّلْحَ فَتْحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آلَ الأمر إليه؛ كما روي عن ابن مسعود، وغيره أنه قال: إنكم تعدُّون الفتح فتحَ مكة، ونحن نعدُّ الفتح صُلْح الحديبية. وقال جابر: ما كُنَّا نَعُدُّ الفتح إلا يوم الحديبية.

وعن البراء قال: تعدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعةَ الرضوان يوم الحديبية [رواه البخاري].

وعن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى تَرِمَ قَدَماه، فقيل له: أليس قد غَفَر الله لك ما تَقَدَّم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا» [متفق عليه].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: بَيِّنًا ظَاهِرًا، والمراد به صُلْحُ الحديبية؛ فإنه حَصَلَ بسببه خير جزيل، وآمَنَ الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكَلَّم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره.

وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره (غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخر). وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يَنَلْهَا بَشَرٌ سواه، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أَكْمَل البَشَر على الإطلاق، وسيِّدُهم في الدنيا والآخرة. ولَمَّا كان أطوعَ خَلْق الله تعالى، وأَشَدَّهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه، قال حين بَرَكَتْ به الناقة: «حَبَسَهَا حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظّمون به حُرُمَات الله إلا أجبتهم إليها» [رواه البخاري].

فلمَّا أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصُّلْح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بما يَشْرَعُه لك من الشَّرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله ويَنْصُرك على أعدائك، كما جاء في الحديث: «وما زاد الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وما تَوَاضَع أحد لله إلا رَفَعَه الله» [رواه مسلم]. وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عَاقَبْتَ -أي في الدنيا والآخرة- أحدًا عَصَى الله تعالى فيكَ بمثل أن تُطِيْعَ الله فيه.

الآية (٤-٧): ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جَعَل الطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلمَّا اطمأنَّت قلوبهم لذلك، واستقرَّت زَادَهم إيمانًا مع إيمانهم. وقد استَدَلَّ بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب.

ثم ذَكَر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم مَلَكًا واحدًا لَأَبَادَ خَضْرَاءهم، ولكنه تعالى شَرَع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لِمَا له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويَرحَم ويَشْكُر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: يَتَّهِمُون الله في حكمه، ويظنُّون بالرسول وأصحابه أن يُقْتَلُوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أَبْعَدَهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. ثم قال مؤكِّدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء -أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين-: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الآية (٨-٩): يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين. وقد تقدَّم تفسيرها في سورة «الأحزاب»[1].

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يُعَظِّمُوه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره.

---

(١) صفحة ٤٢٤.

الآية (١٠): قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]. ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وَبَال ذلك على الناكث، والله غَنِي عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلًا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ ألفًا وثلاثمائة. وقيل: وأربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وعن جابر قال: كُنَّا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة [متفق عليه].

وعنه قال: كُنَّا يومئذٍ ألفًا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنَبَعَ الماء من بين أصابعه، حتى رَووا كلهم [متفق عليه]. وهذا مختصر من سياق آخر حين ذَكَر قصة عَطَشِهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهمًا من كنانته، فوَضَعُوه في بئر الحديبية، فجَاشَت بالماء، حتى كَفَتْهُم، فقِيْل لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: كُنَّا ألفًا وأربعمائة، ولو كُنَّا مائة ألف لكَفَانا [رواه البخاري]. وفي رواية عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة [متفق عليه].

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة: قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله ابن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بَلَغَه أن عثمان قد قُتِل: «لا نَبْرَح حتى نُنَاجِزَ القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألَّا نَفِرّ. فبايع الناس، ولم يَتَخَلَّف أحد من المسلمين حَضَرَها إلا الجَدُّ بن قيس أخو بني سَلِمَة، فكان جابر يقول: والله لَكَأَنِّي أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضَبَأَ[1] إليها يَستَتِر بها من الناس، ثُمَّ أَتَى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أَمْر عثمان باطل. وعن أم مُبَشِّر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» [رواه مسلم].

وعن جابر أن عبدًا لحاطب بن أبي بَلْتَعَة جاء يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله، لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَبْتَ، لا يدخلُها؛ فإنه قد شَهِدَ بدرًا والحديبية» [رواه مسلم].

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

الآية (١١-١٤): يقول تعالى مُخْبِرًا رسوله ﷺ بما يَعْتَذِر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانَعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يَرُدَّ ما أراده فيكم تعالى وتقدَّس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: لم يكن تَخَلُّفُكم تَخَلُّفَ معذور ولا عاصٍ، بل تَخَلُّف نفاق.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يُقْتَلُون وتُسْتَأْصَلُ شَأْفَتهم، وتُسْتَبَادُ خضراؤهم، ولا يرجع منهم مُخْبِر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: من لم يُخْلِص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيُعَذِّبه في السعير، وإن أَظْهَرَ للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

ثم بيَّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، وخَضَع لديه.

الآية (١٥): يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأَمَرَ الله رسوله ﷺ ألَّا يَأْذَنَ لهم في ذلك، معاقبةً لهم من جِنْس ذنبهم؛ فإن الله تعالى قد وَعَدَ أهل الحديبية بمغانم خيبر وَحْدَهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب الـمُتَخَلِّفِين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد وقتادة: وهو الوَعْد الذي وُعِدَ به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني: بتَثْبِيطِهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وَعَدَ الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: أن نشرككم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زَعَموا، ولكن لا فَهْم لهم.

(١) ضبأ: لصق واختبأ واستتر. [القاموس المحيط، مادة (ضبأ)].

الآية (١٦-١٧): ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يُدْعَون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن؛ عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميعًا، وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جوبير والزهري. الرابع: هم أهل فارس؛ عن ابن عباس. وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة. وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضًا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يُعَيِّنْ فِرقةً. وبه يقول ابن جريج. وهو اختيار ابن جرير.

قوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني: يُشْرَعُ لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرًا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يُسلِمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد، وتؤدُّوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دُعِيتُم فتَخَلَّفْتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذَكَرَ الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعَمَى والعَرَج المستمرِّ، وعارضٌ كالمرض الذي يَطْرَأ أيامًا، ثم يزول، فهو في حال مرضه مُلْحَق بذوي الأعذار اللازمة حتى يَبْرَأ.

ثم قال تعالى مُرَغِّبًا في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يَنْكُلْ عن الجهاد، ويُقْبِلْ على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمَذَلَّة، وفي الآخرة بالنار.

الآية (١٨-١٩): ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يُخْبِرُ تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدَّم ذِكر عِدَّتهم، وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سَمُرَةً بأرض الحديبية.

روى البخاري عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقتُ حاجًّا فمَرَرْت بقوم يصلون، فقلت ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيتُ سعيد بن المسيب فأخبرتُه، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلمَّا خَرَجْنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أَجْرَى الله على أيديهم من الصُّلْح بينهم وبين أعدائهم، وما حَصَل بذلك من الخير العام المستمر المُتَّصِل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حَصَل لهم من العِزِّ والنَّصْر والرِّفْعَة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الآية (٢٠-٢٣): قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: فتح خيبر. وعن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: صلح الحديبية، ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم يَنَلْكُم سُوْء ممَّا كان أعداؤكم أضْمَرُوه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كَفَّ أيدي الناس عنكم الذين خَلَّفْتُمُوهم وراء أَظْهُرِكم، عن عِيالكم وحَريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك؛ فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عَدَدِهم، وليَعْلَمُوا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخِيَرَةَ فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كَرِهوه في الظاهر؛ كما قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: وغنيمةً أخرى وفتحًا آخر مُعَيَّنًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها، فقال ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله -في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾-: إنها صُلْح الحديبية. وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول تعالى مُبَشِّرًا لعباده المؤمنين: بأنه لو نَاجَزَهم المشركون لنَصَرَ الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مُدْبِرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلَّا نَصَر الله الإيمان على الكفر، فرَفَع الحقَّ ووَضَعَ الباطل، كما فَعَلَ تعالى يوم بَدْر بأوليائه المؤمنين نَصَرَهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عَدد المسلمين وعُدَدِهم، وكَثرة المشركين وعُدَدهم.

الآية (٢٤): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كَفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يَصِلْ إليهم منهم سوء، وكَفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صَان كلًّا من الفريقين، وأَوْجَد بينهم صُلحًا فيه خَيْرَةٌ(١) للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

[سبب النزول]: عن أنس بن مالك قال: لَـمَّا كان يوم الحديبية هَبَطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السلاح، من قِبَل جَبل التنعيم، يريدون غِرَّة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأُخِذُوا، فعفا عنهم، ونزَلَت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [رواه مسلم].

الآية (٢٥-٢٦): يقول تعالى مُخْبِرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وأنتم أحقُّ به، وأنتم أهله في نَفْس الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يَصِلَ إلى مَحِلِّه، وهذا من بَغْيهم وعنادهم. وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممَّن يَكتُم إيمانه ويُخفِيه منهم خِيْفَةً على أنفسهم من قومهم، لكُنَّا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأَبَدْتُم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثْمٌ وغَرَامَة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤَخِّرُ عقوبتَهم لِيُخَلِّصَ مِن بين أظهرهم المؤمنين، ولِيرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تـميَّز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلَّطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا.

عن جُنَيْد بن سَبُع قال: قاتلتُ رسول الله ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلتُ معه آخر النهار مسلمًا، وفينا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين [قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات]. وعن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تَزَيَّلَ الكفار من المؤمنين، لعذَّبَهم الله عذابًا أليمًا بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهي قول: «لا إله إلا الله». وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال علي: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال الزهري: «بسم الله الرحمن الرحيم». وقال قتادة: لا إله إلا الله. ﴿وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كان المسلمون أحقَّ بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

الآية (٢٧-٢٨): كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دَخَل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلمَّا ساروا عام الحديبية لم يَشُكَّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تَتَفَسَّرُ هذا العام، فلمَّا وَقَع ما وَقَع من قضية الصُّلْح ورَجَعُوا عامَهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وَقَع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر ابن الخطاب في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تُخْبِرنا أنا سنأتي البيت ونَطُوف به؟! قال: «بلى، أفأخبرتُكَ أنكَ تأتيه عامَك هذا؟!» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به». وبهذا أجاب الصديق، أيضًا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة(٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالٌ مُقَدَّرَة؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا مُحَلِّقِين ومُقَصِّرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حَلَق رأسه ومنهم من قَصَّره. وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأَثْبَتَ لهم الأمن حال الدخول، ونَفَى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعَلِمَ الله تعالى من الـخَيْرَةِ والـمَصْلحة في صَرْفِكم عن مكة ودخولكم إليها عامَكم ذلك ما لم تعلموا أنتم. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وُعِدْتُم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى مُبَشِّرًا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حقٌّ وإنشاءاتها عَدْل.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عَرَب وعَجَم، ومِلِّيِّينَ ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره.

---

(١) بفتح الخاء وسكون الياء بمعنى: الأفضل، بخلاف (خِيَرَة) بكسر الخاء وفتح الياء بمعنى الاختيار؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

(٢) القُذَذ: ريش السهْم؛ كل ريشة قُذَّة، وَمِنْه: «حَذْو القُذَّة بالقُذَّة» أَي: كَمَا تقدر كل قُذَّة عَلَى صاحبتها؛ يضْرب مثلا للشيئين يستويان. [غريب الحديث لابن الجوزي،باب القاف مع الذال].

الآية (٢٩): يُخْبِر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حَقًّا بلا شكٍّ ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وَصْف جميل، ثم ثَنَّى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا بَرًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر[1]، ضَحُوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». وشبك ﷺ بين أصابعه، كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وَصَفَهم بكثرة العمل وكَثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووَصَفَهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول؛ كما قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ يعني: السَّمْت الحَسَن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع. وقال السُّدِّي: الصلاة تُحَسِّنُ وُجُوهَهم. وقال بعض السلف: من كَثُرَتْ صَلَاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن للحسنةِ نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسَعَةً في الرزق، ومَحَبَّةً في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يَظْهَر على صفحات الوجه؛ فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلحَ الله ظاهره للناس، كما رُوي عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أَصْلَحَ سريرته أَصْلَحَ الله علانيته. وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. فالصحابة ﷺ خَلُصَتْ نياتهم وحَسُنَتْ أعمالهم، فكلُّ من نَظَر إليهم أعجبوه في سَمْتِهم وهَدْيِهم. وقال مالك ﷺ: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظَّمَة في الكتب المُتَقَدِّمَة، وأَعْظَمُها وأَفْضَلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نَوَّه الله بِذِكْرهم في الكُتُب المُنْزَلَة والأخبار المُتَدَاوَلَة؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: شَدَّهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: شَبَّ وطال، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيَّدُوه ونَصَرُوه فَهُم معه كالشَّطْءِ مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك -في رواية عنه- [القول] بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة؛ قال: لأنهم يَغِيظُونهم، ومن [غَاظه] الصحابةُ فهو كافر؛ لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التَّعَرُّض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم. ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ «مِن» هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا، ووَعْد الله حقٌّ وصِدْق، لا يُخْلَفُ ولا يُبَدَّل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسَّبْق والكمال الذي لا يَلحَقُهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَل.

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٨) آيةً].

الآية (١-٣): هذه آداب، أَدَّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: لا تُسْرِعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تَبَعًا له في جميع الأمور.

قال ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أَمْرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ هذا أدب ثانٍ أَدَّب الله به المؤمنين: أَلَّا يَرْفَعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. [سبب النزول]: روى البخاري عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكا -أبو بكر وعمر- رَفَعَا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قَدِم عليه رَكْب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. قال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية. وروى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَه. فأتاه فوَجَدَه في بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنُك؟ فقال: شَرٌّ؛ كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حَبِطَ عمله، فهو من أهل النَّار. فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «اذهب إليه فقُلْ له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّكَ من أهل الجنة». وقد نَهَى الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ.

ثم نَهَى عن الجهر له بالقول كما يَجْهَر الرجل لِـمُخَاطِبِه ممَّن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقوله ﷻ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنَّما نهيناكم عن رَفْع الصوت عنده خشيةَ أن يَغْضَبَ من ذلك، فيَغْضَب الله لغَضَبه، فيُحْبِط الله عَمَل من أغضَبَه وهو لا يدري. ثم نَدَب الله ﷻ إلى خَفْض الصوت عنده، وحَثَّ على ذلك، وأَرْشَدَ إليه، ورَغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أَخْلَصَها لها وجَعَلها أهلًا ومحلًّا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية (٤): ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) هذا في مقابلة الكافر العدو، أما مع غيره فالحال تختلف؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

الآية (٥): ثم أَرْشَدَ إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد ذُكر أنها نَزَلَت في الأقرع بن حابس التميمي، فيما أورده غير واحد.

الآية (٦-٨): يأمر تعالى بالتَّثَبُّت في خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يُحكَم بقوله فيكون -في نفس الأمر- كاذبًا أو مخطِئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين، ومن ههنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فِسْقِه في نفس الأمر، وقَبِلَها آخرون لأنَّا إنَّما أُمِرْنا بالتَّثَبُّت عند خَبَر الفاسق، وهذا ليس بمُحَقَّق الفِسْق؛ لأنه مجهول الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أَظْهُرِكم رسول الله فعظِّمُوه ووَقِّرُوه، وتَأَدَّبوا معه، وانقادوا لأمره؛ فإنه أعلم بمصالحكم، وأَشْفَق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمُّ من رأيكم لأنفسكم؛ كما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]. ثم بَيَّن أن رأيهم سخيف[1] بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدَّى ذلك إلى عَنَتِكُم وحَرَجكم.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حَبَّبَهُ إلى نفوسكم وحَسَّنَهُ في قلوبكم.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي: وبَغَّضَ إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعِصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: الـمُتَّصِفُون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رُشْدَهم.

وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فَضْل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الهداية ممَّن يستحق الغواية، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

الآية (٩-١٠): يقول تعالى آمرًا بالإصلاح بين الفئتين: الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، فسَمَّاهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدلَّ البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عَظُمَتْ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه.

[سبب النزول]: عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله ابن أُبيٍّ؟! فانطلق إليه نبي الله ﷺ ورَكِبَ حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلمَّا انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليكَ عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحًا منك. قال: فغَضِب لعبد الله رجال من قومه، فغَضِب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضَرْب بالجريد والأيدي والنعال، فبَلَغَنا أنه أُنْزِلَت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [متفق عليه].

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حُكْمهم وأهاليهم وما وَلُوا» رواه مسلم. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يُسْلِمه» [متفق عليه]. وفي الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يَشُدُّ بعضُه بعضًا» وشَبَّكَ بين أصابعه [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفئتين المقتتلتين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتَّقَاه.

الآية (١١): ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما في الصحيح: «الكِبْر بَطَرُ الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغَمْط الناس» [رواه مسلم]. والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام؛ فإنه قد يكون الـمُحْتَقَر أعظم قَدْرًا عند الله وأَحَبَّ إليه من الساخر منه الـمُحْتَقِر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ فنَصَّ على نَهْي الرجال وعَطَف بنهي النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تَلْمِزُوا الناس. والهمَّاز اللَّمَّاز من الرجال مذموم ملعون؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، والـهَمْز بالفعل واللَّمْز بالقول؛ كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١] أي: يحتقر الناس ويَهْمِزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللَّمْز بالمقال؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يَطْعَن بعضكم على بعض.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تدعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. [سبب النزول]: عن أبي جَبِيرة بن الضحاك قال: فينا نَزَلَت في بني سَلِمَة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسمٍ من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني]. وقوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم «الفسوق»، وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(١) السُّخْفُ: الخِفَّةُ في كل شيء. [معجم مقاييس اللغة].

الآية (١٢): ينهى تعالى عن كثير من الظَّنِّ، وهو التهمة والتخوُّن للأهل والأقارب والناس في غير مَحَلِّه؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليُجْتَنَب كثير منه احتياطًا، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكْذَبُ الحديث» [متفق عليه].

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضًا. والتجسس غالبًا يُطلَق في الشَّر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير؛ كما قال تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يُسْتَعْمَل كلٌّ منهما في الشَّرِّ، كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَجَسَّسُوا، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، وكونوا عباد الله إخوانًا» [متفق عليه].

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فَسَّرَها الشارع كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أخاك بما يَكْرَهُ». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟! قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغْتَبْتَهُ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّهُ» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. والغِيبة محرَّمة بالإجماع، ولا يُسْتَثْنَى من ذلك إلا ما رَجَحَتْ مصلحته؛ كما في الجرح والتعديل، والنصيحة، وما جرى مَجْرَى ذلك. ثم بقيّتها على التحريم الشديد، وقد وَرَدَ فيها الزَّجر الأكيد؛ ولهذا شَبَّهَهَا تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت؛ كما قال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟! أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أَشَدُّ من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أَمَرَكم به ونهاكم عنه، فراقِبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ على من تاب إليه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن رَجَعَ إليه، واعتمد عليه. قال جمهور العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألَّا يعود، وأن يتحلل من الذي يغتابه. وقال آخرون: لا يُشترَط أن يَتَحَلَّله؛ فإنه إذا أَعْلَمَه بذلك ربَّما تأذى أشدَّ مما إذا لم يَعْلَم بما كان منه، فطريقه إذًا أن يُثْني عليه بما فيه في المجالس التي كان يَذُمُّه فيها، وأن يَرُدَّ عنه الغيبة بحَسْبِه وطاقته، فتكون تلك بتلك.

الآية (١٣): يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجَعَل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجَعَلهم ﴿شُعُوبًا﴾، وهي أَعَمُّ من القبائل. وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العَرَب. فجميع الناس في الشَّرَف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليَحْصُل التعارف بينهم، كلٌّ يَرجع إلى قبيلته.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن يَنْظُرُ إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بأموركم، فيهدي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، ويَرحَم من يشاء، ويُعَذِّب من يشاء، ويُفَضِّل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة مَن ذَهَب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تُشْتَرَط، ولا يُشْتَرَط سوى الدين؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الآية (١٤-١٨): يُنكِر تعالى على الأعراب الذين أوَّل ما دخلوا في الإسلام ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يَتَمَكَّن الإيمان في قلوبهم بعد. وقد اسْتُفِيدَ من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أَخَصُّ من الإسلام؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويَدُلُّ عليه حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سألَ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان[1]، فترَقَّى من الأعَمِّ إلى الأخَصِّ، ثم للأخَصِّ منه. وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يَسْتَحْكِم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوا لأنفسهم مقامًا أعلى ممَّا وصلوا إليه، فأُدِّبُوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة، واختاره ابن جرير.

وإنما قلنا هذا لأن البخاري -رحمه الله- ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان، وليسوا كذلك، ولو كانوا منافقين لَعُنِّفُوا وفُضِحُوا. وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تَصِلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا يُنْقِصْكم من أجوركم شيئًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمَّل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يَشُكُّوا ولا تَزَلْزَلُوا، بل ثَبَتُوا على حال واحدة، وهي التصديق المَحْض.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وَبَذَلُوا مُهَجَهُم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه مثقال ذَرَّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. ثم قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني: الأعراب الذين يَمُنُّونَ بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله ردًّا عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾؛ فإنَّ نَفْعَ ذلك إنَّما يعود عليكم، ولله المِنَّة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟! وعالة فأغناكم الله بي؟!» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. [رواه البخاري]، ثم كَرَّرَ الإخبار بعِلْمِه بجميع الكائنات، وبَصَره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يشير إلى الحديث الأول في كتاب الإيمان من صحيح مسلم، الذي فيه بيان أركان الإسلام وأركان الإيمان.

تفسير سورة «ق»

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٥) آيةً].

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح.

[فضل السورة]: عن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بـ﴿قٓ﴾، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ [سورة القمر] [رواه مسلم]. وعن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خَطَبَ الناس [رواه مسلم].

والقَصْد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار؛ كالعيد والجُمَع، لاشتمالها على ابتداء الخَلْق والبَعْث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب. والله أعلم.

الآية (١-٥): ﴿قٓ﴾ حروف الهجاء في أوائل السور أسلَفنا الكلام عليها. وقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢]. واختلفوا في جواب القسم ما هو. فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه: قوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٞ﴾. وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم مُتَلَقًّى لفظًا، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تَقَدَّم في قوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص:١-٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: تَعَجَّبُوا من إرسال رسول إليهم من البشر؛ كقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس:٢] أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

ثم قال مُخْبِرًا عنهم في عَجَبهم أيضًا من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ أي: يقولون: أَئِذَا مِتْنَا وبَلِينَا، وتقطَّعَت الأوصال منا، وصِرْنا ترابًا، كيف يُمْكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟!

﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البِلَى؛ نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تَفَرَّقَت الأبدان، وأين ذَهَبَت، وإلى أين صَارَت، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٞ﴾ أي: حافظ لذلك، فالعِلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة.

ثم بَيَّن تعالى سَبَب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ أي: وهذا حال كل من خَرَج عن الحقِّ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل.

والـمَرِيج: المختلف المضطرب الـمُلْتَبِس الـمُنْكَر خلاله؛ كقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

الآية (٦-١١): يقول تعالى منبِّهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهَر بها ما هو أعظم ممَّا تعجَّبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾؟! أي: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق. وقال غيره: فُتُوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣، ٤]. وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ أي: وسَّعْناها وفرشناها، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٖ﴾ أي: حَسَن نَضِر ﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ أي: ومشاهدة خَلْق السموات والأرض وما جَعَل فيهما من الآيات العظيمة تبصرةً ودلالةً ﴿وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾، أي: خاضع خائف وَجِل رَجَّاع إلى الله ﷻ. وقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: نافعًا، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ وهو: الزَّرع الذي يُرَاد لِحَبِّه وادِّخاره.

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ أي: طِوَالًا شاهقات. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسُّدِّي وغيرهم: الباسقات الطِّوَال. ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي: منضود. ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: للخَلْق، ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ وهي: الأرض التي كانت هامدة، فلمَّا نَزَل عليها الماء اهْتَزَّتْ ورَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، ممَّا يحار الطرف في حُسْنِها، وذلك بعد ما كانت لا نَبَات بها، فأصبَحَتْ تَهْتَزُّ خضراء، فهذا مثال للبَعْثِ بعد الموت والهلاك، كذلك يُحْيِي الله الموتى. وهذا المشاهَدُ من عظيم قدرته بالحسِّ أعظم ممَّا أَنْكَرَه الجاحدون للبَعْث.

الآية (١٢-١٥): يقول تعالى مُتَهَدِّدًا لكفار قريش بما أَحَلَّهُ بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذِّبين قَبْلَهم، من النَّقَمات والعذاب الأليم في الدنيا؛ كقوم نوح وما عَذَّبَهم الله به من الغَرَق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرَّسِّ، وقد تقدَّمت قصَّتهم في سورة «الفرقان». ﴿وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾ وهم أمته الذين بُعِث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغَوْر، وكيف خَسَفَ الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بُحيرة مُنْتِنَة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحقَّ، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَام، ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ وهو اليماني. ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كلٌّ من هذه الأمم وهؤلاء القرون كَذَّب رسوله، ومن كَذَّبَ رسولًا فكأنَّما كَذَّب جميع الرسل؛ كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذَّبوهم. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فَحَقَّ عليهم ما أَوْعَدَهم الله على التكذيب من العذاب والنكال، فليَحْذَر المخاطبون أن يُصِيبَهم ما أصابهم؛ فإنهم قد كَذَّبُوا رسولهم كما كَذَّبَ أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ أي: أَفَأَعْجَزَنا ابتداءُ الـخَلْق حتى هم في شَكٍّ من الإعادة؟! ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ والمعنى: أن ابتداء الـخَلْق لم يُعجِزْنا، والإعادة أَسْهَلُ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته» [رواه البخاري].

الآية (١٦-٢٢): يُخْبِرُ تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما تُوَسْوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حَبل وريده إليه. ومن تأوَّله على العلم فإنَّما فَرَّ لئلا يَلْزَمَ حُلُولٌ أو اتِّحَاد، وهما مَنْفِيَّان بالإجماع -تعالى الله وتقدَّس- ولكن اللفظ لا يقتضيه؛ فإنه لم يَقُل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنَّما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥]؛ يعني ملائكته. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك؛ فللملك لَـمَّةٌ في الإنسان كما أن للشيطان لَـمَّة؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مُتَرَصِّدٌ، ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلَّم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها مُعَدٌّ لذلك يَكتُبها، لا يَتْرُك كلمةً ولا حركةً؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يَكتُب الملك كل شيء من الكلام، وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، وظاهر الآية الأول؛ لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. قوله: ﴿وَجَاءَتْ﴾ أيها الإنسان ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: كَشَفَتْ لك عن اليقين الذي كُنْتَ تَـمْتَري فيه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كُنْتَ تَفِرُّ منه قد جاءك، فلا محيدَ ولا مناصَ، ولا فِكَاك ولا خَلاص. وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿كُنتَ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك. وعن النبي ﷺ: لَـمَّا تَغَشَّاه الموت جَعَل يَمْسَح العَرَق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات» [رواه البخاري]. وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» ههنا موصولة، أي: الذي كُنْتَ منه تَحِيد -بمعنى: تَبْتَعِد وتَنْأَى وتَفِرّ- قد حَلَّ بك ونَزَلَ بساحتك. والثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كُنْتَ تَقْدِرُ على الفرار منه ولا الحيد عنه. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ النفخ في الصور للفزع والصعق والبعث. ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، وعن أبي هريرة: السائق: المَلَك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه؛ يشهد على نفسه. وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير. والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كلَّ واحد يوم القيامة يكون مستبصرًا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك.

الآية (٢٣-٢٩): يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: مُعْتَد مُحْضَرٌ بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام المَلَك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكَّلْتَني به، قد أَحْضَرْته. وقد اختار ابن جرير أن يَعُمَّ السائق والشهيد، وله اتِّجَاهٌ وقوة. فعند ذلك يحكم الله في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلمَّا أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لا يُؤَدِّي ما عليه من الحقوق، ولا بِرَّ فيه ولا صِلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ فيما ينفقه ويَصْرفه، يَتَجَاوَز فيه الحدَّ. ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكّ في أمره، مريب لمن نَظَرَ في أمره. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أشرك بالله فعَبَدَ معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وُكِّل به. أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا، يَتَبَرَّأ منه شيطانه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي: ما أَضْلَلْتُه، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالًّا قابلًا للباطل معاندًا للحقِّ. ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الربُّ ﷻ للإنسي وقَرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحقِّ ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: قد أَعْذَرْتُ إليكم على ألسنة الرُّسُل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيتُ ما أنا قاضٍ، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لست أُعَذِّب أحدًا بذنب أحد، ولكن لا أُعَذِّب أحدًا إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

الآية (٣٠-٣٥): يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: هل بَقِي شيء تزيدوني؟ هذا هو ظاهر سياق الآية، وعن أنس [مرفوعًا]: «يُلقَى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول قَطْ قَطْ» [رواه البخاري]. ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال قتادة وأبو مالك والسُّدِّي: أُدْنِيَتْ وقُرِّبَتْ من المتقين. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت قريب.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رَجَّاع تائب مُقْلِع، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا يَنْكُثُه. ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من خاف الله في سِرِّه حيث لا يراه أحد إلا الله؛ كقوله ﷺ: «ورجلٌ ذَكَر الله خاليًا، ففاضت عيناه» [متفق عليه]. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ولقيَ الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه. ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سَلِموا من عذاب الله، وسَلَّم عليهم ملائكة الله. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يَظْعَنون أبدًا، ولا يَبغُون عنها حِوَلًا. وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: مهما اختاروا وَجَدوا من أي أصناف الملاذِّ طلبوا أُحْضِرَ لهم. وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وعن صُهَيب: أنها النظر إلى وجه الله الكريم [رواه مسلم].

الآية (٣٦-٤٠): يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذِّبين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ كانوا أكثر منهم وأشد قوةً، ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم:٩]؛ ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس: أَثَّرُوا فيها. وقال مجاهد: ضَرَبوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر ممَّا طُفْتُم أنتم فيها. ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من مَفَرٍّ كان لهم من قضاء الله وقدره؟! وهل نفعهم ما جَمَعُوه وَرَدَّ عنهم عذاب الله إذ جاءهم لَـمَّا كذَّبوا الرُّسُل؟! فأنتم أيضًا لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيدَ ولا مَنَاصَ ولا محيص. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهد: عَقْل. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوَعَاه، وتَعَقَّلَه بقلبه وتفهَّمه بِلُبِّه. وقال مجاهد: يعني: لا يحدث نفسه في هذا بغيره ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وَقَالَ: شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ فيه تقرير المعاد؛ لأن من قَدَر على خلق السموات والأرض -﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣]- قادر على أن يُحْيِيَ الموتى بطريق الأولى والأحرى. [سبب النزول]: قال قتادة: قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: خَلَق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزَل الله تكذيبهم: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: من إعياء ولا نَصَب ولا تَعَب. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبين، اصبر عليهم ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حَوْلًا، ثم نُسِخَ في حَقِّ الأمة وجوبه. ثم بَعْدَ ذلك نَسَخَ الله ذلك كلَّه ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فَصَلِّ له ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، رُوِيَ ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنَّخَعِي والحسن وقتادة وغيرهم.

الآية (٤١-٤٥): ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى مَلَكًا أن يُنادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمرُكُنَّ أن تَجْتَمِعْن لفَصْل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحقِّ الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيُجَازِي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ ذلك أن الله تعالى يُنْزِلُ مطرًا من السماء تَنْبُتُ به أجساد الخلائق في قبورها، كما يَنْبُتُ الحبُّ في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أَمَرَ الله إسرافيل فيَنْفُخَ في الصور، وقد أُوْدِعَت الأرواح في ثُقْب في الصور، فإذا نَفَخَ إسرافيل فيه خَرَجَت الأرواح تَتَوَهَّج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لَتَرْجِعَنَّ كلُّ روح إلى الجسد الذي كانت تَعْمُرُه، فتَرْجِع كل رُوْح إلى جسدها، فتَدُبُّ فيه كما يَدُبُّ السُّمُّ في اللديغ وتَنْشَقُّ الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا، مبادرين إلى أمر الله ﷻ، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٥٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]. وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن عِلْمُنَا مُحِيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهِيدَنَكَّ ذلك. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولستَ بالذي تُجْبِرُ هؤلاء على الهدى، وليس ذلك ما كُلِّفْتَ به. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بَلِّغْ أنت رسالة ربك، فإنما يَتَذَكَّر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده. وكان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممَّن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بَارُّ يا رحيم.

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية، [وعدد آياتها (٦٠) آيةً].

الآية (١-٦): ثَبَتَ من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكوَّاء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: الريح قال: ﴿فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا﴾؟ قال: السَّحَاب: قال: ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السُّفُن. قال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة. وهكذا فَسَّرَها ابن عباس وابن عمر ومجاهد والحسن وقتادة والسُّدِّي وغير واحد. ولم يَحْكِ ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. والحاملات وِقرًا: السحاب؛ لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسرًا، فالمشهور عن الجمهور: أنها السفن؛ تجري ميسرةً في الماء جَرْيًا سهلًا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يُسْرًا في أفلاكها، ليكون ذلك تَرَقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرًا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: لَخَبَرُ صِدْق، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ وهو: الحساب ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي: لكائنٌ لا محالة.

الآية (٧-١٤): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحُسن والاستواء. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبَيْر. وقال الحسن: حُبِكَتْ بالنجوم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ فإنها من حُسْنِها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مُكَلَّلَة بالنجوم، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: ما بين مصدِّق بالقرآن ومكذِّب به. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما يَنقَاد له ويَضِل بسببه ويُؤْفَكُ عنه من هو مَأْفُوكٌ ضال غَمْر، لا فَهْم له. قال ابن عباس والسُّدِّي: يُضَلَّ عنه من ضَلَّ. وقال مجاهد: يُؤْفَنُ عنه من أُفِنَ. وقال الحسن: يُصْرَفُ عن هذا القرآن من كَذَّب به. ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذَّابون، والخراصون الذين يقولون لا نُبْعَثُ ولا يُوقِنُون. وقال ابن عباس: أي: لُعِنَ المُرْتَابُون. وهكذا كان معاذ يقول في خُطبَه: هَلَك المرتابون. وقال قتادة: الخرَّاصون: أهل الغِرَّة والظنون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشكِّ غافلون لاهون. ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيبًا وعنادًا وشكًّا واستبعادًا. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يُعَذَّبُون، كما يُفْتَن الذَّهَب على النار. وقال آخرون كمجاهد أيضًا وعكرمة والنَّخَعي: يُحْرَقُون. ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حَرِيقَكُم. وقال غيره: عذابكم. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يُقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

الآية (١٥-٢٣): يقول تعالى مُخْبِرًا عن المتقين لله ﷻ: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ ثم بيَّن إحسانهم في العمل فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اختلف في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلًا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. والثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلًا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير. وقوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلّون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأَخَّرُوا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ لَـمَّا وَصَفَهم بالصلاة ثَنَّى بوَصْفِهم بالزَّكاة والبِرِّ والصلة، فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أما السائل: فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حقٌّ. وأما المحروم: فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارَف[1] الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حِرْفَةٌ يَتَقَوَّت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال قتادة والزهري: المحروم: الذي لا يسأل الناس شيئًا، قال الزهري: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذي تَرُدُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه، ولا يُفطَن له فيُتَصَدَّق عليه» [متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه]. واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذَهَب ماله، سواءً كان لا يقدر على الكسب، أو قد هَلَك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها. وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، ممَّا قد ذَرَأَ، ولهذا قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكر في خَلْق نفسه عَرَفَ أنه إنما خُلِقَ ولُيِّنَتْ مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يُقْسِم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وَعَدَهم به من أَمْر القيامة والبَعْث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حَقٌّ لا مريةَ فيه، فلا تَشُكُّوا فيه كما لا [تَشُكُّون] في نُطْقِكم حين تنطقون.

الآية (٢٤-٣٠): ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: الذين أَرْصَدَ لهم الكرامة. وقد ذَهَب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وَرَدَت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل. وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرَدُّه أفضل من التسليم، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل قَدِمُوا عليه في صور شُبَّان حِسَان عليهم مَهَابَة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: انْسَلَّ خُفيةً في سرعة ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خِيَار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩] أي: مشوي على الرَّضف، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: تَلَطُّفٌ في العبارة وعَرْضٌ حَسَن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال[2] على ما في السورة الأخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠]. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ البشارة له هي بشارة [لامرأته]؛ لأن الوَلَد منهما، فكلٌّ منهما بُشِّر به. ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صَرْخَة عظيمة ورَنَّة، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة؛ وهي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ [هود:٧٠]. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضَرَبَت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس: لَطَمَتْ، أي تعجبًا كما تَتَعَجَّب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف أَلِدُ وأنا عجوز، وقد كُنْتُ في حال الصبا عقيمًا لا أَحْبَل؟! ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

---

(١) المُحارَفُ: الَّذِي لَا يُصِيبُ خَيْرًا مِنْ وجْهٍ تَوَجَّه لَهُ، وَالْمُصْدَرُ الحِرافُ، وَيُقَالُ لِلْمَحْرُومِ الَّذِي قُتِّرَ عَلَيْهِ رزقُه: مُحارَفٌ. [لسان العرب، مادة (حرف)].

(٢) من الإحالة على شيء آخر، وليست بمعنى ممتنع؛ ويقصد أن آية سورة هود المحال عليها تبين سبب التوجس.

الآية (٣١-٣٧): قال الله مُخْبِرًا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٤-٧٦]. وقال ههنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم؟ وفيمَ جئتم؟

﴿قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمَةً ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مُكْتَتَبة عنده بأسمائهم، كلُّ حَجَر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وقال ههنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ احتجَّ بهذه من ذَهَب إلى رأي المعتزلة، ممَّن لا يفرِّق بين مُسمَّى الإيمان والإسلام؛ لأنه أَطْلَقَ عليهم المؤمنين والمسلمين.

وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرةً، لِـمَا أَنزَلْنا بهم من العذاب والنَّكال وحِجَارة السجيل، وجعلنا مَحَلَّتهم بُحيرةً مُنتنةً خبيثةً، ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين الذين ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

الآية (٣٨-٤٦): يقول تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عمَّا جاءه به موسى من الحقِّ المبين، استكبارًا وعنادًا. وقال مجاهد: تَعَزَّزَ بأصحابه. وقال قتادة: غَلَبَ عدُوُّ الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بجُمُوعِه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠].

والمعنى الأول قوي؛ كقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٩] أي: مُعْرِض عن الحق مُسْتَكْبِر.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرًا أو مجنونًا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: ألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو مَلوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي: المُفسِدَة التي لا تنتج شيئًا. قاله الضحاك وقتادة وغيرهما.

ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مهما تُفْسِدُه الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي. قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ قالوا: هي الجنوب.

وقد ثَبَتَ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عاد بالدَّبُور[1]» [متفق عليه].

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فَناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت:١٧].

وهكذا قال ههنا: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: مِن هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا ممَّا هم فيه.

وقوله ﷻ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدَّمت في أماكن كثيرة، من سور متعدِّدة.

الآية (٤٧-٥١): يقول تعالى مُنَبِّهًا على خَلْق العالم العُلْوي والسُّفْلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفًا محفوظًا رفيعًا ﴿بِأَيْىٍ﴾ أي: بقوةٍ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد وَسَّعْنَا أرجاءها وَرَفَعْنَاها بغير عَمَد، حتى اسْتَقَلَّتْ كما هي. ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مَهْدًا لأهلها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبَرّ وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له.

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تُشْركوا به شيئًا، ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) سبق شرح الصبا والدبور في صفحة ٤١٩.

الآية (٥٢-٦٠): يقول تعالى مُسلِّيًا نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾! قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ أي: أَوْصَى بعضُهم بعضًا بهذه المقالة؟! ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدِّمُهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعْرِض عنهم يا محمد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نَلُومك على ذلك، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إنَّما خلقتُهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال ابن عباس: إلا لِيُقِرُّوا بعبادتي طَوعًا أو كُرْهًا. وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيْج: إلا لِيَعْرِفُونِ. وقال الربيع بن أنس: أي: إِلَّا لِلْعِبَادَةِ. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ معنى الآية: أنه تعالى خَلَق العباد ليعبدوه وَحْدَه لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أَتَمَّ الجزاء، ومن عصاه عَذَّبه أَشَدَّ العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم؛ فهو خالقهم ورازقهم. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأسدُّ فَقْرَك، وإلا تَفْعَل مَلَأْتُ صَدْرَك شُغْلًا ولم أَسُدَّ فقرك» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر].

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك؛ فإنه واقع لا محالة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: يوم القيامة.

تفسير سورة الطور

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٩) آيةً].

[فضل السورة]: عن جُبَير بن مُطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المَغْرِب بالطور، فما سَمِعْتُ أحدًا أَحْسَنَ صوتًا -أو قراءةً- منه [متفق عليه].

وعن أم سلمة قالت: شَكَوْتُ إلى رسول الله ﷺ أني أَشْتَكِي، فقال: «طُوفي من وراء الناس وأنتِ راكبة»، فطفتُ، ورسول الله ﷺ يُصَلِّي إلى جَنْب البيت يَقرأ بالطور وكتاب مسطور [رواه البخاري].

الآية (١-١٤): يُقسِم تعالى بمخلوقاته الدَّالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافعَ له عنهم. فالطُّور هو: الجَبَل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى، وأُرْسِلَ منه عيسى، وما لم يكن فيه شَجَر لا يُسَمَّى طُورًا، إنما يُقال له: جَبَل. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكُتُب المُنْزَلَة المكتوبة التي تُقْرَأُ على الناس جِهَارًا؛ ولهذا قال: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ في حديث الإسراء: «ثم رُفِعَ بي[1] إلى البيت المعمور، وإذا هو يَدخُلُه في كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم» [متفق عليه] يعني: يتعبَّدُون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كَعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وَجَدَ إبراهيم الخليل مُسنِدًا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كلِّ سماء بيت يَتَعَبَّدُ فيه أهلها، ويصلُّون إليه، والذي في السماء الدنيا يُقال له: بيت العِزَّة. والله أعلم.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ قال عَلِيٌّ: يعني: السماء، ثُم تَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢]. وكذا قال مجاهد وقتادة والسُّدِّي وابن جُرَيْج وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني: أنه سَقْف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العَرش، الذي يُنَزِّل الله منه المطر الذي يُحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنى قوله: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يُوقَد يوم القيامة نارًا؛ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أُضْرِمَتْ فتصير نارًا تَتَأَجَّج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب، ورُوي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم. وقال قتادة: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس مُوقَدًا اليوم فهو مملوء. وعن ابن عباس: الفارغ. وقيل: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فَيُغْرِقَ أهلها. قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه يقول السُّدِّي وغيره.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المُقْسَمُ عليه، أي: لَوَاقِعٌ بالكافرين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا. وعن ابن عباس: هو تَشَقُّقُها، وقال مجاهد: تدور دَوْرًا. وقال الضحاك: اسْتِدَارَتُها وتَحَرُّكها لأمر الله، وموج بعضها في بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التَّحَرُّك في استدارة.

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تذهب فتصير هباءً مُنْبَثًّا، وتُنْسَفُ نَسْفًا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويلٌ لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعِقابه لهم، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويَتَّخِذُون دينهم هُزُوًا ولَعِبًا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يُدْفَعُون ويُسَاقُون ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ قال مجاهد والشعبي والسُّدِّي وغيرهم: يُدْفَعُون فيها دَفْعًا ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعًا وتوبيخًا.

---

(١) الذي في البخاري ومسلم: «ثم رُفِعَ لي البيتُ المعمور...». [البخاري: (٣٢٠٧)، ومسلم: (١٦٤)].

الآية (١٥-١٦): ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها دخول من تَغْمُرُهُ من جميع جهاته. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يَظْلِم الله أحدًا، بل يُجازي كلًّا بعمله.

الآية (١٧-٢٠): أَخْبَرَ الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بِضِدِّ ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يَتَفَكَّهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذِّ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك. ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجّاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حِدَتِها مع ما أُضِيفَ إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا بذاك، تفضُّلًا منه وإحسانًا.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السُّرُر في الحِجَال. ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض؛ كقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الصافات:٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم قَرِينَات صالحات، وزوجات حِسَانًا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تَقَدَّم وَصْفُهُن في غير موضع بما أَغْنَى عن إعادته.

الآية (٢١-٢٨): يُخْبِرُ تعالى عن فَضْله وكَرَمه، وامتنانه ولُطْفِه بخَلْقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتَّبَعَتهم ذرِّيَّاتهم في الإيمان يُلْحِقُهم بآبائهم في المَنْزِلَة، وإن لم يَبْلُغوا عَمَلَهم، لِتَقَرَّ أَعْيُن الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيَجْمَع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾. وعن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذريةَ المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لِتَقَرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾. وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة. وهو اختيار ابن جرير.

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء؛ فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صَدَقة جارية، أو عِلْم يُنتفَعُ به، أو وَلَد صالح يدعو له» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾: لَـمَّا أَخْبَر عن مقام الفَضْل، وهو رَفْع درجة الذُّرِّية إلى منزلة الآباء من غير عَمَل يقتضي ذلك، أَخْبَر عن مقام العَدْل، وهو أنه لا يُؤَاخِذُ أحدًا بذَنْب أحد، بل ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مُرْتَهَنٌ بعمله، لا يُحْمَلُ عليه ذَنْبُ غيره من الناس، سواء كان أبًا أو ابنًا؛ كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر:٣٨-٤١].

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، ممَّا يُستَطَاب ويُشتَهَى.

وقوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يَتَعَاطون فيها كأسًا، أي: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يتكلَّمون عنها بكلام لاغٍ، أي: هَذَيَان، ولا إثم، أي: فُحْش؛ كما تَتَكَلَّمُ به الشَّرَبَةُ من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكَذِب. وقال مجاهد: لا يَسْتُبُّون ولا يُؤَثِّمُون. وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان. فنزَّهَ الله خَمْر الآخرة عن قاذورات خَمْر الدنيا وأذاها، فنَفَى عنها -كما تقدَّم- صداع الرأس، ووَجَع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأَخْبَر أنها لا تَحْمِلهم على الكلام السَّيِّئ الفارغ عن الفائدة المُتَضَمِّن هَذَيَانًا وفُحشًا، وأخبر بحُسْن منظرها، وطيب طَعْمها ومَخْبَرِها فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٦-٤٧]، وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، وقال ههنا: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ إخبار عن خَدَمِهم وحَشَمِهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرَّطْب، المكنون في حُسْنِهم وبهائهم ونظافتهم وحُسْن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧-١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: أقبلوا يَتَحَادَثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يَتَحَادَثُ أهل الشراب على شرابهم إذا أَخَذَ فيهم الشراب بما كان من أمرهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: قد كُنَّا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربِّنا مشفقين من عذابه وعقابه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: فتَصَدَّقَ علينا وأجارنا ممَّا نَخاف. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نَتَضَرَّعُ إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سُؤْلَنا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآية (٢٩-٣١): يقول تعالى آمرًا رسولَه ﷺ بأن يُبَلِّغ رسالته إلى عباده، وأن يُذَكِّرَهم بما أَنْزَل الله عليه. ثم نَفَى عنه ما يَرمِيه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: لستَ بحمد الله بكاهن كما تقوله الجَهَلَةُ من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجان بالكلمة يَتَلَقَّاهَا من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذي يَتَخَبَّطُه الشيطان من المسّ.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت؛ يقولون: نُنْظِرُهُ ونَصْبِر عليه حتى يأتيه الموت فنَسْتَرِيح منه ومن شأنه، قال تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنُّصرة في الدنيا والآخرة.

الآية (٣٢-٣٤): ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كَذِب وزُور؟! ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم ضُلَّال معاندون، فهذا هو الذي يَحْمِلهم على ما قالوه فيك. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اخْتَلَقَه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن، قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يَحملهم على هذه المقالة ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: «تَقوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن؛ فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجِنِّ والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بَعَشْر سُوَر من مِثله، ولا بسُوْرة من مثله!

الآية (٣٥-٤٣): هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أَوُجِدُوا من غير مُوجِد؟! أم هم أَوْجَدوا أنفسَهم؟! أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خَلَقَهم وأَنْشَأَهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا. عن جبير ابن مطعم، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلمَّا بَلَغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير [متفق عليه]. وجبير بن مطعم كان قد قَدِم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركًا، وكان سَمَاعُهُ هذه الآية من هذه السورة مِن جُملة ما حَمَلَهُ على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟! وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: أهم يَتَصَرَّفون في الـمُلْك وبِيَدِهم مفاتيح الخزائن؟!

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المحاسِبون للخلائق؟! ليس الأمر كذلك، بل الله هو المالك الـمُتَصَرِّف الفَعَّال لِـمَا يريد. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: مِرقاةٌ إلى الملأ الأعلى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فليأتِ الذي يستمع لهم بحجةٍ ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفِعَال والمقال، أي: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل. ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثًا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟! وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: أُجرةً على إبلاغك إياهم رسالة الله؟! أي: لستَ تسألهم على ذلك شيئًا، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من أدنى شيء يَتَبَرَّمون، ويُثْقِلُهم ويَشُقُّ عليهم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك؛ فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيبَ إلا الله. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكَيد الرسول وأصحابه، فكَيْدُهم إنما يَرْجِع وَبَالُه على أنفسهم: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟! وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله.

ثم نَزَّهَ نفسه الكريمة عمَّا يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٤٤-٤٩): يقول تعالى مُخْبِرًا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: عليهم، يُعَذَّبُون به، لَـمَا صَدَّقوا ولَـمَا أَيْقَنُوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: متراكم. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: دَعْهم يا محمد ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعهم كيدُهم ومكرُهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نُعَذِّبهم في الدنيا، ونَبْتَلِيهم فيها بالمصائب، لعلَّهم يرجعون ويُنِيبُون، فلا يفهمون ما يُرَاد بهم، بل إذا جُلِّيَ عنهم ممَّا كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر على أذاهم ولا تُبَالِهم، فإنك بمَرْأى مِنَّا وتَحْتَ كلاءتنا، والله يَعصِمك من الناس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أي إلى الصلاة: «سبحانكَ اللهمَّ وبِحَمدِك، وتبارَكَ اسمُك، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرك». وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهما. وروى مسلم عن عمر: أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة. وقال أبو الجوزاء: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير، ويَتَأَيَّد هذا القول بما رُوِي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تَعَارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي -أو قال: ثم دعا- اسْتُجِيبَ له، فإن عَزَمَ فتوضأ، ثم صلى تُقُبِّلَتْ صلاته» [رواه البخاري]. وعن مجاهد: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من كل مجلس. وقال أبو الأحوص: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من جَلَسَ في مجلس فكَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفركَ وأتوبُ إليك، إلا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ عن ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أَشَدَّ تعاهدًا منه على ركعتي الفجر. وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

تفسير سورة النجم

وهي مكية، [وعدد آياتها (٦٢) آيةً].

[فضل السورة]: عن عبد الله [بن مسعود] قال: أَوَّلُ سورة أُنْزِلَتْ فيها سَجْدة: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، قال: فسَجَد رسول الله ﷺ وسَجَد مَن خَلْفَهُ، إلا رجلًا رأيتُه أَخَذَ كَفًّا من تُرَاب فسَجَد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتِل كافرًا [متفق عليه].

الآية (١-٤): قال الشعبي: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال مجاهد: يعني الثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر. واختاره ابن جرير. ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ قال الضحاك: إذا رُمِي به الشياطين. وعن مجاهد: القرآن إذا نَزَل. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه بَارٌّ راشد تابع للحقِّ، ليس بضالٍّ، وهو: الجاهل الذي يَسْلُك على غير طريق بغير عِلْم ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغَاوي: هو العالم بالحقِّ العادل عنه قَصْدًا إلى غيره، فنَزَّهَ الله رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل الضَّلَال كالنصارى وطرائق اليهود. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: ما يقول قولًا عن هوًى وغَرَض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إنما يقول ما أُمِرَ به، يُبَلِّغُه إلى الناس كاملًا مُوَفَّرًا من غير زيادة ولا نقصان.

الآية (٥-١٨): يقول تعالى: محمد ﷺ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو قوة. قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حَسَن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه -عليه السلام- ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. قاله مجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس. ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني: جبريل، استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصُّبح. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: فاقترب جبريل إلى محمد لَـمَّا هَبَط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: بقدرهما إذا مُدّا. قاله مجاهد وقتادة. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات الـمُخْبَر عنه ونَفْي ما زاد عليه؛ كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة.. فهذا تحقيق لِلمُخْبَر به لا شَكَّ ولا تَرَدُّد. والذي قلناه -من أن هذا الـمُقْتَرِب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ إنما هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ- هو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة. فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكِلا المعنيين صحيح.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ روى مسلم عن ابن عباس: رآه بفؤاده مرتين وكذا قال أبو صالح والسُّدِّي وغيرهما، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أَطلَق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن رَوَى عنه بالبصر فقد أَغْرَب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة. وعن أبي ذر: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «نورٌ أَنَّى أَرَاهُ». وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا» [رواه مسلم]. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خَلَقَه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ عن ابن مسعود قال: فَرَاش من ذَهَب. انفرد به مسلم. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: ما ذَهَبَ يمينًا ولا شمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ما جاوز ما أُمِرَ به. وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة؛ فإنه ما فَعَلَ إلا ما أُمِرَ به، ولا سأل فوق ما أُعْطِيَ. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣] أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذَهَب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس.

الآية (١٩-٢٦): يقول تعالى مُقَرِّعًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾؟! وكانت «اللَّات» صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فِنَاء مُعَظَّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتَقُّوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللَّات، يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا. وَحُكِيَ عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفَسَّرُوه بأنه كان رجلًا يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السَّوِيقَ، فلمَّا مات عَكَفوا على قبره فعَبَدوه. قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز. وكانت شجرةً عليها بناء وأستار بنَخْلَة، وهي بين مكة والطائف. وأما «مَناة» فكانت بالمُشَلَّل -عند قُدَيد، بين مكة والمدينة- وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظِّمونها. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أُخَر غير هذه الثلاثة التي نَصَّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أَفْرَد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؟! أي: أتجعلون له وَلَدًا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمةً ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جَوْرًا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جَوْرًا وسَفَهًا. ثم قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ ليس لهم مستند إلا حُسْن ظَنِّهم بآبائهم الذين سَلَكُوا هذا الـمَسْلَك الباطل قبلهم، وإلا حَظَّ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: ولقد أَرْسَلَ الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ليس كل من تمنى خيرًا حَصَل له، ما كل من زَعَم أنه مهتدٍ يكون كما قال، ولا كلُّ من وَدَّ شيئًا يَحْصُل له؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى؛ فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد [وصحح إسناده أحمد شاكر].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ إنما الأمر كُلُّه لله، مالك الدنيا والآخرة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإذا كان هذا في حَقِّ الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعةَ هذه الأصنام والأنداد عند الله؟!

الآية (٢٧-٣٠): يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٩] ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح يُصَدِّقُ ما قالوه، بل هو كَذِبٌ وزورٌ وافتراء، وكُفْر شنيع، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: لا يُجدي شيئًا، ولا يقوم أبدًا مقام الحق. ورسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» [متفق عليه].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: أَعْرِضْ عن الذي أعرَضَ عن الحقِّ وَهَجَرَه، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أكثر هَمِّه ومَبْلَغ عِلْمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنَا، ولا مَبْلَغَ علمنا» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبدًا.

الآية (٣١-٣٢): يُخْبِرُ تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عمَّا سواه، الحاكم في خَلقِه بالعَدْل، وخَلَق الخَلْق بالحقِّ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي: يُجازِي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ثم فَسَّر المحسنين بأنهم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، أي: لا يَتَعَاطون المحرَّمات والكبائر، وإن وَقَع منهم بعض الصغائر فإنه يَغْفِرُ لهم ويَستُرُ عليهم، كما قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ هذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقِّرات الأعمال. عن ابن مسعود قال: زِنا العينين النَّظَر، وزِنا الشفتين التقبيل، وزِنا اليدين البَطْش، وزِنا الرجلين المشي، ويُصدِّق ذلك الفَرْج أو يُكَذِّبه، فإن تَقَدَّمَ بفَرجِه كان زانيًا، وإلا فهو اللَّمَم. وكذا قال مسروق والشعبي. وقال أبو هريرة: ﴿اللَّمَمَ﴾: القُبلة والغَمْزة والنظرة والمباشرة، فإذا مَسَّ الختانُ الختانَ فهو الزنا. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سَلَف. وكذا قال زيد بن أسلم. وقال مجاهد: الذي يُلِمُّ بالذنب ثم يَدَعه. وعن ابن عباس: هو الرجل يُلِمُّ بالفاحشة ثم يتوب. وعن الحسن قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود. وقال ابن عباس: كل شيء بين الحَدَّيْن: حَدُّ الدنيا وحد الآخرة، تُكَفِّرُه الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كلِّ مُوجِب، فأما حَدُّ الدنيا فكل حَدٍّ فَرَض الله عقوبته في الدنيا، وأما حَدُّ الآخرة فكلُّ شيء خَتَمَه الله بالنار، وأَخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ رحمته وَسِعَت كل شيء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تَصْدُر عنكم وتَقَع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كَتَبَ الملَك الذي يُوَكَّل به رِزْقَه وأَجَلَه وعَمَله، وشَقي أم سعيد. وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها وتَـمُنُّوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾. و روى مسلم عن زينب بنت أبي سلمة: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزَكُّوا أنفسكم؛ إن الله أعلم بأهل البِرِّ منكم». وعن أبي بكْرَة قال: قال ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحًا صاحِبَه لا محالةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فلانًا والله حَسِيبُه، ولا أُزَكِّي على الله أحدًا» [متفق عليه].

الآية (٣٣-٤١): يقول[١] تعالى ذامًّا لمن تولى عن طاعة الله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة:٣١،٣٢] ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: [أعطى][٢] قليلًا ثم قَطَعَه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا، فَيَجِدُون في أثناء الحَفْر صخرةً تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أَكْدَيْنا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعِنْدَهُ﴾ أي: أعند هذا الذي قد أَمْسَكَ يدَه خشيةَ الإنفاق، وقَطَعَ معروفه ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ أنه سينفَدُ ما في يده، حتى قد أَمْسَك عن معروفه ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ ذلك عِيَانًا؟! ليس الأمر كذلك، وإنما أَمْسَكَ عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بُخلًا وشُحًّا وهَلَعًا. وقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي بَلَّغ جميع ما أُمِرَ به. وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال قتادة: ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله. فقام عَلَيْهِ السَّلَامُ بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلَّغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحقَّ بهذا أن يكون للناس إمامًا يُقتَدى به.

ثم شَرَع تعالى يُبَيِّن ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: كلُّ نَفْس ظَلَمَت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنَّما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: كما لا يُحْمَل عليه وِزْرُ غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كَسَبَ هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي ومن اتَّبَعَه أن القراءة لا يَصِلُ إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يَنْدُبْ إليه رسول الله ﷺ أُمَّتَه ولا حَثَّهُمْ عليه، ولا أَرْشَدَهم إليه بنصٍّ ولا إيماء، ولم يُنْقَل ذلك عن أحد من الصحابة، وباب القُرُبَات يُقتصر فيه على النصوص، ولا يُتَصَرَّفُ فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مُجْمَع على وصولها، ومنصوص من الشارع عليهما. وأما ما روي عن أبي هريرة [مرفوعًا]: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث..» الحديث [رواه مسلم]؛ فهذه في الحقيقة هي من سعيه وعمله. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي: الْأَوْفَر.

الآية (٤٢-٤٤): ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي: المعاد يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي: خَلَقَ في عباده الضَّحِك والبكاء وسببهما، وهما مختلفان، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾؛ كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك:٢].

---

(١) هذا الاستعمال عند ابن كثير يوهم وجود قولٍ، ومقولُه محذوف، أو أن هناك سقطًا. وكأن مراده هنا: «يذم تعالى من تولى...».

(٢) في جميع النسخ: (أطاع). وهو تصحيف، والتصويب من تفسير الطبري.

الآية (٤٥-٥٥): ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ **كقوله:** ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٣٦-٤٠]. **وقوله:** ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ **أي: كما خَلَق البَدَاءَة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة.** ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ **أي: مَلَّك عباده المال، وجَعَلَه لهم قُنْيَةً مُقِيمًا عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما. وعن مجاهد:** ﴿أَغْنَىٰ﴾: **مَوَّلَ،** ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: **أَخْدَمَ. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس ومجاهد:** ﴿أَغْنَىٰ﴾: **أَعْطَى،** ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: **رَضَّى.**

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ **قال ابن عباس ومجاهد وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقَّاد الذي يُقَال له: «مِرْزَم الجوزاء»؛ كانت طائفة من العرب يعبدونه.** ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ **وهم: قوم هود. ويُقال لهم: عاد بن إرَم بن سام بن نوح، كما قال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، **فكانوا من أشدِّ الناس وأقواهم وأعتاهم، فأهْلَكَهم الله** ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦-٧].

وقوله: ﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ **أي: دَمَّرَهُم فلم يُبْقِ منهم أحدًا،** ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ **أي: من قبل هؤلاء،** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ **أي: أشدَّ تـمرُّدًا من الذين من بعدهم،** ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ **يعني: مدائن لوط، قَلَبَها عليهم فجَعَل عاليها سافلها، وأَمْطَر عليهم حجارةً من سجيل منضود؛ ولهذا قال:** ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ **يعني: من الحجارة التي أَرْسَلَها عليهم** ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣]. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ **أي: ففي أي نِعَم الله عليك أيها الإنسان تَمْتَرِي؟! قاله قتادة. وقال ابن جُرَيج:** ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ **يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.**

الآية (٥٦-٦٢): ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ **يعني: محمدًا** ﷺ، ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ﴾ **أي: من جِنْسِهم، أُرْسِلَ كما أُرْسِلُوا؛ كما قال تعالى:** ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]. ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ **أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة** ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ **أي: لا يدفعها إذًا من دون الله أحد، ولا يَطَّلِعُ على عِلْمها سواه. ثم قال تعالى مُنكرًا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وَتَلَهِّيهم:** ﴿تَعْجَبُونَ﴾ **من أن يكون صحيحًا؟!** ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ **منه استهزاءً وسخريةً؟!** ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾**؟! أي: كما يفعل الموقنون به، كما أَخبَر عنهم:** ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]. **وقوله:** ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾**؟! قال ابن عباس: الغناء، هي يمانيَّة، اسْمِدْ لنا: غَنِّ لَنَا. وكذا قال عكرمة. وفي رواية عن ابن عباس:** ﴿سَٰمِدُونَ﴾: **معرضون. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن علي ابن أبي طالب. وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السُّدِّي. ثم قال آمرًا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله** ﷺ **والتوحيد والإخلاص:** ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ **أي: فاخضعوا له وأَخْلِصُوا ووَحِّدُوا. روى البخاري عن ابن عباس قال: سَجَدَ النبي** ﷺ **بالنَّجْم، وسَجَدَ معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.**

تفسير سورة القمر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٥) آيةً].

[فضل السورة:] **عن أبي واقد: كان رسول الله** ﷺ **يقرأ في العيد بـ﴿قٓ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾** [رواه مسلم]. **وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالها على ذِكْر الوَعْد والوعيد، وبدء الـخَلْق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.**

الآية (١-٥): **يُخْبِرُ تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها؛ كما قال تعالى:** ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، **وقال:** ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]، **وقد وَرَدَتْ الأحاديث بذلك؛ عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله** ﷺ: **«بُعِثْتُ والساعة هكذا» وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى** [متفق عليه]. **وقوله:** ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ **قد كان هذا في زمان رسول الله** ﷺ**، كما ثَبَتَ ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. روى البخاري عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله** ﷺ **أن يريهم آيةً، فأَرَاهم القَمَر شِقَّين، حتى رَأَوا حِرَاء بينهما.**

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ **أي: دليلًا وحجةً وبرهانًا** ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ **أي: لا ينقادون له، بل يُعرضُون عنه ويَتْرُكُونه وراء ظهورهم،** ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ **أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج سِحْرٌ سُحِرْنَا به. ومعنى** ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ **أي: ذاهب. قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، أي: باطل مُضْمَحِلٌّ، لا دوام له.**

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ **أي: كَذَّبُوا بالحق إذ جاءهم، واتَّبعوا ما أَمَرَتْهم به آراؤهم وأهواؤهم من جَهْلِهم وسَخَافة عقولهم.**

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ **قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد:** ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ **أي: يوم القيامة. وقال السُّدِّي:** ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ **أي: واقع.**

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ **أي: من الأخبار عن قَصَص الأمم المكذِّبَة بالرُّسُل، وما حَلَّ بهم من العقاب والنكال والعذاب، ممَّا يُتْلَى عليهم في هذا القرآن،** ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ **أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.**

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ **أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أَضَلَّه** ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ **يعني: أي شيء تُغْنِي النُّذُر عمَّن كَتَب الله عليه الشقاوة، وخَتَمَ على قلبه؟! فمن الذي يهديه من بعد الله؟! وهذه الآية كقوله تعالى:** ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الآية (٦): **يقول تعالى: فَتَوَلَّ يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رَأَوا آيةً يعرضون ويقولون: هذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ؛ أَعْرِضْ عنهم وانتظرهم** ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ **أي: إلى شيء مُنْكَرٍ فَظِيعٍ، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال.**

الآية (٧-٨): ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابةً للداعي ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مُسْرعين ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ لا يُخالفون ولا يَتأخرون.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرِير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].

الآية (٩-١٧): يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي: صَرَّحُوا له بالتكذيب واتَّهَمُوه بالجنون، ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: اسْتُطِيرَ جُنُونًا. وقيل: أي: انتهروه وزَجَرُوه وأَوْعَدُوه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا مُتَوَجِّهٌ حَسَن.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قال السُّدِّي: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: نَبَعَتْ جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محال النيران نَبَعَتْ عيونًا ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: أَمْرٍ مُقَدَّر. قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تُمْطِر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، إلا من السحاب؛ فُتِحَتْ أبواب السماء بالماء من غير سحابٍ ذلك اليوم، فالتقى الماءان ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دِسَار، ويُقال: دَسِير، وقال مجاهد: الدُّسُر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صَدْرُها الذي يَضْرِب به الموجُ. وقال الضحاك: الدُّسُر: طَرَفُها وأَصْلها. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها. وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأَمْرِنا بمَرْأًى مِنَّا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاءً لهم على كُفرهم بالله وانتصارًا لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ قال قتادة: أَبْقَى الله سفينة نوح حتى أَدْرَكَها أوَّل هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن؛ كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١-٤٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من يَتَذَكَّر ويَتَّعِظ؟!

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأتُ على النبي ﷺ: (فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ) فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [رواه البخاري].

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كَفَر بي وكَذَّب رُسلي ولم يَتَّعِظْ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرتُ لهم، وأَخَذْتُ لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: سَهَّلنا لفظه، ويَسَّرنا معناه لمن أراده، ليَتَذَكَّر الناس؛ كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هَوَّنَّا قراءته. وقال السُّدِّي: يَسَّرْنا تلاوته على الألسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يَسَّرَه على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يَتَكَلَّم بكلام الله عَزَّوَجَلَّ. قلتُ: ومن تَيْسِيره تعالى على الناس تلاوةَ القرآن ما تقدم[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف» [متفق عليه]. وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من مُتَذَكِّر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟! وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من مُنْزَجِر عن المعاصي؟! وعن مَطَر الوراق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فَيُعَان عليه؟! وروي عن قتادة مثله.

الآية (١٨-٢٢): يقول تعالى مُخْبِرًا عن عاد قوم هود: إنهم كَذَّبوا رسولهم أيضًا، كما صَنَع قوم نوح، وأنه تعالى أَرسَل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك وقتادة والسُّدِّي. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نَحْسُهُ ودَمَاره؛ لأنه يوم اتَّصَلَ فيه عذابهم الدنيوي بالأُخروي.

وقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فتَرْفَعُه حتى تُغَيِّبَه عن الأبصار، ثم تُنَكِّسُه على أُمِّ رأسه، فيَسْقُط إلى الأرض، فتَلْغَ رأسَه فيَبقى جُثَّة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

الآية (٢٣-٢٧): وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذَّبوا رسولهم صالحًا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يقولون: لقد خِبْنَا وخَسِرْنَا إن سَلَّمنا كُلُّنا قِيَادنا لواحد مِنَّا! ثُم تعجَّبوا من إلقاء الوحي عليه خاصةً من دونهم، ثم رَمَوه بالكذِب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: مُتَجَاوِز في حدِّ الكَذِب. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختبارًا لهم؛ أخرج الله لهم ناقةً عظيمةً عُشَرَاء من صَخْرة صَمَّاء طِبْقَ ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: انتظر ما يَؤُولُ إليه أَمْرُهم، واصبر عليهم؛ فإن العاقبة لك والنصر لك في الدنيا والآخرة.

---

(١) في مقدمة تفسيره، فليرجع إليه من شاء.

الآية (٢٨-٣٢): ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدار بن سالف، وكان أشقى قومه، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: جَسَر ﴿فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فعاقبتُهم، فكيف كان عقابي لهم على كُفْرهم بي وتكذيبهم رسولي؟! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فبادوا عن آخرهم لم تَبْقَ منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يَهْمُد يَبيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمُحْتَظِر: قال السُّدِّي: هو المَرْعَى بالصحراء حين يَيْبَس ويحترق وتَسْفِيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَارًا على الإبل والمواشي من يَبيس الشَّوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

الآية (٣٣-٤٠): يقول تعالى مُخْبِرًا عن قوم لوط كيف كذَّبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يَسبِقْهم بها أحدٌ من العالمين؛ ولهذا أَهْلَكَهم الله هلاكًا لم يُهْلِكه أمةً من الأمم؛ فإنه تعالى أَمَرَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فحَمَلَ مدائنهم حتى وَصَلَ بها إلى عَنَان السماء، ثم قَلَبَها عليهم وأرسَلَها، وأُتْبِعَتْ بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: خَرَجُوا من آخر الليل فنَجَوا مما أصاب قومهم، ولم يُؤْمِن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخَرَج نبي الله لوط وبناتٌ له من بين أَظْهُرِهم سالِمًا لم يَمْسَسْه سُوء؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أَنْذَرَهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أَصْغَوا إليه، بل شَكُّوا فيه وتماروا به.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة وردَ عليه الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شباب مُرد حِسان مِحْنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبَغَتْ امرأته العجوزُ السُّوْءُ إلى قومها فأعلمَتْهم بأضياف لوط، فأَقْبَلُوا يُهْرَعُون إليه من كلِّ مكان، فأَغْلَقَ لوط دونهم الباب، فجَعَلوا يُحَاوِلُون كَسْر الباب وذلك عشيةً، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يُدَافِعهم ويُسَانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أَرَبٌ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩]، فلمَّا اشتدَّ الحال وأبوا إلا الدخول؛ خَرَج عليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فضَرَب أعينهم بطَرَف جناحه، فانطَمَسَت أعينهم. يُقال: إنها غَارَت من وجوههم. وقيل: إنه لم تَبْقَ لهم عيون بالكلية، فرَجَعُوا على أدبارهم يَتَحَسَّسون بالحيطان، ويَتَوَعَّدون لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: لا مَحِيدَ لهم عنه، ولا انفكاكَ لهم منه، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

الآية (٤١-٤٦): يقول تعالى مُخْبِرًا عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيَّدَهُما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذَّبوا بها كلِّها، فأَخَذَهم الله ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، أي: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مُخْبِرًا ولا عَينًا ولا أثرًا. ثم قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ يعني: من الذين تقدَّم ذِكرهم ممَّن أُهْلِكوا بسبب تكذيبهم الرُّسُل، وكُفْرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئكم؟! ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم مَعَكم من الله براءة ألَّا ينالكم عذاب ولا نكال؟! ثم قال تعالى مُخْبِرًا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضًا، وأن جمعهم يُغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: سيتفرق شملهم ويُغْلَبُون. عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال -وهو في قُبَّة له يوم بدر-: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللهم إن شِئْتَ لم تُعْبَد بعد اليوم في الأرض أبدًا». فأَخَذَ أبو بكر بيده، وقال: حَسْبُك يا رسول الله! أَلْحَحْتَ على ربك. فخَرَجَ وهو يَثِبُ في الدِّرْع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [رواه البخاري].

الآية (٤٧-٤٩): يُخْبِرُ تعالى عن ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ أنهم ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء[1]، وهذا يَشْمَل كلَّ من اتَّصَفَ بذلك من كافر ومبتدِع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سُعُر وَشَكٍّ وتَرَدُّد أَوْرَثَهم ذلك النار، وكما كانوا ضُلَّالًا، يُسْحَبُون فيها على وجوههم، لا يَدْرُون أين يذهبون، ويُقَال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] وكقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣] أي: قَدَّرَ قَدَرًا، وهَدَى الخلائق إليه؛ ولهذا يَسْتَدِلُّ بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لِخَلْقِه، وهو عِلْمُه الأشياءَ قبل كَونها وكتابته لها قبل بَرْئِها، ورَدُّوا بهذه الآية وبما شَاكَلَها من الآيات، وما وَرَدَ في معناها من الأحاديث الثابتات على الفِرْقة القَدَريَّة الذين نَبَغُوا[2] في أواخر عَصْر الصحابة.

[سبب النزول]: عن أبي هُرَيرَة قال: جاء مُشركو قريش إلى النبي ﷺ يُخَاصِمُونه في القَدَر، فنَزَلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [رواه مسلم].

وفي الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [رواه مسلم]، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

---

(١) على هذا التفسير تكون (سُعُر) بمعنى جنون؛ وهو من معانيها كما في المعاجم. وفسرها السعدي بالنار المستعرة المتقدة؛ أي هم ضُلَّال في الدنيا وفي النار المستعرة يوم القيامة. ويشهد لذلك قوله تعالى بعدها: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾

(٢) أي: خرجوا وظهروا. [ينظر القاموس المحيط، مادة (نبغ)].

الآية (٥٠-٥٥): [أخبر تعالى] عن نفوذ مشيئته في خَلقِه كما أَخْبَرَ بنفوذ قَدَره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إنما نأمر بالشيء مرةً واحدةً، لا نَحتاج إلى تأكيدٍ بثانية، فيكون ذلك الذي نَأْمُر به حَاصِلًا مَوجُودًا كَلَمْحِ البَصَرِ، لا يَتَأَخَّر طرفةَ عين. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أمثالكم وسَلَفَكم من الأمم السابقة المكذِّبين بالرُّسُل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من مُتَّعِظ بما أَخْزَى الله أولئك، وقَدَّرَ لهم من العذاب. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: مكتوب عليهم في الكُتُب التي بأيدي الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مجموع عليهم، ومُسَطَّر في صحائفهم، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]. وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومُحَقَّرَاتِ الذنوب؛ فإن لها من الله طالبًا» [رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني]. قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسُّعُر، والسَّحْب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلِّها ومقدِّرها، وهو مُقْتَدِر على ما يشاء، ممَّا يطلبون ويريدون. عن عبد الله ابن عمرو -يبلغ به النبي ﷺ- قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» انفرد بإخراجه مسلم.

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية، [وعدد آياتها (٧٨) آيةً].

[فضل السورة]: عن جابر قال: خرج ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة «الرحمن» من أوَّلها إلى آخرها، فسَكَتُوا فقال: «لقد قرأتُها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم؛ كنت كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِك -ربَّنا- نُكَذِّب، فَلَكَ الحمد» [رواه الترمذي، وحسّنه الألباني].

الآية (١-١٣): يُخْبِرُ تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أَنزَل على عباده القرآن، ويَسَّرَ حِفظه وفَهمَه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعني: النُّطْق. وقال الضحاك: الخير والشر. وقول الحسن أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآنَ، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتَيْسِير النُّطْق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، على اختلاف مخارجها وأنواعها. ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يَجْرِيَان مُتَعَاقِبَيْن بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب. وقوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فعن ابن عباس قال: النجم ما انْبَسَطَ على وجه الأرض من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسُّدِّي وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم: الذي في السماء. وكذا قال الحسن وقتادة. وهذا القول هو الأظهر والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: خَلَق السموات والأرض بالحقِّ والعَدْل، لتكون الأشياء كلُّها بالحقِّ والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زِنوا بالحق والقسط. وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: كما رَفَع السماء، وَضَع الأرض ومَهَّدَهَا، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لِمَا على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعُهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام: الخلق.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أَفْرَدَه بالذِّكْر لشَرَفِه ونفعه رَطْبًا ويَابِسًا. والأكمام: قال ابن عباس: هي أوعية الطَّلْع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القِنْوُ ثُمَّ يَنْشَقُّ عن العنقود، فيكون بُسْرًا ثم رُطَبًا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رُفَاتها، وهو: اللِّيف الذي على عُنُق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ عن ابن عباس: ﴿ٱلْعَصْفِ﴾: التبن. وعنه: وَرَقُ الزَّرع الأخضر الذي قُطِع رؤوسه، فهو يُسَمَّى العَصْف إذا يَبِسَ. وكذا قال قتادة والضحاك وأبو مالك: عَصْفُه: تِبْنُه. وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يعني: الوَرَق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وعن ابن عباس: خضرة الزرع. ومعنى هذا -والله أعلم- أن الحَبّ كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عَصْف -وهو: ما على السُّنْبُلة- وريحان -وهو: الورق الملتف على ساقها-. وقيل: العَصْف: الوَرَقُ أَوَّلَ ما ينبت الزرع بَقْلًا. والريحان: الورق، يعني: إذا أَدْجَنَ وانعقد فيه الحَبُّ. وقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أي: فبأي الآلاء -يا معشر الثقلين، من الإنس والجن- ﴿تُكَذِّبَانِ﴾؟! قاله مجاهد وغير واحد. ويَدُلُّ عليه السياق بعده، أي: النِّعَمُ ظاهرةٌ عليكم وأنتم مَغْمُورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك -ربَّنا- نكذِّب، فَلَكَ الحمد».

الآية (١٤-١٦): يذكر تعالى خَلْقَهُ الإنسانَ من صلصال كالفخار، وخلقه الجانَّ من مارج من نار، وهو: طرف لَهَبها. قاله الضحاك عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: من لهب النار، من أَحْسَنِها. وقال: من خالص النار. وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجَانُّ من مَارِج من نار، وخُلِقَ آدَم مِمَّا وُصِفَ لكم» [رواه مسلم].

الآية (١٧-١٨): ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقُّلِها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. ولَمَّا كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!

الآية (١٩-٢٥): ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن عباس: أي أرسلَهما. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أي: منعهما أن يَلْتَقِيا، بما جَعَل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.

﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ المِلْح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وقد اختار ابن جرير أن المراد: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروي عن مجاهد وابن جبير وعطية وابن أبْزَى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يَتَوَلَّد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا، وإن كان هكذا، لكن ليس المراد بذلك ما ذَهَب إليه؛ فإنه لا يُسَاعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: وجَعَل بينهما برزخًا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يَبْغِي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيُفْسِد كلٌّ واحد منهما الآخر، ويُزِيله عن صِفَته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يُسَمَّى ﴿بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: من مجموعهما، فإذا وُجِدَ ذلك لأحدهما كفى؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[الأنعام:١٣٠] والرُّسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صَحَّ هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. وعن ابن مسعود قال: الخَرَز الأحمر. ولَمَّا كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتنَّ بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يعني: السفن التي تجري في البحر، قال مجاهد: ما رَفَعَ قِلْعَهُ[1] من السفن فهي مُنْشَأَةٌ، وما لم يَرْفَعْ قِلْعَهُ فليس بمُنْشَأَة، وقال قتادة: يعني المخلوقات. ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال في كِبَرِها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قُطْر إلى قُطْر، وإقليم إلى إقليم، ممَّا فيه من صلاح للناس في جَلْب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآية (٢٦-٣٠): يُخْبِرُ تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب -تعالى وتقدَّس- لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨]. وقد نَعَتَ تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهلٌ أن يُجَلَّ فلا يُعْصَى، وأن يُطَاعَ فلا يُخَالَفُ. قال ابن عباس: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء.

ولَمَّا أخبر عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ هذا إخبار عن غناه عمَّا سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. وقال مجاهد: كل يوم هو يُجِيبُ دَاعِيًا، ويَكْشِف كَرْبًا، ويُجِيبُ مُضْطَرًّا، ويَغْفِرُ ذَنْبًا.

الآية (٣١-٣٦): قال ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شُغْلٌ. وقال البخاري: سَنُحَاسِبكم، لا يَشْغَلُه شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يُقَال: «لَأَتَفَرَّغَنَّ لك» وما به شُغْل. ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ الثقلان: الإنس والجن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تستطيعون هَرَبًا من أَمْرِ الله وقَدَره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التَّخَلُّصِ من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذَهَبْتُم أُحِيطَ بكم، وهذا في مقام المحشر: الملائكة مُحْدِقَة بالخلائق، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: إلا بأَمْر الله. ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال ابن عباس: هو لهب النار، ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال ابن عباس: دخان النار. وقال مجاهد: النحاس: الصُّفر، يُذَابُ فيُصَبُّ على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضحاك: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذَهَبتم هاربين يوم القيامة لرَدَّتْكُمُ الملائكة والزبانية بإرسال اللَّهَب من النار والنحاس المُذَاب عليكم لِتَرْجِعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!

الآية (٣٧-٤٢): ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يوم القيامة، كقوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٦]. وقوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كما يذوب الدُّرْدي[2] والفضة في السَّبْك، وتتلوَّن كما تَتَلَوَّن الأصباغ التي يُدْهَنُ بها، حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم.

عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾: هو الأديم الأحمر. وقال مجاهد: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾: كألوان الدهان. وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]، فهذا في حال، وثَمّ حال يُسْأَل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]؛ ولهذا قال قتادة: قد كانت مسألة، ثُمَّ خُتِمَ على أفواه القوم، وتَكَلَّمَتْ أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يَسْأَل الملائكةُ عن المجرم، يُعْرَفُون بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكأنَّ هذا بعد ما يُؤْمَرُ بهم إلى النار؛ فذلك الوقت لا يُسألون عن ذنوبهم، بل يُقَادُون إليها ويُلْقَون فيها؛ كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزُرقة العيون. قلتُ: وهذا كما يُعرَف المؤمنون بالغُرَّة والتحجيل من آثار الوضوء. وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تَجْمَع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويُلْقُونه في النار كذلك. وقال ابن عباس: يُؤْخَذ بناصيته وقَدَمه، فيُكْسَر كما يُكْسَر الحطب في التنور. وقال الضحاك: يُجْمَع بين ناصيته وقَدَمَيه في سلسلة من وراء ظهره، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) القِلْعُ، بكسر القاف: شراع السفينة. [القاموس المحيط، مادة (قلع)].

(٢) الدردي: مَا يَرْكُدُ فِي أَسفل كُلِّ مائع كالأَشربة والأَدهان. [لسان العرب، مادة (درد)].

الآية (٤٣-٤٥): ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عِيَانًا، يُقَال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتصغيرًا وتحقيرًا.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: تارةً يُعَذَّبُون في الجحيم، وتارةً يُسْقَوْن من الحميم، وهو شراب كالنحاس المُذَاب، يُقَطِّعُ الأمعاء والأحشاء. وقوله: ﴿ءَانٍ﴾ أي: حارّ وقد بَلَغ الغاية في الحرارة، لا يُسْتَطَاع من شدة ذلك. قال ابن عباس: قد انتهى غَلْيُه، واشتدَّ حَرُّه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسُّدِّي، وهي كالتي يقول الله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢]. ولَـمَّا كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه ممَّا يَزْجُرُهم عمَّا هم فيه من الشِّرْك والمعاصي وغير ذلك، قال مُـمْتَنًّا بذلك على بَرِيَّته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآية (٤٦-٥٣): ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال ابن شَوْذب وعطاء الخراساني: نَزَلَتْ في أبي بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامَّة كما قاله ابن عباس وغيره؛ يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]، ولم يَطْغَ، ولا آثَرَ الدنيا، وعَلِمَ أن الآخرة خير وأبقى، فأدَّى فرائض الله، واجتنب محارمه؛ فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روي عن عبد الله ابن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عَدْن» [متفق عليه]. وهذه الآية عامَّة في الإنس والجن، فهي من أَدَلِّ دليل على أن الـجِنَّ يدخلون الـجَنَّة إذا آمنوا واتَّقوا؛ ولهذا امتنَّ الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم نَعَتَ هاتين الجنَّتين فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: أغصان نَضِرَة حَسَنَة، تَحْمِل من كل ثمرة نَضِيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة. وعن ابن عباس: ذواتا ألوان. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونًا من الملاذِّ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غُصْن يجمع فنونًا من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاةَ بينها، والله أعلم. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: تَسْرَحَان لسَقْي تلك الأشجار والأغصان فتُثْمِر من جميع الألوان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: من جميع أنواع الثمار ممَّا يعلمون وخيرًا ممَّا لا يعلمون، وممَّا لا عين رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!

قال ابن عباس: ليس في الدنيا ممَّا في الآخرة إلا الأسماء؛ يعني: أن بين ذلك بَونًا عظيمًا، وفرقًا بَيِّنًا في التفاضل.

الآية (٥٤-٦١): ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ يعني: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء ههنا: الاضطجاع. ويُقَال: الجلوس على صفة التَّرَبُّع. ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غَلُظَ من الديباج. قاله عكرمة والضحاك وقتادة. وقال الـجَوْني: هو الديباج الـمُزَيَّن بالذَّهَب. فنَبَّه على شَرَف الظِّهَارَة بشَرَف البِطَانَة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. وعن ابن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟!

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أي صفة كانوا؛ كما قال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤] أي: لا تمتنع ممَّن تناولها، بل تَنْحَطُّ إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولَـمَّا ذَكَر الفُرُش وعَظَمَتَها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الفُرُش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي غَضِيضَاتٌ عن غير أزواجهن، فلا يَرَيْنَ شيئًا أحسن في الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: بل هُنَّ أبكار عُرُبٌ أَتْرَاب، لم يَطَأْهُنَّ أحد قبل أزواجهن من الإنس والجنِّ. وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمني الجنِّ الـجَنَّة. سئل ضَمْرَةُ بن حبيب: هل يدخل الجنُّ الـجَنَّة؟ قال: نعم، ويَنْكِحُون، للجنِّ جِنِّيَّات، وللإنس إنسيَّات؛ وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال يَنْعَتُهُنَّ لِلخُطَّاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صَفَاء الياقوت وبَيَاض الـمَرْجَان. فجَعَلُوا المرجان ههنا اللؤلؤ.

وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي: ما لمن أحسن في الدنيا العملَ إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. ولَـمَّا كان في الذي ذُكِرَ نِعَمٌ عظيمة لا يُقَاوِمُها عَمَل، بل مُجَرَّد تَفَضُّل وامتنان؛ قال بعد ذلك كُلِّه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآية (٦٢-٦٩): هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ فالأُولَيَان للمقرَّبين، والأُخْرَيَان لأصحاب اليمين. قال ابن زيد: ومن دونهما في الفضل، والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: أحدها: أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال ههنا: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شِدَّة الرِّيِّ من الماء. قال ابن عباس: قد اسودتا من الخضرة، من شِدَّة الرِّيِّ من الماء. ولا شَكَّ في نضارة الأغصان على الأشجار الـمُشَبَّكَة بعضها في بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال ههنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أي فيَّاضَتَان، والجري أقوى من النضخ. وقال الضحاك: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال ههنا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا شك أن الأولى أعَمُّ وأكثر في الأفراد والتنويع على: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تَعُمُّ؛ ولهذا فُسِّرَ قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عَطْف الخاصِّ على العام، كما قَرَّرَهُ البخاري وغيره، وإنما أَفْرَدَ النَّخْل والرُّمَّان بالذِّكْر لشَرَفِهما على غيرهما.

الآية (٧٠-٧٨): ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خَيْرَات كثيرة حَسَنة في الجنة، قاله قتادة. وقيل: خَيِّرات جمع خَيِّرَةٍ، وهي المرأة الصالحة الحَسَنَة الخُلُق الحسنة الوَجْه، قاله الجمهور. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خَيِّرات»، بالتشديد. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾، وقال هناك: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦]، ولا شك أن التي قد قَصَرَت طَرْفها بنفسها أفْضَل ممَّن قُصِرَت، وإن كان الجميع مُخَدَّرَاتٍ. وقوله: ﴿فِي ٱلْخِيَامِ﴾: عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَةً من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفَةٍ، طولها ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ تقدم. وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ قال ابن عباس: الرَّفْرَفُ: المَحَابِس[1]. وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهما. وقال الجحدري: يعني: الوسائد. وهو قول الحسن في رواية عنه. وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضَّحَّاك والسُّدِّي: العَبْقَرِيّ: الزَّرَابِيّ. وقال سعيد بن جبير: هي عِتَاق الزَّرَابي، يعني: جِيادها. وقال مجاهد: الدِّيباج. وعن الحسن -في رواية- أنها المرافق. وعلى كل تقدير فصِفَة مرافق أهل الجنتين الأُولَيَيْن أَرْفَعُ وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤] فنَعَتَ بطائن فُرُشِهم وسَكَتَ عن ظَهَائرها، اكتفاءً بما مَدَحَ به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] فوَصَفَ أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنِّهَايات، كما في حديث جبريل لَـمَّا سأل عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان [رواه مسلم]. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيرين ونسأل الله الكريم الوهَّاب أن يجعلنا من أهل الأُولَيَيْن.

﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أَهْلٌ أن يُجَلَّ فلا يُعْصَى، وأن يُكْرَم فيُعْبَد، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر، وأن يُذْكَر فلا يُنْسَى. وقال ابن عباس: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والكبرياء، وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد -يعني بعد الصلاة- إلا بقدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية، [وعدد آياتها (٩٦) آيةً].

[فضل السورة]: قال ابن عباس: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شِبْتَ؟! قال: «شَيَّبَتْني هُود، والواقعة، والمرسلات، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١-١٢): ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، سُمِّيَتْ بذلك لتَحَقُّق كونها ووجودها. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لوقوعها -إذا أراد الله كونها- صارف يَصْرِفها، ولا دافع يَدْفَعُها.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض أقوامًا إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزّاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليّين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وُضَعاء. وهكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: حُرِّكَتْ تحريكًا فاهتزَّت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: زُلْزِلَتْ زلزالًا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]. ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتَتْ فَتًّا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم. وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كرَهَج الغبار يَسْطَع ثم يَذْهَب، فلا يبقى منه شيء. وقال عكرمة: المُنْبَثُّ: الذي ذَرَّتْه الريح وبَثَّتْه. وهذه الآية كأخواتها الدَّالَّة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونَسْفِها -أي قَلْعِها- وصَيْرُورتها ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]. وقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويُؤْتَوْن كتبهم بأيمانهم، ويُؤْخَذُ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة.. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويُؤْتَوْن كتبهم بشمائلهم، ويُؤْخَذُ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار -عياذًا بالله من صنيعهم- وطائفة سابقون بين يديه ﷻ، وهم أَخَصُّ وأَحْظَى وأقرب من أصحاب اليمين، فيهم الرسل والأنبياء والصِّدِّيقون والشهداء، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين، وهكذا قَسَمَهُم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وَقْت احتضارهم، قال مجاهد: ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾: فِرَقًا ثلاثةً. وقال عثمان بن سراقة: اثنان في الجنة، وواحد في النار. وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قال محمد بن كعب: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وعن ابن سيرين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الذين صلوا للقبلتين. وهذه الأقوال كلها صحيحة؛ فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فِعْل الخيرات كما أُمِرُوا، فمَن سابق في هذه الدنيا وسَبَق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تَدِينُ تُدَانُ؛ ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الآية (١٣-١٦): ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ قيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. وهو اختيار ابن جرير، وفيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنصِّ القرآن، فيبعد أن يكون المقرَّبون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يُقَابَلَ مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقرَّبين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة، و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة. وهذا قول الحسن وابن سيرين. ولا شكَّ أنَّ أوَّل كلِّ أمة خير من آخرها، فيُحْتَمَل أن يَعُمَّ الأمر جميع الأُمَم، كلُّ أمَّة بحَسَبِها.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أي مَرْمُولَة بالذهب، يعني: مَنْسُوجَة به. وقال ابن جرير: السُّرُر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد.

---

(١) جمع مِحبس بكسر الميم: ثوبٌ يُطْرَح على ظهر الْفراش للنوم عليه. [ينظر: جمهرة اللغة، مادة (حبس)].

الآية (١٧-٢٦): ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يَكْبُرُون عنها ولا يَشِيبُون ولا يَتَغَيَّرُون.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أما الأكواب، فهي: الكيزان التي لا خَراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التي جَمَعَت الوصفين. والكؤوس: الـهَنَابَاتُ، والجميع من خَمْر من عين جارية مَعِين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أي: لا تَصَدَّعُ رؤوسهم ولا تُنْزَفُ عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة الـمُطْرِبَة واللَّذَّة الحاصلة.

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: ويطوفون عليهم بما يَتَخَيَّرُون من الثمار وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البُخْتِ، تَرعَى في شَجَر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لَطَيْرٌ ناعمة! فقال: «أَكَلَتُها أَنْعَمُ منها» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي: ولهم فيها حور عين. ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الرَّطْب في بياضه وصفائه، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا، أي: غَثًّا خاليًا عن المعنى، أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف؛ كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية:١١]. ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا كلامًا فيه قُبْحٌ. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض؛ كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم:٢٣]، وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم.

الآية (٢٧-٤٠): قال ميمون بن مِهْرَان: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين. ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أيْ: أيُّ شيء أصحاب اليمين؟! وما حالهم؟! وكيف مآلهم؟! ثم فَسَّرَ ذلك فقال: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ سِدْر الدنيا كثيرُ الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أَثْقَلَ أصله.

﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطلح: شَجَرٌ عِظَامٌ يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاه، واحدته طلحة، وهو شَجَر كثير الشوك، وقال مجاهد: ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي: متراكم الثمر. وقال السُّدِّي: مصفوف. قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وعن أبي سعيد: ﴿وَطَلْحٍ﴾ قال: الموز. وروي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة مثل ذلك، وبه قال ابن زيد، وزاد: أهل اليمن يُسَمُّون الموز الطلح. ولم يَحْكِ ابن جرير غير هذا القول. وقوله: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ عن أبي هريرة -يبلُغُ به النبي ﷺ- قال: «إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظِلها مائة عام لا يَقْطَعها واقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾» [متفق عليه]، وقال الضحاك: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾: لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر؛ مثل طلوع الفجر. وقد تقدمت الآيات كقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥].

﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَر.

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع، بل أُكُلُها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وَجَدوا، لا يمتنع عليهم شيء. قال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عُوْد ولا شَوْك ولا بُعْد. ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية وَطِيئة ناعمة.

﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ جرى الضمير على غير مذكور، لكن لَـمَّا دَلَّ السياق -وهو ذِكر الفُرُش- على النساء اللاتي يُضَاجَعن فيها، اكتفى بذلك عن ذِكْرهن، وعاد الضمير عليهن.

﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أعدناهن في النشأة الآخرة بعدما كُنَّ عجائز رُمْصًا، صِرْنَ أبكارًا عُرُبًا، أي: بعد الثَّيُوبة عُدْنَ أبكارًا.

﴿عُرُبًا﴾ أي: مُتَحَبِّبَات إلى أزواجهن بالحلاوة والظَّرَافة والـمَلاحة. وقال بعضهم: غَنِجات. وعن ابن عباس: يعني مُتَحَبِّبَات إلى أزواجهن. وقال زيد بن أسلم وابنه: العُرُب: حسنات الكلام.

وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ قال ابن عباس يعني: في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد: الأتراب: المستويات. وفي رواية عنه: الأمثال. وقال السُّدِّي: في الأخلاق مُتَوَاخِيَات بينهن، ليس بينهن تَبَاغُض ولا تَحَاسُد، يعني: لا كما كُنَّ في الدنيا ضرائر مُتَعَادِيات.

وقوله: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: خُلِقْن، أو: ادُّخِرْنَ، أو: زُوِّجْنَ لأصحاب اليمين. والأظهر أن تقديره: أَنْشَأْنَاهُنَّ لأصحاب اليمين. وهذا توجيه ابن جرير. قلت: ويُحتمل أن يكون متعلقًا بما قبله، وهو قوله: ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: في أسنانهم.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعة من الأولين، وجماعة من الآخرين.

الآية (٤١-٥٠): ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أي: أي شيء هم أصحاب الشمال؟! ثم فَسَّر ذلك فقال: ﴿فِي سَمُومٍ﴾ وهو: الهواء الحار، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو: الماء الحار، ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ هو الدخان الأسود، قال ابن عباس: ظل الدخان، وهذه كقوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٩-٣٤].

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ليس طيب الهبوب ولا حَسَن الـمَنْظَر، كما قال الحسن وقتادة. ثم ذَكَر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدار الدنيا مُنَعَّمِين مُقْبِلِين على لذَّات أنفسهم، لا يَلْوُون على ما جاءتهم به الرسل.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أي: يُصَمِّمون ولا ينوون توبةً. ﴿عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله، وجَعْل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله. قال ابن عباس وغيره: الشِّرك. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؟! يعني: أنهم يقولون ذلك مُكَذِّبِينَ به مُستَبعِدِين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيُجْمَعون إلى عَرَصَات القيامة، لا نُغَادِر منهم أحدًا، كما قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: هو مُوَقَّت بوقت محدد، لا يَتَقَدَّم ولا يَتَأَخَّر، ولا يزيد ولا ينقص.

الآية (٥١-٥٦): ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وذلك أنهم يُقْبَضُون ويُسْجَرون حتى يأكلوا من شَجَر الزقوم، حتى يملؤوا منها بطونهم، ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهي الإبل العِطَاش، واحدها: أهْيَم، والأنثى: هيماء، ويُقال: هائم وهائمة. وعن عكرمة: الإبل الـمِرَاض، تَـمُصُّ الماء مَصًّا ولا تَرْوَى. وقال السُّدِّي: الهيم: داء يأخذ الإبل فلا تَرْوَى أبدًا. ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم؛ كما قال في حق المؤمنين: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧] أي: ضيافةً وكرامةً.

الآية (٥٧-٦٢): يقول تعالى مُقَرِّرًا للمَعَاد، ورادًّا على المكذِّبين به من أهل الزيغ والإلحاد: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: نحن ابتدأنا خَلقَكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليسَ الذي قَدَر على البَدَاءَة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟! فلهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فَهَلَّا تُصَدِّقون بالبَعْث! ثم قال مُستَدِلًّا عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أنتم تُقِرُّونه في الأرحام وتَخْلُقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟! ثم قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: صرَّفْناه بينكم. وقال الضحاك: ساوَى فيه بين أهل السماء والأرض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نُغَيِّر خَلْقَكم يوم القيامة، ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الصفات والأحوال. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجَعَل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهَلَّا تتذكرون وتعرفون أن الذي قَدَر على هذه النشأة -وهي البَدَاءَة- قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى؛ كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

الآية (٦٣-٧٤): ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾؟! وهو شَقُّ الأرض وإثارتها والبَذْر فيها، ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؟! أي: تُنْبِتُونَه في الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: بل نحن الذين نُقِرُّه قَرَارَه ونُنْبِتُه في الأرض.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: نحن أنبتناه بلُطْفِنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمةً بكم، ولو نَشَاء لجعلناه حُطَامًا، أي: لَأَيْبَسْنَاه قبل استوائه واستحصاده، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ثم فَسَّرَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لو جعلناه حُطَامًا لظَلْتُم تَفَكَّهُون في المقالة، تُنَوِّعُون كلامكم، فتقولون تارةً: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لَـمُلْقَون. وقال مجاهد وعكرمة: إنا لَـمُولَعٌ بنا. وقال قتادة: مُعَذَّبُون. وتارةً تقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. وقال مجاهد أيضًا: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مُلْقَوْن لِلشَّرِّ، أي: بل نحن مُحَارَفون، قاله قتادة، أي: لا يَثْبُت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: مَجْدُودُون، يعني: لا حَظَّ لنا. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تَعْجَبُونَ. وقال مجاهد أيضًا: تُفْجَعُون وتحزنون على ما فاتكم من زَرعكم. وهذا يَرجع إلى الأول، وهو التَّعَجُّب من السبب الذي من أجله أُصِيبوا في مالهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: تَلَاوَمُون. وقال الحسن وقتادة والسُّدِّي: تندمون. ومعناه إما على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتم من الذنوب. ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يعني: السحاب. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد.

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يقول: بل نحن المنزلون. ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي: زُعاقًا[1] مُرًّا لا يَصْلُح لشُرْب ولا زَرْع ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فَهَلَّا تشكرون نعمةَ الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عَذْبًا زُلالًا! ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تَقْدَحُون من الزِّناد، وتستخرجونها من أصلها، ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مُودَعَةً في موضعها، وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قال مجاهد وقتادة: أي تُذَكِّر النارَ الكبرى. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يُوقِدُون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» [متفق عليه].

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: يعني: المسافرين، واختاره ابن جرير. وعن مجاهد: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾: المستمتعين، الناس أجمعين. وهذا التفسير أعمُّ من غيره؛ فإن الحاضر والبادي من غَني وفقير، الجميع محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم أُفْرِد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حقِّ الناس كلهم. قوله: وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة في قوله تعالى: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر،أي: الذي بقدرته خَلَقَ هذه الأشياء المختلفة الـمُتَضَادَّة، وجَعَل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجرًا لهم في المعاد.

الآية (٧٥-٧٦): وهذا قَسَم من الله ﷻ؛ يُقسِم بما شاء من خَلقِه، وهو دليلٌ على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: «لا» ههنا زائدة، وتقديره: أُقسِم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبير. ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. وقال آخرون: ليست «لا» زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أوَّل القسم إذا كان مُقسَمًا به على مَنْفِي، وتقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سِحْر أو كهانة، بل هو قرآن كريم. وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَا﴾: فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقيل: ﴿أُقْسِمُ﴾.

﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ قال ابن عباس: نجوم القرآن، نَجَّمَهُ جبريل على محمد ﷺ عشرين سنةً. وكذا قال عكرمة ومجاهد والسُّدِّي.

قال مجاهد وغيره: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ في السماء، ويُقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن وقتادة، وهو اختيار ابن جرير. وعن قتادة: منازلها. وعن الحسن: انتثارها يوم القيامة. وقال الضحاك: يعني بذلك: الأنواء. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإن هذا القسم الذي أَقْسَمْتُ به لَقَسَم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم الـمُقْسَم به عليه.

---

(١) ماء زُعاق، أي: مالح [ينظر معجم مقاييس اللغة، مادة (زعق)].

الآية (٧٧-٨٢): ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نَزَلَ على محمد لَكِتَاب عظيم ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: في كتاب مُعَظَّم محفوظ مُوَقَّرٍ.

عن ابن عباس: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ قال: الكتاب الذي في السماء ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني: الملائكة. وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغيرهم. وقال قتادة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يَمَسُّهُ المجوسي النجس، والمنافق الرجس. وقال ابن زيد: زَعَمت كفار قريش أن هذا القرآن تَنَزَّلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يَمَسُّه إلا المطهرون كما قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، روى مسلم عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن مُنزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سِحْر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مِرْيَة فيه، وليس وراءه حق نافع.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: أي مكذِّبون غير مصدِّقين. وكذا قال الضحاك والسُّدِّي. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال بعضهم: يعني: وتجعلون رِزْقكم بمعنى شُكْرَكم أنكم تُكذِّبون، أي: تُكذِّبون بَدَل الشكر. ومن لغة أزد شنوءة: (ما رَزَق فلان) بمعنى: (ما شَكَر فلان). وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين؛ ينزل الغيث فيقولون: بكوكب كذا وكذا». تفرد به مسلم. وقال مجاهد: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وبنوء كذا؛ يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاك وغير واحد. أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم؛ لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا: تجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به؛ ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

الآية (٨٣-٨٧): ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الرُّوح ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: الحَلْق، وذلك حين الاحتضار، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى المُحْتَضِر وما يُكابده من سكرات الموت. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ معناه: فهَلَّا تَرْجِعُون هذه النفس التي قد بَلَغَت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومَقَرِّها في الجسد ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني محاسبين. وقال ابن جبير والحسن: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غير مُصَدِّقِين أنكم تُدانُون وتُبْعَثُون وتُجْزَوْن، فرُدُّوا هذه النفس. وعن مجاهد: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مُوقِنِين.

الآية (٨٨-٩٦): هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: المحتضر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات؛ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: فلهم رَوْح وريحان، وتُبَشِّرهم الملائكة بذلك عند الموت. قال ابن عباس: ﴿فَرَوْحٌ﴾: راحةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: مستراحة. وقال مجاهد: الرَّوْح: الاستراحة. وقال ابن جبير والسُّدِّي: الرَّوح: الفَرَح. وعن مجاهد: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: جنة ورخاء. وقال قتادة: ﴿فَرَوْحٌ﴾: فرحة. وقال ابن عباس ومجاهد وابن جبير: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: ورزق. وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة؛ فإن من مات مُقَرَّبًا حَصَل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تُبَشِّرُهُم الملائكة بذلك؛ تقول لأحدهم: سلامٌ لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة وابن زيد: سَلِمَ من عذاب الله، وسَلَّمَت عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وهذا معنى حسن. وقال البخاري: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي: مُسَلَّم لك أنَّك من أصحاب اليمين. وأُلغيت «أنَّ» وبقي معناها.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذِّبين بالحق، الضَّالِّين عن الهدى، ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فضيافةٌ ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو المُذَاب الذي يُصهر به ما في بطونهم والجلود. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وتقرير له في النار التي تَغْمُره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذي لا مِريَة فيه، ولا مَحِيد لأحد عنه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خَفيفتان على اللسان، ثَقِيلتان في الميزان، حَبِيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [متفق عليه].

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٢٩) آيةً].

الآية (١-٣): يُخْبِر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيوانات والنباتات؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خَضَعَ له كل شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خَلْقِه وأَمْرِه وشَرْعِه، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك المُتَصَرِّف في خلقه فيُحيي ويُميت، ويُعطي من يشاء ما يشاء، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قال ابن عباس: إذا وَجَدْتَ في نفسك شيئًا[1] فقُلْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علمًا، والباطن على كل شيء علمًا. وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» [رواه مسلم].

---

(١) أي: «شيئًا من الشك»؛ كما يوضحه أصل الرواية المطولة.

الآية (٤-٦): يُخْبِر تعالى عن خلقه السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدَّم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة «الأعراف»(١).

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حَبٍّ وقَطْرٍ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من زرع ونَبات وثمار. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من الأمطار، والثلوج والبَرَد، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة والأعمال؛ كما جاء في الصحيح: «يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم، من بَرٍّ أو بَحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القِفَار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بَصَره وسمعه، فيَسْمع كلامكم ويَرَى مكانكم، ويعلم سرَّكم ونجواكم، فلا إله غيره ولا رب سواه. وقد ثَبَتَ أن رسول الله ﷺ قال لجبريل -لَـمَّا سأله عن الإحسان-: «أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم]. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك للدنيا والآخرة؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل:١٣]. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيَحْكم في خَلقِه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عَمِل حسنةً واحدةً يضاعفها إلى عَشْر أمثالها.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: هو المُتَصَرِّف في الخلق، يُقَلِّب الليل والنهار ويُقَدِّرُهما بحكمته كما يشاء، فتارةً يطول الليل ويقصر النهار، وتارةً بالعكس، وتارةً يتركهما معتدلين، وتارةً يكون الفصل شتاءً ثم ربيعًا ثم قَيْظًا ثم خَريفًا، وكل ذلك بحكمته وتقديره لِـمَا يريده بخلقه، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم السرائر وإن دَقَّتْ، وإن خَفِيَتْ.

الآية (٧-١١): ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا﴾ أَمَرَ تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحَثَّ على الإنفاق ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: ممَّا هو معكم على سبيل العَارية؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشَد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مُخَلَّفًا عنك، فلَعَلَّ وَارِثَك أن يُطِيعَ الله فيه، فيكون أَسْعَد بما أَنعَم الله به عليك منك، أو يَعْصِي الله فيه فتكون قد سَعَيْت في معاونته على الإثم والعدوان.

عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر؛ يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ؟! وما سوى ذلك فذَاهِبٌ وتاركه للناس» [رواه مسلم].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؟! أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان؟! والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويُبَيِّن لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[المائدة:٧]. ويعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حُجَجًا واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات، ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشُّبه. ولَـمَّا أمرهم أولًا بالإيمان والإنفاق، ثم حَثَّهم على الإيمان، وبيَّن أنه قد أزال عنهم موانعه، حَثَّهم أيضًا على الإنفاق، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنفقوا ولا تَخشَوا فقرًا وإقلالًا؛ فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩] فمن تَوَكَّل على الله أنفق، ولم يَخْشَ من ذي العرش إقلالًا، وعَلِم أن الله سيُخْلِفُه عليه.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله؛ وذلك أنّ قبل فتح مكة كان الحال شديدًا، فلم يكن يُؤْمِن حينئذٍ إلا الصِّدِّيقون، وأما بعد الفتح فإنه ظَهَر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودَخَل الناس في دين الله أفواجًا؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾. والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة. وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا: صلح الحديبية. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير» [رواه مسلم]، وإنما نَبَّهَ بهذا لئلا يُهدَر الجانب الآخر بمَدْح الأوَّل دون الآخر، فيَتَوَهَّم مُتَوَهِّم ذَمَّه؛ فلهذا عَطَفَ بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلِخِبْرَتِه فاوتَ بين ثواب من أَنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فَعَل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق. وفي الحديث: «سبق درهمٌ مائةَ ألف» [رواه النسائي، وحسنه الألباني]، ولا شكَّ عند أهل الإيمان أن الصِّدِّيق أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، له الحظ الأوفر من هذه الآية؛ فإنه سَيِّد من عَمِل بها من سائر أمم الأنبياء؛ فإنه أَنْفَقَ ماله كُلَّه ابتغاء وجه الله وَجَلَّ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يَجْزِيه بها.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أَعَمُّ من ذلك؛ فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دَخَل في عموم هذه الآية. وقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي: جزاء جميل، ورزق باهر -وهو الجنة- يوم القيامة.

(١) صفحة ١٥٧.

الآية (١٢-١٥): يقول تعالى مُخْبِرًا عن المؤمنين الـمُتَصَدِّقِين: أنهم يوم القيامة يسعَى نُورُهم بين أيديهم في عَرَصَات القيامة بحَسَب أعمالهم، كما قال ابن مسعود: على قَدْر أعمالهم يمرون على الصراط: منهم مَن نوره مثل الجبل، ومنهم مَن نوره مثل النخلة، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره في إبهامه يَتَّقِد مرةً ويُطْفَأُ مرةً. وقال الضحاك: ليس أحد إلا يُعْطَى نورًا يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين، فلمَّا رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يُطْفَأ نورهم كما طُفِئ نور المنافقين، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨]. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني: على الصراط.

وقوله: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ قال الضحاك: أي وبأيمانهم كُتُبُهم، كما قال: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء:٧١].

وقوله: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يُقال لهم: بُشرَاكم اليوم جناتٌ، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عمَّا يقع يوم القيامة في العَرَصَات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذٍ إلا من آمن بالله ورسوله، وعَمِل بما أَمَرَ الله، وتَرَك ما عنه زَجَرَ. قال أبو أمامة: تنتقلون منه [أي القبر] إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا.

قال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بَعَثَ الله نورًا، فلمَّا رأى المؤمنون النور توَجَّهوا نحوه، وكان النور دليلًا من الله إلى الجنة، فلمَّا رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتَّبَعُوهم، فأَظْلَم الله على المنافقين، فقالوا حينئذٍ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ فإنا كنَّا معكم في الدنيا. قال المؤمنون: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور. ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار. وهكذا رُوي عن مجاهد وغير واحد، وهو الصحيح. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ أي: الجنة وما فيها، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما. والمراد بذلك: سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دُخولهم أُغْلِق الباب وبَقِيَ المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة، ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ أي: يُنَادِي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الـجُمُعات، ونُصَلِّي معكم الجماعات، ونَقِفُ معكم بعَرَفَات، ونَحْضُر معكم الغَزَوَات، ونُؤَدِّي معكم سائر الواجبات؟!

﴿قَالُواْ﴾ أي: فأجاب المؤمنون: ﴿بَلَىٰ﴾ قد كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ قال بعض السَّلَف: أي فَتَنْتُم أنفسَكم باللَّذَّات والمعاصي والشهوات.

﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ أي: أَخَّرْتُم التوبة من وقت إلى وقت.

وقال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالحق وأهله ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: بالبعث بعد الموت، ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم: سيُغفَر لنا. وقيل: غَرَّتْكُم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما زِلْتُم في هذا حتى جاء الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي: الشيطان. قال قتادة: كانوا على خُدْعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قَذَفَهُم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا بأبدان لا نيةَ لها ولا قلوبَ معها، وإنما كنتم في حيرة وشَكّ، فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلًا. قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يُنَاكِحُونَهم ويغشونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتًا، ويُعطَون النور جميعًا يوم القيامة، ويُطفَأ النور من المنافقين إذا بَلَغُوا السُّور، ويُماز بينهم حينئذٍ. وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بمِلْءِ الأرض ذَهَبًا ومثله معه ليَفْتَدِي به من عذاب الله، ما قُبِل منه. ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي مصيركم وإليها مُنْقَلَبُكم، ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

الآية (١٦-١٧): يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تَخْشَع قلوبهم لذِكر الله، أي: تَلِين عند الذِّكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتَنْقَاد له وتسمع له وتُطِيعه. عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عَاتَبَنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين [رواه مسلم].

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ نَهَى الله المؤمنين أن يَتَشَبَّهوا بالذين حَمَلُوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لَـمَّا تطاول عليهم الأمد بَدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونَبَذُوه وراء ظهورهم، وأَقْبَلُوا على الآراء المختلفة والأقوال الـمُؤْتَفَكَة، وقَلَّدُوا الرجال في دين الله، واتَّخَذُوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قَسَتْ قلوبهم، فلا يَقبَلُون موعظةً، ولا تَلِيْنُ قلوبهم بوَعْدٍ ولا وعيد.

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة؛ كما قال: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[المائدة:١٣].

وقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أنه تعالى يُلِينُ القلوب بعد قَسْوَتها، ويَهدِي الحَيَارى بعد ضَلَّتِهَا، ويفرِّج الكروب بعد شِدَّتِها، فكما يُحْيِي الأرض الميتة الـمُجْدِبَة الهامدة بالغَيْث الهتَّان الوابل، كذلك يَهدِي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويُولِج إليها النور بعد ما كانت مُقْفَلَةً لا يَصِل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والـمُضِلِّ لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لِـمَا يشاء فَعَّال، وهو الحكَم العَدْل في جميع الفِعَال، اللطيف الخبير الكبير الـمُتَعَال.

الآية (١٨): يُخْبِرُ تعالى عما يُثِيبُ به الـمُصَّدِّقين والـمُصَّدِّقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والـمَسْكَنَة، ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: دَفَعُوه بنيةٍ خالصةٍ ابتغاء مرضاة الله، لا يُريدون جزاءً مِـمَّن أَعْطَوه ولا شكورًا. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ أي: يُقابل لهم الحسنة بعَشْر أمثالها، ويَزدَاد على ذلك إلى سبعمائة ضِعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: ثواب جزيل حَسَن، ومرجع صالح، ومآب حَسَن.

الآية (١٩): هذا تمام لجملة وَصْف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صِدِّيقون. قال ابن عباس: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هذه مفصولة ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. وقال أبو الضحى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم. وعن عبد الله[1] في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المُصَدِّقين، والصِّدِّيقين، والشهداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، ففرَّق بين الصِّدِّيقين والشهداء، فدَلَّ على أنهما صنفان. ولا شكَّ أن الصِّدِّيق أعلى مَقامًا من الشهيد.

وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأَخْبَر عن المؤمنين بالله ورسله، بأنهم صديقون وشهداء. حكاه ابن جرير عن مجاهد. وقال عمرو بن ميمون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ قال: يجيؤون يوم القيامة معًا كالإصبعين.

وقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في جنات النعيم؛ كما جاء في الصحيحين: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة. فقال إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون».

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لَـمَّا ذَكَر السعداء ومآلهم؛ عَطَف بذِكْر الأشقياء وبيَّن حالهم.

الآية (٢٠-٢١): يقول تعالى مُوهنًا أمْرَ الحياة الدنيا ومُحَقِّرًا لها: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: إنما حَاصِل أَمْرها عند أهلها هذا؛ كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم ضَرَب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: يُعْجِب الزُّرَّاع نباتُ ذلك الزرع الذي نَبَتَ بالغيث؛ وكما يُعْجِب الزُّرَّاع ذلك، كذلك تُعْجِب الحياةُ الدنيا الكفارَ، فإنهم أَحْرَصُ شيء عليها، وأَمْيَلُ الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: يَهيج ذلك الزرع فتراه مُصْفَرًّا بعدما كان خَضِرًا نَضِرًا، ثم يكون بعد ذلك كلِّه حُطَامًا، أي: يصير يَبَسًا مُتَحَطِّمًا، هكذا الحياة الدنيا: تكون أوَّلًا شابةً، ثم تَكْتَهِل، ثم تكون عجوزًا شَوْهَاء، والإنسان كذلك في أوَّل عمره وعُنْفُوَان شبابه غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الأعطاف، بَهِيَّ المنظر، ثم إنه يَشْرَع في الكهولة فتَتَغَيَّر طِبَاعه ويَفقِد بعض قواه، ثم يَكْبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يُعْجِزُه الشيء اليسير.

ولَـمَّا كان هذا المثل دالًّا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة؛ حَذَّر من أمرها ورغَّب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: هي متاع فانٍ غارٌّ لمن رَكَن إليه؛ فإنه يَغْتَرُّ بها وتُعْجِبُه حتى يَعْتَقِدَ أنه لا دار سِوَاها ولا مَعَاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هذا الذي أَهَّلَهم الله له هو من فَضْله ومَنِّه عليهم وإحسانه إليهم.

الآية (٢٢-٢٤): يُخْبِر تعالى عن قَدَره السَّابق في خَلْقه قبل أن يَبْرَأَ البَرِيَّة، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: من قبل أن نَخْلُقَ الخليقة ونَبْرَأَ النَّسَمَة. وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة. والأحسن عَوْده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها، وقال قتادة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: هي السُّنون. يعني: الجَدْب، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض. قال: وبَلَغَنَا أنه ليس أحد يُصِيبُه خَدْش عُود ولا نَكْبَة قَدَم، ولا خَلَجَان عِرْق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أَدَلِّ دليل على القَدَرية نُفَاة العِلْم السابق، قَبَّحَهم الله. وعن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَدَّر الله المقادير قبل أن يَخْلُقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة» [رواه مسلم].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن عِلْمَه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طِبْقَ ما يُوجَد في حينها سهل على الله ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعلمناكم بتَقَدُّم عِلْمِنا وسَبْق كِتَابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتَعْلَموا أن ما أصابكم لم يكن لِيُخْطِئَكم، وما أخطأكم لم يكن لِيُصِيبَكُم، فلا تأسوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قُدِّرَ شيء لكان، ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم. ويُقْرأ: «أتاكُم» أي: جاءكم، وكلاهما متلازمان، أي: لا تَفْخروا على الناس بما أَنْعم الله به عليكم؛ فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كَدِّكم، وإنما هو عن قَدَر الله ورزقه لكم، فلا تَتَّخِذوا نِعَمَ الله أَشَرًا وبَطَرًا، تَفْخَرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال في نفسه مُتكَبِّر، فخور، أي: على غيره.

وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفَرَحَ شُكْرًا والحُزْن صَبْرًا.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: يفعلون المنكر ويَحُضُّون الناس عليه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن أَمْر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

(١) هو عبد الله بن مسعود.

الآية (٢٥): يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات، والحُجَج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو: النَّقْلُ المصدّق، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو: العَدْل. قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وهو الحق الذي تَشهَد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة؛ كما قال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود:١٧]، وقال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧]؛ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرُّسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أَمَرُوا به؛ فإن الذي جاؤوا به هو الحقُّ الذي ليس وراءه حقّ، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صِدْقًا في الإخبار، وعَدْلًا في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوّؤوا غُرَف الجنَّات، والمنازل العاليات، والسُّرُر المصفوفات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رَادِعًا لمن أبى الحقَّ وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنةً تُوحَى إليه السور المكية، وكُلُّها جِدَال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلمَّا قامت الحجة على من خَالف شَرَعَ الله الهجرة، وأَمَرَهم بالقتال بالسيوف، وضَرْبِ الرِّقَاب والهَام لمن خَالف القرآن وكَذَّبَ به وعانده. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح كالسيوف والحِراب والسِّنَان والنِّصَال والدروع ونحوها، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم كالسِّكَّة[1] والفَأْس والقَدُوم والمِنشَار والإزميل والمِجْرَفَة، والآلات التي يُستَعَان بها في الحِرَاثة والحِيَاكة والطبخ والخَبْز، وما لا قوام للناس بدونه.. وغير ذلك. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: مَنْ نِيَّتُه في حَمْل السلاح نصرةُ الله ورسله.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز، يَنْصُر من نَصَرَه من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شَرَع الجهاد ليبلو بعضَكم ببعض.

الآية (٢٦-٢٧): يُخْبِر تعالى أنه منذ بَعَثَ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُرسِل بعده رسولًا ولا نبيًّا إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الرحمن، لم يُنزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولًا، ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بَشَّر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رأفة وهي الخشية، ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخَلْق. وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعها أمة النصارى. ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما شَرَعْناها لهم، وإنَّما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قَصَدُوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة. والآخر: ما كَتَبْنا عليهم ذلك، إنما كَتَبْنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حقَّ القيام. وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مِمَّا زَعَموا أنه قُربةٌ يُقَرِّبهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الآية (٢٨-٢٩): عن ابن عباس: أنه حَمَل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يُؤْتَون أَجْرَهم مَرَّتين كما في الآية التي في القَصَص[2]، وكما في حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤْتَون أَجْرَهم مرَّتين: رجل من أهل الكتاب آمَنَ بنبيه وآمَنَ بي فله أجران، وعبد مملوك أدَّى حقَّ الله وحقَّ مَوَالِيه فله أجران، ورجل أَدَّبَ أَمَتَهُ فأَحْسَنَ تأديبها، ثم أَعْتَقَها وتَزَوَّجها فله أجران» [متفق عليه]، ووافق ابنَ عباس على هذا التفسير الضحاكُ وعتبةُ بن أبي حكيم وغيرُهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لَمَّا افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يُؤْتَون أَجْرَهم مرَّتين، أَنْزَل الله هذه الآية في حَقِّ هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ضِعْفَين، وزادهم: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: هُدًى يُتَبَصَّر به من العمى والجهالة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فَضَّلَهم بالنور والمغفرة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمرُ بن الخطاب حَبْرًا من أحبار يهود: كم أَفْضَلُ ما ضُعِّفَتْ لكم حسنةٌ؟ قال: كِفْلٌ: ثلاثمائة وخمسون حسنةً. قال: فحَمِدَ اللهَ عمرُ على أنه أعطانا كِفْلَين. رواه ابن جرير. ومِمَّا يُؤَيِّد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُكُمْ ومَثَلُ اليهود والنصارى كمَثَل رجل استعمل عُمَّالًا، فقال: من يَعْمَل لي من صلاة الصبح إلى نِصْف النهار على قِيْراط قِيراط؟ ألا فعَمِلَت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نِصْف النهار إلى صلاة العصر على قِيْرَاط قِيْرَاط؟ ألَا فعَمِلَت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قِيرَاطين قِيرَاطين؟ ألَا فأنتم الذي عَمِلْتم. فغَضِبَت النَّصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عَمَلًا وأقلُّ عَطَاء. قال: هل ظَلَمْتُكم من أجْركم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أُوْتيه من أشاء» [رواه البخاري].

ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: ليَتَحَقَّقُوا أنهم لا يَقدِرون على رَدّ ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما مَنَعَ الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

---

(١) يعني: النقود والدراهم؛ والسكة في الأصل: حديدة منقوشة يُضرب عليها الدراهم. [القاموس المحيط، مادة (سكك)].

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص:٤٥].

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٢٢) آية].

الآية (١-٢): [سبب النزول]: عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية [رواه البخاري]. وفي رواية: أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أَكَلَ شبابي، ونَثَرَت له بطني، حتى إذا كَبُرَت سِنِّي، وانقطع ولدي، ظَاهَر مِنِّي، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

وعن خولة بنت ثعلبة قالت: فيَّ - والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة «المجادلة». قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليَّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي... قالت: ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه... فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّيَ عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك». ثم قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُريه فليعتق رقبة». قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر، قال: «فقد أصبت وأحسَنْت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا». قالت: ففعلت. [رواه أحمد وأبو داود، وحسنه الألباني]. هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أُمِر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت عليَّ كَظَهْرِ أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف. قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: «أنت عليَّ كأمي» أو «مثل أمي» أو «كظهر أمي»، وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: كلامًا فاحشًا باطلًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية. وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم.

الآية (٣): ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره. وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم. وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد الظهار زمانًا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة. وقد حكى عن مالك: أنه العزم على الجماع والإمساك. وعنه أنه الجماع. وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة. عن سعيد بن جبير: يعني: يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم. وقال الحسن البصري: يعني: الغشيان في الفرج. وكان لا يرى بأسًا أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر. وقال ابن عباس: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: النكاح. وكذا قال عطاء والزهري وقتادة. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر. قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسَّا، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي، في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» [رواه مسلم]. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزجَرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم.

الآية (٤): ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ تقدمت الأحاديث[1] الآمرة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان. ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: شرعنا هذا لهذا. قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: محارمه فلا تنتهكوها، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا، ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

الآية (٥): يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أُهينوا ولعنوا وأُخزوا، كما فُعل بمن أشبههم ممن قبلهم، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه.

الآية (٦): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا﴾ أي: يخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى، ولا ينسى شيئًا.

---

(١) يشير إلى الأحاديث التي أوردها في الأصل عند تفسير الآيتين الأوليين من هذه السورة، والتي منها الحديث المذكور في هذه الصفحة في العمود المقابل.

الآية (٧): قال تعالى مخبرًا عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: من سر ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي: يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه لهم؛ كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨]؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معيّة علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

الآية (٨): قال مجاهد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ اليهود.

[سبب النزول]: قال مقاتل بن حيان: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله - أو بما يكره المؤمن- فإذا رأى المؤمن ذلك خَشيهم، فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. قوله: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصِرون عليها ويتواصون بها. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾

[سبب النزول]: عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟! فقال رسول الله: «أوَما سمعتِ أقول: وعليكم؟!». فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [رواه مسلم].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرّفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبيًّا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نُسرّه، فلو كان هذا نبيًّا حقًّا لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. وعن عبد الله بن عمرو؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٩): ثم قال الله مُؤدّبًا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين. ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم، وسيجزيكم بها. عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟! أتعرف ذنب كذا؟! أتعرف ذنب كذا؟! حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فـ﴿يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨]». أخرجاه في الصحيحين.

الآية (١٠): ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ وهي المُسَارّة حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن أحسَّ من ذلك شيئًا فليستعذ بالله وليتوكل على الله؛ فإنه لا يضره شيء بإذن الله. وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍّ على مؤمن، كما روى ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَينَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه» [متفق عليه].

الآية (١١): يقول تعالى مؤدبًا عباده المؤمنين، وآمرًا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما في الحديث: «من بَنَى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة» [رواه مسلم]، وفي الحديث الآخر: «ومن يَسَّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة» [رواه مسلم]. قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر؛ وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلًا ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض. وقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوَسَّعوا» [متفق عليه]. وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال: فمنهم من رخّص في ذلك محتجًّا بحديث: «قوموا إلى سيدكم» [متفق عليه]. ومنهم من منع من ذلك محتجًّا بحديث: «من أحَبَّ أن يَتَمَثَّل له الرجال قيامًا، فَلْيَتبوَّأ مَقْعَدَه من النار» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. ومنهم من فصَّل فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ؛ فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكمًا في بني قريظة فرآه مقبلًا قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذَ لحكمه. فأما اتخاذه ديدنًا فإنه من شعار العجم. وقد جاء أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أُمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصًا في حقه، بل هو رفعة ومزية عند الله، والله تعالى لا يُضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة؛ فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره، ونَشَر ذكره. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه. قال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوما ويضع به آخرين» [رواه مسلم].

الآية (١٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يُسارّه فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾. ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فما أُمر بها إلا من قدر عليها.

الآية (١٣): ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي: أخِفتُم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول؟! ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم. قال ابن عباس: كان المسلمون يقدمون بين يدي النجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا. وقال قتاده ومقاتل بن حيان: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فقطعهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية (١٤): يقول تعالى منكرًا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤٣]. وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني: اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه؛ فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا؛ ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

الآية (١٥-١٧): ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة. ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأسًا إذا جاءهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الآية (١٨): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا. ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يحلفون بالله ﷻ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيُجْرُون عليهم الأحكام الظاهرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: حلفهم ذلك لربهم ﷻ. ثم قال منكرًا عليهم حسبانهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

[سبب النزول]: عن سعيد بن جُبَير أن ابن عباس حدثه: أن النبي ﷺ كان في ظل حُجْرة من حُجَره، وعنده نفر من المسلمين قد كان يَقلصُ عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه». فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه، فقال: «علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟!» -نفر دعاهم بأسمائهم- قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. إسناد جيد ولم يخرجاه [أخرجه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

الآية (١٩): ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ﷻ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بَدْو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية». قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة [رواه أبو داود وصححه الألباني]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الآية (٢٠-٢١): يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعني: الذين هم في حَدٍّ والشرع في حَدٍّ، أي: مجانبون للحق مشاقون له؛ هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَره الذي لا يُخالَف ولا يُمانع، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]. وقال ههنا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم: أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

الآية (٢٢): ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية [آل عمران:٢٨]. [سبب النزول]: قال سعيد بن عبد العزيز: أُنزلت هذه الآية في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قَتل أباه يوم بدر.

وقيل في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر، قتل قريبًا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم. قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يُفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنّي من فلان -قريب لعمر- فأقتله، وتمكن عليًّا من عقيل، وتمكن فلانًا من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين... القصة بكاملها.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان؛ أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته. وقال السُّدي: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوَّاهم.

قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة. وفي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع؛ وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عَوّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي: هؤلاء عباد الله وأهل كرامته. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان.

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٢٤) آية].

[فضل السورة]: عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثًا من ذوات الر». فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني. قال: «فاقرأ ثلاثًا من ذوات حاميم». فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثًا من المسبّحات» [رواه أحمد وأبو داود، وصحح إسناده أحمد شاكر].

[سبب النزول]: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير [متفق عليه].

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية (١): يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه، ويصلي له ويوحده؛ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: منيع الجناب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه.

الآية (٢): ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصَدّ، فأجلاهم النبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا، وجاءهم ما لم يكن ببالهم، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم؛ ولهذا قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المُخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي: في مدة حصاركم لهم وقِصَرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف والهَلَع والجَزَع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نُصر بالرعب مسيرةَ شهر. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتَحمُّلها على الإبل.

الآية (٣): ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي، ونحو ذلك. قاله الزهري عن عُرْوَة والسُّدِّي؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب في نار جهنم. وقال عكرمة: الجلاء: القتل. وفي رواية عنه: الفناء. وقال قتادة: الجلاء: خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيرًا وسقاء، فهذا الجلاء. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي: حتم لازم لا بد لهم منه.

الآية (٤): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسَلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الآية (٥): قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال كثيرون من المفسرين: اللينة: ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل. وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهابًا وإرعابًا لقلوبهم. [سبب النزول]: روى محمد بن إسحاق أنهم قالوا: فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟! فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته ورضاه، وفيه نكاية بالعدو، وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم.

عن ابن عمر قال: حارب النضير وقريظة، فأجلى بني النضير، وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحق بالنبي ﷺ فأمّنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم، بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكلّ يهود بالمدينة [رواه البخاري].

وعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حَرّق نخل بني النضير وقطع - وهي البُوَيرةُ[1] - فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [رواه البخاري]. وحكى البخاري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

الآية (٦): الفيء: كلّ مال أُخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب؛ كأموال بني النضير هذه؛ فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء، فردَّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني: الإبل، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

الآية (٧): ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: جميع البلدان التي تُفتَح هكذا، فحُكمها حكم أموال بني النضير؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها. فهذه مصارفُ أموال الفيء ووجوهه. عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته -وقال مَرّةً: قوت سنته- وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح في سبيل الله عز وجل [متفق عليه]. وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خُمُس الغنيمة. ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر. وقد ثبت في الصحيحين أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فأْتُوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

الآية (٨): ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين صَدَّقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.

الآية (٩): قال تعالى مادحًا للأنصار، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم، وإيثارهم مع الحاجة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم يُحبّون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. عن يحيى بن سعيد سمع أنس بن مالك قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين، قالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا فاصبروا حتى تلقوني؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة». [رواه البخاري]. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة. قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَف اللهُ بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان:٨]؛ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه.

[سبب النزول]: عن أبي هُرَيرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: «ألا رجل يُضَيّفُ هذا الليلة رحمه الله». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونَطوي بطوننا الليلة. ففعلَت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: «لقد عجب الله عز وجل -أو: ضحك- من فلان وفلانة». وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [متفق عليه]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح. عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «واتقوا الشُّحَّ؛ فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم» [رواه مسلم].

---

(١) البُوَيْرَة: موضع بالمدينة كان به نخل بني النضير. [القاموس المحيط، مادة (بور)].

الآية (١٠): **قوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ **هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة:١٠٠]. **فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ﴾ **أي: قائلين:** ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ **أي: بغضًا وحسدًا** ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾. **عن عائشة قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم. سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرُها أولَها». رواه البغوي**(١).

الآية (١١-١٢): **يخبر تعالى عن المنافقين -كعبد الله بن أُبي وأضرابه- حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى:** ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ **أي: لكاذبون فيما وعدوهم به؛ إما لأنهم قالوا لهم قولًا ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه؛ ولهذا قال:** ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ **أي: لا يقاتلون معهم،** ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ **أي: قاتلوا معهم** ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ **وهذه بشارة مستقلة بنفسها.**

الآية (١٣): **قال تعالى:** ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ **أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله؛ كقوله:** ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ [النساء:٧٧]؛ **ولهذا قال:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

الآية (١٤): **ثم قال تعالى:** ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٖ﴾ **يعني: أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة.**

ثم قال: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾ **أي: عداوتهم بينهم شديدة، كما قال:** ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

ولهذا قال: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ **أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف.**

قال إبراهيم النخعي: يعني: أهل الكتاب والمنافقين؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

الآية (١٥): **قال:** ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ **قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر.**

وقال ابن عباس: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ **يعني: يهود بني قينقاع. وكذا قال قتادة وابن إسحاق. وهذا القول أشبه بالصواب؛ فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.**

الآية (١٦): **قوله:** ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ **يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم:** ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، **ثم لما حقت الحقائق وجَدَّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سوَّل للإنسان -والعياذ بالله- الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرَّأ منه وتنصَّل، وقال:** ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) وروى مسلم شطره الموقوف بلفظ: «أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم».

الآية (١٧): ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: جزاء كل ظالم.

الآية (١٨): عن جرير قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابي النمار -أو: العَبَاء- مُتَقَلِّدي السيوف، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مُضَر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية [النساء:١]. وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [رواه مسلم].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمر بتقواه، وهي تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تأكيد ثان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير.

الآية (١٩): ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم؛ فإن الجزاء من جنس العمل. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم؛ كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

الآية (٢٠): ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله يوم القيامة؛ كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]. في آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار، ويهين الفجار. قال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلَّمون من عذاب الله عز وجل.

الآية (٢١): يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن، ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله ﷻ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الرعد:٣١]. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي لكان هذا القرآن. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤].

الآية (٢٢): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكلُّ ما يُعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

الآية (٢٣): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة. ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد: أي المبارك. وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ قال ابن عباس: أَمَّن خلقه من أن يظلمهم. وقال قتادة: أَمَّن بقوله: إنه حق. وقال ابن زيد: صَدّق عبادَه المؤمنين في إيمانهم به. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد عزّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا يُنال جَنابه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا تليق الجَبْرِيّة إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما في الصحيح: «العَظَمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عَذَّبته» [رواه مسلم]. وقال قتادة: الجبار: الذي جَبَر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار: المصلحُ أمورَ خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم. وقال قتادة: المتكبر: يعني عن كل سوء. ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية (٢٤): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ الخلق: التقدير، والبَراء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدَّره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدَّر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ. ومنه يقال: قدَّر الجلَّاد[1] ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدّره بحسب ما يريده. قوله: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار؛ كقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨] ولهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة». قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: فلا يرام جَنابه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

---

(١) يقصد بذلك: المُجلِّد؛ أي مقطع الجلود حيث يُقَدِّر المقاس المطلوب لغرض ما، ثم يقطع الجلد (يفريه) على المقاس وللغرض الذي قدَّره.

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٣) آية].

الآية (١): [سبب النزول]: عن عليٍّ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظَعِينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقنا تَعَادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. قلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لنُلقينَّ الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عِقَاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً مُلصَقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إنه صَدَقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدرًا، ما يدريك لَعَلّ الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» [متفق عليه]. **وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ **يعني: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يُتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء؛ كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة:٥١]. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد؛ وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران:٢٨]؛ ولهذا قَبِل رسول الله ﷺ عُذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مُصانعةً لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد. ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين؛ كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِي﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم.**

﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ **أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.**

الآية (٢): ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما أبقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال. ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون على ألا تنالوا خيرًا، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟! وهذا تهييج على عداوتهم أيضًا.

الآية (٣): ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: قراباتُكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءًا، ونفعُهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخَسِر وضَلّ عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريبًا إلى نبي من الأنبياء؛ عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفَّى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم.

الآية (٤): يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرّي منهم: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ أي: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: بدينكم وطريقكم. ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ يعني: وقد شُرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ أي: إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان. ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه؛ فإنه إنما كان ﴿عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ [التوبة:١١٤]. وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يَدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين، هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل، والضحاك وغير واحد. ثم قال تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرّعوا إليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسَلَّمنا أمورَنا إليك، وفوضناها إليك ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة.

الآية (٥): ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال مجاهد: معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا. وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: لا تُظْهِرهم علينا فيفتنوا بذلك؛ يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍ هم عليه. واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُضَام من لاذ بجنابك، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك.

الآية (٦): ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضًا؛ لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها. قوله: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد.

قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]. وقال ابن عباس: الغني الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

الآية (٧): يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغْضَة، ومودة بعد النّفرة، وألفة بعد الفرقة. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة؛ كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية [آل عمران:١٠٣]. وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟!» [رواه البخاري]. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أيّ ذنب كان.

الآية (٨): ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين؛ كالنساء والضعفة منهم، ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

[سبب النزول]: عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قُتَيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا...، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها [رواه أحمد وأصله في الصحيحين].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ في الحديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم، وأهاليهم، وما وَلُوا» [رواه مسلم].

الآية (٩): ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم. ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

الآية (١٠): تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية[1] الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان فيه: «على ألا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا» وفي رواية: «على أنه لا يأتيك منا أحد -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا» [رواهما البخاري] فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يَشهدْن أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله. وقال مجاهد: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاسألوهن، ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سَخْطة أو غيره، ولم يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حَرّمَت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزًا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني: أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة. قاله ابن عباس.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك. قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن. [سبب النزول]: عن المسور ومَرْوان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساءٌ من المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، فطلق عمر يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية [رواه البخاري]. ﴿وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك.

الآية (١١): ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال مجاهد، وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئًا، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. قال الزهري: أقر المؤمنون بحكم الله، فأدّوا ما أُمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رَدّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العَقب الذي بأيديهم، الذي أُمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنّ وهاجرنَ، ثم ردوا إلى المشركين فضلًا إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن. وقال ابن عباس: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق. وهكذا قال مجاهد: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني: مهر مثلها. وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار. وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير.

---

(١) صفحة ٥١١.

الآية (١٢): [عن] عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلامًا، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة. [رواه البخاري]. وعن أميمة بنت رُقَيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن»، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» هذا إسناد صحيح [رواه أحمد وأصحاب السنن]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط، فبايعها ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصرًا في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملًا بحديث هند بنت عتبة: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]. عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقِرّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا. قالت: فنعم إذًا. فبايعها بالآية [رواه أحمد وصححه الأرنؤوط]. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ هذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قال ابن عباس: يعني: لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم. قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ يعني: فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر. عن ابن عباس قال: إنما هو شرط شَرَطه الله للنساء [رواه البخاري]. وقد قال ابن عباس وأنس: نهاهن يومئذ عن النوح. وعن أم عطية قالت: كان فيما اشتُرط علينا من المعروف حين بايعنا: ألا ننوح [رواه البخاري].

الآية (١٣): ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ. قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ فيه قولان: أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. قال ابن عباس: يعني: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله ﷻ. والقول الثاني: كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. قال ابن مسعود: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه. وهو اختيار ابن جرير.

تفسير سورة الصف

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٤) آية].

[سبب النزول]: عن عبد الله بن سلام أن أناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ فلم يذهب إليه أحد منا وهبنا أن نسأله عن ذلك، قال فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلًا رجلًا حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة: سبح لله «الصف» قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها [رواه ابن أبي حاتم، وهو عند أحمد بنحوه، وصحح إسناده الأرناؤوط].

الآية (١): تقدم الكلام على قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

الآية (٢-٣): قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إنكار على من يَعد وعدًا، أو يقول قولًا لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا. واحتجوا أيضًا بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان». ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لَوَدِدْنَا أن الله ﷻ دلَّنا على أحب الأعمال إليه، فنعملَ به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟! وهذا اختيار ابن جرير.

الآية (٤): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ هذا إخبار من الله بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى؛ يقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان. قال سعيد بن جبير: قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال. وقال ابن عباس: مُثبّت لا يزول، ملصق بعضه ببعض.

الآية (٥): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم تُوصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟! وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» [متفق عليه]. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

الآية (٦): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني: التوراة قد بَشَّرَت بي، وأنا مصداقُ ما أخبرتْ عنه، وأنا مُبَشِّر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. عن جُبَير بن مُطعم قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يَمحُو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» [متفق عليه]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]. قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حي ليَتَّبِعَنَّهُ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد، أي: المبشَّر به في الأعصار المتقادمة، المنَوَّه بذكره في القرون السالفة، لَمَّا ظهر أمرُه وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الآية (٧): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أندادًا وشركاء، وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية (٨-٩): قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: يحاولون أن يَرُدّوا الحق بالباطل، ومَثَلُهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة «براءة»[1] بما فيه كفاية.

الآية (١٠-١١): تقدم أن الصحابة أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: من تجارة الدنيا، والكَدِّ لها والتصدي لها وحدها.

الآية (١٢-١٣): ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات؛ ولهذا قال: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفَّل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل. فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية (١٤): يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: مُعيني في الدعوة إلى الله ﷻ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: لما بلغ عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فِرَقًا وشِيَعًا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عليهم؛ وذلك ببعثة محمد ﷺ، كما روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه... فقال: أيكم يُلقَى عليه شبهي فيُقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال: أنا... فأُلقي عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من روزَنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلَبُ من اليهود، فأخذوا شِبهَه فقتلوه وصلبوه ... فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه. وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه اليه. وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار، فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح.

(١) صفحة ١٩٢.

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١١) آية].

[فضل السورة]: عن ابن عباس وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين [رواه مسلم].

الآية (١): يخبر تعالى أنه يُسبّح له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها؛ كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]. ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ أي: هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدّس، أي: المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدم تفسيره غير مرة.

الآية (٢): ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الأميون هم: العرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وآكد، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم. وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب -أي: نزرًا يسيرًا- ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ فبدَّلوه وغيَّروه، وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأوّلوها، فبعث الله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع. وجمَعَ له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يُعطِ أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

الآية (٣-٤): ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثُّرَيَّا لناله رجال -أو: رَجُلٌ- من هؤلاء» [متفق عليه]. ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسَّر قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى اتباع ما جاء به؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال: هم الأعاجم، وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال [من أصحابي رجالاً][1] ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب»، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾. يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ [رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: ما أعطاه الله محمدًا ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ.

الآية (٥): يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملًا حسيًا ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهمَ له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال ههنا: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

الآية (٦-٨): ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما يعملون من الكفر والظلم والفجور، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمدًا عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه. فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذَته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا» [رواه البخاري]. قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

---

(١) ما بين معقوفين مثبت من معجم الطبراني، ولا يستقيم المعنى إلا به.

الآية (٩): إنما سميت الجمعة جُمعة؛ لأنها مشتقة من الجَمع؛ فإنَّ أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مَرَّةً. عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا. ثم هذا يَومُهم الذي فَرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد» [متفق عليه]. وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مَسيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها؛ كقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:١٩]. وكان عمر وابن مسعود يقرآنها: «فامضوا إلى ذكر الله». فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه؛ عن أبي هُرَيرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تُسرِعوا، فما أدركتم فصَلُّوا، وما فاتكم فأتموا» [متفق عليه]. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينةُ والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يُفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر؛ فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، أما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، فإنما كان هذا لكثرة الناس. ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا: هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟! على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تركُكم البيع وإقبالُكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم، أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

الآية (١٠): ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: فُرغ منها، ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لَـمَّا حَجَر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أَذِنَ لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في حال بيعكم وشرائكم، وأخذِكم وعَطَائكم، اذكروا الله ذكرًا كثيرًا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة.

الآية (١١): يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب. هكذا ذكره غير واحد من التابعين.

[سبب النزول]: زعم مقاتل بن حيان: أن التجارة كانت لدحية ابن خليفة قبل أن يسلم، وكان معها طبل، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر إلا القليل منهم. عن جابر قال: قَدِمَت عيرٌ المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلًا، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [متفق عليه].

وفي قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا. وعن جابر بن سَمُرَة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس [رواه مسلم]. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته.

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١١) آية].

[فضل السورة: عن ابن عباس وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين [رواه مسلم]].

الآية (١-٢): يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين: إنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضدّ من ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا حَضَروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مُخْبِرة أنه رسول الله، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقًا للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه؛ ولهذا كَذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتَّقَوُا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة، ليُصَدِّقُوا فيما يقولون، فاغترَّ بهم من لا يعرف جَلِيَّة أمرهم، فاعتقد أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خَبالًا، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

الآية (٣-٤): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: إنما قُدِّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: كانوا أشكالًا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخَور والهلع والجزع والجبن. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٩]، فهم جَهَامات[1] وصور بلا [معانٍ]. قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال، عن أبي هريرة، ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجرًا ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صخب بالنهار» [رواه أحمد، وحسن إسناده أحمد شاكر].

(١) الجَهام: السحاب لا ماء فيه. [القاموس المحيط، مادة (جهم)].

الآية (٥): يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: صَدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكبارًا عن ذلك، واحتقارًا لما قيل لهم، ولهذا قال: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

الآية (٦-٨): ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. [سبب النزول]: ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أُبي بن سلول. قال محمد بن إسحاق: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة -يعني: مَرْجعَه من أحد- وكان عبد الله بن أُبي بن سلول له مَقام يَقُومه كل جُمُعة لا يُنكر، شَرفًا له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفًا، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام، فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزَّكم به، فانصروه وعَزّروه، واسمعوا له وأطيعوا. ثم جلس، حتى إذا صَنَع يوم أحُد ما صنع -يعني: مرجعه بثلث الجيش- ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجْرًا[1]؛ أنْ قُمت أُشدِّدُ أمره. فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك، ما لك؟ قال: قمتُ أُشدِّدُ أمره، فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنما قلت بُجْرًا، أن قمت أُشدِّدُ أمره. قالوا: ويلك. ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي. وعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاة، فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟! دعوها فإنها منتنة». وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» [رواه البيهقي، وروى البخاري ومسلم نحوه].

وعن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك. قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردتَ إلى هذا؟ قال: فانطلقت فنمتُ كئيبًا حَزينًا، فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عُذرَكَ وصَدَّقك». قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ حتى بلغ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [رواه البخاري].

وعن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شِدَّةٌ، فقال عبد الله بن أُبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أُبي فسأله، فاجتهد يمينَه ما فعل. فقالوا: كذب زيد يا رسول الله. فوقع في نفسي ما قالوا، حتى أنزل الله تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾. قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالًا أجمل شيء [متفق عليه].

وقال عبد الله بن عبد الله بن أُبَي بن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل. قال وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له، لئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك؛ فإني أكره أن أرى قاتل أبي. [رواه الحميدي في مسنده].

الآية (٩-١٠): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبرًا لهم بأنه مَن الْتَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

الآية (١١): قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُنْظِرُ أحدًا بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) البُجْر: بضم الباء؛ الشر والأمر العظيم. [القاموس المحيط، مادة (بجر)].

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية، وقيل: مكية. [وعدد آياتها (١٨) آية].

[فضل السورة: **عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثًا من ذوات الر». فقال: كبرت سِني، واشتد قلبي، وغَلُظ لساني. قال: «فاقرأ ثلاثًا من ذوات حاميم». فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثًا من المسبحات»** [رواه أحمد وأبو داود، وصحح إسناده أحمد شاكر]].

الآية (١): هذه السورة هي آخر المُسَبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلق ويقدره. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن.

الآية (٢): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الآية (٣): قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨]، وكقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الآية [غافر:٦٤].

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب.

الآية (٤): أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الآية (٥): يقول تعالى مخبرًا عن الأمم الماضين، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: خَبرهم وما كان من أمرهم.

﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وَخِيمَ تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي.

الآية (٦): ثم علَّل ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟! أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هُداهم على يدي بشر مِثلِهم. ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل. ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: عنهم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

الآية (٧): يقول تعالى مخبرًا عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم.

وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣]، والثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية [سبأ:٣]، والثالثة هي هذه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الآية (٨): ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

الآية (٩): قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يُسمعُهم الداعي ويَنْفُذُهم البصر؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة؛ وذلك أن أهل الجنة يَغْبِنُون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد. وقال مقاتل بن حيان: لا غَبْنَ أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويُذْهَب بأولئك إلى النار.

قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الآية (١٠): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تقدم تفسير مثلُ هذه غير مرة.

الآية (١١): يقول تعالى مخبرًا بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، وهكذا قال ههنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله؛ يعني: عن قدره ومشيئته. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يُخْلِف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه. قال ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يسترجع، يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]. وفي الحديث المتفق عليه: «عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

الآية (١٢-١٣): قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر. ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إن نَكَلْتُم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ، وعليكم ما حُمِّلْتم من السمع والطاعة. قال الزهري: مِن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. ثم قال تعالى مخبرًا أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فالأول خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب؛ أي: وحِّدُوا الإلهية له، وأخلصوها لديه، وتوكلوا عليه؛ كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٩].

الآية (١٤): يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهى به عن العمل الصالح؛ كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾: يحملُ الرجلَ على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناسَ قد فقهوا في الدين، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني].

الآية (١٥): ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ والتي بعدها [آل عمران:١٤-١٥].

[عن] بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» [رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني].

الآية (١٦): ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جُهْدَكم وطاقتكم؛ كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». وقد قال زيد بن أسلم: إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي في «آل عمران» وهي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمَتْ عَراقيبُهم وتقرَّحت جباهُهم، فأنزل الله تخفيفًا على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى. قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أُمرتم، ولا تَرْكَبُوا ما عنه زُجرتم. ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحَاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًّا لكم في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في سورة «الحشر» وذِكْرُ الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته ههنا[1].

الآية (١٧-١٨): ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يُقْرِضُ غيرَ ظلوم ولا عَديم» [رواه مسلم]. ولهذا قال: ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيره غير مرة.

(١) صفحة ٥٤٦.

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٢) آية].

الآية (١): خُوطب النبي ﷺ أولًا تشريفًا وتكريمًا، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. روى مسلم عن أبي الزبير: أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عَزة يسأل ابن عمر، وأبو الزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضًا؟ فقال: طلق ابن عمر امرأتهُ حائضًا على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال رسول الله ﷺ: «ليراجعها» فَردَّها، وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك». قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وقال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: الطهر من غير جماع. وقال ابن عباس: لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في ذلك. قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضًا الخروج؛ لأنها معتقلة لحق الزوج أيضًا. قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل. والفاحشة المبينة: تشمل الزنا، كما قال ابن مسعود وابن عباس. وتشمل ما إذا نشزَت المرأة أو بَذَت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال؛ كما قاله أبي بن كعب وابن عباس. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بفعل ذلك. ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رَجْعَتَها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. عن فاطمة بنت قيس قالت: هي الرجعة. ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها.

الآية (٢-٣): يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: محسنًا إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن. ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: على الرجعة إذا عَزَمتم عليها. ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شَرَع هذا، ويخاف عقاب الله في الدار الآخرة.

ومن ههنا ذهب الشافعي -في أحد قوليه- إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح. وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها. قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وتَرَك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله. قال ابن عباس: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا. وقال ابن مسعود: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يدري. وقال قتادة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل. قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ عن عبد الله بن عباس: أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف» [رواه أحمد والترمذي وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: مُنْفِذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ كقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الآية (٤-٥): يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها: أنها ثلاثة أشهر، عوضًا عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية «البقرة»، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾. قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما -وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري-: أي: إن رأين دمًا، وشككتم في كونه حيضًا أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير. قوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملًا فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية.

عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح، فأذن لها أن تنكح فنكحت [رواه البخاري] وعن علقمة بن قيس أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنتُه؛ ما نزلت: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها. قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: يسهل له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

الآية (٦): يقول تعالى آمرًا عباده إذا طلّق أحدُهم المرأة أن يُسكنَها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: عندكم، ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني سَعَتكم. حتى قال قتادة: وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه.

قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني: يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه. وقال أبو الضُّحَى: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها.

قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس: هذه في البائن، إن كانت حاملًا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملًا أو حائلًا. وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول مدته غالبًا، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق، فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبَأ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالبًا إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة؛ كما قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣]. قوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلًا ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرَها. فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها.

الآية (٧): ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته. ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

قوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعدٌ منه تعالى، ووعده حق، وهو لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦].

الآية (٨-٩): يقول تعالى متوعدًا لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبرًا عما حلَّ بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غبّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفع الندم، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

الآية (١٠): ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، مع ما عَجَّل لهم في الدنيا. ثم قال بعد ما قَص من خبر هؤلاء: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم، فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بالله ورسله، ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن؛ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

الآية (١١): قوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ قال بعضهم: ﴿رَّسُولًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني: تفسيرًا له؛ ولهذا قال: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا؛ لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحًا؛ لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مَرّة، بما أغنى عن إعادته.

الآية (١٢): يقول تعالى مخبرًا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كقوله إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤].

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعًا أيضًا، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قِيدَ شِبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خُسف به إلى سبع أرضين».

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية، [وعدد آياتها (١٢) آية].

الآية (١-٥): اختُلف في سبب نزول صدر هذه السورة، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العَسَل. عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحَلوى والعَسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فَغِرْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عُكَّة عَسَل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالَن له. فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغَافير[1]؟! فإنه سيقول لك: لا. فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟! فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي: جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ[2]. وسأقول ذلك، وقولي أنت له يا صفية ذلك. قالت -تقول سودة-: والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمَرْتِني فَرَقًا منكِ، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟! قال: «لا». قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟! قال: «سقتني حفصة شَربة عسل». قالت: جَرَسَت نَحلُه العرفطَ. فلما دار إليَّ قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجةَ لي فيه». قالت -تقول سودة-: والله لقد حَرَمْناه. قلت لها: اسكتي [متفق عليه]. والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وفي طريق [آخر] عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُعد في ذلك، إلا أن كونهما سببا لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان: الحديثُ الذي رواه ابن عباس قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدَل عمر وعدلت معه بالإداوة. فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، مَن المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: واعجبًا لك يا ابن عباس، قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي حفصة وعائشة [متفق عليه]. وعن عمر قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، دخلت المسجد، فإذا الناس يَنكُتُون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يُؤمَر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم...، إلى أن قال: فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكُفَّة المشرَبة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله، ما يَشُقّ عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكتَه وجبريلَ وميكائيلَ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمتُ -وأحمد الله- بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. فقلت: أطلقتهن؟ قال: «لا». فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر [رواه مسلم]. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومقاتل بن حيان والضحاك: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر. زاد الحسن البصري: عثمان. وقال مجاهد: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب. [سبب النزول]: عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية [رواه البخاري]. ومعنى قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ﴾ ظاهر. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات. قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير. وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: أي: مهاجرات. وتلا عبد الرحمن: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] أي: المهاجرون. والقول الأول أولى. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكارًا، ليكون ذلك أشهى إلى النفس؛ فإن التنوع يسُط النفسَ.

الآية (٦): عن علي في قوله: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدّبوهم، وعَلموهم. وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومُروا أهليكم بالذكر، ينجكم الله من النار. وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقومَ عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، قَدعتَهم[3] عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه. وفي معنى هذه الآية الحديثُ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني]. قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر. ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: حطبها الذي يلقى فيها جُثث بني آدم، ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تُعبد؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياذًا بالله منهم.

الآية (٧): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

---

(١) المغافير: صمغ يسيل من شجر العرفط حُلو، غير أن رَائِحَته لَيست بطيّبة. [تهذيب اللغة، باب العين والطاء (عرفط)].

(٢) جَرَسَتْ نَحْلُه العرفط أَي: أكلتْ ورعتْ. [غريب الحديث لابن الجوزي، باب الجيم مع الراء]. والعُرْفُط بالضم: شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه. [النهاية في غريب الحديث والأثر، باب (عرفط)].

(٣) قدَعْتَهم: كفَفْتَهم [ينظر: القاموس المحيط، مادة (قدع)].

الآية (٨): قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

قال عمر بن الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه.

وعن النعمان: سُئِل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبدًا. وعن عبد الله بن مسعود: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود. ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي، ويعزِم على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه بطريقه. عن عبد الله بن مَعقِل قال: دخلت مع أبي عَلى عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة؟». قال: نعم. وقال مَرَّة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة» [رواه أحمد وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر]. فأما إذا جزم بالتوبة وصَمَّم عليها فإنها تَجُبُ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبتت في الصحيح: «الإسلام يَجُب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها» [رواه مسلم].

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات؟ أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي؛ بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارًّا في تكفير ما تقدم؟ وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضًا: «مَن أحسنَ في الإسلام لم يُؤاخَذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر» [رواه البخاري ومسلم]. فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ و«عَسَى» من الله موجبة، ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي: ولا يخزيهم معه، يعني: يوم القيامة، ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ كما تقدم في سورة الحديد[1] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يَرَون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طفِئ.

الآية (٩): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: في الدنيا. ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة.

الآية (١٠): قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم.

ثم ذكر المثل فقال: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي: نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلًا ونهارًا، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلُّه شيئًا، ولا دفع عنهما محذورًا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمرأتين: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

وليس المراد: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين؛ فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء.

قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه.

الآية (١١): هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران:٢٨].

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده، فوالله ما ضر امرأته كُفرُ زوجِها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه. فقولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار، ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: خلِّصني منه؛ فإني أبرأ إليك من عمله، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم.

الآية (١٢): قوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته. والإحصان هو: العفاف والحرية، ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسطة المَلَك، وهو جبريل؛ فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سَوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. قال: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾.

عن ابن عباس قال: خَطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خُوَيلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام».

---

(١) صفحة ٥٣٩.

تفسير سورة الملك

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣٠) آيةً].

[فضل السورة]: **عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورةً في القرآن ثلاثين آية شَفَعت لصاحبها حتى غُفر له: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني]. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «الم تنزيل»، و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.** [رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١): ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ **يمجّد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك؛ أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله. ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.**

الآية (٢): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ **معنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملًا؛ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]. فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتًا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خيرٌ عملًا؛ كما قال محمد بن عَجْلان: ولم يقل أكثر عملًا. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: هو العزيز العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزًا، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز.**

الآية (٣): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ **أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان، أصحهما الثاني؛ كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره. قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل؛ ولهذا قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبًا أو نقصًا أو خللًا أو فطورًا؟! قال ابن عباس ومجاهد والضحاك في قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق. وقال السُّدي: أي: من خُروق. وقال قتادة: أي: هل ترى خَلَلًا يا ابن آدم؟!**

الآية (٤): ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ **قال: مرتين ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ قال ابن عباس: ذليلًا. وقال مجاهد وقتادة: صاغرًا. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: وهو كليل. وقال مجاهد وقتادة والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء. ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر، مهما كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر، ﴿خَاسِئًا﴾ عن أن يرى عيبًا أو خللًا، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل، وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصًا.**

الآية (٥): **ولما نفى عنها في خلقها النقص بيَّن كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت. قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يُرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى؛ كما قال في أول الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٦-١٠]. قال قتادة: إنما خُلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.**

الآية (٦-٨): **يقول: وأعتدنا للذين كفروا بربهم عَذَابَ جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل والمنقلب. ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ قال ابن جرير: يعني الصياح. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبّ القليل في الماء الكثير. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟!**

الآية (٩-١١): ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ **يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١]. وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عن أبي البَخْتَريّ الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم»** [رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني].

الآية (١٢): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ **يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس، فينكَفُّ عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: تُكفَّر عنه ذنوبه، ويُجازَى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» منهم: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».**

الآية (١٣-١٤): قال تعالى منبهًا على أنه مطلع على الضمائر والسرائر: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما خطر في القلوب. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟! أي: ألا يعلم الخالق؟! وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟! والأول أولى لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

الآية (١٥-١٦): ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارَّة ساكنة لا تميد ولا تضطرب؛ بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يُجدي عليكم شيئًا، إلا أن يُيَسّره الله لكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما روى عمر بن الخطاب قال إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَانًا» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصحح إسناده أحمد شاكر]. فأثبت لها رواحًا وغدوًّا لطلب الرزق، مع توكلها على الله ﷻ، وهو المسَخِّر المسيّر المسبب. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ أطرافها وفجاجها ونواحيها. وقال ابن عباس وقتادة: ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ الجبال. وقال أبو الدرداء: هي الجبال.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ هذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل؛ كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر:٤٥].

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تذهب وتجيء وتضطرب.

الآية (١٧-١٩): ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا فيها حصباء تدمغكم؛ كما قال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٨]. وهكذا توعدهم ههنا بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذّب به. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السابقة والقرون الخالية، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! أي: عظيمًا شديدًا أليمًا. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: في الجو ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته. وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩].

الآية (٢٠-٢١): يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره، يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا، مُنكِرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومُخبرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أمّلوه، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره؛ ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾؟! أي: من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: في معاندةٍ واستكبارٍ ونفورٍ على أدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه.

الآية (٢٢-٢٤): ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر؛ فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مُكبًّا على وجهه، أي: يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب. بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟! أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يُحشر يمشي سويًّا على صراط مستقيم، مُفْضٍ به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]. عن أنس قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادرًا على أن يمشيهم على وجوههم» [متفق عليه]. ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: العقول والإدراك، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قلَّما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره. ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألستكم في لغاتكم وألوانكم وحِلاكم[1] وأشكالكم وصوركم. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون بعد هذا التفرق والشتات؛ يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم.

الآية (٢٥-٢٦): ثم قال مخبرًا عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟! ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷻ، ولكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما عليَّ البلاغ، وقد أدّيته إليكم.

---

(١) الحِلية: الخِلقة والصورة والصفة. [القاموس المحيط، مادة (حلي)].

الآية (٢٧-٣٠): ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبًا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك؛ لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨]؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: خَلِّصوا أنفسكم؛ فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكال، فسواء عذَّبنا الله أو رحمنا، فلا مناصَ لكم من نَكاله وعذابه الأليم الواقع بكم. ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا؛ كما قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]. ولهذا قال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهبًا في الأرض إلى أسفل، فلا يُنَال بالفؤوس الحِداد، ولا السواعد الشِّداد. والغائر عكس النابع؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟! أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله ﷻ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة.

تفسير سورة «ن»

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٢) آية].

الآية (١-٤): تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» [على] الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يُكتب به؛ كقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٣-٤]. فهو قَسَمٌ منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما يكتبون. وقال السُّدي: يعني: الملائكة وما تكتب من أعمال العباد. وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: لست -ولله الحمد- بمجنون، كما قد يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع؛ كقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] أي: غير مقطوع عنهم. وقال مجاهد: أي: غير محسوب، وهو يرجع إلى ما قلناه. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس: أي: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. وعن عائشة قالت: كان خلقه القرآن [رواه مسلم]. ومعنى هذا: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ صار امتثالُ القرآن، أمرًا ونهيًا، سجيةً له، وخُلُقًا تَطَبَّعَهُ، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل.

الآية (٥-٧): ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم، قال ابن عباس: ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وعن ابن عباس: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: المجنون. وقال قتادة: أي: أولى بالشيطان. ومعنى المفتون: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه.

وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو: فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون. والله أعلم

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

الآية (٨-١٣): يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لو تُرَخِّص لهم فَيُرَخِّصون. وقال مجاهد: ودوا لو تَرْكَن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني: الاغتياب. ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرِّش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين؛ وهي الحالقة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير، ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع، ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: يتناول المحرمات. ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أما العُتُلّ: فهو الفَظّ الغليظ الصحيح، الجَمُوع المَنُوعُ. وأما الزنيم فروى البخاري عن ابن عباس قال: رجلٌ من قريش له زَنَمة مثل زَنَمة الشاة.

وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدَّعِيُّ في القوم. قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة. وقال سعيد ابن المُسيَّب: هو الملصق في القوم، ليس منهم. والزَّنْماء من الشياه: التي في عُنُقِها هَنتان معلقتان في حَلْقها. وعن سعيد بن جبير قال: الزنيم: الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يُعرف به من بين الناس.

الآية (١٤-١٥): ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنها كَذب مأخوذ من أساطير الأولين.

الآية (١٦): ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ قال ابن جرير: سنبين أمره بيانًا واضحًا، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم. قال قتادة: شَين لا يفارقه آخر ما عليه. وقال ابن عباس: يقاتل يوم بدر، فيُخطم بالسيف في القتال. وقال آخرون: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سمة أهل النار، يعني: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله ابن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو مُتّجه.

الآية (١٧-٣٣): هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم لَيَجُذُّنَّ ثَمرها ليلًا؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حَتَّمهم الله في أيمانهم فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَٰٓئِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أي: كالليل الأسود. وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشيمًا يبسًا. ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجَذَاذ، أي: القطع ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: تريدون الصرام. ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمِعون أحدًا كلامهم. ثم فسَّر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم! قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قوة وشدة. وقال مجاهد: أي: جد. وقال عكرمة: غيظ. وقال الشعبي: على المساكين. ﴿قَٰدِرِينَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويَرومون. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله ﷻ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها. قاله ابن عباس. ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حَظّ لنا ولا نصيب. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: أي: أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾! قال مجاهد والسدي: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون. قال السُّدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا. وقال ابن جريج: هو قول القائل: إن شاء الله. وقيل: معناه: أي: هلَّا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجَذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: اعتدينا وبَغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا. وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة.

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن. وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله[1] منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدّخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء، ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك عُوقِبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية؛ رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدَّل نعمة الله كفرًا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق.

الآية (٣٤-٤١): لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ﷻ، وخالفوا أمره، بيَّن أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تَبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟! أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟! كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾! أي: كيف تظنون ذلك؟! قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يقول: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن حكمًا مؤكدًا كما تدعونه؟! إن لكم فيه لما تخيرون! ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾؟ أي: قل لهم: من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية (٤٢): لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام. وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق، وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور. وعن ابن عباس قال: هو يوم كَرْب وشدة. وقال مجاهد: شدة الأمر. وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة.

---

(١) استغلَّه: من الغَلَّة؛ وهي: الدخل من فائدة أرض. [ينظر: القاموس المحيط، مادة (غلل)]. فمعنى (ما استغله) أي: ما جمع غلته.

الآية (٤٣-٤٥): ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دُعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عُوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب ﷻ فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرَّ لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمُدُّه في غيّه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة؛ كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: وأؤخرهم وأُنظِرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذَّب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُمْلي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

الآية (٤٦-٤٧): ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ تقدم تفسيرهما في سورة «الطور»[1]. والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ﷻ، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله ﷻ، وهم يُكَذِّبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

الآية (٤٨-٥٠): يقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ذهب مُغَاضِبًا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذَه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي: وهو مغموم. وقال عطاء الخراساني: مكروب. وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» [رواه البخاري].

الآية (٥١-٥٢): ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لَيَنفُذونك بأبصارهم، أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ﷻ؛ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القَدَر سَبَقَت العين، وإذا استُغْسِلتم فاغسلوا» [رواه مسلم]. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهَامَّة، ومن كل عين لامَّة» [رواه البخاري]. وعن أبي سعيد: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيتَ يا محمد؟ قال: «نعم». قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس وعين، يشفيك، باسم الله أرقيك [رواه مسلم وأحمد واللفظ له]. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: لمجيئه بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٢) آية].

الآية (١-٤): الحاقةُ من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يَتَحقَّقُ الوَعدُ والوَعيد؛ ولهذا عَظَّم تعالى أمرَها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟!

الآية (٥): ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم. هكذا قال قتادة. وهو اختيار ابن جرير. وقال مجاهد: الطاغية: الذنوب. وكذا قال الربيع بن أنس: إنها الطغيان. وقال السُّدي: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ يعني: عاقر الناقة.

الآية (٦-٧): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: باردة. قال قتادة والسدي: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: شديدة الهبوب. قال قتادة: عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم. وقال الضحاك: ﴿صَرْصَرٍ﴾ باردة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة. وقال علي: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلَّطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود وابن عباس: ﴿حُسُومًا﴾ متتابعات. ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. وقيل: لأنها تكون في عجز الشتاء. قال ابن عباس: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خَرِبَةٍ. وقال غيره: بالية، أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرَّتْ بلا أغصان. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكَت عادٌ بالدَّبور» [متفق عليه].

الآية (٨): ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟! أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم؟! بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خَلَفًا.

---

(١) صفحة ٥٢٥.

الآية (٩-١٠): ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قُرئ بكسر القاف، أي: ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار القبط. وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهم المكذبون بالرسل ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالمعصية. وقال مجاهد: بالخطايا. ولهذا قال: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا جنس، أي: كُلٌّ كذّبَ رسول الله إليهم؛ كما قال: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٤]. ومن كذّب رسول الله فقد كذّب بالجميع؛ كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد. ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عظيمة شديدة أليمة. قال مجاهد: شديدة. وقال السُّدي: مهلكة.

الآية (١١-١٢): ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود. قال ابن عباس: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ كثر؛ وذلك بسبب دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له، وعَمَّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. ولهذا قال ممتنًا على الناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة. والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: وتفهم هذه النعمة، وتذكرها أذن واعية. قال ابن عباس: حافظة سامعة. وقال قتادة: عقلَت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله. وقال الضحاك: سمعتها أذن ووعت. أي: من له سمع صحيح وعقل رجيح. وهذا عام فيمن فهم ووعى.

الآية (١٣-١٧): يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة، وأول[1] ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة. وقد أكّدها ههنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله لا يُخالَف ولا يُمانَع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فمُدَّت مَدّ الأديم العُكَاظي، وتبدّلت الأرض غير الأرض، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ قال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ:١٩]. وقال ابن عباس: منخرقة، والعرش بحذائها. ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ الملك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء. قال ابن عباس: على حافتها. وقال الضحاك: أطرافها. وقال الحسن البصري: أبوابها. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أحدثكم عن ملك من حَمَلة العرش: بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه مخْفَق الطير سبعمائة عام» وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات، وقد رواه أبو داود. [صححه الألباني].

(١) هذا الاستعمال عند ابن كثير يوهم وجود قولٍ، ومقولُه محذوف، أو أن هناك سقطًا. وكأن مراده هنا: «يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة».

الآية (١٨): ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر.

الآية (١٩-٢٤): يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: خذوا اقرؤوا كتابيه؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة؛ لأنه ممن بَدّل الله سيئاته حسنات. ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: قد كنت موقنًا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]. ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية، ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» [متفق عليه]. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال البراء بن عازب: أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: يقال لهم ذلك؛ تفضلًا عليهم، وامتنانًا وإنعامًا وإحسانًا. وإلا فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وَسَدِّدوا وقَارِبُوا واعلموا أن أحدًا منكم لن يُدخلَه عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدني الله برحمة منه وفضل» [متفق عليه].

الآية (٢٥-٣٤): هذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أُعطي أحدهم كتابه في العَرَصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾. قال الضحاك: يعني موتة لا حياة بعدها. وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذابَ الله وبَأسه، بل خَلَص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير. فعندها يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عُنْفًا من المحشر، فَتَغُلَّه، أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها، أي: تغمره فيها. ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ عن ابن عباس وابن جريج: بذراع الملك. وقال ابن عباس: ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أَنَّ رَصَاصةً مثل هذه -وأشار إلى مثل جُمْجُمَةٍ- أُرْسِلَتْ من السماء إلى الأرض، وهي مَسيرةُ خَمسمائة سنة، لَبَلَغَت الأرضَ قبلَ اللَّيل، ولو أَنها أرسلتْ من رأس السِّلْسلة، لَسَارَتْ أربعين خريفًا، الليلَ والنهارَ، قبلَ أَن تبلغ أَصْلَها، أو قَعْرَهَا» [رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقُبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم» [رواه أحمد وأبو داود، وصحح إسناده أحمد شاكر].

الآية (٣٥): ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم -وهو القريب- ولا شفيع يطاع.

الآية (٣٦-٣٧): ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ لا طعام له ههنا إلا من غسلين. قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال ابن عباس: ما أدري ما الغسلين، ولكني أظنه الزقوم. وقال: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم. وعنه: الغسلين: صديد أهل النار.

الآية (٣٨-٥٢): يقول تعالى مُقسِمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمدًا ﷺ أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١] وهذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فأضافه تارة إلى قولة الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلًا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا -وليس كذلك- لعاجلناه بالعقوبة. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ قيل: معناه: لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العِرْقُ الذي القلب معلق فيه. ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات. ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: القرآن؛ كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذّب بالقرآن. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة. وعن أبي مالك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين؛ كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك ولا ريب. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٤) آية].

الآية (١-٣): ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف «الباء»، كأنه مُقَدّر: يستعجل سائل بعذاب واقع؛ كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]؛ أي: وعذابه واقع لا محالة. عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ النضر ابن الحارث بن كَلَدَة. وقال العوفي: عن ابن عباس قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع. وقال مجاهد: دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة. قال: وهو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]. ﴿وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مُرصَد مُعَدّ للكافرين. وقال ابن عباس: ﴿وَاقِعٍ﴾ جاء ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ قال ابن عباس: ذو الدرجات. وقال: يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهد: معارج السماء. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم.

الآية (٤-٧): ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قال قتادة: ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد. وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله يشبهون الناس، وليسوا ناسًا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام. ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قُبضت يُصعد بها إلى السماء. قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة. القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة. القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جدًّا. القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة؛ عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جُعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون» [رواه مسلم]. ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه؛ كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨]. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريبًا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ﷻ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

الآية (٨-١٠): يقول تعالى: العذابُ واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال ابن عباس: كَدُرْديِّ الزيت. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المنفوش، قاله مجاهد كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريبُ قريبَه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]. وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]

الآية (١١-١٨): ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ أي: لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشَاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يُقبل منه. قال مجاهد والسدي: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ قبيلته وعشيرته. وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم. وقال مالك: أمه. قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ يصف النار وشدة حرها. ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قال ابن عباس: جلدة الرأس. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جبير: العصب. وقال أبو صالح: يعني: أطراف اليدين والرجلين. وقال الحسن البصري: أي: مكارم وجهه. وقال قتادة: أي: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخَلْقِه وأطرافه. فقوله: ﴿نَزَّاعَةً﴾ قال: تقطع عظامهم، ثم يُجَدد خلقهم وتبدل جلودهم. ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلق ذَلِق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب. وذلك أنهم -كما قال الله ﷻ- كانوا ممن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة.

الآية (١٩-٢٣): يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾. ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ قيل: معناه: يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم. وقيل: المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة؛ فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب فلا يفلح في صلاته. وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملًا داوموا عليه وأثبتوه؛ كما جاء عن عائشة قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه [رواه مسلم].

الآية (٢٤-٣١): ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات. ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي: يكُفُّونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: من الإماء، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾. وقد تقدم تفسير ذلك في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بما أغنى عن إعادته ههنا[1].

الآية (٣٢-٣٥): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين؛ كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [رواه البخاري ومسلم]. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي: محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ سواء؛ لهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: مكرمون بأنواع الملاذّ والمسارّ.

الآية (٣٦-٣٩): يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالًا، فِرَقًا فِرَقًا، وشِيعًا شِيعًا: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: منطلقين. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عِزَةٌ، أي: متفرقين. وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم. وقال ابن عباس: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قبلك ينظرون، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ العزين: العُصَب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به. وقال الحسن: متفرقين، يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون: ما قال هذا الرجل؟ وقال قتادة: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ عامدين، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله، ولا في نبيه ﷺ. عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حِلَق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟!» [رواه مسلم]. ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي: أيطمع هؤلاء -والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق- أن يدخلوا جنات النعيم؟! بل مأواهم الجحيم. ثم قال مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده، مستدلًا عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها وهم معترفون بها، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من المني الضعيف كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

الآية (٤٠): ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقًا ومغربًا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها. وتقدير الكلام: ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي.

---

(١) صفحة ٣٤٢.

الآية (٤١): مضمون الكلام الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨١-٨٢].

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه؛ فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٣-٤].

واختار ابن جرير ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا، وجعلها كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأُخَر عليه، والله أعلم.

الآية (٤٢): ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: يا محمد ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: فسيعلمون غِبَّ ذلك ويذوقون وباله.

الآية (٤٣): ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعًا ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون. وقال أبو العالية: إلى غاية يسعون إليها. وقد قرأ الجمهور: ﴿نَصْب﴾ بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب. وقرأ الحسن البصري: ﴿نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد[1]، وهو الصنم، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، ﴿يُوفِضُونَ﴾ يبتدرون أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد وقتادة والضحاك.

الآية (٤٤): ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

تفسير سورة نوح

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٨) آية].

الآية (١-٣): يقول تعالى مخبرًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إنه أرسله إلى قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن النِّذارة، ظاهر الأمر واضحه، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

الآية (٤): ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدَّقتم ما أُرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم. و«مِن» ههنا قيل: إنها بمعنى «عن»؛ تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم. واختاره ابن جرير. وقيل: إنها للتبعيض، أي: يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة. ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة؛ فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يُرد ولا يمانع؛ فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

الآية (٥-٦): يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه اشتكى إلى ربه ﷻ ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بيَّن لقومه ووضَّح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالًا لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَرُّوا منه وحَادُوا عنه.

الآية (٧): ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه؛ كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ قال ابن عباس: تنكَّروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

الآية (٨-١٠): ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: جهرةً بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كلامًا ظاهرًا بصوت عال، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فَنوَّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب؛ فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك؛ ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

(١) وهي قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم. [الكنز في القراءات العشر (٢/ ٦٩٣)].

الآية (١١-٢٠): ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: متواصلة الأمطار. رُوي عن عمر أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يُستَنْزَلُ بها المطر. وقال ابن عباس: يتبع بعضه بعضًا. ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضّرع، وأمدَّكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب. ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: عظمةً. قاله ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قيل: معناه: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؟! أي: واحدة فوق واحدة ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلًّا منهما أنموذجًا على حدة، ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدَّر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مُضيّ الشهور والأعوام؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥]. ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: إذا متُّم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: بسطها ومهَّدها وقرَّرها وثبَّتها بالجبال الراسيات الشُّمِّ الشامخات ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية؛ فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادًا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يُعبد ويُوحَّد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل له، ولا ندّ ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

الآية (٢١-٢٣): يقول تعالى مخبرًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله، ومُتّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾. ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ قال مجاهد: ﴿كُبَّارًا﴾ أي: عظيمًا. وقال ابن زيد: أي: كبيرًا. والمعنى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: بأتْبَاعِهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى؛ كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:٣٣]. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أمّا وَدّ: فكانت لكلب بدَومة الجندل؛ وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ، وأما يَعوقُ فكانت لهَمْدان، وأما نَسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدت [رواه البخاري].

الآية (٢٤-٢٥): ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا كثيرًا؛ فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]. وقد استجاب الله لكل من النبيَّيْن في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به. ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعُتوّهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله.

الآية (٢٦-٢٧): ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا. وهذه من صيغ تأكيد النفي. قال الضحاك: ﴿دَيَّارًا﴾ واحدًا. وقال السُّدي: الديَّار: الذي يسكن الدار. فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك؛ أي: الذين تخلقهم بعدهم، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: فاجرًا في الأعمال كافر القلب. وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

الآية (٢٨): ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبما جاء في الآثار والأدعية المشروعة. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ قال السُّدي: إلا هلاكًا. وقال مجاهد: إلا خسارًا، أي: في الدنيا والآخرة.

تفسير سورة الجن

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٨) آية].

[سبب النزول: عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟! فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وإنما أُوحِيَ إليه قولُ الجن [متفق عليه]].

الآية (١-٧): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه: أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدَّقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: إلى السداد والنجاح، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال ابن عباس: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: فعلُه وأمره وقدرته. وقال: جد الله: آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه. وعن مجاهد: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السُّدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء: تعالى ذكره. وقال سعيد بن جبير: أي: تعالى ربنا. ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزّه الرب تعالى جلاله، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن، عن اتخاذ الصاحبة والولد. ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قال مجاهد وقتادة والسُّدِّي: ﴿سَفِيهُنَا﴾ يعنون: إبليس، ﴿شَطَطًا﴾ قال أبو مالك: أي: جورًا. وقال ابن زيد: ظلمًا كبيرًا. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: ﴿سَفِيهُنَا﴾ اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدًا. ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: قبل إسلامه ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: باطلًا وزورًا. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك. ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وقال السُّدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أُضَرّ أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، فإذا عاذ بهم من دون الله، رَهقَتهم الجن الأذى عند ذلك. وقال مجاهد: زاد الكفار طغيانًا.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا. قاله الكلبي وابن جرير.

الآية (٨-١٠): يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئت حرسًا شديدًا، وحُفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيُلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يُدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابًا مُرصَدًا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدًا؟! وهذا من أدبهم في العبارة؛ حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك» [رواه مسلم]. وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس: «بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون [في الجاهلية] في هذا؟» فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم. فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء...» [رواه مسلم]. وهذا هو السبب الذي حَمَلهم على تطلُّب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرَّد في طغيانه من بقي. ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر -وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها- هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم.

الآية (١١-١٣): يقول مخبرًا عن الجن: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ أي: غير ذلك، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة. قال ابن عباس: أي: منا المؤمن، ومنا الكافر. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنَّا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعَنَّا في الهرب؛ فإنه علينا قادرٌ، لا يعجزه أحد منا. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ يفتخرون بذلك، وهو مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة. ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس: فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته؛ كما قال: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

الآية (١٤-١٧): ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو: الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقودًا تُسعر بهم. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيرًا. والمراد بذلك سَعَة الرزق؛ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦]. وعلى هذا يكون معنى ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ كما قال زيد بن أسلم: لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية. قال ابن عباس: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: الإسلام. وقال قتادة: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا. وقال مجاهد: أي: طريقة الحق. والقول الثاني: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجًا؛ كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]. وهذا قول أبي مجلز. وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذابًا شاقًّا شديدًا موجعًا مؤلمًا. قال ابن عباس: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقة لا راحة معها.

الآية (١٨-٢١): يقول تعالى آمرًا عباده أن يُوَحِّدوه في مجال عبادته، ولا يُدْعَى معه أحد ولا يشرك به. قال قتادة: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيَعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده. وعن ابن عباس: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس. وقال عكرمة: نزلت في المساجد كلها. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ يستمعون القرآن. هذا قول. وعن ابن عباس قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عجبوا من طواعية أصحابه له، فقالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. وهذا قول ثان. وقال قتادة: تَلَبَّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناوأه. وهذا قول ثالث، وهو اختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: قال لهم الرسول لما آذوه وكذبوه واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾. ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إليّ، وعبدٌ من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله.

الآية (٢٢-٢٤): ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لا يجيره من الله أحد، أي: لو عصيته؛ فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ قال مجاهد والسدي: لا ملجأ. وقال قتادة: أي: لا نصير ولا ملجأ. وفي رواية: لا ولي ولا موئل. ﴿إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ﴾ قال بعضهم: هو مستثنى من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَـٰغًا﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ؛ كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدًا، أي: لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، هُمْ أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل.

الآية (٢٥-٢٨): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي: مدة طويلة. وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تَبدَّى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [متفق عليه]. ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ هذه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وهكذا قال ههنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يَطَّلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري. ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يَخْتَصّه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله. ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ اختُلف في الضمير الذي في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾، فقيل: إنه عائد إلى النبي ﷺ؛ عن قتادة قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها. واختاره ابن جرير. ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الله عز وجل، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما يُنَزِّله إليهم من الوحي؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم؛ كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾.

تفسير سورة المزمل

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٠) آية].

الآية (١-٩): يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمُّل -وهو: التغطي في الليل- وينهض إلى القيام لربه ﷻ؛ كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦]. وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. وههنا بيَّن له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال ابن عباس والضحاك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ يعني: يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه. وقال إبراهيم النَّخعيّ: نَزَلت وهو مُتَزَمِّل بقطيفة. قوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من الليل، ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على تمهل؛ فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه. في صحيح البخاري عن أنس أنه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قال الحسن وقتادة: أي العمل به. وقيل: ثقيلٌ وقت نزوله؛ من عظمته. واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معًا. كما قال عبد الرحمن بن زيد: كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ عن ابن عباس: نشأ: قام، بالحبشة. وقال عمر وابن عباس: الليل كله ناشئة. والغرض: أن ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش. ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال ابن عباس وعكرمة: الفراغ والنوم. وقال أبو العالية: فراغًا طويلًا. وقال قتادة: فراغًا وبُغية ومُنْقَلبًا. وقال السُّدي: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تطوعًا كثيرًا. وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال: لحوائجك، فَأْفرغ لدينك الليل. ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك؛ كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح:٧] أي: إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغَ البال. قال ابن عباس: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: أخلص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وبتّل إليه نفسك. وقال ابن جرير: يقال للعابد: متبتل، ومنه الحديث المروي: أنه نهى عن التَّبتُّل [رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني]، يعني: الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج. ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

الآية (١٠-١٩): يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذَّبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا؛ وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال له متوعدًا لكفار قومه ومتهددًا -وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء-: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال؛ فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدًا؛ كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ وهي: القيود. قاله ابن عباس، ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطرمة ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تزلزل، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾؛ أي: واديًا، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٦-١٠٧] أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع. ثم قال مخاطبًا لكفار قريش، والمراد سائر الناس: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بأعمالكم، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا؛ أي: فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعونَ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥]، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ معمولًا لـ﴿تَتَّقُونَ﴾، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: «فكيف تخافون أيها الناس يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به»؟! ويحتمل أن يكون معمولًا لـ﴿كَفَرْتُمْ﴾، فعلى الأول: كيفَ يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم؟! وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟! وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى. ومعنى قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: من شدة أهواله وزلازله وبلابله؛ وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعثَ النار. فيقول مِن كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة [متفق عليه]. ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: بسببه من شدته وهوله، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولًا؛ أي: واقعًا لا محالة، وكائنًا لا محيد عنه. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: يتذكر بها أولو الألباب. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء الله هدايته، كما قيده في السورة الأخرى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الآية (٢٠): ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠]. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بآية، أجزأه؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن». وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله. وهذه الآية -بل السورة كلها- مكية، ولم يكن القتال شُرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة. ولهذا قال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة. وقد قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نَسَخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولًا من قيام الليل. ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني: من الصدقات؛ فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: جميع ما [تقدمونه] بين أيديكم فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا. قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

تفسير سورة المدثر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٦) آية].

الآية (١): عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر: أنه سمع النبي ﷺ يحدث عن فترة الوحي[1]: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ[2] منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زمّلوني زمّلوني. فزملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾» [متفق عليه]. وهذا السياق يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»، وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]. ثم إنه حصل فترة ثم نزل الملك بعد هذا.

الآية (٢-١٠): ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: شمّر عن ساق العزم، وأنذر الناس. وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظّم. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية قال: لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة. وقال ابن جريج عن ابن عباس قال: في كلام العرب: نَقِي الثياب. وقال مجاهد: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: نفسك، ليس ثيابه. وفي رواية عنه: عملك فأصلح. وقال قتادة: أي: طهرها من المعاصي. وقال العوفي عن ابن عباس: يعني: لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية. وقال محمد بن سيرين: أي: اغسلها بالماء. وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب؛ فإن العرب تطلق الثياب عليه. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ وهو الأصنام، فاهجر. وقال إبراهيم: أي: اترك المعصية. وعلى كل تقدير فلا يلزم تَلبُّسه بشيء من ذلك. ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير. وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضًا من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول. ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ، قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر على عطيتك لله تعالى. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن. ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: شديد، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل عليهم.

الآية (١١-١٧): يقول تعالى متوعدًا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدَّد الله عليه نِعَمه حيث قال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: واسعًا كثيرًا. وجعل له بنين شهودًا. قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضورًا عنده لا يسافرون بالتجارات، بل مَواليهم وأُجَراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتَملَّى بهم. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي: مكّنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: معاندًا، وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قال ابن عباس: صَعُود: صخرة في جهنم عظيمة يُسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السُّدي: صعودًا: صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدها. وقال مجاهد: أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذابًا لا راحة فيه. واختاره ابن جرير.

الآية (١٨): ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعودًا، أي: قربناه من العذاب الشاق؛ لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تَرَوَّى ماذا يقول في القرآن حين سُئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: تروَّى.

---

(١) أي: فتور الوحي: تأخره مدة من الزمان؛ وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود. [فتح الباري:١/ ٢٧].

(٢) أي: ذُعِرْتُ وأُفزِعتُ. [ينظر: تهذيب اللغة (جوث)، ومقاييس اللغة (جأث)].

الآية (١٩-٢٢): ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: أعاد النظرة والتروّي، ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قبض بين عينيه وقطّب، ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وكره.

الآية (٢٣-٢٥): ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقرى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره عمن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ليس بكلام الله.

[سبب النزول]: هذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش، وكان من خبره في هذا ما رواه ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة! فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْيٍ من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد [لتصْبَأَنَّ][1] قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدَقة؟! فقال: ألستُ أكثرهم مالًا وولدًا. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدّث به عشيرتي؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح. وقد زعم السُّدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليُجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه، قبل أن يقدم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدّوهُم عنه، فقال قائلون: شاعر. وقال آخرون: ساحر. وقال آخرون: كاهن. وقال آخرون: مجنون. كما قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٨] كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه، ففكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

الآية (٢٦-٣٠): قال الله ﷻ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأغمره فيها من جميع جهاته.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ هذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون.

﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد: للجلد. وقال أبو رَزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: من مُقَدّمي الزبانية، عَظيم خَلْقهم، غليظ خُلُقُهم.

الآية (٣١): ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خُزَّانها، ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: زبانية غلاظًا شدادًا؛ وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟! فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: شديدي الخَلْق لا يُقاوَمون ولا يغالبون.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عِدّتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختبارًا منَّا للناس، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: [ليعلموا] أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: إلى إيمانهم. بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟! أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟! قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى. وقد ثبت في حديث الإسراء عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، آخر ما عليهم» [متفق عليه]. ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار التي وصفت، ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

الآية (٣٢-٣٧): قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي: العظائم، يعني: النار، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف. ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لمن شاء أن يقبل النّذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

الآية (٣٨-٤٧): يقول تعالى مخبرًا أنْ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: معتقلة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره. ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسنّا إلى خلقه من جنسنا، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نتكلم فيما لا نعلم. وقال قتادة: كلما غوي غاوٍ غوينا معه، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني: الموت؛ كقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون- فقد جاءه اليقين من ربه» [رواه البخاري].

---

(١) في بعض النسخ: (لتصبون) وفي أخرى: (لتصبوا). والتصويب من تفسير ابن جرير.

الآيــة (٤٨-٥٦): ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: مــن كــان متصفًا بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلًا، فأمــا مــن وافى الله كــافرًا يــوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالدًا فيها. ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عــما تــدعوهم إليــه وتــذكرهم بــه معرضــين. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: كــأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه حُمُر من حُمُر الوحش إذا فرّت ممــن يريــد صــيدها مــن أســد أو رام. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشــركين أن يُنــزِّل عليــه كتاب كما أنزل على النبي، قاله مجاهــد؛ كقولــه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمــل. ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: إنــما أفســدهم عــدم إيمانهــم بهــا، وتكذيبهم بوقوعها. ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقًّا إن القرآن تذكرة، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ كقولــــه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنســان: ٣٠]. ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهلٌ أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب.

تفسير سورة القيامة

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٠) آية].

الآية (١-٢): تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفيًا، جاز الإتيان بـ(لا) قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد، من عدم بَعث الأجساد، ولهذا قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعًا. والصحيح أنه أقسم بهما جميعًا، واختاره ابن جرير. قال الحسن البصري: إن المؤمن -والله- ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمتي؟! ما أردتُ بأكلتي؟! ما أردت بحديث نفسي؟! وإن الفاجر يمضي قُدُمًا ما يعاتب نفسه. وقال سعيد بن جبير: تلوم على الخير والشر. وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال ابن عباس: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ المذمومة. وقال قتادة: الفاجرة. قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

الآية (٣-١٥): ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟! ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أن نجعله خُفًّا أو حافرًا. وكذا قال ابن جرير. ووجهه بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا. والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿نَّجْمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟! ﴿بَلَىٰ﴾ سنجمعها ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه -وهي أطراف أصابعه- مستوية. ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال ابن عباس: يعني: يمضي قُدُمًا. وقال: يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة. ورُوي عن عِكرمة وغير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوبَ ويُسوّف التوبة. وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟! أي: يقول: متى يكون يوم القيامة؟! وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده. ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قال أبو عمرو بن العلاء: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أي: حار. وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء؛ من شدة الرعب.

وقرأ آخرون: ﴿بَرَقَ﴾ بالفتح، وهو قريب في المعنى من الأول. والمقصود: أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ قال مجاهد: كُوّرا. ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟! أي: هل من ملجأ أو موئل؟! ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أي: لا نجاة. ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المرجع والمصير. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يُخبَر بجميع أعماله: قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ۖ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]. قال ابن عباس: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ يقول: سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه. وقال قتادة: شاهد على نفسه. وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها. وقال قتادة: ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يُقبل منه. وقال السدي: حجته. واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس: لو ألقى ثيابه. والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآية (١٦-١٩): هذا تعليــم مــن الله ﷻ لرســوله ﷺ في كيفيــة تلقّيــه الوحي من المَلَك؛ فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابقُ المَلَكَ في قراءتــه، فــأمره الله ﷻ إذا جــاءه الملــك بــالوحي أن يســتمع لــه، وتكفــل لــه أن يجمعــه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليــه، وأن يبينــه لــه ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعُه في صدره، والثانيــة تلاوتــه، والثالثــة تفسيره وإيضاح معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن، كــما قــال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طــه:١١٤]. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صــدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تــلاه عليــك الملــك عــن الله ﷻ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقــرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بعــد حفظــه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا.

[سبب النزول]: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه -قال: فقال لي ابن عبــاس: أنــا أحــرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه. وقال لي سيعد: وأنــا أحــرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه- فأنزل الله عــز وجــل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صــدرك، ثــم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصــت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه [متفق عليه]. وقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقــال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أن نجمعــه لــك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن نقرئك فلا تنسى. وقال ابن عبــاس: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ تبيين حلاله وحرامه. وكذا قال قتادة.

الآية (٢٠-٢٥): ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم: أنهم إنما همّتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة. قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي: حسنةٌ بَهِيَّة مشرقة مسرورة، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عيانًا، كما رواه البخاري: «إنكم سترون ربكم عَيَانا». وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم تَرَونَ ربكم كذلك» [متفق عليه]. ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها. وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة. ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تستيقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

الآية (٢٦-٤٠): يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال فقال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إنْ جعلنا ﴿كَلَّا﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذّب هناك بما أُخبرتَ به، بل صار ذلك عندك عيانًا. وإنْ جعلناها بمعنى (حقًّا) فظاهر، أي: حقًّا إذا بلغت التراقي، أي: انتُزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك. والتراقي: هي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؟ قال ابن عباس: أي من راق يرقى؟ قال أبو قلابة: أي: من طبيب شاف؟ وعن ابن عباس [أيضًا]: قيل: من يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

وعن ابن عباس: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: التفّت عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال: آخر يوم في الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفَّتا. ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع والمآب؛ وذلك أن الروح تُرفع إلى السموات، فيقول الله ﷻ: ردُّوا عبدي إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: جَذلان أشِرًا بَطِرًا كسلان لا همة له ولا عمل؛ كما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:١٣-١٥]. وقال ابن عباس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: يختال. وقال قتادة: يتبختر. ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ هذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه، أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكُّم والتهديد؛ كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السُّدي: يعني: لا يُبعث. وقال مجاهد: يعني لا يؤمر ولا يُنهى. والظاهر أن الآية تعُمُّ الحالين؛ أي: ليس يُترك في هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُترك في قبره سدى لا يُبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلًّا على الإعادة بالبداءة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ﴾؟! أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين؟! ﴿يُمْنَىٰ﴾ يُراق من الأصلاب في الأرحام. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكّل ونُفخ فيه الروح، فصار خلقًا آخر سَويًّا سليم الأعضاء، ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟ أي: أمَا هذا الذي أنشأ هذا الخلق السويّ من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟! وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. والأول أشهر.

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣١) آية].

[فضل السورة]: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الم (١) تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ [رواه مسلم].

الآية (١-٣): يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئًا يُذكر، لحقارته وضعفه، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾؟! ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط. والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعض. قال ابن عباس: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ مِن طَوْر إلى طور، وحال إلى حال. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره؛ كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: جعلنا له سمعًا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيّنّاه له ووضحناه وبصّرناه به؛ كقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: بيّنّا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول الجمهور. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوب على الحال من «الهاء» في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد؛ كما في الحديث الذي رواه مسلم، قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فموبقها، أو معتقها»(١).

الآية (٤-٥): يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهيب والحريق في نار جهنم، كما قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١-٧٢]. ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وقد عُلم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة.

---

(١) الذي في مسلم وجُلِّ كتب الحديث: «فمعتقها أو موبقها»، أما تقديم (موبقها) على (معتقها) كما ورد هنا فهو رواية عند أحمد.

الآية (٦-١٢): ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صِرفًا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر. عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، رواه البخاري. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شرُّه مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله. قال ابن عباس: فاشيًا. وقال قتادة: استطار -والله- شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السموات والأرض. ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ الأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، واختاره ابن جرير. ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير؛ فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أُسَراؤهم يومئذ مشركين. وقال عكرمة: هم العبيد -واختاره ابن جرير- لعموم الآية للمسلم والمشرك. ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: رجاءَ ثواب الله ورضاه، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. قال ابن عباس ﴿عَبُوسًا﴾ ضيقًا ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ طويلًا. وقال عكرمة: أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِران. وقال سعيد ابن جبير: تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ تقليص الجبين وما بين العينين من الهول. وأوضح العبارات وأجلاها وأولاها قولُ ابن عباس. ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري؛ وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه. قال كعب بن مالك: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمَر [متفق عليه]. ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ونَوّلهم وبوّأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلًا رحبًا، وعيشًا رَغَدًا، ولباسًا حَسَنًا.

الآية (١٣-٢٢): يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة «الصافات»[(١)]، وذكر الخلاف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي السُّرر تحت الحجال. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس عندهم حَرّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سَرْمَديّ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨] ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع. ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم الخَدَم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب، وهي الكِيزان التي لا عُرَى لها ولا خراطيم. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: على قدر رِيِّهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب ريّ صاحبها. هذا معنى قول ابن عباس، وقاله ابن جرير. وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة. وقال ابن عباس: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قُدّرت للكف. وقال الضحاك: على قدر أكُفّ الخُدّام. وهذا لا ينافي القول الأول؛ فإنها مقدرة في القَدْر والرّي. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: ويسقون -يعني الأبرار أيضًا- في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمرًا، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يُمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي: الزنجبيل عين في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها. وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحَلْق. واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه، وهو كما قال. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخِدْمَة وِلدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤًا منثورًا. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسَعَتِها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطانًا باهرًا. ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذه صفة الأبرار. ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديّة. ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: جزاكم الله على القليل بالكثير.

الآية (٢٣-٢٥): يقول تعالى ممتنًّا على رسوله ﷺ بما نَزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمك بما أنزل عليك، فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سَيُدَبّرك بحسن تدبيره، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صَدّك عما أنزل إليك، بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس. فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أولَ النهار وآخره.

(١) بل في سورة الكهف، آية: ٣١، صفحة ٢٩٧.

الآية (٢٦): ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:١-٤].

الآية (٢٧-٢٨): ثم قال منكرًا على الكفار ومن أشبههم في حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ يعني: يوم القيامة. ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني خَلْقَهم. ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا. وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة. وقال ابن زيد وابن جرير: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم؛ كقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء:١٣٣].

الآية (٢٩-٣١): قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: هذه السورة ﴿تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومسلكًا، أي: من شاء اهتدى بالقرآن؛ كقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٩]. ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يَهدِيَ نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثم قال: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥٠) آية].

[فضل السورة]: عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وَثَبت علينا حَيَّة، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها». فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وُقِيَتْ شركم كما وُقِيتُم شرّهَا» [متفق عليه]. وعن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾، فقالت: يا بني، ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ بها في المغرب [متفق عليه].

الآية (١-٣): عن أبي هُرَيرة: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ قال: الملائكة. ورُوي عن مسروق ومجاهد - في إحدى الروايات - والسّدي والربيع بن أنس مثلُ ذلك. ورُوِيَ عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وفي رواية عنه: هي الملائكة. وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أنها الملائكة. قال ابن مسعود عن ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ قال: الريح. وكذا قال في ﴿وَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾. وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية عنه. وعن أبي صالح: أن ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾: المطر. والأظهر أن المرسلات هي الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٧]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت. وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل.

الآية (٤-٧): ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد. ولا خلاف ههنا؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحيًا فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وُعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، إن هذا كله ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ أي: لكائن لا محالة.

الآية (٨-١١): ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي: ذهب ضوؤها؛ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير:٢]، وكقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار:٢]. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أي: انفطرت وانشقت، وتدلَّت أرجاؤها، وَوَهَت أطرافها.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أي: ذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر؛ كقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]. ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ قال ابن عباس: جُمعت. وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة:١٠٩]. وقال مجاهد: ﴿أُقِّتَتۡ﴾ أُجّلت.

الآية (١٢-١٩): ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى: لأي يوم أُجّلت الرسل وأُرجئ أمرها؟! حتى تقوم الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٧-٤٨]. وهو يوم الفصل، كما قال: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾. ثم قال معظمًا لشأنه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لهم من عذاب الله غدًا. ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به، ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: ممن أشبههم؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

الآية (٢٠-٢٤): ثم قال ممتنًّا على خلقه ومحتجًّا على الإعادة بالبَدَاءة: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟! أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرَة الباري ﷻ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: جمعناه في الرّحِم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم مُعَدّ لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الآية (٢٥-٢٦): ثم قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ قال ابن عباس: ﴿كِفَاتًا﴾ كنًّا. وقال مجاهد: يُكْفَتُ الميت فلا يُرَى منه شيء. وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم.

وكذا قال مجاهد وقتادة.

الآية (٢٧-٢٨): ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني: الجبال، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب. ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذبًا زُلالًا من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

الآية (٢٩-٣١): يقول تعالى مخبرًا الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يعني: لَهَبَ النار إذا ارتفع وصَعِدَ معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل لِلَهَبٍ لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب.

الآية (٣٢-٣٤): قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصون. وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم: يعني أصول الشجر.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: كالإبل السود. قاله مجاهد والحسن وقتادة، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: حبال السفن. وعنه -أعني ابن عباس-: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قطع نحاس.

وروى البخاري عن عبد الرحمن بن عابس قال: سمعت ابن عباس: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القَصَرَ، ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ حبال السفن، تُجمع حتى تكون كأوساط الرجال، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الآية (٣٥-٣٧): ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ. ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الآية (٣٨-٤٠): قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمعُهم الداعي وينفُذهُم البصر.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد؛ أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتَنجُوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك؛ كما قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود:٥٧]، وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تَبلُغوا نَفْعِي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضُرِّي فتضُرُّوني» [رواه مسلم].

الآية (٤١-٤٣): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون؛ أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم، وهو الدخان الأسود المنتن.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم.

الآية (٤٤-٤٥): قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الآية (٤٦-٥٠): قوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا أُمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. ثم قال: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟! أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

تفسير سورة النبأ

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٠) آيةً].

الآية (١-١٦): يقول تعالى مُنكِرًا على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكارًا لوقوعها: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: عن أيِّ شيء يَتَساءلون من أَمْر القيامة؟! ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: الخبر الهائل المُفْظِع الباهر. قال قتادة وابن زيد: النبأ العظيم: البَعْث بعد الموت. وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال مُتَوَعِّدًا لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد.

ثم شَرَعَ تعالى يُبيّن قدرته العظيمة على خَلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدَّالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾؟! أي: ممهدةً للخلائق ذَلُولًا لهم، قارّةً ساكنةً ثابتةً، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: جَعَلها لها أوتادًا أرساها بها وثبَّتَها وقرَّرَها حتى سَكَنَت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: ذكرًا وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك؛ كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: قَطعًا للحركة لتحصل الراحة من كَثرة التَّرْداد والسعي في المعايش في عَرْض النهار.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: يغشى الناس ظلامُه وسواده؛ كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال قتادة: سَكَنًا. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: جعلناه مُشْرِقًا مُنيرًا مُضيئًا، ليَتَمَكَّن الناس من التَّصَرُّف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتَّكَسُّب والتجارات، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يعني: السموات السبع، في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يَتَوَهَّج ضوؤها لأهل الأرض كلهم. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال ابن عباس: الرياح. وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة: إنها الرياح. ومعنى هذا القول أنها تَسْتَدِرُّ المطر من السحاب. وعن ابن عباس: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي: من السَّحاب. وكذا قال عكرمة أيضًا وأبو العالية والضحاك والحسن. واختاره ابن جرير. والأظهر أن المراد: السحاب كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس: مُنْصَبًّا. وقال الثوري: مُتَتابعًا. وقال ابن جرير: الثَّجُّ: الصَّبُّ المُتَتابع. والله أعلم.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيِّب النافع المُبَارَك ﴿حَبًّا﴾ يُدَّخر للأناسي والأنعام، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خَضِرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا، ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا؛ ولهذا قال: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ قال ابن عباس، وغيره: ﴿أَلْفَافًا﴾: مجتمعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآية [الرعد: ٤].

الآية (١٧-٣٠): يخبر تعالى عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة؛ أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل؛ كما قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قال مجاهد: زُمَرًا زُمَرًا. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أُمَّة مع رسولها؛ كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]. ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: طُرُقًا ومسالك لنزول الملائكة. ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وقوله: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: يُخَيَّل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، بعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر؛ كما قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مُرْصَدَةً مُعَدَّةً، ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ وهم: المَرَدة العُصَاة المخالفون للرسل، ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: مَرجعًا ومُنقلَبًا ومصيرًا ونُزُلًا. وقوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: ماكثين فيها أحقابًا، وهي جمع «حُقْب»، وهو: المدة من الزمان. وقد اختلفوا في مقداره. [فقيل: ثمانون] سنةً، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرة وعبد الله بن عَمرو وابن عباس. وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] في أهل التوحيد. [رواه] ابن جرير، ثم قال: يُحْتَمل أن يكون قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ مُتَعَلِّقًا بقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، ثم يُحْدِثُ الله لهم بعد ذلك عذابًا من شَكْل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع بن أنس؛ عن قتادة: هو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده، وقال الربيع بن أنس: لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ﷻ.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون في جَهنَّم بردًا لقلوبهم، ولا شرابًا طيِّبًا يَتَغَذَّون به. ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ قال أبو العالية: استثنى من البَرْد الحميم، ومن الشراب الغَسَّاق. وكذا قال الربيع بن أنس. فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حَرُّهُ وحُمُوُّهُ. والغَسَّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعَرَقهم ودُمُوعهم وجروحهم، فهو باردٌ لا يُستَطاع مِنْ بَرْدِه، ولا يُوَاجَه من نَتْنِه. أَجَارَنا الله من ذلك، بمَنِّه وكَرَمه. قال ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يعني: النوم.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفْقَ أعمالهم الفاسِدة التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد وقتادة وغير واحد. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثَمَّ دارًا يُجازَون فيها ويُحاسَبون، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: وكانوا يكذِّبون بحُجَج الله ودلائله على خلقه التي أَنْزَلَها على رسله، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي: وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلِّهم، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ﴿فَذُوقُوا۟﴾ يُقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ من جنسِه، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨].

وعن ابن عَمرو قال: لم يَنْزل على أهل النار آية أَشَدُّ من هذه: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا.

الآية (٣١-٣٦): يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك: مُتَنَزَّهًا. وقال مجاهد وقتادة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: وحورًا كواعب. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي: نَوَاهِد، يعنون أن ثُدِيَّهن نَوَاهِد لم يَتَدَلَّين؛ لأنهن أبكار عُرُب، ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: في سن واحدة. وقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ كقوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[الطور: ٢٣] أي: ليس فيها كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل كلام فيها سالم من النقص. ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي: كافيًا وافرًا شاملًا كثيرًا.

الآية (٣٧-٤٠): يُخْبِر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه ربُّ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شَمِلَتْ رحمته كل شيء. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥].

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا، ما هو؟ على أقوال: أحدها: عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم. والثاني: هم بنو آدم. الثالث: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا بشر؛ قاله بن عباس ومجاهد. الرابع: هو جبريل؛ قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣]، وتَوَقَّفَ ابنُ جرير فلم يقطَع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه والله أعلم أنهم بنو آدم.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ كقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥]. وكما ثبت في الصحيح: «ولا يَتَكَلَّمُ يومئذ إلا الرسل» [متفق عليه]. وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حَقًّا، ومن الحق: «لا إله إلا الله»؛ كما قاله أبو صالح وعكرمة. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة، ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي: مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه، ومنهجًا يَمُرُّ به عليه. وقوله: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: يوم القيامة؛ لِتَأَكُّدِ وقوعه صار قريبًا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يُعْرَض عليه جميعُ أعماله، خَيْرُها وشَرُّها، قديمها وحديثها. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أي: يودُّ الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن خُلِقَ، ولا خَرَج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونَظَر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرَت عليه. وقيل: حين يَحْكُم الله بين الحيوانات، فإذا فَرَغَ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا. فعند ذلك ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أي: يا ليتني كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب.

تفسير سورة النازعات

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٦) آيةً].

الآية (١-١٤): ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير: الملائكة؛ يعنون حين تَنْزِعُ أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغْرِق في نَزْعِها، ومنهم مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنَّما حَلَّته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قاله ابن عباس. وعنه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: أَنْفُس الكفار؛ تُنْزَع ثم تُنشَط، ثم تُغْرَق في النار. وقال مجاهد: الموت. والصحيح الأول، وعليه الأكثرون. ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ قال ابن مسعود: هي الملائكة. ورُوي عن علي ومجاهد وسعيد بن جُبَير مثلُ ذلك. وعن مجاهد: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: الموت. وقال قتادة: هي النجوم. وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ رُوي عن علي ومسروق ومجاهد: الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به. وعن مجاهد: الموت. وقال قتادة: هي النجوم. وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله. وقوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قال عليٌّ ومجاهد وعطاء: هي الملائكة، زاد الحسن: تُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض. يعني: بأمر ربها ﷻ. ولم يختلفوا في هذا، ولم يَقْطَع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه قال ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكة، ولا أَثْبَتَ ولا نَفَى. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد. وعن مجاهد: أما الأولى -وهي ﴿الرَّاجِفَةُ﴾- فكقوله جَلَّت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل:١٤]، والثانية -وهي ﴿الرَّادِفَةُ﴾- فهي كقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤]. عن أبيّ بن كعب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهبَ رُبعُ الليلِ قامَ فقال: «يا أيُّها النَّاسُ! اذْكُروا الله، جاءَتِ الراجِفَةُ، تَتْبَعُها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموت بما فيه» [رواه الترمذي وحسنه الألباني]. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة. وكذا قال مجاهد وقتادة. ﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها. وإنما أُضيف إليها للمُلابَسة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة حقيرة ممَّا عايَنَتْ من الأهوال. ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾؟! يعني: مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي القبور، قاله مجاهد. وبعد تَمَزُّق أجسادهم وتَفَتُّت عِظَامهم ونُخُورها؛ ولهذا قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾؟! قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي بالية. وعن ابن عباس: هو العظم إذا بلي ودَخَلت الريح فيه ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾. وعن ابن عباس ومحمد بن كعب وعكرمة وسعيد بن جبير: ﴿الْحَافِرَةِ﴾: الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد: النار. وما أكثر أسماءها! هي النار، والجحيم، وسقر، وجهنم، والهاوية، والحافرة، ولظى، والحُطَمة. وأما قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لَنَخْسَرَنَّ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: فإنما هو أمر من الله لا مَثْنَوِيَّة فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ في الصور نفخةَ البَعْث، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَي الربِّ ﷻ ينظرون؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[النحل: ٧٧]. ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال ابن عباس: الأرض كلها. وكذا قال سعيد بن جُبَير وقتادة. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والساهرة: المكان المستوي.

الآية (١٥-١٦): يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيَّده بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة من خالفك وكَذَّبَ بما جِئْتَ به؛ ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. فقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أي: هل سمعت بخبره؟! ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: كَلَّمَهُ نداءً ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المُطَهَّر ﴿طُوًى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح.

الآية (١٧-٢٦): ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: تَجَبَّرَ وتَـمَرَّدَ وعَتَا؛ ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟! أي: قل له: هل لك أن تُجِيبَ إلى طريقة ومَسْلَك تَزَكَّى به، أي: تُسلم وتُطِيع. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أَدُلُّكَ إلى عبادة ربك، ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشيًا بعدما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجةً قويةً، ودليلًا واضحًا على صِدْق ما جاءه به من عند الله، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي: فكذَّب بالحق وخالف ما أَمَرَه به من الطاعة. وحاصلُه أنه كَفَر قلبُه فلم ينْفَعِل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعِلمُهُ بأن ما جاء به حقٌّ لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علمُ القلب، والإيمان عَمَلُه، وهو الانقياد للحقِّ والخضوع له.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: في مقابلة الحق بالباطل؛ وهو جَمعُهُ السَّحَرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من المعجزة الباهرة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي: في قومه، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: انتقم الله منه انتقامًا جَعَله به عبرةً ونكالًا لأمثاله من المتمرِّدين في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية؛ أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه الأول. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: لمن يَتَّعِظ ويَنْزَجِر.

الآية (٢٧-٣٣): يقول تعالى محتجًّا على مُنكري البَعْث في إعادة الـخَلْق بعد بَدْئه: ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾؟! يعني: بل السماءُ أشدُّ خلقًا منكم؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، فقوله: ﴿بَنَاهَا﴾ فَسَّره بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جَعَلَها عالية البناء، بعيدة الفِناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: جَعَل ليلها مُظلمًا أسود حالكًا، ونهارها مضيئًا مُشْرِقًا نَيِّرًا واضحًا. قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وجماعة كثيرون. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أنار نهارها.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ فَسَّره بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وقد تقدم في سورة «حم السجدة»[1] أن الأرض خُلِقَت قبل السماء، ولكن إنَّما دُحِيَتْ بعد خَلْق السماء، بمعنى أنه أَخرَج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل[2]. وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: قَرَّرَها وأَثْبَتَها وأكَّدَها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: دَحَا الأرض فأَنْبَع عيونها، وأَظْهَر مكنونها، وأَجْرَى أنهارها، وأَنْبَتَ زُرُوعها وأشجارها وثمارها، وثَبَّتَ جبالها، لتَسْتَقِرَّ بأهلها ويَقَرَّ قرارُها، كل ذلك متاعًا لخلقه ولِـمَا يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمَد، وينقضي الأجل.

الآية (٣٤-٤٦): ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ وهو يوم القيامة. قاله ابن عباس؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَطُم على كلّ أَمْرٍ هائل مُفظع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: حينئذٍ يَتَذَكَّرُ ابنُ آدم جميع عَمَله خيره وشرِّه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي: أُظْهِرَت للناظرين فرآها الناس عِيانًا، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: تَـمَرَّدَ وعَتَا، ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: قَدَّمَها على أمر دينه وأُخراه، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم، وإن مَطْعَمَه من الزَّقُّوم، ومشربه من الحميم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، ورَدَّها إلى طاعة مولاها ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: مُنْقَلَبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي: ليس عِلْمُها إليك ولا إلى أَحَد من الخلق، بل مَرَدُّها ومَرجِعها إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو الذي يَعْلَم وَقْتَها على التعيين، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال ههنا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾. ولهذا لَـمَّا سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها بِأَعْلَمَ من السائل» [رواه مسلم].

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنما بَعَثْتُك لتُنذِر الناس وتُحَذِّرهم من بأس الله وعَذَابه، فمن خَشِيَ الله وخاف مقامه ووعيده اتَّبَعَكَ فأفلح وأنجح، والخيبة والـخَسَار على من كَذَّبَك وخالفك.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يسْتَقْصِرُون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنَّها عندهم كانت عشيةً من يوم أو ضُحى من يوم. قال ابن عباس: ﴿عَشِيَّةً﴾ ما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

---

(١) يعني سورة: (فصلت)؛ وذلك عند تفسير الآية ٩ منها، صفحة ٤٧٧.

(٢) ما كان فيها بالقوة يعني: إمكانية الأرض وقبولها لأن يكون فيها ماء ومرعى...إلخ، وإخراج ذلك إلى الفعل أي: خلق ذلك وتكوينه في الواقع.

تفسير سورة عبس

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤٢) آيةً].

الآية (١-١٦): ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟! أي: يحصل له زكاةٌ وطهارة في نفسه. ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: أما الغني فأنت تَتَعَرَّض له لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: ما أنت بمُطَالَب به إذا لم يَحصُل له زكاة.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي: يَقْصِدك ويَؤُمُّك ليهتدى بما تقول له ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تَتَشَاغَل. ومن ههنا أمر الله رسوله ﷺ ألَّا يَخُصَّ بالإنذار أحدًا، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

[سبب النزول]: عن عائشة قالت: أُنزِلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى؛ أتى إلى رسول الله ﷺ فجَعَلَ يقول: أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ من عُظَماء المشركين فجَعَل النبي ﷺ يُعرض عنه ويُقبِل على الآخر. [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم. وقال قتادة والسُّدِّي: يعني: القرآن. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء ذَكَر الله في جميع أموره. ويُحتَمَل عَود الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه. ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي: هذه السُّورة أو العِظَة، وكلاهما مُتلازم، بل جميع القرآن ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي: مُعَظَّمة مُوَقَّرة، ﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ أي: عالية القدر، ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي: من الدَّنَس والزيادة والنقص.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد: هي الملائكة. [وقيل غير ذلك]، وقال ابن جرير: الصحيح الملائكة، والسَّفَرَة يعني بين الله وبين خَلقه، ومنه يُقال: السَّفِير: الذي يَسعَى بين الناس في الصلح والخير. ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ خَلْقُهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارَّة طاهرة كاملة. ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يَقْرَأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة» [متفق عليه].

الآية (١٧-٣٢): يقول تعالى ذامًّا لمن أنكَر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ قال ابن عباس: لُعِن الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المُكَذِّب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العِلْم. قال ابن جريج: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: ما أشدَّ كفره! وقال قتادة: ما ألعنه. وقال ابن جرير: ويُحتَمَل أن يكون المراد: أيُّ شيء جَعَلَه كافرًا؟! أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد؟!

ثم بيَّن تعالى له كيف خَلَقَه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بَدَأَه، فقال: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قَدَّر أجَلَه ورزقَه وعملَه، وشقيٌّ أو سعيد.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ قال ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] أي: بيَّناه وأوضحناه وسَهَّلْنا عليه عَمَله، وهكذا قال الحسن وابن زيد. وهذا هو الأرجح، والله أعلم. ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد خَلقه له ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَله ذا قَبْر، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: بَعَثَه بعد موته، ومنه يُقال: البعث والنشور. ﴿كَلَّا﴾ قال ابن جرير: يقول: كلَّا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدَّى حَقَّ الله عليه في نفسه وماله. وعن مجاهد: لا يقضي أحد أبدًا كلَّ ما افتُرِض عليه. ولم أجد للمتقدمين فيه كَلامًا سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك -والله أعلم- أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: بَعَثَه، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تَنقَضِي المدة، ويَفْرَغ القَدَر من بني آدم ممَّن كَتَب تعالى له أن سيُوجَد منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أَمَر به تعالى كَوْنًا وقَدَرًا، فإذا تَنَاهى ذلك عند الله أَنْشَرَ الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عِظامًا باليةً وترابًا [مُتَفرِّقًا]، ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ أي: أسكناه فيها فَدَخل في تُخُومها وتَخَلَّل في أجزاء الحَبِّ المُودَع فيها، فنَبَتَ وارتفع وظَهَر على وجه الأرض، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾ فالحَبُّ: كلُّ ما يُدَّكر من الحبوب، والعِنَب معروف، والقَضْب هو: الفصفصة التي تأكلها الدواب رَطْبَةً. ويُقال لها: القَتّ أيضًا. قال ذلك ابن عباس وقتادة والضحاك والسُّدِّي. وقال الحسن: القضب: العَلَف. ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ وهو معروف، وهو أُدْمٌ وعصيره أُدْمٌ، ويُستَصبح به، ويُدَّهَن به. ﴿وَنَخۡلٗا﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا وبُسْرًا، ورُطَبًا وتمرًا، ونيئًا ومطبوخًا. ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين. قال الحسن وقتادة: ﴿غُلۡبٗا﴾: نخل غِلاظ كرام. وقال ابن عباس ومجاهد: «الحدائق»: كلُّ ما الْتَفَّ واجتمع. وقال ابن عباس أيضًا: ﴿غُلۡبٗا﴾: الشجر الذي يُستَظَلُّ به. وعنه: ﴿غُلۡبٗا﴾ أي: طوال. ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ أما الفاكهة فهو ما يُتَفَكَّهُ به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كلُّ ما أُكِلَ رَطْبًا. والأبُّ: ما أَنْبَتَت الأرض ممَّا تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي: عِيشةً لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

الآية (٣٣-٤٠): قال ابن عباس: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، عظَّمَه الله، وحَذَّره عباده. قال ابن جرير: لعله اسم النفخة في الصور. وقال البَغَويُّ: صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تَصُخُّ الأسماع، أي: تُبَالِغ في إسماعها حتى تكاد تُصمُّها. ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي: يراهم، ويَفِرُّ منهم، ويَبتَعِد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخَطب جليل. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أي: هو في شُغُل شاغل عن غيره. وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُبْعَث الناس يوم القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال: «﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾» [رواه النسائي، وصححه الألباني].

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ أي: مستنيرة، ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ مسرورة فَرِحَة؛ من السرور في قلوبهم، قد ظَهَر البِشْر على وجوههم، وهؤلاء هُم أهل الجنة. ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يعلوها ويغشاها قترة؛ أي: سواد.

الآية (٤١-٤٢): ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أي: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: ﴿الْكَفَرَةُ﴾ قلوبُهم ﴿الْفَجَرَةُ﴾ في أعمالهم.

تفسير سورة التكوير

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٩) آيةً].

[فضل السورة]: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

عن عمرو بن حُرَيث قال: صلَّيْتُ خَلْفَ النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ الآيات [رواه مسلم].

الآية (١-١٤): قال ابن عباس: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: أظلمت. وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت.

قال ابن جرير: والصواب عندنا أن التكوير: جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جُمِعَ بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت فرُمِيَ بها، وإذا فُعِلَ بها ذلك ذَهَبَ ضوؤها.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: انتثرت، وأصل الانكدار: الانصباب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: زَالَتْ عن أماكنها ونُسِفت، فتُرِكَتْ الأرض قاعًا صَفْصَفًا. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار من الإبل -وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وَضَلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدها: عُشَرَاء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تَضَع- قد اشتغل الناس عنها وعن كَفَالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أَرغَب شيء فيها، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظِع الهائل، وهو أمرُ القيامة. [وقيل غير ذلك]، حكى هذه الأقوال القرطبي ورجَّح أنها الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم. ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعَت؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، قال ابن عباس: يُحشَر كل شيء حتى الذباب. وكذا قال غير واحد. وعن ابن عباس قال: حَشْرُ البهائم موتها. قال ابن جرير: والأَولى قول من قال: جُمعت؛ قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩]، أي: مجموعة. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يُرسِل الله عليها الدَّبور فتُسَعِّرها، وتصير نارًا تأجَّج. وقال الحسن: يبست.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: جُمِعَ كلُّ شَكْل إلى نظيره، كقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]. واختاره ابن جرير، وهو الصحيح.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤودة هي التي كان أهل الجاهلية يَدُسُّونَها في التراب كراهيةَ البنات، فيومَ القيامة تُسأل على أي ذنب قُتلت، ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظَنُّ الظالم إذًا؟! ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الضحاك: أُعْطِيَ كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة: صَحِيفتك يا ابن آدم، تُملِي فيها، ثم تُطوَى، ثم تُنشَر عليك يوم القيامة. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال مجاهد: اجْتُذِبَتْ. وقال السُّدِّي: كُشِفَت. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قال قتادة: أُوقِدَتْ. وإنما يُسَعِّرُهَا غَضَب الله وخَطَايا بني آدم. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال الضحاك وأبو مالك وقتادة والربيع بن خُثَيم أي: قُرِّبَت إلى أهلها. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾: هذا هو الجواب، أي: إذا وَقَعَت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عَمِلَت وأُحْضِرَ ذلك لها.

الآية (١٥-٢٩): ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ عن عليٍّ قال: «الخُنَّس»: هي النجوم تَخْنُس بالنهار، وتَظْهَر بالليل. وكذا رُوي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم. وقال بعض الأئمة: إنما قِيل للنجوم: «الخُنَّس»، أي: في حال طلوعها، ثم هي «جَوَارٍ» في فَلَكِها، وفي حال غيبوبتها. وقال ابن مسعود: بقر الوحش. وعن ابن عباس: الظباء. وتوقف ابن جرير، وقال: ويحتمل أن يكون الجميع مرادًا.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه. قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نَشَأ. وقال الحسن: إذا غَشي الناس. وقال ابن عباس: إذا أَدْبَر. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك. واختار ابن جرير أن المراد: إذا أدبر. وعندي أن المراد: إذا أَقْبَلَ، وإن كان يَصِحُّ استعماله في الإدبار، لكن الإقبال ههنا أَنسَب؛ كأنه أَقسَم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال الضحاك: إذا طَلَع. وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وهو المروي عن عليٍّ. وقال ابن جرير: يعني: وَضَوء النهار إذا أقبل وَتَبيَّن. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: أن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم، أي: مَلَك شريف حَسَن الخلق، بَهِيّ المَنْظَر، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. قاله ابن عباس وغيره.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: شديد الخَلْق، شديد البَطْش والفِعْل ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: له وجاهة، وهو مسموع القول مُطَاع في الملأ الأعلى. ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدًّا أن الرب ﷻ يُزَكِّي عبدَه ورسوله الملكي جبريل كما زَكَّى عبده ورسوله البشري محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريلَ الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خَلَقَه الله عليها -له ستمائة جناح- ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: البَيِّن، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، والظاهر -والله أعلم- أن هذه السورة نَزَلَت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٤]، فتلك إنما ذُكِرتْ في سورة «النجم»، وقد نَزَلَتْ بعد سورة الإسراء.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾[1] أي: وما محمد على ما أَنْزَلَه الله إليه ﴿بِظَنِينٍ﴾ أي: بِمُتَّهَم. ومنهم من قرأ بالضاد، أي: ببخيل، بل يَبْذُلُه لكل أحد. والظَّنِين: المُتَّهَم، والضَّنِين: البخيل. واختار ابنُ جرير قراءة الضَّاد. قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما هذا القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، أي: لا يقدر على حَمْله، ولا يريده، ولا ينبغي له. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟! أي: فأين تَذهَب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حَقًّا من عند الله عز وجل. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن ذِكْر لجميع الناس، يتذكَّرون به ويتَّعِظُون، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: من أراد الهداية فعَلَيْه بهذا القرآن، فإنه مَنْجَاةٌ له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضَلَّ، بل ذلك كلُّه تابع لمشيئة الله تعالى ربِّ العالمين.

---

(١) اختار ابن كثير المفسِّر قراءة ابن كثير المكي وأبي عمرو والكسائيّ ورويس: «بظنين» بالظاء، وقرأ الباقون: «بضنين» بالضاد. [ينظر: الكنز في القراءات العشر: ٢/ ٧٠٧].

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٩) آيةً].

[فضل السورة]: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١-١٢): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقت؛ كما قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل:١٨].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقَطَت. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ قال ابن عباس: فَجَّرَ اللهُ بعضها في بعض. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قال ابن عباس: بُحِثَت. وقال السُّدِّي: تُبعثر: تُحرَّك فيخرج من فيها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي: إذا كان هذا حَصَل هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ هذا تهديد، لا كما يَتَوَهَّمُه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب؛ حيث قال: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، حتى يقول قائلهم: غَرَّهُ كَرَمُه. بل المعنى في هذه الآية: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ يا ابن آدم ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: العظيم؛ حتى أقدمتَ على معصيته، وقابلتَه بما لا يليق؟! عن ابن عمر قال: غَرَّهُ -والله- جهلُه. ورُوي عن ابن عباس والحسن مثلُ ذلك. وقال قتادة: ما غَرّ ابن آدم غير هذا العدو: الشيطان. وقال الفضيل بن عياض: لو قال لي: «ما غرَّك بي»، لقلتُ: سُتُورك الـمُرخَاة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي: جَعَلَك سَويًّا معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم؟! في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسود؟ قال: «هل لك من إبل؟». قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر. قال: «فهل فيها من أورق[1]؟» قال: نعم. قال: «فأنى أتاها ذلك؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق». وقد قال عكرمة: إن شاء في صورة قِرد، وإن شاء في صورة خنزير. وكذا قال أبو صالح. وقال قتادة: قادرٌ -والله- ربُّنا على ذلك. ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله ﷻ قادر على خَلْق النُّطْفَة على شَكْل قبيح من الحيوانات الـمُنْكَرَة الخلق، ولكن بقدرته ولُطفه وحِلمه يَخْلقه على شَكْل حَسَن مستقيم معتدل تام، حَسَن المنظر والهيئة.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي: تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني: وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كِرامًا فلا تقابلوهم بالقبائح؛ فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم.

الآية (١٣-١٩): يُخْبِر تعالى عمَّا يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي. ثم ذَكَر ما يصير إليه الفُجَّار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدةً، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يُجَابُون إلى ما يَسْأَلون من الموت أو الراحة، ولو يومًا واحدًا.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أَكَّدَهُ بقوله: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، ثم فَسَّره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: لا يَقدِر أحد على نَفْع أحد ولا خَلاصِه ممَّا هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

ونذكر ههنا حديث: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئًا» [رواه مسلم].

ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦]. قال قتادة: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ والأمر -والله- اليوم لله، ولكنه لا يُنَازِعُه فيه يومئذٍ أحد.

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٣٦) آيةً].

الآية (١-٤): [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: لَـمَّا قَدِمَ نبيُّ الله ﷺ المدينةَ كانوا من أَخْبَثِ الناس كَيْلًا، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك [رواه النسائي وابن ماجه، وصححه الألباني].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف: البَخْس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قَضَاهم. ولهذا فَسَّرَ تعالى المطففين الذين وَعَدَهم بالـخَسَار والهَلاك -وهو الويل- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حَقَّهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: يَنْقُصُون. وقد أَمَر تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:٣٥]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٩]. وأَهْلَكَ الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخَسُون الناس في المكيال والميزان.

ثم قال تعالى مُتَوَعِّدًا لهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾؟! أي: أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَي من يعلم السرائر والضمائر؟!

---

(١) الأورق الَّذِي لَونه بَين السوَاد والغبرة قَالَ ابْن الْأَعرَابِي الأورق مَا كَانَ لَونه لون الرماد. [غريب الحديث لابن الجوزي، باب الواو مع الراء].

الآية (٥-٦): ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخَطْب، من خَسِرَ فيه أُدْخِلَ نَارًا حامية. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقومون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، في موقف صَعْب حَرج ضيِّق ضَنْك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه. عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى يَغِيبَ أحدُهم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه» [متفق عليه].

الآية (٧-١٧): يقول تعالى حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي: إن مَصِيرهم ومَأْوَاهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ فعيل من السَّجن، وهو الضيق. ولهذا عَظَّمَ أمره، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟! أي: هو أَمْرٌ عظيم، وسِجْن مُقِيم وعذاب أليم. ولـمَّا كان مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، وهو يجمع الضِّيق والسفول.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ ليس تفسيرًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، وإنما هو تفسير لِـمَا كُتِبَ لهم من المصير إلى سجين، أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يُزَاد فيه أحد ولا يُنْقَص منه أحد؛ قاله محمد بن كعب القرظي.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أَوعَدَهم الله من السَّجن والعذاب المهين. وقد تقدَّم الكلام على قوله: ﴿وَيْلٌ﴾ وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار. ثم قال مُفَسِّرًا للمكذبين الفُجَّار الكَفَرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: لا يُصَدِّقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أَمْرَه. قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: مُعْتَدٍ في أفعاله؛ من تَعَاطِي الحرام والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله: إن حَدَّث كَذَبَ، وإن وَعَدَ أَخْلَفَ، وإن خاصم فَجَر.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إذا سَمِع كلام الله من الرسول يُكَذِّبُ به، ويَظُنُّ به ظَنَّ السوء، فيعتقد أنه مُفْتَعَل مجموع من كتب الأوائل، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما زَعَموا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حَجَبَ قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن الذي قد لَبِسَ قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. والرَّيْن يعتري قلوبَ الكافرين، والغَيْمُ للأبرار، والغَيْنُ للمقرَّبين. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن العبدَ إذا أَذْنَب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صُقِل قلبه، وإن زاد زادَت، فذلك قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾» [رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي: لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونُزُلٌ سِجِّينٌ، ثم هُم يوم القيامة مع ذلك مَحْجُوبُون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام الشافعي: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذٍ. وهذا الذي قاله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في غاية الـحُسْن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دَلَّ عليه منطوق قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. وكما دَلَّت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عَرَصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

الآية (١٨-٢٨): يقول تعالى حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ وهم بخلاف الفجَّار ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أي: مصيرهم إلى عِلِّيِّين، وهو بخلاف سِجِّين. قال ابن عباس: ﴿عِلِّيِّينَ﴾: الجنة. والظاهر أن عِلِّيِّين مأخوذ من العلو، وكلَّما علا الشيء وارتفع عَظُمَ واتسع؛ ولهذا قال مُعَظِّمًا أمرَه ومُفَخِّمًا شأنه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾. ثم قال مؤكدًا لِـمَا كُتِبَ لهم: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الملائكة، قاله قتادة. وقال ابن عباس: يشهده من كل سماء مُقَرَّبُوهَا. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي: السُّرُر تحت الحِجَال، ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: معناه: ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يَبِيدُ. وقيل: معناه: ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى الله ﷻ. وهذا مقابلة لِـمَا وُصف به أولئك الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فذَكَرَ عن هؤلاء أنهم يُبَاحُون النظر إلى الله ﷻ وهم على سُرُرِهم وفُرُشهم.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: تعرف إذا نَظَرْتَ إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدَّعَة والرياسة؛ ممَّا هم فيه من النعيم العظيم. ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي: يُسْقَوْن من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود وابن عباس وغيرهم. وقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال ابن مسعود: أي: خَلْطُهُ مسك. وقال ابن عباس: طَيَّبَ الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جُعِل فيها مسك، خُتِم بمسك. وكذا قال قتادة والضحاك. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: وفي مثل هذا الحال فلْيَتَفَاخَر المتفاخرون، ولْيَتَبَاهَ ويُكَاثِر ويَسْتَبِق إلى مثله الـمُسْتَبِقُون.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من شراب يُقال له: تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك. ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَشرَبها المقربون صِرْفًا، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجًا. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم.

الآية (٢٩-٣٣): يُخْبِر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا ﴿يَضْحَكُونَ﴾ من المؤمنين، أي: يستهزؤون بهم ويَحتَقِرُونهم، وإذا مَرُّوا بالمؤمنين يَتَغَامزون عليهم، أي: مُحْتَقِرين لهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي: إذا انقلب، أي: رَجَع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وَجَدوا، ومع هذا ما شَكَروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يَحْتَقِرونهم ويحسدونهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: لكونهم على غير دينهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وما بُعِث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يَصدُر من أعمالهم وأقوالهم، ولا كُلِّفوا بهم، فلِمَ اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

الآية (٣٤-٣٦): ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: في مقابلة ما ضَحِكَ بهم أولئك.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى الله ﷻ في مقابلة من زَعَم فيهم أنهم ضالُّون، ليسوا بضالِّين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؟! أي: هل جُوزِيَ الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا؟! يعني: قد جُوزُوا أوفر الجزاء وأتَمَّهُ وأكْمَلَه.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٥) آية]

[فضل السورة]: عن أبي هريرة قال: سَجَدْنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [رواه مسلم].

الآية (١-١٥): ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استَمَعَتْ لربها وأطاعَتْ أَمْرَه فيما أَمَرَها به من الانشقاق، ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ لها أن تُطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانَع ولا يُغالَب، بل قد قَهَر كلَّ شيء وذَلَّ له كلُّ شيء.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطَت وفُرِشَت ووُسِّعَت.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أَلْقَتْ ما في بطنها من الأموات، وتَخَلَّتْ منهم. قاله مجاهد وسعيد وقتادة. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما تقدَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: ساعٍ إلى ربك سعيًا، وعامل عملًا ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، ثم إنك ستلقى ما عملتَ من خير أو شر. ومن الناس من يُعِيد الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: فملاقٍ ربَّك، ومعناه: فيُجَازيك بعَمَلك ويُكافِئك على سَعيك. وعلى هذا فكِلا القولين متلازم. قال ابن عباس: يقول: تعمل عملًا تَلقَى الله به، خيرًا كان أو شرًّا. وقال قتادة: إن كَدْحَكَ -يا ابن آدم- لضعيف، فمن استطاع أن يكون كَدْحُه في طاعة الله فليَفْعَل، ولا قوة إلا بالله.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا بلا تعسير، أي: لا يُحَقِّقُ عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من حُوسِبَ كذلك يَهْلِك لا محالة. عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقِشَ الحساب عُذِّب». قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟! قال: «ليس ذاكِ بالحساب، ولكن ذلك العَرْض، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّب» [متفق عليه].

﴿وَيَنقَلِبُ﴾ أي: ويَرجع ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة. قاله قتادة والضحاك.

﴿مَسْرُورًا﴾ أي: فرحان مُغتبِطًا بما أعطاه الله ﷻ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي: بشماله من وراء ظهره، تُثْنى يده إلى ورائه ويُعطَى كتابه بها كذلك، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ خَسارًا وهلاكًا، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ فَرِحًا لا يُفَكِّر في العواقب، ولا يَخَاف مِمَّا أمامه، فأَعْقَبَه ذلك الفَرَحُ اليسيرُ الحزنَ الطويلَ؛ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يُعِيدُه بعد موته. قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما. والحَوْرُ: هو الرجوع.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ يعني: بلى سيُعِيدُه الله كما بَدَأه، ويُجَازيه على أعماله خيرها وشرها؛ فإنه ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: عليمًا خبيرًا.

الآية (١٦-٢٤): رُوي عن عليٍّ وابن عباس وغيرهم أنهم قالوا: الشَّفَق: الحُمْرَة. فالشَّفَق هو: حُمْرَة الأُفُق إمَّا قبل طلوع الشمس -كما قاله مجاهد- وإما بعد غروبها -كما هو معروف عند أهل اللغة.

قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق.

وصَحَّ عن مجاهد أنه قال: الشَّفَق: النهار كله. وعنه: الشَّفَق: الشمس. وإنما حَمَلَه على هذا قَرْنُهُ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جَمَع. كأنه أقسم بالضياء والظلام. وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مُدْبِرًا، وبالليل مُقْبِلًا. وقال ابن جرير: وقال آخرون: الشَّفَق اسم للحُمْرَة والبياض. وقالوا: هو من الأضداد.

﴿وَمَا وَسَقَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن: وما جَمَع. قال قتادة: وما جَمَع من نَجْم ودابة. وقال عكرمة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: ما ساق من ظُلْمة، إذا كان الليل ذَهَب كل شيء إلى مأواه.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم. ومعنى كلامهم: أنه إذا تكامل نوره وأَبْدَرَ، جعله مقابلًا للَّيل وما وَسَق.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال ابن عباس: «حالًا بعد حال» قال هذا نبيُّكم ﷺ [رواه البخاري]، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أَسْنَدَ هذا التفسير عن النبي ﷺ، ويُحْتَمَل أن يكون المراد بهذا نبيَّكم ﷺ، والله أعلم. وعن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: محمدٌ ﷺ. ويُؤَيِّد هذا المعنى قراءةُ عمر وابن مسعود وابن عباس وعامَّة أهل مكة والكوفة: «لَتَرْكَبَنَّ». وعن الشعبي قال: لتركَبَنَّ يا محمد سماءً بعد سماء. وهكذا رُوي عن ابن مسعود ومسروق وأبي العالية.

قلت: يعنون ليلة الإسراء. وقال السُّدِّي: أعمال من قبلكم منزلًا بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم» [رواه الترمذي، وصححه الألباني] وهذا محتمل. [وقيل غير ذلك]. قال ابن جرير: والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت -يا محمد- حالًا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشَّدَائد. والمراد بذلك -وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوَجَّهًا- جَميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالًا.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟! وما لهم إذا قُرِئَتْ عليهم آيات الرحمن وكلامه -وهو هذا القرآن- لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا؟! وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبرهم -يا محمد- بأن الله ﷻ قد أعدَّ لهم عذابًا أليمًا.

الآية (٢٥): ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع، يعني: لكن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بجوارحهم، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع. وقال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القول قد أنْكَرَه غير واحد؛ فإن الله ﷻ له المِنَّة على أهل الجنة في كل حال وآنٍ ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته، لا بإيمانهم، فله عليهم المنة دائمًا سرمدًا.

تفسير سورة البروج

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٢) آية].

[فضل السورة: عن جابر بن سمرة: «أن رسول الله ﷺ كان يَقْرَأ في الظهر والعصر ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، وشِبْهِهِمَا» [رواه الترمذي، وصححه الألباني]].

الآية (١-١٠): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ يُقسِم تعالى بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العِظام، واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلثًا، فذلك ثمانية وعشرون منزلًا ويستسر ليلتين.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، وقد رُوي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد. ولم أرهم يختلفون في ذلك ولله الحمد، وقال البغوي: الأكثرون على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة. ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أي: لُعِنَ أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي الحَفِيرُ في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ، فقَهَرُوهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحَفَرُوا لهم في الأرض أخدُودًا وأجَّجُوا فيه نارًا، وأعدُّوا لها وقودًا يُسْعِرُونها به، ثم أرادوهم فلم يَقبَلوا منهم، فقَذَفُوهم فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي: مشاهدون لِمَا يفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: وما كان لهم عندهم ذَنْب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يُضَام من لاذ بجنابه، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقَدَره، وإن كان قد قَدَّر على عباده هؤلاء هذا الذي وَقَع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خَفِيَ سبب ذلك على كثير من الناس.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة ومن هم؟!

عن صُهَيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملِك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمَّا كَبِر السَّاحِر قال للملِك: إني قد كَبُرَتْ سِنِّي وحَضَرَ أجلي، فادفع إليَّ غلامًا لأعلِّمَه السِّحْر. فدَفَعَ إليه غلامًا فكان يُعَلِّمُه السِّحْر، وكان بين السَّاحِر وبين الملِك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسَمِعَ من كلامه، فأَعْجَبَه نَحْوُه وكلامُه [وذَكَرَ القصة إلى قوله:] فقال الناس: آمنا بربِّ الغُلَام. فقِيلَ للملِك: أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَر؟! فقد - والله- نَزَلَ بكَ، قد آمن الناس كلُّهم. فأَمَرَ بأفواه السِّكَك فَخُدَّتْ فيها الأخاديد، وأُضْرِمَتْ فيها النيران، وقال: من رَجَع عن دينه فدَعُوه وإلا فأَقْحِمُوهُ فيها. قال: فكانوا يَتَعَادَوْن فيها ويَتَدَافَعُون، فجاءت امرأةٌ بابن لها تُرْضِعُه، فكأنها تَقَاعَسَتْ أن تَقَعَ في النار، فقال الصَّبِيُّ: اصبري يا أماه، فإنَّكِ على الحق» [رواه مسلم، وأحمد واللفظ له]. وقد أورد ابن إسحاق هذه القصة بسياق آخر... يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما من الله السلام، وهو أشبه، والله أعلم. وقد يُحتَمَل أن ذلك قد وَقَع في العالم كثيرًا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حَرّقوا. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبْزَى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي: لم يقلعوا عمَّا فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود: قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

الآية (١١-٢٢): يُخْبِر تعالى عن عباده المؤمنين أن: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بخلاف ما أعدَّ لأعدائه من الحريق والجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمرَه لشديد عظيم قوي؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر، أو هو أقرب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: من قوته وقدرته التامة يُبْدِئُ الخلق ثم يُعِيدُهُ كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان. و﴿ٱلْوَدُودُ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق.

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للربِّ ﷻ، والجرّ على أنه صفة للعرش[1]، وكلاهما معنًى صحيح.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد فَعَله، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له -وهو في مرض الموت-: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لِمَا أُريد.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي: هل بَلَغَكَ ما أَحَلَّ الله بهم من البأس، وأَنْزَلَ عليهم من النِّقْمَة التي لم يَرُدَّها عنهم أحد؟! وهذا تقرير لقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إذا أَخَذَ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا، أخذ عزيز مقتدر. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي: هم في شَكٍّ وريب وكُفْر وعِنَاد، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: هو قادر عليهم، قاهر لا يَفُوتُونه ولا يُعْجِزُونه، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: عظيم كريم، ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

---

(١) قرأها حمزة والكسائيّ وخلف بالجر، وقرأ الباقون بالرفع. [ينظر الكنز في القراءات العشر: ٢/ ٧١٢].

تفسير سورة الطارق

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٧) آيةً].

[فضل السورة]: عن جابر بن سمرة: «أن رسول الله ﷺ كان يَقْرَأ في الظهر والعصر ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، وشِبْهِهِمَا» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

الآية (١-١٠): يقسم تعالى بالسماء وما جَعَل فيها من الكواكب النيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثم فَسَّره بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. قال قتادة وغيره: إنما سُمِّي النجم طارقًا لأنه إنما يُرَى بالليل ويختفي بالنهار.

﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ قال ابن عباس: المضيء. وقال السُّدِّي: يثقب الشياطين إذا أُرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: كل نفس عليها من الله حافظ يَحرُسها من الآفات؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الرعد:١١].

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيه للإنسان على ضَعْف أصله الذي خُلِقَ منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قَدَر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى. ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ يعني: المَنِيِّ؛ يخرج دَفقًا من الرجل ومن المرأة، فيَتَوَلَّد منهما الوَلَد بإذن الله ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يعني: صُلْب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. وعن ابن عباس: موضعُ القلادة.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: على رَجْع هذا الماء الدافق إلى مَقَرِّه الذي خَرَج منه ﴿لَقَادِرٌ﴾ على ذلك. قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما. والثاني: إنه على رَجْع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق؛ أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة ﴿لَقَادِرٌ﴾؛ لأن من قَدَر على البَدْء قَدَر على الإعادة. واختاره ابن جرير، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: يوم القيامة تُبْلَى فيه السرائر، أي: تَظْهَر وتَبدُو، ويبقى السرُّ علانيةً والمكنون مشهورًا. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن يُنْقِذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

الآية(١١-١٧): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ قال ابن عباس: الرَّجْع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكَتْ مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتينَ من ههنا.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال غير واحد. ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ قال ابن عباس: حَقٌّ. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حُكْمٌ عَدْل. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: بل هو حَقٌّ جِدٌّ.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن. ثم قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أَنْظِرْهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلًا. أي: وترى ماذا أُحِلُّ بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك.

تفسير سورة سبح

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٩) آيةً].

[فضل السورة]: ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟»، وعن النعمان بن بشير: كان ﷺ يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما [رواه مسلم]. وعن أبيٍّ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [رواه النسائي، وصححه الألباني].

الآية (١-١٠): عن عبد خير قال: سمعت عليًّا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى، وعن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى. وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: خَلَق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق في أحسن الهيئات. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهَدَى الأنعام لمراتعها؛ كقوله: ﴿ربنا الذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] أي: قَدَّرَ قَدَرًا، وهدى الخلائق إليه. ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ قال ابن عباس: هشيمًا متغيِّرًا. وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه. قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: يا محمد ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وهذا إخبار من الله ﷻ ووَعْد منه له، بأنه سيُقرِئه قراءةً لا ينساها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾. وهذا اختيار ابن جرير.

وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: يعلم ما يَجهَر به العباد وما يُخفُونَه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نسهِّل عليك أفعال الخير وأقواله، ونَشْرَع لك شرعًا سهلًا سمحًا مستقيمًا عدلًا، لا اعوجاج فيه ولا حَرَجَ ولا عُسْر.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ذَكِّر حيث تنفع التذكرة. ومن ههنا يُؤْخَذ الأدب في نشر العلم، فلا يَضَعْه عند غير أهله؛ كما قال أمير المؤمنين علي: ما أنت بمُحَدِّث قومًا حديثًا لا تَبلُغه عقولهم إلا كان فتنةً لبعضهم. وقال: حَدِّثْ الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكَذَّب اللهُ ورسوله؟! ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: سيَتَّعِظ بما تُبَلِّغه -يا محمد- من قلبه يَخشَى الله ويَعلَم أنه ملاقيه.

الآية (١١-١٣): ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً تنفعه، بل هي مُضِرَّة عليه؛ لأن بسببها يَشعُر ما يُعَاقَب به من أليم العذاب، وأنواع النكال. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، لا يموتون ولا يَحيَون، وأما أناس يُريد الله بهم الرحمة فيُمِيتُهم في النار فيَدْخُل عليهم الشُّفَعَاء، [فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضِّبَارَةَ فَيُبْثُهُمْ -أَوْ قَالَ: فَيُبَثُّونَ- عَلَى نَهَرِ الْحَيَا -أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ]، أَوْ قَالَ: نَهَرِ الْجَنَّةِ- فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» [رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني].

الآية (١٤-١٥): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول ﷺ، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: أقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاءَ رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالًا لشَرْع الله. وكذا قال ابن عباس: إن المراد الصلوات الخمس. واختاره ابن جرير. وقال قتادة: زكَّى ماله وأرضى خالقه.

الآية (١٦-١٩): ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تُقدِّمونها على أمر الآخرة، وتُبَدُّونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى؛ فإن الدنيا دنيَّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يُؤْثِر عاقل ما يَفْنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبًا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والـخُلْد؟!

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾: عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. وهذا اختيار حَسَن قوي. وقد رُوي عن قتادة وابن زيد، نحوُه. والله أعلم.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٦) آيةً].

[فضل السورة]: قد تقدم عن النعمان بن بشير: [كان ﷺ يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما [رواه مسلم]].

الآية (١-٧): ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد؛ لأنها تَغشَى الناس وتَعُمُّهم. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تَخْشَع ولا ينفعها عملها. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: قد عَمِلَت عملًا كثيرًا، ونَصَبَتْ فيه، وصَلِيَتْ يوم القيامة نارًا حاميةً. وقال ابن عباس: النصارى. وعن عكرمة والسُّدِّي: ﴿عَامِلَةٌ﴾ في الدنيا بالمعاصي ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: حارة شديدة الحر، ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: قد انتهى حَرُّها وغَليانها. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسُّدِّي.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قال ابن عباس: شجر من نار. وقال ابن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشِّبرِق. قال قتادة: قريش تسميه في الربيع: الشِّبرِق، وفي الصيف: الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريعُ نبتٌ يُقال له: الشِّبرِقُ، يسميه أهل الحجاز: الضريعَ إذا يَبِس، وهو سُمٌّ. ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

الآية (٨-١٦): لَـمَّا ذَكر حال الأشقياء، ثنَّى بذِكر السعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: يُعرَف النعيم فيها. وإنَّما حَصَل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قد رضيت عملها. ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة بهيَّة، في الغرفات آمنون، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي: لا تَسمع في الجنة التي هُمْ فيها كلمةَ لغو؛ كما قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم:٦٢]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: سارحة. وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عينًا واحدةً، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية ناعمة كثيرة الفُرُش، مرتفعةُ السَّمْك، عليها الحور العين. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعني: أواني الشُّرب معدةٌ مُرصَدَة لمن أرادها من أربابها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قال ابن عباس: النمارق: الوسائد. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسُّدِّي والثوري وغيرهم.

﴿وَزَرَابِىُّ﴾ قال ابن عباس: البُسُط. وكذا قال الضحاك وغير واحد. ومعنى ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي: ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها.

الآية (١٧-٢٢): يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟! فإنها خَلْق عجيب، وتركيبها غريب؛ فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحَمْل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتُؤْكَل، وينتفع بوَبَرها، ويُشْرَب لبنها. ونُـبِّهُوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل. ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: جُعِلَت منصوبةً قائمةً ثابتةً راسيةً لئلا تَـمِيد الأرض بأهلها، وجَعَل فيها ما جَعَل من المنافع والمعادن. ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؟! أي: كيف بُسِطَتْ ومُدَّتْ ومُهِّدَتْ، فنبَّه البدويَّ على الاستدلال بما يُشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق الـمُتَصَرِّف المالك، وأنه الإله الذي لا يَستحقُّ العبادة سواه.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: فذَكِّر -يا محمد- الناس بما أُرسِلْتَ به إليهم، فإنَّما عليك البلاغ وعلينا الحساب؛ ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لستَ بالذي تُكْرِهُهم على الإيمان. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عَصَمُوا مني دِمَاءَهم وأموالهم إلا بحَقِّها، وحسابهم على الله ﷻ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [رواه مسلم].

الآية (٢٣-٢٦): ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: تولَّى عن العمل بأركانه، وكَفَر بالحق بجنانه ولسانه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾، عن علي بن خالد أن أبا أمامة الباهلي [سُئِل] عن أَلْيَن كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شَرَد على الله شِرَاد البعير على أهله» [رواه أحمد، وصححه الألباني]. ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي: نحن نُحَاسِبهم على أعمالهم ونُجَازيهم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

تفسير سورة الفجر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣٠) آيةً].

الآية (١-١٤): أما الفجر فمعروف، وهو: الصبح. قاله عليٌّ وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسُّدِّي. وعن مسروق ومجاهد ومحمد ابن كعب: فجر يوم النحر خاصةً، وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تُفعل عنده، كما قاله عكرمة. وقيل: المراد به جميع النهار. وهو رواية عن ابن عباس. والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة كما قاله ابن عباس وابن الزبير وغير واحد من السلف والخلف، وقد ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس مرفوعا: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» -يعني عشر ذي الحجة -قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟! قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء». وقيل: المراد العشر الأُوَل من المحرم. والصحيح القول الأول. ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ قيل: الوتر يوم عرفة، لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر. قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضًا. وقال الحسن وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع، ووتر، أقسم تعالى بخلقه. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار. وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال: ابن عباس: أي إذا ذَهَب. وقال ابن الزبير: يُذْهِب بعضُه بعضًا. وقال مجاهد وأبو العالية وقتادة وآخرون: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: إذا سار. وهذا يمكن حَمْله على ما قاله ابن عباس، أي: ذَهَب. ويُحتَمَل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يُقَال: إن هذا أَنْسَب؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾؛ فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حُمِل قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ على إقباله كان قَسَمًا بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس. وقال الضحاك: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ أي: يجري. وقال عكرمة: يعني ليلة جَمْع. ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي عَقْل ولُبٍّ وحِجًا ودِين، وإنما سُمِّي العقل حِجْرًا لأنه يَمنَع الإنسان من تَعَاطِي ما لا يَلِيق به من الأفعال والأقوال، وهذا القَسَم هو بأوقات العِبَادة، وبنفس العبادة من حَجٍّ وصلاة وغير ذلك.

ولَـمَّا ذَكر هؤلاء وعبادتَهم وطاعتَهم قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وهؤلاء كانوا متمرِّدين عتاةً جبَّارين، خارجين عن طاعته مكذِّبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذَكَر تعالى كيف أَهْلَكَهم ودَمَّرهم، وجعلهم أحاديث وَعِبَرًا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق. وهم الذين بَعَثَ الله فيهم رسوله هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية. فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾: عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعَر التي تُرفَع بالأعمدة الشِّدَاد، وقد كانوا أشدَّ الناس في زمانهم خِلْقَة وأقواهم بطشًا. ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ﴾ أي: القبيلة التي لم يُخْلَق مثلها في بلادهم، لقوَّتهم وشِدَّتهم وعِظَم تركيبهم. قال مجاهد: إِرَم: أمة قديمة. يعني: عادًا الأولى، كما قال قتادة بن دعامة والسُّدِّي: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال ابن عباس: إنما قِيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لطولهم. واختار الأول ابنُ جرير، وردَّ الثاني فأصاب. ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ﴾ أعاد قتادة وابن جرير الضمير على القبيلة، أي: لم يُخْلَق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم. وهذا القول هو الصواب. قلت: فعلى كل قول سواء كانت العِمَاد أبنيةً بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحًا يقاتلون به، أو طول الواحد منهم؛ فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس ينحتونها ويخرقونها، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد. وقال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يَشُدُّون له أمره. وقال مجاهد: كان يُوتِدُ الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسُّدِّي. ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: تَـمَرَّدوا وعَتَوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذيَّة للناس، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أَنزَل عليهم رِجْزًا من السماء، وأَحَلَّ بهم عقوبةً لا يَرُدْها عن القوم المجرمين. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى. أي: يَرْصُدُ خلقَه فيما يعملون، ويُجازي كلًّا بسَعيه في الدنيا والأخرى.

الآية (١٥-٢٠): يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وَسَّع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له.

قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زَعَم، لا في هذا ولا في هذا؛ فإن الله يُعطِي المال مَن يُحِب ومن لا يُحِب، ويُضَيِّق على من يُحِب ومن لا يُحِب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويَحُثُّ بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: من أي جهة حَصَل لهم، من حَلال أو حرام، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، زاد بعضهم: فاحِشًا.

الآية (٢١-٢٢): ﴿كَلَّآ﴾ أي: حَقًّا ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: وُطِئَتْ ومُهِّدَتْ وسُوِّيَت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربِّهم، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفَصْل القضاء بين خَلْقِه، فيَجِيء الربُّ تعالى لفَصْل القضاء كما يشاء، والملائكة يَجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

الآية (٢٣): ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يَجُرُّونها» [رواه مسلم]. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: عَمَلَه وما كان أَسْلَفَه في قديم دهره وحديثه.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟!

الآية (٢٤-٣٠): ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يعني: يندم على ما كان سَلَفَ منه من المعاصي إن كان عاصيًا، ويَوَدُّ لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: ليس أحد أَشَدَّ عذابًا من تعذيب الله مَن عصاه، ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: وليس أحدٌ أَشَدَّ قبضًا ووَثْقًا من الزبانية لمن كَفَر بربهم ﷻ.

هذا في حقِّ المجرمين من الخلائق والظالمين، فأمَّا النفس الزَّكِيَّة المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيُقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى جواره وثوابه وما أَعَدَّ لعباده في جنَّته ﴿رَاضِيَةً﴾ في نفسها ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ قد رَضِيَتْ عن الله ورَضِيَ عنها وأرضاها، ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ في جملتهم، ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾. وهذا يُقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضًا، كما أن الملائكة يبشِّرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره.

تفسير سورة البلد

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢٠) آيةً].

الآية (١-١٠): هذا قَسَم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالًّا؛ ليُنَبِّه على عظَمَة قَدْرِها في حال إحرام أهلها. قال مجاهد: ﴿لَآ﴾ رد عليهم ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾. وقال ابن عباس: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني: مكة، ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قال: أنت -يا محمد- يَحِلُّ لك أَنْ تُقَاتِلَ به. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير وقتادة. وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال قتادة: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قال: أنت به من غير حَرَج ولا إثم. وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار. وهذا المعنى الذي قالوه قد وَرَد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حَرَّمَه الله يوم خَلْق السموات والأرض، فهو حَرَامٌ بحُرْمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شَجَره ولا يُخْتَلَى خَلَاه. وإنما أُحِلَّتْ لي ساعةً من نهار، وقد عادت حُرْمَتُها اليوم كحُرْمَتها بالأمس، ألا فليبلغْ الشَّاهِد الغائب» [متفق عليه].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ عن ابن عباس: الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له. وقال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والحسن البصري وغيرهم: يعني بالوالد آدم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾: ولده. وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسَنٌ قوي؛ لأنه تعالى لَـمَّا أَقسَم بأم القرى وهي المساكن أَقسَم بعده بالسَّاكن، وهو آدم أبو البشر وولده. وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته. واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ عن ابن مسعود، وابن عباس: يعني منتصبًا. والكبد: الاستواء والاستقامة. واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقّها.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال الحسن: يعني ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يأخذ ماله. وقال قتادة: ابن آدم يَظُنُّ أن لن يُسْأَل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ وقال السُّدِّي: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال: الله ﷻ ﴿يَقُولُ﴾ ابن آدم: ﴿أَهْلَكْتُ﴾: أنفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيرًا. قاله مجاهد وقتادة والسُّدِّي وغيرهم. ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ قال مجاهد: أي أَيَحْسَبُ أن لم يَرَهُ الله ﷻ. وكذا قال غيره من السلف. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ أي: يُبصِرُ بهما، ﴿وَلِسَانًا﴾ أي: يَنطِق به، فيُعبِّر عمَّا في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالًا لوجهه وفمه.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: الطريقين، عن ابن مسعود قال: الخير والشرّ. وكذا رُوي عن علي وابن عباس ومجاهد وعكرمة. ونظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

الآية (١١-١٨): عن ابن عمر في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ قال: جبل في جهنم. وقال قتادة: إنها قَحْمَة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ﷻ. وقال قتادة: ثم أخبر عن اقتحامها، فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾. وقال ابن زيد: ﴿ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي: أفلا سَلَكَ الطريق التي فيها النجاة والخير. ثم بيَّنَها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتقَ رقبةً مؤمنةً أعتقَ الله بكل إرْب منها إرْبًا منه من النار، حتى إنه لَيُعْتِق باليد اليدَ، وبالرِّجْل الرِّجْلَ، وبالفَرْج الفرجَ» [متفق عليه].

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة. وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة، وغير واحد. والسَّغَب: هو الجوع.

﴿يَتِيمًا﴾ أي: أطعَمَ في مثل هذا اليوم يتيمًا ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا قرابة منه. قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسُّدِّي. كما جاء في الحديث عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّدَقة على المسكين صَدَقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صَدَقة وصِلَة» [رواه أحمد والترمذي والنسائي، وحسنه الألباني].

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: فقيرًا مُدْقِعًا لاصقًا بالتراب، وهو الدَّقْعَاء أيضًا. قال ابن عباس: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له، ولا شيء يَقِيه من التراب، وفي رواية عنه: هو البعيد التربة. قال ابن أبي حاتم: يعني الغريب عن وطنه. وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج. وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له. وقال ابن عباس وسعيد وقتادة ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال. وكل هذه قريبة المعنى. ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسبٌ ثواب ذلك عند الله عز وجل. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحًا، المتواصِين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

الآية (١٩-٢٠): ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقَة عليهم، فلا مَحِيدَ لهم عنها، ولا خروج لهم منها. قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقَة، قال ابن عباس: مغلقة الأبواب. وقال الضحاك: حَيْطٌ لا باب له. وقال قتادة: مُطْبَقَة فلا ضوء فيها ولا فُرَج، ولا خروج منها آخر الأبد.

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهي مكية، [وعدد آياتها (١٥) آيةً].

[فضل السورة]: عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلَّا صليتَ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟» [متفق عليه].

الآية (١-١٠): ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ قال مجاهد: وضوئها. وقال قتادة: النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قال مجاهد: تَبِعَها. وقال ابن عباس: يتلو النهار. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: إذا غَشِيَها النهار. وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة؛ لدلالة الكلام عليها. قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى: البسيطة لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كلِّه على الشمس لجريان ذِكْرها. وقالوا في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يعني: إذا يغشى الشمس حين تَغيب، فتُظْلِم الآفاق. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يُحتمَل أن تكون «ما» ههنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها. وهو قول قتادة. ويُحتمَل أن تكون بمعنى «مَن» يعني: والسماء وبانيها. وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم. وهكذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. قال مجاهد: ﴿طَحَىٰهَا﴾: دَحَاها. وقال ابن عباس: أي: خَلَقَ فيها. وقال: قَسَّمَها. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: بَسَطَها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه أكثر المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلَقَها سويةً مستقيمةً على الفطرة القويمة. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: فأرشَدَها إلى فجورها وتقواها، أي: بيَّن لها ذلك، وهداها إلى ما قَدَّرَ لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾: بيَّن لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثوري. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: يُحتَمَل أن يكون المعنى: قد أَفْلَحَ من زَكَّى نفسه بطاعة الله -كما قال قتادة- وطهَّرَها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ويُروَى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دَسَّسَها، أي: أَخْمَلَها ووَضَع منها بخُذْلَانِه إياها عن الهُدَى، حتى رَكِبَ المعاصي وتَرَكَ طاعة الله ﷻ. وقد يُحتَمَل أن يكون المعنى: قد أَفْلَحَ من زَكَّى اللهُ نفسَه، وقد خاب من دَسَّى اللهُ نفسَه، كما قال ابن عباس.

الآية (١١-١٥): يُخْبِر تعالى عن ثمود أنهم كذَّبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي. وقال محمد بن كعب: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بأَجْمَعِها. والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة، وهو أُحَيْمِر ثمود. عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال: خَطَب رسول الله ﷺ، فذَكَرَ النَّاقة، وذَكَرَ الذي عَقَرَها، فقال: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾: انْبَعَثَ لها رجل عارم[1] عزيز منيع في رَهْطِه» [متفق عليه]. ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني: صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله أن تَمَسُّوها بسوء، ﴿وَسُقْيَىٰهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سُقيَاها؛ فإنَّ: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذَّبوه فيما جاءهم به فأَعْقَبَهم ذلك أن عَقَروا الناقة التي أَخْرَجَها الله من الصخرة آيةً لهم وحجةً عليهم، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: غَضِبَ عليهم، فدَمَّر عليهم، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فجعَل العُقُوبة نازلةً عليهم على السواء. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف اللهُ من أحدٍ تَبِعَةً. وكذا قال مجاهد والحسن وبكر ابن عبد الله المزني وغيرهم. وقال الضحاك والسُّدِّي: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا﴾ أي: لم يَخَف الذي عَقَرَها عاقبةَ ما صَنَع. والقول الأول أولى؛ لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

تفسير سورة الليل

وهي مكية، [وعدد آياتها (٢١) آيةً].

[فضل السورة]: تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلَّا صَلَّيْتَ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟!» [متفق عليه].

الآية (١-٩): ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي: إذا غَشِيَ الخليقةَ بظلامه، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: بضيائه وإشراقه، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨]. ولـمَّا كان القَسَم بهذه الأشياء المتضادَّة كان المقسم عليه أيضًا متضادًّا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادَّة أيضًا ومتخالفة، فمِن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًّا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما أُمِرَ بإخراجه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله في أموره، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة، وقال خَصِيف: بالثواب. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح وزيد بن أسلم: ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالـخَلَف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك: أي: بلا إله إلا الله. وفي رواية عن عكرمة: أي: بما أنعم الله عليه. وفي رواية عن زيد بن أسلم: الصلاة والزكاة والصوم. وقال مرة: وصدَقَة الفطر. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يعني للخير. وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ أي: بما عنده، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي بَخِلَ بماله، واستغنى عن ربه ﷻ. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالجزاء في الدار الآخرة.

---

(١) عارمٌ: شديدٌ شرسٌ. [ينظر: معجم مقاييس اللغة، والصحاح، مادة (عرم)].

الآية (١٠-١١): ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: لطريق الشَّرِّ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالله ﷻ يُجازي من قَصَدَ الخير بالتوفيق له، ومن قَصَدَ الشَّرَّ بالـخُذْلان. وكلُّ ذلك بقَدَر مُقدَّر.

عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟! فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [رواه البخاري].

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قال مجاهد: أي إذا مات. وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: إذا تردَّى في النار.

الآية (١٢-١٤): قال قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: نُبيِّن الحلالَ والحرامَ. وقال غيره: من سَلَكَ طريق الـهُدى وَصَل إلى الله. وجَعَلَه كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]. حكاه ابن جرير. ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الجميع ملكنا وأنا الـمُتَصَرِّف فيها. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ قال مجاهد: أي تَوَهَّج. وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يَغْلي منها دماغه» [رواه البخاري، ومسلم بنحوه].

الآية (١٥-٢١): ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أي: لا يدخلها دخولًا يُحيط به من جميع جوانبه ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ثم فَسَّره فقال: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ أي: بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: عن العمل بجوارحه وأركانه.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي: وسيُزْحَزَح عن النار التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى. ثم فَسَّره بـ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يَصْرِف ماله في طاعة ربه؛ ليُزَكِّي نفسه وماله وما وَهَبَه الله من دين ودنيا، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي: ليس بَذْله ماله في مكافأة من أَسْدَى إليه معروفًا، فهو يُعْطِي في مقابلة ذلك، وإنما دَفَعَه ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في رَوضَات الجنات، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: ولسوف يَرضَى من اتَّصَف بهذه الصفات.

وقد ذَكَرَ غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نَزَلَت في أبي بكر الصديق، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسِّرين على ذلك. ولا شكَّ أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها؛ فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مُقَدَّم الأمة وسابقُهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صِدِّيقًا تقيًّا كريمًا جوادًا بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرةِ رسول الله، فكَم من دراهم ودنانير بَذَلَـها ابتغاءَ وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده مِنَّةٌ يَحتَاج إلى أن يكافئه بها.

تفسير سورة الضحى

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١) آيةً].

الآية (١-١١): [سبب النزول]: عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يَقُمْ ليلةً أو ليلتين، فأَتَتْ امرأةٌ فقالت: يا محمد، ما أَرَى شيطانك إلا قد تَرَكَك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [متفق عليه].

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ هذا قَسَم منه تعالى بالضُّحَى وما جَعَل فيه من الضياء، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سَكَن فأظلَمَ وادلَـهَمَّ. قاله مجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم. وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تَرَكَكَ، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أَبْغَضَكَ، ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أَزْهَدَ الناس في الدنيا، وأَعْظَمَهم لها اطِّرَاحًا، كما هو معلوم من سيرته. ولـمَّا خُيِّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر عُمره بين الـخُلْد في الدنيا إلى آخِرها ثمَّ الجنة، وبين الصَّيْرُورة إلى الله ﷻ اختار ما عند الله على هذه الدُّنيا الدَّنِيَّة.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي: في الدار الآخرة يُعْطِيه حتى يُرضِيه في أُمَّته، وفيما أَعَدَّه له من الكرامة، ومن جُملَته نَهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، وطِينه مِسْك أَذْفَر.

ثم قال تعالى يُعدِّدُ نِعَمَه على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ وذلك أن أباه تُوُفِّي وهو حَمْلٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن وُلِدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم تُوُفِّيَتْ أُمُّه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن تُوُفِّي وله من العُمر ثماني سنين، فكَفَلَه عمُّه أبو طالب.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ الآية [الشورى:٥٢].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: كنت فقيرًا ذا عيال، فأَغْنَاكَ الله عمَّن سواه، فجَمَع له بين مقامي: الفقير الصابر والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه. وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يَبْعَثَه الله ﷻ.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: كما كُنْتَ يتيمًا فآواك الله فلا تَقْهَر اليتيم، أي: لا تُذِلَّهُ وتَنْهَرْهُ وتُهِنْهُ، ولكن أَحسِنْ إليه، وتَلَطَّفْ به. قال قتادة: كُنْ لليَتِيم كالأب الرحيم. ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: وكما كُنْتَ ضالًّا فهَدَاكَ الله، فلا تَنْهَرْ السائلَ في العِلْم الـمُسْتَرْشِدَ. قال ابن إسحاق: أي: فلا تكن جَبَّارًا ولا مُتَكَبِّرًا ولا فَحَّاشًا، ولا فَظًّا على الضُّعفَاء من عِبَاد الله. وقال قتادة: يعني رُدَّ المسكين برحمة ولين.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: وكما كُنْتَ عائلًا فقيرًا فأَغْنَاكَ الله، فحَدِّثْ بنعمة الله عليك. وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شُكْرِ النعم أن يُحَدَّثَ بها. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يَشْكُرُ اللهَ من لا يَشْكُرُ الناس» [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني].

تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨) آيات].

الآية (١-٢): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني: أما شَرَحْنَا لكَ صَدْرَكَ، أي: نورناه وجعلناه فَسِيحًا رَحِيبًا واسِعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جَعَل شَرْعه فسيحًا واسعًا سَمْحًا سهلًا لا حَرَجَ فيه ولا إِصْرَ ولا ضِيْقَ. وقيل: المراد شرح صدره ليلة الإسراء؛ فإن من جملة شرح صدره: الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء، وما نَشَأَ عنه من الشَّرْح المعنوي أيضًا، والله أعلم.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بمعنى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

الآية (٣-٨): ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الإنقاض: الصوت. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أَثْقَلَكَ حَمْلُه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد: لا أُذْكَرُ إلا ذُكِرتَ معي: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وقال قتادة: رَفَعَ اللهُ ذِكْرَه في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وقال آخرون: رَفَعَ الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أَخبرَ تعالى أن مع العُسْر يُوجَدُ اليُسْر، ثم أَكَّدَ هذا الخبر. وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فَرغتَ من أمور الدنيا وأشغالها وقَطَعْتَ علائقها ﴿فَانصَبْ﴾ في العبادة، وقُمْ إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلصْ لربك النِّيَّة والرغبة. قال مجاهد: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة، فانصب لربك ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ﷻ.

تفسير سورة التين

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨) آيات].

[فضل السورة]: عن البراء بن عازب قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ في العشاء، وما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه أو قراءةً [متفق عليه].

الآية (١-٨): ﴿وَٱلتِّينِ﴾ اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة، فقيل: المراد بالتين مسجد دمشق. وقيل: هي نفسها. وقيل: الجبل الذي عندها. وقال مجاهد: هو تِينُكُم هذا.

﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قال قتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تَعْصِرُون.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قال غير واحد: هو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يعني: مكة. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النَّخَعِي، ولا خلاف في ذلك.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خَلَقَ الإنسان في أَحْسَن صورة وشَكْل؛ منتَصِب القامة، سَويِّ الأعضاء حَسَنِها. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النار. قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم. ثم بعد هذا الحُسْن والنَّضَارَة مصيره إلى النار إن لم يُطِع الله ويَتَّبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى أَرْذَل العمر. رُوي هذا عن ابن عباس وعكرمة. واختار ذلك ابن جرير. ولو كان هذا هو المراد لَمَا حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهَرَم قد يُصِيبُ بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه؛ كقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣].

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع. ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يعني: يا ابن آدم ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؟! أي: بالجزاء في المعاد، وقد علمتَ البَدْأَة، وعرفتَ أن من قَدَرَ على البَدْأَة، فهو قادر على الرَّجْعة بطريق الأولى، فأيُّ شيء يَحْمِلُكَ على التكذيب بالمعاد وقد عرفتَ هذا؟!

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أما هو أحكمُ الحاكمين، الذي لا يجور ولا يَظْلِم أحَدًا، ومن عَدْله أن يُقِيمَ القيامة فيُنْصِف المظلوم في الدنيا ممَّن ظلمه.

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن، [وعدد آياتها (١٩) آيةً].

[فضل السورة]: عن عائشة قالت: أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيَتَحَنَّث فيه -وهو: التَّعَبُّد- الليالي ذوات العدد، ويتزوَّد لذلك ثم يَرجع إلى خديجة فيتزَوَّد لمثلها حتى فَجَأَهُ الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فَغَطَّني حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارئ. فَغَطَّني الثانية حتى بَلَغَ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فغَطَّني الثالثة حتى بَلَغَ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» قال: فرجع بها تَرجُف بَوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني» [متفق عليه].

الآية (١-٥): هذه الآيات الكريمات المباركات فيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كَرَمِه تعالى أن عَلَّم الإنسان ما لم يَعلَم، فشَرَّفَه وكَرَّمَه بالعِلْم، وهو القَدْر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعِلْم تارةً يكون في الأذهان، وتارةً يكون في اللسان، وتارةً يكون في الكتابة بالبنان، ذِهْنِيٌّ ولَفْظِيٌّ ورَسْمِيٌّ، والرَّسْمِيُّ يستلزمهما من غير عَكْس، فلهذا قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وفي الأثر: قَيِّدُوا العلم بالكتابة.

الآية (٦-١٢): يُخْبِر تعالى عن الإنسان أنه ذو فَرَح وأَشَر وبَطَر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكَثُرَ ماله. ثم تَهَدَّده وتَوَعَّدَه ووَعَظَه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيُحَاسِبُك على مالك: من أين جَمَعْتَه؟ وفِيمَ صَرَفْتَه؟

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نَزَلَتْ في أبي جهل لعنه الله؛ توَعَّد النبيَّ ﷺ على الصلاة عند البيت، فوَعَظَه الله تعالى بالتي هي أحسن أولًا، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾؟! أي: فما ظَنُّكَ إن كان هذا الذي تَنهَاهُ على الطريق المستقيمة في فِعْلِه؟! ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰ﴾ بقوله، وأنت تَزْجُره وتَتَوَعَّده على صلاته؟! ولهذا قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

الآية (١٣-١٩): ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: أما عَلِمَ هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يَراه ويَسمَع كلامه، وسيُجَازيه على فِعْله أَتَمَّ الجزاء. ثم قال تعالى مُتَوعِّدًا ومتهدِّدًا: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: لئن لم يَرجِعْ عمَّا هو فيه من الشِّقَاق والعِنَاد ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنَسِمَنَّها سَوَادًا يوم القيامة.

ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يعني: ناصية أبي جهل كاذبةٌ في مقالها خاطئةٌ في فِعَالها. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: ليَدْعُهم يَستَنْصِر بهم، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ وهم ملائكة العذاب، حتى يَعلَم من يَغْلِبُ: أَحِزْبُنا أَوْ حِزْبُهُ؟! عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمدًا يصلي عند الكعبة لَأَطَأَنَّ على عُنُقه. فبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: «[لو][1] فَعَلَه لأَخَذَتْه الملائكة» [رواه البخاري].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: يا محمد، لا تُطِعْهُ فيما يَنهَاكَ عنه من المداومة على العبادة وكَثْرَتها، وصَلِّ حيثُ شِئْتَ ولا تُبَالِهِ؛ فإن الله حَافِظُك وناصِرُك، وهو يَعصِمُك من الناس، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ كما ثَبَتَ عند مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» وتقدم عن أبي هريرة قال: سَجَدْنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [رواه مسلم].

تفسير سورة القدر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥) آيات].

الآية (١-٥): يُخْبِر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣] وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة من السماء الدنيا، ثم نَزَلَ مفصَّلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى مُعَظِّمًا لشأن ليلة القدر، التي اختصَّها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة والشافعي وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عَمَلٌ فيها خير من عَمَل ألف شهر. وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر- وليس فيها ليلة القدر- هو اختيارُ ابن جرير. وهو الصواب لا ما عداه. ولَـمَّا كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثَبَتَ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه» [متفق عليه].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: يَكْثُرُ تَنَزُّلُ الملائكة في هذه الليلة لكَثْرة بَرَكَتِها، والملائكة يَتَنَزَّلون مع تَنَزُّل البركة والرحمة، كما يَتَنَزَّلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذِّكْر، ويضعون أجنحتهم لطالب العِلْم بصِدْق تعظيمًا له. وأما الرُّوح فقيل: المراد به ههنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم ضَرْبٌ من الملائكة. والله أعلم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وقال: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سُوءًا أو يَعمَل فيها أذًى. وقال قتادة وغيره: تُقضَى فيها الأمور، وتُقَدَّر الآجال والأرزاق؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤].

﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر. قال قتادة وابن زيد: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ يعني: هي خير كلها، ليس فيها شَرٌّ، إلى مطلع الفجر.

اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين، ثم قيل: ليلة إحدى وعشرين، وقيل: ليلة ثلاث وعشرين [وقيل غير ذلك]، وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «أنها ليلة سبع وعشرين». وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر، ونص عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة، وغيرهم، وهو الأشبه والله أعلم.

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٨) آيات].

[فضل السورة]: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأُبيِّ ابن كعب: «إن الله أمرني أن أَقْرَأَ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» قال: وسَمَّانِي لكَ؟! قال: «نعم» فبكى [متفق عليه].

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتًا له، وزيادةً لإيمانه.

الآية (١-٥): ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عَبَدَةُ الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يعني: مُنْتَهِين حتى يَتَبَيَّن لهم الحقُّ. وكذا قال قتادة. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: هذا القرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ثم فَسَّرَ البينةَ بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: محمدًا ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مُكْتَتَبٌ في الملأ الأعلى، في صُحُف مُطَهَّرة؛ كقوله: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٤-١٦].

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قال ابن جرير: أي في الصُّحُف المطهرة كُتُب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله ﷻ. قال قتادة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾: يَذْكُر القرآن بأَحْسَن الذِّكْر، ويُثْنِي عليه بأَحْسَن الثَّنَاء. وقال ابن زيد: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مستقيمة معتدلة. ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يعني بذلك: أهل الكُتُب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرَّقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافًا كثيرًا. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]؛ ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مُتَحَنِّفين عن الشرك إلى التوحيد. ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو: الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة -كالزهري والشافعي- بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

---

(١) عند ابن كثير: (لئن)، والتصحيح من صحيح البخاري.

الآية (٦-٧): يُخْبِر تعالى عن مآل الفجار، من كفرة أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكُتُب الله المنزلة وأنبياء الله المُرْسَلَة: أنهم يوم القيامة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ماكثين، لا يُحَوَّلُون عنها ولا يَزُولُون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: شَرُّ الخليقة التي برَأَها الله وذرَأَها.

ثم أَخْبَرَ تعالى عن حال الأبرار -الذين آمنوا بقلوبهم، وعَمِلُوا الصالحات بأبدانهم- بأنهم خير البرية. وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

الآية (٨): ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى ممَّا أُوتُوه من النعيم المُقِيم، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فيما مَنَحَهم من الفضل العميم، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خَشِيَ الله واتَّقَاه حقَّ تَقْوَاه، وعَبَدَه كأنَّه يَرَاه، وقد عَلِمَ أنه إن لم يَرَه فإنه يَرَاه.

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨) آيات].

الآية (١-٨): ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قال ابن عباس: أي: تحرَّكت من أسفلها. ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني: ألقَتْ ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السَّلَف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، وكقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣-٤]. وعن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَقيء الأرض أفلاذ كَبِدِها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيَجِيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قَطَعتُ رَحِمي، ويَجِيء السَّارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئًا» [رواه مسلم].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؟! أي: استنكر أَمْرَها بعدما كانت قارةً ساكنةً ثابتةً، وهو مُستَقِرٌّ على ظهرها، أي: تَقَلَّبَتْ الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أُعِدَّ لها من الزلزال الذي لا مَحِيد لها عنه، ثم أَلْقَتْ ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذٍ استنكر الناس أَمْرَها وتَبَدَّلَت الأرض غير الأرض والسموات، وبَرَزُوا لله الواحد القهار. ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تُحَدِّث بما عَمِل العاملون على ظهرها.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال البخاري: أَوْحَى لها وأَوْحَى إليها، ووَحَى لها ووَحَى إليها: واحد. وكذا قال ابن عباس: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أَوْحَى إليها. والظاهر أن هذا مُضَمَّن بمعنى أَذِنَ لها. وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لها ربها: قولي، فقالت. وقال مجاهد: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أَمَرَها. وقال القُرَظي: أَمَرَها أن تنشق عنهم. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يرجعون عن مواقف الحساب، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: أنواعًا وأصنافًا؛ ما بين شَقِيٍّ وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدَّعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخر ما عليهم. وقال السُّدِّي: ﴿أَشْتَاتًا﴾ فِرَقًا.

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ليُعْلَموا ويُجَازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر. ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

عن أبي هُرَيرة: سُئِل رسول الله ﷺ عن الحُمُر، فقال: «ما أَنزَلَ الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [متفق عليه].

تفسير سورة العاديات

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١) آيةً].

الآية (١-٥): ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يقسم تعالى بالخيل إذا أُجْرِيَتْ في سبيله فَعَدَتْ وضَبَحت، وهو: الصوت الذي يُسمَع من الفَرَس حين تَعدُو. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ يعني: اصطكاك نعالها للصَّخْر فتَقْدَح منه النار. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يُغِيرُ صباحًا، ويستمع الأذان، فإن سمع أذانًا وإلا أغار، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ يعني: غُبارًا في مكان معترك الخيول، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: تَوسَّطْنَ ذلك المكان كُلُّهن جُمَع.

عن عليٍّ وابن مسعود: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾: الإبل. وقال ابن عباس: هي الخيل. فبلغ عَلِيًّا قولُ ابن عباس، فقال: ما كانت لنا خَيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بُعِثَتْ. وقد قال بقول علي: إنها الإبل جماعة. منهم: إبراهيم وعبيد بن عمير، وبقول ابن عباس آخرون، منهم: مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والضحاك. واختاره ابن جرير.

وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ يعني: بحوافرها. وقيل: نيران القبائل. قال ابن جرير: والصواب أنها الخيل حين تقدح بحوافرها. وقوله ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني إغارة الخيل ﴿صُبْحًا﴾ في سبيل الله. وقال من فَسَّرَها بالإبل: هو الدَّفْع صُبحًا من المزدلفة إلى منى. وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ هو: المكان الذي إذا حَلَّتْ فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ قال ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك: يعني جَمع الكفار من العدو. ويُحتَمَل أن يكون: فوَسَطْنَ بذلك المكان جَميعُهُن، ويكون ﴿جَمْعًا﴾ منصوبًا على الحال المؤكِّدة.

الآية (٦-١٠): ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، بمعنى: أنه بنعم ربه لجحود كفور. قال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم النَّخعِي وسعيد بن جبير والحسن وقتادة: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يَعُدُّ المصائب، ويَنْسَى نِعَمَ ربه.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويُحتَمَل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي، فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنودًا لَشهيدٌ، أي: بلسان حاله، أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ وهو: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح.

ثم قال تعالى مُزَهِّدا في الدنيا، ومُرَغِّبًا في الآخرة، ومُنَبِّهًا على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يَستَقْبِله الإنسان من الأهوال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: أُخْرِجَ ما فيها من الأموات. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني أُبْرِزَ وأُظْهِرَ ما كانوا يُسِرُّون في نفوسهم.

الآية (١١): ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي: العالِم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

تفسير سورة القارعة

وهي مكية، [وعدد آياتها (١١) آيةً].

الآية (١-١١): ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة، والطامَّة، والصَّاخَّة، والغاشية، وغير ذلك.

ثم قال تعالى معظِّمًا أمرها ومهوِّلًا لشأنها: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ثم فَسَّرَ ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ في انتشارهم وتَفَرُّقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم ممَّا هم فيه، كأنهم فَرَاش مبثوث؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]. وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ قال مجاهد [وغيره]: ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: الصوف. يعني: قد صَارَتْ كأنها الصُّوف المنفوش، الذي قد شَرَع في الذهاب والتَّمَزُّق.

ثم أخبر تعالى عما يَؤُول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة، بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رَجَحَتْ حسناته على سيئاته، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ يعني: في الجنة. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رَجَحَتْ سيئاته على حسناته، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ قيل: معناه: فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم. وَعَبَّر عنه بأمه -يعني دماغَه- رُوي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، قال قتادة: يهوي في النار على رأسه. وقيل: معناه: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها ﴿هَاوِيَةٌ﴾، وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية: النار، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران:١٥١]. وعن قتادة أنه قال: هي النار، وهي مأواهم. ولهذا قال تعالى مُفَسِّرًا للهاوية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهيب والسعير.

عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم -التي تُوقِدون- جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» [رواه البخاري].

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٨) آيات].

الآية (١-٨): ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يقول تعالى: [شَغَلَكُم] حبُّ الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزُرْتُم المقابر، وصِرتُم من أهلها. وقال الحسن البصري: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في الأموال والأولاد.

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يقول ابنُ آدم: مالي! مالي! وهل لك من مالِكَ إلا ما أَكَلْتَ فأَفْنَيْت، أو لبسْتَ فأبلَيْت، أو تَصَدَّقْتَ فأَمْضَيْت؟!» [رواه مسلم]. ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: صِرتُم إليها ودُفِنْتُم فيها.

كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور! قال: «فنعم إذًا» [رواه البخاري]. ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أيها المؤمنون. ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حقَّ العلم، لَمَا أَلْهَاكم التَّكَاثُر عن طَلَب الدار الآخرة، حتى صِرْتُم إلى المقابر.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدِّم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَوعَّدَهم بهذا الحال، وهي رؤية النار، التي إذا زَفَرت زَفْرَةً خَرَّ كل مَلَك مقرَّب، ونبي مُرسَل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال. ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن شُكْر ما أَنْعَمَ الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك [وماذا] قابلتم به نعمه من شكره وعبادته؟

وعن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ههنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أَخرَجَنَا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرَجَني غيره». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ... فذَبَحَ لهم يومئذٍ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «لَتُسْأَلُنَّ عن هذا يوم القيامة. أخرجَكم من بيوتكم الجوعُ، فلم تَرجِعُوا حتى أَصَبْتُم هذا، فهذا من النَّعِيم» [رواه مسلم].

وقال الزبير: لَـمَّا نَزَلَت: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، لأيّ نعيم نُسْأَل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟! قال: «إن ذلك سيكون» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني]. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا.

وقال الحسن: نعيم الغذاء والعشاء. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» [رواه البخاري]. ومعنى هذا: أنهم مُقَصِّرُون في شُكْر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحقِّ ما وَجَبَ عليه، فهو مغبون.

تفسير سورة العصر

وهي مكية، [وعدد آياتها (٣) آيات].

وقال الشافعي: لو تَدَبَّرَ الناس هذه السورة؛ لَوَسِعَتْهم.

الآية (١-٣): ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾: الزمان الذي يقع فيه حَركاتُ بني آدم، من خير وشر. وقال زيد بن أسلم: هو العَشى، والمشهور الأول.

فأقسم تعالى بذلك على أن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: في خسارة وهلاك، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فاستثنى -من جنس الإنسان عن الخسران- الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات، وتَرْكِ المحرَّمات، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذِي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية، [وعدد آياتها (٩) آيات].

الآية (١-٩): ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهماز بالقول، واللماز بالفعل. يعني: يزدري الناس [وينتقصهم].

قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: طعَّان مِعْيَاب. وقال الربيع بن أنس: الـهُمَزَة: يهمزه في وجهه، واللُّمَزَة من خلفه. وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم. وقال مجاهد: الـهُمَزَة: باليد والعين، واللُّمَزَة: باللسان. وهكذا قال ابن زيد. ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شَرِيق. وقيل غيره. وقال مجاهد: هي عامة.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جَمَعَه بعضه على بعض، وأحصى عدده؛ كقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج:١٨]. قاله السُّدِّي وابن جرير. وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾: ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يَظُنُّ أن جمعَه المال يُخَلِّده في هذه الدار ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زَعَمَ ولا كما حَسِب. ثم قال تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي: لَيُلْقَيَنَّ هذا الذي جَمَع مالًا فعَدَّده ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي اسم من أسماء النار صفة؛ لأنها تَحْطِمُ مَن فيها. ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قال ثابت البناني: تُحْرِقُهُم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بَلَغَ منهم العذاب، ثم يَبْكِي. وقال محمد بن كعب: تأكل كلَّ شيء من جَسَدِه، حتى إذا بَلَغَت فؤاده حَذْوَ حَلْقه ترجع على جسده. ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقَة، ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قال عطية العوفي: عَمَد من حديد. وقال السُّدِّي: من نار. وعن ابن عباس: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني: الأبواب هي الممدودة. وعن ابن عباس: أَدْخَلَهم في عَمَد فمُدَّت عليهم بعِمَاد، وفي أعناقهم السلاسل فَسُدَّتْ بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نَتَحَدَّثُ أنهم يُعَذَّبُون بعَمَدٍ في النار. واختاره ابن جرير. وقال أبو صالح: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني القيود الطوال.

تفسير سورة الفيل

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥) آيات].

الآية (١-٥): هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صَرَفَ عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عَزَمُوا على هَدْم الكعبة ومَحْو أَثَرِها من الوجود، فأَبَادَهم الله، وأَرْغَمَ آنافهم، وخَيَّبَ سعيهم، وأضَلَّ عملهم، وَرَدَّهم بِشَرِّ خَيْبَة. وكانوا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أَقْرَبَ حالًا مِمَّا كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتَّوْطِئة لِمَبْعَثِ رسول الله ﷺ؛ فإنه في ذلك العام وُلِدَ على أشهر الأقوال، ولسان حال القُدْرة يقول: لم نَنْصُرْكُم -يا معشر قريش- على الحَبَشَة لِخَيْرِيَّتِكم عليهم، ولكن صِيَانةً للبيت العتيق الذي سَنُشَرِّفُه ونُعَظِّمُه ونُوَقِّرُه بِبَعْثَة النبي الأمي محمد ﷺ خاتم الأنبياء.

قال ابن هشام: الأبابيل: الجماعات، ولم تَتَكَلَّم العرب بواحده. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سَنْجُ وَجِلٌّ يعني بالسنج: الحجر، والجِلُّ: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصفُ: ورقُ الزرع الذي لم يُقصب، واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يَتْبَعُ بعضها بعضًا. وقال الحسن وقتادة: الأبابيل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل: المختلفة، تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان.

وعن ابن عباس: ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال: طين في حجارة.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التِّبْن الذي تُسمِّيه العامة: هبور. وفي رواية عن سعيد: وَرَق الحِنْطَة. وعنه أيضًا: العَصْف: التِّبْن. والمأكول: القصيل يُجَزُّ للدواب. وكذلك قال الحسن. وعن ابن عباس: العَصْف: القِشْرَة التي على الحَبَّة، كالغلاف على الحِنْطَة. والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمَّرهم، ورَدَّهم بكَيْدهم وغَيظهم لم ينالوا خيرًا، وأهلَكَ عامَّتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جَرَى لِمَلِكِهم أَبْرَهَة؛ فإنه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وَصَلَ إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جَرَى لهم، ثم مات.

ولَـمَّا أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية -التي تهبط به على قريش- بَرَكَتْ ناقته، فزَجَرُوها فألَحَّت، فقالوا: خَلَأَتْ القصواء، أي: حَرَنت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خَلَأَت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسَها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خُطَّةً يُعَظِّمُون فيها حُرُمات الله، إلا أجبْتُهم إليها» ثم زَجَرَها فقامت [رواه البخاري].

وقال يوم فتح مكة: «إن الله حَبَسَ عن مكةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنين، وإنه قد عادَت حُرمَتُها اليوم كحُرمَتها بالأمس، ألا فلْيُبَلِّغ الشاهد الغائب» [متفق عليه].

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤) آيات].

الآية (١-٤): هذه السورة متعلقة بما قبلها، والمعنى: حبَسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس؛ لكونهم سكان حَرَم الله. وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بَدَل من الأول ومفسِّر له. وقال ابن جرير: الصواب أن «اللام» للتعجب؛ كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان. ثم أرشدَهم إلى شُكْر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ أي: فليوحِّدُوه بالعبادة، كما جَعَل لهم حَرَمًا آمنًا وبيتًا مُحَرَّمًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١].

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: هو ربُّ البيت، وهو الذي أطعَمَهم من جوع، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أي: تَفَضَّلَ عليهم بالأمن والرُّخْص، فليُفْرِدُوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنمًا ولا ندًّا ولا وَثَنًا.

تفسير السورة التي يُذكر فيها الماعون

وهي مكية، [وعدد آياتها (٧) آيات].

الآية (١-٧): يقول تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي: هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقَّه، ولا يُطْعِمُه ولا يُحْسِن إليه، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني: الفقير الذي لا شيء له يقوم بأَوْدِه وكفايته. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني المنافقين؛ الذين يُصَلُّون في العلانية ولا يُصَلُّون في السر. ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ﴿سَاهُونَ﴾: إما عن فِعْلها بالكلية؛ كما قاله ابن عباس، وإما عن فِعْلها في الوقت المقدَّر لها شرعًا، فيُخْرِجُها عن وقتها بالكلية؛ كما قاله مسروق وأبو الضحى، وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون، وإما عن وقتها الأول فيُؤَخِّرُونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها؛ فاللفظ يَشْمَل هذا كلَّه، ولكل من اتَّصَفَ بشيء من ذلك قِسْطٌ من هذه الآية. ومن اتَّصَفَ بجميع ذلك فقد تَمَّ نصيبه منها، وكَمُلَ له النفاق العملي. كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس، حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان قام فَنَقَرَ أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلًا» [رواه مسلم]. فهذا أخَّر صلاة العصر -التي هي الوسطى كما ثبت به النص- إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنَقَرَها نَقْر الغراب، لم يَطْمَئِنَّ ولا خَشَع فيها أيضًا ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلا»، ولعله إنما حَمَلَه على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يُصَلِّ بالكلية؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال ههنا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما يُنتفَع به ويُستَعان به، مع بقاء عَيْنِه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى. قال عكرمة: رأس الماعون: زكاةُ المال، وأدناه: المُنْخُل، والدلو، والإبرة. وهذا الذي قاله عِكرمة حَسَن، ويرجع إلى شيء واحد. وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة.

تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية، [وعدد آياتها (٣) آيات].

الآية (١-٣): قال ﷺ: «الكوثر نهر وَعَدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم» [رواه مسلم]. وقال: «دَخَلْتُ الجنة، فإذا أنا بنَهْرٍ حافتاه خيام اللؤلؤ، فضَرَبْتُ بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مِسْكٌ أذفر. قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل» [رواه البخاري]. وعن ابن عباس: الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. وقال سعيد بن جبير: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. وعن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير [رواه البخاري]. وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكَثْرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسَّره بالنهر أيضًا. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: كما أعطيناكَ الخير الكثير في الدنيا والآخرة -ومن ذلك النهرُ الذي تقدم صفته- فأَخْلِص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك؛ فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وقيل في المراد بقوله ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أقوال، قال ابن جرير: والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصًا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نَحْرُك اجعله له دون الأوثان؛ شُكرًا له على ما أعطاكَ من الكرامة والخير، الذي لا كِفَاء له، وخَصَّكَ به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا: محمد بن كعب القرظي وعطاء. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: إن مُبْغِضَك يا محمد، ومُبْغِض ما جئتَ به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقلّ الأذَلّ المنقطع ذِكْرُه. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة: نزلَتْ في العاص بن وائل. [سبب النزول]: عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصَّنْبَر[1] المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟! فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ رواه البزار، وهو إسناد صحيح. وعن ابن عباس: ﴿شَانِئَكَ﴾ يعني: عدوك. وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذُكِر وغيرهم. تَوَهَّموا لجهلهم أنه إذا ماتَ بَنُوهُ ينقطع ذِكْرُه، وحاشا وكلَّا، بل قد أبقى الله ذِكْرَه على رؤوس الأشهاد، وأَوْجَبَ شرعه على رقاب العباد، مستمرًا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد.

---

(١) الصنبر: الضعيف الرقيق من كل شيء. [تهذيب اللغة، مادة (صنبر)].

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية، [وعدد آياتها (٦) آيات].

[فضل السورة]: عن جابر: أن رسول الله ﷺ قَرَأَ بهذه السورة، وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف [رواه مسلم].

وعن ابن عمر قال: رَمَقْتُ النبيَّ ﷺ شهرًا، فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني].

الآية (١-٦): هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه؛ فقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجَهون بهذا الخطاب هم كفارُ قريش. وقيل: إنهم من جَهْلِهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبدون معبوده سنةً، فأَنْزَلَ الله هذه السورة، وأَمَرَ رسوله ﷺ فيها أن يَتَبَرَّأَ من دينهم بالكُلِّيَّة، فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له. فـ«ما» ههنا بمعنى «مَن». ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: ولا أَعْبُد عبادَتَكم، أي: لا أسلُكُها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشَرْعِه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئًا من تِلْقَاء أنفسكم. فتَبَرَّأَ منهم في جميع ما هم فيه؛ فإن العابد لا بد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ. والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١]

[وقيل: معنى الآيات]: لا أعبد ما تعبدون الآن ولا أُجِيبُكُم فيما بقي من عمري ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد؛ كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥- ٦] وحكاه بعضهم -كابن الجوزي وغيره- عن ابن قتيبة.

وثَمَّ قول رابع، نَصَرَه ابن تَيمية؛ وهو أن المراد بقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾: نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾: نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضًا. وهو قول حَسَن أيضًا، والله أعلم.

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية، [وعدد آياتها (٣) آيات].

[فضل السورة]: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: تعدل ربع القرآن [رواه الترمذي، وصححه الألباني]. وعنه أنها آخر سورة من القرآن نَزَلَت [رواه مسلم]].

الآية (١-٣): عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، ... فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرْنَا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نُصِرْنا وفُتح علينا. وسَكَت بعضهم فلم يقلْ شيئًا، فقال لي: أكذلكَ تقول يا ابن عباس؟! فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَه له؛ قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلِك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول [رواه البخاري]. وعن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعِيَتْ إليَّ نفسي» بأنه مقبوض في تلك السنة. [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر]. وقال مجاهد والضحاك وغير واحد: إنها أجلُ رسول الله ﷺ نُعِي إليه.

والذي فَسَّرَ به بعض الصحابة من جلساء عمر معنى مليح صحيح، وقد ثَبَتَ له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات. وعن عائشة قالت: كان ﷺ يُكْثِرُ أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأوَّل القرآن [متفق عليه]. والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولًا واحدًا.

تفسير سورة تبت

وهي مكية، [وعدد آياتها (٥) آيات].

الآية (١-٥): [سبب النزول]: عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خَرَج إلى البطحاء، فصَعَد الجبل فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حَدثتكم أن العدوّ مُصبِّحُكم أو مُمَسِّيكم، أكنتم تصدقوني؟». قالوا: نعم. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تبًّا لك. فأَنزَلَ الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها [رواه البخاري]. الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه.

أبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العُزّى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عُتبة. وإنما سمي «أبا لهب» لإشراق وجهه، وكان كثير الأَذِيَّة لرسول الله ﷺ والبُغْضَة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه. قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ أي: خَسِرَتْ وخابتْ، وضَلَّ عملُه وسعيُه، ﴿وَتَبَّ﴾ أي: وقد تَبَّ: تحقَّقَ خسارته وهلاكه. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني: ولده. وَرُوي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله. وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لَـمَّا دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقًّا، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأَنزَل الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾. وقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ذات شَرَر ولهيب وإحراق شديد. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَونًا عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ يعني: تَحْمِل الحَطَب فتُلْقِي على زوجها، ليَزْداد على ما هو فيه، وهي مُهَيَّأة لذلك مستعدَّة له. ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال مجاهد وعروة: من مَسد النار. قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لَأُنْفِقَنَّها في عداوة محمد، يعني: فأَعْقَبَها الله بها حَبْلًا في جِيدِها من مَسَدِ النار. وعن الشعبي قال: المَسَد: اللِّيف. وقال مجاهد: طوق من حديد. وقال بعض أهل العلم: أي: في عنقها حبل في نار جهنم تُرفَع به إلى شَفِيرها، ثم يُرمَى بها إلى أسفلها، ثم كذلك دائمًا.

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية، [وعدد آياتها (٤) آيات].

ذكر سبب نزولها وفضلها: عن أبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...﴾ [رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني]. وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن» [رواه البخاري].

الآية (١-٤): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نَظِيرَ له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ قد قال الحافظ الطبراني بعد إيراده كثيرًا من الأقوال في تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: «وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ؛ فهو الذي يُصمَد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سُؤْدَدُه[1]، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه». وقال البيهقي نحو ذلك.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يعني: لا صاحبة له. وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه.

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان، [وعدد آياتهما (الفلق (٥)، والناس (٦) آيات].

[فضل المعوذتين]: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آيات أُنزلَت هذه الليلة لم يُرَ مثلهنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾» [رواه مسلم].

وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يَقْرَأ على نفسه بالمعوذتين ويَنْفُث، فلمَّا اشتدَّ وَجَعه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسحُ بيده عليه، رجاءَ بركتها [رواه البخاري].

[سورة الفلق]:

الآية (١-٥): عن جابر وابن عباس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾: الصُّبح. ورُوي عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة مثل هذا. قال ابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]. وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شَرِّ جميع المخلوقات. وقال ثابت البُناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته ممَّا خَلَق. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال مجاهد: غاسق: الليل، إذا وَقَبَ: غُروبُ الشمس. وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخُصَيف والحسن وقتادة: إنه الليل إذا أَقْبَل بظلامه. وقال الزهري: الشمس إذا غَرَبَتْ. وعن عطية وقتادة: إذا وَقَب الليل: إذا ذَهَب. وقال أبو هريرة: كوكب. وقال ابن زيد: كانت العَرَب تقول: الغَاسِق سقوط الثُّريَّا، وكانت الأسقام والطواعين تكْثُر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما روي عن أبي سلمة قال: قالت عائشة: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين يطلع، وقال: «تَعوَّذِي بالله من شَرِّ هذا؛ فإن هذا الغاسق إذا وَقَب» [رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني].

قال أصحاب القول الأول- وهو أنه الليل إذا وَلَج-: هذا لا يُنَافي قولنا؛ لأن القَمَر آيةُ الليل، ولا يُوجَد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تُضِيء إلا في الليل، فهو يَرجِع إلى ما قلناه، والله أعلم.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني: السواحر، قال مجاهد: إذا رَقَينَ ونَفَثْنَ في العقد.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وفي الحديث: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: اشتكيتَ يا محمد؟ فقال: «نعم». فقال: باسم الله أَرْقِيكَ، من كل داء يُؤْذِيك، ومن شَرِّ كل حاسِدٍ وعَين، الله يشفيك [رواه مسلم]. ولعل هذا كان من شكواه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين سُحِر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، وردَّ كَيد السحرَة الحُسَّاد من اليهود في رؤوسهم، وجَعَل تَدمِيرهم في تدبيرهم، وفَضَحَهم، ولكن مع هذا لم يُعَاتِبه[2] رسول الله ﷺ يومًا من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

[سورة الناس]:

الآية (١-٦): هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والمُلْك، والإلهية؛ فهو ربُّ كلِّ شيء ومَلِيكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له. فأَمَر المستعيذ أن يَتَعَوَّذ بالمُتَّصِفِ بهذه الصفات ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ وهو الشيطان المُوَكَّل بالإنسان؛ فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَيِّن له الفواحش، ولا يَألُوه جُهْدًا في الخَبَال. والمعصوم من عَصَمه الله، وقد ثَبَتَ: «ما منكم من أحد إلا قد وُكِّل به قرينُه». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» [رواه مسلم]، وعن أنس قال: قال رسول الله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» [رواه مسلم، وهو في البخاري من حديث صفية].

وقال ابن عباس: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾: الشيطان جاثم على قَلْب ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَلَ وَسْوَسَ، فإذا ذَكَرَ الله خَنَس. وكذا قال مجاهد وقتادة. ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: هل يختص هذا ببني آدم -كما هو الظاهر- أو يَعُمُّ بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دَخَلوا في لفظ الناس تغليبًا. وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم «رجَالٌ منَ الجنَ» فلا بِدْعَ في إطلاق الناس عليهم.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم بينهم فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ وهذا يقوي القول الثاني. وقيل قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ تفسير للذي يُوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إليَّ من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» [رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر].

آخر التفسير، ولله الحمد والمنة.

---

(١) انتهى سؤددُه أي: كَمُلَ وبلغ منتهاه.

(٢) أي لم يعاتب الرسولُ ﷺ لبيدَ بن الأعصم اليهودي الذي سحره.